(الجزء الحادي عشر)
من تاريخ الكامل
للعلامة ابن الاثير
الجزري

﴿فهرسة الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(الجزء الحادى عشر)

من تاريخ الكامل للعلامة أبى الحسن على بن
أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن
الاثير الجزرى الملقب
بعز الدين رحمه الله
آمين

وبهامش هذا الجزء روضة المناظر فى أخبار الاوائل والاواخر
للعلامة أبى الوليد محمد بن الشحنه لازال مغمورا فى بحار الفضل والمنه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ذكر حصر المسترشد بالله الموصل﴾

فى هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد بالله مدينة الموصل فى العشرين من شهر رمضان وسبب ذلك ماتقدم من قصة الشهيد زنكى ببغداد على ماذكرناه قبل فلما كان الآن قصد جماعة من الامراء السلجقية باب المسترشد بالله وصار وامعه فقوى بهم واشتغل السلاطين السلجقية بالخلف الواقع بينهم فارسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفراينى الواعظ الى عماد الدين زنكى برسالة فيها خشونة زادها أبو الفتوح زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة فقبض عليه عماد الدين زنكى واهانه ولقيه بما يكره فارسل المسترشد بالله الى السلطان مسعود يعرفه الحال الذى جرى من زنكى ويعلمه انه على قصد الموصل وحصرها وتمادت الايام الى شعبان فسار عن بغداد فى النصف منه فى ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها اتابك زنكى فى بعض عسكره وترك الباقى بها مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم فى دولته وأمرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيق على من بها واما عماد الدين فانه سار الى سنجار وكان يركب كل ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى ظفر باحد من العسكر أخذه ونكل به وضاقت الامور بالعسكر أيضا وتواطأ جماعة من الجصاصين بالموصل على تسليم البلد فسعى بهم فأخذوا وصلبوا وبقى الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشئ ولا بلغه عمن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائدا الى بغداد فقيل ان نصرا الخادم وصل اليه من عسكر السلطان وابلغه عن عسكر السلطان مسعود ما أوجب مسيره وعوده الى بغداد وقيل بلغه ان السلطان مسعودا عزم على قصد بغداد فعاد بالجملة وانه رحل عنها منحدرا فى شبارة فى دجلة فوصل الى بغداد يوم عرفة

﴿ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة﴾

وفى هذه السنة أيضا فى شوال ملك شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها وهى لاتابك زنكى بن اقسنقر أخذها من تاج الملوك كما ذكرنا ولما ملك شمس الملوك قلعة بانياس أقام بدمشق الى شهر رمضان من هذه السنة وسار الى حماه فى العشر الاخير

منه

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين فتبارك الله أحسن الخالقين وصلى الله على سيدنا محمد أشرف الرسل وأكرم الخلق الفائز فى كل جود على كل موجود بقصب السبق وعلى آله الكرام وأصحابه مصابيح الظلام (وبعد فيقول) الفقير الى رحمة ربه القدير أبو الوليد محمد ابن الشحنة الحنفى عامله الله بلطفه الخفى التمس منى من تعين على اجابتى لسؤاله ومبادرتى الى تحقيق مقاصده وآماله أن أجمع له كتابا فى التاريخ وجيز الالفاظ والمبانى أنيق الفحاوى والمعانى فاصغيت لمقاله استماعا ووجهت ركائب همتى لمطلبه سراعا وشرعت فى جمع هذا الكتاب امتثالا لامره حيث هو الصواب لان التاريخ باب حسن من العلم ذو مصراعين مفصلين حسن التدبير لمن طرقهما محاسين وجعلت له مفتاحا وخاتمة أما المفتاح فهو فى ابتداء خلق السموات والارض وما فيهما من عجائب خلق الله تعالى وأما المصراع الاول ففى مدة مابين

منه وسبب طمعه انه بلغه ان المسترشد بالله يريد ان يحصر الموصل فطمع وكان الوالى بحماة قد سمع الخبر فحصن واستكثر من الرجال والذخائر ولم يبق أحد من أصحاب شمس الملوك الا وأشار عليه بترك قصدها لقوة صاحبها فلم يسمع منهم وسار اليها وحصر المدينة وقاتل من بها يوم العيد وزحف اليها من وقته فحصنوا منه وقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم فلما كان الغد بكر اليهم وزحف الى البلد من جوانبه فملكه قهرا وعنوة وطلب من به الامان فامنهم وحصر القلعة ولم تكن فى الحصانة والعلو على ماهى اليوم فان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا فى سنين كثيرة فلما حصرها عجز الوالى بها عن حفظها فسلمها اليه فاستولى عليها وعلى مابها من ذخائر وسلاح وغير ذلك وسار منها الى قلعة شيزر وبها صاحبها من بنى منقذ فحصرها ونهب بلدها فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله اليه فعاد عنه الى دمشق فوصل اليها فى ذى القعدة من السنة المذكورة

﴿ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجى﴾

وفى هذه السنة عبر الى الشام جمع كثير من التركمان من بلاد الجزيرة وأغاروا على بلاد طرابلس وغنموا وقتلوا كثيرا فخرج القمص صاحب طرابلس فى جموعه فانزاح التركمان من بين يديه فتبعهم فعادوا اليه وقاتلوه فهزموه وأكثروا القتل فى عسكره ومضى هو ومن سلم معه الى قلعة بعرين فتحصنوا فيها وامتنعوا عن التركمان فحصرهم التركمان فيها فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارسا من أعيان أصحابه سرا فنجوا وساروا الى طرابلس وترك الباقين فى بعرين يحفظونها فلما وصل الى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير وأشرف الفرنج على الهزيمة فجمعوا نفوسهم وعادوا على حمية الى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم الى وسط بلادهم فعادوا عنهم راجعين

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون وصعدوا اليه وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم وفيها وقع الخلف بالشام فقاتل بعضهم بعضا ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل بينهم جماعة وفيها فى جمادى الآخرة أغار الامير سوار مقدم عسكر زنكى بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير فخرج اليه الفرنج فى جموع كثيرة فقاتلوه فظفر بهم وأكثر القتل فيهم وكان عدة القتلى نحو ألف قتيل وعاد سالما وفيها تاسع ربيع الآخر وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جده طغدكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه شيأ وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك فاخذوه وقرروا الذى حمله على مافعل فقال أردت اراحة المسلمين من شرك وظلمك ولم يزل يضرب حتى أقر على جماعة انهم وضعوه على ذلك فقتلهم شمس الملوك بغير تحقيق وقتل معهم اخاه سونج فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه وفيها توفى الشيخ أبو الوفاء الفارسى وكان له جنازة مشهودة حضرها أعيان بغداد وفيها فى رجب توفى القاضى أبو العباس أحمد بن سلامة بن عبد الله بن مخلد المعروف بابن الرطبى الفقيه الشافعى قاضى الكرخ وتفقه على أبى اسحق وأبى نصر بن الصباغ وسمع الحديث ورواه وكان قريبا من الخليفة يؤدب أولاده وتوفى أبو الحسين على بن عبد الله بن نصر المعروف بابن الزاغونى الفقيه الحنبلى الواعظ وكان ذا فنون توفى فى المحرم وتوفى على بن

هبوط آدم عليه السلام الى هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبينهما على الارجح ٣ سنة آلاف سنة ومائتان وست عشرة سنة ونقصها المنجمون عن ذلك مائتى سنة وتسعا وأربعين سنة وأما المصراع الثانى فمنها الى آخر مدة يقدر الله ان يترجم عنها نذكر فيها مشاهير الناس على أصنافهم وما اشتهر من الحوادث الغريبة فيهم وأما الخاتمة فهى مشتملة على ماهو كالعيان مما يكون آخر الزمان (وسميته) روضة المناظر فى أخبار الاوائل والاواخر والله المأمول فى تحريره واتمامه مع حسن ترتيبه وبديع انتظامه وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب (المفتاح) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الله ولا شئ معه والراجح ان أول شئ خلقه الله اللوح ثم القلم وكتب فيه ماهو كائن الى يوم القيامة ثم خلق درة بيضاء صيرها ماء وجعل عرشه على الماء ثم خلق كرسيه ثم خلق الهواء ثم الارواح * قال كعب الاحبار أول ماخلق الله الارواح ثم حملة العرش ملائكة أربعة أحدهم اسرافيل وهو أقرب الملائكة ويمدهم يوم القيامة بأربعة أخرى فيحمل عرش ربك يومئذ ثمانية وتتابع خلق الملائكة وماشاء الله مما لايعلمه الا هو ثم لما أراد الله سبحانه وتعالى خلق السموات والارض خلق جوهرة بيضاء ونظر اليها نظر هيبة فذابت وعلت وصعد لها

يعلى بن عوض بن القاسم الهروى كان واعظا وله بخراسان قبول كثير وسمع الحديث فاكثر ومحمد ابن أحمد بن على أبو عبد الله الحرانى وهو من أولاد محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وكان محمد يلقب بالديباج لحسنه وأصله من مكة وهو من أهل نابلس وكان مغاليا فى مذهب الاشعرى وكان يعظ توفى فى صفر وفيها توفى أبو فليتة أمير مكة وولى الامارة بعده ابنه القاسم وفيها توفى العزيز بن هبة الله بن على الشريف العلوى الحسينى فجأة بنيسابور وكان جده نقيب النقباء بخراسان وعرض على العزيز هذا نقابة العلويين فامتنع وعرض عليه وزارة السلطان فامتنع ولزم الانقطاع والاشتغال بامر آخرته وفيها توفى قاضى قضاة خراسان أبو سعيد محمد بن أحمد بن صاعد وكان خيرا صالحا

﴿ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك شمس الملوك شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج﴾

فى هذه السنة فى المحرم سار شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق منها الى شقيف تيرون وهو فى الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادى التيم قد تغلب عليه وامتنع به فحاماه المسلمون والفرنج يحتمى على كل طائفة بالآخرين فسار شمس الملوك اليه فى هذه السنة وأخذه منه فى المحرم وعظم أخذه على الفرنج لان الضحاك كان لا يتعرض الى شئ من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى بلد حوران فخربوا أمهات البلد ونهبوا أماكنهم نهبة وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون جمع هو أيضا وحشدوا وحضر عنده جمع كثير من التركمان وغيرهم فنزل بازاء الفرنج وجرت بينهم مناوشة عدة أيام ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقى قبالة الفرنج وهم لا يشعرون وقصد بلادهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد فنهب وخرب وأحرق وسبى النساء والذرية وامتلأت أيدى من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا فى الحال لا يلوى أخ على أخيه وطلبوا بلادهم واما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذى سلكه الفرنج فوصل سالما ورأى الفرنج بلادهم خرابا ففت فى أعضادهم وتفرقوا وراسلوا فى تجديد الهدنة فهادنهم شمس الملوك فى ذى القعدة للسنة

﴿ذكر عود الملك طغرل الى الجبل وانهزام الملك مسعود﴾

فى هذه السنة عاد الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها وأجلى عنها أخاه السلطان مسعودا وسبب ذلك ان مسعودا لما عاد من حرب أخيه طغرل بلغه عصيان داود ابن أخيه السلطان محمود باذربيجان فسار اليه وحصره بقلعة روئين دز وكان فتحصن بها واشتغل بحصره فجمع الملك طغرل العساكر واستمال بعض قواد مسعود ولم يزل يفتح البلاد فكثرت عساكره وقصد مسعودا فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه فلما تراءى العسكران فارق مسعودا من أمرائه من كان قد استماله طغرل فبقى فى قلة من العسكر فولى منهزما أواخر رمضان وأرسل الى المسترشد بالله فى القدوم لبغداد فاذن له وكان نائبه باصبهان البقش السلاحى ومعه الملك سلجوق شاه فلما سمع بانهزام مسعود قصد بغداد أيضا فنزل سلجوق شاه بدار السلطان فاكرمه الخليفة وانفذ اليه عشرة آلاف دينار ثم قدم مسعود بغداد وأكثر أصحابه ركاب جمال لعدم ما يركبونه ولقى فى طريقه شدة فارسل اليه الخليفة الدواب والخيام والآلات وغيرها من الاموال والثياب فدخل الدار السلطانية ببغداد منتصف شوال وقام طغرل بهمذان

دخان فخلق من الزبد الارض ومن الامواج الجبال ومن الدخان السموات وجعل مدة خلق ذلك فى ستة أيام ليصير الثانى فيهما طبعا يوما المادة الارض ويوما الصورتها ويوما المادة السماء ويوما الصورتها ويومين لكمالاتهما ثم خلق الكواكب والنفوس وغير ذلك وكان ابتداء ذلك يوم الاحد الى يوم الجمعة وسمى يوم الجمعة لاجتماع تكامل أصول الخلق فيه وأقرب ما رويناه من ترتيب ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خلق الله الارض يوم الاحد والاثنين والجبال وما فيهما من المنافع يوم الثلاثاء والشجر والنبات يوم الاربعاء وخلق السماء يوم الخميس والشمس والقمر والنجوم والملائكة يوم الجمعة ثم فتق الله السماء سبعا طباقا بعضها فوق بعض وأقرب ما بلغنا ان سماء الدنيا من زمردة خضراء والثانية من فضة بيضاء والثالثة من درة بيضاء والرابعة من ياقوتة حمراء والخامسة من ذهب أحمر والسادسة من ياقوتة صفراء والسابعة من نور يتلألأ وفى هذه السموات السبع من الخلائق ما لا يعلمه الا الله وفوقها بحار النور سبعة وبحار الحجب سبعة مضاعفة الى ما لا نهاية له والكل مشحون بالملائكة على أصنافهم ومراتبهم وفوق ذلك الجنان أولها دار الجلال من اللؤلؤ الابيض وثانيها دار السلام من الياقوت

﴿ذكر حصر أتابك زنكى آمد وملكه قلعة الصور﴾

فى هذه السنة اجتمع أتابك زنكى وتمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمد فحصراها فارسل صاحبها الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها فالتقوا على باب آمد وتصافوا فى جمادى الآخرة فاقتتلوا فانهزم داود وعاد مفلولا وقتل جماعة من عسكره وأقام زنكى وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعثا البلد ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض فقصد زنكى قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها فملكها فى رجب من هذه السنة واتصل به ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوثى فاستوزره زنكى وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محبا للخير

﴿ذكر ملك زنكى قلاع الاكراد الحميدية﴾

فى هذه السنة استولى عماد الدين زنكى على جميع قلاع الاكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما وكان لما ملك الموصل أقر صاحبها الامير عيسى الحميدى على ولايتها واعمالها ولم يعترضه على شئ مما هو بيده فلما حضر المسترشد الى الموصل حضر عيسى هذا عنده وجميع الاكراد عنده فاكثر فلما رحل المسترشد عن الموصل أمر زنكى ان تحصر قلاعهم فحصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان ملكت هذه السنة فاطمأن اذا أهل السواد المجاورون لهؤلاء القوم فانهم كانوا معهم فى ضائقة كبيرة من نهب أموالهم وخراب البلاد

﴿ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشى﴾

وحكى عن بعض العلماء من الاكراد ممن له معرفة بأحوالهم ان أتابك زنكى لما ملك قلاع الحميدية وأجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة أشب والجزيرة ونوشى فأرسل الى أتابك زنكى من استحلفه له وحمل اليه مالا وحضر عند زنكى بالموصل فبقى مدة ثم مات فدفن بتل توبة ولما سار عن أشب الى الموصل أخرج ولده أحمد بن أبى الهيجاء منها خوفا ان يتغلب عليها وأعطاه قلعة نوشى وهذا أحمد هو والد على بن أحمد المعروف بالمشطوب من أكابر أمراء صلاح الدين بن أيوب بالشام ولما أخرجه أبوه من أشب استناب بها كرديا يقال له باو الارجى فلما مات أبو الهيجاء سار ولده أحمد من نوشى الى أشب ليملكها فمنعه باو وأراد حفظها للولد صغير لابى الهيجاء اسمه على فسار زنكى بعسكره فنزل على أشب وملكها وسبب ملكها ان أهلها نزلوا كلهم الى القتال فتركهم زنكى حتى قاربوه واستجرهم حتى أبعدوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا فوضع السيف فيهم فأكثر القتل والاسر وملك زنكى القلعة فى الحال وأحضر جماعة من مقدمى الاكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها الى الموصل ثم سار عنها ففى غيبته أرسل نصير الدين جقر نائب زنكى وخرب أشب وخلى كهيجة ونوشى وقلعة الجلاب وهى قلعة العمادية وأرسل الى قلعة الشعبانى وفرح وكوشر والزعفران وألقى وسروة وهى حصون المهرانية فحصرها فملك الجميع واستقام أمر الجبل والزوزان وأمنت الرعايا من الاكراد وأما باقى قلاع الهكارية جبل صور وهرور والملاسى ومابرما وباخوخا وباكزا ونسباس فان قراجا صاحب العمادية فتحها من مدة طويلة بعد قتل زنكى وهذا قراجا كان أميرا قد أقطعه زين الدين على بلد الهكارية بعد قتل زنكى ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته ههنا وحكى غيره هذا بعض فضلاء الاكراد وخالف فيه فقال ان زنكى لما فتح قلعة أشب وخربها وبنى قلعة العمادية ولم يبق فى الهكارية الا صاحب جبل صور وصاحب هرور ولم يكن لهما شوكة يخاف منها عاد الى الموصل فخافه أصحاب

الاحمر وثالثها جنة المأوى من الزبرجد الاخضر ورابعها جنة الخلد من المرجان الاحمر وخامسها جنة النعيم من الفضة البيضاء وسادسها جنة الفردوس من الذهب الاحمر وسابعها جنة عدن من الدر مشرفة على سائر الجنان وسقفها عرش الرحمن قد أعد الله سبحانه فيها لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهى الدار الآخرة وهى وجه الله الذى لا يبيد ولا يفنى (أما الدنيا) فهى السموات والارض والبيت المعمور منها فى السادسة أو الاولى حيال الكعبة وهو الذى بناه آدم ورفع فى الطوفان واسمه الضراح وليس المراد بسماء الدنيا الا السماء القريبة لا سماء الدار الدنيا فالاضافة فيها كهى فى مسجد الجامع وقد سمت الحكماء هيكل السماء فلكا وزادوا فلكين آخرين وقالوا سماء الدنيا فلك القمر والثانية فلك عطارد والثالثة فلك الزهرة والرابعة فلك الشمس والخامسة فلك المريخ والسادسة فلك المشترى والسابعة فلك زحل وهذه الانجم هى السبعة السيارة وأما الثوابت فهى اثنا عشر تسمى بروجا وهى منقسمة على ثمانية وعشرين نجما تسمى المنازل وهى اجرام لا أرواح فيها على الصحيح قالوا والفلك الثامن فلك هذه الكواكب الثابتة وسيره من المشرق الى المغرب وسير الافلاك السبعة على عكس ذلك من المشرق

الى المغرب قالوا والفلك التاسع فلك الافلاك ويسمى الفلك الاعظم والفلك الاطلس لانه لا كوكب فيه قال ابن الاثير

القلاع الجبلية فاتفق ان عبد الله بن عيسى بن ابراهيم صاحب الربية وألقى وفرح وغيرها توفى وملكها بعده ولده على وكانت والدته خديجة بنت الحسن أخت ابراهيم وعيسى وهما من الامراء مع زنكى وكانا بالموصل فأرسلها ولدها على الى أخويها وطلبا له الامان من زنكى وحلفا له فقبل ونزل الى خدمة زنكى وأقره على قلاعه واشتغل زنكى بفتح قلاع الهكارية وكان الشعبانى بيد أمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فأخذه منه وقربه منه لكبره وقلة اعماله وكان نصير الدين جقر يكره عليا صاحب الربية وغيرها فحسن لزنكى القبض عليه فأذن له فى ذلك فقبض عليه ثم ندم زنكى على قبضه فأرسل الى نصير الدين ان يطلقه فرآه قد مات قيل ان نصير الدين قتله ثم أرسل العسكر الى قلعة الربية فنازلوها بغتة فملكوها فى ساعة وأسروا كل من بها من ولد على واخوته وأخواته وكانت والدة على خديجة غائبة فلم توجد فلما سمع زنكى الخبر بفتح الربية سره وأمر ان تسير العساكر الى باقى القلاع التى لعلى فسارت العساكر فحصروها فرأوها منيعة فراسلهم زنكى ووعدهم الاحسان فأجابوه الى التسليم على شرط ان يطلق كل من فى السجن منهم فلم يجبهم الى ذلك الا ان يسلموا أيضا قلعة كواشى فمضت خديجة والدة على الى صاحب كواشى واسمه خول وهرون وهو من المهرانية فسألته النزول عن كواشى فأجابها الى ذلك وتسلم زنكى القلاع وأطلق الاسرى فلم يسمع بمثل هذا فقال ينزل من مثل كواشى لقول امرأة فاما ان يكون أعظم الناس مروءة لا يرد من دخل بيته وأما ان يكون أقل الناس عقلا واستقامت ولاية الجبال

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة أوقع الدانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيرا منهم وفيها اصطلح الخليفة وأتابك زنكى وفيها فى ربيع الاول عزل أنوشروان بن خالد عن وزارة الخليفة وفيها توفيت أم المسترشد بالله وفيها سير المسترشد عسكرا الى تكريت يحصروا مجاهد الدين بهروز فصانع عنها بمال فعادوا عنه وفيها اجتمع من العساكر السنجرية مع الامير أرغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان وهى للاسماعيلية وضيقوا على أهلها وطال حصرها وعدمت عندهم الاقوات فأصاب أهلها تشنج وكزاز وعجز كثير منهم عن القيام فضلا عن القتال فلما ظهرت امارات الفتح رحل الامير أرغش فقيل انهم حملوا اليه مالا كثيرا واعلاقا نفيسة فرحل عنهم وفيها توفى الامير سليمان بن مهارش العقيلى أمير بنى عقيل وولى الامارة بعده أولاده مع صغر سنهم وطيف بهم فى بغداد رعاية لحق جدهم مهارش فانه هو الذى كان الخليفة القائم بأمر الله عنده لما فعل به البساسيرى ما ذكرنا وفيها توفى الفقيه أبو على الحسن بن ابراهيم بن فرهون الشافعى الفارقى ومولده سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وتفقه على أبى عبد الله الكازرونى فلما توفى الكازرونى انحدر الى بغداد وتفقه على أبى اسحق الشيرازى وأبى نصر الصباغ وولى القضاء بواسط وكان خيرا فاضلا لا يوارى ولا يحابى أحدا فى الحكم وفيها توفى عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسن وأبو محمد بن أبى بكر الفقيه الشافعى تفقه على أبيه وكان يعظ ويكثر فى كلامه من التجانس فمن ذلك قوله أين القدود العالية والخدود الوردية مثلت بها والله العافية والوردية وهما مقبرتان بنهر معلى ومن شعره

الدمع دما يسيل من أجفانى * ان عشت مع البكا فما أجفانى
هجنى شجنى وهمنى همانى * العاذل بالملام قد سمانى

وهذا الفلك هو الذى يسير من المشرق الى المغرب والباقية بالعكس ولله در القائل

أنحوكم ويردوجهى القهقرى * عنكم فسيرى مثل سير الكوكب
فالقصد نحو المشرق الاقصى لكم * والسير رأى العين نحو المغرب

واجرام السموات شفافة من شدة صفائها فلذلك ترى الكواكب السبعة كلها من السماء الدنيا والقمر نوره من نور الشمس وبسبب ذلك يزيد وينقص ويكون الخسوف والكسوف قال وهب خلق الله الشمس من نور عرشه والقمر من حجابه وقال كعب يؤتى بهما يوم القيامة فيقذفان فى النار وأنكر ذلك ابن عباس رضى الله عنهما قال على رضى الله عنه والمجرة باب فى السماء منه تنزل الملائكة ومنه نزل الماء فى الطوفان والدنيا كلها سمواتها وأراضيها وكل ما فى ذلك كرة واحدة مثل حبة خردل فى جوف الكرسى ونسبة الكرسى الى العرش كذلك فسطح هذه الكرة من كل جوانبها هو فوق وما فوقها أعلى عليين من أى جهة فرضته لهذه الكرة وأعلاها هو الفلك الاعظم وأسفل منه الفلك الذى

والذكر

بليه وهلم جرا الى سماء الدنيا المحيطة بكرة الارض من كل جوانبها غير متصلة بشئ منها بل هى واقفة فى الهواء باذن

والذكر لهم يزيد فى أشجانى * والنوح مع الحمام قد أشجانى
ضاقت بيعاد منيتى أعطانى * والبين بيد الهموم قد أعطانى

وفيها توفى بن أبى الصلت الشاعر ومن شعره يذم ثقيلا

لى صديق عجبت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله
أنا أرعاه مكرما وبقلبى * منه ما يتلف الجبال أقله
هو مثل المشيب أكره رؤيا * ه ولكن أصونه وأجله

وله أيضا

ساد صغار الناس من عصرنا * لا دام من عصر ولا كانا
كالدست مهما هم أن ينقضى * صار به البيدق فرزانا

وفيها توفى محمد بن على بن عبد الوهاب أبو رشيد الفقيه الشافعى من أهل طبرستان وسمع الحديث أيضا ورواه وكان زاهدا عابدا أقام بالجزيرة وهى جزيرة ابن عمر سنين منفردا يعبد الله سبحانه وتعالى وعاد الى آمل وقبره بها

﴿ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلاد الجبل﴾

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود الى بغداد منهزما من أخيه الملك طغرل وان الخليفة أكرمه وحمل اليه ما يحتاج اليه مثله وأمره بالمسير الى همذان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل فى السلطنة والبلاد ومسعود يعد ويدافع الايام والخليفة يحثه على ذلك ووعده أن يسير معه بنفسه وأمر أن يبرز خيامه الى باب الخليفة وكان قد اتصل الامير البقش السلاحى وغيره من الامراء بالخليفة وطلبوا خدمته فأجابهم وصاروا معه واتفق ان انسانا أخذ فوجد معه ملطفات من طغرل الى هؤلاء الامراء بالاقطاع لهم فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم اسمه غلبك ونهب ماله فاستشعر غيره من الامراء الذين مع الخليفة فهربوا الى عسكر السلطان مسعود فارسل الخليفة اليه فى اعادتهم اليه فلم يفعل واحتج بأشياء فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرة ووحشة أوجبت تأخره عن المسير معه وأرسل اليه يلزمه بالمسير معه أمرا جزما فبينما الامر على هذا اذ جاءه الخبر بوفاة أخيه طغرل وكانت وفاته فى المحرم من هذه السنة وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة فى المحرم وكان خيرا عاقلا عادلا قريبا الى الرعية محسنا اليهم وكان قبل موته قد خرج من داره يريد السفر لقتال أخيه مسعود فدعا له الناس فقال ادعوا بخير للمسلمين ولما توفى ووصل الخبر الى مسعود سار من ساعته نحو همذان وأقبلت العساكر جميعها اليه واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد وكان قد خرج صحبته هو وأهله ووصل مسعود الى همذان واستولى عليها وأطاعته البلاد جميعها وأهلها

﴿ذكر قتل شمس الملوك وملك أخيه﴾

فى هذه السنة رابع عشر ربيع الآخر قتل شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك بورى بن طغدكين صاحب دمشق وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم فى أعمال البلد وبالغ فى العقوبات لاستخراج الاموال وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث انه لا يأنف من أخذ الشئ الحقير بالعدوان الى غير ذلك من الاخلاق الدنيئة وكرهه أهله وأصحابه ورعيته ثم انه ظهر عنه أنه كاتب عماد الدين زنكى أنه يسلم اليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول وأخلى

ربها واختلفت الحكماء فى السبب المقتضى لذلك فقال بعضهم جذب الفلك لها من كل جهة على السواء وقال بعضهم جذب مركزها كذلك وقال بعضهم بل تساوى الدفع منهما والحق أنه باذن الله تعالى لا بخصوصية الموضع اللائق بها ويطرد ذلك فى كل ذلك وكرة الارض بجبالها وبحارها طباق سبعة بعضها فى جوف بعض على سطح العليا منهن بنو آدم وملائكة الارض وما أشبه ذلك ولا فى من الحيوان والنبات وخفيف الجان وفى الارض التى أسفل منها وهلم جرا الى السابعة من خلق الله ما لا يعلمه الا الله برا وبحرا فالاسفل جوف الارض السابعة كما ان الاعلى فوق السماء السابعة وأسفل من جوف الارض السابعة بحار الظلمة سبعة مضاعفة الى ما لا يعلمه الا الله تعالى وأسفل من ذلك جهنم طباق سبعة هى أسفل السافلين وكرة الارض غائصة فى بحارها المحيطة بها كالبيضة فى الماء فقليلها بارز وعلى ذلك القليل انهار عذبة وجبال ونبات وحيوان لا يعلم جملتها الا الله تعالى على اختلاف أجناسها وأنواعها وهذه البقعة السابعة من الارض كانت تتحرك فاسكنها الله بجبل قاف محيطا بها والجبال كلها عروقه وأول ما ظهر من الجبال أبو قبيس

المدينة من الذخائر والاموال ونقل الجميع الى صوبه وتابع الرسل الى زنكى يحثه على الوصول اليه يقول له ان أهملت المجىء سلمت البلد الى الفرنج فسار زنكى فظهر الخبر بذلك فامتعض أصحاب أبيه وجده وأقلقهم وذكروا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الامر ثم انها ارتقبت الفرصة فى الخلوة من غلمانه فلما رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقتل وأمرت بالقائه على موضع فى الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه فلما رأوه قتيلا سروا بمصرعه وبالراحة من شره وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة وقيل كان سبب قتله ان والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز وكان متمكنا منه ماكنا فى دولته ثم فى دولة شمس الملوك بعده فاتهم بام شمس الملوك ووصل الخبر اليه بذلك فهم بقتل يوسف فهرب منه الى تدمر وتحصن بها وأظهر الطاعة لشمس الملوك فاراد قتل أمه فبلغها الخبر فقتلته خوفا منه والله أعلم ولما قتل ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك وحلف له الناس واستقر له الملك بعده والله أعلم

﴿ذكر حصر أتابك زنكى دمشق﴾

فى هذه السنة حصر أتابك زنكى دمشق ونازلها أول جمادى الاولى وسببه ما ذكرنا من ارسال شمس الملوك صاحبها اليه واستدعائه ليسلمها اليه فلما وصلت كتبه ورسله سار اليها فقتل شمس الملوك قبل وصوله ولما عبر الفرات أرسل اليه رسلا فى تقرير قواعد التسليم فرأوا الامر قد فات الا انهم أكرموا وأحسن اليهم وأعيدوا باجمل هيئة وعرفوا زنكى بقتل شمس الملوك وان القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين والكلمة متفقة على طاعته فلم يحفل زنكى بهذا الجواب وسار الى دمشق فنازلها وأجفل أهل السواد اليها واجتمعوا فيها على محاربته ونزل أولا شمالها ثم انتقل الى ميدان الحصى وزحف وقاتل فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاما على محاربته وقام معين الدين أنز مملوك جده طغدكين فى هذه الحادثة بدمشق قياما مشهودا وظهر من معرفته بامور الحصار والقتال وكفايته مالم يروما كان سبب تقدمه واستيلائه على الامور باسرها على ما نذكر ان شاء الله تعالى فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزرى من جزيرة ابن عمر يخلع أتابك زنكى ويأمره بصلح صاحب دمشق الملك ألب ارسلان محمود الذى مع أتابك زنكى فرحل عنها لليلتين مضين من جمادى الاولى من السنة المذكورة

﴿ذكر قتل حسن بن الحافظ﴾

قد ذكرنا سنة ست وعشرين وخمسمائة ان الحافظ لدين الله صاحب مصر استوزر ابنه حسنا وخطب له بولاية العهد فبقى الى هذه السنة ومات مسموما وسبب ذلك انه كان جريئا على سفك الدماء وكان فى نفس الحافظ على الامراء الذين أعانوا أبا على بن الافضل حقد ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه فاستوزر ابنه وأمره بذلك فتغلب على الامر جميعه واستبد به ولم يبق لابيه معه حكم وقتل من الامراء المصريين ومن أعيان البلاد جماعة حتى قيل انه قتل فى ليلة واحدة أربعين أميرا فلما رأى أبوه تغلبه عليه أخرج له خادما من خدم القصر الاكابر فجمع الجموع وحشد من الرجالة خلقا كثيرا وتقدم الى القاهرة ليقاتل حسنا ويخرجه منها فارسل له جماعة من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم وقتل الرجال الذين معه وعبر الباقون الى الجيزة فاستكان الحافظ فصير تحت الحجر ثم ان الباقين من الامراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل حسن وأرسلوا الى أبيه الحافظ وقالوا له اما انك تسلم ابنك الينا لنقتله أو نقتلكما جميعا فاستدعى

ومن الارض مكة ولذلك سميت أم القرى (روى) أنها كانت سعفة على وجه الماء يعبد الله عليها ملكان قبل خلق الارض بألفى عام وهذه الكرة التى هى كالبيضة محمولة باذن الله على ملك عظيم قدماه على صخرة من ياقوتة خضراء يحملها ثور عظيم اسمه كيوثان قوائمه على حوت عظيم اسمه يهموت قال ابن عباس ودون الحوت البحر ودون البحر جهنم وخص هذا الجانب من الكرة المشبهة بالبيضة بهذا الحمل لشرفه على سائر النواحى لسكنى بنى آدم فى الرابع المعمور منه قال الله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر وهذا الربع المعمور قسمه الذين طافوا به كافريدون النبطى وتبع الحميرى وسليمان ابن داود والاسكندر ذى القرنين واردشير بن بابك الفارسى أقاليم سبعة طولها من المشرق الى المغرب وعرضها من الشمال مدار الجدى الى الجنوب مدار سهيل وأطولها الاقليم الاول وهو عشرة آلاف ميل ومائتا ميل مقسومة على مائة وثمانين جزأ سموا الكل جزء درجة وهذا هو نصف دور الارض من أقصى بلاد الصين المشرق الى طنجة أقصى بلاد المغرب ارجل هؤلاء مقابلة لارجل أولئك وابتداؤه عرضا من ناحية الجنوب تحت معدل النهار حيث يكون الليل والنهار متساويين أبدا الى الاقليم الثانى الملاصق له

ولده اليه واحتاط عليه وأرسل الى الامراء بذلك فقالوا لا نرضى الا بقتله فرأى انه ان سلمه اليهم طمعوا فيه وليس الى ابقائه سبيل فاحضر طبيبين كان له أحدهما مسلم والآخر يهودى فقال لليهودى نريد سما نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة فقال انا لا أعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الادوية فقال انا أريد ما أخلص به من هذه المصيبة فقال له لا أعرف شيأ فاحضر المسلم وأمره بذلك فصنع له شيأ فسقاه الولد فمات لوقته فارسل الحافظ الى الجند يقول لهم انه قد مات فقالوا نريد ننظر اليه فاحضر بعضهم عنده فرأوه وظنوه قد عمل حيلة فجرحوا أسافل رجليه فلم يجر منها دم فعلموا موته ودفن حسن واحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له اخرج من عندنا من القصر وجميع مالك من الانعام والجامكية باق عليك واحضر اليهودى وقال اعلم انك تعرف ما طلبته منك ولكنك عاقل فتقيم فى القصر عندنا وكان حسن سىء السيرة ظالما جريا على سفك الدماء وأخذ الاموال فهجاه الشعراء فمن ذلك ما قال المعتمد بن الانصارى صاحب الترسل المشهور

لم تأت يا حسن بين الورى حسنا * ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب * والجور فى أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب * تيه الملوك وأخلاق المجانين

وقيل ان الحافظ لما رأى ابنه تغلب على الملك وضع عليه من سقاه السم فمات والله أعلم ولما مات حسن استوزر الحافظ الامير تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فتحكم واستعمل الارمن على الناس فاستذلوا المسلمين وسنذكر أخباره سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ان شاء الله تعالى

﴿ذكر مسير المسترشد الى حرب السلطان مسعود وانهزامه﴾

فى هذه السنة كان الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود فى شهر رمضان وسبب ذلك ان السلطان مسعودا لما سافر من بغداد الى همذان بعد موت أخيه طغرل وملكها فارقه جماعة من أعيان الامراء منهم برنقش بازدار وقزل آخور وسنقر الخمارتكين والى همذان وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم خائفين منه مستوحشين ومعهم عدد كثير ومعهم دبيس بن صدقة وأرسلوا الى الخليفة يطلبون منه الامان ليحضروا فى خدمته فقيل له انها مكيدة لان دبيسا معهم وسار وا نحو خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق فارسل الخليفة اليهم سديد الدولة ابن الانبارى بتوقيعات الى الامراء المذكورين بتطييب نفوسهم والامر بحضورهم وكان الامراء المذكورون قد عزموا على قبض دبيس والتقرب الى الخليفة بحمله اليه فبلغه ذلك فهرب الى السلطان مسعود وسار الامراء الى بغداد فى رجب فاكرمهم الخليفة وحمل اليهم الاقامات والخلع وقطعت خطبة السلطان مسعود من بغداد وبرز الخليفة فى العشرين من رجب على عزم المسير الى قتال مسعود وأقام فى الشفيعى فعصى عليه بكبه صاحب البصرة فهرب اليها فراسله وبذل له الامان فلم يعد اليه وتريث الخليفة عن المسير وهؤلاء الامراء يحسنون له الرحيل ويسهلون عليه الامر ويضعون عنده أمر السلطان مسعود فسير مقدمته الى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا ولم ينكر عليهم شيأ ثم سار الخليفة ثامن شعبان ولحق به فى الطريق الامير برسق بن برسق فبلغت عدتهم سبعة آلاف فارس وتخلف بالعراق مع اقبال خادم المسترشد بالله ثلاثة آلاف فارس وكان السلطان مسعود بهمذان فى نحو ألف وخمسمائة فارس وكان أكثر أصحاب الاطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة فتريث فى طريقه فاستصلح السلطان

من جهة الشمال وكذلك الى آخر الاقاليم فى جهة الشمال طوله أربعة آلاف وثمانون ميلا قالوا وجميع مسافة العرض الفان ومائة وأربعون ميلا وما خلف الاقاليم من جهة الجنوب عمارة قليلة متفرقة من بلاد السودان لا يعيش وراءها حيوان لشدة الحر ومن جهة الشمال من بلاد الصقالبة ويأجوج ومأجوج كذلك لشدة البرد وطول كل مدينة بعدها عن أقصى المغرب وعرضها بعدها عن خط الاستواء فالتى فى أقصى المغرب لا طول لها والتى تحت خط الاستواء لا عرض لها والتى فى الوسط طولها تسعون درجة وهى وسط الارض قالوا هو وادى سرنديب حيث هبط آدم عليه السلام وما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وسط الارض هو الكعبة فبالنسبة الى المعمور منها وما روى انه بيت المقدس فلانه المحشر والمراد بالاوسط حينئذ الاعدل كقوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وهذه الاقاليم السبعة الاقليم الرابع منها هو أعدلها وهو اقليم الانبياء والحكماء والمستولى عليه الشمس ولا هله من البروج الجوزاء ومن الكواكب عطارد وعرضه ثلثمائة ميل ومن مدنه خراسان والعراق والرى واصبهان وديار بكر والشام وبيت

مسعوداً كثرهم حتى عادوا اليه فصار وانحو خمسة عشر ألف فارس وتسلل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف وأرسل أتابك زنكي نجدة فلم يلحق وأرسل الملك داود بن السلطان محمود وهو باذربيجان الى الخليفة يشير بالميل الى الدينور ليحضر بنفسه وعسكره فلم يفعل المسترشد وسار حتى بلغ دايمرج وعبى أصحابه فجعل في الميمنة برنقش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل آخر وبرسق بن برسق وجعل في الميسرة جاولي وبرسق شراب سلار وغلبك الذي كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه ولما سمع السلطان مسعود خبرهم سار اليهم مجدا فواقعهم بدايمرج عاشر رمضان وانحازت ميسرة الخليفة الى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالا ضعيفا ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه وانهزم عسكره وأخذ هو أسيرا ومعه جمع كثير من أصحابه منهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وقاضي القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة وابن الانباري والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم وأنزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيرا فحمل الوزير وقاضي القضاة وابن الانباري وصاحب المخزن وغيرهم من الاكابر الى قلعة سرجهان وباع الباقون نفوسهم بالثمن دون الطفيف ولم يقتل في هذه المعركة أحد وهذا أعجب ما يحكى وعاد السلطان الى همذان وأمر فنودي من تبعنا الى همذان من البغاددة قتلناه فرجع الناس كلهم على أقبح حال لا يعرفون طريقا وايس معهم ما يحملهم وسير السلطان الامير بك آبه المحمودي الى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد فقبضوا جميع املاك الخليفة وأخذوا غلاتها وثار جماعة من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك ومنعوا من الخطبة وخرجوا من الاسواق يحثون التراب على رؤسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات في الاسواق يلطمن واقتتل أصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلا وهرب الوالي وحاجب الباب وأما السلطان فانه سار في شوال من همذان الى مراغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود وكان قد عصى عليه فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فترددت الرسل بين الخليفة وبين السلطان في الصلح فاستقرت القاعدة على ما نذكره ان شاء الله والله الموفق

﴿ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله﴾

لما قبض المسترشد بالله أبو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد على ما ذكرناه جعله السلطان مسعود في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود يجمع العساكر وان لا يخرج من داره فاجاب السلطان الى ذلك وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق الا أن يعود الى بغداد فوصل الخبر ان الامير قران خوان قد ورد رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلا من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عريانا وقتل معه نفر من أصحابه منهم أبو عبد الله بن سكينة وكان قتله يوم الاحد سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة وأما الباطنية فقتل منهم عشرة وقيل بل قتلوا جميعهم والله أعلم وكان عمره لما قتل ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وكانت خلافته سبعة

المقدس ويليه في الاعتدال الاقليمان الثالث والخامس فالمستولي على الثالث المريخ ولاهله من البروج العقرب ومن الكواكب الزهرة وعرضه ثلثمائة وخمسون ميلا ومن مدنه مصر والحجاز الى بلاد القيروان وطنجة والمستولي على الخامس الزهرة وله من البروج السرطان ومن الكواكب المريخ وعرضه مائتان وخمسة وخمسون ميلا ومن مدنه خوارزم وارمينية وقسطنطينية الكبرى الى بلاد الاندلس والاقاليم الباقية أهلها ناقصون عن طبيعة الافضل كالزنج والحبشة في الاولين ويأجوج ومأجوج والصقالبة في الآخرين (روى كعب الاحبار) رضي الله عنه ان الارض سكنها الجن سبعمائة ألف سنة فلما أفسدوا وسفكوا الدماء أهلكهم الله وأسكنها الملائكة ألفي سنة ثم خلق الله آدم

(المصراع الاول من الكتاب آدم عليه السلام)

أول هذا النوع الانساني يسمى آدم لانه خلق من اديم الارض خلقه الله يوم الجمعة بعد العصر آخر خلق خلقه الله في الارض من قبضة قبضت من جميعها ومكث فيها ما شاء الله ثم نقله الى السماء ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وأسكنه الجنة ضحوة ثم نام فخلق من ضلعه الايسر حواء سميت حواء لانها خلقت من شيء حي وأخرجه

عشر سنة وستة أشهر وعشرين يوما وأمه أم ولد وكان شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة وأخباره المذكورة تدل على ما ذكرناه وكان فصيحا بليغا حسن الخط ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور ولقب الراشد بالله وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة وكتب السلطان مسعود الى بك آبه الشحنة ببغداد بأن يبايع له وحضر الناس البيعة وحضر بيعته أحد وعشرون رجلا من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة وأما جمال الدولة المسترشدي فكأنه كان ببغداد في طائفة من العسكر فلما جرت هذه الحادثة عبر الى الجانب الغربي وأصعد الى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز وحلفه وصعد اليه الى القلعة

﴿ذكر مسير السلطان سنجر الى غزنة وعوده عنها﴾

في هذه السنة في ذي القعدة سار السلطان سنجر من خراسان الى غزنة وسبب ذلك انه نقل اليه عن صاحبها بهرام شاه انه تغير عن طاعته وانه قد مد يده الى ظلم الرعايا واغتصاب أموالهم وكان السلطان سنجر هو الذي ملك غزنة وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة فلما سمع هذه الاخبار المزعجة سار الى غزنة ليأخذها أو يصلحه فلما رأى الطريق أبعد أدركهم شتاء شديد البرد كثير الثلج وتعذرت عليهم الاقوات والعلوفات فشكا العسكر الى السلطان ذلك وذكروا له ما هم فيه من الضيق وتعذر ما يحتاجون اليه فلم يجب عنه بغير التقدم امامه فلما قارب غزنة أرسل بهرام شاه الى سنجر رسولا يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه فارسل اليه سنجر المقرب جوهر الخادم وهو أكبر أمير عنده ومن جملة اقطاعه مدينة الري في جواب رسالته يجيبه عن العفو عنه ان حضر عنده وعاد الى طاعته فلما وصل الى بهرام شاه أجابه الى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور عنده بنفسه وأظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيأ كثيرا وعاد المقرب جوهر ومعه بهرام شاه الى سنجر فلما قاربه سبق المقرب الى السلطان سنجر واعلمه بوصول بهرام شاه وانه بكرة غد يكون عنده وعاد المقرب الى بهرام شاه ليجيء بين يديه وركب سنجر من الغد في موكبه لتلقيه وتقدم بهرام شاه ومعه المقرب فلما عاين موكب سنجر والشتر على رأسه نكص على عقبه عائدا فامسك المقرب عنانه وقبح فعله وخوفه عاقبة ذلك فلم يرجع وولى هاربا ولم يصدق بنجاته ظنا منه ان سنجر ايأخذه ويملك بلده وتبعه طائفة من أصحابه وخواصه ولم يعرج على غزنة وسار سنجر الى غزنة فدخلها وملكها واحتوى على جميع ما فيها وجبى أموالها وكتب الى بهرام شاه يلومه على ما فعله ويحلف له انه ما أراد به شرا ولا له في بلده مطمع ولا هو ممن تلون صنيعته وتعقب حسنته معه سيئة وانما قصده لاصلاحه فاعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصل ويقول ان الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع في عوده الى الاحسان فاجابه سنجر الى ان يعيد عليه بلده وفارق غزنة عائدا الى بلاده فوصل الى بلخ في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقر ملك غزنة لبهرام شاه ورجع اليها

﴿ذكر قتل دبيس بن صدقة بالتاريخ﴾

في هذه السنة قتل السلطان مسعود دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خوي أمر غلاما أرمنيا بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الارض باصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر وكان ابنه صدقة بالحلة فاجتمع اليه عسكر أبيه ومماليكه وكثر جمعه واستأمن اليه الامير قفلغ

أهل الدنيا ثم تاب عليه يوم عاشوراء منها بين الصلاتين وكانت مدة أقامته فيها نصف نهار خمسمائة عام في عدد أيام الدنيا واهبط الى الارض هو وحواء وابليس والحية هبوطا واحدا قال كعب الاحبار هبطوا جميعا ونزلوا في بلاد متفرقة آدم بالهند وقيل بسرنديب وحواء بجدة وابليس بموضع من البصرة والحية بنصيبين وقيل باصفهان فلما حج آدم الى موضع البيت ماشيا كما أمره الله اجتمع بحواء في أعلى جبل عرفات ولذلك يسمى عرفات فولد لهما قابيل وهابيل ثم ولد لهما شيث بعد مضي مائتين وثلاثين سنة من عمره وهو وصي آدم ومعنى شيث هبة الله واليه تنتهي أنساب بني آدم كلهم وتوفي آدم وعمره تسعمائة وثلاثون سنة وكان نبيا رسولا الى بنيه وبني بنيه وكانت عدتهم عند موته أربعين ألفا منهم عمود النسب شيث وابنه أنوش وابن أنوش قينان وابن قينان مهلاييل ثم ولد لمهلاييل بعد موت آدم يرد وولد ليرد اخنوخ وهو ادريس عليه السلام ثم مات شيث وعمره تسعمائة سنة واثنتا عشرة سنة ثم ولد لاخنوخ متوشلخ ثم توفي نوش وعمره تسعمائة وخمسون سنة ثم ولد لمتوشلخ لامخ وقيل لامك وقيل لمك ورفع ادريس وعمره ثلثمائة وخمسة وستون سنة وكان نبيا انكشفت له الاسرار السماوية ونزلت عليه الصحف منها لا تروموا أن تحيطوا بالله خبرة فانه أعظم

وأعلى من ان يدركه المخلوقون الامن آثره ثم توفي قينان وعمره تسعمائة وعشرون سنة ثم ولد للامخ نوح عليه

تكين وأمر السلطان مسعود بك آبه ان يأخذ الحلة فسار بعض عسكره الى المدائن وأقاموا مدة ينتظرون لحاق بك آبه فلم يسر اليهم جبنا وعجزا عن قصد الحلة لكثرة العسكر بها مع صدقة وبقي صدقة بالحلة الى أن قدم السلطان مسعود الى بغداد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة فقصده وأصلح حاله معه ولزم باب السلطان ومثل هذه الحادثة تقع كثيرا وهو قرب موت المتعادين فان دبيسا كان يعادي المسترشد بالله ويكره خلافته ولم يكن يعلم ان السلاطين انما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقارنة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب والله أعلم بذلك

﴿ذكر حصر عسكر يحيى المهدية﴾

في هذه السنة سير يحيى بن العزيز بن حماد صاحب بجاية عسكرا فحصروا المهدية وبها صاحبها الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس وكان سبب ذلك ان الحسن أحب ميمون بن زيادة أمير طائفة كبيرة من العرب ومال اليه وأكثر الانعام عليه فحسده غيره من العرب فسار والى يحيى ابن العزيز باولادهم وجعلوهم رهائن عنده وطلبوا منه ان يرسل معهم عسكرا ليملكوا المهدية فاجابهم الى ذلك وهو متباطئ فاتفق انه وصله كتب من بعض مشايخ المهدية بمثل ذلك فوثق الى ما أتاه وسير عسكرا كثيرا واستعمل عليهم قائدا كبيرا من فقهاء أصحابه يقال له مطرف بن حمدون وكان هذا يحيى بن العزيز هو واباه يحضرون المعز بن باديس وأولاده بعده فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا على المهدية وحصروها برا وبحرا وكان مطرف يظهر التقشف والتورع عن الدماء وقال انما أتيت الآن لا تسلم البلد بغير قتال فخاب ظنه فبقي أياما لم يقاتل ثم انهم باشروا فظهر أهل المهدية عليهم وأثروا فيهم وتتابع القتال وفي كل ذلك الظفر لاهل البلد وقتل من الخارجين الجم الغفير وجمع مطرف عسكره برا وبحرا المايئس من التسليم وقاتل أشد قتال فلكت شوانيه شاطئ البحر وقربوا من السور فاشتد الامر فأمر الحسن بفتح الباب وخرج أول الناس وحمل هو ومن معه عليهم وقال أنا الحسن فلما سمع من يقاتله ذلك سلموا عليه وانهزموا عنه اجلالا له ثم أخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من الميناء فاخذ من تلك الشواني أربع قطع وهرب الباقون ثم وصلت نجدة من رجار الفرنجي صاحب صقلية في البحر في عشرين قطعة فحصرت شواني صاحب بجاية فأمرهم الحسن باطلاقها فاطلقوها ثم وصل ميمون بن زيادة في كثير من العرب لنصرة الحسن فلما رأى ذلك مطرف وان النجدات تأتي الحسن في البر والبحر علم انه لا طاقة له بهم فرحل عن المهدية خائبا وأقام رجار الفرنجي مظهرا للحسن انه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك يعمر الشواني ويكثر عددها وآلاتها

﴿ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة﴾

كانت جزيرة جربة من بلاد افريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها غيران أهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطريق فخرج اليها جمع من الفرنج أهل صقلية في اسطول كثير وجم غفير فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فوقع بين الفريقين وقعات عظيمة فثبت أهل جربة فقتل منهم بشر كثير فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لانفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم والله أعلم بذلك

السلام بعد مضى ألف وستمائة واثنين وأربعين سنة من هبوط آدم وحين بلغ عمره خمسمائة سنة ولد له سام وحام ويافث وحين بلغ عمره ستمائة سنة توفي متوشلخ عن تسعمائة وتسعة وسبعين سنة وابتدأ الطوفان فعمل السفينة فأمره الله تعالى ان يحمل فيها سام وحام ويافث ونساءهم وقيل وستة أنفس وقيل ثمانين رجلا منهم جرهم وكلهم من ولد شيث وأدخل معهم من أمره الله من الحيوان وتخلف عنه ابنه يام وكان كافرا وعلا الماء على روس الجبال خمسة عشر ذراعا ستة أشهر وعشر ليال أولها حين صار وافى السفينة عاشر رجب وهو عاشر آب أيضا وآخرها يوم عاشوراء من المحرم واستوت على الجودي من أرض الموصل (وقد أنكر الطوفان) جماعة من المجوس والهند والفرس والصين وسائر الامم الشرقية وبعض المجوس والفرس يقول انه لم يكن عاما ولم يتجاوز عقبة حلوان فجميع الناس من ولد نوح لقوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان ويافث أبو الترك و يأجوج ومأجوج والفرنج والقبط من ولد قوط بن حام وكذلك كنعان فانه كنعان بن ماريع بن حام

وقيل كنعان من ولد سام وكانت بنو كنعان بالشام الى ان غزتهم بنو اسرائيل

﴿ذكر ملك الفرنج حصن روطه من بلاد الاندلس﴾

في هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجي صاحب طليطلة مدة عشر سنين وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف صاحبها عن مقاومته لقلة جنوده وكثرة الفرنج فرأى ان يصالحه مدة يستريح فيها هو وجنوده ويعتدون للمعاودة فترددت الرسل بينهم فاستقر الصلح على ان يسلم المستنصر الى السليطين حصن روطه وهو من أمنع الحصون واحصنها فاستقرت القاعدة واصطلحوا وتسلمت منه الفرنج الحصن وفعل المستنصر فعلة لم يفعلها قبله أحد

﴿ذكر حصر ابن ردمير مدينة افراغة وهزيمته وموته﴾

وفي هذه السنة حصر ابن ردمير الفرنجي لعنه الله مدينة افراغة من شرق الاندلس وكان الامير تاشفين بن علي بن يوسف بمدينة قرطبة أميرا على الاندلس لابيه فجهز الزبير بن عمرو اللمتوني من قرطبة ومعه ألفا فارس وسير معه ميرة كثيرة الى افراغة وكان يحيى بن غانية الامير المشهور أمير مرسية وبلنسية من شرق الاندلس واليه الامر بها لامير المسلمين علي بن يوسف فتجهز في خمسمائة فارس وكان عبد الله بن عياض صاحب مدينة لاردة فتجهز في مائتي فارس فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى أشرفوا على مدينة افراغة وجعل الزبير الميرة أمامه وابن غانية امام الميرة وابن عياض امام ابن غانية وكان شجاعا وكذلك جميع من معه وكان ابن ردمير في اثني عشر ألف فارس فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين فقال لاصحابه اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي أرسلها المسلمون اليكم وادركه العجب ونفذ قطعة كبيرة من جيشه فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم ورد بعضهم على بعض وقتل فيهم والتحم القتال وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعا مدلين بكثرتهم وشجاعتهم فحمل ابن غانية وابن عياض في صدورهم واشتد الامر بينهم وعظم القتال فكثر القتل في الفرنج وخرج في الحال أهل افراغة جميعهم ذكرهم وأنثاهم صغيرهم وكبيرهم الى خيام الفرنج فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا في العسكر واشتغل النساء بالنهب وحملوا جميع ما وجدوه هناك الى المدينة من قوت وعدد وآلات وسلاح وغير ذلك وبينما المسلمون والفرنج في القتال اذ وصل اليهم الزبير في عسكره فانهزم ابن ردمير وعسكره ولم يسلم منهم الا القليل ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة وكان أشد ملوك الفرنج بأسا وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا كان ينام على طارقة بغير وطاء وقيل له هلا تسريت من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيت منهم فقال الرجل المحارب ينبغي ان يعاشر الرجال لا النساء وأراح الله منه وكفى المسلمين شره

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في شعبان زلزلت الارض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها وكانت الزلزلة شديدة وهلك فيها كثير من الناس والله أعلم

﴿ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان﴾

في هذه السنة وصل برنقش الزكوي من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقر على المسترشد من المال وهو أربعمائة ألف دينار فذكر انه لا شيء عنده وان المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب ثم بلغ الراشد بالله ان برنقش يريد التهجم على دار الخلافة وتفتيشها

وعمليق الذي هو أبو العماليق وفارس أخوه حما ولد الازد بن سام وارم ولد سام أيضا وولد لارم عابر ولعابر ثمود وولد أيضا لارم عوص ولعوص عاد وكان كلام ولد ارم بالعربية وسكنت بنو عاد الرمل الى حضرموت وسكنت بنو ثمود الحجر بين الحجاز والشام وولد لسام من عمود النسب أرفخشذ بعد الطوفان بسنتين سنة وولد لارفخشذ قينان ولقينان شالخ وبعد الطوفان بثلثمائة وخمسين سنة توفي نوح عليه السلام وعمره تسعمائة سنة وخمسون سنة ثم ولد لشالخ عابر ثم لعابر فالغ ثم لفالغ رغو وعند مولد رغو تبلبلت الالسن وقسمت الارض وتفرق بنو نوح ثم ولد لرغو ساروع واسمه في التوراة سروغ ثم ولد لساروع ناخور ولناخور تارخ ولتارخ ابراهيم عليه السلام وذلك لمضي ألف واحدى وثمانين سنة من الطوفان وأما عمر سام فستمائة سنة وارفخشذ أربعمائة وستون سنة وعابر أربعمائة وأربعة وستون سنة وفالغ ثلثمائة وتسعة وثلاثون سنة ورغو كذلك وساروع ثلثمائة وثلاثون سنة وتارخ مائتين وخمسين سنة وسبب تبلبل الالسن ان بني نوح اجتمعوا على بناء حصن خوفا من مجيء الطوفان ثانيا تبلغ رأسه السماء

امام أخذ المال لجمع العساكر لمنعه واوأمر عليهم كج أبه وأعاد عمارة السور فلما علم برنقش بذلك اتفق هو وبك أبه شحنة بغداد وهو من أمراء السلطان على ان يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعد لمنعهم وركب برنقش ومعه العسكر والامراء البكجية ومحمد بن عكر في نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فأخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فسار والى طريق خراسان ثم انحدر بك أبه الى واسط وسار برنقش الى البندنيجين ونهبت العامة دار السلطان

﴿ذكر اجتماع أصحاب الاطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته﴾

في هذه السنة اجتمع كثير من الامراء وأصحاب الاطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود ابن السلطان محمود في عسكر اذربيجان الى بغداد فوصلها في رابع صفر ونزل بدار السلطان ووصل أتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل ووصل برنقش بازدار صاحب قزوين وغيرهما والبقش الكبير صاحب أصفهان وصدقة بن دبيس صاحب الحلة ومعه عنتر بن أبي العسكر الجاواني يدبره ويتمم نقص صباه وابن برسق وابن الاحمديلي وخرج اليهم من عسكر بغداد كج أبه والطرنطاي وغيرهما وجعل الملك داود في شحنكية بغداد برنقش بازدار وقبض الخليفة الراشد بالله على ناصح الدولة أبي عبد الله الحسن بن جهير استاذ الدار وهو كان السبب في ولايته وعلى جمال الدولة اقبال المسترشدي وكان قدم اليه من تكريت وعلى غيرهما من أعيان دولته فتغيرت نيات أصحابه عليه وخافوه فاما جمال الدولة فان أتابك زنكي شفع فيه شفاعة تحتها الزام فأطلق وصار اليه ونزل عنده وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين ابي الرضا بن صدقة الى عماد الدين لتهنئته بالقدوم فأقام الوزير عنده وسأله ان يمنعه من الخليفة فأجابه الى ذلك وعاد الموكب بغير وزير وأرسل زنكي من حرس دار الوزير من النهب ثم أصلح حاله مع الخليفة وأعاده الى وزارته وكذلك أيضا عبر عليه قاضي القضاة الزينبي وسار معه الى الموصل ثم ان الخليفة جد في عمارة السور فأرسل له الملك داود من قلع أبوابه وأخرب قطعة منه فانزعج الناس ببغداد ونقلوا أموالهم الى دار الخلافة وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب للملك داود وجرت الايمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكي وأرسل الخليفة الى أتابك زنكي مائتي ألف دينار لينفقها ووصل الملك سلجوق شاه الى واسط فدخلها وقبض على الامير بك أبه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكي اليه لدفعه عنها واصطلحا وعاد زنكي الى بغداد وعبر الى طريق خراسان وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود وسار الملك داود نحو طريق خراسان فنهب العسكر البلاد ووصلت الاخبار بمسير السلطان مسعود الى بغداد وفارق الملك داود وأتابك زنكي فعاد أتابك زنكي الى بغداد وفارق الملك داود وأظهر له انه يمضي الى مراغة اذا فارق السلطان مسعود همذان فبرز الراشد بالله الى ظاهر بغداد أول رمضان وسار الى طريق خراسان ثم عاد بعد ثلاثة أيام ونزل عند جامع السلطان ثم دخل الى بغداد خامس رمضان وأرسل الى داود وسائر الامراء يأمرهم بالعود الى بغداد فعادوا ونزلوا في الخيام وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده فعرض الخليفة الرسالة عليهم فكلهم رأى قتاله فقال لهم الخليفة وأنا أيضا معكم على ذلك

﴿ذكر ملك شهاب الدين حمص﴾

وكانوا اثنين وسبعين شعبا فجعلوا فيه بعدد الشعوب أبرجة على كل برج كبير شعب فانتقم الله منهم وفرق ألسنتهم الى لغات شتى ولم يكن عابر وافقهم على ذلك فأبقاه الله على اللغة العربية فتفرقت بنو نوح فصار ولد سام الى العراق وفارس وما يلي ذلك الى الهند وصار ولد حام الى الجنوب ومصر وما يلي ذلك مغربا وصار ولد يافث الى الصين وما يلي ذلك مشرقا (وأرسل) فيما بين نوح وابراهيم هود وصالح * أما هود فأرسله الله الى عاد وقيل هو عابر الذي لم يوافق على بناء الصرح قيل كان من قومه شخص تسمى لقمان غير لقمان الحكيم الذي كان على عهد داود عليه السلام كان قد توجه الى مكة يستسقي لهم من جدب حصل فسلم بعد هلاك قومه فقال له الله اختر ولا سبيل الى الخلود قال رب اعطني عمر سبعة أنسر وكان يأخذ الفرخ حين يخرج من البيضة حتى اذا مات أخذ غيره وكان يعيش كل نسر ثمانين سنة وكان اسم النسر الذي مات معه لبد * وأما صالح فارسله الله الى ثمود وهو صالح بن عبيد بن أسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود فهو داعيتزل مع من نجا من قومه الى حظيرة يعبد الله فيها حتى مات ومدة عمره تقدم ذكرها على انه عابر وصالح سار بعد هلاك قومه الى فلسطين ثم انتقل الى الحجاز وعبد الله حتى مات وعمره ثمان وخمسون

في هذه السنة في الثاني والعشرين من ربيع الاول تسلم شهاب الدين محمود صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها وسبب ذلك ان أصحابها أولاد الامير خيرخان بن قراجا والوالي بها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر عماد الدين زنكي اليها والى اعمالها وتضييقهم على من بها من جندي وعامي فراسلوا شهاب الدين في ان يسلموها اليه ويعطيهم عوضا عنها تدمر فأجابهم الى ذلك وسار اليها وتسلمها منهم في التاريخ المذكور وسلم اليهم تدمر وأقطع حمص مملوك جده معين الدين أنز وجعل فيها نائبا عنه ممن يثق اليه من أعيان أصحابه وعاد عنها الى دمشق فلما رأى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص عن أيديهم تابعوا الغارات الى بلدها والنهب له والاستيلاء على كثير منه فجرى بينهم عدة وقائع وأرسل شهاب الدين الى زنكي في المعنى واستقر الصلح بينهم وكف كل منهم عن صاحبه

﴿ذكر الفتنة بدمشق﴾

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند وسبب ذلك ان الحاجب يوسف بن فيروز كان أكبر حاجب عند أبيه وجده ثم انه خاف أباه شمس الملوك وهرب منه الى تدمر فلما كان في هذه السنة سأل ان يحضر الى دمشق وكان يخاف جماعة المماليك لانه كان أساء اليهم وعاملهم أقبح معاملة فكلهم عليه حنق لاسيما الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك وقد تقدمت فانه أشار بقتل جماعة برأيه وبقتل سونج بن تاج الملوك فصاروا كلهم أعداء مبغضين فلما طلب الامان والحضور الى دمشق أجيب الى ذلك فأنكر جماعة الامراء والمماليك قربه وخافوه ان يفعل بهم مثل فعله الاول فلم يزل يتوصل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم وشرط على نفسه انه لا يتولى من الامور شيئا ثم انه جعل يدخل نفسه في كثير من الامور فاتفق اعداؤه على قتله فبينما هو يسير مع شهاب الدين والى جانبه أمير اسمه تراوش يحادثه اذ ضربه تراوش بالسيف فقتله فحمل ودفن في تربة والده بالعقيبة ثم ان تراوش والمماليك خافوا فلم يدخلوا البلد ونزلوا بظاهره وأرسلوا يطلبون قواعد اشتطوا فيها فأجابهم الى البعض فلم يقبلوا منه ثم ساروا الى بعلبك وبها شمس الملوك محمد بن تاج الملوك صاحبها فصاروا معه فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم وشرعوا في العيث والفساد واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم واجابتهم الى ما طلبوا واستقرت الاحوال على ذلك وحلف كل منهم لصاحبه فعادوا الى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد وخرج شهاب الدين صاحب دمشق اليهم واجتمع بهم وتجددت الايمان وصار تراوش مقدم العسكر واليه الحل والعقد وذلك في شعبان وزال الخلاف ودخلوا البلد والله أعلم

﴿ذكر غزاة العسكر الاتابكي الى بلاد الفرنج﴾

في هذه السنة في شعبان اجتمعت عساكر أتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الامير أسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم وقصدوا اعمال اللاذقية ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم وكان الاسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة ألف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم وأما ما سوى ذلك من الاقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد وأخربوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين منتصف رجب فامتلأ الشام من الاسارى والدواب وفرح المسلمون بذلك فرحا عظيما ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزا منهم ووهنا وضعفا

سنة (ثم كانت قصة ابراهيم الخليل عليه السلام) على ما جاء به التنزيل ولد بالاهواز وقيل ببابل وهي العراق وكان نمرود عاملا على السواد بالعراق وقيل كان ملكا مستقلا ولما خرج ابراهيم عليه السلام سالما من النار سار هو وزوجته سارة بنت عمه هاران وأبوه آزر وهو تارخ وجماعة من قومه الى حران ثم سار هو وسارة الى مصر وطلب سارة فرعون مصر سنان ابن علوان وقيل طوليس فحماها الله من الفاجر وأخدمها هاجر كما جاء في الحديث الصحيح فساروا الى الشام وأقاموا بين ايليا والرملة وكانت سارة لا تلد فوهبت هاجر من ابراهيم فجاءت باسمعيل ومعناه مطيع الله وكانت ولادة اسمعيل لمضي ست وثمانين سنة من عمر ابراهيم فحزنت سارة لذلك فوهبها الله اسحق وعمرها تسعون سنة وعمر ابراهيم مائة سنة وغارت من هاجر وابنها فسار بهما ابراهيم الى الحجاز وتركهما بمكة ونشأ اسمعيل وماتت هاجر بعد ان كان من قصتهما وبئر زمزم ما جاء في الصحيح وتزوج اسمعيل من جرهم وقدم اليه أبوه وبنيا الكعبة (ثم أمر الله ابراهيم ان يذبح ولده) فمن قال انه اسحق يقول كان الذبح على ميلين من أيليا وهو بيت المقدس ومن قال اسمعيل يقول كان بمكة ثم في حياة ابراهيم توفيت زوجته سارة وتزوج من الكنعانيين

﴿ذكر وصول السلطان مسعود الى العراق وتفرق أصحاب الاطراف ومسير الراشد بالله الى الموصل﴾

قيل لما بلغ السلطان مسعود اجتماع الملك داود والامراء ببغداد على خلافه وخطب للملك داود ابن أخيه السلطان محمود جمع العساكر وسار الى بغداد فنزل بالمالكية فسار بعض العسكر حتى شارفوا عسكره وطاردوهم وكان في الجماعة زين الدين علي أمير من أمراء أتابك زنكي ثم عادوا ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها وثار العيارون ببغداد وسائر محالها وأفسدوا ونهبوا وقتلوا حتى انه وصل صاحب لاتابك زنكي ومعه كتب فخرجوا عليه وأخذوها منه وقتلوه فحضر جماعة من أهل المحال عند الاتابك زنكي وأشاروا عليه بنهب المحال الغربية فليس فيها غير عيار ومفسد فامتنع من ذلك ثم أرسل بنهب الحريم الظاهري فأخذ منه من الاموال الشيء الكثير وسبب ذلك ان العيارين فيه وأخذوا أموال الناس ونهبت العساكر غير الحريم من المحال وحصرهم السلطان نيفا وخمسين يوما فلم يظفر بهم فعاد الى النهروان عازما على العود الى همذان فوصله طرنطاي صاحب واسط ومعه سفن كثيرة فعاد اليها وعبر فيها الى غربي دجلة وأراد العسكر البغدادي منعه فسبقهم الى العبور واختلفت كلمتهم فعاد الملك داود الى بلاده في ذي القعدة وتفرق الامراء وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر اليه الخليفة الراشد بالله وسار معه الى الموصل في نفر يسير من أصحابه فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكي بغداد سار اليها واستقر بها ومنع أصحابه من الاذى والنهب وكان وصوله منتصف ذي القعدة فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف الشديد وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التي حلف بها الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده انى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر فافتوا بخروجه من الخلافة وقيل غير ذلك وسنذكره في خلافة المقتفي لامر الله وكان الوزير شرف الدين علي بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البقشلاني وابن الانباري مع السلطان لانهم عنده مذ أسرهم مع المسترشد بالله فقدحوا في الراشد ووافقهم على ذلك أصحاب المناصب ببغداد الا اليسير لانهم كانوا يخافونه وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضا واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان بخلعه وإقامة من يصلح فخلع وقطعت خطبته في بغداد في ذي القعدة وسائر البلاد وكانت خلافته أحد عشر شهرا واحد عشر يوما وقتله الباطنية على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر خلافة المقتفي لامر الله﴾

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من أعيان بغداد منهم الوزير علي بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلي الخلافة فقال الوزير أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يقتل فتقدم اليهم بعمل محضر في خلع الراشد فعملوا محضرا ذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الاموال وأشياء تقدح في الامامة ثم كتبوا فتوى ما تقول العلماء فيمن هذه صفته هل يصلح للامامة أم لا فافتوا ان من هذه صفته لا يصلح أن يكون اماما فلما فرغوا من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك فحكم بفسقه وخلعه وحكم بعده غيره ولم يكن قاضي القضاة حاضرا فانه كان عند أتابك زنكي بالموصل ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب

وأولادها ستة أولاد فجملة أولاده ثمانية ولما بلغ اسمعيل ثلاث عشرة سنة تطهر هو وأبوه وعاش ابراهيم مائة وخمسا وسبعين سنة وأنزلت عليه الصحف (روى) أبو ذر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هي أمثال * فيها أيها المسلط المغرور انى لم أبعثك لتجمع الدنيا ولكن لترد عني دعوة المظلوم فاني لا أردها ولو كانت من كافر * وفيها على العاقل ان يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شانه حافظا للسانه ومن عد كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه وابراهيم عليه السلام أول من اختتن وأضاف الضيف ولبس السراويل (وفي حياته أرسل الله لوطا) ابن أخيه هاران الى سذوم بعد ان هاجر مع ابراهيم الى مصر وعاد الى الشام وكانت سذوم كفارا يأتون الفاحشة وقوم ابراهيم يعبدون الاصنام (وأرسل الله بعد ذلك اسمعيل عليه السلام) الى قبائل اليمن والعماليق ثم مات بمكة وعمره مائة وسبع وثلاثون سنة ودفن عند أمه هاجر بعد وفاة أبيه ابراهيم بثمان وأربعين سنة وكان له اثنا عشر ولدا (وأما اسحق فتزوج ابنة عمه فولدت له العيص ويعقوب وهو اسرائيل وتوفي بالشام وعمره مائة وثمانون سنة ودفن عند أبيه ابراهيم (وأما يعقوب) فتزوج ليا بنت لابان ابن تبوبل بن ناخور أخي ابراهيم فولدت له روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ثم تزوج عليها أختها راحيل

المخزن بن البقشلاني وغيرهما وأمر باحضار الامير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي يسكن فيه فاحضر وأجلس في المثمنة ودخل السلطان اليه والوزير ونحا الفاو قررا الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجة ولقب المقتفي لامر الله قيل سبب اللقب انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلي الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير اليك فاقتف بي فلقب بذلك ولما استخلف سيرت الكتب الحكمية بخلافته الى سائر الامصار واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي فارسل الى الموصل وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين الزينبي ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن وجرت الامور على أحسن نظام وبلغني ان السلطان مسعودا أرسل الى الخليفة المقتفي لامر الله في تقرير اقطاع يكون لخاصته فكان جوابه ان في الدار ثمانين بغلا تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج اليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فتقررت القاعدة على ان يجعل له ما كان للمستظهر بالله فاجاب الى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله لقد جعلنا في الخلافة رجلا عظيما والمقتفي عم الراشد وهو والمسترشد ابنا المستظهر وليا الخلافة وكذلك السفاح والمنصور اخوان وكذلك المهدي والرشيد اخوان وكذلك الواثق والمتوكل اخوان وأما ثلاثة اخوة ولوا الخلافة فالامين والمأمون والمعتصم وهم أولاد الرشيد والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر وأما أربعة اخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يعرف غيرهم وحين استقرت الخلافة للمقتفي ارسل اليه الراشد بالله رسولا من الموصل مع رسول أتابك زنكي وكان كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري فاحضر في الديوان وسمعت رسالته وحكى لي والدي عنه قال لما حضرت الديوان قيل لي تبايع أمير المؤمنين فقلت أمير المؤمنين عندنا في الموصل وله في أعناق الخلق بيعة متقدمة وطال الكلام وعدت الى منزلي فلما كان الليل جاءتني امرأة عجوز سرا واجتمعت بي وأبلغتني رسالة عن المقتفي لامر الله مضمونها عتابي على ما قلته واستنزالي عنه فقلت غدا أخدم خدمة يظهر أثرها فلما كان الغد حضرت الى الديوان وقيل لي في تعين البيعة فقلت أنا رجل فقيه قاضي ولا يجوز لي أن أبايع الا أن يثبت عندي خلع المتقدم فاحضروا الشهود وشهدوا عندي في الديوان بما أوجب خلعه فقلت هذا ثابت لا كلام فيه ولكن لا بد لنا في هذه الدعوى من نصيب لان أمير المؤمنين قد حصل له خلافة الله في أرضه والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ونحن باي شيء نعود فرجع الامر الى الخليفة فامر أن يعطى أتابك زنكي صريفين ودرب هرون وحربى ملكا وهي من خاص الخليفة ويزاد في ألقابه وقال هذه قاعدة لم يسمع بها لاحد من زعماء الاطراف أن يكون لهم نصيب من خاص الخليفة وكانت بيعة كمال الدين سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ولما عاد كمال الدين الشهرزوري سير على يده المحضر الذي عمل بخلع الراشد فحكم به قاضي القضاة الزينبي بالموصل وكان عند أتابك زنكي

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد وعاد الى بغداد وقام بداره معزولا ووزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن سلمة الدركزيني وهو من خراسان وفيها ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها وفتكوا في البلد ونهبوا الاموال ظاهرا وكثر الشر

فولدت له يوسف وبنيامين وولد له من سريتين ستة أولاد أخر بساخر وزبولون قبل يوسف وأخيه وبعدهما دان ونفتالي وكادوآشر وهؤلاء الاثنا عشر هم الاسباط ونبئ في أيام يعقوب أيوب بن اموص بن رزاح بن العيص كانت له أموال عظيمة فذهبت وتجذم ودود وبقي مرميا على مزبلة لم يمكن أن يشم رائحته وكانت زوجته رحمة تخدمه فتراءى لها ابليس وقال اسجدي لي وأنا أرد عليكم اموالكم وأراها اياها فاستأذنت أيوب فغضب عليها وحلف ليضربنها مائة فعافى الله أيوب ورد عليه ما ذهب من ماله وحسن امرأته وولدت له ستة وعشرين ذكرا وتوفي وعمره ثلاثة وتسعون سنة وبعث الله ولده بشرا وسماه ذا الكفل وكان مقامه بالشام ولما كان ليعقوب من العمر احدى وتسعون سنة ولد له يوسف فلما بلغ ثمان عشرة سنة كان فراقه ليعقوب مدة احدى وعشرين سنة ثم اجتمعا بمصر مدة ست عشرة سنة وكان يوسف بمصر موضع العزيز على خزائن مصر وكان القضاء عليه ودعا فرعون مصر الريان الى الايمان فآمن ومات ولم يؤمن المتولي بعده قابوس بن مصعب من العمالقة وتوفي

فقصد الشحنة شارع دار الرقيق وطلب العيارين فثار عليه أهل المحال الغربية فقاتلهم وأحرق
الشارع فاحترق فيه خلق كثير ونقل الناس أموالهم الى الحريم الظاهرى فدخله الشحنة ونهب
منه مالا كثيرا ثم وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وبين أهل المأمونية وقتل بينهم جماعة
ثم اصطلحوا وفيها سار قراسنقر فى عساكر كثيرة فى طلب الملك داود بن السلطان محمود فأقام
السلطان مسعود ببغداد ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة فالتقيا وتصافا
واقتتل العسكران قتالا عظيما فانهزم داود وأقام قراسنقر باذربيجان وأما داود فانه قصد
خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم فبلغت عدتهم نحو عشرة آلاف
فارس فقصد تستر وحاصرها وكان عمه الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد بواسط فارسل الى أخيه
السلطان مسعود يستنجده فأمده بالعساكر فسار الى داود وهو يحاصر تستر فتصافا فانهزم
سلجوق شاه وفيها توفى محمد بن حمويه أبو عبد الله الجوينى وهو من مشايخ الصوفية المشهورين وله
كرامات كثيرة ورواية الحديث وتوفى أيضا محمد بن عبد الله بن أحمد بن حبيب العامرى الصوفى
مصنف شرح الشهاب وأنشد لما احتضر

ها قد مددت يدى اليك فردها * بالعفو لا بشماتة الاعداء

وتوفى أيضا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفراوى الصاعدى راوى صحيح مسلم عن عبد الغافر
الفارسى وطريقه اليوم أعلى الطرق واليه الرحلة من الشرق والغرب وكان فقيها مناظرا ظريفا
يخدم الغرباء بنفسه وكان يقال الفراوى ألف راوى رحمه الله ورضى عنه

(ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود)

فى هذه السنة فى المحرم أذن السلطان مسعود للعساكر التى عنده ببغداد بالعود الى بلادهم لما بلغه
ان الراشد بالله قد فارق اتابك زنكى من الموصل فانه كان يتمسك بالعساكر عنده خوفا أن يحدر به
الى العراق فيملكه عليه فلما أراد أن يأذن للامير صدقة بن دبيس صاحب الحلة زوجه ابنته تمسكا به
وقدم على السلطان مسعود جماعة من الامراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحى
وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همدان فرضى عنهم وأمنهم وولى البقش
شحنكية بغداد فعسف الناس وظلمهم وكان السلطان مسعود بعد تفرق العساكر عنه قد بقى معه
ألف فارس وتزوج الخليفة فاطمة أخت السلطان مسعود فى رجب والصداق مائة ألف دينار
وكان الوكيل فى قبول النكاح وزير الخليفة على بن طراد الزينبى والوكيل عن السلطان وزيره
الزركزبى ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دبيس بن صدقة صهريه وحيث سار
الراشد بالله من عند زنكى الاتابك والله أعلم

(ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوى صاحب
مصر وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان نصرانيا أرمنيا
فتمكن فى البلاد واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين
ولاهم وطمعوا فيهم فلم يكن فى أهل مصر من أنف من ذلك الا رضوان بن الريحينى فانه لما ساءه
ذلك وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام فهرب الى الصعيد من غير حرب ولا قتال
وقصد مدينة اسوان فمنعه واليها من الدخول اليها وقاتله فقتل السودان من الارمن كثيرا فلما

يعقوب وعمره مائة وسبع وأربعون سنة وأوصى الى يوسف أن يدفنه مع أبيه اسحق فسار به الى الشام ودفنه عند أبيه
ثم عاد الى مصر وتوفى بها فى ملكه ودفن فيها الى أن نبشه موسى عليه السلام وحمله معه حين سار ببنى اسرائيل الى التيه ولما مات موسى حمله يوشع الى الشام مع بنى اسرائيل ودفنه عند الخليل وقيل بالقرب من نابلس ثم بعث الله شعيبا الى أصحاب الايكة وأهل مدين قيل هو من نسل ابراهيم وقيل من ولد بعض الذين آمنوا بابراهيم ثم أرسل الله موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب بعد ان خرج من مصر هاربا وتزوج ابنة شعيب صفوراء ورعى غنمه عشر سنين ونبئ فى ايابه الى مصر حين تاه فى الطريق وولدت امرأته ليلا فى الشتاء ولم تجد ضوأ وقال انى آنست نارا كما أخبر الله عنه وقدم مصر ليلا واجتمع بأخيه هرون وأخبره أن الله تعالى أرسلهما الى فرعون مصر الوليد وكانت قصته مع السحرة وغرق فرعون من بعض معجزاته (ومنها) قصته مع قارون بن عمه الذى كانت تحمل مفاتيح خزائنه أربعون بغلا ثم أوحى الله الى موسى انى متوفى هرون فأت به الى جبل كذا فانطلقا فاذا
بسرير فناما عليه وأخذ هرون الموت ورفع الى السماء وكان أكبر من موسى بثلاث سنين توفى وعمره مائة واثنتان
لم

لم يقدر على الدخول الى اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فأمنه فعاد الى القاهرة فحبس
بالقصر فبقى مدة ثم ترهب وخرج من الحبس وأما رضوان فانه وزر للحافظ ولقب بالملك الافضل
وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ فى اخراجه فثار
الناس عليه منتصف شوال فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وهرب من داره وتركها بما فيها
فنهب الناس منها ما لا يحد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس ونقل ما بقى فى دار رضوان الى
قصره وأما رضوان فسار يريد الشام يستنجد الاتراك ويستنصرهم فارسل اليه الحافظ الامير
ابن مصال ليرده بالامان والعهد انه لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر
وقيل انه توجه الى الشام وهو الصحيح وقصد صرخد فوصل اليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها
أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة أربع وثلاثين
وخمسمائة ومعه عسكر فقاتل المصريين عند باب النصر وهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام
ثلاثة أيام فتفرق عنه كثير ممن معه فعزم على العود الى الشام فارسل اليه الحافظ الامير ابن
مصال فرده وحبسه عنده فى القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام فى القصر الى سنة ثلاث
وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فحشد
وجمع المغاربة وغيرهم وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم
ودخل القاهرة فنزل عند جامع الاقمر فارسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفرقه على عادتهم فانهم
كانوا اذا وزر وزير ارسلوا اليه عشرين ألف دينار ليفرقها فارسل الحافظ عشرين ألف
دينار ففرقها وكثر عليه الناس وطلب زيادة فارسل اليه عشرين ألف دينار ففرقها فتفرق الناس
وخفوا عنه فاذا الصوت قد وقع وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا
على غلمانه فقاتلوهم فقام يركب فقدم اليه بعض أصحابه فرسا ليركبه فلما أرادركوبه ضرب
الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه الى الحافظ فارسله الى زوجته فوضع فى حجرها فالقت به
وقالت هكذا يكون الرجال ولم يستوزر الحافظ أحدا وباشر الامور بنفسه الى ان مات

(ذكر فتح المسلمين حصن وادى ابن الاحمر من الفرنج)

وفى هذه السنة فى رجب سار عسكر دمشق مع مقدمهم الامير بزاوش الى طرابلس الشام
فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان أيضا خلق كثير فلما سمع القمص صاحبها بقربهم
من ولايته سار اليهم فى جموعه وحشوده فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا الى طرابلس فى صورة
سيئة قد قتلت فرسانهم وشجعانهم فلما عادوا انهب المسلمون من أعمالهم أكثرها وحصروا
حصن وادى ابن الاحمر وضيقوا عليه فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وسبوا الحريم
والذرية وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق سالمين والله أعلم

(ذكر حصار زنكى مدينة حمص)

فى هذه السنة فى شعبان سار اتابك زنكى الى مدينة حمص وقدم اليها حاجبه صلاح الدين محمد
الباغيسيانى وهو أكبر أمير معه وكان ذا مكر وحيل أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها اليه
فوصل اليها وبها معين الدين أنز وهو الوالى عليها والحاكم فيها وهو أيضا أكبر أمير بدمشق
وحمص اقطاعه كما سبق ذكره فلم ينفذ فيه مكره فوصل حينئذ زنكى اليها وحصرها وعاود
مراسلة أنز فى التسليم غير مرة تارة بالوعد وتارة بالوعيد واحتج بانه سلمها لصاحبه شهاب الدين
وانها بيده أمانة ولا يسلمها الا عن غلبة فأقام عليها الى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ

وعشرون سنة وشهر واحد وأتهم بنو اسرائيل موسى بقتل أخيه هرون حين رجع اليهم وحده فأنزل الله السرير
وعليه هرون وقال انى مت ولم يقتلنى أخى ثم توفى الله موسى بعده باحد عشر شهرا وعمره مائة وعشرون سنة ثلثها الاخير فى التيه وكانت وفاته فى التيه سابع اذار فى أيام الملك منوجهر لمضى ألف وستمائة وست وعشرين سنة من الطوفان (واختلف) فى كيفية موته قيل كان هو ويوشع يتماشيان فظهرت غمامة سوداء فاعتنق يوشع موسى من خوفه فانسل موسى من قماشه ورجع يوشع بالقماش الى بنى اسرائيل فاتهموه بقتل موسى ووكلوا به جماعة فرأى كل منهم فى منامه ان يوشع لم يقتل موسى بل رفعناه الينا فتركوه وقيل بل نبأ الله يوشع وأوحى اليه فسأله موسى عن ذلك فأخفى عنه فعظم عليه فسأل الله ان يتوفاه وقيل غير ذلك والله أعلم وأما بنو اسرائيل فكانت تحت حكم فراعنة مصر على بقايا من شريعة يعقوب ويوسف عليهما السلام الى ان خرج بهم موسى من مصر بعد ان أقاموا بها مائتى سنة وخمس عشرة سنة (ولما) مات موسى قام بتدبير بنى اسرائيل يوشع بن نون بن
الياشماع من سبط يوسف أقام بهم فى التيه ثلاثة أيام ثم سار بهم الى نهر الشريعة وانكشفت الارض حتى عبروا ثم عاد الماء

غرض الى بعرين لحصرها وكان منه ومن الفرنج ماذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر ملك زنكى قلعة بعرين وهزيمة الفرنج﴾

وفى هذه السنة فى شوال سار اتابك زنكى من حمص كما ذكرناه وحصر قلعة بعرين وهى للفرنج تقارب مدينة حماة وهى من أمنع الحصون وأحصنها فلما نزل عليها قاتلها وزحف اليها الجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا فى قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم الى أتابك زنكى ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم الى أن وصلوا اليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم لحصرهم المسلمون ومنع أتابك زنكى عنهم كل شئ حتى الاخبار فكان من به منهم لا يعلم شيأ من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وماوالاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكى ان أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت لعدم المحامى عنها وان المسلمين ليس لهم نية الا قصد البيت المقدس فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم وكان منهم ماذكره وأما زنكى فانه جد فى قتال الفرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة فانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا يعتقدون ان أحدا يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقى البلاد بالشام فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون الى بلادهم فلم يجبهم الى ذلك فلما سمع بقرب ملك الروم من الشام واجتماع من بقى من الفرنج أعطى لمن فى الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان لا يصلهم شئ من الاخبار البتة فلهذا سلموه وكان زنكى فى مدة مقامه عليهم فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلها وأهل سائر الولايات التى بينها وبين حلب وحماة مع أهل بعرين فى الخزى لان الحرب بينهم قائمة على ساق والنهب والقتل لا يزال بينهم فلما ملك أمن الناس وعمرت البلاد وعظم دخلها وكان فتحا مبينا ومن رآه علم صحة قولى ومن أحسن الاعمال ما عمله زنكى مع أهل المعرة فان الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم فلما فتحها زنكى الآن حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فقالوا ان الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التى للاملاك فيها فقال اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم اليه ففعلوا ذلك وأعاد على الناس أملاكهم وهذا من أحسن الافعال وأعدلها

﴿ذكر خروج ملك الروم من بلاده الى الشام﴾

قد تقدم ان الفرنج أرسلوا الى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرفونه مافعله زنكى فيهم ويحرضونه على لحاق البلاد قبل ان تملك ولا ينفعه حينئذ المجىء فتجهز وسار مجدا فابتدأ وركب البحر وسار الى مدينة انطاكية وهى له على ساحل البحر فارسى فيها وأقام ينتظر وصول المراكب التى فيها أثقاله وسلاحه فلما وصلت سار عنها الى مدينة نيقية لحصرها وان أصحابها صالحوه على مال يؤدونه اليه وقيل بل ملكها وسار عنها الى مدينة اذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الارمنى صاحب قلاع الدروب لحصرهما وملكهما ورحل الى عين زربة لحصرها

وملكها عنوة وملك تل حمدون وحمل أهله الى جزيرة قبرس وعبر مينا الاسكندرية وخرج الى الشام لحصر مدينة انطاكية فى ذى القعدة وضيق على أهلها وبها صاحبها الفرنجى ريمند فترددت الرسل اليهم ومشوا بينهم فتصالحا ورحل عنها الى بغراس ودخل منها الى بلاد ابن ليون الارمنى فبذل له ابن ليون أموالا كثيرة ودخل فى طاعته والله أعلم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة رابع وعشرين فى ايار ظهر بالشام سحاب أسود واظلمت له الدنيا وصار الجو كالليل المظلم ثم طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنه النار أضاءت له الدنيا وهبت ريح عاصفة ألقت كثيرا من الشجر وكان أشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعده مطر شديد وبرد كبار وفيها عاد مؤيد الدين أبو الفوارس المسيب على بن الحسين المعروف بابن الصوفى من صرخد الى دمشق وكان قد أخرج هو وأهله من دمشق الى صرخد فبقوا فيها الى الآن وعادوا وولى أبو الفوارس الرياسة بدمشق وحكم فيها حكما ماضيا وكان ذا رياسة عظيمة ومروءة ظاهرة وفيها كثرت الامراض ببغداد وكثر الموت فجأة باصبهان وهمذان وفيها سار اتابك زنكى الى دقوقا لحصرها وملكها بعد ان قاتل على قلعتها قتالا شديدا وفيها توفى أبو سعيد أحمد بن محمد بن ثابت الخجندى رئيس الشافعية باصفهان وتفقه على والده ودرس بالنظامية باصفهان وتوفى أبو القاسم هبة الله بن أحمد ابن عمر الحريرى ومولده يوم عاشوراء سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وهو آخر من روى عن أبى الحسن زوج الحرة وقد روى الخطيب أبو بكر بن ثابت عن زوج الحرة أيضا وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستين وأربعمائة

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك اتابك زنكى حمص وغيرها من عمل دمشق﴾

وفى هذه السنة فى المحرم وصل اتابك زنكى الى حماة وسار منها الى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وهو أيضا لصاحب دمشق وسار الى حمص لحصرها وأدام قتالها فلما نازل ملك الروم حلب رحل عنها الى سلمية فلما انجلت حادثة الروم على ماذكرناه عاود منازلة حمص وأرسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه أمه ليتزوجها واسمها زمرد خاتون ابنة جاولى وهى التى قتلت ابنها شمس الملوك وهى التى بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادى شقرا ونهر بردى فتزوجها وتسلم حمص مع قلعتها وحملت الخاتون اليه فى رمضان وانما حمله على التزوج بها مارأى من تحكيمها فى دمشق فظن انه يملك البلد بالاتصال اليها فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شئ فاعرض عنها

﴿ذكر وصول ملك الروم الى الشام وملكه بزاعة ومافعله بالمسلمين﴾

قد ذكرنا سنة احدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده وشغله بالفرنج وابن ليون فلما دخلت هذه السنة وصل الى الشام وخافه الناس خوفا عظيما وقصد بزاعة لحصرها وهى مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فمضى جماعة من أعيان حلب الى اتابك زنكى وهو يحاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه فسير معهم كثيرا من العساكر فدخلوا الى حلب ليمنعوها من الروم ان حصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها منجنيقات وضيق على من بها فملكها بالامان فى الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسر وسبى وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من

وذلك حين أمر يوشع حاملى صندوق الشهادة والالواح ان يقفوا بها على حافة الشريعة لما لم يجدوا سبيلا ونزل بهم يوشع على أريحا قرية الجبارين وصوت حولها بالقرون فانهدمت أسوارها وأخذها بالسيف ثم صار الى نابلس الى الموضع الذى بيع فيه يوسف ودفن عظامه هناك ثم توفى يوشع بعد تدبيره بنى اسرائيل ثمانيا وعشرين سنة ودفن فى كفر حارس وعمره مائة وعشرون سنة ولم يتول على بنى اسرائيل ملك بعد موت موسى ولكن حكام يدبرونهم كالقضاة مدة أربعمائة سنة وثمانين سنة من يوشع الى شمويل النبى فدبرهم أحد عشر سنة ثم سألوه أن يقيم فيهم ملكا فأقام شاول وهو طالوت قيل كان راعيا وقيل سقاء وقيل دباغا فقاتل جالوت من جبابرة الكنعانيين وكان من الشدة وطول القامة لا يمكن لاحد أن يبارزه فذكر شمويل نبى بنى اسرائيل علامة الرجل الذى يقتله فوجدت فى داود فبرز لجالوت وقتله وكان عمره ثلاثين سنة ومات شمويل وعمره اثنتان وخمسون سنة وأحب الناس داود فحسده طالوت وأراد قتله ثم ندم وقصد الفلسطينيين وقاتلهم الى ان استشهد هو وأولاده فى أواخر سنة خمسة وتسعين وأربعمائة لوفاة موسى فملك على أحد عشر سبطا وملكها

ايشبوشت بن طالوت وعلى سبط يهودا فقط داود عليه السلام وبينه وبين يهودا عشرة أيام ثم استوثق له الملك ودخلت جميع الاسباط تحت طاعته وانتقل الى القدس وفتح أرض فلسطين وعمان وباب وحلب ونصيبين وبلاد الارمن وملك أربعين سنة وتوفى وعمره سبعون سنة وأوصى بالملك لولده سليمان وعمره اثنتا عشرة سنة وآتاه الله من الملك مالم يؤت أحدا من العالمين وابتدأ فى عمارة بيت المقدس حسبما أوصاه والده فى السنة الرابعة من ملكه وهى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة لوفاة موسى وأقام سبع سنين يعمر وكان ارتفاع البيت الذى عمره ثلاثون ذراعا وطوله ستون فى عرض عشرين وعمل خارج البيت سورا محيطا به امتداده خمسمائة ذراع فى خمسمائة ثم شرع فى بناء دار مملكته بالقدس وشيدها فى ثلاث عشرة سنة ثم جاءت بلقيس ملكة اليمن اليه وأطاعته جميع ملوك الارض وحملوا اليه نفائس أموالهم واستمر ملكه الى أن توفى وعمره اثنتان وخمسون سنة وملك بعده ولده رحبعم على سبطى يهودا وبنيامين وملك على العشرة الباقية عبد من عبيد سليمان اسمه ابن نعمة وكان كافرا وتفرق الملك وصارت أولاد سليمان بمنزلة الخلفاء للمسلمين وملوك الاسباط مثل ملوك الاطراف ودخلت الاسباط الشام واستقر

أهلها نحو أربعمائة نفس وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى فقيل لهم ان
جمعا كثيرا من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات فدخنوا عليهم وهلكوا في المغاير ثم رحلوا الى
حلب من الغد في خيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فقاتلوهم قتالا شديدا فقتل من
الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام
فلم يروا فيها طمعا فرحلوا الى قلعة الاثارب فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها تاسع شعبان
فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والاسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة
وساروا فلما سمع الامير اسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر الى الاثارب فأوقع بمن فيها
من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبي وعادوا الى حلب وأما عماد الدين زنكي فانه فارق
حمص وسار الى سلمية فنازلها وعبر ثقله الفرات الى الرقة وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم
الميرة وأما الروم فانهم قصدوا قلعة شيزر فانها من أمنع الحصون وانما حصروها لانها لم تكن
لزنكي فلا يكون له في حفظها اهتمام وانما كانت للامير أبي العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن
نصر بن منقذ الكناني فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا فأرسل صاحبها الى
زنكي يستنجده فسار اليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها بينها وبين حماة وكان يركب كل يوم
ويسير الى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به
منهم ثم انه أرسل الى ملك الروم يقول له انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء
حتى نلتقي فان ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وان ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها ولم
يكن له بهم قوة وانما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافقته
وهونوا أمره عليه فلم يفعل وقال اتظنون ان ليس له من العسكر الا ما ترون انما هو يريد ان تلقونه
فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له وكان زنكي يرسل أيضا الى ملك الروم يوهمه بان فرنج الشام
خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم
ان ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في
رمضان وكان مقامه عليها أربعين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار اتابك زنكي
يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير ممن تخلف منهم وأخذ جميع ما تركوه ولما كان الفرنج على
بزاعة أرسل زنكي القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الى
السلطان مسعود يستنجده ويطلب العساكر فمضى الى بغداد وانهى الحال الى السلطان وعرفه
عاقبة الاهمال وانه ليس بينه وبين الروم الان تملك حلب وينحدروا مع الفرات الى بغداد فلم
يجد عنده حركة فوضع انسانا من أصحابه يوم جمعة فمضى الى جامع القصر ومعه جماعة من رنود
العجم وأمرهم ان يثوروا بهم اذا طلع الخطيب المنبر ويصيح ويصيحون معه واسلاماه وادين
محمداه ويشق ثيابه ويرمي عمامته من رأسه ويخرج الى دار السلطان والناس معه يستغيثون
كذلك ووضع انسانا آخر يفعل بجامع السلطان مثله فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل
ولطم رأسه وألقى عمامته وشق ثوبه وأولئك معه وصاحوا فبكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا
السلطان وساروا من الجامع يتبعون الشيخ الى دار السلطان يستغيثون ويبكون فخاف
السلطان فقال احضروا الي ابن الشهرزوري فاحضر فقال كمال الدين لقد خفت منه مما
رأيت فلما دخلت قال لي أي فتنة أثرت فقلت ما فعلت شيئا أنا كنت في بيتي وانما الناس يغارون
للدين والاسلام ويخافون عاقبة هذا التواني فقال اخرج الى الناس ففرقهم عنا واحضر غدا

ولد سليمان بالقدس واستقر الحال على ذلك مدة مائتين واحدى وستين سنة الى ان اجتمعت لولد سليمان المملكة على
جميع الاسباط وبعد فترة
في أنبيائهم خرجت فيهم
امرأة من جواري سليمان
اسمها عثليا هو وتتبعت
بني سليمان واقتتهم وسلم
منها طفل أخفوه عنها
وكان اسمه يواش واستمر
حكمها سبع سنين ثم
عدمت وملك يواش وهو
ابن سبع سنين وظهر في
أيام ولد ولده يوثم يونس
النبي صلى الله عليه وسلم
وهو يونس ابن متى ومتى
أمه لم يشتهر أحد من
الانبياء باسم أمه الا هو
وعيسى ابن مريم عليهم
السلام قيل انه من سبط
بنيامين أرسله الله الى أهل
نينوى تجاه الموصل يفصل
بينهما دجلة كانوا عبدة
أوثان فلم يتوبوا فأوعدهم
بنزول العذاب في يوم كذا
فلما أظلهم العذاب آمنوا
فكشفه الله عنهم وجاء
يونس فلم ير العذاب حل
بهم فذهب مغاضبا ودخل
في سفينة فوقفت بأهلها
فقال رئيسها فيكم من له
ذنب فتساهموا فوقعت
على يونس فرموه فالتقمه
الحوت فظهر في أيام ولده
آخر اشعياء النبي عليه
السلام وفي ملك صدقيا
ولده انقرضت دولة
الخوارج ملوك الاسباط
وكان رجلا صالحا مظفرا
فانضم اليه من سلم من الاسباط وكان قد فرغ عمره قبل موته بخمس عشرة سنة فزاده الله خمس عشرة سنة

واختر

واختر من العسكر ما تريد ففرقت الناس وعرفتهم ما أمر به من تجهيز العساكر وحضرت الغد الى
الديوان فجهزوا الى طائفة عظيمة من الجيش فارسلت الى نصير الدين بالموصل أعرفه ذلك وأخوفه
من العسكر ان طرقوا البلاد فانهم يملكونها فأعاد الجواب يقول البلاد لا شك مأخوذة فلأن
يأخذها المسلمون خير من أن يأخذها الكافرون فشرعنا في التحميل واذا قد وصلني كتاب
أتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرني بان لا استصحب من العسكر أحدا
فعرفت السلطان ذلك فقال العسكر قد تجهزت ولا بد من الغزاة الى الشام فأعدت الجهد وبذل
الحزم له ولاصحابه حتى عاد العسكر ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء اتابك زنكي
وأكثروا فمن ذلك ما قاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي من جملة قصيدة أولها

بعزمك أيها الملك العظيم * تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملتها هذه الابيات

ألم تر أن كلب الروم لما * تبين انه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلا * كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه * ودان لخطبه الخطب العظيم
فحين رميته بك في خميس * تيقن ان ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشا * فاحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور * توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى * وليس سوى الحمام له حميم

وهي قصيدة طويلة ومن عجيب ما يحكى ان ملك الروم لما عزم على حصر شيزر سمع من بها ذلك
فقال الامير مرشد بن علي صاحبها وهو ينسخ مصحفا اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجيء
ملك الروم فاقبضني اليك فتوفي بعد أيام

﴿ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الامراء﴾

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو اذربيجان فوصل مراغة وكان الامير
منكبرس صاحب فارس ونائبه بخوزستان الامير بوزابة والامير عبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال
والملك داود بن السلطان محمود مستشعرين من السلطان مسعود خائفين منه فتجمعوا واتفقوا
مع الراشد على الاجتماع لتكون أيديهم واحدة ويردوه الى الخلافة فأجابهم الى ذلك الا انه لم يجتمع
معهم ووصل الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم فسار عنها في شعبان نحوهم
فالتقوا بينجن كشت فاقتتلوا فهزمهم السلطان مسعود وأخذ الامير منكبرس أسيرا فقتل بين
يديه صبرا وتفرق عسكر مسعود في النهب واتباع المنهزمين وكان بوزابة وعبد الرحمن طغايرك على
نشز من الارض فرأيا السلطان مسعودا وقد تفرق عسكره عنه فحملا عليه وهو في قلة فلم يثبت
لهما وانهزم وقبض بوزابة على جماعة من الامراء منهم صدقة بن دبيس صاحب الحلة ومنهم ولد
أتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم عنده فلما بلغه قتل
صاحبه منكبرس قتلهم أجمعين وصار العسكران منهزمين وكان هذا من أعجب الاتفاق وقصد
السلطان مسعود اذربيجان وقصد الملك داود همدان ووصل الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء
الجماعة فبعضهم أشار بقصد العراق والتغلب عليه وبعضهم أشار باتباع السلطان مسعود للفراغ
منه فان ما بعده يهون عليهم وكان بوزابة أكبر الجماعة فلم ير ذلك وكان غرضه المسير الى بلاد فارس

وأمره أن يتزوج أخبره بذلك نبي كان في زمانه وتوفي بعد ان هادنته الملوك وانقادت له في أواخرسنين وثمانمائة
لوفاة موسى عليه السلام
واستمر الملك في ولده الى ان
ولي بختنصر على بابل في
سنة اثنتين وخمسين
وتسعمائة لوفاة موسى
عليه السلام وفي السنة
الاولى من ولايته سار الى
نينوى ففتحها وقتل أهلها
وفي السنة الرابعة سار الى
الشام وغزا بني اسرائيل
فلم يحاربوه وصالحوه وأطاعوه
واستقر صدقيا آخر ملوك
بني اسرائيل تحت بختنصر
بالقدس (وكان) أرمياه
النبي عليه السلام يخوف
بني اسرائيل ويحذرهم
من مجيء بختنصر بالجيوش
وتخريبه القدس فعصى
صدقيا على بختنصر سنة
عشرين من ولايته وسار
بختنصر بالجيوش ونزل
على بارين وجهز وزيره
لحصار صدقيا فحاصره مدة
سنتين ونصف وفتحها
بالسيف وأسر صدقيا
وخرب القدس وحرقه وأباد
بني اسرائيل قتلا وكان
بيت المقدس عامرا
أربعمائة وثلاثة وخمسين
سنة وأقام خرابا بعد ذلك
سبعين سنة وهرب جماعة
من بني اسرائيل من بختنصر
الى مصر فطلبهم من فرعون
مصر فمنعه فقصده بختنصر
والتقى هو وفرعون
الاعرج وانتصر بختنصر
عليه وقتله وصلبه وخرب مصر وبقيت خرابا أربعين سنة وسار الى المغرب وخرب البلاد وسبى العباد وحصل معه دانيال النبي

وأخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل ان يمتنع من بها عليه فبطل عليهم ما كانوا فيه وسار اليها فملكها وصارت له مع خوزستان وسار سلجوق شاه ابن السلطان محمد الى بغداد ليملكها فخرج اليه البقش الشحنة بها ونظر الخادم أمير الحاج وقاتلوه وكان عاجزا مستضعفا ولما قتل صدقة بن دبيس أقر السلطان مسعود الحلة على أخيه محمد بن دبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول يدبره ولما كان البقش شحنة بغداد يقاتل سلجوق شاه ثار العيارون ببغداد ونهبوا الاموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون أرباب الاموال ظاهرا ويأخذون منهم ما يريدون ويحملون الامتعة على رؤس الحمالين فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب وغلت الاسعار وكثر الظلم منه وأخذ المستور بن بجعة العيار بن فجلا الناس عن بغداد الى الموصل وغيرها من البلاد

﴿ذكر قتل الراشد بالله﴾

لما وصل الراشد بالله الى همذان وبها الملك داود وبوزابة ومن معهما من الامراء والعساكر على ما تقدم ذكره ثم سار الى خوزستان مع الملك داود ومعهما خوارزمشاه فقاربا الجزيرة فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود الى فارس وعاد خوارزمشاه الى بلاده وبقي الراشد وحده فلما أيس من عساكر العجم سار الى اصفهان فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة وكان في أعقاب مرض برئ منه ودفن بظاهر اصفهان بشهرستان فركب من معه فقتلوا الباطنية ولما وصل الخبر الى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النوبة يوما واحدا وكان أبيض أشقر حسن اللون مليح الصورة مهيبا شديد القوة والبطش قال أبو بكر الصولي الناس يقولون ان كل سادس يقوم بأمر الناس من أول الاسلام لابد من أن يخلع وربما قتل قال فتأملت ذلك فرأيته كما قيل فان أول من قام بأمر هذه الامة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم فخلع ثم معاوية ويزيد ابنه ومعاوية بن يزيد ومروان وعبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير فخلع ثم عبد الملك وأخوه سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابنا عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك فخلع وقتل ثم لم ينتظم أمر بني أمية ثم ولي السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والامين فخلع وقتل والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين فخلع وقتل والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر فخلع ثم رد ثم قتل ثم القاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع والطائع فخلع ثم القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد فخلع وقتل قلت وفي هذا نظر لان البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان وكونه جعله بعده لا وجه له والصولي انما ذكر الى أيام المطيع لله ومن بعده ذكره غيره

﴿ذكر حال ابن بكران العيار﴾

في هذه السنة في ذي الحجة عظم أمر ابن بكران العيار ببغداد والعراق وكثرت اتباعه وصار يركب ظاهرا في جمع من المفسدين وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد فأمر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الازج ان يشتد اليه ويلبس سراويل فتوة منه ليأمن شره وكان ابن بكران يكثر المقام بالسوادة ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز فانتهى أمرهما الى انهما أرادا ان يضربا باسمهما سكة في الانبار فارسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي الى الوالي أبي الكرم وقالا اما ان تقتل ابن بكران واما ان نقتلك فاحضر ابن أخيه وعرفه ما جرى وقال له اما ان تختارني ونفسك واما ان

عليه السلام وحزقال وجماعة من أولاد الانبياء وفسر دانيال لبختنصر منامه المشهور فصدقه وأنعم عليه وكانت مدة ملكه سبعا وخمسين سنة وشهرا وثمانية أيام وتفسير بختنصر بالعربية عطارد منطاق وفي مدة خراب بيت المقدس أوحى الله الى أرمياه انى عامر بيت المقدس فاخرج اليها ولما جاءها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه وقيل ان صاحب هذه المقالة عزير والاصح انه أرمياه وعمر بيت المقدس بعد خرابه سبعين سنة بهمن أحد ملوك الفرس وهو كيرش فتراجعت اليه بنو اسرائيل ومن جملتهم عزير ولبث عزير فيهم يدبرهم أربعين سنة وتوفي لسنة ثلاثين ومائة لولاية بختنصر وهو من ولد فنحاس بن العزر ابن هرون عليه السلام واستمر في بني اسرائيل حكام منهم تحت حكم الفرس الى ان ظهر الاسكندر في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لولاية بختنصر وغلبت اليونان على الفرس ونقلت التوراة من اللغة العبرانية الى اليونانية وهي أصح نسخ التوراة لانه اتفق عليها اثنان وسبعون عالما منهم ثم بعد مضي ثلثمائة سنة وثلاث سنين للاسكندر ولد المسيح عيسى بن مريم بنت حنة وأبوها عمران بن ماثان من ولد سليمان بن داود وكان زكريا عليه السلام تزوج

تختار ابن بكران فقال انا أقتله وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض الليالي الى ابن أخي أبي الكرم فيقيم في داره ويشرب عنده فلما جاء على عادته وشرب أخذ أبو القاسم سلاحه ووثب به فقتله وأراح الناس من شره ثم أخذ بعده بيسير رفيقه ابن البزاز وصلب وقتل معه جماعة من الحرامية فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة

﴿ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة الخازن﴾

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد أبي البركات بن سلمة الدركزيني واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وكان الكمال شهما شجاعا عادلا نافذ الحكم حسن السيرة أزال المكوس ورفع المظالم وكان يقيم مؤنة السلطان ووظائفه وجمع له خزائن كثيرة وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق فتثقل على المتصرفين وأرباب الاعمال فاوقعوا بينه وبين الامراء لاسيما قراسنقر صاحب اذربيجان فانه فارق السلطان وأرسل يقول اما ان تنفذ رأس الوزير واما أخدمنا سلطانا آخر فأشار من حضر من الامراء بقتله وحذروه فتنة لا تتلافى فقتله على كره منه وأرسل رأسه الى قراسنقر فرضي وكانت وزارته سبعة أشهر وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ووزر بعده أبو العز طاهر بن محمد البرزجردي وزير قراسنقر ولقب عز الملك وضاقت الامور على السلطان مسعود واستقطع الامراء البلاد بغير اختياره ولم يبق له شيء من البلاد البتة الا اسم السلطنة لا غير

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة ملك حسام الدين تمرتاش ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهتاخ من بلاد ديار بكر أخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهذا آخر من بقي فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا يتطرق اليه النقص ولا التغيير وفيها انقطعت كسوة الكعبة لما ذكرناه من الاختلاف فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسي كساها من الثياب الفاخرة بكل ما وجد اليه سبيلا فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية وهو من التجار المسافرين الى الهند كثير المال وفيها توفيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق زوج السلطان مسعود وتزوج بعدها سفري ابنة دبيس بن صدقة في جمادى الاولى وتزوج ابنة قاورت وهو من البيت السلجقي الا أنه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلا ونهارا فلهذا أسقط اسمه وذكره وفيها اقتل السلطان مسعود بن البقش السلاحي شحنة بغداد وكان قد ظلم الناس وعسفهم وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم فقبض عليه وسيره الى تكريت فحبس بها عند مجاهد الدين بهروز ثم أمر بقتله فلما أرادوا قتله ألقى بنفسه في دجلة فغرق فأخذ رأسه وحمل الى السلطان وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز ففعل أعمالا صالحة منها انه عمل مسناة النهروان وأشباهها وكان حسن السيرة كثير الاحسان وفيها درس الشيخ أبو منصور بن الرزاز بالنظامية ببغداد وفيها أرسل الخليفة الى أتابك زنكي في اطلاق قاضي القضاة الزينبي فأطلق وانحدر الى بغداد فخلع عليه الخليفة وأقره على منصبه وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالت مدته وعظم أمره حتى أكل الناس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدواب وتفرق أكثر أهل البلاد من الجوع وفيها توفي طغان أرسلان صاحب بدليس وارزن من ديار بكر وولي بعده ابنه فرتي واستقام له الامر وفيها في شهر صفر جاءت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها من البلاد فخربت كثيرا منها وهلك تحت الهدم عالم كثير وفيها توفي أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي

ايشاع أخت حنة فأرسل الله جبريل يبشر زكريا بيحيى مصدقا بكلمة من الله يعني عيسى وولد يحيى قبل عيسى بستة أشهر ولما ولد عيسى اتهمت اليهود زكريا بمريم وطلبوه فاختفى في شجرة فقطعوا الشجرة وقطعوا زكريا وكان عمره نحو مائة سنة وأما يحيى فانه نبئ صغيرا ودعا الناس الى عبادة الله ولبس الشعر واجتهد في العبادة حتى نحل جسمه وكان عيسى عليه السلام قد حرم نكاح بنت الاخ وكان لهيرودس وهو اسم لكل من حكم على بني اسرائيل من قبل اليونان بنت أخ فأراد أن يتزوجها كما هو حلال في دين اليهود فنهاه يحيى عن ذلك فطلبت أم البنت من هيرودس أن يقتل يحيى فلم يجبها وعاودته وسألته البنت وألحتا عليه فاجابهما وأمر بيحيى فذبح لديهما وكان قتل يحيى قبل رفع عيسى بمدة يسيرة وولد عيسى في سنة أربع وثلثمائة لغلبة الاسكندر في بيت لحم من قرى الفرس وجرى لامه ما قصه الله تعالى في كتابه ثم سارت به الى مصر ولما بلغ اثنتي عشرة سنة عادت به الى الشام ونزلا بالناصرة وبها سميت النصارى وأقام بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله اليه وأرسله الى الناس وسار به يحيى الى الاردن وهو نهر الغور المسمى بالشريعة واعده فيه لستة أيام خلت من كانون الثاني

الفتح الدينوري الفقيه الحنبلي ببغداد وكان ينشد كثيرا هذه الابيات

تمنيت ان تمسى فقيها مناظرا * بغير عناء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة * تلقيتها فالعلم كيف يكون

وفيها توفي محمد بن عبد الملك بن عمر أبو الحسن الكرخي ومولده سنة ثمان وخمسين وأربعمائة وكان فقيها محدثا سمع الحديث بكرخ وأصفهان وهمذان وغيرها وفي شعبان منها توفي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن اسمعيل بن صاعد وهو ابن عم القاضي أبي سعيد وولي القضاء بنيسابور بعد أبي سعيد

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه﴾

في هذه السنة في المحرم سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه وهو ابن ملكشاه محاربا لخوارزم شاه اتسز بن محمد وسبب ذلك ان سنجر بلغه ان اتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له وان هذا الامر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه فأوجب ذلك قصده وأخذ خوارزم شاه فجمع عساكره وتوجه نحوه فلما قرب من خوارزم شاه في عساكره خرج خوارزم شاه اليه في عساكره فلقيه مقابلا وعبي كل واحد منهما عساكره وأصحابه فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يثبتوا وولوا منهزمين وقتل منهم خلق كثير ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه فحزن عليه أبوه حزنا عظيما ووجد وجدا شديدا وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمد ورتب له وزيرا وأتابكا وحاجبا وقرر قواعده وعاد الى مرو في جمادى الآخرة من هذه السنة فلما فارق خوارزم عائدا انتهز خوارزم شاه الفرصة فرجع اليها وكان أهلها يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزم شاه فلما عاد أعانوه على ملك البلد ففارقها سليمان شاه واختلفا بعد الاتفاق فقتل خوارزم شاه في خراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره ان شاء الله

﴿ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد﴾

في هذه السنة في شوال قتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق على فراشه غيلة قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصه وأقرب الناس اليه في خلوته وجلوته وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهرب واحد منهم وأخذ الآخران فصلبا وكتب معين الدين انر من دمشق الى أخيه جمال الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك وهو بها بصورة الحال واستدعاه ليملك بعد أخيه فحضر في أسرع وقت فلما دخل البلد جلس للعزاء باخيه وحلف له الجند وأعيان الرعية وسكن الناس وفوض أمر دولته الى معين الدين انر مملوك جده وزاد في علو مرتبته وصار هو الجملة والتفصيل وأقطعه بعلبك وزوجه بامه وكان انر خيرا عاقلا حسن السيرة فجرت الامور عنده على أحسن نظام

﴿ذكر ملك زنكي بعلبك﴾

في هذه السنة في ذي القعدة سار عماد الدين أتابك زنكي بن اقسنقر الى بعلبك فحصرها ثم ملكها وسبب ذلك ان محمودا صاحب دمشق لما قتل كانت والدته زمرد خاتون عند أتابك زنكي بحلب قد تزوجها فوجدت لقتل ولدها وجدا شديدا وحزنت عليه وأرسلت الى زنكي وهو بديار الجزيرة تعرفه الحادثة وتطلب منه ان يقصد دمشق ويطلب بثار ولدها فلما وقف على هذه

وظهر عيسى المعجزات وانزل عليه الانجيل وأحيا ميتا يقال له عاذر بعد ثلاثة أيام من موته وجعل من الطين طائرا قيل هو الخفاش وكان يمشي على الماء وكان الحواريون الذين له اثنى عشر رجلا وهم شمعون الصفا وشمعون القناني ويعقوب بن زبدي ويعقوب ابن حلفا وقوليين ومارفوس واندراوس وتمر يلا ويوحنا ولوقا وتوما ومتي وهم الذين سألوه المائدة فانزلها الله عليه وهي سفرة حمراء مغطاة بمنديل فيها سمكة مشوية حولها البقول خلا الكراث وعند رأسها الملح وعند ذنبها الخل ومعها خمسة ارغفة على بعضها زيتون وعلى باقيها رمان وتمر فأكل منها خلق كثير ولم ينقص ولم يأكل منها ذو عاهة الا برئ وكانت تنزل يوما وتغيب يوما أربعين ليلة وبعد ثلاث سنين من رسالته طلبه فيلاطوس ليقتله فتوفاه الله ورفعه اليه وألقى شبهه على شخص فمسك وصلب ست ساعات ثم استوهبه يوسف النجار ودفنه في قبر كان أعده لنفسه وانزل الله المسيح الى أمه وأخبرها ان الله رفعه اليه ولم يصبه الا خير فزال حزنها وبكاؤها وجمعت له الحواريون فبثهم في الارض رسلا وكانت قصة حبيب النجار بانطاكية ثم رفع وكان وقت رفعه عمره ثلاثة وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وعاشت أمه بعده

الرسالة بادر في الحال من غير توقف ولا تريث وسار مجدا الجعل ذلك طريقا الى ملك البلد وعبر الفرات عازما على قصد دمشق فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا شيأ مما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد في تحصيله وأقاموا ينتظرون وصوله اليهم فتركهم وسار الى بعلبك وقيل كان السبب في ملكها انها كانت لمعين الدين انز كما ذكرناه وكان له جارية يهواها فلما تزوج أم جمال الدين سيرها الى بعلبك فلما سار زنكي الى الشام عازما على قصد دمشق سير الى أنز يبذل له البذول العظيمة ليسلم اليه دمشق فلم يفعل وسار أتابك الى بعلبك فوصل اليها في العشرين من ذي الحجة في السنة فنازلها في عساكره وضيق عليها وجد في محاربتها ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عددا ترمي ليلا ونهارا فأشرف من بها على الهلاك وطلبوا الامان وسلموا اليه المدينة وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان شجعان الاتراك فقاتلهم فلما أيسوا من معين ونصير طلبوا الامان فأمنهم فسلموا اليه القلعة فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم الا القليل فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وخافه غيرهم وحذروه لاسيما أهل دمشق فقالوا لو ملكنا الفعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفورا وجدوا في محاربته ولما ملك زنكي بعلبك أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين أنز بها فتزوجها بحلب فلم تزل بها الى ان قتل فسيرها ابنه نور الدين محمود الى معين الدين أنز وهي كانت أعظم الاسباب في المودة بين نور الدين وبين أنز والله أعلم

﴿ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها﴾

وفي هذه السنة جمع أتابك قراسنقر صاحب اذربيجان عساكر كثيرة وسار طالبا بثار أبيه الذي قتله بوزابة في المصاف المقدم ذكره فلما قارب السلطان مسعودا أرسل اليه يطلب منه قتل وزيره الكمال فقتله كما ذكرناه فلما قتل سار قراسنقر الى بلاد فارس فلما قاربها تحصن بوزابة منه في القلعة البيضاء ووطئ قراسنقر البلاد وتصرف فيها وليس له دافع ولا مانع الا أنه لم يمكنه المقام وملك المدن التي في فارس فسلم البلاد الى الملك سلجوق شاه بن السلطان محمود وقال له هذه البلاد لك فاملك الباقي وعاد الى اذربيجان فنزل حينئذ بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وملك البلاد وأسر سلجوق شاه وحبس في قلعة بفارس

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في صفر توفي الوزير شرف الدين أنوشروان بن خالد معزولا ببغداد وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه ودفن في داره ثم نقل الى الكوفة فدفن في مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان فيه تشيع وهو كان السبب في عمل المقامات الحريرية وكان رجلا عاقلا شهما دينا خيرا وزر للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود وكان يستقيل من الوزارة فيجاب الى ذلك ثم يخطب اليها فيجيب كارها وفيها قدم السلطان مسعود بغداد في ربيع الاول وكان الزمان شتاء وصار يشتي بالعراق ويصيف بالجبال ولما قدمها أزال المكوس وكتب الالواح بازالتها ووضعت على أبواب الجوامع والاسواق وتقدم أن لا ينزل جندي في دار عامي من أهل بغداد الا باذن فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان وفيها في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد وكان أشدها بالشام وكانت متوالية عشر ليال كل ليلة عشر دفعات فخرب كثير من البلاد ولاسيما حلب فان أهلها لما كثرت عليهم فارقوا البلاد والبيوت وخرجوا الى الصحراء وعدوا في ليلة واحدة جاءتهم ثمانين مرة ولم

ست سنين ثم توفيت وعمرها نحو ثلاث وخمسين سنة وبعد رفع المسيح باربعين سنة غزا طيطوش بيت المقدس وخربه وقتل اليهود وأسرهم ولم يبق بعد ذلك دولة ولا رياسة وكان بيت المقدس عامرا منذ عمره اردشير بهمن سبعمائة سنة واحدى وعشرين سنة ثم بعد تخريبه الثاني تراجع الى العمارة قليلا قليلا واستمر عامرا العمارة الثالثة الى أن خربته أم قسطنطين وبنت كنيسة قامة على القبر الذي تزعم النصارى ان عيسى دفن فيه وصار موضع الصخرة مزبلة الى ان قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفتح المقدس واستدل على هيكل بيت المقدس فنظفه من الزبل وعمره وبنى به مسجدا الى ان ولي الوليد ابن عبد الملك الاموي فهدمه وأعاده على الاساس القديم وهو المسجد الاقصى والصخرة وبنى قبابا هنالك يسمى بعضها قبة المزار وقبة المعراج وقبة السلسلة والامر على ذلك الى يومنا أبقاه الله كذلك وكانت الفترة من رفع المسيح الى مولد النبي العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة وخمسا وأربعين سنة وبدولة نبينا المؤيد أبي ابراهيم محمد عليه من الله الصمد صلاة وسلام مؤيد انقضت سائر الدول وانتسخت الملل وظهر دين الاسلام على الدين كله والسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا هلك

نزل بالشام تتعاهدهم من رابع صفر الى تاسع عشره وكان معها صوت وهزة شديدة وفيها أغار الفرنج على أعمال بانياس فسار عسكر دمشق فى أثرهم فلم يدركوهم فعادوا وفيها توفى أبو القاسم طاهر بن طاهر الشحامى النيسابورى بها ومولده سنة ست وأربعين وأربعمائة وكان اماما فى الحديث مكثرا عالى الاسناد وتوفى عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر بن محمد بن يوسف أبو القاسم بن أبى الحسين البغدادى بها ومولده سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة وعبد العزيز بن عثمان بن ابراهيم ابن محمد الاسدى البخارى كان قاضى بخارا وكان من الفقهاء أولاد الائمة حسن السيرة وتوفى محمد ابن شجاع بن أبى بكر بن على بن ابراهيم اللفتوانى الاصفهانى باصفهان فى جمادى الآخرة ومولده سنة ست وتسعين وأربعمائة وسمع الحديث الكثير باصفهان وبغداد وغيرهما

﴿ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصار أتابك زنكى دمشق﴾

فى هذه السنة حصر أتابك زنكى دمشق مرتين فأما المرة الاولى فانه سار اليها فى ربيع الاول من بعلبك بعد الفراغ من أمرها وتقرير قواعدها واصلاح ماتشعث منها ليحاصرها فنزل البقاع وأرسل الى جمال الدين محمد صاحبها يبذل اليه بلدا يقترحه ليسلم اليه دمشق فلم يجبه الى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا ثالث عشر ربيع الاول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكى وعاد الدمشقيون منهزمين فقتل كثير منهم ثم تقدم زنكى الى الموصل فنزل هناك ولقيه جمع كثير من جند دمشق وأحداثها ورجالة الغوطة فقاتلوه فانهزم الدمشقيون وأخذهم السيف فقتل فيهم وأكثر وأسر كذلك ومن سلم عاد جريحا وأشرف البلد ذلك اليوم على الاخذ وان يملك لكن عاد زنكى وأمسك عنه عشرة أيام وتابع الرسل الى صاحب دمشق وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال الى أن يسلم وامتنع غيره من أصحابه من ذلك وخوفوه عاقبة فعله وان يفعل و يغدر كما فعل باهل بعلبك فلما لم يسلموا اليه عاد القتال والزحف ثم ان جمال الدين محمدا صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان وطمع زنكى حينئذ فى البلد وزحف اليه زحفا شديدا ظنا منه انه ربما يقع بين المقدمين والامراء خلاف فيبلغ به الغرض وكان ما أمله بعيدا فلما مات جمال الدين ولى بعده مجير الدين أبق ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنر فلم يظهر لموت أبيه أثر مع ان عدوهم على باب المدينة فلما رأى أنر أن زنكى لا يفارقهم ولا يزول عن حصرهم راسل الفرنج واستدعاهم الى نصرته وأن يتفقوا على دفع زنكى عن دمشق وبذل لهم بذولا وأن يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها وخوفهم من زنكى ان ملك دمشق فعلموا صحة قوله وعلموا أنه ان ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام وان الفرنج اجتمعوا وعزموا على المسير الى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكى فحين علم زنكى بذلك سار الى حوران خامس رمضان عازما على قتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم فلما رآهم كذلك عاد الى حصر دمشق ونزل بعذرا شماليها سادس شوال فاحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائدا الى بلاده ووصل الفرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكى فعادوا فسار معين الدين أنر الى بانياس فى عسكر دمشق وهى فى طاعة زنكى كما تقدم ذكره ليحصرها ويسلمها الى الفرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بجمعه الى مدينة صور للاغارة على بلاده فصادفه صاحب انطاكية وهو قاصد الى دمشق نجدة لصاحبها على زنكى فاقتتلا فانهزم المسلمون

كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده (فلنذكر الملوك) السالفة والامم وبتمام ذلك يتم المصراع الاول من كتابنا ان شاء الله تعالى فنقول ان أضخم الملوك دولة وأعظمهم سيرة وأسبقهم سياسة ملوك الفرس وهم أربع طبقات الفيشدادية وهم تسعة يقال لكل منهم فيشداد ومعنى ذلك سيرة العدل أولهم أوشهنج أول ملك بعد الطوفان بمائتى سنة وهو أول من لبس التاج وجلس على السرير ثم طهمورث بعد أيام منه ثم جمشيد أخوه وجم القمر وشيد الشعاع وأحدث النيروز ثم الضحاك معرب بيوراسب أى عشرة آفات ملك الارض كلها ووضع المكوس واتخذ الملاهى والمغنين وكان نمرود من عماله ثم افريدون قيل هو ذو القرنين المذكور فى القرآن ملك جميع الارض ثم منوجهر ثم افراسياب وفى أيام منوجهر كان فرعون موسى الوليد بن ريان عاملا له ثم كرساشف والله أعلم (الطبقة الثانية الكيانية) أولهم كيقباذ ثم كيكاوس وكان له ولد فى غاية الجمال اسمه سياوش ثم كيخسرو ولد سياوش المذكور ثم كيهراسف وكان بختنصر من عماله ثم كيشاسف وهو الذى يزعمون أنه باق فى خلنكدروفى أيامه ظهر زرادشت مصنف كتاب المجوس ثم اردشير بهمن الذى عمر

وأخذوا الى بانياس فقتل ونجا من سلم منهم الى بانياس وجمعوا معهم كثيرا من البقاع وغيرها وحفظوا القلعة فنازلها معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم ومعه طائفة من الفرنج فأخذها وسلمها الى الفرنج وأما الحصر الثانى لدمشق فان أتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد الى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها فأقام هناك فلما عاد عسكر دمشق بعد ان ملكوها وسلموها الى الفرنج فرق أتابك زنكى عسكره على الاغارة على حوران وأعمال دمشق وسار هو جريدة مع خواصه فنازل دمشق سحرا ولم يعلم به أحد من أهلها فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتج البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه فلم يمكن زنكى عسكره من الاقدام فى القتال لان عامة عسكره كانوا قد تفرقوا فى البلاد والنهب والتخريب وانما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر الى عسكره وهم متفرقون فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة ثم أحجم زنكى عنهم وعاد الى خيامه ورحل الى مرج راهط وأقام ينتظر عودة عسكره فعادوا اليه وقد ملؤا أيديهم من الغنائم لانهم طرقوا البلاد وأهلها غافلون فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائدا الى بلادهم

﴿ذكر ملك زنكى شهرزور وأعمالها﴾

فى هذه السنة ملك أتابك زنكى شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركمانى وكان حكمه نافذا على قاصى التركمانى ودانيهم وكلمته لا تخالف يرون طاعته فرضا فتحامى الملوك قصده ولم يتعرضوا الولايته لانها منيعة كثيرة المضايق فعظم شأنه وازداد جمعه وأتاه التركمان من كل فج عميق فلما كان هذه السنة سير اليه أتابك زنكى عسكرا فجمع أصحابه ولقيهم فتصافوا واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره وسار الجيش الاتابكى فى اعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الامان لقفجاق فصار اليهم وانخرط فى سلك العساكر ولم يزل هو وبنوه فى خدمة البيت على أحسن قضية الى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة جرى بين أمير المؤمنين المقتفى لامر الله وبين الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى منافرة وسببها ان الوزير كان يعترض الخليفة فى كل ما يأمر به فنفر الخليفة من ذلك فغضب الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان فى سميرية وقت الظهر ودخل اليها واحتمى بها فارسل اليه الخليفة فى العود الى منصبه فامتنع وكانت الكتب تصدر باسمه واستنيب قاضى القضاة الزينبى وهو ابن عم الوزير وأرسل الخليفة الى دار السلطان رسلا فى معنى الوزير فارخص له السلطان فى عزله فحينئذ اسقط اسمه من الكتب وأقام بدار السلطان ثم عزل الزينبى من النيابة وناب سديد الدولة بن الانبارى وفيها قتل المقرب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر وكان قد حكم فى دولته وجميعها من جملة اقطاعه الرى ومن مماليكه عباس صاحب الرى وكان سائر عسكر السلطان سنجر يخدمونه ويقفون ببابه وكان قتله بيد الباطنية وقف له جماعة منهم بزى النساء واستغاث به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه فلما قتل جمع صاحبه عباس العساكر وقصد الباطنية فقتل منهم وأكثر وفعل بهم مالم يفعله غيره ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم الى ان مات وفيها زلزلت كنجة وغيرها من أعمال اذربيجان وأران الا أن أشدها كان بكنجة فخرب منها الكثير وهلك عالم لا يحصون كثرة قيل كان الهلكى مائتى ألف وثلاثين ألفا وكان من

القدس بعد تخريب بختنصر وملك الاقاليم السبعة ومعنى بهمن حسن النية ثم دارا بن دارا ثم كانت غلبة الاسكندر عليه وكان أبوه فيلبش أول من اشتهر من ملوك اليونان وهى الثالثة فضعفت الفرس وغلبت اليونان وصارت لهم القوة والرياسة وكان الاسكندر حين اجتمعت له مملكة العرب بنى الاسكندرية ورأس على سائر اليونان وابادهم وكان أشقر أزرق انصرف بعد غلبته على دارا يريد الاسكندرية فتوفى فى أرض السواد وقيل بشهرزور وقيل بالسم وقيل بالخوانيق وكان عمره ستا وثلاثين سنة قيل ان هذا هو بانى السد وقيل بل هو افريدون المتقدم ذكره وقيل بل هو الصعب بن الرائش الحميرى وسيأتى ذكره فى ملوك العرب ويرجح ذلك قول ابن عباس حين سئل عن ذى القرنين هو من حمير ولفظة ذا تؤيد ذلك أيضا وكان الاسكندر ابن فيلبش المذكور لما قتل دارا قصد قتل جميع ملوك الفرس فاشار عليه أستاذه ارسطاليس وتلميذه ارسطو ان يقيم من الفرس نوابا عنه ليقع بينهم المشاجرة فلا يجتمعون على واحد منهم يملك فقبل ذلك منهما وملك عشرين ملكا على الفرس وهم المسمون بملوك الطوائف وبلغوا مايزيد على تسعين ملكا فى نحو خمسمائة سنة واثنتى عشرة سنة واشتهرت منهم الطبقة الثالثة وهم الاشغانية وعدتهم أحد عشر اشغان اشغان

جملة الهالكى ابنان لقراسنقر صاحب البلاد وتهدمت قلعة هنالك لمجاهد الدين بهروز وذهب له فيها من الذخائر والاموال شئ عظيم وفيها شرع مجاهد الدين بهروز فى عمل النهروانات سكر سكرا عظيما يرد الماء الى مجراه الاول وحفر مجرى الماء القديم وخرق اليه مجراه تأخذ من ديالى ثم استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر وبقى السكر فى البر لا ينتفع به أحد ولم يتعرض أحد الى رده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق ولم يجئ غير مرة واحدة فى اذار ثم انقطع ووقع الغلاء وعدمت الاقوات وفيها فى جمادى الآخرة دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود وكان يوم حملها الى دار الخليفة يوما مشهودا غلقت بغداد عشرة أيام وزينت وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة وفيها فى ربيع الاول توفى القاضى أبو الفضل يحيى ابن قاضى دمشق المعروف بالزكى

﴿ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر مسير جهاردانكى الى العراق وما كان منه﴾

فى هذه السنة أمر السلطان مسعود الامير اسمعيل المعروف بجهاردانكى والبقش كون خر بالمسير الى خوزستان وفارس وأخذها من بوزابة وأطلق لهم نفقة على بغداد فسار واقين معهما الى بغداد فمنعهم مجاهد الدين بهروز عن دخولها فلم يقبلوا منه فارسل الى المعابر فخسفها وغرقها وجد فى عمارة السور وسد باب الظفرية وباب كلواذى وأغلق باقى الابواب وعلق عليها السلاسل وضرب الخيام للمقاتلة فلما علموا بذلك عبروا بصرصر وقصدوا الحلة فمنعهم منها فقصدوا واسط فخرج اليهم الامير طرنطاى وتقاتلوا فانهزم طرنطاى ودخلوا واسطا فنهبوها ونهبوا بلد فرسان والنعمانية وافقهم طرنطاى الى حماد بن أبى الخير صاحب البطيحة ووافقهم عسكر البصرة وفارق اسمعيل والبقش عسكرهما وصارا مع طرنطاى فضعف أولئك فصار الى تستر واستشفع اسمعيل الى السلطان فعفا عنه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر ومعه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب وكانا قد أخذا من المسترشد فأعادهما الآن الى المقتفى وفى هذه السنة توفى أتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وارانية بمدينة أردبيل وكان مرضه السل وطال به وكان من مماليك الملك طغرل وسلمت اذربيجان وارانية الى الامير جاولى الطغرلى وكان قراسنقر عظم محله على سلطانه وخافه السلطان وفيها كان بين أتابك زنكى وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا حرب شديد وانهزم داود وملك زنكى من بلاده قلعة بهمود وأدركه الشتاء فعاد الى الموصل وفيها ملك الاسماعيلية حصن مصياث بالشام وكان واليه مملوكا لبنى منقذ أصحاب شيزر فاحتالوا عليه ومكروا به حتى صعدوا اليه وقتلوه وملكوا الحصن وهو بايديهم الى الآن وفيها توفى سديد الدولة بن الانبارى واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جبير وكان قبل ذلك استاذ الدار وفيها توفى برنقش بازدار صاحب قزوين وفيها فى رجب ظفر ابن الدانشمند صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحى بجمع من الروم فقتلهم وغنم ما معهم وفيها فى رمضان سارت طائفة من الفرنج فخرج اليهم العسكر الذى بعسقلان فقاتلهم فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيرا فعادوا منهزمين وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ولما فرغت درس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل

وحضره

ثم ملاش ثم أردوان الاصغر ثم كانت الطبقة الرابعة منهم وهم الاكاسرة أولهم اردشير بابك وهو من ولد ساسان بن اردشير بهمن وكان ساسان قد خرج زاهدا فى أيام أبيه بهمن ورعى الغنم ونزل عن الملك لاخيه دارا وهذا اردشير ابن بابك به انقضت دولة ملوك الطوائف حين غلب عليهم وقتل الاردوانيين واجتمع له ملك جميع الطوائف واعتدلت بهذا اردشير قوة الدولتين أعنى الفرس واليونان ثم ملك بعده ابنه سابور وظهر فى أيامه مانى الزنديق وادعى النبوة وتبعه خلق كثير وهم المسمون بالمانوية وصانعته ملوك اليونان غير دقيانوس وكتب الفلاسفة ونقلها بالفارسية واستخرج الملهاة المسماة بالعود ثم ملك هرمز وكان بطلا عظيما ثم ابنه بهرام بن هرمز ثم ابنه بهرام بن بهرام ثم ابنه بهرام بن بهرام بن بهرام ثم ابنه برشى ثم ابنه هرمز فمات وزوجته حامل ولم يكن له ولد فعقدوا التاج على ما فى جوفها فولدت سابور فنجب وغزا فى العرب وسفك من دمائهم مالا يحصى لكونهم طمعوا فى بلاده أيام صغره ووصل الى الحسا والقطيف ثم سار الى اليمامة وقتل بها وجعل لا يمر على ماء للعرب الا طمه

وحضره أرباب المناصب وسائر الفقهاء وفيها فى رجب مات القاضى أبو بكر بن محمد بن عبد الباقى الانصارى قاضى المارستان عن نيف وسبعين سنة وله الاسناد والعوالى بالحديث وكان عالما بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الاوائل وهو آخر من حدث فى الدنيا عن اسحق البرمكى والقاضى أبى بكر الطبرى وأبى طالب العشارى وأبى محمد الجوهرى وغيرهم وتوفى الامام الحافظ أبو القاسم اسمعيل بن محمد بن الفضل الاصفهانى عشر ذى الحجة ومولده سنة تسع وخمسين وله التصانيف المشهورة وتوفى يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن يعقوب الهمذانى من أهل برزجرد وسكن مرو وتفقه على أبى اسحق الشيرازى وروى الحديث واشتغل بالرياضات والمجاهدات ووعظ ببغداد فقام اليه متفقه يقال له ابن السقاء وسأله وآذاه فى السؤال فقال اسكت انى أشم منك ريح الكفر فسافر الرجل الى بلد الروم وتنصر وفيها مات أبو القاسم على ابن افلح بن افلح الشاعر المشهور

﴿ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر انهزام السلطان سنجر من الاتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر﴾

ثم ذكر أصحاب التواريخ فى هذه الحادثة أقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من اختلافها وعدتها فنقول فى هذه السنة فى المحرم وقيل فى صفر انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار وسبب ذلك ان سنجرا كان قتل ابنا لخوارزم شاه اتسز بن محمد كما ذكرناه قبل فبعث خوارزم شاه الى الخطا وهم بما وراء النهر يطمعهم فى البلاد ويروج عليهم أمرها وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر فساروا فى ثلثمائة ألف فارس وسار اليهم سنجر فى عساكره فالتقوا بما وراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة ألف قتيل منهم اثنا عشر ألفا كلهم صاحب عمامة وأربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجر وتم السلطان منهزما الى ترمذ وسار منها الى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو فدخلها مراغمة للسلطان سنجر وقتل بها وقبض على أبى الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد ولم يزل السلطان سنجر مسعودا الى وقتنا هذا لم تنهزم له راية ولما تمت عليه هذه السنة الهزيمة أرسل الى السلطان مسعود وأذن له فى التصرف فى الرى وما يجرى معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره أن يكون مقيما فيها بعساكره بحيث ان دعت حاجة استدعاه لاجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الرى الى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة وسار السلطان الى الرى امتثالا لامر عمه سنجر وقيل ان بلاد تركستان وهى كاشغر وبلاد بلاساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الاتراك وهم مسلمون من نسل افراسياب التركى الا انهم مختلفون وكان سبب اسلام جده شبق قراخاقان انه رأى فى منامه كأن رجلا نزل من السماء فقال بالتركية ما معناه أسلم تسلم فى الدنيا والآخرة فاسلم فى منامه وأصبح فاظهر اسلامه فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق ولم يزل الملك بتلك الناحية فى أولاده الى أرسلان خان بن محمد بن سليمان بن داود بغراخان بن ابراهيم الملقب بطيغاج خان بن ايلك الملقب بنصر أرسلان بن على بن موسى بن شبق فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه فقتل سنجر قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وأعاد الملك الى أرسلان خان وثبت قدمه وخرج خوارج فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده الى ملكه وكان من جنده نوع من الاتراك يقال لهم القارغلية والاتراك الغزية الذين نهبوا

فارس والروم ثم ملك أخوه أردشير ثم سابور بن سابور ذا الاكتاف ثم أخوه بهرام بن سابور وسمى كرمان شاه ثم يزدجرد بن بهرام بن سابور ثم بهرام جور ثم ابنه يزدجرد ثم ابنه هرمز ثم أخوه فيروز ظهر فى أيامه غلاء عظيم وغارت الاعين ويبس النبات تسع سنين ثم أعاد الله الخير أحسن ما كان ثم ملك ابنه ملاش ثم أخوه قباذ وفى أيامه ظهر مزدك الزنديق وادعى النبوة وأمر الناس بالتساوى والاشتراك فى الاموال والنساء وأطاعه قباذ وعظم ذلك على الناس فخلعوا قباذ وولوا أخاه جاماسف ثم انتصر قباذ بالهياطلة وعاد ثم مات وملك بعده ابنه أنوشروان فعدل وقتل مزدك وكل من تبعه وضخمت دولته وفتح الرها مدينة هرقل وأذعن له قيصر بالطاعة وقتل الهياطلة وأعاد ملك سيف بن ذى يزن عليه وقتل ملك الحبشة مسروق بن أبرهة الاشرم (وولد النبى صلى الله عليه وسلم) فى السنة الثانية والاربعين من ملك أنوشروان ومات أنوشروان سنة ثمان وثمانين وثمانمائة من غلبة الاسكندر وعليه كانت خاتمة الفرس فانه ملك بعده ابنه هرمز وخلع وسملت عيناه واعتقل مدة ثم خنق * ثم ابنه أبرويز وهو الذى فعل ذلك مع أبيه ثم خالف عليه بهرام جوبين

خراسان على مانذكره ان شاء الله وهم نوعان نوع يقال لهم اجق وأميرهم طوطى بن داديك وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد فحسن الشريف الاشرف بن محمد بن أبى شجاع العلوى السمرقندى لولد أرسلان خان المعروف بنصر خان طلب الملك من أبيه وأطمعه فسمع محمد بن خان الخبر فقتل الابن والشريف الاشرف وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم الى العصيان عليه وانتزع الملك منه فعاود الاستعانة بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان بينهما مصاهرة فوصل الى سمرقند وهرب القارغلية من بين يديه واتفق أن السلطان سنجر خرج الى الصيد فرأى خيالة فقبض عليهم فقررهم فأقروا أن أرسلان خان وضعهم على قتله فعاد الى سمرقند فحصر أرسلان خان بالقلعة فملكها وأخذه أسيرا وسيره الى بلخ فمات بها وقيل بل غدر به سنجر واستضعفه فملك البلد منه وأشاع عنه ذلك فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالى الحسن بن على بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين وكان من أعيان بيت الخانية الى الآن الا أن أرسلان خان اطرحه فلما ولى سمرقند وكان هذا حسن ابن أخت سنجر لم تطل أيامه فمات عن قليل فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان وهو ابن الذى أخذ منه سنجر سمرقند وكان هذا محمود ابن أخت سنجر وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الاعور وهو كوخان الصينى الى حدود كاشغر فى عدد كثير لا يعلمهم الا الله فاستعد له صاحب كاشغر وهو الخان أحمد بن الحسن وجمع جنوده فخرج اليه والتقوا فاقتتلوا فانهزم الاعور الصينى وقتل كثير من أصحابه ثم انه مات فقام مقامه كوخان الصينى وكو بلسان الصين لقب لاعظم ملوكهم وخان لقب لملوك الترك فمعناه أعظم الملوك وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار وكان مانويا ولما خرج من الصين الى تركستان انضاف اليه الاتراك الخطا وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم فى خدمة الخانية أصحاب تركستان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر ألف خركاه ويتركهم على الدروب التى بينه وبين الصين يمنعون أحدا من الملوك أن يتطرق الى بلاده وكان لهم على ذلك جرايات واقطاعات فاتفق أنه وجد عليهم فى بعض السنين فمنعهم عن نسائهم لئلا يتوالدوا فعظم عليهم ولم يعرفوا وجها يقصدونه وتحيروا فاتفق أن اجتاز بهم قفل عظيم فيه الاموال الكثيرة والامتعة النفيسة فأخذوه وأحضروا التجار وقالوا لهم ان كنتم تريدون أموالكم فعرفونا بلدا كثير المرعى فسيحا يسعنا ويسع أموالنا فاتفق رأى التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم فأعادوا اليهم أموالهم وأخذوا الموكلين الذين كانوا بهم لمنعهم عن نسائهم وكتفوهم وأخذوا نساءهم وساروا الى بلاساغون وكان أرسلان خان يغزوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفا عظيما فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصينى انضافوا اليه أيضا فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم وملكوا بلاد تركستان وكانوا اذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيأ بل يأخذون من كل بيت دينارا من أهل البلاد وغيرها من القرى وأما المزدرعات وغير ذلك فلاهلها وكل من أطاعهم من الملوك شد فى وسطه شبه لوح فضة فتلك علامة من أطاعهم ثم ساروا الى بلاد ما وراء النهر فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة فى رمضان سنة احدى وثلاثين وخمسمائة واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد الى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحا ومساء وكذلك أهل بخارا وغيرهما من بلاد ما وراء النهر وأرسل الخاقان محمود الى السلطان سنجر يستمده

وأراد أن ينتقم منه لأبيه فهرب أبرويز الى ملك الروم واستنجد به وعاد الى ملكه وجمع أموالا عظيمة وتزوج شيرين المغنية وبنى قصر شيرين المشهور بين حلوان وخانقين وعتا وتجبر فكبس فى داره وخرجت عليه الرعية وأقاموا ولده شيرويه فاحضر أباه أبرويز وقال له لا تعجب ان أنا قتلتك فانى أقتدى بك فى قتلك اباك ثم أمر به فقتل وقتل جميع اخوته وكانوا سبعة عشر ثم مات * وملك بعده ابنه أردشير فخرج عليه شهريار مقدم الفرس وكان أقطعه الشام فقتله وجلس على السرير فقامت عليه عظماء الفرس وأنزلوه عن السرير لكونه لم يكن من بيت الملك وربطوا فى رجله حبلا وجروه فى الازقة فطلبوا أن يملكوا غيره فلم يجدوا الا بنت أبرويز اسمها بوران فملكوها عليهم فهلكت عن قريب فولوا اخشنشده من بنى عم أبرويز فلم يهتد للملك فأقام دون شهر ثم ولوا بنت ابرويز الاخرى أرزودخت وكانت من الجمال على غاية فخطبها فرخ شاه فأبت ثم أجابته الى الاجتماع به ليلا فلما جاء اليها قتلته فجمع ولده رستم عسكره وكان نائبا على خراسان فقصدها فقتلها وكانت مدتها ستة أشهر ثم طلبوا فلم يجدوا الا رجلا من عقب اردشير بابك اسمه كسرى بن شهر حشيش فملكوه عليهم فلم يلبث به الملك فقتلوه

وبنى

وينهى اليه ما لقى المسلمون ويحثه على نصرتهم فجمع العساكر فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان والغور وملك غزنة وملك مازندران وغيرهم فاجتمع اليه أكثر من مائة ألف فارس وبقى العرض ستة أشهر وسار سنجر الى لقاء الترك فعبروا الى ما وراء النهر فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فشكا اليه محمود بن محمد خان من الاتراك القارغلية فقصدهم سنجر فالتجؤا الى كوخان الصينى ومن معه من الكفار وأقام سنجر بسمرقند فكتب اليه كوخان كتابا يتضمن الشفاعة فى الاتراك القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب اليه يدعوه الى الاسلام ويهدده ان لم يجب اليه ويتوعده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ فى قتالهم بأنواع السلاح حتى قال وانهم يشقون الشعر بسهامهم فلم يرض هذا الكتاب وزير السلطان طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك فلم يصغ اليه وسير الكتاب فلما قرئ الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول وأعطاه ابرة وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يقدر يفعل ذلك فقال كيف يشق غيرك شعرة بسهم وأنت عاجز عن شقها بابرة واستعد كوخان للحرب وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم وقصد السلطان سنجر فالتقى العسكران وكانا كالبحرين العظيمين بموضع يقال له قطوان وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم الى واد يقال له درغم وكان على ميمنة سنجر الامير قماج وعلى ميسرته ملك سجستان والابطال وراءهم فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكانت الاتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالا ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر أحسن قتالا من صاحب سجستان فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين فقتل منهم ما لا يحصى من كثرتهم واشتمل وادى درغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى ومضى السلطان سنجر منهزما وأسر صاحب سجستان والامير قماج وزوجة السلطان سنجر وهى ابنة أرسلان خان فأطلقهم والحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخارى الفقيه الحنفى المشهور ولم يكن فى الاسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر ممن قتل فيها بخراسان واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر وبقى كوخان الى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فمات فيه وكان جميلا حسن الصورة لا يلبس الا الحرير الصينى له هيبة عظيمة على أصحابه ولم يسلط أميرا على اقطاع بل كان يعطيهم من عنده ويقول متى أخذوا الاقطاع ظلموا وكان لا يقدم أميرا على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه وكان ينهى أصحابه عن الظلم وينهى عن السكر ويعاقب عليه ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت فملك بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد وبقى ما وراء النهر بيد الخطا الى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتى عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان﴾

قد ذكرنا قبل قصد السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه اتسز وعوده اليها وقتل ولد خوارزم شاه وانه هو الذى راسل الخطا وأطمعهم فى بلاد الاسلام فلما لقيهم السلطان سنجر وعاد منهزما سار خوارزم شاه الى خراسان فقصد سرخس فى ربيع الاول من السنة فلما وصل اليها لقى الامام أبا محمد الزيادى وكان قد جمع بين الزهد والعلم فأكرمه خوارزم شاه اكراما عظيما ورحل من هناك الى مرو الشاهجان فقصده الامام أحمد الباخرزى وشفع فى أهل مرو وسأل ان لا يتعرض اليهم أحد من العسكر فأجابه الى ذلك ونزل بظاهر البلد واستدعى أبا الفضل الكرمانى الفقيه وأعيان أهلها فثار عامة مرو وقتلوا بعض أهل خوارزم شاه

بعد أيام ثم طلبوا فلم يجدوا الا رجلا اسمه فيروز يزعم أنه من نسل أنوشروان فوضعوا التاج على رأسه فلم يسع رأسه فقال ما أضيق هذا فتطيروا من كلامه فقتلوه * ثم ملك فرخ زاد خسرو من أولاد أنوشروان ستة أشهر ثم قتلوه ثم طلبوا فوجدوا واحدا من أولاد شهريار بن ابرويز اسمه يزدجرد كان مختفيا باصطخر حين قتل اخوته أخوهم شيرويه وكان ملك يزدجرد المذكور كالخيال وكانت الوزراء تدبره وضعفت مملكة الفرس جدا وغزت المسلمون بلادهم وقتل يزدجرد المذكور بمرو فى خلافة عثمان وانتسخ ملك الفرس بالاسلام الى الابد ان شاء الله تعالى فكان أول الاكاسرة أردشير بن بابك وآخرهم يزدجرد بن شهريار (وأما ملوك اليونان) فانهم كانوا ملوك طوائف ولم يشتهر منهم الا فيلبش * ثم ولده الاسكندر ولما مات الاسكندر صار ملك اليونان الى البطالسة وهم ثلاثة عشر ملكا وكانت مدة ملكهم مائتين وخمسا وسبعين سنة أولهم بطليموس شمعوس بن لاغوش وكل واحد منهم يسمى بطليموس ومعناه أسد الحرب ملك عشرين سنة ثم بعده فناودقوس ومعناه محب أخيه ثمانيا وثلاثين سنة وهو الذى نقلت له التوراة من العبرانية الى اليونانية * ثم أوراخيطش خمسا وعشرين سنة

ثم قتلوابطول ومعناه محب أبيه سبع عشرة سنة ثم افنغيوس أربعاوعشرين سنة ✽ ثم قتلوامطول ومعناه محب

وأخرجوا أصحابه من البلد وأغلقوا أبوابه واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزم شاه ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الاول من السنة وقتل كثيرا من أهلها وممن قتل ابراهيم المروزى الفقيه الشافعى وعلى بن محمد بن أرسلان وكان ذا فنون كثيرة من العلم وقتل الشريف على بن اسحق الموسوى وكان رأس فتنة وملقح شر وقتل كثيرا من أعيان أهلها وعاد الى خوارزم واستصحب معه علماء كثيرا من أهلها ✽ منهم أبو الفضل الكرمانى وأبو منصور العبادى والقاضى الحسين بن محمد الارسابندى وأبو محمد الخرقى الفيلسوف وغيرهم ثم سار فى شوال من السنة الى نيسابور فخرج اليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور مافعل بأهل مرو فأجابهم الى ذلك لكنه استقصى فى البحث عن أموال أصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر أول ذى القعدة وخطبوا له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديدا وانما منع الناس ذو الرأى والعقل نظرا فى العاقبة فقطعت الى أول المحرم سنة سبع وثلاثين فأعيدت خطبة السلطان سنجر ثم سير خوارزم شاه جيشا الى أعمال بيهق فأقاموا بها يقاتلون أهلها خمسة أيام ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعملوا بخراسان أعمالا عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة اتسز خوارزم شاه لاجل قوة الخطا وراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة ملك أتابك زنكى بن آقسنقر مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهراش الى الموصل ورتب أصحابه فيها وفيها أيضا خطب لزنكى بمدينة آمد وصار صاحبها فى طاعته وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكى فلما رأى قوة زنكى صار معه وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكية بغداد ووليها قزل أمير اخور وهو من مماليك السلطان محمود وكان له بروجرد والبصرة فأضيف اليه شحنكية بغداد ثم وصل السلطان الى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ماساءه فأعاد بهروز الى الشحنكية فتاب كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لان ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم وفيها تولى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان واستولى على المملكة وعزل الامير تبر الطغرلى عنها وآل أمره الى أن مشى فى ركاب عبد الرحمن وفيها توفى ابراهيم السهاوى مقدم الاسماعيلية فأخرجه ولد عباس صاحب الرى فى تابوته وفيها خرج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد وقد لبس ثياب الصوفية وتخلى عن جميع ما كان عليه وأقام فى داره مرعى الجانب محروس القاعدة وفيها وصل السلطان الى بغداد وكان الوزير الزينبى بدار السلطان كما ذكرناه فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة الى داره فأرسل السلطان وزيره الى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبى وشفع ان يعود الى داره فأذن له فى ذلك وأعاد أخاه الى نقابة النقباء فلزم الوزير داره ولم يخرج منها الا الى الجامع وفيها أغار عسكر أتابك زنكى من حلب على بلاد الفرنج فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج فقتلوا فيهم وأكثروا فكان عدة القتلى سبعمائة رجل وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسير السلطان مسعود سرية اليهم من العسكر فنهبوا حللهم وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين وفيها سير رجار الفرنجى صاحب صقلية اسطولا الى أطراف افريقية فأخذوا مراكب سيرت من مصر الى الحسن صاحب افريقية وغدر بالحسن ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لاجل

أمه خمسا وثلاثين سنة ثم أوراحيطن تسعا وعشرين سنة ثم سوطراست عشرة سنة ثم سيدبز يطيس تسع سنين ثم اسكندروس ثلاث سنين ثم قيلودفوس ثمان سنين ثم بطليموس الثانى تسعا وعشرين سنة ثم قلوبطرا وهى امرأة اثنين وعشرين سنة ثم غلبت الروم على الملك وقتلت قلوبطرا نفسها وانقرض عليها ملك اليونان وأول من اشتهر من ملوك الروم غاليوس ثم بولوس ثم أغسطس وهو الذى غلب على قلوبطرا وابتدأ باستبداد الملك فى الروم فلقب بقيصر وصار بعده لقبا لملوك الروم وهم بنو الاصفر وكان ذلك لمضى مائتين واثنتين وثمانين سنة لغلبة الاسكندر وملك اغيليطاش ديار مصر والشام ودخلت بنو اسرائيل تحت طاعته وفى أيامه ولد المسيح عليه السلام ثم ملك بعده طيبارقوس وهو بانى طبرية ثم غايوس وفى أيامه رفع المسيح ثم قلوديوس ثم بارون ثم سامانوس ثم طيطوس الذى خرب القدس الخراب الثانى ثم مطينوس ثم بارواس ثم طرانوس ثم اذريانوس وكان فى أيامه بطليموس صاحب المجسطى ثم انطونينوس ثم مرقوس ثم قومودوس وفى أيامه جالينوس ثم فوطيوس ثم ساروس ثم انطينيوس

جمل

ثم الاسكندروس ثم مكمينوس ثم عرودبانوس ثم دقيانوس ومنه هربت الفتية الى الكهف ثم غالينوس ثم ارنانوس ثم

حمل الغلات من صقلية الى افريقية لان الغلاء كان فيها شديدا والموت كثيرا وفيها توفى أبو القاسم عبد الوهاب بن عبد الواحد الحنبلى الدمشقى وكان عالما وفيها توفى ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوثى وزير أتابك زنكى وكان حسن السيرة فى وزارته كريما رئيسا وفيها توفى أبو محمد بن طاوس امام الجامع بدمشق فى المحرم وكان رجلا صالحا فاضلا وفيها توفى أبو القاسم اسمعيل بن أحمد بن عمر بن أبى الاشعث المعروف بابن السمرقندى ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثرا من الحديث عالى الرواية

﴿ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكى قلعة أشب وغيرها من الهكارية﴾

فى هذه السنة أرسل أتابك زنكى جيشا الى قلعة أشب وكانت أعظم حصون الاكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا على من بها فملكوها فأمر باخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنها وكانت هذه القلعة العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخربوه لكبره لانه كبير جدا وكانوا يعجزون عن حفظه فخربت الآن أشب وعمرت العمادية وانما سميت العمادية نسبة الى لقبه وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية

﴿ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب﴾

وفى هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وسبب ذلك ان أهلها فى أيام الامير الحسن صاحب افريقية لم يدخلوا أبدا فى طاعته ولم يزالوا مخالفين مشاقين له قد قدموا عليهم من بنى مطروح مشايخ يدبرون أمرهم فلما رآهم ملك صقلية كذلك جهز اليهم جيشا فى البحر فوصلوا اليهم تاسع ذى الحجة فنازلوا البلد وقاتلوه وعلقوا الكلاليب فى سوره ونقبوه فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدة لاهل البلد فقوى أهل طرابلس بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب والآلات فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل فلما رآهم أهل البلد هربوا الى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة خرج حسن أمير الامراء على السلطان سنجر بخراسان وفيها توفى محمد بن دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية وفيها خرج من الروم عسكر كثير الى الشام فحصروا الفرنج بانطاكية فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم وأصلح حاله معه وعاد الى مدينته ومات فى رمضان من هذه السنة ثم ان ملك الروم بعد أن صالح صاحب انطاكية سار الى طرابلس فحصرها ثم سار عنها وفيها قبض السلطان مسعود على الامير ترشك وهو من خواص الخليفة وممن ربى عنده وفى داره فساء ذلك الخليفة ثم أطلقه السلطان حفظا لقلب الخليفة وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك منه أكثر البلاد

﴿ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكى﴾

فلودس ثم اذرقلينوس ومات بصاعقة ثم قروقوس ثم فاروس ثم دقليطيانوس وهو آخر عبدة الاصنام من ملوك الروم ثم قسطنطين المظفر انتقل من رومية الى بيزنطية فعمر سورها وسماها قسطنطينية وجمع الاساقفة ووضعوا شرائع النصرانية وسارت أمه هيلانة وأخرجت من بيت المقدس خشبة الصليب وأقامت عيدا عنده سموه عيد الصليب وبنت عدة كنائس منها قامة وكنيسة حمص وكنيسة الرها ثم ملكت أولاده الثلاثة بعده ثم كليانوس ثم يونيانوس وهو الذى اصطلح مع سابور ثم البطيانوس ثم انونيانوس ثم جرطيانوس ثم باوذونوس الكبير ثم ارفارنوس ثم أبوبروس ثم ناودونوس وفى أيامه انتبه أصحاب الكهف ثم مرقيانوس ثم والبطنس ثم لاون ثم زينون ثم اسطينيوس وهو الذى عمر اسوار حماه ثم نسطينوس الثانى ثم طيرنوس الاول ثم طيرنوس الثانى ثم ماربقوس ثم مرقوس ثم قرقاس ثم هرقل واسمه بالرومى أوقليس وكانت الهجرة فى السنة الثانية

عشرة من ملكه وانتهت به دولة الروم ومزقوا كل ممزق كما أخبر به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ✽ وأما ملوك مصر

في هذه السنة وصل السلطان مسعود الى بغداد على عادته فى كل سنة وجمع العساكر وتجهز لقصد أتابك زنكى وكان حقد عليه حقدا شديدا وسبب ذلك ان أصحاب الاطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ماتقدم ذكره فكان ينسب ذلك الى أتابك زنكى ويقول هو الذى سعى فيه وأشار به لعلمه انهم كلهم كانوا يصدرون عن رأيه فكان أتابك زنكى لاشك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره فلما تفرغ السلطان هذه السنة جمع العساكر ليسير الى بلاده فسير أتابك يستعطفه ويستميله فأرسل اليه السلطان أبا عبد الله بن الانبارى فى تقرير القواعد فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها الى السلطان ليعود عنه فحمل عشرين ألف دينار أكثرها عروض ثم تنقلت الاحوال بالسلطان الى ان احتاج الى مداراة أتابك وأطلق له الباقى استمالة له وحفظا لقلبه وقعود السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله ومن جيد الرأى مافعله الشهيد فى هذه الحادثة فانه كان ولده الاكبر سيف الدين غازى لا يزال عند السلطان سفرا وحضرا بأمر والده فأرسل اليه ثانية وأرسل اليه نائبه بها نصير الدين جقر فيقول له ليمنعه عن الدخول الى الموصل والوصول اليه فهرب غازى وبلغ الخبر ولده فأرسل اليه يأمره بالعودة الى السلطان ولم يجتمع به وأرسل معه رسولا الى السلطان يقول له ان ولدى هرب خوفا من السلطان لما رأى تغيره على وقد أعدته الى الخدمة ولم أجتمع به فانه مملوكك والبلاد لك فحل ذلك من السلطان محلا عظيما

﴿ذكر ملك أتابك بعض ديار بكر﴾

وفى هذه السنة سار أتابك زنكى الى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون فمن ذلك مدينة طنزة ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الدوق وحصن مطليس وحصن بانسية وحصن ذى القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ غيره هذه الاماكن وأخذ أيضا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج جملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ورتب أمور الجميع وخلى فيها من الاجناد من يحفظها وقصد مدينة آمد وحانى فحصرهما وأقام بتلك الناحية مصلحا للمافتحه ومحصرا لما لم يفتحه

﴿ذكر أمر العيارين ببغداد﴾

وفى هذه السنة زاد أمر العيارين وكثر الامنهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخى زوجة السلطان لانهما كان لهما نصيب من الذى يأخذه العيارون وكان النائب فى شحنكية بغداد مملوكا اسمه ايلدكز وكان صارما مقداما الا انه لا يمكنه الاقدام على من حضر عند السلطان فقال له السلطان ان السياسة قاصرة والناس قد هلكوا فقال يا سلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا امرأتك فأى قدرة لى على المفسدين وشرح له الحال فقال له الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا وتصلبهما فان فعلت والا صلبتك فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده فأخذ من كان عنده وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع الامر ورؤى ابن قاورت مصلوبا فهرب أكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم

﴿ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه﴾

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين مسير سنجر الى خوارزم وملكه لها وعود أتسز خوارزم شاه اليها وأخذها وما كان منه بخراسان بعد ذلك فلما كان فى هذه السنة سار السلطان سنجر الى

فأول من ملك مصر بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح ثم ولده مصر وبه سميت ثم ولده قفط ثم أخوه اتريب ثم أخوه صنا ثم تادرس ثم ابنه ماليق ثم ابنه حرايا ثم ابنه كليكلى وهو أول من جمد الزئبق وصنع الزجاج ثم حربيا بن ماليق ثم طوليس وهو فرعون ابراهيم ثم أخته جورياق ثم زلفا بنت مانون فغزتها العماليق من الشام وأخذ مصر منها الوليد بن دومع العملاقى قيل هو أول من تسمى بفرعون فصار بعده لقبا لكل من ملك مصر وعبد البقر ثم مات وملك بعده ولده الريان وهو فرعون يوسف ثم ابنه دارم ثم كاشم بن معدان العمليق وقصدان يهدم الهرمين فأخبرته الحكماء ان خراج مصر لا يفى بذلك وانهما قبرا شيث وهرمس فامسك عنهما ثم ملك بعده الوليد بن مصعب فرعون موسى قيل هو من العمالقة وقيل من القبط وهو الذى ادعى الربوبية وكان هامان وزيره وملك ثمانين سنة ثم ملكت بعده العجوز دلوكه من بنات ملوك القبط وانتهى اليها علم السحر وطال عمرها ثم ملك بعدها صبى اسمه دركون بن ملطوس ثم فورس ثم لقاش ثم ترسا ثم انماوس ثم بلطوش بن مناكيل ثم مالوس ثم مناكيل ثم بوله واسمه شنشان ثم بستقر بعده غير فرعون الاعرج الذى صلب

خوارزم شاه فجمع خوارزم شاه عساكره وتحصن بالمدينة ولم يخرج منها القتال لعلمه انه لا يقوى لسنجر وكان القتال يجرى بين الفريقين من وراء السور فاتفق فى يوم من بعض الايام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربى فلم يبق غير ملكه قهرا وعنوة وكان منقال التاجى هجم من الشرق فانهزم منقال عن البلد وبقى سنقر وحده فى البلد فقوى عليه خوارزم شاه اتسز فأخرجه من البلد وبقى سنجر وحده واشتد فى حفظه فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه عزم على العود الى مرو ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما فاتفق ان خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود الى ما كان عليه من الانقياد فأجابه الى ذلك واصطلحا وعاد سنجر الى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة سير أتابك زنكى عسكرا الى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكوها وفيها فى المحرم توفى أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد الانماطى الحافظ ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة وفيها توفى أبو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الاسفراينى الواعظ من أهل اسفراين من خراسان وأقام مدة ببغداد يعظ وسار الى خراسان فلما مات حضر الغزنوى عزاءه ببغداد وبكى وأكثر فقال بعض أصحاب أبى الفتوح للغزنوى كلاما أغلظ له فيه فلما قام الغزنوى لامه بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له كنت مهاجرا لهذا الرجل فلما مات حضرت عزاءه وأكثرت البكاء وأظهرت الحزن قال كنت أبكى على نفسى كان يقال فلان وفلان فمن يعدم النظير أيقن بالرحيل وأنشد هذه الابيات

ذهب المبرد وانقضت أيامه * وسينقضى بعد المبرد ثعلب
بيت من الآداب أصبح نصفه * خربا وباق نصفه فسيخرب
فتزودوا من ثعلب فبمثل ما * شرب المبرد عن قليل يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه * ان كانت الانفاس مما يكتب

وفيها توفى الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى فى رمضان معزولا ودفن بداره بباب الازج ثم نقل الى الحربية وفيها توفى أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى النحوى المفسر وزمخشر احدى قرى خوارزم

﴿ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية﴾

فى هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح أتابك عماد الدين زنكى بن آقسنقر مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها ووصلت غاراتهم الى أدانيها وأقاصيها وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطية وجملين والموزر والقرادى وغير ذلك وكانت هذه الاعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر وكان أتابك يعلم انه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه ملكها لما هى عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير متفرغ الى قصد بلادهم فلما رأوه انه غير قادر على ترك الارتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث انه محارب لهم اطمأنوا وفارق جوسلين

بختنصر وبقيت مصر بعده خرابا أربعين سنة ثم صار بمصر عمال من جهة بختنصر ثم ولاة من جهة الفرس فكان منهم كرخوش ثم طخمارست الطويل وفى أيامه كان بقراط الحكيم وتوالت عليها نواب الفرس الى ظهور الاسكندر ثم نواب اليونان ثم نواب الروم الى ظهور الاسلام (وأما ملوك العرب) فانه لما تبلبلت الالسن وتفرقت أولاد نوح نزل اليمن قحطان بن عابر بن شالخ فملك اليمن وهو أول من لبس التاج من العرب ثم ملك بعده يعرب ولده وهو أول من نطق بالعربية ثم ابنه يشجب ثم ابنه عبد شمس فأكثر الغزو فى أقطار البلاد فسمى سبا وبنى مدينة سميت باسمه ثم ملك حمير بن سبا ثم وائل ابن حمير ثم السكسك بن وائل ثم يعفر بن السكسك ثم وثب على اليمن ذو رياش عامر بن باراب بن عوف ابن حمير ثم نهض من بنى وائل النعمان بن يعفر ابن السكسك فاجتمع عليه الناس وعظمت دولته ولقب بالمعافر لقوله

اذا أنت عافرت الامور بقوة * بلغت معالى الاقدمين المقاول

ثم ملك بعده ولده أسمح ثم شداد بن عاد بن الملطاط بن سبا واتسع ملكه وبلغ أقصى الغرب وبنى المدائن العظيمة والآثار ثم أخوه لقمان بن عاد ثم أخوه ذو سدد ثم ابنه الحرث ولقب بالرائش ثم ابنه ذو القرنين الصعب

الرها وعبر الفرات الى بلاد الغربية فجاءت عيون أتابك اليه فأخبروه الخبر فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وجمع الامراء عنده وقال قدموا الطعام وقال لا يأكل معى على مائدتى هذه الا من يطعن غدا معى بباب الرها فلم يتقدم اليه غير أمير واحد وصبى لا يعرف لما يعلمون من اقدامه وشجاعته وان أحدا لا يقدر على مساواته فى الحرب فقال الامير لذلك الصبى ما أنت فى هذا المقام فقال أتابك دعه فوالله انى أرى وجها لا يتخلف عنى وسار والعساكر معه ووصل الى الرها وكان هو أول من حمل على الفرنج وحمل ذلك الصبى وحمل فارس من خيالة الفرنج على أتابك عرضا فاعترضه ذلك الامير فطعنه فقتله وسلم الشهيد ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما فزحف اليه عدة دفعات وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولج فى قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنة التى نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهرا وحصر قلعته فملكها أيضا ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال فلما رأى أتابك البلد أعجبه ورأى ان تخريب مثله لا يجوز فى السياسة فأمر فنودى فى العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والاطفال الى بيوتهم واعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شئ الا الشاذ النادر الذى أخذ وفارق من أخذه العسكر فعاد البلد على حاله الاول وجعل فيه عسكرا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ما عدا البيرة فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فسار اليها وحصرها وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها فبقى على حصارها الى أن رحل عنها على ما نذكره ان شاء الله تعالى (حكى) ان بعض الحكماء بالانساب والتواريخ قال كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية فى البحر الى طرابلس الغرب وتلك الاعمال فنهبوا وقتلوا وكان بصقلية انسان من العلماء المسلمين وهو من أهل الصلاح وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ويرجع الى قوله ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان وكان أهل ولايته يقولون انه مسلم بهذا السبب ففى بعض الايام كان جالسا فى منظرة تشرف على البحر واذ قد أقبل مركب لطيف وأخبره من فيه ان عسكره دخل بلاد الاسلام وغنموا وقتلوا وظفروا وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى فقال له الملك يا فلان أما تسمع ما يقولون قال لا قال انهم يخبرون بكذا وكذا أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها فقال له كان غاب عنهم وشهد فتح الرها وقد فتحها المسلمون الآن فضحك منه من كان هناك من الفرنج فقال الملك لا تضحكوا فوالله ما يقول الا الحق فبعد أيام وصلت الاخبار من فرنج الشام بفتحها * وحكى لى جماعة من أهل الدين والصلاح ان انسانا صالحا رأى الشهيد فى النوم فقال له ما فعل الله بك قال غفر لى بفتح الرها

﴿ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على كوجك قلعة الموصل﴾

فى هذه السنة فى ذى القعدة قتل نصير الدين جقر نائب أتابك زنكى بالموصل والاعمال جميعها التى شرق الفرات وسبب قتله ان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجى ولد السلطان محمود كان عند أتابك الشهيد وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحابه بالاطراف ان هذه البلاد لهذا الملك وأنا نائبه فيها وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد باسمه وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمته ان عرضت له فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقال له ان قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من البلاد ولا يبقى مع أتابك زنكى فارس واحد فوقع هذا منه موقعا حسنا وظنه صدقا فلما دخل

ابن الرائش ثم ابنه ذو المنار ابرهة ثم ابنه افريقش ثم أخوه ذو الاذعار عمرو بن ذى المنار ثم شرحبيل من ولد السكسك ثم ابنه الهدهاد ثم ابنته بلقيس التى تزوجها سليمان ثم عمها ناشر النعم ثم ابنه شمر يرعش ثم ابنه أبو مالك ثم عمران بن عامر ابن عامر من ولد الازد من ولد كهلان بن سبا ثم أخوه مزيقيا لانه كان يمزق كل يوم البدلة التى يقلعها تكبرا وقيل ملك بعد أبى مالك بن شمر يرعش ابنه الاقرن ثم ابنه حسان ثم أخوه تبع بن الاقرن ثم ابنه كليكرب ثم تبع الاوسط واسمه أسعد ثم ابنه حسان ثم أخوه عمرو ثم عبد كلال بن ذى الاعواد ثم تبع بن حسان الاصغر ثم ابن أخيه الحرث ثم مرثد بن كلال ثم ابنه وكيعة ثم ابرهة بن الصباح ثم صهبان بن محارب ثم عيود بن تبع ثم ذو شناتر ثم ذو نواس وهو صاحب الاخدود وكان يلقى فيها كل من لا يتهود وهى تضرم نارا ثم ذو جدن وهو آخر ملوك حمير قيل كان مدة ملكهم ألفين وعشرين سنة ثم استولت الحبشة على اليمن أولهم أرياط بن ابرهة الاشرم صاحب الفيل ثم يكسوم ثم مسروق بن ابرهة فسار سيف بن ذى يزن الحميرى الى أنوشروان فجهز معه أحد مقدمى الفرس فطرد الحبشة وملك سيف بن ذى يزن ملك أجداده

نصير

نصير الدين اليه وثب عليه من عنده من أجناد أتابك ومماليكه فقتلوه وألقوا رأسه الى أصحابه ظنا منهم ان أصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد وكان الامر خلاف ما ظنوه فان أصحابه وأصحاب أتابك الذين فى خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والاجناد ذوى الرأى والتجربة ثم دخل اليه القاضى تاج الدين يحيى بن الشهرزورى ولم يزل به يخدعه وكان فيما قال له لما رآه منزعجا يا مولانا لم تحرد من هذا الكلب هذا وأستاذه مماليك والحمد لله الذى أراحنا منه ومن صاحبه على يدك وما الذى يقعدك فى هذه الدار قم لتصعد القلعة وتأخذ الاموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع فقام معه وأصعده القلعة فلما قاربها أراد من بها من النقيب والاجناد القتال فتقدم اليهم القاضى تاج الدين وقال لهم افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا به ما أردتم ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضى اليها ومعهما من أعان على قتل نصير الدين فحبسوا ونزل القاضى وبلغ الخبر أتابك زنكى وهو يحاصر قلعة البيرة وقد أشرف على ملكها فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ففارق البيرة وأرسل زين الدين على بن بكتكين الى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجردى ووزر بعده المرزبان بن عبيد الله ابن نصر الاصفهانى وسلم اليه البروجردى فاستخرج أمواله ومات مقبوضا وفيها كان أتابك عماد الدين زنكى يحاصر البيرة وهى للفرنج شرق الفرات بعد ملك الرها وهى من أمنع الحصون وضيق عليها وقارب أن يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وأرسل نائبا الى الموصل وأقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج أن يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفا شديدا فأرسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها اليه فملكها المسلمون وفيها أخرج أسطول الفرنج من صقلية الى ساحل افريقية والغرب ففتحوا مدينة برشك وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين وفيها توفى تاشفين بن على بن يوسف صاحب المغرب وكانت ولايته تزيد على أربع سنين وولى بعده أخوه وضعف أمر الملثمين وقوى عبد المؤمن وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة وفيها فى شوال ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق وبقى الى نصف ذى القعدة ثم غاب ثم طلع من جانب الغرب فقيل هو هو وقيل بل غيره وفيها كانت فتنة عظيمة بين الامير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوى الحسينى أمير مكة والامير نظر الخادم أمير الحاج فنهب أصحاب هاشم الحاج وهم فى المسجد يطوفون ويصلون ولم يرقبوا فيهم الا ولا ذمة وفيها فى ذى الحجة توفى عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله بن حمدويه أبو المعالى المروزى بمرو وسافر الكثير وسمع الحديث الكثير وبنى بمرو رباطا ووقف فيه كتبا كثيرة وكان كثير الصدقة والعبادة وتوفى محمد بن عبد الملك بن حسن بن ابراهيم بن خيرون أبو منصور المقرى فى رجب ومولده فى رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة وهو آخر من روى عن الجوهرى بالاجازة وفى ذى الحجة منها توفى أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة وتفقه على الغزالى والشاشى ودفن فى تربة الشيخ أبى اسحق

﴿ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان﴾

وامتدحه الشعراء ومنه ما قاله أمية بن أبى الصلت لا يقصد الناس الا كابن ذى يزن اذ خيم البحر للاعداء أحوالا وافى هرقل وقد شالت نعامته فلم يجد عنده النصر الذى سالا ثم انثنى نحو كسرى بعد عاشرة من السنين يهين النفس والمالا حتى أتى ببنى الاحرار يقدمهم تخالهم فوق متن الارض أجبالا لله درهم من فتية صبروا ما ان رأيت لهم فى الناس أمثالا بيض مرازبة غلب أساورة أسد تربت لدى الغيضات أشبالا فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا برأس غمدان دارا منك محلالا تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا ثم استمرت عمال كسرى على اليمن الى أن كان آخرهم باذان فاسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وصارت اليمن للاسلام وكان قد انحاز من العرب فى دولة ملوك الطوائف من ولد أزد الذى هو من ولد كهلان بن سبا شخص اسمه مالك بن فهم الى أرض الحيرة فملكها ثم أخوه عمرو ثم ابن أخيه جذيمة ابن مالك وكان به برص فلقبوه جذيمة الابرش وعظم شأنه وكان له أخت اسمها رقاش فتحابت هى وصاحب مجلس شراب أخيها عدى بن نصر بن ربيعة اللخمى من اياد

في هذه السنة سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره الى قاشان ومعه الملك محمد بن السلطان محمود ووصل اليهما الملك سليمان شاه بن السلطان محمد واجتمع بوزابة والامير عباس صاحب الري واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيرا من بلاده ووصل الخبر اليه وهو ببغداد ومعه الامير عبد الرحمن طغايرك وهو أمير حاجب حاكم في الدولة وكان ميله اليهما فسار السلطان في رمضان عن بغداد ونزل بها الامير مهلهل ونظر وجماعة من غلمان بهروز وسار السلطان وعبد الرحمن معه فتقارب العسكران ولم يبق الا المصاف فلحق سليمان شاه باخيه مسعود وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي أرادوها وأضيف الى عبد الرحمن ولاية اذربيجان وأرانية الى ما بيده وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود وهو وزير بوزابة فصار السلطان معهم تحت الحجر وأرسلوا بك أرسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك وهو ملازم السلطان وتربيته وصار في خدمته عبد الرحمن ليحقن دمه وصار الجماعة في خدمة السلطان بالصورة لا بالمعنى والله أعلم

﴿ ذكر استيلاء علي بن دبيس بن صدقة على الحلة ﴾

في هذه السنة سار علي بن دبيس الى الحلة هاربا فملكها وكان سبب ذلك ان السلطان لما أراد الرحيل من بغداد أشار عليه مهلهل أن يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت فعلم ذلك فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر فمضى الى الازيز وجمع بني أسد وغيرهم وسار الى الحلة وبها أخوه محمد بن دبيس فقاتله فانهزم محمد وملك علي الحلة واستهان السلطان أمره أولا فاستفحل وضم اليه جمعا من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم وكثر جمعهم فسار اليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر وضربوا معه مصافا فكسرهم وعادوا منهزمين الى بغداد وكان أهلها يتعصبون لعلي ابن دبيس وكانوا يصيحون اذا رأوا مهلهلا وبعض أصحابه يا علي كله وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب ومد علي يده في اقطاع الامراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه وراسل عليا فاعاد بانى العبد المطبع مهما رسم لي فعلت فسكن الناس ووصلت الاخبار بعد ذلك ان السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه فازداد سكون الناس لذلك

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

حج بالناس هذه السنة قايماز الارجواني صاحب أمير الحاج نظر واحتج نظر بان بركه نهب في كسرة الحلة وأن بينه وبين أمير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحج وفيها اتصل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه فضيق عليه واحتاط على غيره من أقاربه وفيها ملك الفرنج لعنهم الله مدينة شنترين وباجة وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الاندلس وكانت للمسلمين فاختلفوا فطمع العدو وأخذ هذه المدن وقوي بها قوة تمكن وتيقن ملك بلاد الاسلام بالاندلس نخيب الله ظنه وكان ما نذكره وفيها سار أسطول الفرنج من صقلية ففتحوا جزيرة قرقنة من افريقية فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم فأرسل الحسن صاحب افريقية الى رجار ملك صقلية يذكره بالعهود التي بينهم فاعتذر بانهم غير مطيعين له وفي هذه السنة توفي مجاهد الدين بهروز الغياثي وكان حاكما بالعراق نيفا وثلاثين سنة وبرتقش الزكوي صاحب أصفهان وكان أيضا شحنة بالعراق وهو خادم أرمني لبعض التجار وتوفي الامير بالدكر شحنة بغداد والشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقي اللغوي ومولده في ذي الحجة سنة خمس وستين وأربعمائة وأخذ اللغة

عن

نخطبها من أخيها حال غلبة السكر عليه فأجابه ودخل بها في الحال فلما أفاق عظم عليه ذلك فهرب عدي بعد ما حملت منه رقاش فأنشدها أخوها جذيمة شعرا

خبريني رقاش لا تكذبيني
أبحر زنيت أم بهجين
أم بعبد فأنت أهل لعبد
أم بدون فأنت أهل لدون

فقالت بل من خيار العرب فولدت غلاما وسمته عمرا وأحبه جذيمة فاختطفته الجن ثم أحضره شخصان يقال لهما مالك وعقيل ففرح جذيمة به وقال لهما اقترحا ما شئتما فقالا منادمتك ما بقيت ففعل وضرب بهما المثل وقيل كندماني جذيمة وغزا جذيمة ملك الجزيرة وعمرو ابن الظرب العمليقي فقتله وكان له بنت اسمها الزباء فملكت الجزيرة بعد أبيها واحتالت على جذيمة وأطمعته في نفسها حتى حضر اليها فقتلته وأخذت بثار أبيها فأخذ عمرو بن رقاش أخت جذيمة في أخذ ثار خاله منها بالحيلة وكان لجذيمة عبد اسمه قصير فجدع عمرو أنفه وضربه بالسياط فهرب الى الزباء على تلك الحالة على أنه مغاضب لعمرو فقربته وصار يتجر لها ويحضر لها من أموال مواليه ويريها انه ربحها حتى عاد اليها بعد ذلك بجمال عليها صناديق وفيها رجال فلما نظرت الزباء الى تلك الجمال والصناديق ارتابت وأنشدت

عن أبي زكريا التبريزي وكان يؤم بالمقتفي أمير المؤمنين وتوفي أحمد بن محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن سليمان أبو سعيد بن أبي الفضل الاصفهاني ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمائة وروى الحديث الكثير وكان على سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله عليه

﴿ ثم دخلت سنة احدى وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب ﴾

في هذه السنة ملك الفرنج لعنهم الله طرابلس الغرب وسبب ذلك أن رجار ملك صقلية جهز اسطولا كثيرا وسيره الى طرابلس فاحاطوا بها برا وبحرا ثالث المحرم فخرج اليهم أهلها وانشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة وخلت الاسوار من المقاتلة وسبب ذلك ان أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بايام يسيرة قد اختلفوا فاخرج طائفة منهم بني مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين قدم يريد الحج ومعه جماعة فولوه أمرهم فلما نازلهم الفرنج اعادت الطائفة الاخرى بني مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين وخلت الاسوار فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فلكت الفرنج المدينة عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب فنودي بالامان في كافة الناس فرجع كل من فر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خنادقها ولما عادوا أخذوا رهائن أهلها ومعهم بنو مطروح والملثم ثم أعادوا رهائنهم وولوا عليها رجلا من مطروح وأخذوا رهائنه وحده واستقامت أمور المدينة والزم أهل صقلية والسفن والروم بالسفر اليها فانعمرت سريعا

﴿ ذكر حصر زنكي حصن جعبر وفنك ﴾

وفي هذه السنة سار أتابك زنكي الى حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك العقيلي سلمه السلطان ملكشاه الى أبيه لما أخذ منه حلب وقد ذكرناه فحصره وسير جيشا الى قلعة فنك وهي تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان فحصرها أيضا وصاحبها حينئذ الامير حسام الدين الكردي البشنوي وكان سبب ذلك أنه كان لا يريد أن يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطا فنازل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها فلما طال عليه ذلك أرسل الى صاحبها مع الامير حسان المنبجي لمودة كانت بينهما في معنى تسليمها وقال له تضمن عني الاقطاع الكثير والمال الجزيل فان أجاب الى التسليم والا فقل له والله لاقيمن عليك الى أن أملكها عنوة ثم لا أبقي عليك ومن الذي يمنعك مني فصعد اليه حسان وادى اليه الرسالة ووعده وبذل له ما قيل له فامتنع من التسليم فقال له حسان فهو يقول لك من يمنعك مني فقال يمنعني منه الذي منعك من الامير بلك فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه ولم يذكر له هذا فقتل أتابك بعد أيام وكانت قصة حسان مع بلك ابن أخي ايلغازي ان حسانا كان صاحب منبج فحصره بلك وضيق عليه فبينما هو كذلك في بعض الايام يقاتله جاءه سهم لا يعرف من رماه فقتله وخلص حسان من الحصر وقد تقدم ذكره وكان هذا القول من الاتفاق الحسن ولما قتل أتابك زنكي رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهي بيد عقاب صاحبها الى الآن وسمعتهم يذكرون انهم لهم بها نحو ثلثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصبية يأخذون بيد كل من يلتجئ اليهم ويقصدهم ولا يسلمونه الى طالبه كائنا من كان قريبا أم غريبا

ما للجمال مشيها وئيدا * أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا باردا شديدا
أم الرجال جثما قعودا

فلما دخلوا الحصن خرجوا من الصناديق وقتلوا الزباء وأخذ قصير بثار مولاه جذيمة وضرب المثل به ولهم لامر ما جدع قصير أنفه وطالت مدة عمرو بن عدي ثم ملك بعده ابنه امرؤ القيس وهو وأبوه أول اللخميين ثم ملك ابنه عمرو ثم ملك اثنان من العماليق اسم الاول منهما الاوس بن قلام ثم عاد الملك الى اللخميين فملك امرؤ القيس من ولد عمرو بن امرئ القيس ولقب بالمحرق لانه كان يعذب بالنار ثم ابنه النعمان ثم ابنه المنذر ثم ابنه الاسود ثم انتصر على غسان عرب الشام ولما أراد ان يعفو عنهم ويطلق من أسر منهم أنشد أبو أذينة قصيدته المشهورة التي منها

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا
ولا يسوغه المقدور ما وهبا
وأحزم الناس من ان فرصة عرضت
لم يجعل السبب الموصول مقتضبا
وأنصف الناس في كل المواطن من
سقى المعادين بالكاس الذي شربا
وليس يظلمهم من بات يضربهم
بحد سيف به من قبلهم ضربا
والعفو الا عن الاكفاء مكرمة * من قال غير الذي قد قلته كذبا

﴿ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته﴾

فى هذه السنة لخمس مضين من ربيع الآخر قتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر على ماذكرناه قتله جماعة من مماليكه ليلا غيلة وهربوا الى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل أصحابه اليه فادركوه وبه رمق (حدثنى والدى) عن بعض خواصه قال دخلت اليه فى الحال وهو حى فحين رآنى ظن أنى أريد قتله فاشار الى باصبعه السبابة يستعطفنى فوقعت من هيبته فقلت يامولاى من فعل هذا فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله قال وكان حسن الصورة اسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان قد زاد عمره على ستين سنة لانه كان لما قتل والده صغيرا كما ذكرناه قبل ولما قتل دفن بالرقة وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوى على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا (حكى لى والدى) قال رأيت الموصل وأكثرها خراب بحيث يقف الانسان قريب محلة الطبالين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة قط وكان الانسان لا يقدر على المشى الى الجامع العتيق الا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة وهو الآن فى وسط العمارة وليس فى هذه البقاع المذكورة كلها أرض مراح قال وحدثنى أيضا أنه وصل الى الجزيرة فى الشتاء فدخل الامير عز الدين الدبيسى وهو من أكابر أمرائه ومن جملة اقطاعه مدينة دقوقا ونزل فى دار انسان يهودى فاستغاث اليهودى الى أتابك وانهى حاله اليه فنظر الى الدبيسى فتأخر ودخل البلد وأخرج بركه وخيامه قال فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه فى الوحل وقد جعلوا على الارض تبنا يقيهم الطين وخرج فنزلها وكانت سياسته الى هذا الحد وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة فصارت فى أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك وكان أيضا شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد وكان يقول ان لم تحفظ نساء الاجناد والا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن فى الاسفار وكان أشجع خلق الله أما قبل ان يملك فيكفيه أنه حضر مع الامير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية وهى للفرنج فوصلت طعنته باب البلد وأثرت فيه وحمل أيضا على قلعة عقر الحميدية وهى على جبل عال فوصلت طعنته الى سورها الى أشياء أخر وأما بعد الملك فقد كان الاعداء محدقين ببلاده وكلهم يقصدها ويريدون أخذها وهو لا يقنع بحفظها حتى أنه لا ينقضى عليه عام حتى يفتح من بلادهم فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره فى ناحية تكريت وقصد الموصل وحصرها ثم الى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ثم ابن سقمان صاحب خلاط ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ثم صاحب آمد وماردين ثم الفرنج من مجاورة ماردين الى دمشق ثم أصحاب دمشق فهذه الولايات قد اختلطت بولايته من كل جهاتها فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة ويأخذ من هذا ويصانع هذا الى أن ملك من كل من يليه طرفا من بلاده وقد أتينا على أخباره فى كتاب الباهر فى تاريخ دولته ودولة أولاده فليطلب من هناك

﴿ذكر ملك ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود﴾

لما قتل أتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضرا معه وسار الى حلب فملكها وكان حينئذ يتولى ديوان زنكي ويحكم فى دولته من أصحاب العمائم جمال الدين محمد بن على وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسيانى فاتفقا على حفظ الدولة

قتلت عمرا وتستبقي يزيد لقد رأيت رأيا يجر الويل والحربا لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها ان كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا

هم جردوا السيف فاجعلهم له جزرا وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا

ان تعف عنهم يقول الناس كلهم لم يعف حلما ولكن عفوه رهبا

هموا أهلة غسان ومجدهم عال فان حاولوا ملكا فلا عجبا

وعرضوا بفداء واصفين لنا خيلا وابلا تروق العجم والعربا

أيحلبون دمامنا ونحلبهم رسلا لقد شرفونا فى الورى حلبا

علام نقبل منهم فدية وهم لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

ثم ملك أخوه المنذر ثم امرؤ القيس بن النعمان بن امرئ القيس المحرق وهو الذى قتل سنمار الذى بنى قصره ثم ابنه المنذر وكان اسم أمه ماء السماء سميت بذلك لحسنها وهذا المنذر ابن ماء السماء هو الذى طرده قباذ وولى مكانه الحرث بن عمرو بن امرئ القيس بن حجر الكندى لعدم موافقته له على الدخول فى دين مزدك فلما ولى أنوشروان قتل مزدك وأعاد المنذر بن ماء السماء الى الحيرة ثم ملك بعده ابنه عمرو ومضرط الحجارة وفى أيامه ولد النبى صلى الله عليه وسلم ومن ولده ولده المنذر بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء أخذ منه الحيرة خالد بن الوليد

وكان

وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود فركب ذلك اليوم واجتمعت العساكر عليه وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات والجوارى وادخلاه الرقة فبقى بها أياما لا يظهر ثم سار الى ماكسين فدخلها وأقام بها أياما وجمال الدين يحلف الامراء لسيف الدين غازى بن أتابك زنكي ويسيرهم الى الموصل ثم سار من ماكسين الى سنجار وكان سيف الدين قد وصل الى الموصل فلما وصلوا الى سنجار أرسل جمال الدين الى الدزدار يقول له ليرسل الى ولد السلطان يقول له انى مملوكك ولكن تبغى الموصل فان ما كنتها سلمت اليك سنجار فسار الى الموصل فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد وقد بقى معه من العسكر القليل فأشار عليه بعبور دجلة فعبرها الى الشرق فى نفر يسير وكان سيف الدين غازى بمدينة شهرزور وهى اقطاعه فارسل اليه زين الدين على نائب أبيه بالموصل يستدعيه الى الموصل فحضر قبل وصول الملك فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين الى الموصل أرسل اليه يعرفه قلة من معه فأرسل اليه بعض عسكره فقبضه وحبس فى قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين البلاد وبقى أخوه نور الدين بحلب وهى له وسار اليه صلاح الدين الباغيسيانى مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها وقد استقصينا شرح هذه الحادثة فى التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية

﴿ذكر عصيان الرها لما قتل أتابك﴾

كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرها فى ولايته وهى تل باشر وما يجاورها فراسل أهل الرها وعامتهم من الارمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فأجابوه الى ذلك وواعدهم يوما يصل اليهم فيه وسار فى عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكي وهو بحلب فسار مجدا اليها فى عسكره فلما قاربها خرج جوسلين هاربا عائدا الى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفى هذه الدفعة نهبت وخلت من أهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكثير من الناس يظن أنها نهبت لما فتحها الشهيد وليس كذلك وبلغ الخبر الى سيف الدين غازى بعصيان الرها فسير العساكر اليها فسبقه الملك نور الدين الى البلد واستباحه وهم فى الطريق فعادوا ومن أعجب ما يحكى ان زين الدين عليا الذى كان نائب الشهيد وأولاده بقلعة الموصل جاءه هدية أرسلها اليه نور الدين من هذا الفتح وفى الجملة جارية فلما دخل اليها وخرج من عندها وقد اغتسل وقال لمن عنده تعلمون ما جرى لى فى يومنا هذا قالوا لا قال لما فتحنا الرها مع الشهيد وقع فى يدى من السبى جارية رائعة أعجبنى حسنها ومال قلبى اليها فلم يكن باسرع من ان أمر الشهيد فنودى برد السبى والمال المنهوب وكان مهيبا مخوفا فرددتها وقلبى متعلق بها فلما كان الآن جاءتنى هدية نور الدين وفيها عدة جوار فيها تلك الجارية فوطئتها خوفا أن تقع مثل تلك الردة

﴿ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الاندلس﴾

فى هذه السنة سير عبد المؤمن بن على جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا ما فيها من بلاد الاسلام وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء اليه جماعة من أعيان الاندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمدين ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التى هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم فى زمرة أصحابه الموحدين وأقامتهم لامره فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره فى البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة

رضى الله عنه وكانت المناذرة الى نصر بن ربيعة عمالا للاكاسرة على عرب العراق مثل ما كانت ملوك غسان عمالا للقياصرة على عرب الشام وأصل غسان من بنى الازد من ولد كهلان بن سبا تفرقوا من اليمن بسيل العرم ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فسموا به وأخرجوا عربا كانت قبلهم من الشام يقال لهم السلائحة من سليح وكان ابتداء ملك غسان قبل الاسلام بما يزيد على أربعمائة سنة وأول من ملك منهم جفنة بن عمرو ابن ثعلبة من ولد مزيقيا ودانت له قضاعة وتنقل الملك فى أبنائه وآخرهم جبلة بن الايهم الذى تنصر فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد اسلامه على يده (وأما ملوك كندة) فاولهم حجر آكل المرار من ولد زيد بن كهلان سمى آكل المرار لان زوجته من بغضها فيه قالت عنه كأنه جمل قد أكل المرار وانتزع من اللخميين ما كان بايديهم من أرض بكر بن وائل وحجر هذا هو جد الحرث الذى كان ولاه قباذ موضع المنذر بن ماء السماء حين وافقه على دين مزدك وكان قد عظم شأن الحرث بذلك فملك ابنه حجرا على بنى أسد وبنى خزيمة وملك باقى بنيه على سائر العرب وامرؤ القيس الشاعر هو ابن حجر بن الحرث هذا فلما أعاد أنوشروان المنذر بن ماء السماء وطرد الحرث زالت دولة الكنديين

اشبيلية وصعدوا فى نهرها وبها جيش من الملثمين فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد وكان لعبد المؤمن من بها

﴿ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الرى﴾

فى هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولته عبد الرحمن طغايرك وهو صاحب خلخال وبعض اذربيجان والحاكم فى دولة السلطان وليس للسلطان معه حكم وكان سبب قتله ان السلطان لما ضيق عليه عبد الرحمن وبقى معه شبه الاسير ليس له فى البلاد حكم حتى ان عبد الرحمن قصد غلاما كان للسلطان وهو بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكرى وقد رباه السلطان وقربه فابعده عنه وصار لا يراه وكان فى خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة وتوصل لما يزنه بعقله فجمع عبد الرحمن العساكر وخاص بك فيهم وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود أن يقتل عبد الرحمن فاستدعى خاص بك جماعة ممن يثق بهم وتحدث معهم فى ذلك فكل منهم خاف الاقدام عليه الا رجلا اسمه زنكى وكان جاندارا فانه بذل من نفسه أن يبدأه بالقتل ووافق خاص بك على القيام فى الامر جماعة من الامراء فبينما عبد الرحمن فى موكبه ضربه زنكى الجاندار بمقرعة حديد كانت فى يده على رأسه فسقط الى الارض فاجهز عليه خاص بك وأعانه على حمايه زنكى والقاتلين معه من كان واطأه على ذلك من الامراء وكان قتله بظاهر جنزة وبلغ الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد ومعه الامير عباس صاحب الرى وعسكره أكثر من عسكر السلطان فانكر ذلك وامتعض منه فداراه السلطان ولطف به واستدعى الامير البقش كون خر وتتر وهو أمير اللحف وتتر الذى كان حاجبا فلما قوى بهما أحضر عباسا اليه فى داره فلما دخل اليه منع أصحابه من الدخول معه وعدلوا به الى حجرة وقالوا له اخلع الزردية فقال ان لى مع السلطان أيمانا وعهودا فلكموه وخرج له غلمان أعدوا لذلك فحينئذ تشهد وخلع الزردية وألقاها وضربوه بالسيوف واحتزوا رأسه وألقوه الى أصحابه ثم ألقوا جسده ونهب رحله وانزعج البلد لذلك وكان عباس من غلمان السلطان محمود حسن السيرة عادلا فى رعيته كثير الجهاد للباطنية قتل منهم خلقا كثيرا وبنى رؤسهم منارة بالرى وحصر قلعة الموت ودخل الى قرية من قراهم فألقى فيها النار فاحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبى وغير ذلك وقتل بالجانب الغربى فارسلت ابنته فحملته الى الرى فدفنته هناك وكان مقتله فى ذى القعدة ومن الاتفاق العجيب ان العبادى كان يعظ يوما فحضره عباس فامع بعض أهل المجلس ورمى بنفسه نحو الامير عباس فضربه أصحابه ومنعوه خوفا عليه لانه كان شديد الاحتراس من الباطنية لا يزال لابسا الزردية لا تفارقه الغلمان الاجلاد فقال له العبادى كم هذا الاحتراز والله لئن قضى عليك بأمر لتحلن أنت بيدك ازرار الزردية فينفذ القضاء فيك وكان والله كما قال وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارها على ما تقدم ذكره فعزله الآن لانه اختار العزل والعود الى صاحبه بوزابة فلما عزله قرر معه أن يصلح له بوزابة ويزيل ما عنده من الاشمئزاز بسبب قتل عبد الرحمن وعباس فسار الوزير وهو لا يعتقد النجاة فوصل الى بوزابة وكان ما نذكره

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت وفيها توفى الامير جاولى الطغرلى صاحب أرانية وبعض اذربيجان وكان قد تحرك للعصيان وكان موته فجأة مدقوسا

وبقى منهم أمرؤ القيس الشاعر فتفرقت جموعه ولم يؤوه أحد فقصد السموأل بن عاديا اليهودى فاكرمه وأقام عنده مدة ثم صار الى قيصر وأودع أدراعه عند السموأل وأنشد فى مسيره قصيدته المشهورة التى منها

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه
وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما
نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر فى بلاد الروم عند جبل يقال له عسيب وأنشد عند ما أيقن بالموت

أجارتنا ان المزار قريب
وانى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا انا غريبان ههنا
وكل غريب للغريب نسيب

قيل ان قيصر سمه فى حلة وهو بعيد فجاء الحرث بن أبى شمر الغسانى الى السموأل وطلب أدراع امرئ القيس فأبى وكان ابن السموأل أسيرا عنده فقال ان لم تعطها أقتل ابنك فأبى فقتل ابنه وأنشد السموأل

وفيت بأدرع الكندى انى
اذا ما خان أقوام وفيت

(وأما ملوك الحجاز) فان يعرب بن قحطان لما ملك اليمن ملك أخوه جرهم الحجاز واستمر ملك الحجاز فى أبنائه الى أن تزوج منهم اسمعيل عليه السلام فأنساب العرب كلها يجمعها قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح تفرع عنه أبناء جرهم ومن نسله عبد المدان ويعرب ومن نسله سبا واسمه

فتزف

فتزف دمامقات وتوفى شيخ الشيوخ صدر الدين اسمعيل بن أبى سعيد الصوفى مات ببغداد ودفن بظاهر رباط الدورى بباب البصرة ومولده سنة أربع وستين وأربعمائة وقام فى منصبه ولده عبد الرحيم وفيها توفى مسعود بن بلال شحنة بغداد وسار السلطان عنها وفيها كان بالعراق جراد كثير أمحل أكثر البلاد وفيها ورد العبادى الواعظ رسولا من السلطان سنجر الى الخليفة ووعظ ببغداد وكان له قبول بها وحضر مجلسه السلطان مسعود فمن دونه وأما العامة فانهم كانوا يتركون أشغالهم لحضورهم مجلسه والمسابقة اليه وفيها بعد قتل الشهيد زنكى بن آقسنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين أيوب بن شاذى فخاف ان أولاد زنكى لا يمكنهم انجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة اليه وأخذ منه اقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق وانتقل أيوب الى دمشق فسكنها وأقام بها وفى هذه السنة فى ربيع الآخر توفى عبد الله بن على بن أحمد المقرى ابن بنت الشيخ أبى منصور ومولده فى شعبان سنة أربع وستين وأربعمائة وكان مقرئا نحويا محدثا وله تصانيف فى القرآت

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر قتل بوزابة﴾

لما اتصل بالامير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار الى أصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر الى همذان وعسكرا ثالثا الى قلعة الماهكى من بلد اللحف فاما عسكره بالماهكى فانه سار اليهم الامير البقش كون خر فدفعهم عن أعماله وكانت اقطاعه ثم ان بوزابة سار عن أصفهان يطلب السلطان مسعودا فراسله السلطان فى الصلح فلم يجب اليه وسار مجدا فالتقيا بمرج قراتكين وتصافا فاقتتل العسكران فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته واقتتل القلبان أشد قتال وأعظمه صبر فيه الفريقان وصار الحرب بينهما فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه وقيل بل عثر به الفرس فأخذ أسيرا وحمل الى السلطان فقتل بين يديه وانهزم أصحابه لما أخذ هو أسيرا وبلغت هزيمة العسكر السلطانى من الميمنة والميسرة الى همذان وخراسان وقتل من الفريقين خلق كثير وكان هذا الحرب من أعظم الحروب الكائنة بين الاعاجم

﴿ذكر طاعة أهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها﴾

كان صاحب مدينة قابس قبل هذه السنة انسانا اسمه رشيد فتوفى وخلف أولادا فعمد مولى له اسمه يوسف الى ولده الصغير واسمه محمد فولاه الامر وأخرج ولده الكبير معمرا واستولى يوسف على البلد وحكم على محمد لصغر سنه وجرى منه أشياء من التعرض الى حرم سيده والعهدة على ناقله وكان من جملتهن امرأة من بنى قرة فارسلت الى أخوتها تشكو اليهم ما هى فيه فجاء أخوتها الاخذها فنعها منهم وقال هذه حرمة مولاى ولم يسلمها فسار بنو قرة ومعمر بن رشيد الى الحسن صاحب افريقية وشكوا اليه ما يفعل يوسف فكاتبه الحسن فى ذلك فلم يجبه وقال لئن لم يكف الحسن عنى والا سلمت قابس الى صاحب صقلية فجهز الحسن العسكر اليه فلما سمع يوسف بذلك أرسل الى رجار الفرنجى صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له أريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لاكون نائبا عنك كما فعلت مع بنى مطروح أصحاب طرابلس فسير اليه رجار الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بجمع الناس فجد حينئذ الحسن فى تجهيز العسكر الى قابس فساروا اليها ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج وسلموا البلد الى عسكر الحسن وتحصن يوسف فى القصر فقاتلوه حتى فتحوه وأخذ يوسف أسيرا فتولى عذابه معمر

اليمن المذكورون ومنهم قضاعة ومنهم بنو عبد شمس وتفرع من سبا أبناء حمير وكهلان وعمرو وأشعر وعاملة فمن حمير ملوك كلاب الذين من مشاهيرهم زهير بن جناب وزهير بن شريك وحارثة أبو زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قضاعة جهينة وتنوخ وبنو سكنج وبنو نهد ومن كهلان أحياء كثيرة المشهور منها سبعة (الازد) وهم الغسانيون والاوس والخزرج وخزاعة وبارقة ودوس والعتيك وغافق ومن دوس أبو هريرة رضى الله عنه وأصح أسمائه عمير ابن عامر (وطئ) واسمه أدد ومنها جديلة ونبهان وثولان وسلامان وهنى وسدوس ومن طئ زيد الخيل وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير وحاتم المشهور بالكرم (ومذحج) واسمه مالك بن أدد ومنها خولان وخيبب وبنو سعد العشيرة سمى سعد العشيرة لانه لم يمت حتى ركب معه من ولده ثلثمائة فارس وكان اذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتى دفعا للعين عنهم (وزبيد) قبيلة عمرو بن معديكرب الزبيدى (والنخع) ومنهم الاشتر النخعى واسمه مالك بن الحرث والقاضى شريك وسنان بن أنس قاتل الحسين رضى الله عن المقتول ولعن القاتل (وعنس) قبيلة الاسود العنسى الكذاب الذى ادعى النبوة فى اليمن وعمار بن ياسر (وهمدان) ولهم صيت فى الجاهلية والاسلام

ابن رشيد وبنو قرة فقطعوا ذكره وجعلوه فى فيه وعذب بأنواع العذاب وولى معمر قابس مكان أخيه وأخذ بنو قرة أختهم وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجار صاحب صقلية فاستجاروا به وشكوا اليه مالقوا من الحسن فغضب لذلك وكان ماتذكره سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من فتح المهدية ان شاء الله تعالى وهذا الذى كان من يوسف والله أعلم

(ذكر حادثة ينبغى ان يحتاط العاقل من مثلها)

كان هذا يوسف صاحب قابس قد أرسل رسولا الى رجار صاحب صقلية فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهدية عنده فجرى بين الرسولين مناظرة فذكر رسول يوسف الحسن ونال منه وذمه ثم انهما عادا فى وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما فى مركبه فارسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعة من أصحابه فى البحر فاخذوا رسول يوسف وأحضروه عند الحسن فسبه وقال ملكت الفرنج بلاد الاسلام وطولت لسانك بذمى ثم أركبه جملا وعلى رأسه جلاجل وطيف به فى البلد ونودى عليه هذا جزاء من سعى ان يملك الفرنج بلاد المسلمين فلما توسط المهدية ثار به العامة فقتلوه بالحجارة

(ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الاندلس)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة وأكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شاشة وولاية جيان وكلها بالاندلس ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم على مانذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى عدة مواضع من بلد الفرنج)

فى هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب بلد الفرنج ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصر مابولة وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكى قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما أخذه فلما رأوا من نور الدين هذا الجد فى أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد وخاب ظنهم وأملهم

(ذكر أخذ الحلة من على بن دبيس وعوده اليها)

فى هذه السنة كثر فساد أصحاب على بن دبيس بالحلة وماجاورها وكثرت الشكاوى منه فاقطع السلطان مسعود الحلة سلاركرد فسار اليها من همذان ومعه عسكر وانضاف اليه جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الحلة فجمع على عسكره وحشده والتقى العسكران بمطيراباذ فانهزم على وملك سلاركرد الحلة واحتاط على أهل على ورجعت العساكر وأقام هو بالحلة ومماليكه وأصحابه وسار على بن دبيس فلحق بالبقش كون خر وكان باقطاعه فى اللحف متجنيا على السلطان فاستنجده فسار معه الى واسط واتفق هو والطرنطاوى وقصدوا الحلة فاستنقذوها من سلاركرد فى ذى الحجة وفارقها سلاركرد وعاد الى بغداد

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى خطب للمستنجد بالله يوسف ابن المقتفى لامر الله بولاية العهد وفيها ولى عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد وولى زعيم الدين يحيى بن جعفر المخزن وفيها فى ربيع الاول مات أبو القاسم طاهر بن سعيد بن أبى سعيد بن أبى الخير الميهنى شيخ رباط البسطامى ببغداد وفى ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتفى لامر الله وفى رجب منها مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن على ابن المسلمة ابن رئيس الرؤساء

ومولده

(وكندة) ومنهم القاضى شريح ومنهم السكاسك والسكون وبنو قراد وسابعها (بنو انمار) خثعم وبجيلة قبيلة جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه وكان حسن الوجه حتى سمى يوسف الامة وفيه يقول القائل

لولا جرير هلكت بجيله
نعم الفتى وبئست القبيله

وبنو غر وجذام ولخم منهم بنو الدار رهط تميم الدارى والمناذرة ملوك الحيرة ومن أشعر الاشعريون منهم أبو موسى الاشعرى ومن عاملة أبو عاملة (والعرب) كلهم ثلاثة أقسام بائدة وهم الذين ضلت عنا أخبارهم وبادوا وهم عاد وثمود وجرهم الاول وعاربة وهم الذين قبل اسمعيل ومستعربة وهم الذين بعده سموا مستعربة لان اسمعيل لم تكن لغته عربية بل عبرانية فلما تزوج من جرهم الثانية ولد له اثنا عشر ولدا منهم قيذار فتوجته أخواله وعقدوا له الملك بالحجاز وسدانة البيت (وللعرب) رجال مشهورة ووقائع مذكورة (فمن مشاهيرهم) عمرو ابن لحى بن حارثة من الازد كان كبير الحجاز واليه ينسب خزاعة سميت بذلك لانها انخزعت عن غيرها من قبائل العرب باليمن الذين تفرقت عن سبا من سيل العرم ونزلت ببطن مر بالقرب من مكة وحصلت لهم سدانة البيت والرياسة وبقيت

ومولده سنة أربع وثمانين وكان قد تصوف وجعل داره التى فى القصر رباطا للصوفية وفيها سار سيف الدين غازى بن زنكى الى قلعة دارا فملكها وغيرها من بلد ماردين ثم سار الى ماردين وحصرها وخرب بلدها ونهبه وكان سبب ذلك ان أتابك زنكى لما قتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن الى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذاه فلما ملك سيف الدين وتمكن سار الى ماردين وحصرها وفعل ببلدها الافاعيل العظيمة فلما رأى صاحبها وهو حينئذ حسام الدين تمرتاش مايفعل فى بلده قال كنا نشكو من أتابك الشهيد وأين أيامه لقد كانت اعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخلاة تبن بغير ثمن ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان وأرى هذا ينهب البلاد ويخربها ثم راسله وصالحه وزوجه ابنته ورحل سيف الدين عنه وعاد الى الموصل وجهزت ابنة حسام الدين وسيرت اليه فوصلت وهو مريض قد أشفى على الموت فلم يدخل بها وبقيت عنده الى ان توفى وملك قطب الدين مودود فتزوجها على مانذكره ان شاء الله تعالى وفيها اشتد الغلاء بافريقية ودامت أيامه فان أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وعظم الامر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضا وقصد أهل البوادى المدن من الجوع فاغلقها أهلها دونهم وتبعه وباء وموت كثير حتى خلت البلاد وكان أهل البيت لا يبقى منهم أحد وسار كثير منهم الى صقلية فى طلب القوت ولقوا أمرا عظيما

(ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بافريقية)

قد ذكرنا سنة احدى وأربعين وخمسمائة مسير أهل يوسف صاحب قابس الى رجار ملك صقلية واستغاثتهم به فغضب لذلك وكان بينه وبين الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب افريقية صلح وعهود الى مدة سنتين وعلم أنه فاته فتح البلاد فى هذه الشدة التى أصابتهم وكانت الشدة دوام الغلاء فى جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين الى هذه السنة وكان أشد ذلك منه سنة اثنتين وأربعين فان الناس فارقوا البلاد والقرى ودخل أكثرهم الى مدينة صقلية وأكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت فى الناس فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الاسطول وأكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوأة رجالا وسلاحا وقوتا وسار الاسطول عن صقلية ووصل الى جزيرة قوصرة وهى مابين المهدية وصقلية فصادفوا بها مركبا وصل من المهدية فاخذ أهله وأحضروا بين يدى جرجى مقدم الاسطول فسألهم عن حال افريقية ووجد فى المركب قفص حمام فسألهم هل أرسلوا منها فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيأ فأمر الرجل الذى كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه اننا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الاسطول المخذول فذكروا أنه أقلع الى جزائر القسطنطينية وأطلق الحمام فوصل الى المهدية فسر الامير الحسن والناس وأراد جرجى بذلك أن يصل بغتة ثم سار وقدر وصولهم الى المهدية وقت السحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم أحد فقدر الله تعالى أن أرسل عليهم ريحا هائلا فلم يقدروا على السير الا بالمقاذيف فطلع النهار ثانى صفر فى هذه السنة قبل وصولهم فرآهم الناس فلما رأى جرجى ذلك وان الخديعة فاتته أرسل الى الامير الحسن يقول انما جئت بهذا الاسطول طالبا بثار محمد بن رشيد صاحب قابس ورده اليها واما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق الى مدة ونريد منك عسكرا يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والاعيان وشاورهم فقالوا نقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال أخاف ان ينزل الى

سدانة البيت معهم الى ان اسكر قصى بن كلاب رجلا منهم اسمه أبو غبشان واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر وعمرو بن لحى هو أول من سيب السوائب وأول من حول الاصنام فوق الكعبة وعبدها (ومنهم) زهير بن جناب الكلبى عاش عمرا طويلا وغزا غطفان فانهم كانوا بنوا حرما مثل حرم مكة وظفر بهم بعد حروب كثيرة وخرب حرمهم ومات بشرب الخمر صرفا وممن مات بشرب الخمر صرفا عمرو بن كلثوم التغلبى وأبو عمرو ملاعب الاسنة العامرى (ومنهم) كليب بن ربيعة بن الحرث من ولد ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان وكان اسمه وائلا نزل شخص من جرهم على خالة جساس واسمها البسوس وأرسل ناقته ترعى قد خلت حمى كليب فضربوها بالنشاب فانخرم ضرعها فوضعت البسوس يدها على رأسها وصاحت واذلاه بسبب نزيلها الجرهمى فانتصر جساس لخالته البسوس وقصد كليبا وهو منفرد وطعنه فقتله فقام مهلهل أخو كليب وجمع قبائل تغلب واقتتل مع بنى بكر ابن وائل ودامت الحروب بينهم أربعين سنة وقتل جساس وعدم مهلهل (ومنهم) زهير بن جذيمة العبسى كان عظيما تجبرا قتله خالد بن جعفر بن كلاب فقام ابنه قيس الملك لاخذ ثار أبيه فنزل بالحجاز واشترى حصانا اسمه داحس وحجرة اسمها الغبراء

البر ويحصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما يقوتنا شهرا فتؤخذ قهرا وانا أرى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خيرا من الملك وقد طلب منى عسكرا الى قابس فان فعلت فما يحل لى معونة الكفار على المسلمين وان امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد الا ان يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأى ان نخرج بالاهل والولد ونترك عن البلد فمن أراد ان يفعل كفعلنا فليبادر معنا وأمر فى الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم باهليهم وأولادهم وما خف من أموالهم وأثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس وبقى الاسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول الى المهدية الى ثلثى النهار فلم يبق فى البلد ممن عزم على الخروج أحد فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه الا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأى الخزائن مملوأة من الذخائر النفيسة وكل شئ غريب يقل وجود مثله فختم عليه وجمع سرارى الحسن من قصره وكان عدة من ملك منهم من زيرى ابن مناد الى الحسن تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من احدى وستين وثلاثمائة الى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وكان بعض القواد قد أرسله الحسن الى رجار برسالة فاخذ لنفسه وأهله منه أمانا فلم يخرج معهم ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين ونودى بالامان فخرج من كان مستخفيا وأصبح جرجى من الغد فارسل الى من قرب من العرب فدخلوا اليه فأحسن اليهم وأعطاهم أموالا جزيلة وأرسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ومعهم أمان لاهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الاطفال والنساء وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ولهم بالمهدية خبايا وودائع فلما وصل اليهم الامان رجعوا فلم يمض غير جمعة حتى رجع أكثر أهل البلد وأما الحسن فانه سار باهله وأولاده وكانوا اثنى عشر ولدا ذكرا غير الاناث وخواص خدمه قاصدا الى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقيه فى طريقه أمير من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب منه مالا انكسر له فى ديوانه فلم يمكن الحسن اخراج مال لئلا يؤخذ فسلم اليه ولده يحيى رهينة وسار فوصل فى اليوم الثانى الى محرز وكان الحسن قد فضله على جميع العرب وأحسن اليه ووصله بكثير من المال فلقيه محرز لقاء جميلا وتوجع لما حل به فاقام عنده شهورا والحسن كاره للاقامة فاراد المسير الى ديار مصر الى الخليفة الحافظ العلوى واشترى مركبا لسفره فسمع جرجى الفرنجى فجهز شوانى ليأخذه فعاد الحسن عن ذلك وعزم على المسير الى عبد المؤمن بالمغرب فارسل كبار أولاده يحيى وتميما وعليا الى يحيى بن العزيز وهو من بنى حماد وهما أولاد عم يستأذنه فى الوصول اليه وتجديد العهد به والمسير من عنده الى عبد المؤمن فاذن له يحيى فسار اليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وسيره الى جزيرة بنى مزغنان هو وأولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقوا كذلك الى ان ملك عبد المؤمن بجاية سنة سبع وأربعين فحضر عنده وقد ذكرنا له هذا ولما استقر جرجى بالمهدية سير أسطولا بعد أسبوع الى مدينة سفاقس وسير أسطولا آخر الى مدينة سوسة فاما سوسة فان أهلها لما سمعوا خبر المهدية وكان واليها على بن الحسن الامير فخرج الى أبيه وخرج الناس لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتال ثانى عشر صفر وأما سفاقس فان أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر

ونزل على حذيفة بن بدر الفزارى وكان له فرسان يقال لهما الخطار والحيفاء فقصدا ابن بدر سابق مع فرس قيس فامتنع قيس فابى حذيفة الا المسابقة فاجروا الاربعة بموضع يقال له ذات الاصاد وكان المقدار مائة غلوة والغلوة أمد رمية بسهم وكان الرهن مائة بعير فسبق داحس سبقا بينا وكان حذيفة قد أكمن من يعترض داحسا ان سبق فاعترضوه وضربوه على وجهه فتأخر وسبقت أيضا الغبراء فانكر حذيفة ذلك كله وادعى السبق وجرت حروب كثيرة فيها ظهرت شجاعة عنتر بن شداد وقتل حذيفة وساح قيس فى الارض وتنصر وترهب وقيل ولد له بعد ذلك فضالة وبقى حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم عليه وعقد له على قومه (وللعرب) وقائع عظيمة أعظمها يوم مرج حليمة بين غسان ولخم بلغ كل فريق عدد الاحصى وعظم الغبار حتى احتجبت الشمس وكادت النجوم ترى من خلاف جهة الغبار (ثم يوم أوارة) اسم جبل وهو أنه كان بين المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة وبين بكر بن وائل حرب فظفر المنذر ببكر وحلف لا يزال يذبحهم حتى تسيل دماؤهم من رأس أوارة الى حضيضه فبقى يذبح والدم يجمد فكب عليه الماء حتى برت يمينه (ثم يوم ذى قار) وكان سنة أربعين من

من بقى من الرجال وسبى الحريم وذلك فى الثالث والعشرين من صفر ثم نودى بالامان فعاد أهلها اليها وافتكوا حرمهم وأولادهم ورفق بهم وباهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع أهل افريقية بالامان والمواعيد الحسنة ولما استقرت أحوال البلاد سار جرجى فى اسطول الى قلعة اقليبية وهى قلعة حصينة فلما وصل اليها سمعت به العرب فاجتمعوا اليها ونزل اليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منه خلق كثير فرجعوا خاسرين الى المهدية وصار للفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن المغرب الى دون القيروان والله أعلم

﴿ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازى بن زنكى﴾

فى هذه السنة سار ملك الالمان من بلاده فى خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازما على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك فى ملكها بايسر قتال لكثرة جموعه وتوفر أمواله وعدده فلما وصل الى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا أمره ونهيه فأمرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بورى بن طغدكين وليس له من الامر شئ وانما الحكم فى البلد لمعين الدين أنز مملوك جده طغدكين وهو الذى أقام مجير الدين وكان معين الدين عاقلا عادلا خيرا حسن السيرة فجمع العساكر وحفظ البلد وأقام الفرنج يحاصرونهم ثم انهم زحفوا سادس ربيع الاول بفارسهم وراجلهم فخرج اليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذى باس الفندلاوى المغربى وكان شيخا كبيرا فقيها صالحا فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له يا شيخ أنت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له قد بعت واشترى منى فوالله لا أقلته ولا استقلته يعنى قول الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق وقوى الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك الالمان حتى نزل بالميدان الاخضر فأيقن الناس بانه يملك البلد وكان معين الدين قد أرسل الى سيف الدين غازى ابن أتابك زنكى يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص وأرسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح من بلادى فاريد ان يكون نوابى بمدينة دمشق لاحضر وألقى الفرنج فان انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد واحتمينا به وان ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه فارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا عن البلد فكف الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح وربما اضطروا الى قتال سيف الدين فابقوا على نفوسهم فقوى أهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وأرسل معين الدين الى الفرنج الغرباء يقول لهم ان ملك المشرق قد حضر فان رحلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون وأرسل الى فرنج الشام يقول لهم بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية وأما أنا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وأنتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام فى الشام فاجابوه الى التخلى عن ملك الالمان وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم واجتمع الساحلية بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلموا قلعة بانياس وعاد الفرنج الالمانية الى بلادهم وهى بوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرهم

من مولد النبى صلى الله عليه وسلم وسببه ان كسرى ابرويز غضب على النعمان بن المنذر وحبسه فهلك فى الحبس وكان سلاحه مودعا عند هانى بن مسعود البكرى فطلبه ابرويز فقال لا أؤدى امانتى فبعث اليه الهرمزان فى ألفين من الاعاجم وألف من بهرا فجمع لهم بكر بن وائل والتقوا بذى قار وكانت وقعة عظيمة كسرت فيها الاعاجم وانهزموا وأكثرت العرب الاشعار فى هذا اليوم وجد بكر بن وائل هذا ربيعة الفرس وسمى ربيعة الفرس لانه اختص من مال أبيه بالخيل كان أبوه نزار له أبناء أربعة ربيعة الفرس هذا ومضر الذى هو عمود النسب المحمدى وأنمار وأياد ومن بنيه كعب ابن مامة الايادى وكان يضرب بجوده المثل وقس ابن ساعدة الايادى وكان يضرب بفصاحته المثل ومن بكر بن وائل بنو شيبان وطرفة بن العبد الشاعر والمرقشان الاكبر والاصغر وبنو حنيفة ومنهم مسيلمة الكذاب ومن بنى أسد بن ربيعة الفرس بنو عنزة أهل خيبر ومنهم القارظان وولد امضر على عمود النسب الياس وعلى غيره قيس عيلان وعيلان اسم فرسه وقيل اسم كلبه ونتج من قيس المذكور قبائل كثيرة منهم هوازن وبنو كلاب وصار منهم أصحاب حلب أولهم صالح بن مرداس ومنهم قبائل عقيل الذين كان منهم ملوك الموصل ومنهم بنو عامر وصعصعة

*وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ان بعض العلماء حكى له انه رأى الفندلاوي في المنام فقال له مافعل الله بك وأين أنت فقال غفر لي وأنا في جنات عدن على سرر متقابلين

﴿ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزيمة﴾

لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين الى حصن العزيمة وهو للفرنج فملكه وسبب ذلك ان ملك الالمان لما خرج الى الشام كان معه ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج وكان جده هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين فاخذ حصن العزيمة وملكه وأظهر انه يريد أخذ طرابلس من القمص فارسل القمص الى نور الدين محمود وقد اجتمع هو ومعين الدين أنز ببعلبك يقول له ولمعين الدين ليقصدا حصن العزيمة ويملكاه من ولد الفنش فسارا اليه مجدين في عساكرهما وأرسلا الى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه فأمدهما بعسكر كثير مع الامير عز الدين أبي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر وغيرها فنازلوا الحصن وحصروه وبه ابن الفنش وامتنع به فزحف المسلمون اليه غير مرة وتقدم اليه النقابون فنقبوا السور فاستسلم حينئذ من به من الفرنج فملكه المسلمون وأخذوا كل من به من فارس وراجل وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وكان مثل ابن الفنش كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين

﴿ذكر الخلاف بين السلطان مسعود وجماعة من الامراء ووصولهم الى بغداد وما كان منهم بالعراق﴾

في هذه السنة فارق السلطان مسعود جماعة من أكابر الامراء وهم من اذربيجان ايلدكز المسعودي صاحب كنجة وأرانية وقيصر ومن الجبل البقش كون خر وتتر الحاجب وهو مسعودي أيضا وطرنطاي المحمودي شحنة واسط والدكز وقرقوب وابن طغايرك وكان سبب ذلك ميل السلطان الى خاص بك واطراحه لهم فخافوا ان يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن وعباس وبوزابة ففارقوه وساروا نحو العراق فلما بلغوا حلوان خاف الناس ببغداد وأعمال العراق وغلت الاسعار وتقدم الامام المقتفي لامر الله باصلاح السور وترميمه وأرسل الخليفة اليهم بالعبادي الواعظ فلم يرجعوا الى قوله ووصلوا الى بغداد في ربيع الآخر والملك محمد بن السلطان محمود معهم ونزلوا بالجانب الشرقي وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفا من الخليفة وسار الى تكريت وكانت له فعظم الامر على أهل بغداد ووصل اليهم علي بن دبيس صاحب الحلة فنزل بالجانب الغربي فجند الخليفة اجنادا يحتمي بهم ووقع القتال بين الامراء وبين عامة بغداد ومن بها من العسكر واقتتلوا عدة دفعات ففي بعض الايام انهزم الامراء الاعاجم من عامة بغداد مكرا وخديعة وتبعهم العامة فلما أبعدوا عادوا عليهم وصار بعض العسكر من ورائهم ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير ولم يبقوا على صغير ولا كبير وفتكوا فيهم فاصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله وكثر القتلى والجرحى وأسر منهم خلق كثير فقتل البعض وشهر البعض ودفن الناس من عرفوا ومن لم يعرف ترك طريحا بالصحراء وتفرق العسكر في المحال الغربية فاخذوا من أهلها الاموال الكثيرة ونهبوا بلد دجيل وغيره وأخذوا النساء والولدان ثم ان الامراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبلوا الارض واعتذروا وترددت الرسل بينهم وبين الخليفة الى آخر النهار وعادوا الى خيامهم ورحلوا الى النهروان فنهبوا البلاد وأفسدوا فيها وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من

وبنو عامر وجشم الذين منهم دريد بن الصمة وبنو هلال وثقيف وبنو غزية وباهلة وخفاجة أمراء العراق ومازنة وغطفان وبنو عبس الذين منهم عنترة العبسي وادعاه أبوه شداد بعدان كبر ومنهم قبائل سليم وبنو ذبيان الذين منهم النابغة الذبياني وبنو فزارة الذين منهم حصن الممدوح بقول زهير

تراه اذا ما جئته متهللا ... كانك تعطيه الذي أنت سائله

وبنو عدوان الذين منهم ذو الاصبع العدواني الشاعر وولد لالياس على عمود النسب مدركة وعلى غيره طابخة وأمهما خندف فنسبوا اليها فقيل لهم بنو خندف وصار من طابخة بنو تميم وبنو ضبة وبنو مزينة نسبوا لامهم وولد لمدركة خزيمة على عمود النسب وعلى غيره هذيل ومنهم عبد الله بن مسعود وأبو ذؤيب الهذلي الشاعر وولد لخزيمة كنانة على عمود النسب وخارجا عنه أسد واليه ينسب كل أسدي وولد لكنانة النضر على عمود النسب وخارجا عنه ملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك فمن ملكان بنو ملكان ومن عبد مناة بنو غفار رهط أبي ذر الغفاري وصار من عمرو العمريون ومن عامر العامريون ومن مالك بنو فراس ومن بطون كنانة الاحابيش فهم عرب لاحبوش كما توهمه كثير من الناس وولد للنضر مالك لم يشهر غيره وولد لمالك فهر قيل

تكريت الى بغداد ثم ان هؤلاء الامراء تفرقوا وفارقوا العراق وتوفي الامير قيصر باذربيجان هذا كله والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر متصلة وكان السلطان سنجر قد أرسل اليه يلومه على تقديم خاص بك ويأمره بابعاده ويتهدده بانه ان لم يفعل ان يقصده ويزيله عن السلطنة وهو يغالط ولا يفعل فسار السلطان سنجر الى الري فلما علم السلطان مسعود بوصوله سار اليه وترضاه واستنزله عما في نفسه فسكن وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر انهزام الفرنج بيغرى﴾

في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه يغرى من أرض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها فعلم نور الدين فسار اليهم في عسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وأرسل من الغنيمة والاسارى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وغيرهم وفي هذه الوقعة يقول ابن القيسراني في قصيدته التي أولها

يا ليت أن الصد مصدود ... أولا فليت النوم مردود

ومنها ما هو في ذكر نور الدين

وكيف لا يثني على عيشنا الـ ... محمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثني ... الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة ... الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها ... عند ملوك الكفر مشهود

﴿ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها﴾

في هذه السنة قصد سوري بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة فملكها وسبب ذلك ان أخاه ملك الغورية قبله محمد بن الحسين كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة وهو من بيت سبكتكين فعظم شأنه بالمصاهرة وعلت همته فجمع جموعا كثيرة وسار الى غزنة ليملكها وقيل انما سار اليها مظهر الخدمة والزيارة وهو يريد المكر والغدر فعلم به بهرام شاه فاخذه وسجنه ثم قتله فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الاخذ بثاره ولما قتل ملك بعده أخوه سام بن الحسين فمات بالجدري وملك بعده أخوه الملك سوري بن الحسين بلاد الغور والله أعلم وقوي أمره وتمكن في ملكه فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار الى غزنة طالبا بثار أخيه المقتول وقاصدا ملك غزنة فلما وصل اليها ملكها في جمادى الاولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفارقها بهرام شاه الى بلاد الهند وجمع جموعا كثيرة وعاد الى غزنة وعلى مقدمته السلار الحسين وابراهيم العلوي أمير هندوستان وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سوري بن الحسين الغوري وخدموه قلوبهم مع بهرام شاه وانما هم بظواهرهم مع سوري فلما التقى سوري وبهرام شاه رجع عسكر غزنة الى بهرام شاه وصاروا معه وسلموا اليه سوري ملك الغورية وملك بهرام شاه غزنة في المحرم سنة أربع وأربعين وصلب الملك سوري مع السيد الماهياني في المحرم أيضا من السنة وكان سوري أحد الاجواد له الكرم الغزير والمروأة العظيمة حتى انه كان يرمي الدراهم في المقاليع الى الفقراء لتقع بيد من تقع ومن يتفق له ثم عاود الغورية وملكوها وخربوها وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين

هو قريش سمي به لشدته تشبيها بدابة تخرج من البحر يقال لها القرش تأكل كل دواب البحر لم يولد لمالك غيره وولد لفهر غالب وخارجا عن عمود النسب محارب والحرث فمن محارب بنو محارب ومن الحرث بنو نجيح منهم أبو عبيدة بن الجراح وولد لغالب على عمود النسب لؤي وخارجا عنه تيم الادرم والادرم الناقص الذقن ومنه بنو الادرم وولد للؤي كعب وخارجا عن عمود النسب سعد وخزيمة والحرث وعامر وأسامة فمن عامر عمرو ابن عبدود فارس العرب الذي قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وولد لكعب مرة على عمود النسب وخارجا عنه هصيص وعدي فمن هصيص بنو جمح منهم أمية بن خلف وأخوه أبي عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنو سهم منهم عمرو بن العاص ومن عدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسعيد بن زيد من العشرة وولد لمرة كلاب وخارجا عن عمود النسب تيم ويقظة فمن تيم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم نسب خالد بن الوليد وأبي جهل ابن هشام وولد لكلاب قصي وخارجا عن العمود زهرة منه بنو زهرة نسب سعد بن أبي وقاص وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الرحمن بن عوف وعظم قصي في قريش وارتجع مفاتيح الكعبة من خزاعة كما تقدم شرحه

وذكرنا هناك ابتداء دولة الغورية لانهم في ذلك الوقت عظم محلهم وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان وعلا شأنهم وفي بعض الخلاف كما ذكرناه والله أعلم

﴿ذكر ملك الفرنج مدنا من الاندلس﴾

في هذه السنة ملك الفرنج بالاندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وافراغة ولم يبق للمسلمين في تلك الجهات شئ الا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم وبقي بايديهم الى الآن

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة توفي أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبي غالب البغدادي المعروف أبوه بالخفاف سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد وفيها غلت الاسعار بالعراق وتعذرت الاقوات بسبب العسكر الوارد وقدم أهل السواد الى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم وهلكوا جوعا وعريا وكذلك أيضا كان الغلاء في أكثر بلاد خراسان وبلاد الجبل وأصفهان وديار فارس والجزيرة والشام وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو اليها وفيها توفي ابراهيم بن نبهان الرقي ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وصحب الغزالي والشاشي وروى الجمع بين الصحيحين للحميدي عن مصنفه وفيها في ذي القعدة توفي الامام أبو الفضل الكرماني الفقيه الحنفي امام خراسان

﴿ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين﴾

في هذه السنة توفي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها بمرض حاد ولما اشتد مرضه أرسل الى بغداد واستدعى أوحد الزمان فحضر عنده فرأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجع فيه الدواء وتوفي أواخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما وكان حسن الصورة والشباب وكانت ولادته سنة خمسمائة ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل وخلف ولدا ذكرا فرباه عمه نور الدين محمود وأحسن تربيته وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود فلم تطل أيامه وتوفي في عنفوان شبابه فانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا عاقلا وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاما كثيرا بكرة وعشية فاما الذي بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة وهو أول من حمل على رأسه السنجق وأمر الاجناد أن لا يركبوا الا بالسيف في أوساطهم والدبوس تحت أركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الاطراف وبنى المدرسة الاتابكية العتيقة بالموصل وهي من أحسن المدارس ووقفها على الفقهاء الحنفية والشافعية وبنى رباطا للصوفية بالموصل أيضا على باب المشرعة ولم تطل أيامه ليفعل ما في نفسه من الخير وكان عظيم الهمة ومن جملة كرمه انه قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته التي أولها

الام يراك المجد في زي شاعر * وقد نحلت شوقا فروع المنابر

فوصله بالف دينار عينا سوى الخلع وغيرها ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مقيما بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين علي أمير الجيش على تمليكه فاحضروه واستحلفوه وحلفوا له واركبوه الى دار السلطنة وزين الدين في ركابه وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة ولما ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفي قبل الدخول بها وهي أم أولاد قطب الدين سيف الدين وعز

الدين

وأثل مجد قريش ورياستهم وولد لقصي عبد مناف وخارجا عن عمود النسب عبد الدار وعبد العزى فمن عبد الدار بنو شيبة ومنهم النضر بن الحرث عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن عبد العزى خديجة بنت خويلد وورقة بن نوفل وولد لعبد مناف هاشم وخارجا عن عمود النسب عبد شمس والمطلب ونوفل فمن عبد شمس أمية ومنه بنوه ومنهم عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ومنه معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس وبنت عتبة هند أم معاوية ومن المطلب المطلبيون منهم الامام الشافعي ومن نوفل النوفليون وولد لهاشم عبد المطلب ولم يعلم له ولد غيره وصار كبير قريش وشيخها وكانت الحبشة لما ملكوا اليمن كما حكيناه بنى ابرهة بن الاشرم كنيسة عظيمة وقصد ان يصرف الحج اليها ويبطل الكعبة الحرام فجاء شخص من العرب وأحدث فيها فغضب ابرهة وقصد الكعبة ومعه ثلاثة عشر فيلا يقال لكبيرهم محمود فلما وصل الطائف أرسل الاسود بن مقصود الى مكة فاستاق أموالها وتبعها عبد المطلب فقالوا هذا سيد قريش فاكرمه ابرهة ونزل عن سريره وأجلسه معه وقال له ما تريد فقال ان ترد على أباعري فقال ابرهة كنت أظن انك تريد ان لا أخرب الكعبة فقال انما أنا رب

الدين وغيرهما من أولاده

﴿ذكر استيلاء نور الدين على سنجار﴾

لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي كان أخوه الاكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فكاتبه جماعة من الامراء وطلبوه وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد وكان حينئذ مستحفظا لسنجار فارسل اليه يستدعيه ليتسلم سنجار فسار جريدة في سبعين فارسا من أمراء دولته فوصل الى ماكسين في نفر يسير قد سبق أصحابه وكان يوما شديد المطر فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب فاخبر الشحنة ان نفرا من التركمان المجندين قد دخلوا البلد فلم يستتم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة فقام اليه وقبل يده ولحق به باقي أصحابه ثم سار الى سنجار فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاحدار ونزل بظاهر البلد وأرسل الى المقدم يعلمه بوصوله فرآه الرسول وقد سار الى الموصل وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة فاعلمه بمسير والده الى الموصل وأقام من لحق أباه بالطريق فاعلمه بوصول نور الدين فعاد الى سنجار فسلمها اليه فدخلها نور الدين وأرسل الى فخر الدين قرا ارسلان صاحب الحصن يستدعيه اليه لمودة كانت بينهما فوصل اليه في عسكره فلما سمع أتابك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سنجار فوصلوا الى تل يعفر وترددت الرسل بينهم بعد ان كانوا عازمين على قصده بسنجار فقال لهم جمال الدين ليس من الرأي محاقته وقتاله فاننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة وجعلنا أنفسنا دونه وهو يتظاهر للفرنج تعظيمنا وانه تبعنا ولا يزال يقول لهم ان كنتم كما يجب والا سلمت البلاد لصاحب الموصل وحينئذ يفعل بكم ويصنع فاذا لقيناه فان هزمناه طمع السلطان فينا ويقول هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به أضعف منهم وقد هزموه وان هو هزمنا طمع فيه الفرنج ويقولون ان الذين كان يحتمي بهم أضعف منه وقد هزمهم وبالجملة فهو ابن أتابك وأشار بالصلح وسار هو اليه فاصطلح وسلم سنجار الى أخيه قطب الدين وسلم مدينة حمص والرحبة بارض الشام اليه وبقي الشام له وديار الجزيرة لاخيه واتفقا وعاد نور الدين الى حلب وأخذ معه ما كان قد ادخره أبوه عماد الدين اتابك فيها من الخزائن وكانت كثيرة جدا

﴿ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار﴾

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد ابن الامير أبي القاسم بن المنتصر بالله العلوي صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة الا خمسة أشهر وعمره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوما عليه يحكم عليه وزراؤه حتى انه جعل ابنه حسنا وزيرا وولي عهده فحكم عليه واستبد بالامر دونه وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر كثيرا فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سما فمات وقد ذكرناه ولم يل الامر من العلويين المصريين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد وسيرد ذكر نسب العاضد وولي الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر بامر الله أبو منصور اسمعيل بن عبد المجيد الحافظ واستوزر ابن مصال فبقي أربعين يوما يدبر الامور فقصده العادل بن السلار من ثغر الاسكندرية ونازعه في الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين من السودان فخالفه العادل بالقاهرة وصار وزيرا وسير عباس ابن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في عسكره وهو ربيب العادل الى ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم وأما سبب

الأباعر فاطلبها وللكعبة رب يحميها فرد عليه أباعره وعاد بها الى مكة وأمر الناس بالتحرز وأخذ حلقة باب الكعبة وهو يقول

يا رب ان المرء يمـ ـنع رحله فاحفظ رحالك
ان كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فامر ما بدا لك

فلما وصل ابرهة الى المغمس صد الله تعالى الفيل وجعل كل ما وجهه وجهة نحو الكعبة أحجم واذا عدل به أقدم وأرسل الله عليهم طيرا أسود أصفر المناقير خضر الاعناق طوالها وقيل بلقا وقيل اشباه الخطاطيف والوطاويط نشأت من جانب البحر ولها خراطيم الطير وأكف الكلاب وأنياب السباع بحجر في مناقيرها وحجرين في رجليها وقال عبد المطلب طيور غريبة اشباه اليعاسيب لا نجدية ولا حجازية أبابيل لا واحد لها كعباديد وقال الكسائي واحدها ابول كعجول وقيل ابال كدينار ومعنى أبابيل كثيرة وقيل متتابعة وقيل مختلفة الالوان وقيل أقاطيع مثل الابل المقطعة جماعة جمع ترميهم بحجارة مثل حصى الخذف وقيل فوق العدس ودون الحمص مكتوب عليها اسم صاحبها قال صالح رأيت منها في بيت أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة مثل جزع اليمن من سجيل السجيل الآجر بالعربي وقيل السجيل الشديد وقيل اسم سماء الدنيا فجعلهم كعصف مأكول أي كزرع أكله الدود وقيل كانت الحجر تنقب البيضة والفارس

وصول عباس الى مصر فان جده يحيى أخرج أبا الفتوح من المهدية فلما توفي يحيى وولي بعده بلاد افريقية ابنه علي بن يحيى بن تميم بن يحيى صاحب افريقية أخرج أخاه أبا الفتوح والد عباس من افريقية سنة تسع وخمسمائة فسار الى الديار المصرية ومعه زوجته بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس وولده عباس هذا وهو صغير يرضع ونزل أبو الفتوح بالاسكندرية فأكرم وأقام بها مدة يسيرة وتوفي وتزوجت بعده امرأته بلارة بالعادل بن السلار وشب العباس وتقدم عند الظافر حتى ولي الوزارة بعد العادل فان العادل قتل في المحرم سنة ثمان وأربعين قيل وضع ربيبه عباس من قتله فلما قتل ولي الوزارة بعده وتمكن منها وكان جلدا حازما ومع هذا ففي أيامه أخذ الفرنج عسقلان واشتد وهن الدولة بذلك وفي أيامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وصار الامر بعد هذا الى ان أخذت مصر منهم على ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى

❁(ذكر عود جماعة من الامراء الى العراق)❁

في هذه السنة في رجب عاد البقش كون خر والطرنطاي وابن دبيس ومعهم ملكشاه ابن السلطان محمود الى العراق وراسلوا الخليفة في الخطبة لملكشاه فلم يلتفت اليهم وجمع العساكر وحصن بغداد وأرسل الى السلطان مسعود يعرفه بالحال فوعده بالوصول الى بغداد فلم يحضر وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر الى الري في معنى خاص بك فلما وصل الى الري سار اليه السلطان مسعود ولقيه واسترضاه فرضي عنه فلما علم البقش بمراسلة الخليفة الى مسعود نهب النهروان وقبض على الامير علي بن دبيس في رمضان فلما علم الطرنطاي بذلك هرب الى النعمانية ووصل السلطان مسعود الى بغداد منتصف شوال ورحل البقش كون خر من النهروان وأطلق علي بن دبيس فلما وصل السلطان الى بغداد قصده علي وألقى بنفسه بين يديه واعتذر فرضي عنه وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع وأربعين وذكر أيضا مثلها سنة ثلاث وأربعين فظنهما حادثتين وانا أظنها واحدة ولكنا تبعناه في ذلك ونبهنا عليه

❁(ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج)❁

في هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكي بلاد الفرنج من ناحية انطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن انب فحصره أيضا فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وحارم وتلك الاعمال وساروا الى نور الدين ليرحلوه عن انب فلقيهم واقتتلوا قتالا عظيما وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم جمع كثير وأسر مثلهم وكان ممن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت أمه ببرنس آخر ليدبر البلد الى ان يكبر ابنها وأقام معها بانطاكية ثم ان نور الدين غزاهم غزوة أخرى فاجتمعوا ولقوه فهزمهم وقتل فيهم وأسر وكان فيمن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند فتمكن حينئذ بيمند بانطاكية وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر فان قتل البرنس كان عظيما عند الطائفتين وممن قال فيه القيسراني الكاتب في القصيدة المشهورة التي أولها

هذي العزائم لا ما تدعي القضب * وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت * تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها * براحة للمساعي دونها تعب

ما زال جدك يبني كل شاهقة * حتى بنى قبة أوتادها الشهب

والفرس وتغور في الارض وأصابت الكل الا ابرهة أصابت أنامله فبلغ صنعاء ثم ورم صدره وهلك فأنشد أبو طالب يقول

ان آيات ربنا ساطعات
لا يماري فيهن الا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى
مر يعوي كأنه معقور

وأنشد ابن مخزوم

أنت الجليل ربنا لم تدنس
أنت حبست الفيل بالمغمس
حبستهم في هيئة المكردس
فمالهم من فرج ومنفس

وهذه أمم العرب كانوا في الجاهلية أصنافا فصنف أنكروا الخالق وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث وصنف عبدوا الاصنام فكانت ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل ويغوث لمذحج ونسر لذي الكلاع بحمير ويعوق لهمدان واللات لثقيف بالطائف والعزى لقريش وبني كنانة ومناة للاوس والخزرج وهبل أعظم أصنامهم كان على الكعبة واساف ونائلة على الصفا والمروة وكان منهم من يعبد الجن ومنهم من يميل الى اليهودية ومنهم من يميل الى النصرانية ومنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يميل الى الصابئة وكانوا يعتقدون في الانواء اعتقاد المنجمين وكانت علومهم الانساب والتواريخ والانواء وتعبير الرؤيا وكان أبو بكر الصديق أطولهم يدا في هذه العلوم وكانوا على أشياء توافق شريعة الاسلام لا ينكحون الامهات

أغرت

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة * فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

طهرت أرض الاعادي من دمائهم * طهارة كل سيف عندها جنب

❁(ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم)❁

في هذه السنة اختلف رجار الفرنجي صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد افريقية وكان القتال بينهم برا وبحرا والظفر في جميع ذلك لصاحب صقلية حتى ان أسطوله في بعض السنين وصل الى مدينة القسطنطينية ودخل فم الميناء وأخذوا عدة شواني من الروم وأسروا جماعة منهم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذي يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجي وزير صاحب صقلية فمرض عدة أمراض منها البواسير والحصاة ومات سنة ست وأربعين وخمسمائة فسكنت الفتنة واستراح الناس من شره وفساده ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده

❁(ذكر عدة حوادث)❁

في هذه السنة زلزلت الارض زلزلة عظيمة فقيل ان جبلا مقابل حلوان ساخ في الارض وفيها ولي أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفي لامر الله وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد وحسن قيام في ردهم فرغب الخليفة فيه فاستوزره يوم الاربعاء رابع ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وكان القمر على تربيع زحل فقيل له لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات فقال وأي سعادة أكبر من وزارة الخليفة ولبسها ذلك اليوم وفيها في المحرم توفي قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي وولي القضاء عماد الدين أبو الحسن علي بن أحمد الدامغاني وفيها في المحرم رخصت الاسعار بالعراق وكثرت الخيرات وخرج أهل السواد الى قراهم وفيها توفي الامير نظر أمير الحاج وكان قد سار بالحاج الى الحلة فمرض واشتد مرضه واستخلف على الحاج قايماز الارجواني وعاد الى بغداد مريضا فتوفي في ذي القعدة وكان خصيا عاقلا خيرا له معروف كثير وصدقات وافرة وفيها توفي أحمد بن نظام الملك الذي كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله وفيها توفي علي بن رافع بن خليفة الشيباني وهو من أعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية ومات الامام مسعود الصوابي في المحرم منها وفيها توفي معين الدين أنز نائب أبق صاحب دمشق وهو كان الحاكم والامر اليه وكان أبق صورة أمير لا معنى تحتها وفيها توفي القاضي أحمد بن محمد بن الحسين الارجاني أبو بكر قاضي تستر وله شعر حسن فمنه قوله

ولما بلوت الناس أطلب عندهم * أخا ثقة عند اعتراض الشدائد

تطلعت في حالي رخاء وشدة * وناديت في الاحياء هل من مساعد

فلم أر فيما ساءني غير شامت * ولم أر فيما سرني غير حاسد

تمتعتما يا ناظري بنظرة * وأوردتما قلبي أمر الموارد

أعيني كفا عن فؤادي فانه * من البغي سعي اثنين في قتل واحد

وفيها توفي أبو عبد الله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز وكان ظريفا وله شعر حسن كتب اليه صديق له رقعة وزاد في خطابه فأجابه

ولا البنات ولا يجمعون بين الاختين ويعيبون التزوج بامرأة أبيه ويسمونه الضيزن ويحجون البيت الحرام على هيئة الاسلام ويغتسلون من الجنابة ويواظبون على المضمضة والاستنشاق والسواك والاستنجاء وحلق العانة ونتف الابط وتقليم الاظفار والختان ويقطعون يد السارق اليمنى ويفرقون رؤسهم ويكبسون في كل ثلاثة أعوام شهرا (وأما أمة السريان والصابئين) فهم أقدم الامم كان كلام آدم وبنيه بالسرياني ويقال ان الصابئة أخذت دينها عن شيث وادريس ولهم كتاب يعزونه الى شيث يذكر فيه محاسن الاخلاق مثل الصدق والشجاعة والتعصب للغريب وأشباه ذلك ويأمر به وينهى ويذكر فيه الرذائل وينهى عنها ولهم سبع صلوات خمس كخمس المسلمين والضحى والسابعة عند تمام ست ساعات من الليل ويشترطون النية ولا يخلطون صلواتهم بغيرها ويصلون على الجنازة من غير ركوع ولا سجود ويصومون شهرا هلاليا يفتتحون عيد فطرهم عند حلول الشمس الحمل يصومون من ربع الليل الاخير الى غروب الشمس ويعظمون مكة والحرم [illegible] يحجون مكانا بظاهر حران وأعيادهم خمسة عند نزول زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد بيوت شرفها وأعظم أعيادهم عند نزول

قـد زدتنى فى الخطاب حتى * خشيت نقصا من الزياده
فاجعل خطابى خطاب مثلى * ولا تغـــير على عاده

﴿ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر أخذ العرب الحجاج﴾

فى هذه السنة رابع عشر المحرم خرج العرب زعب ومن انضم اليها على الحجاج بالغرابى بين مكة والمدينة فأخذوهم ولم يسلم منهم الا القليل وكان سبب ذلك ان نظر أمير الحاج لما عاد من الحلة على ماذكرناه وسار على الحاج قايماز الارجوانى وكان حدثا غرا فسار بهم الى مكة فلما رأى أمير مكة قايماز استصغره وطمع فى الحاج وتلطف قايماز الحال بعد الى أن عادوا فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب فقال للحاج من المصلحة أنا لا نمضى الى المدينة فضج العجم وتهددوه بالشكوى منه الى السلطان سنجر فقال لهم فأعطوا العرب مالا نستكفى به شرهم فامتنعوا من ذلك فسار بهم الى الغرابى وهو منزل يخرج اليه من مضيق جبلين فوقفوا على فم مضيق وقاتلهم قايماز ومن معه فلما رأى عجزه أخذ لنفسه أمانا وظفروا بالحجاج وغنموا أموالهم وجميع ما معهم وتفرق الناس فى البر وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة ولم يسلم الا القليل فوصل بعضهم الى المدينة وتحملوا منها الى البلاد وأقام بعضهم مع العرب حتى توصل الى البلاد ثم ان الله تعالى اقتص للحاج من زعب فلم يزالوا فى نقص وذلة ولقد رأيت شابا منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة وجرى بينى وبينه مفاوضة قلت له فيها انى والله كنت أميل اليك حتى سمعت انك من زعب فنفرت وخفت شرك فقال لم فقلت بسبب أخذكم الحاج فقال لى أنا لم أدرك ذلك الوقت وكيف رأيت الله صنع بنا والله ما أفلحنا ولا انجحنا قل العدد وطمع العدو فينا

﴿ذكر فتح حصن فاميا﴾

فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكى حصن فاميا من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماه على تل عال من أحصن القلاع وأمنعها فسار نور الدين اليه وحصره وبه الفرنج وقاتلوهم وضيق على من به منهم فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا الا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه مسير الفرنج اليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحصن وسار اليهم بطلبهم فحين رأوا ان الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه فى المهادنة وعاد سالما مظفرا ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح فمن ذلك قول ابن الرومى من قصيدة أولها

أسنى الممالك ما أطلت منارها * وجعلت مرهفة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنف عدله أقطارها

ومنها فى وصف الحصن

أدركت ثارك فى البغاة وكنت يا * مختار أمة أحمد مختارها
طالت نجوم ملك فوقها ولطالما * باتت تنافثها النجوم سرارها
عارية الزمن المعير سما لها * منك المغيرة فاسترد معارها
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت * شعراء تستفلى الفحول شوارها

وهى طويلة

﴿ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها﴾

الشمس الحمل ونسبتهم الى صابئ ابن ادريس المدفون بالهرم الثالث من اهرام مصر قال ابن حزم والذين الذى انتحله قوم الصابئة أقدم الاديان والغالب على الدنيا الى ان أحدثوا فيه الحوادث فبعث الله تعالى ابراهيم صلى الله عليه وسلم بالدين الذى نحن عليه الآن قال الشهرستانى والصابئة تفضل الروحانيين يعنى الملك كما تفضل الحنيفية الجثمانيين يعنى البشر *(وأما أمة القبط)* وهم من ولد حام ابن نوح سكنا هم بديار مصر كانوا صابئة فعبدوا الهياكل والاصنام وكان منهم علماء الطلسمات والنيرنجيات والمرائى الخارقة للعقول والكيمياء *(وأما أمة الفرس)* وهم ولد فارس ابن ارم بن سام وقيل ابن يافث وهم يقولون نحن ولد كيومرث وكيومرث عندهم هو الذى ابتدأ منه النسل مثل آدم عليه السلام عندنا ويذكرون أن الملك لم يزل فيهم فلا ينقطع خلا مدة يسيرة ولا يعتدبها وهم فرق منهم الديلم بساحل طبرستان ومنهم الكرد بشهرزور وقيل الكرد من العرب ثم تنبطوا وقيل هم أعراب العجم ومنهم الترك وهم وراء جيحون ولهم ملة قديمة يقال لعلمائها الكيومرثية أثبتوا الها قديما وسموه يزدان يعنون به الله تعالى والها مخلوقا من الظلمة وسموه أهرمن يعنون به ابليس ويعظمون

فى هذه السنة سار السليطين وهو الاذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج فى أربعين ألف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهى فى ضعف وغلاء فبلغ الخبر الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجهز مقدمهم أبا زكريا يحيى بن يرموز ونفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها فلم يقدروا أن يلقوا عسكر السليطين فى الوطاء وأرادوا الاجتماع بأهل قرطبة ليمنعوها لخطر العاقبة بعد القتال فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما فى الوعر فى مسافة أربعة أيام فى السهل فوصلوا الى الجبل المطل على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القايد بن غلبون وهو من أبطال أهل الاندلس وامرائها فلما رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد الى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذى كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذى خفته عليكم لانى علمت ان السليطين ما أقام الا طالبا لكم فان من الموضع الذى كان فيه طريق سهلة ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين انهم قد فاتوه علم انه لم يبق له طمع فى قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر والله أعلم

﴿ذكر ملك الغورية هراة﴾

فى هذه السنة سار ملك الغور الحسن بن الحسين من بلاد الغور الى هراة فحصرها وكان أهلها قد كاتبوه وطلبوا ليسلموها اليه هربا من الاتراك لهم وزوال هيبة السلطنة عنهم فامتنع أهل هراة عليه ثلاثة أيام ثم خرجوا اليه وسلموا البلد وأطاعوه فأحسن اليهم وأفاض عليهم النعم وغمرهم بالعدل وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد اليه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة أمر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر طريثيث اقامة الخطبة للخليفة ولبس السواد ففعل الخطيب ذلك فثار به عمه وأقاربه ومن وافقهم وقاتلوه وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب وكان فعل علاء الدين هذا الان أباه كان مسلما فلما تغلب الاسماعيلية على طريثيث أظهر موافقتهم وابطن اعتقاد الشريعة وكان يناظر على مذهب الشافعى وازداد تقدما بطريثيث وجرت أمورها بارادته فلما حضره الموت أوصى ان يغسله فقيه شافعى وأوصى الى ابنه علاء الدين ان أمكنه ان يعيد فيها اظهار شريعة الاسلام فعل فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له وفيها كثر المرض بالعراق لاسيما ببغداد وكثر الموت أيضا فيها ففارقها السلطان مسعود وفيها توفى الامير على بن دبيس بن صدقة صاحب الحلة باسداباد واتهم طبيبه محمد بن صالح بالمواطأة عليه فمات الطبيب بعده بقريب وفيها استوزر عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب أبا جعفر ابن أبى أحمد الاندلسى وكان ماسورا عنده فوصف له بالعقل وجودة الكتابة فاخرجه من الحبس واستوزره وهو أول وزير كان للموحدين وفى هذه السنة فى المحرم جلس يوسف الدمشقى مدرسا فى النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير أمر الخليفة فمنع يوم الجمعة من دخول الجامع فصلى فى جامع السلطان ومنع من التدريس فتقدم السلطان مسعود الى الشيخ أبى النجيب بان يدرس فيها فامتنع بغير أمر الخليفة فاستخرج السلطان اذن الخليفة فى ذلك فدرس منتصف المحرم من السنة وفيها توفى أبو عبد الله محمد بن على بن مهران الفقيه الشافعى تفقه على الهراسى وولى قضاء

النور حتى عبدوا النار ويحترزون من الظلمة ولا برحوا كذلك حتى ظهر زرادشت الذى ادعى النبوة فقالوا بالبارى تعالى وانه خالق النور والظلمة وانه واحد لا شريك له وان الخير والشر والصلاح مع الفساد انما حصل من امتزاج النور بالظلمة ولو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ولن يزال الامتزاج الى ان يخلص الخير الى عالمه والشر الى عالمه وقبلة زرادشت المشرق وهذا دين المجوس كما قدمته ولهم أعياد النوروهى خمسة أيام أولها اليوم الاول من كانون الثانى ولهم النيركان والمهرجان والفردخان وركوب الكوسج وذلك انه اذا كان أول الربيع يأتى رجل كوسج راكب على حمار قابض على غراب يتروح بمروحة يودع الشتاء وله ضريبة يأخذها ومتى وجد بعد ذلك ضرب ولهم السدق ليلة يوقد فيها النار ويشرب حولها ﴿وأما أمة اليونان﴾ قال أبو عيسى نجموا من رجل اسمه ألكن ولد سنة أربع وسبعين لمولد موسى عليه السلام ولم يكن لهم ذكر الامن حين برع ومرس الشاعر اليونانى فى سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى عليه السلام وكانوا أهل شعر وفصاحة وفيهم صارت الفلسفة وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم المنطقية والطبيعية والالهية والرياضية وكانوا يسمون العلم الرياضى جومطريا

نصيبين ثم ترك القضاء وتزهد فاقام بجزيرة ابن عمر ثم انتقل الى جبل ببلد الحصن فى زاوية وكان له كرامات ظاهرة وفيها مات الحسن بن ذى النون بن أبى القاسم بن أبى الحسن المسعرى أبو المفاخر النيسابورى سمع الحديث الكثير وكان فقيها أديبا دائم الاشتغال بعظ الناس وكان مما ينشد

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا * ومات من بعدهم تلك الكرامات
وخلفونى فى قوم ذوى سفه * لو أبصروا طيف ضيف فى الكرى ماتوا

﴿ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك﴾

فى هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار الى بلاد جوسلين الفرنجى وهى شمال حلب منها تل باشر وعين تاب واعزاز وغيرها وعزم على محاصرتها وأخذها وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأى فلما علم بذلك جمع الفرنج فاكثر وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير وكان فى جملة من أسر سلاح دار نور الدين فاخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره الى الملك مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك وعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ بثاره واحضر جماعة من أمراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه اما قتيلا أو أسيرا لانه علم انه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيدا فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مال يؤديه اليهم فاجابوه الى اطلاقه اذا احضر المال فارسل فى احضاره فمضى بعضهم الى أبى بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب فاعلمه الحال فسير عسكرا معه فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم فاخذوه أسيرا واحضروه عنده وكان أسره من أعظم الفتوح لانه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسى القلب وأصيبت النصرانية كافة باسره ولما أسر سار نور الدين الى قلاعه فملكها وهى تل باشر وعين تاب واعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله فى مدة يسيرة بردتفصيلها وكان نور الدين كلما فتح منها حصنا نقل اليه من كل ما تحتاج اليه الحصون خوفا من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو ومدحه الشعراء فمن قال فيه القيسرانى من قصيدة فى ذكر جوسلين

كما أهدت الاقدار للقمص أسره * واسعد قرن من حواك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة * تشق على النسرين لوانها وكر
فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجة * فبالافق الداجى الى ذا السنا فقر
كانى بهذا العزم لافل حده * واقصاه بالاقصى وقد قضى الامر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جارى الدماء له طهر

﴿ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الاندلس﴾

فى هذه السنة سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس الى الاندلس مع أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن

وهو مشتمل على علم الهيئة والهندسة وعلم الحساب واللحون والايقاع وكان العالم بهذه العلوم يسمى فيلسوفا ومعناه محب الحكمة لان فيلو محب وسوفا الحكمة و بلادهم الربع الشمالى والغربى يتوسطها الخليج القسطنطينى وأما نسبهم فقيل انهم من ولد يافث وقيل من جملة الروم من ولد صوفن ابن العيص بن يعقوب وهم فرقتان الاولى يقال لهم الاغريقيون والثانية يقال لهم اللطينيون وأول علمائهم قال الشهرستانى ابيدقليس كان فى زمن داود عليه السلام وفيثاغورس كان فى زمن سليمان عليه السلام يزعم انه أخذ الحكمة من معدن النبوة وانه وصل الى مقام الملك وسمع هفيف الفلك وقال ما سمعت شيأ ألذ من حركة الافلاك ولا رأيت أبهى من صورها ومن علمائهم بقراط الحكيم وكان فى سنة مائة وست وتسعين لبختنصر قبل الهجرة بألف ومائة وبضع وستين سنة ومنهم سقراط وكان قد أعرض عن الدنيا وأقام بغار ونهى عن عبادة الاوثان فألجأت العامة ملكهم فحبسه ثم سقاه سما فمات فقام مقامه تلميذه افلاطون وتلميذ أفلاطون ارسطاطاليس الحكيم المطلق المشهور اشتغل عليه الاسكندر بن فيلبش الذى ملك غالب المعمور خمس سنين ونال من الفلسفة مالم ينله غيره من تلامذة ارسطاطاليس ومنهم

غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه أحمد بن ملحان صاحب مدينة وادى آش وأعمالها بجماعته ووحدوا وصار معه وأتاه ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش صاحب جيان وأصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وحرضوه على المسارعة الى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الاندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فارسل الى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجى فى عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا الى حمة بلقوارة وبينها وبين مرسية التى هى مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنج فرجع وحصر مدينة المرية وهى للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء فى العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيلية فاقاموا بها

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الآخر توفى العبادى الواعظ واسمه المظفر بن اردشير بخوزستان وكان الخليفة المقتفى لامر الله قد سيره فى رسالة الى الملك محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحوائزى فتوفى هناك وجلس ولده ببغداد للعزاء وأقيم بحاجب من الديوان العزيز وكان ابنه يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكى هو والناس كافة ونقل العبادى الى بغداد ودفن بالشونيزى ومولده سنة احدى وتسعين وأربعمائة وسمع الحديث من أبى بكر السروى وزاهر الشحامى وغيرهما وفيها انفجر بثق النهروان الذى أغمه بهروز بكثرة الزيادة فى تامرا واعمال أمرها حتى عظم ذلك وتضرر به الناس وفيها سار الامير قيمق فى طائفة من عسكر السلطان سنجر الى طريثيث بخراسان وأغار على بلاد الاسماعيلية فنهب وسبى وخرب وأحرق المساكن وفعل بهم أفاعيل عظيمة وعاد سالما

﴿ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بنى حماد﴾

فى هذه السنة سار عبد المؤمن بن على الى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بنى حماد وكان لما أراد قصدها سار من مراكش الى سبتة سنة ست وأربعين فاقام بها مدة يعمل الاسطول ويجمع العساكر القريبة منه واما ما هو على طريقه الى بجاية من البلاد فكتب اليهم ليتجهزوا ويكونوا على الحركة أى وقت طلبهم والناس يظنون انه يريد العبور الى الاندلس فارسل فى قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من سبتة فى صفر سنة سبع وأربعين فاسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه فى طريقه فلم يشعر أهل بجاية الا وهو فى أعمالها وكان ملكها يحيى بن العزيز بن حماد آخر ملوك بنى حماد وكان مولعا بالصيد واللهو لا ينظر فى شئ من أمور مملكته قد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن فلقيهم مقدمته وهى تزيد على عشرين ألف فارس فانهزم أهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرق جميع عسكر يحيى بن العزيز وهربوا برا وبحرا وتحصن يحيى بقلعة قسطنطينية الهواء وهرب أخواه الحرث وعبد الله الى صقلية ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال ثم ان يحيى نزل الى عبد المؤمن بالامان فامنه وكان يحيى قد فرح لما أخذت بلاد افريقية من الحسن بن على فرحا ظهر

مالس الملطى وكان فى زمن بختنصر ومنهم الاسكندر الافرودوسى كان بعد ارسطاطاليس وكان من كبار ذوى الحكمة ومنهم اقليدس صاحب كتاب الاستقصاآت كان بعد ارسطو فى أيام البطالسة وليس هو مخترع كتاب اقليدس بل جمعه وحرره وأما بطليوس وجالينوس فمتأخران عن زمن اليونان وبطليموس قبل جالينوس بقليل قال ابن الاثير فى الكامل وقد أدرك جالينوس بطليموس مصنف المجسطى (وأما أمة اليهود) فبنو اسرائيل وهو يعقوب عليه السلام ومعناه صفوة الله هم أصل هذه الامة وغيرهم دخيل فكل يهودى هو اسرائيلى وسموا يهود لقول موسى عليه السلام انا هدنا اليك وكتابهم التوراة وهى أسفار ذكر فى السفر الاول مبدأ الخلق ثم الاحكام والحدود والاحوال مع القصص والمواعظ والاذكار فى سفر سفر وأنزل على موسى الالواح أيضا وهى تشبه مختصر ما فى التوراة وليس فى التوراة ذكر القيامة ولا الدار الآخرة ولا بعث ولا جنة ولا نار وكل جزاء فيها انما هو معجل فى الدنيا يجزون على الطاعة بالنصر على الاعداء وطول العمر وسعة الرزق ويجزون على الكفر والمعاصى بالموت ومنع المطر والحيات والجرب والغبار والظلمة وليس فيها ذم الدنيا ولا الزهد فيها ولا صفة صلوات معلومة بل الامر بالبطالة واللهو

عليه فكان يذمه ويذكر معايبه فلم تطل المدة حتى أخذت بلاده ووصل الحسن بن على الى عبد المؤمن فى جزائر بنى مزغنان وقد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين سبب مصيره اليها واجتماعه عنده فارسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز الى بلاد المغرب وأقام بها وأجرى عليه شيأ كثيرا وأما الحسن ابن على فانه أحسن اليه وألزمه صحبته وأعلى مرتبته فلزمه الى ان فتح عبد المؤمن المهدية فجعله فيها وأمر واليها ان يقتدى برأيه ويرجع الى قوله ولما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض الى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك ان بنى حمدون استأمنوا فوفى لهم بامانه

﴿ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة﴾

لما ملك عبد المؤمن بجاية تجمعت صنهاجة فى أمم لا يحصيها الا الله تعالى وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن فارسل اليهم جيشا كثيرا ومقدمهم أبو سعيد يخلف وهو من الخمسين فالتقوا فى عرض الجبل شرقى بجاية فانهزم أبو قصبة وقتل أكثر من معه ونهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ولما فرغوا من صنهاجة ساروا الى قلعة بنى حماد وهى من أحصن القلاع وأعلاها لا ترام على رأس جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها ولكن القدر اذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها فى رؤس الجبال وملكت القلعة وأخذ جميع ما فيها من مال وغيره وحمل الى عبد المؤمن فقسمه بين أصحابه

﴿ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود﴾

فى هذه السنة أول رجب توفى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو أسبوع وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة فى ذى القعدة ومات معه سعادة البيت السلجوقى فلم يقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت اليها

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان رحمه الله حسن الاخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس فمن ذلك ان أتابك زنكى صاحب الموصل أرسل اليه القاضى كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى فى رسالة فوصل اليه وأقام معه فى العسكر فوقف يوما على خيمة الوزير حتى قارب اذان المغرب فعاد الى خيمته فاذن المغرب وهو فى الطريق فرأى انسانا فقيها فى خيمة فنزل اليه فصلى معه المغرب ثم سأله كمال الدين من أين هو فقال أنا قاضى مدينة كذا فقال له كمال الدين القضاة ثلاثة قاضيان فى النار وهو أنا وأنت وقاض فى الجنة وهو من لم يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم فلما كان الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين اليه فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال القضاة ثلاثة فقال كمال الدين نعم يا مولانا فقال والله صدقت ما أسعد من لا يرانا ولا نراه ثم أمر أن تقضى حاجته وأعاده من يومه وكان كريما عفيفا عن الاموال التى للرعايا حسن السيرة فيهم من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الاخلاق لطيفا فمن ذلك انه اجتاز يوما فى بعض أطراف بغداد فسمع امرأة تقول لاخرى انظرى الى السلطان فوقف وقال حتى تجىء هذه الست تنظر الينا وله فضائل كثيرة ومناقب جمة وكان عهد الى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود فلما توفى خطب له الامير خاص بك ورتب الامور وقررها بين يديه واذعن له جميع العسكر بالطاعة ولما وصل الخبر الى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها وهو مسعود بلال الى تكريت واستظهر الخليفة المقتفى لامر الله على داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل ما لهم فيها

وكل

والقصف واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون الا واحدة بدئت بموسى وختمت به وأن ما كان قبل موسى كان حدودا عقلية وأحكاما مصلحية ومنعوا النسخ أصلا وهم فرق فمنهم الربانية كالمعتزلة فينا والقرائين كالجبرية والمشبهة فينا والعانانية نسبوا الى عانان بن داود منهم من يعرف برأس جالوت وهو لقب الحاكم على اليهود بالعراق وكان قبل ذلك لقبه هيرودس ومذهب العانانية انهم يصدقون المسيح فى مواعظه ويقولون انه من أنبياء بنى اسرائيل المتعبدين بالتوراة ولم يدع الرسالة وأن الانجيل ليس كتابا منزلا عليه بل هو مقرر للتوراة جمعه أربعة من أصحابه وقد ورد فى التوراة ذكر المسيحا وهو المسيح فى مواضع كثيرة ومنهم السامرة والكواشية ولهم أعياد وصيام منها الفصح وهو الخامس عشر من نيسان عيد كبير عندهم وهو أول أيام الفطير السبعة لا يأكلون فيها الخمير وهو يدور من ثانى عشر اذار الى خامس عشر نيسان ولهم عيد العنصرة بعد خمسين يوما من عيد الفطير وهو يوم حضر فيه مشايخ بنى اسرائيل طور سينا وسمعوا كلام الله عز وجل ولهم عيد الحنكة وهو ثمانية وعيد المظالى سبعة أيام والفرض من صياماتهم صوم الكبور وهو قبل غروب الشمس من تاسع تشرين بنصف ساعة الى بعد غروب الشمس من عاشره بنصف ساعة التتمة خمس وعشرون ساعة وباقى صياماتهم نوافل على هذه الصفة

وكل من كان عنده وديعة لاحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم باراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان ووجد فى دار مسعود بلال شحنة بغداد كثير من الخمر فاريق ولم يكن الناس يظنون انه شرب الخمر بعد الحج وقبض على المؤيد الالوسى الشاعر وعلى الحيص بيص الشاعر ثم أطلق الحيص بيص وأعيد عليه ما أخذ منه ثم ان السلطان ملكشاه سير سلاركرد فى عسكر الى الحلة فدخلها فسار اليه مسعود بلال شحنة بغداد وأظهر له الاتفاق معه فلما اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرقه واستبد بالحلة فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر اليه مع عون الدين بن هبيرة فسار اليه فلما قاربوا الحلة عبر مسعود بلال الفرات اليهم وقاتلهم فانهزم من عسكر الخليفة ونادى أهل الحلة بشعار الخليفة فلم يدخلها وتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه فعاد الى تكريت وملك عسكر الخليفة الحلة وسير الوزير عسكرا الى الكوفة وعسكرا الى واسط فملكوهما ثم ان عساكر السلطان وصلت الى واسط ففارقها عسكر الخليفة فلما سمع الخليفة ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد الى واسط ففارقها العسكر السلطانى وملكها الخليفة وسار منها الى الحلة ثم عاد الى بغداد فوصلها تاسع عشر ذى القعدة وكانت غيبته خمسة وعشرين يوما ثم ان خاص بك بن بلنكرى قبض على الملك ملكشاه الذى خطب له بالسلطنة بعد مسعود وأرسل الى أخيه الملك محمد سنة ثمان وأربعين وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده ان يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة أوائل صفر وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم انه دخل الى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد وقتل معه زنكى الجاندار وألقى برأسيهما فتفرق أصحابهما ولم ينتطح فيهما عنزان وكان ايدغدى التركمانى المعروف بشملة مع خاص بك فنهاه عن الدخول الى الملك محمد فلم ينته فقتل ونجا شملة فنهب جشير الملك محمد ومضى طالبا خوزستان وأخذ محمد من أموال خاص بك شيأ كثيرا واستقر محمد فى السلطنة وتمكن وبقى خاص بك ملقى حتى أكلته الكلاب وكان صبيا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود فتقدم على سائر الامراء ثم كان هذا خاتمة أمره

﴿ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج﴾

فى هذه السنة تجمعت الفرنج وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن ملكها فوصلوا اليه وهو بدلوك فلما قربوا منه رجع اليهم ولقيهم وجرى المصاف بينهم عند دلوك واقتتلوا أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثير وعاد نور الدين الى دلوك فملكها واستولى عليها ومما قيل فى ذلك

أعدت بعصرك هذا الانيق * فتوح النبى واعصارها
فواطات ياحبذا أحدها * وأسررت من بدر ابدارها
وكان مهاجرها تابعيك * وأنصار رأيك انصارها
فجددت اسلام سلمانها * وعمر جدك عمارها
ومايوم انب الا كذا * لئن طال بالنوع اشبارها
صدمت عزيمتها صدمة * أذابت مع الماء أحجارها
وفى تل باشر باشرتهم * بزحف تسور اسوارها
وان دالكتهم دلوك فقد * شددت فصدقت أخبارها

(وأما أمة النصارى) قال الشهرستانى للنصارى فى تجسد الكلمة مذاهب فقائل منهم أشرقت على الجسد اشراق النور على الجسم الشاف وقائل انطبعت فيه انطباع النقش فى الشمعة وقائل تدرع اللاهوت بالناسوت وقائل مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء واتفقت النصارى على ان المسيح قتلته اليهود وصلبته وعاش بعد ذلك ورآه شمعون الصفا وأوحى اليه ثم رفعه الله اليه وافترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة أكبرهم ثلاثة الملكانية والنسطورية واليعقوبية فالملكانية هم أصحاب ملكان الذى ظهر فى بلاد الروم واستولى عليها يصرحون بالتثليث وان المسيح ناسوت كلى قديم من قديم وان الصلب والقتل وقع على الناسوت واللاهوت معا واطلقوا الابوة والبنوة على الله والمسيح والنسطورية هم أصحاب نسطورس وهم من النصارى بمنزلة المعتزلة منا يقولون بالاشراق لا بالامتزاج وان القتل والصلب وقعا على مجرد الناسوت واليعقوبية هم أصحاب يعقوب البردعانى راهب القسطنطينية يقولون ان الكلمة انقلبت لحما ودما فصار المسيح الاله قال ابن حزم وهم يقولون

﴿ذكر الحرب بين سنجر والغورية﴾

فى هذه السنة كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب وكانت دولتهم أول ماقد ظهرت وأول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسن ملك جبال الغور ومدينة فيروز كوه وهى تقارب اعمال غزنة وقوى أمره وتلقب بعلاء الدين وتعرض الى أعمال ثم جمع جيشا وقصد هراة محاصرا لها فنهب عسكره ناب واوبه ومار باد من هراة الرود وسار الى بلخ وحصرها فقاتله الامير قماج ومعه جمع من الغز فغدر وابه وصار وا مع الغورى فملك بلخ فلما سمع السلطان سنجر بذلك سار اليه ليمنعه فثبت له علاء الدين واقتتلوا فانهزم الغورية وأسر علاء الدين وقتل من الغورية خلق كثير لاسيما الرجالة واحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه وقال له ياحسين لو ظفرت بى ما كنت تفعل فاخرج له قيد فضة وقال كنت أقيدك بهذا وأحملك الى فيروز كوه فخلع عليه سنجر ورده الى فيروز كوه فبقى بها مدة ثم انه قصد غزنة وملكها حينئذ بهرام شاه بن مسعود بن محمود بن سبكتكين فلم يثبت بها بين يدى علاء الدين بل فارقها الى مدينة كرمان وهى مدينة بين غزنة والهند وسكانها قوم يقال لهم ابغان وليست هذه بالولاية المعروفة بكرمان فلما فارق بهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغورى وأحسن السيرة فى أهلها واستعمل عليهم أخاه سيف الدين وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولاخيه سيف الدين بعده ثم عاد علاء الدين الى بلد الغور وأمر أخاه ان يخلع على أعيان البلد خلعا نفيسة ويصلهم بصلات سنية ففعل ذلك وأحسن اليهم فلما جاء الشتاء ووقع الثلج وعلم أهل غزنة ان الطريق قد انقطع اليهم فكاتبوا بهرام شاه الذى كان صاحبها واستدعوه اليهم فسار نحوهم فى عسكره فلما قارب البلد ثار أهله على سيف الدين فاخذوه بغير قتال وكان العلويون هم الذين تولوا أسره وانهزم الذين كانوا معه فمنهم من نجا ومنهم من أخذ ثم انهم سودوا وجه سيف الدين وأركبوه بقرة وأطافوا به البلد ثم صلبوه وقالوا فيه اشعارا يهجونه وغنوا بها حتى النساء فلما بلغ الخبر الى أخيه علاء الدين الحسين قال شعرا معناه ان لم أقلع غزنة فى مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين ثم توفى بهرام شاه وملك بعده ابنه خسروشاه وتجهز علاء الدين الحسين وسار الى غزنة سنة خمسين وخمسمائة فلما بلغ الخبر الى خسروشاه سار عنها الى لهاوور وملكها علاء الدين ونهبها ثلاثة أيام وأخذ العلويين الذين أسروا أخاه فالقاهم من رؤس الجبال وخرب المحلة التى صلب فيها وأخذ النساء اللواتى قيل عنهن انهن كن يغنين بهجاء أخيه والغورية فادخلهن حماما ومنعهن من الخروج حتى متن فيه وأقام بغزنة حتى أصلحها ثم عاد الى فيروز كوه ونقل معه من أهل غزنة خلقا كثيرا وحملهم المخالى مملوأة ترابا فبنى به قلعة فى فيروز كوه وهى موجودة الى الآن وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية وقد تقدم سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا فى بعض الامر وكلا سمعناه ورأيناه فى مصنفاتهم فلهذا ذكرنا الامرين وأقام الحسين على ذلك مدة واستعمل ابنى أخيه وهما غياث الدين وشهاب الدين

﴿ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين﴾

لما قوى أمر عمهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمال والامراء على البلاد وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور واسمه سنجة وكان غياث الدين يلقب حينئذ شمس الدين ويلقب الآخر شهاب الدين فلما استعملهما أحسنا السيرة فى عملهما وعدلا وبذلا الاموال فمال الناس اليهما وانتشر

ذكرهما

ان المسيح هو الله قتل وصلب وبقى العالم ثلاثة أيام بلا مدبر قال ابن سعيد المغربى والبطارقة للنصارى بمنزلة الائمة أصحاب المذاهب عندنا والمطران القاضى والاساقفة المفتون والقسيس المقرئ والجاثليق امام الصلاة كالخطيب عندنا والشمامسة القوام والمؤذنون وصلواتهم عند الفجر والضحى والعصر والظهر والمغرب والعشاء ونصف الليل يقرؤن فيها بالزبور المنزل على داود عليه السلام تبعا لليهودى فى ذلك وقد يسجدون فى الركعة الواحدة خمسين سجدة ولا يتوضؤن للصلاة واليهود يقولون ان الاصل طهارة القلب ولهم صومهم الكبير وهو تسعة وأربعون يوما أولها الاثنين الاقرب الى الاجتماع الكائن فيما بين اليوم الثانى من شباط الى الثانى من أدار قال السلطان عماد الدين وأوضح من هذا ان تنظر المذبح وهو سادس كانون الثانى فى أى شهر من شهور الاهلة فأى اثنين أقرب الى سابع عشرين الشهر الذى يليه فهو ابتداء صومهم وان كان يوم الاثنين فهو أول صومهم قلت وثم طريق آخر أشهر من هذين وهو أول اثنين يأتى بعد سادس عشرين شهر هلالى جاء فيه شباط فهو ابتداء صومهم وتخصيصهم هذا الزمان لانهم يعتقدون ان يوم الاحد ابتداء الخمسين يوما من صيامهم يوافق اليوم

ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما الى عمهما علاء الدين وقال انهما يريدان الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك فارسل عمهما يستدعيهما اليه فامتنعا وكانا قد علما الخبر فلما امتنعا جهز اليهما عسكرا مع قائد يسمى خروش الغورى فلما التقوا انهزم خروش ومن معه وأسر هو وأبقيا عليه وأحسنا اليه وخلعا عليه وأظهرا عصيان عمهما وقطعا خطبته فتوجه اليهما علاء الدين وسارا هما أيضا اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم علاء الدين وأخذ اسيرا وانهزم عسكره فنادى فيهم ابنا أخيه بالامان فاحضرا عمهما وأجلساه على التخت ووقفا فى خدمته فبكى علاء الدين وقال هذان صبيان قد فعلا مالو قدرت عليه منهما لم أفعله وأحضر القاضى فى الحال وزوج غياث الدين بابنته وجعله ولى عهده وبقى كذلك الى ان مات فلما توفى ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه فى الغور وغزنة بالملك وبقى كذلك الى ان ملك الغز غزنة بعد موت علاء الدين طمعوا فيها بعونه وبقيت بايديهم خمس عشرة سنة يصبون على أهلها العذاب ويتابعون الظلم كعادتهم فى كل بلدة ملكوها ولو أنهم لما ملكوا أحسنوا السيرة فى الرعايا لدام ملكهم فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة وغياث الدين يقوى أمره ويحسن السيرة والناس يميلون اليه ويقصدونه محبة له

﴿ذكر ملك غياث الدين غزنة وماجاورها من البلاد﴾

لما قوى أمر غياث الدين جهز جيشا كثيفا مع أخيه شهاب الدين الى غزنة فيه أصناف الغورية والخلج والخراسانية فساروا اليها فلقيهم الغز وقاتلوهم فانهزم الغورية وثبت شهاب الدين فيمن ثبت معه على صاحب علمهم فقتله وأخذ العلم وتركه على حاله فتراجع الغز ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين فجاؤا يطلبون علمهم فكلما جاء اليه طائفة قتلهم فاتى على أكثرهم ودخل غزنة وتسلمها وأحسن السيرة فى أهلها وأفاض العدل وسار من غزنة الى كرمان وشنوران فملكهما ثم تعدى الى ماء السند وعمل على العبور الى بلد الهند وقصد لهاوور وبها يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه المقدم ذكر والده فلما سمع خسروشاه بذلك سار فيمن معه الى ماء السند فمنعه من العبور فرجع عنه وقصد فرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند وأعمال الابغان والله أعلم

﴿ذكر ملك شهاب الدين لهاوور﴾

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوى أمره وجنانه وعظمت هيبته فى قلوب الناس وأحبوه لحسن سيرته فلما خرج الشتاء وأقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة سار نحو لهاوور فى جمع عظيم وحشد كثير من خراسان والغور وغيرها فعبر الى لهاوور وحصرها وأرسل الى صاحبها خسروشاه والى أهلها يتهددهم ان منعوه وأعلمهم انه لا يزول حتى يملك البلد وبذل لخسروشاه الامان على نفسه وأهله وماله ومن الاقطاع ما أراد وان يزوج ابنته بابن خسروشاه على ان يطأ بساطه ويخطب لاخيه فامتنع عليه وأقام شهاب الدين محاصرا له مضيقا عليه فلما رأى أهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نياتهم فى نصرة صاحبهم فخذلوه فارسل لما رأى ذلك قاضى البلد والخطيب يطلبون له الامان فاجابه شهاب الدين الى ذلك وحلف له وخرج اليه ودخل الغورية الى المدينة وبقى كذلك شهرين مكرما عند شهاب الدين فورد رسول من غياث الدين الى شهاب الدين يأمره بانفاذ خسروشاه اليه

﴿ذكر انقراض دولة سبكتكين﴾

لما أنفذ غياث الدين الى أخيه شهاب الدين يطلب انفاذ خسروشاه اليه أمره شهاب الدين بالتجهز والمسير فقال أنا لا أعرف أخاك ولا الى حديث الامعك ولا يمين الا فى عنقك فمناه وطيب

الذى قام فيه المسيح من قبره ويعتقدون ان يوم القيامة يكون فى مثله ومن يوم الاحد الذى قبل هذا الاحد الى هذا الاحد ثمانية أيام تسمى عيد الشعانين أى التسبيح يقولون دخل المسيح ذلك اليوم الى القدس راكب أتان يتبعها جحش واستقبله الناس وبايديهم ورق الزيتون يقرأ بين يديه التوراة وانه اختفى عن اليهود يوم الاثنين ويوم الثلاثاء والاربعاء وفيه غسل أيدى الحواريين وأرجلهم ومسحها بثيابه ثم افصح يوم الخميس بالخبز والخمر وصار الى منزل واحد من أصحابه ثم خرج ليلة الجمعة الى الجبل فسعى به يهودا وهو أكبر تلامذته الى كبير اليهود وارتشى منهم بثلاثين درهما فألقى الله شبهه على غيره كما قدمناه وصلبوه ثلاث ساعات وقيل ستة وتسمى جمعة الصلبوت ودفنه يوسف النجار ابن عم عيسى فى قبر كان أعده لنفسه قالت النصارى ومكث الى صبيحة يوم الاحد وقام منه وهو عيدهم الاكبر ولهم تلوه أعياد الاحد الجديد والسلاقا والقبيطى قسيطى وعيد الصليب وهو مشهور وعيد الميلاد فى ليلة الخامس والعشرين من كانون الاول واعلم ان الانجيل يتضمن أخبار المسيح من مولده الى رفعه كتبه أربعة من أصحابه متى بفلسطين بالعبرانية ومرقوس ببلاد الروم بالرومية ولوقا بالاسكندرية باليونانية

قلبه وجهزه وسيره معه ولده وأصحبهما جيشا يحفظونهما فسارا كارهين فلما بلغا فرشابور خرج أهلها اليهما يبكون ويدعون لهما فزجرهم الموكلون بهما وقالوا اسلطانان يزور سلطانا آخر لاى شئ تبكون وضربوهم فعادوا وخرج ولد خطيبها الى خسرو شاه متوجعا له قال فلما دخلت عليه أعلمته رسالة أبي وقلت انه قد اعتزل الخطابة ولا حاجة بي الى خدمة غيركم فقال لي سلم عليه وأعطاني فرجية فوطا ومصلى من عمل الصوفية وقال هذه تذكرة أبيك عند أبي فسلمها اليه وقل له درمع الدهر كيفما دار وأنشد بلسان فصيح

وليس كعهد الدار يا أم مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

قال فانصرفت الى أبي وعرفته الحال فبكى وقال قد أيقن الرجل بالهلاك ثم رحلوا فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل أمر بهما فرفعا الى بعض القلاع فكان آخر العهد بهما وهو آخر ملوك آل سبكتكين وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود فان آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بآبائهم أو مجدهم قعدوا

فتبارك الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور فأف لهذه الدنيا الدنية تفعل هذا بأبنائها نسأل الله تعالى أن يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة وأن يقبل بنا اليه وأن يشغلنا به عما سواه انه على كل شئ قدير هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسرو شاه آخر ملوك آل سبكتكين وقد ذكر غيره انه توفي في الملك وملك بعده ابنه ملكشاه وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندي فيها خلاف لو ينكشف الحق فأصلحه ان شاء الله تعالى

ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة

لما استقر ملكهم بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين الى أخيه شهاب الدين باقامة الخطبة له بالسلطنة وتلقب بألقاب السلاطين كان لقبه شمس الدين فتلقب غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين ولقب أخاه بمعز الدين ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة

ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان

لما فرغ شهاب الدين من اصلاح أمر لهاوور وتقرير قواعدها سار الى أخيه غياث الدين فلما اجتمع به استقر رأيهما على المسير الى خراسان وقصد مدينة هراة ومحاصرتها فسارا في العساكر الكثيرة اليها وكان بها جماعة من الاتراك السنجرية فنازلا البلد وحصراه وضيقا على من به فاستسلموا اليهما وأرسلوا يطلبون الامان منهما فأجاباهم الى ذلك وأمناهم فتسلما البلد وأخرجا من فيه من الامراء السنجرية واستناب فيه غياث الدين خرنك الغوري وسار غياث الدين وأخوه الى فوشنج فملكاها ثم الى باذغيس وكالين وبيوار فملكاها أيضا وتسلم ذلك جميعه غياث الدين وأحسن السيرة في أهل البلاد ورجع الى فيروزكوه ورجع شهاب الدين الى غزنة وكان ينبغي أن حوادث الغورية تذكر في السنين وانما جمعناها ليتلو بعضها بعضا ولأن فيه ما لم يعرف تاريخه فتركناه بحاله

ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند

لما رجع شهاب الدين من خراسان الى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره ثم سار الى

وتومابافسيس باليونانية أيضا ولهم صيامات أخر صوم السليخين وصوم سوى وصوم العذارى وهو ثلاثة أيام أولها يوم الاثنين يلي الذبح ودخل في دين النصارى أمم منها الروم وهم بنو الاصفر وهو روم بن عيص بن اسحق وكانوا على دين الصابئة الى أن تنصر قسطنطين وحملهم على دين النصرانية ومنهم الارمن وبلادهم أرمينية وعمدة ملكهم اخلاط فلما ملكها الملوك صاروا رعية وتفرقوا في طرسوس ومصيصة وكرسي ملكهم سيس ومنهم الكرج وبلادهم مجاورة لبلاد اخلاط آخذة الى الخليج القسطنطيني ممتدة الى نحو الشمال وهم خلق كثير مصالحون للتتار وبيت الملك فيهم محفوظ يتوارثه رجالهم ونساؤهم ومنهم الجركس وهم على بحر نيطش من شرقيه وهم في شظف من العيش ومنهم الروس ومنهم البلغار وأسلم منهم جماعة ومنهم الالمان ومنهم البرجان ومنهم الفرنج وأصل بلادهم فرنجة مجاورة لجزيرة الاندلس وقد غلبوا على معظمها ولهم في بحر الروم جزائر مشهورة منها صقلية وقبرس واقريطش ومنهم الجنوية منسوبون الى جنوة مدينة عظيمة غربي قسطنطينية ومنهم البنادقة منسوبون الى مدينتهم البندقية ومعظم مدائنهم رومية غربي جنوة والبندقية

بلد الهند فحاصر مدينة آجرة وبها ملك من ملوك الهند فلم يظفر منه بطائل وكان للهندي زوجة غالبة على أمره فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها فأعادت الجواب أنها لا تصلح له وأنها لها ابنة جميلة تزوجه اياها فأرسل اليها يجيبها الى التزويج بابنتها فسقت زوجها سما فمات وسلمت البلد اليه فلما تسلمه أخذ الصبية فأسلمت وتزوجها وحملها الى غزنة وأجرى عليها الجرايات الوافرة ووكل بها من علمها القرآن وتشاغل عنها فتوفيت والدتها ثم توفيت هي بعد عشر سنين ولم يرها ولم يقربها فبنى لها مشهدا ودفنها فيه وأهل غزنة يزورون قبرها ثم عاد الى بلد الهند فذل له صعابها وتيسر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم وبلغ منهم ما لم يبلغه أحد قبله من ملوك المسلمين

ذكر ظفر الهند على المسلمين

لما اشتدت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند واثخانه في أهلها واستيلاؤه عليهم اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبخ بعضهم بعضا فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه فجمعوا عساكرهم وحشدوا وأقبل اليهم الهنود من كل فج عميق على الصعب والذلول وجاؤا بحدهم وحديدهم وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هي من أكبر ملوكهم فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم اليه تقدم هو أيضا اليهم في عسكر عظيم من الغورية والخلج والخراسانية فالتقوا واقتتلوا ولم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهنود يقتلون ويأسرون وأثخنوا فيهم وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليسرى وضربة أخرى على رأسه سقط منها الى الارض وحجز الليل بين الفريقين فاحس شهاب الدين بجماعة من غلمانه الاتراك في ظلمة الليل وهم يطلبونه في القتلى ويبكون وقد رجع الهنود الى ورائهم فكلمهم وهو على ما به من الجهد فجاؤا اليه مسرعين وحملوه على رؤسهم رجالة يتناوبون حمله حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته في الناس فجاؤا اليه يهنؤنه من أقطار البلاد فأول ما عمل أنه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه فملأ مخالي خيلهم شعيرا وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم فأكلوه ضرورة وبلغ الخبر الى أخيه غياث الدين فأرسل اليه يلومه على عجلته واقدامه وأنفذ اليه جيشا عظيما

ذكر ظفر المسلمين بالهند

لما سلم شهاب الدين وعاد الى آجرة وأتاه المدد من أخيه غياث الدين وعاد الهنود جددوا سلاحهم ووفروا جمعهم وأقاموا عوض من قتل منهم وسارت ملكتهم وهم معها في عدد يضيق عنه الفضاء فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها فلم تجبه الى ذلك وقالت اما الحرب واما أن تسلم بلاد الهند وتعود الى غزنة فأجابها الى العود الى غزنة وأنه يستأذن أخاه غياث الدين فعل ذلك مكرا وخديعة وكان بين العسكرين نهر وقد حفظ الهنود المخاضات فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم فبينما هم كذلك اذ وصل انسان هندي الى شهاب الدين وأعلمه أنه يعرف مخاضا قريبا من عسكر الهنود وطلب أن يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض ويكبسون الهنود وهم غارون آمنون فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكرا فأقام له ضمناء من أهل اجرة والمولتان فأرسل معه جيشا كثيفا وجعل عليهم الامير الحسين بن خرميل الغوري وهو الذي صار بعد صاحب هراة وكان من الشجاعة والرأي بالمنزلة المشهورة فسار الجيش مع الهندي فعبروا النهر فلم يشعر

وهي مقر خليفتهم واسمه البابا ومن أمم النصارى الجلالقة وهم أشد من الفرنج لا يغسلون ثيابهم بل يبقونها عليهم حتى تنقطع وتبلى ويدخل أحدهم دار الآخر بغير اذنه وهم كالبهائم وبلادهم كبيرة شمالي الاندلس ومنهم الباشقردية بين بلاد الالمان وبلاد افرنجة شرسو الاخلاق وفيهم مسلمون وأما أمة الهند فمنهم الباسوية يعظمون النار ويبيحون الزنا ويسجدون للبقر ومنهم اليهودية لا يعافون شيأ ويمسحون أبدانهم بالرماد ويحرمون الذبائح والنكاح وجمع المال ومنهم عبدة الشمس ومنهم عبدة القمر ومنهم عبدة الاصنام ومنهم عبدة النار ومنهم عبدة الماء ومنهم البراهمة وهم يعلمون الفلك والنجوم على طريقة تخالف منجمي الروم والعجم أكثر أحكامهم باتصالات الثوابت دون السيارة يعظمون الفكر ويقولون هو المتوسط بين المحسوس والمعقول ويصرفونه عن المحسوسات حتى تنجلي لهم المغيبات بالرياضة البليغة المجهدة وينكرون النبوة ومنهم من يتقرب الى النار بالقاء نفسه فيها وباغراق نفسه في الماء خصوصا في نهر كنك وماؤه عندهم كماء زمزم عندنا وهو نهر كبير حاد الانصباب * وللهنود ممالك كثيرة * منها المانكر على بحر اللان هي أعظم ممالكهم وأقربها

الهنود الا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات فعبر شهاب الدين وباقى العساكر وأحاطوا بالهنود وأكثروا القتل فيهم ونادوا بشعار الاسلام فلم ينج من الهنود الا من عجز المسلمون عن قتله وأسره وقتلت ملكتهم وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند وأمن معرة فسادهم والتزموا له بالاموال وسلموا اليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دهلى وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند فارسل عسكرا من الخلج مع محمد بن بختيار فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل اليها مسلم قبله حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبه هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف وقد ذكرناهما سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى يعقوب الكاتب ببغداد وكان يسكن بالمدرسة النظامية وحضر متولى التركات وختم على الغرفة التى كان يسكنها بالمدرسة فثار الفقهاء وضربوا المتولى وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما فاغلق الفقهاء المدرسة وألقوا كرسى الوعاظ فى الطريق وصعدوا سطح المدرسة ليلا واستغاثوا وتركوا الادب وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر فعفى عنه وفيها توفى حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبى وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الارموى الشافعى المحدث ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وفيها توفى أبو الاسعد عبد الرحمن القشيرى فى شوال وهو شيخ شيوخ خراسان وفيها فى المحرم باض ديك ببغداد بيضة وباض باذى بيضتين وباضت نعامة لا ذكر معها بيضة

(ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم)

فى هذه السنة فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الاتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا أخرجوهم منه كما ذكرنا فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا فاقاموا بنواحى بلخ يرعون فى مراعيها وكان لهم امراء اسم أحدهم دينار والآخر بختيار والآخر طوطى والآخر ارسلان والآخر جغر والآخر محمود فاراد الامير قماج وهو مقطع بلخ ابعادهم فصانعوه بشئ بذلوه له فعاد عنهم فاقاموا على حالة حسنة لا يؤذون أحدا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ثم ان قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده فامتنعوا وانضم بعضهم الى بعض واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك فسار قماج اليهم فى عشرة آلاف فارس فجاء اليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم ويعطونه من كل بيت مائتى درهم فلم يجبهم الى ذلك وشدد عليهم فى الانتزاح عن بلده فعادوا عنه واجتمعوا وقاتلوه فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل فى العسكر والرعايا واسترقوا النساء والاطفال وعملوا كل عظيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقماج الى مرو وبها السلطان سنجر فاعلمه الحال فراسلهم سنجر يتهددهم فامرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم فلم يجبهم الى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديد فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا

الى بلاد الاسلام وهى التى كان يغزوها محمود بن سبكتكين ومملكة القنوج فيها أصنام يتوارثون عبادتها ويزعمون أنها تزيد على مائتى ألف سنة ومملكة قمار التى ينسب اليها العود القمارى يحرمون الزنا ومملكة نبارش * وأما أمة السند وهم غربى الهند فقسمان قسم ببلاد اللان والمنصورة والديبل والمسلمون غالبون عليها وقسم ببلاد التسهير وأهلها يعبدون الاوثان وكل من ملك السند يقال له زنبيل وأما السودان وهم ولد حام فاديانهم مختلفة منهم مجوس ومنهم عبدة الحيات ومنهم أصحاب أوثان قال جالينوس اختصوا بعشر خصال تفلفل الشعر وخفة اللحا وفتح المنخرين وغلظ الشفتين وحدة الاسنان ولين الجلد وسواد اللون وتشقق الكعاب وطول الذكر وكثرة الطرب فمنهم الحبوش وبلادهم تقابل الحجاز بينهما البحر ويجاورهم من الجنوب الزيلع والغالب عليهم دين الاسلام ويجاورهم من جهة الشمال النوبة ومنهم لقمان الحكيم الذى كان فى زمن داود عليه السلام وبلال بن حمامة وذو النون المصرى * ومنهم البجاة وهم شديدو السواد عراة يعبدون الاوثان وفى بلادهم الذهب وهم فوق الحبشة الى جهة الجنوب على النيل وأعظم مدن السودان غانة فى أقصى جنوب الغرب وراء سجلماسة وبعهم

وتبعهم الغز قتلا واسرا فصار قتلى العسكر كالتلال وقتل علاء الدين قماج وأسر السلطان سنجر وأسر معه جماعة من الامراء فاما الامراء فضربوا أعناقهم وأما السلطان سنجر فان امراء الغز اجتمعوا وقبلوا الارض بين يديه وقالوا نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك فقد علمنا انك لم ترد قتالنا وانما غلبت عليه فانت السلطان ونحن العبيد فمضى على ذلك شهران أو ثلاثة ودخلوا معه الى مرو وهى كرسى ملك خراسان وطلبها منه بختيار اقطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز ان تكون اقطاعا لاحد فضحكوا منه وحنق له بختيار بفمه فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو وتاب عن الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله وولوا على نيسابور واليا فقسط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم وعلق فى الاسواق ثلاث غرائر وقال أريد ملء هذه ذهبا فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهبا مجحفا وجعلوها قاعا صفصفا وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء فى البلاد كلها فممن قتل الحسين بن محمد الارسابندى والقاضى على بن مسعود والشيخ محيى الدين محمد بن يحيى وأكثر الشعراء فى مراثى محمد بن يحيى فممن قال فيه على بن ابراهيم الكاتب

مضى الذى كان يجنى الدر من فيه * يسيل بالفضل والافضال واديه
مضى ابن يحيى الذى قد كان صوب حيا * لابن شهر ومصباحا لداجيه
خلا خراسان من علم ومن ورع * لما نعاه الى الآفاق ناعيه
لما أماتوه مات الدين وأسفا * من ذا الذى بعد محيى الدين يحييه

ويتعذر وصف ما جرى منهم بتلك البلاد جميعها ولم يسلم من خراسان شئ لم تنهبه الغز غير هراة ودهستان لانها كانت حصينة فامتنعت وقد ذكر بعض مؤرخى خراسان من أخبارهم ما فيه زيادة وضوح وقال ان هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحى الثغر من أقاصى الترك الى ما وراء النهر فى أيام المهدى وأسلموا واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق الشعبذة حتى تم أمره فلما سارت العساكر اليه خذله هؤلاء الغز وأسلموه وهذه عادتهم فى كل دولة كانوا فيها وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانية الان الاتراك القارغلية قهروهم وطردوهم عن أوطانهم فدعاهم الامير زنكى ابن خليفة الشيبانى المستولى على حدود طخارستان اليه وأنزلهم بلاده وكانت بينه وبين الامير قماج عداوة أحكمتها الايام للمجاورة التى بينهما وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر ويحكم عليه فتقوى بهم زنكى وساروا معه الى بلخ لمحاربة قماج فكاتبهم قماج فمالوا اليه وخذلوا زنكى عند الحرب فاخذ زنكى وابنه أسيرين فقتل قماج ابن زنكى وجعل يطعم أباه لحمه ثم قتل الاب أيضا وأقطع قماج الغز مواضع وأباحهم مراعى بلاده فلما قام الحسين بن الحسين الغورى وقصد بلخ خرج اليه قماج وعساكره ومعه الغز ففارقه الغز وانضموا الى الغورى حتى ملك مدينة بلخ فسار السلطان سنجر الى بلخ ففارقها الغورى بعد قتال انهزم منه ثم دخل الى السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته فرده الى غزنة وبقى الغز بنواحى طخارستان وفى نفس قماج منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه فاراد صرفهم عن بلاده فتجمعوا وانضم اليهم طوائف من الترك وقدموا عليهم أرسلان موقا التركى فجمع ارسلان قماج عسكره ولقيهم فاقتتلوا يوما كاملا الى الليل فانهزم قماج وعسكره وأسر هو وابنه أبو بكر فقتلوهما واستولى على نواحى بلخ وعاثوا فيها وأفسدوا بالنهب والقتل والسلب وبلغ السلطان سنجر الخبر فجمع عساكره وسار اليهم فراسلوه يعتذرون

التى هى أقصى المغرب بعدة مديدة ومن جملة مفازاتها مفازة طولها اثنا عشر يوما لا يوجد فيها الماء يحمل اليها التبن والملح والنحاس ولا يعودون منها الا بالذهب العين ومن السودان الدمادم وهم تتر السودان وفى بلادهم الزرافات ومنهم الزنج وهم أشد سوادا من الجميع ومنهم التكرور على غربى النيل وأما أمة الصين فبلادها واسعة عرضها من بحر الصين فى الجنوب الى سد ياجوج وماجوج ويشتمل على الاقاليم عندهم العدل والسياسة والعقل وحذق الصناعة قصار القدود عراض الوجوه عظام الرؤس * ومنهم عبدة أوثان * ومنهم عبدة نيران ومنهم مجوس ومدينتهم الكبرى حمدان وصين الصين نهاية فى العمارة وليس وراءه غير البحر المحيط مدينته العظمى سبتى وأما بنو كنعان وهم أهل الشام سمى الشام لسكنى سام بن نوح به فان اسمه بالعبرانية شام وكنعان نزل الشام حين تبلبلت الالسن قيل انه كان من الذين أنفقوا على بناء الصرح وهو كنعان بن ماريع بن حام وكل من ملك كنعان يسمى جالوت الى ان قتل داود جالوت وكان اسمه كيلاذ (وأما البربر) فالاصح انهم طائفة من بنى كنعان سكنوا المغرب حين قتل جالوت وتفرقوا قبائلهم كثيرة منها كنانة وهم الذين أقاموا دولة الفاطميين مع

و يتنصلون فلم يقبل عذرهم و وصل اليهم مقدمة السلطان وفيها محمد بن أبي بكر بن قماج
المقتول والمؤيد أي أبه في المحرم من سنة ثمان واربعين وخمسمائة و وصل بعدهم السلطان
سنجر فالتقاه الغز بعد ان ارسلوا يعتذرون و يبذلون الاموال والطاعة والانقياد الى كل
مايؤمرون به فلم يقبل سنجر ذلك منهم وسار اليهم فلقوه وقاتلوه وصبر واله ودام قتالهم فانهزم
عسكر سنجر وهو معهم فتوجهوا الى بلخ على أقبح صورة وتبعهم الغز واقتتلوا مرة ثانية فانهزم
السلطان سنجر أيضا ومضى منهزما الى مرو في صفر من السنة فقصد الغز اليها فلما سمع العسكر
الخراساني بقربهم منهم اجفلوا من بين أيديهم هاربين لما دخل في قلوبهم من خوفهم والرعب
منهم فلما فارقها السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها أفحش نهب وأقبحه وذلك في جمادى
الاولى من السنة وقتل بها كثير من أهلها وأعيانها منهم قاضي القضاة الحسن بن محمد
الارسابندي والقاضي علي بن مسعود وغيرهما من الائمة العلماء ولما خرج سنجر من مرو وقصد
بوزابة وأخذه الغز أسيرا واجلسوه على تخت السلطنة على عادته وقاموا بين يديه و بذلوا له الطاعة
ثم عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة فمنعهم أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا بذلوا فيه
جهدهم وطاقتهم ثم انهم عجزوا فاستسلموا اليهم فنهبوها أقبح من النهب الاول لم يتركوا بها شيأ
وكان قد فارق سنجر جميع أمراء خراسان و وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ولم يبق
عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه فلما وصلوا الى نيسابور احضروا الملك سليمان شاه ابن
السلطان محمود فوصل الى نيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة فاجتمعوا عليه
وخطبوا له بالسلطنة وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطاني الى طائفة كثيرة من
الغز فاوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرا وانهزم الباقون الى امرائهم الغزية فاجتمعوا معهم ولما
اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه وساروا الى مرو يطلبون الغز فبرز الغز اليهم فساعة
رآهم العسكر الخراساني انهزموا وولوا على أدبارهم وقصدوا نيسابور وتبعهم الغز فروا بطوس
وهي معدن العلماء والزهاد فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها وخربوا مساجدها ومساكن
أهلها ولم يسلم من جميع ولاية طوس الا البلد الذي فيه مشهد علي بن موسى الرضا ومواضع أخر
يسيرة لها أسوار وممن قتل من أعيان أهلها امامها محمد المارشكي ونقيب العلويين بها علي الموسوي
وخطيبها اسمعيل بن المحسن وشيخ شيوخها محمد بن محمد وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين وساروا
منها الى نيسابور فوصلوا اليها في شوال سنة تسع وأربعين ولم يجدوا دونها مانعا ولا دافع
فنهبوها نهبا ذريعا وقتلوا أهلها فاكثروا حتى ظنوا انهم لم يبقوا بها أحدا حتى انه أحصى
في محلتين خمسة عشر ألف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان وسبوا نساءها واطفالها
وأخذوا أموالها وبقي القتلى في الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض واجتمع أكثر أهلها بالجامع
المنيعي تحصنوا به فحصرهم الغز فعجز أهل نيسابور من منعهم فدخل الغز اليهم فقتلوهم عن
آخرهم وكانوا يطلبون من الرجال المال فاذا أعطاهم أحد قتلوه وقتلوا كثيرا من أئمة العلماء
والصالحين منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعي الذي لم يكن في زمانه مثله كان رحلة الناس من
أقصى الغرب والشرق اليه ورثاه جماعة من العلماء منهم أبو الحسن علي بن أبي القاسم البيهقي

فقال

باسافكا دم عالم متبحر * قد طار في أقصى الممالك صيته
بالله قل لي ياظلوم ولا تخف * من كان محيي الدين كيف تميته

منهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الاكاف وأحمد بن الحسين الكاتب سبط القشيري وأبو

أبي عبدالله الشيعي ومنهم صنهاجة ملوك افريقية ومنهم زناتة ملوك فاس وتلمسان وسجلماسة ومنهم المصامدة الذين قاموا
بنصرة المهدي محمد بن
تومرت وبهم ملك عبد
المؤمن و بنوه العرب
ومنهم برغواطه والبربر
مثل العرب في سكنى
الصحارى ولهم لسان غير
العربي (وأما عاد) فهم
ولد عاد بن عوص بن أرم
ابن سام نزل لما تبلبلت
الالسن بحضرموت
و بلادهم يقال لها
الاحقاف متصلة باليمن
و بلاد عمان كانوا على
نهاية من عظم الاجسام
والتجبر (وأما العمالقة)
فهم ولد عمليق بن لاود بن
سام نزلوا بصنعاء اليمن
حين تبلبلت الالسن ثم
تحولوا الى الحرم وأهلكوا
من قاتلهم من الامم وكان
منهم جماعة بالشام وهم
الذين قاتلهم موسى يوشع
عليهما السلام فأفناهم
وجماعة بالحجاز وخيبر
فارسل اليهم موسى جيشا
وأمرهم بقتلهم عن
آخرهم فابقوا منهم ابن
ملكهم ورجعوا الى الشام
وقد مات موسى فقال بنو
اسرائيل قد خالفتم فلا نؤويكم
فرجعوا الى خيبر وصارت
اليهود بها حلفاء الاوس
والخزرج الى انجاء
الاسلام وبالله التوفيق
وقد آن ان نتكلم على
المصراع الثاني مفتتحا
بذكر ما لابد منه مما هو سابق على هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

البركات

البركات الفراوي والامام علي الصباغ المتكلم وأحمد بن محمد بن حامد وعبد الوهاب المقابادي
والقاضي صاعد بن عبد الملك بن صاعد والحسن بن عبد الحميد الرازي وخلق كثير من الائمة والزهاد
والصالحين وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم الا بعضها وحصروا شارستان وهي منيعة
فاحاطوا بها وقاتلهم أهلها من فوق سورها وقصدوا جوين و بذلوا نفوسهم لله تعالى وأجموا
بيضتهم والباقي أتى النهب والقتل عليه ثم قصدوا اسفراين فنهبوها وخربوها وقتلوا في أهلها
فاكثروا وممن قتل عبد الرشيد الاشعثي وكان من أعيان دولة السلطان فتركها وأقبل على
الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة وأبو الحسن الفندورجي وكان من ذوي الفضائل لاسيما في علم
الادب ولما فرغ الغز من جوين واسفراين عادوا الى نيسابور فنهبوا ما بقي فيها بعد النهب الاول
وكان قد لحق بشهرستان كثير من أهلها فحصرهم الغز واستولوا عليها ونهبوا ما كان فيها
لاهلها ولاهل نيسابور وهتكوا الحرم والاطفال وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين وكان
العيارون أيضا ينهبون نيسابور أشد من نهب الغز و يفعلون أقبح من فعلهم ثم ان السلطان سليمان
شاه ضعف وكان قبيح السيرة سيء التدبير وان وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك توفي في شوال
سنة ثمان وأربعين فضعف أمره واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك أبا علي الحسن بن
طاهر وانحل أمر دولته بالكلية ففارق خراسان في صفر سنة تسع وأربعين وعاد الى جرجان
فاجتمع الامراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وخطبوا
له على منابر خراسان واستدعوه اليهم فملكوه امورهم وانقادوا له في شوال سنة تسع وأربعين
وخمسمائة وساروا معه الى الغز وهم يحاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الظفر في أكثرها
للغز ورحلوا في جمادى الاولى من سنة خمسين وخمسمائة وسار معهم من على هراة الى مرو
وعاودوا المصادرة لاهلها وسار الخان محمود بن محمد الى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد على ما نذكره
وراسل الغز في الصلح فاصطلحوا في رجب من سنة خمسين وخمسمائة هدنة على دخل وسيرد باقي
أخبارهم سنة اثنتين وخمسين

﴿ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها﴾

كان للسلطان سنجر مملوك اسمه أي ابه ولقبه المؤيد فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شأنه
وأطاعه كثير من الامراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وابيورد وشهرستان والدامغان
وأزاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقا كثيرا وأحسن السيرة وعدل في الرعية واستمال الناس
ووفر الخراج على أهله وبالغ في مراعاة أرباب البيوت فاستقرت البلاد له ودانت له الرعية
لحسن سيرته وعظم شأنه وكثرت جموعه فراسله خاقان محمود بن محمد في تسليم البلاد والحضور عنده
فامتنع وترددت الرسل بينهم حتى استقر على المؤيد مال يحمله الى الملك محمود فكف عنه محمود
وأقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود

﴿ذكر ملك اينانج الري﴾

كان اينانج أحد مماليك السلطان سنجر فلما كان من فتنة الغز ما ذكرناه هرب من خراسان
و وصل الى الري فاستولى عليها وأقام بها وأرسل السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همذان
وأصفهان وغيرهما يخدمه وهاداه وأرضاه وأظهر له الطاعة وبقي بها الى ان مات السلطان محمد
فاستولى على عدة بلاد تجاور الري فملكها فعظم أمره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف
فارس فلما ملك سليمان شاه همذان على ما نذكره حضر عنده وأطاعه لانسه به كان أيام مقام

هو ان عبد المطلب ولد له ابناء عشرة وست بنات العباس وحمزة وعبد الله وأبو طالب والزبير والحرث وحجل والمقوم وضرار
وأبو لهب وصفية وأم حكيم
البيضاء وعاتكة واميمة
وأروى وبرة وكان رأى في
نومه آمرا له بحفر زمزم
فان جرهم كانت طمته حين
أخرجوا فرأى شدة حين
حفره فنذر ان ولد له عشرة
ذكور يعينونه لينحرن
أحدهم عند الكعبة فلما
من الله عليه بذلك ضرب
القداح فخرجت على عبد
الله فعظم ذلك على قريش
لحبهم فيه وقالوا والله لا تفعل
حتى نستفتي فيه فسألوا
امرأة في قريش كانت
متبوعة فقالت كم الدية
عندكم قالوا عشرة من الابل
فقالت تقدح مع عشرة
وكل ما وقعت عليه تزاد
الابل ففعلوا حتى بلغت
الابل مائة فوقعت القداح
عليها مرة بعد مرة فذبحوا
الابل و بقيت عند الكعبة
لا يصد عنها أحد وتزوج عبد
الله آمنة بنت وهب بن عبد
مناف سيد بني زهرة
فحملت بسيد البشر محمد
صلى الله عليه وسلم قالت
آمنة لم أرثقلا و رأيت في
نومي انه خرج مني نور
أضاءت به الدنيا وتوجه
عبد الله ليمتار فتوفي بيثرب
وخلف خمسة أجمال
وجارية حبشية هي أم
أيمن حاضنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم اسمها بركة
وهتف بآمنة هاتف انك
حملت بسيد هذه الامة فاذا وقع على الارض فسميه محمدا وقولي أعيذه بالواحد * من شر كل حاسد ووضعته صلى الله عليه وسلم مختونا

سليمان شاه بخراسان فتقوى أمره بذلك

﴿ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس﴾

فى هذه السنة فى المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله قتله ربيبه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجى أشار اليه بذلك الامير أسامة بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فامر ولده نصرا فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب كما ذكرناه الى مصر وتعلم الخياطة وكان خياطا حسنا فلما تزوج ابن السلار بأمه أحبه وأحسن تربيته فجازاه بان قتله وولى بعده وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين وقل ان وليها أحد بعد الافضل الا بحرب وقتل وماشا كل ذلك فلذلك ذكرناهم فى تراجم مفردة والله أعلم

﴿ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن﴾

فى هذه السنة فى صفر كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة شطيف وسبب ذلك ان العرب وهم بنو هلال والاثبج وعدى ورياح وزغب وغيرهم من العرب لما ملك عبد المؤمن بلاد بنى حماد اجتمعوا من أرض طرابلس الى أقصى المغرب وقالوا ان جاورنا عبد المؤمن أجلانا من المغرب وليس الرأى الا القاء الجد معه واخراجه من البلاد قبل ان يتمكن وتحالفوا على التعاون والتظافر وان لا يخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والاهل والمال ليقاتلوه قتال الحريم واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجى صاحب صقلية فارسل الى أمراء العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم يحثهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم ان يرسل اليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا اليه الرهائن فشكروه وقالوا ما بنا حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين وساروا فى عدد لا يحصى وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية الى بلاد المغرب فلما بلغه خبرهم جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين ألف فارس واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاتى وسعد الله بن يحيى وكان العرب أضعافهم فاستجرهم الموحدون وتبعهم العرب الى أن وصلوا الى أرض شطيف بين جبال فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن والعرب على غير أهبة التقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال وأعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين وترك العرب جميع مالهم من أهل ومال وأثاث ونعم فاخذ الموحدون جميع ذلك وعاد الجيش الى عبد المؤمن بجميعه فقسم جميع الاموال على عسكره وترك النساء والاولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وأمر بصيانتهم فلما وصلوا معه الى مراكش أنزلهم فى المساكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة وأمر عبد المؤمن ابنه محمدا ان يكاتب أمراء العرب ويعلمهم ان نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة وانه قد بذل لهم الامان والكرامة فلما وصل كتاب محمد الى العرب سارعوا الى المسير الى مراكش فلما وصلوا اليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن اليهم وأعطاهم أموالا جزيلة فاسترق قلوبهم بذلك وأقاموا عنده وكان بهم حفيا واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد على ما نذكره سنة احدى وخمسين

﴿ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم﴾

فى هذه السنة سار اسطول رجار ملك الفرنج بصقلية الى مدينة بونة وكان المقدم عليهم فتاه فيلب المهدوى فحصرها واستعان بالعرب عليها فاخذها فى رجب وسبى أهلها وملك ما فيها غير انه

مكحولا مسرورا لثنتى عشرة ليلة خلت ٧٠ من ربيع الاول عام الفيل وكانت قصة الفيل فى منتصف المحرم سنة احدى وثمانين وثمانمائة لغلبة الاسكندر وفى الليلة التى ولد فيها ارتجس ايوان كسرى وسقط منه أربع عشرة شرافة وخمدت نيران فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام وغاضت بحيرة ساوة ورأى الموبذان قاضى الفرس فى منامه ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها فلما أصبح كسرى أرسل خلف القاضى لارتجاس الايوان فقص عليه المنام وقال لعل أمرا يحدث من جهة العرب فارسل كسرى الى النعمان بن المنذر ان يرسل اليه عالم العرب فارسل اليه عبد المسيح ابن عمرو الغسانى فاخبره كسرى بما جرى فقال أيها الملك علم هذا عند خالى سطيح بالشام فوجهه اليه فقدم عليه وهو عند الموت فانشد عبد المسيح

أصم أم يسمع غطريف اليمن
أم فاد فازلم به شاو العنن
يا فاصل الخطة أعيت من ومن
وكاشف الكربة عن وجه الغضن
أتاك شيخ الحى من آل سنن
وأمه من آل ذئب ابن حجن
رسول قيل العجم يسرى بالوسن
لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
تجوب بى الارض علنداة شجن * ترفعنى وجنا وتهوى بى وجن

ففتح سطيح عينيه وقال عبد المسيح على

أغضى

أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا باهاليهم وأموالهم الى القرى فاقام بها عشرة أيام وعاد الى المهدية وبعض الاسرى معه وعاد الى صقلية فقبض رجار عليه لما اعتمد من الرفق بالمسلمين فى بونة وكان فيلب يقال انه وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك وشهدوا عليه انه لا يصوم مع الملك وانه مسلم فجمع له رجار الاساقفة والقسوس والرهبان فحكموا بان يحرق فاحرق فى رمضان وهذا أول وهن دخل على المسلمين بصقلية ولم يمهل الله رجار بعده الا يسيرا حتى مات فى العشر الاول من ذى الحجة من السنة وكان مرضه الخوانيق وكان عمره قريب ثمانين سنة وكان ملكه نحو عشرين سنة ولما مات ملك بعده ابنه غليالم وكان فاسد التدبير سيئ التصوير فاستوزر مايو البرصانى فاساء التدبير فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية وتعدى الامر الى افريقية على ما نذكره

﴿ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة﴾

فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بها وكانت ولاية بهرام شاه ستا وثلاثين سنة وكان عادلا حسن السيرة جميل الطريقة محبا للعلماء مكرما لهم باذلا لهم الاموال الكثيرة جامعا للكتب تقرأ بين يديه ويفهم مضمونها ولما مات ملك ولده خسروشاه الملك بعده

﴿ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان﴾

فى هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوى المصرى وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلا وكان الوزراء بمصر لهم الحكم فى البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء كل سنة يرسلون اليها من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان فى هذه السنة قتل ابن السلار على ما ذكرناه واختلفت الاهواء فى مصر وولى عباس الوزارة والى أن استقرت قاعدة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا حتى انهم بعض الايام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج الى خيامهم مقهورين وتبعهم أهل البلد اليها فايس حينئذ الفرنج من ملكه فبيناهم على عزم الرحيل اذ قد أتاهم الخبر ان البلد قد وقع بين أهله خلاف وقتل منهم قتلى فصبروا وكان سبب هذا الاختلاف انهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين ادعى كل طائفة منهم ان النصرة من جهتهم كانت وانهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم الى ان قتل من احدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب وعظم حينئذ وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى فطمع الفرنج وزحفوا اليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه

﴿ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها﴾

فى هذه السنة سير الخليفة المقتفى لامر الله عسكرا الى تكريت ليحصروها وأرسل معهم مقدما عليهم ابن الوزير عون الدين بن هبيرة وترشك وهو من خواص الخليفة وغيرهما فجرى بين ابن الوزير وترشك منافرة أوجبت ان كتب ابن الوزير يشكو من ترشك فامر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فارسل الى مسعود بلال صاحب تكريت فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين وسلمهم الى مسعود بلال فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك من تكريت الى طريق خراسان فنهبا وأفسدا فسار المقتفى عن بغداد لدفعهما فهربا من

جمل مسيح أتى الى سطيح وقد وافى على الضريح بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الايوان ٧١ وخمود النيران ورؤيا الموبذان رأى ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قطعت دجلة وانتشرت فى بلادنا يا عبد المسيح اذا كثرت التلاوة وظهر صاحب الهراوة وفاض وادى سماوة وغاضت بحيرة ساوة فليس الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت وقضى سطيح وعاد عبد المسيح فقال أنوشروان الى ان يملك منا أربعة عشر ملكا يكون أمور فملك منهم عشرة فى أربع سنين كما قدمناه وأول مرضعة أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثويبة مولاة عمه أبى لهب مع ولدها مسروح وأرضعت أيضا بلبن مسروح حمزة وأبا سلمة بن عبد الاسد ولما قدمت المراضع مكة أخذته حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ومضت به الى بادية بنى سعد ووجدت من الخير والبركة ما هو من بعض معجزاته ولما ترعرع خرج مع رعية حليمة فعاد ابنها وقال ان أخى القرشى أخذه رجلان فشقا بطنه فخرجت حليمة وزوجها يستبقان اليه فوجداه قائما فقال لهما جاءنى رجلان فشقا بطنى وأخرجا منه شيأ وقالا هذا حظ الشيطان منك فاحتملته حليمة وعادت به الى أمه فاخوة رسول الله صلى الله عليه وسلم من رضاع حليمة عبد الله وأنيسة

بين يديه فقصد تكريت فحصرها أياما وجرى له مع أهلها حروب من وراء السور فقتل من العسكر جماعة بالنشاب فعاد الخليفة عنها ولم يملكها

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة وصلت مراكب من صقلية فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية وفيها كان بين الكرج بارمينية وبين صلتق صاحب أرزن الروم مصاف وحرب شديد وانهزم صلتق وأسره الكرج ثم أطلقوه وفيها توفى أبو العباس أحمد بن أبى غالب الوراق المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادى بها وكان من الصالحين وله حديث ورواية وتوفى عبد الملك بن عبد الله بن أبى سهل أبو الفتح بن أبى القاسم الكروخى الهروى راوى جامع الترمذى ومولده سنة اثنتين ومن طريقه سمعناه

﴿ ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز ﴾

فى هذه السنة فى المحرم قتل الظافر بالله أبو المنصور اسمعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى صاحب مصر وكان سبب قتله ان وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر فاحبه الظافر وجعله من ندمائه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة فاتفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الامير أسامة بن منقذ الكنانى فى وزارة ابن السلار واتصل بعباس فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه فقتله وولاه الظافر الوزارة فاستبد بالامر وتم له ذلك وعلم الامراء والاجناد ان ذلك من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال وما ذلك قال الناس يزعمون ان الظافر يفعل بابنك نصر وكان نصر خصيصا بالظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله وقيل ان الظافر أقطع نصر بن عباس قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر فدخل اليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس فقال له نصر قد اقطعنى مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذه الحال وشرع فى قتل الظافر فامر ابنه فحضر نصر عند الظافر وقال له اشتهى أن تجىء الى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغير اختبأ فلم يروه ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسا الخبر فبكر الى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له اذنا فى الدخول عليه لامر يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا انه ليس فى القصر فقال لا بد منه وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله وأن يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه فى الخلافة فلما ألح عليهم عجزوا عن احضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر اذ وصل اليهم الخويدم الصغير الذى شاهد قتله وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فانه يعرف أين هو لانهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال أريد أن أعترض القصر لئلا يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بامر الله اسمعيل ثانى يوم قتل أبوه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك

وجذامة وهى الشيما أبوهم الحرث بن عبد العزى ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفت أمه بالابواء بين مكة والمدينة فكفله جده عبد المطلب فلما بلغ ثمان سنين مات جده وكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه ولما بلغ ثلاث عشرة سنة خرج عمه أبو طالب فى تجارة الى الشام فلما رآه بحيرا الراهب ببصرى قال لعمه ارجع بهذا الغلام واحذر عليه اليهود فسيكون له شأن عظيم وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس مروءة وصدقا وعفافا وحضر مع عمومته حرب الفجار وعمره أربع عشرة سنة سميت الفجار لما انتهك فيها من حرمة الحرم وانتصرت قريش آخرا وسألته خديجة بنت خويلد ان يسافر لها فى تجارة مع غلامها ميسرة وأجابها الى ذلك ولما عاد حدثها ميسرة بما رأى من كرامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وان ملكين كانا يظللانه من حرارة الشمس فعرضت نفسها عليه فتزوجها وأصدقها عشرين بكرة وكان عمره خمسا وعشرين سنة وعمرها أربعون سنة لم يتزوج قبلها ولا عليها وكل أولاده منها الا ابراهيم فانه من مارية القبطية وأخذها أيما ولم يتزوج بكرا الا عائشة وأولاده القاسم ثم الطيب ثم الطاهر وقيل هما اسمان لعبد الله ماتوا قبل البعثة ورقية ثم زينب

فيه الا ما لا خير فيه

﴿ ذكر وزارة الملك الصالح بن رزيك ﴾

كان السبب فى وزارة الملك الصالح بن رزيك ان عباسا لما قتل الظافر وأقام الفائز ظن ان الامر يتم له على ما يريده فكان الحال خلاف ما اعتقده فان الكلمة اختلفت عليه وثار به الجند والسودان وصار اذا أمر بالامر لا يلتفت اليه ولا يسمع قوله فارسل من بالقصر من النساء والخدم الى الصالح طلائع ابن رزيك يستغيثون به وأرسلوا شعورهم على الكتب وكان فى منية بنى خصيب واليا عليها وعلى أعمالها وليست من الاعمال الجليلة وانما كانت أقرب الاعمال اليهم وكان فيه شهامة فجمع ليقصد عباسا وسار اليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الاموال التى لا تحصى كثرة والتحف والاشياء التى لا توجد الا هناك مما كان أخذه من القصر فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه واخذوا جميع ما معه فتقووا به وسار الملك الصالح فدخل القاهرة باعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التى أرسلت اليه من القصر على رؤس الرماح وكان هذا من الفال العجيب فان الاعلام السود العباسية دخلتها وأزالت الاعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة واستقرفى الامر واحضر الخادم الذى شاهد قتل الظافر فاراه موضع دفنه فاخرجه ونقله الى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنج عباسا اسروا ابنه فارسل الملك الصالح الى الفرنج وبذل لهم مالا واخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح فلم يكلم احدا منهم كلمة واحدة الى ان رأى القاهرة فانشد

بلى نحن كنا أهلها فابادنا * صروف الليالى والجدود العواثر

وادخل القصر فكان آخر العهد به فانه قتل وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح البيوت الكبار والاعيان بالديار المصرية فامسك اهلها وابعدهم عن ديارهم واخذ اموالهم فمنهم من هلك ومنهم من تفرق فى البلاد والحجاز واليمن وغيرها فعل ذلك خوفا منهم ان يثوروا عليه وينازعوه فى الوزارة وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب الى الشام

﴿ ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا ﴾

فى هذه السنة ارسل الخليفة المقتفى لامر الله رسولا الى والى تكريت بسبب من عندهم من المأمورين وهم ابن الوزير وغيره فقبضوا على الرسول فسير الخليفة عسكرا اليهم فخرج أهل تكريت فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول الى البلد فسار الخليفة بنفسه مستهل صفر فنزل على البلد فهرب أهله فدخل العسكر فشعثوا ونهبوا بعضه ونصب على القلعة ثلاثة عشر منجنيقا فسقط من أسوارها برج وبقى الحصر كذلك الى الخامس والعشرين من ربيع الاول وامر الخليفة بالقتال والزحف فاشتد القتال وكثر القتلى ولم يبلغ منها غرضا فرحل عائدا الى بغداد فدخلها آخر الشهر ثم أمر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعود الى محاصرتها والاستعداد والاستكثار من الآلات للحصار فسار اليها سابع ربيع الآخر ونازلها وضيق عليها فوصل الخبر بان مسعود بلال وصل الى شهرابان ومعه البقش كون خر وترشك وعسكر كثير ونهبوا البلاد فعاد الوزير الى بغداد وكان سبب وصول هذا العسكر انهم حثوا الملك محمد ابن السلطان محمود على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك فسير هذا العسكر وانضاف اليهم خلق كثير من التركمان فخرج الخليفة اليهم فارسل بلال مسعود الى تكريت وأخرج منها الملك ارسلان بن السلطان

ثم أم كلثوم ثم فاطمة كلهن أدركن الاسلام وهاجرن وفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين زينب وزوجها أبى العاص باسلامها ثم ردها الى أبى العاص بالنكاح الاول حين جاء وأسلم فلما بلغ خمسا وثلاثين سنة وأرادت قريش أن تجدد الكعبة اختصموا عند وضع الحجر الاسود حتى غمسوا أيديهم فى الدماء للقتال وتعاقدوا على الموت فقال كبيرهم أبو أمية بن المغيرة يا معشر قريش اجعلوا بينكم حكما أول من يدخل الحرم فأجابوا وكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا محمد الامين رضينا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببرد ووضع الحجر فيه وقال ليأخذ كل قبيلة بطرف ورفعوه الى موضعه فثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده مكانه فلما بلغ أربعين سنة أرسله الله تعالى الى كافة الخلق ناسخا بشريعته الشرائع كلها وجاءه الملك بغار حراء وكان لا يمر على حجر ولا مدر الا يقول السلام عليك يا رسول الله وأول من أسلم من الناس خديجة ثم على وعمره عشر سنين كان قد ضمه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه حين شكا أبو طالب كثرة العيال فى مجاعة أصابت قريشا ثم زيد بن حارثة اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتقه وقيل وهبته خديجة له وكان قد أخذ

طغرل بن محمد وكان محبوسا بتكريت وقال ان هذا سلطان نقاتل بين يديه بازاء الخليفة والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من يعقوبا ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوما ثم انهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغت الهزيمة بغداد ونهبت خزائنه وقتل خازنه فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده وصاح يا آل هاشم كذب الشيطان وقرأ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وحمل باقي العسكر معه فانهزم مسعود والبقش وجميع من معهم وتمت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدانق وكانوا قد حضروا بنسائهم وأولادهم وخركاواتهم وجميع مالهم فأخذ جميعه ونودي من أخذ من اولاد التركمان ونسائهم شيأ فليرده فردوه فاخذ البقش كون خر الملك ارسلان وانهزم الى بلد اللحف وقلعة الماهكين وفي هذه الحرب غدر بنو عوف من عسكر الخليفة ولحقوا بالعجم ومضى هندي الكردي ايضا معهم وكان الملك محمد قد أرسل عسكرا مع خاص بك بن آقسنقر نجدة لكون خر فلما وصلوا الى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعاد ورجع الخليفة الى بغداد فدخلها أوائل شعبان فوصل الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط فنهبوا وخربوا فسير الخليفة الوزير ابن هبيرة في عسكر خامس عشر شعبان فانهزم العجم فلحقهم عسكر الخليفة ونهب منهم شيأ كثيرا وعاد الى بغداد فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش وسير الخليفة عسكرا الى بلد اللحف فاخذ وصار في جملته واما الملك الب ارسلان بن طغرل فان البقش أخذه معه الى بلده فأرسل اليه الملك محمد يقول له ليحضر عنده وارسلان معه فمات البقش كون خر في رمضان في هذه السنة وبقي ارسلان مع ابن البقش وحسن الجاندار فحملاه الى الجبل فخاف السلطان محمد ان يصل أرسلان الى زوج امه أبي بكر فيجعله ذريعة الى قهر البلاد فلم ينفعه حذره واتصل ارسلان بابي بكر زوج امه فصار معه وهو اخو بهلوان بن ايلدكز لامه وطغرل الذي قتله خوارزمشاه ولد ارسلان هذا وكان طغرل آخر السلجوقية

﴿ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق﴾

في هذه السنة في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر مدينة دمشق واخذها من صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغدكين اتابك وكان سبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق حتى انهم استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى فمن أراد المقام بها ترك ومن أراد العود الى وطنه اخذوه قهرا شاء صاحبه ام أبى وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما رأى نور الدين ذلك خاف ان يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فاعمل الحيلة في أخذها حيث علم انها لا تملك قوة لان صاحبها متى رأى غلبة ممن يقصده راسل الفرنج واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق اليه فكان نور الدين يقول له في بعض الاوقات ان فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق يعني بعض أمراء مجير الدين فكان يبعد الذي قيل عنه ويأخذ اقطاعه فلما لم يبق عنده من الامراء أحد قدم أميرا يقال له عطاء بن حفاظ السلمي الخادم وكان شهما شجاعا وفوض اليه أمر دولته فكان نور الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق فقبض عليه مجير الدين وقتله فسار نور الدين حينئذ الى دمشق وكان قد كاتب من بها من

أمن به حارثة الكلبي وأنشد بكيت على زيد ولم أدر ما فعل أحي يرجى أم أتى دونه الاجل تذكرنيه الشمس عند طلوعها ويعرض ذكراه اذا قارب الطفل وان هبت الارياح هيجن ذكره فيا طول ما حزني عليه ويا وجل ولقيه أبوه بعد ذلك وأسلم خيره رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختار رسول الله ثم أسلم بعد زيد أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقيل هو أول الناس اسلاما واسمه عبد الله بن عثمان ولقبه عتيق ثم أسلم بدعاء أبي بكر عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح وعبيدة بن الحرث وسعيد ابن زيد وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر رضي الله عنهم وكانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرا ثلاث سنين ثم أظهرها وكانت قريش لا تعارضه بل منهم مصدق ومكذب فيما بينهم الى ان عاب آلهتهم ونسبهم الى الضلال فاظهرت اعداؤه ما كان في نفوسهم وحشدوا عليه فذب عنه عمه أبو طالب فجاء أشرافهم اليه عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد مناف وأبو سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو البختري بن هشام والاسود بن المطلب وأبو جهل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج والعاص بن وائل

الاحداث

الاحداث واستمالهم فوعدوه بالتسليم اليه فلما حصر نور الدين البلد أرسل مجير الدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك اليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد فالى أن اجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين وأما كيفية تسليم دمشق فانه لما حصرها ثار الاحداث الذين راسلهم فسلموا اليه البلد من الباب الشرقي وملكه وحصر مجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له اقطاعا من جملته مدينة حمص فسلمها اليه وسار الى حمص وأعطاه عوضا عنها بالس فلم يرضها وسار منها الى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية وتوفي بها

﴿ذكر قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم﴾

في هذه السنة في ربيع الآخر اجتمع جمع كثير من الاسماعيلية من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل وساروا يريدون خراسان لاشتغال عساكرها بالغز وقصدوا أعمال خواف وما يجاورها فلقيهم الامير فرخشاه بن محمود الكاساني في جماعة من حشمه وأصحابه فعلم ان لا طاقة له بهم وسار عنهم وأرسل الى الامير محمد بن انز وهو من أكابر أمراء خراسان وأشجعهم يعرفه الحال وطلب منه المسير اليهم بعسكره ومن قدر عليه من الامراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوهم فسار محمد بن انز في جماعة من الامراء وكثير من العسكر واجتمعوا هم وفرخشاه ودافعوا الاسماعيلية وقاتلوهم وطال الحرب بينهم ثم نصر الله المسلمين وانهزم الاسماعيلية وكثر القتل فيهم وأخذهم السيف من كل مكان وهلك أعيانهم وساداتهم بعضهم قتل وبعضهم أسر ولم يسلم منهم الا القليل الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع فلولا اشتغال العساكر بالغز لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة وأراحوا المسلمين منهم ولكن لله أمر وهو بالغه

﴿ذكر ملك نور الدين تل باشر﴾

في هذه السنة أوالتي بعدها ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة تل باشر وهي شمالي حلب من أمنع القلاع وسبب ملكها ان الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق خافوه وعلموا انه يقوى عليهم ولا يقدرون على الانتصاف منه لما كانوا يرون منه قبل ملكها فراسله من بهذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها فسير اليهم الامير حسان المنبجي وهو من أكابر أمرائه وكان اقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج وهي تقارب تل باشر وأمره ان يسير اليها ويتسلمها فسار اليها وتسلمها منهم وحصنها ورفع اليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة مات أستاذ دار أبو الفتوح عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وكان له صدقات ومعروف كثير ومجالسة للفقراء وللسامات وولي الخلافة ابنه الاكبر عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله ما كان الى أبيه وتوفي عبد الرحمن بن عبد الصمد بن أحمد بن علي أبو القاسم الاكاف النيسابوري كان زاهدا عابدا فقيها مناظرا وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه وكان ربما حجبه فلا يمكنه من الدخول اليه وفيها توفي ثقة الدولة أبو الحسن علي بن محمد الزوبني القزويني وكان يخدم أبا نصر محمد بن الفرج الابري وزوجه ابنته شهدة الكاتبة فقربه المقتفي لامر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الازج

﴿ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة﴾

فقالوا يا أبا طالب ان ابن أخيك قد عاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فانهه أو خل بيننا وبينه فردهم بالحسنى ثم عادوا اليه بذلك وأخذت كل قبيلة تعذب من أسلم منها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بالصفا فمر به أبو جهل فشتمه فلم يرد عليه وكان عمه حمزة في القنص فلما عاد بلغه ذلك فغضب وجاء الى أبي جهل وضربه بالقوس فشجه وقال أتشتم محمدا أنا على دينه وتم على اسلامه وعز رسول الله صلى الله عليه وسلم به وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشد أعدائه صلى الله عليه وسلم فأخذ يوما سيفه وقصده ليقتله فقال له نعيم بن عبد الله بن النحام لا تدعك بنو عبد مناف بعد ذلك تمشي على الارض ولكن اردع أختك وابن عمك سعيد بن زيد وخبابا فانهم قد أسلموا فقصدهم فسمعهم يتلون سورة طه فقال ما أحسن هذا وتوجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي الحكم بن هشام يريد أبا جهل فهدى الله عمر وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن ليس له عشيرة تحميه في الهجرة الى أرض الحبشة فخرج اليها عثمان ابن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام وعثمان بن مظعون وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن

فى هذه السنة سار الخليفة المقتفى لامر الله الى دقوقا فحصرها وقاتل من بها ثم رحل عنها لانه بلغه ان عسكر الموصل قد تجهز والمسير لمنعه عنها فرحل ولم يبلغ غرضا وفيها استولى شملة التركمانى على خوزستان وصاحبه حينئذ ملكشاه محمود بن محمد فسير الخليفة اليه عسكرا فالقيهم شملة فى رجب وقاتلوهم فانهزم عسكر الخليفة وأسر وجوههم ثم أحسن اليهم شملة وأطلقهم وأرسل يعتذر فقبل عذره وسار الى خوزستان فلكها وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وفيها سار الغز الى نيسابور فملكوها بالسيف ودخلوها وقتلوا محمد بن يحيى الفقيه الشافعى ونحوا من ثلاثين ألفا وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة وهو معتقل لا يلتفت اليه حتى انه أراد كثيرا من الايام ان يركب فلم يكن له من يحمل سلاحه فشده على وسطه وركب وكان اذا قدم اليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر خوفا من انقطاعه عنه لتقصيرهم فى واجبه ولانهم ليس هذا مما يعرفونه وفيها وثب قسوس الارمن بمدينة آنى فاخذوها من الامير شداد وسلموها الى أخيه فضلون وفيها فى ذى الحجة قتل الاتراك القارغلية طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر وألقوه فى الصحراء ونسبوه الى أشياء قبيحة وكان مدة ملكه مستضعفا غيره يهيب وفيها توفى أبو الفضل محمد ابن ناصر بن على البغدادى الحافظ الاديب وكان مشهورا بالفضل وكان شافعيا وصار حنبليا مغاليا ومولده سنة سبع وستين وأربعمائة فى شعبان وكان موته أيضا فى شعبان وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة فى ذى الحجة وفيها توفى يحيى الغسانى النحوى الموصلى وكان فاضلا خيرا وتاج الدين أبو طاهر يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى قاضى جزيرة ابن عمر

❊ ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة ❊

❊ (ذكر عصيان الجزائر وافريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم) ❊

قد ذكرنا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده غليالم وأنه كان فاسد التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية فلما كان هذه السنة قوى طمع الناس فيه فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة فرقنة وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل افريقية فاول من أظهر الخلاف عليه عمر بن أبى الحسين الفريانى بمدينة سفاقس وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها أباه أبا الحسين وكان من العلماء الصالحين فاظهر العجز والضعف وقال استعمل ولدى فاستعمله وأخذ أباه رهينة الى صقلية فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر انى كبير السن وقد قارب أجلى فتى امكنتك الفرصة فى الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر فى انى أقتل واحسب انى قد مت فلما وجد هذه الفرصة دعا أهل المدينة الى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو أمرنى بهذا واذا قتل بالشيخ ألوف من الاعداء فما مات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك أول سنة احدى وخمسين وخمسمائة ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن الى بونة فلكها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهدية وسوسة وأرسل عمر بن أبى الحسين الى زويلة وهى مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة فاعانوا أهلها على من بالمهدية من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين وعرفه ما عمل ابنه فامره ان يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود الى

ابن عوف وركبوا فى البحر وتوجهوا الى النجاشى وتتابع المسلمون الى ان بلغوا ثلاثا وثمانين رجلا سوى النساء والصغار ومن ولد هناك وأرسلت قريش فى طلبهم عبد الله بن ربيعة وعمرو ابن العاص ومعهما هدية الى النجاشى فلم يجبهم ورد الهدية فقال عمرو بن العاص سلهم ما يقول نبيهم فى عيسى بن مريم فقالوا يقول كلمة الله ألقاها الى مريم البتول فلم ينكر النجاشى ذلك وردهما خائبين ولما جعل الاسلام يفشو فى القبائل تعاهد المشركون على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ان لا يبايعوهم ولا ينا كحوهم وكتبوا بذلك صحيفة ووضعوها فى جوف الكعبة وانحازت بنو هاشم كافرهم ومسلمهم الى أبى طالب فى شعبه وخرج من بنى هاشم أبو لهب وامرأته أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ابن حرب سماها الله تعالى حمالة الحطب لانها كانت تحمل الشوك فتضعه فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب ثلاث سنين وقال لابى طالب ياعم ان الله سلط الارضة على الصحيفة فلم تدع فيها غير اسم الله فأعلم قريشا بذلك وقال لهم ان كان خبره صحيحا فانتهوا عن قطيعتنا وان كان غير صحيح سلمته اليكم فرضوا وكشفوا عن الصحيفة فوجدوها كما أخبر به

طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال من قدم على هذا يرجع بكتاب فارسل ملك صقلية اليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وأرسل عمر الى الرسول يقول له هذا أبى قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما أردتم فعاد الرسول الى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبى الحسين فاخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات وأما أهل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب وأهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الاقوات بالمهدية قليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وأرسلوا الى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب وبقى اهل زويلة وأهل سفاقس وركبوا فى البحر فنجوا وبقى أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ فى البر ولم يعرجوا على شئ من أموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر الفرنج بالمهدية الى أن أخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره ان شاء الله تعالى

❊ (ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل) ❊

فى هذه السنة قبض زين الدين على كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قديما وقد جعله ولى عهده وخطب له على منابر خراسان فلما جرى لسنجر مع الغز ما ذكرناه وتقدم على عسكر خراسان وضعفوا عن الغز مضى الى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه اتسيس ثم بلغه عنه ما كرهه فابعده فجاء الى أصفهان فمنعه شحنتها من الدخول فمضى الى قاشان فسير اليه محمد شاه ابن أخيه محمود بن محمد عسكرا أبعدوه عنها فسار الى خوزستان فمنعه ملكشاه عنها فقصد اللحف ونزل البندنيجين وأرسل رسولا الى الخليفة المقتفى يعلمه بوصوله وترددت الرسل بينهما الى أن استقر الامر على أن يرسل زوجته تكون رهينة فارسلها الى بغداد ومعها كثير من الجوارى والاتباع وقال قد أرسلت هؤلاء رهائن فان أذن أمير المؤمنين فى دخول بغداد فعلت والا رجعت فاكرم الخليفة زوجته ومن معها وأذن له فى القدوم اليه فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلثمائة رجل فخرج ولد الوزير بن هبيرة لتلقيه ومعه قاضى القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة وخلع عليه الخليفة وأقام ببغداد الى ان دخل المحرم من سنة احدى وخمسين وخمسمائة فاحضر فيه سليمان شاه الى دار الخليفة وأحضر قاضى القضاة والشهود وأعيان العباسيين وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأنه لا يتعرض الى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه غياث الدنيا والدين وباقى ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة وسير معه من عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارس وجعل الامير قويدان صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل فى ربيع الاول وسار الخليفة الى حلوان وأرسل الى ملكشاه بن السلطان محمود أخى السلطان محمد صاحب همذان وغيرها يدعوه الى موافقته فقدم فى ألفى فارس فحلف كل منهما لصاحبه وجعل ملكشاه ولى عهد سليمان شاه وقواهما الخليفة بالمال والاسلحة وغيرها فساروا واجتمعوا هم وايلدكز فصاروا فى جمع كبير فلما سمع السلطان محمد

رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيما بينهم ونقض جماعة منهم عقد الصحيفة واشتد انتصار أبى طالب لابن أخيه وأنشد

ودعوتنى وعلمت أنك صادق
فلقد صدقت وكنت ثم أمينا
ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا
والله لن يصلوا اليك بجمعهم
حتى أوسد فى التراب دفينا

وعن هذا اختلاف فى اسلامه والارجح انه مات كافرا وللاختلاف سبب آخر وهو انه حين أدركته الوفاة سنة عشر من النبوة وكان قد بلغ بضعا وثمانين سنة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قلها أستحل بها لك الشفاعة فقال يا ابن أخى لولا مخافة السبة وان تظن قريش أنى اغا قلتها جزعا من الموت لقلتها فلما تقارب منه الموت جعل يحرك شفتيه فاصغى اليه العباس باذنه وقال والله يا ابن أخى لقد قال الكلمة التى أمرته بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى هداك ياعم هكذا روى عن ابن عباس ثم توفيت خديجة بعد أبى طالب فطمع المشركون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثروا اذاهم له فسافر الى الطائف وعاد وجعل يعرض نفسه على القبائل ووجد شدة حتى دعا بدعائه المشهور اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس الى آخره فلما أراد

خبرهم أرسل الى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبه زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبذل لهما البذول الكثيرة ان ظفر فاجاباه الى ذلك ووافقاه فقويت نفسه وسار الى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم فى جمادى الاولى واشتد القتال بين الفريقين فانهزم سليمان شاه ومن معه وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجل نحو من خمسين رجلا ولم يقتل منهم أحد وانما أخذت خيولهم وأموالهم وتشتتوا وجاؤا متفرقين وفارق سليمان شاه ايلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور وخرج اليه زين الدين على فى جماعة من عسكر الموصل وكان بشهرزور الامير بزان مقطعا لها من جهة زين الدين وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه فاخذاه أسيرا وحمله زين الدين الى قلعة الموصل وحبسه بها مكرما محترما الى أن كان من أمره ما نذكره سنة خمس وخمسين ان شاء الله فلما قبض سليمان شاه أرسل زين الدين الى السلطان محمود يعرفه ذلك ووعده المعاضدة على كل ما يريده منه والمساعدة له والله أعلم

﴿ذكر حصر نور الدين قلعة حارم﴾

فى هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى الى قلعة حارم وهى للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية وهى تقارب انطاكية من شرقيها وحصرها وضيق على أهلها وهى قلعة منيعة فى نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون الى رأيه فارسل اليهم يقول اننا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف فلا تخاطروا أنتم باللقاء فانه ان هزمكم أخذها وغيرها والرأى مطاولته فارسلوا اليه وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم فقال بعض الشعراء

ألبست دين محمد يا نوره * عزا له فوق السها آساد
ما زلت تشمله بعياد القنا * حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه * عدد يراع به ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما * حمدتك عن خطبائها الاعواد
ملق باطراق الفريسة كلكلا * طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى * حاموا فرائس كيدهم أو كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة * حزم الحارم والمصاد مصاد
من منكر ان ينسف السيل الربا * وأبوه ذاك العارض المداد
أو أن يعيد الشمس كاسفة السنى * نار لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـ * علياء حتى يرفع الاولاد

وهى طويلة

﴿ذكر وفاة خوارزم شاه أتسز وغيره من الملوك﴾

فى هذه السنة تاسع جمادى الآخرة توفى خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد أصابه فالج فتعالج منه فلم يبرأ فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير أمر الاطباء فاشتد مرضه وضعفت قوته فتوفى وكان يقول عند الموت ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه وكانت ولادته فى رجب سنة تسعين وأربعمائة ولما توفى ملك بعده ابنه أرسلان فقتل نفرا من أعمامه وسمل أخا له فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه وأرسل الى السلطان سنجر وكان قد هرب من أسر الغز

الله تعالى اعزاز دينه واظهار نبيه خرج صلى الله عليه وسلم الى القبائل فى الموسم فبينما هو عند العقبة اتى نفرا من الخزرج فعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فآمنوا به وكانوا ستة نفر ووصلوا الى المدينة واخبروا قومهم فآمنوا وفشا الاسلام فى دورهم ووافى الموسم فى العام الثانى منهم اثنا عشر نفرا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث معهم مصعب بن عمير يعلمهم شرائع الاسلام فتلقاه أسعد بن زرارة أحد الستة الاول وكان سعد بن معاذ سيد الاوس وهو ابن خالة أسعد وكان أسيد بن حضير أيضا سيدا فبلغهما نزول مصعب عند أسعد فجاء أسيد بن حضير بحربته فوقف على أسعد ومصعب فقال ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا اعتزلا عنا ان كان لكما حاجة فى أنفسكما فقال له مصعب أو تجلس فتسمع فجلس أسيد وأسمعه مصعب القرآن وعرفه الاسلام فقال اسيد ما احسن هذا وأسلم وقال وراءى رجل ان اتبعكما لم يتخلف عنه أحد يعنى سعد بن معاذ وانصرف الى سعد بن معاذ وبعث به اليهما فلما وقف عليهما قال لا سعد لولا قرابتك منى ما صبرت على ان تغشانا فى دارنا بما نكره فقال له مصعب أو ما تسمع فان رضيت أمرا قبلته والا عزلنا عنك ما تكره فقال انصفت فعرض مصعب عليه الاسلام

على

على ما نذكره ببذل الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم وسير الخلع له فى رمضان فبقى فى ولايته ساكنا آمنا وكان أتسز حسن السيرة كافا عن أموال رعيته منصفا لهم محبوبا اليهم مؤثرا للاحسان والخير اليهم وكان الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل وفى سابع عشر الشهر المذكور توفى أبو الفوارس بن محمد بن أرسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه وفيها توفى الملك مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان قتلمش صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم وملك بعده ابنه قلج أرسلان

﴿ذكر هرب السلطان سنجر من الغز﴾

فى هذه السنة فى رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وجماعة من الامراء الذين معه وسار الى قلعة ترمذ واستظهر بها على الغز وكان خوارزم شاه اتسز بن محمد بن أنوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز فيقاتلانهم فيمن معهما فكانت الحرب بينهم سجالا وغلب كل واحد من الغز والخراسانيين على ناحية من خراسان فهو يأكل دخلها الا رأس لهم يجمعهم وسار السلطان سنجر من ترمذ الى جيحون يريد العبور الى خراسان فاتفق ان مقدم الاتراك القارغلية واسمه على بك توفى وكان أشد شئ على السلطان سنجر وعلى غيره كثير الشر والفساد واثارة الفتن فلما توفى أقبلت القارغلية على السلطان سنجر وكذلك غيرهم من سائر الامم من أقاصى البلاد وأدانيها وعاد الى دار ملكه بمرو فى رمضان فكانت مدة أسره مع الغز من سادس جمادى الاولى سنة ثمان وأربعين الى رمضان سنة احدى وخمسين وخمسمائة

﴿ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه﴾

فى هذه السنة أمر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر أن يلى عمر الامر بعد عبد المؤمن فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده أحب ان ينقل الملك اليهم فاحضر أمراء العرب من هلال وزغب وعدى وغيرهم اليه ووصلهم وأحسن اليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريد ان تجعل لنا ولى عهد من ولدك يرجع الناس اليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم اكراما لعمر لعلو منزلته فى الموحدين وقال لهم ان الامر لابى حفص عمر فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن وأجاب الى خلع نفسه فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد وكتب الى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها فاخرج عبد المؤمن فى ذلك اليوم من الاموال شيأ كثيرا

﴿ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد﴾

فى هذه السنة استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد فاستعمل ولده أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على فاس وأعمالها وولى ابنه أبا سعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة وكذلك غيرهم ولقد سلك فى استعمالهم طريقا عجيبا وذلك أنه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدى محمد بن تومرت وكان يتعذر عليه ان يعزلهم فاخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون فى العلوم فلما تمهروا فيها وصاروا يقتدى بهم قال لآبائهم انى أريد ان تكونوا عندى أستعين بكم على ما أنا بصدده ويكون أولادكم فى الاعمال لانهم علماء فقهاء فاجابوا الى ذلك وهم فرحون مسرورون فولى أولادهم ثم وضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه فقال انى أرى أمرا عظيما قد فعلتموه فارقتم فيه الحزم والادب فقالوا وما هو فقال أولادكم فى الاعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شئ مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة

وقرأ عليه القرآن فأسلم وانصرف الى النادى فلما رآه قومه مقبلا قالوا والله لقد رجع سعد بغير الوجه الذى ذهب فقال يا بنى الاشهل كيف تعرفون أمرى فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا قال فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وحده ورسوله فما أمسى فى دار بنى الاشهل أحد حتى أسلم وبقى سعد بن معاذ ومصعب بن عمير فى دار أسعد بن زرارة يدعون الناس الى الاسلام حتى لم يبق دار من دور الانصار الا وبها مسلمون الا دار بنى أمية بن زيد وعاد مصعب بن عمير ومعه من الذين أسلموا ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الاوس والخزرج واجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا بالعقبة فى أوسط أيام التشريق ومعه عمه العباس ولم يكن أسلم بعد فقال العباس يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث علمتم وهو فى عز ومنعة فى بلده وقد أبى الا الانحياز اليكم فان كنتم تفون عنده ما دعوتموه اليه وتمنعونه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم وان كنتم خاذليه ومسلميه فمن الآن فدعوه فقالوا قد سمعنا فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وقال أبايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم ودار الكلام بينهم واستوثق كل فريق من الآخر وقالوا ان قتلنا دونك فما لنا قال الجنة

وانى أخاف ان ينظر فى هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلموا صدق القائل فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا نحب ان تستعمل على البلاد السادة أولادك فقال لا أفعل فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم اياه

﴿ذكر حصر السلطان محمد بغداد﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة حصر السلطان محمد بغداد وسبب ذلك ان السلطان محمد بن محمود كان قد أرسل الى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من اجابته الى ذلك فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحو العراق ووعده أتابك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بارسال العساكر اليه نجدة له على حصر بغداد فقدم العراق فى ذى الحجة سنة احدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد وأرسل الخليفة يجمع العساكر فاقبل خطلوبرس فى عسكر واسط ورحل مهلهل الى الحلة فاخذها واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بامر الحصار وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج ونودى منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين ان لا يقيم أحد بالجانب الغربى فاجفل الناس وأهل السواد ونقلت الاموال الى حريم دار الخلافة وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمى ونهب أصحابه ماوجدوا وخرب أصحاب محمد شاه نهر القلائين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا وأما أهل الكرخ وأهل باب البصرة فانهم خرجوا الى عسكر محمد وكسبوا معهم أموالا كثيرة وعبر السلطان محمد فوق حراقة الى الجانب الغربى ونهبت أوانا واتصل به زين الدين هناك وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان فى العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين على ووقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب الى ناحية التاج فعبر اليهم عامة بغداد فقاتلوهم ورموهم بالنفط وغيره ثم جرى بينهم عدة حروب وفى ثالث صفر عاودوا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفى السفن فقتلوا وكان يوما مشهودا ولم تزل الحرب بينهم كل وقت وعمل الجسر على دجلة وعبر عليه أكثر العسكر الى الجانب الشرقى وصار القتال فى الجانبين وبقى زين الدين فى الجانب الغربى وأمر الخليفة فنودى كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح انسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير فاتفق ان بعض العامة جرح جراحة ليس بكبير فحضر الى الوزير يطلب الدنانير فقال له الوزير ليس هذا الجرح بشئ فعاود القتال فضرب فانشقت جوفه وخرج شئ من شحمها فحمل الى الوزير فلما رآه قال يامولانا الوزير أيرضيك هذا فضحك منه وأضعف له ورتب له من يعالج جراحته الى ان برئ وتعذرت الاقوات فى العسكر الا أن اللحم والفواكه والخضر كثيرة وكانت الغلات ببغداد كثيرة لان الوزير كان يفرقها فى الجند عوض الدنانير يبيعونها فلم تزل الاسعار عندهم رخيصة الا ان اللحم والفاكهة والخضر قليل عندهم واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وعدم المعيشة لاهلها وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين فى القتال لاجل الخليفة والمسلمين وقيل لان نور الدين محمود بن زنكى وهو أخو قطب الدين صاحب الموصل الاكبر أرسل الى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتر واقصر ولم تزل الحرب فى أكثر الايام وعمل السلطان محمد شاه أربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها الى السور وزحفوا وقاتلوا ففتح أهل بغداد أبواب البلد وقالوا أى حاجة بكم الى السلالم هذه الابواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على أن يقربوها فبينما الامر

قالوا فابسط يدك فبسط يده وبايعوه صلى الله عليه وسلم وأمر بالهجرة الى المدينة فخرجوا اليها أرسالا وبقى معه بمكة أبو بكر وعلى رضى الله تعالى عنهما حتى أذن له وكانت قريش لما خافت خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفقوا أن يأخذوا من كل قبيلة رجلا فيضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربة واحدة حتى يضيع دمه فى القبائل ولا يعرف قاتله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ان ينام على فراشه ويتشح ببردته ويتخلف عنه ليرد ودائع الناس فاجتمع الكفار تلك الليلة على بابه يرصدونه ليثبوا عليه كما اتفقوا وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من تراب وخرج وتلا أول سورة يس ورمى بالتراب على رؤس الكفار فلم يروه فجاءهم آت فقال ان محمدا خرج وجعل على رؤسكم التراب فجعلوا ينظرون عليا وعليه القطيفة فيقولون هذا محمد نائم فلما قام عند الصباح وعرفوه انصرفوا خائبين ورد على الودائع وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج توجه الى بيت أبى بكر وأعلمه ان الله تعالى أذن له فى الهجرة فبكى أبو بكر سرورا وقال الصحبة يارسول الله واستأجر عبد الله بن اريقط وكان كافرا ليدلهما على الطريق ومضيا الى غار بثور جبل أسفل مكة وخرجا منه بعد ثلاثة

على

على ذلك اذ وصل الخبر الى السلطان محمد ان أخاه ملكشاه وايلدكز صاحب بلاد أران ومعه الملك أرسلان بن الملك طغرل بن محمد وهو ابن امرأة ايلدكز قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الامراء الذين مع محمد شاه وأموالهم فلما سمع محمد شاه ذلك جد فى القتال لعله يبلغ منا فلم يقدر على شئ ورحل عنها نحو همذان فى الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وعاد زين الدين الى الموصل وتفرق ذلك الجمع على عزم العود اذا فرغ محمد شاه من اصلاح بلاده فلم يعودوا يجتمعون وفى كثرة حروبهم لم يقتل بينهم الا نفر يسير وانما الجراح كان كثيرا ولما ساروا نهبوا يعقوبا وغيرها من طريق خراسان ولما رحل العسكر عن بغداد أصاب أهلها أمراض شديدة حادة وموت كثير للشدة التى مرت بهم وأما ملكشاه وايلدكز ومن معهما فانهم ساروا من همذان الى الرى فخرج اليهم ايناخ شحنتها وقاتلهم فهزموه فارسل الملك محمد الامير سقمس بن قيماز الحرامى فى عسكر نجدة لاينانج فسار سقمس وكان ايلدكز وملكشاه ومن معهما قد عادوا من الرى يريدون محاصرة الخليفة فلقيهم سقمس وقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره وأثقالهم فاحتاج الملك محمد الى الاسراع فسار فلما بلغ حلوان بلغه ان ايلدكز بالدينور وأتاه رسول من نائبه ايناخ أنه دخل همذان وأعاد الخطبة له فيها فقويت نفسه وهرب شملة صاحب خوزستان الى بلاده وتفرق أكثر جمع ايلدكز وملكشاه وبقيا فى خمسة آلاف فارس فعادا الى بلادهما شبه الهارب ولما دخل محمد شاه همذان أراد التجهز لقصد بلاد ايلدكز فابتدأ به مرض السل وبقى به الى ان مات

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول أطلق أبو الوليد البدر بن الوزير بن هبيرة من حبس تكريت ولما قدم بغداد خرج أخوه والموكب يتلقونه وكان يوما مشهودا وكان مقامه فى الحبس يزيد على ثلاث سنين وفيها احترقت بغداد فى ربيع الآخر وكثر الحريق بها واحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن حربة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الازج وسوق السلطان وغير ذلك وفيها فى شوال قصد الاسماعيلية طبس بخراسان فاوقعوا بها وقعة عظيمة وأسروا جماعة من أعيان دولة السلطان ونهبوا أولادهم ودوابهم وقتلوا فيهم وفيها فى ذى القعدة توفى شيخ الاسلام أبو المعالى الحسن بن عبيد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنيسابور وهو من أعيان الافاضل وفى هذه السنة توفى مريد الدين بن بيسان رئيس آمد والحاكم فيها على صاحبها وولى ما كان اليه بعده ابنه كمال الدين أبو القاسم وتوفى أبو الحسن على بن الحسين الغزنوى الواعظ المشهور ببغداد وكان قدم اليها سنة ست عشرة وخمسمائة وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء الا أن المقتفى أعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لاقبال السلطان عليه وكان موته فى المحرم وتوفى أبو الحسن بن الخل الفقيه الشافعى شيخ الشافعية ببغداد وكان يؤم بالخليفة فى الصلاة وتوفى ابن الآمد الشاعر وهو من أهل النيل من أعيان الشعراء فى طبقة الغزى والارجانى وكان عمره قد زاد على تسعين سنة وفيها قتل مظفر بن حماد بن أبى الخير صاحب البطيحة قتله نفيس بن فضل بن أبى الخير فى الحمام وولى بعده وفيها توفى الواوا الحلبى الشاعر المشهور وفيها فى رمضان توفى الحكيم أبو جعفر بن محمد البخارى باسفراين وكان عالما بعلوم الحكماء الاوائل

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة﴾

أيام ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ووجدت قريش فى طلبهم ولحقهم سراقة بن مالك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر لا تحزن ان الله معنا ودعا على سراقة بن مالك فارتطمت فرسه الى بطنها فى أرض صلبة فقال يامحمد خلصنى ولك ان أرد عنك فدعا له فخلص ونكث وعاد الى الطلب فدعا عليه فارتطمت فرسه ثانيا فسأله الخلاص فدعا له فخلص ورجع عنه وجعل يقول لكل من لقيه كفيتم ماههنا فرجعوا خائبين وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ظهر يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الاول سنة احدى من الهجرة وهذا ابتداء التاريخ الاسلامى ولفظة التاريخ محدثة فى كلام العرب وهى معرب ماه روز وروى عن ميمون ابن مهران أنه رفع الى عمر ابن الخطاب فى أيام خلافته صك محله شعبان فقال أى شعبان وجمع وجوه الصحابة واجتمعوا على وضع يعرف به التاريخ واستحضروا الهرمزان عالم الفرس فقال ان لنا حسابا يقال له ماه روز ومعناه حساب الشهور فجعلوا اسمه التاريخ وطلبوا وقتا يجعلونه أولا لتاريخ دولة الاسلام فاجتمع رأيهم على أن يكون أول عام الهجرة وقد وضع

﴿ذكر الزلازل بالشام﴾

فى هذه السنة فى رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية تخربت كثيرا من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى كثرة تخرب منها بالمرة حماه وشيزر وكفرطاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الاكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية وأما ما لم يكثر فيه الخراب ولكن خرب أكثره فى جميع الشام وتهدمت أسوار البلاد والقلاع فقام نور الدين محمود فى ذلك المقام المرضى وخاف على بلاد الاسلام من الفرنج حيث خربت الاسوار فجمع عساكره وأقام باطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من أسوار البلاد وأما كثرة القتلى فيكفى ان معلما كان بالمدينة وهى مدينة حماه ذكر عنه أنه فارق المكتب لمهم عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبى كان له بالمكتب

﴿ذكر ملك نور الدين حصن شيزر﴾

نبتدئ بذكر هذا الحصن ولمن كان قبل أن يملكه نور الدين محمود بن زنكى فنقول هذا الحصن قريب من حماه بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك اليه الا من طريق واحدة وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس الى ان انتهى الامر الى أبى المرهف نصر بن على بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبى الحسن على وكان بيده الى أن مات سنة احدى وتسعين وأربعمائة وكان شجاعا كريما فلما حضره الموت استخلف أخاه أبا سلامة مرشد بن على فقال والله لا وليته ولاخرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن وهو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ فولاها أخاه الاصغر سلطان بن على واصطحبا أجمل صحبة مدة من الزمان فاولد مرشد عدة أولاد ذكور وكبروا وسادوا منهم عز الدولة أبو الحسن على ومؤيد الدولة أسامة وغيرهما ولم يولد لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر فجاءه أولاد ذكور فحسد أخاه على ذلك وخاف أولاد أخيه على أولاده وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلا منهما على أخيه فكتب سلطان الى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابه بشعر فى معناه رأيت أثبات ما تمس الحاجة اليه منه وهى هذه الابيات

ظلوم أبت فى الظلم الا تماديا * وفى الصد والهجران الا تغاليا
شكت هجرنا والذنب فى ذاك ذنبها * فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فى وطالما * عصيت عذولا فى هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى القلى * وهيهات ان أمسى لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها * وان هى أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتانى من قريضك جوهر * جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لانه * تولى برغمى حين ولى شبابيا
وأين من الستين لفظ مفرق * اذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى * ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
ويجزيهم ما لم أكلفه فعله * لنفسى فقد أعددته من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى * وثلم منى صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة * وقربك منى جفوة وتناسيا
وأصبحت صفر الكف مما رجوته * أرى اليأس قد عفى سبيل رجائيا

الملك المؤيد زابرجة تتضمن ما بين التواريخ المتقدمة وتاريخ الاسلام وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل بقباء وأقام بقية يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس وأسس مسجد قباء فهو المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قباء يوم الجمعة فمر على دار من دور الانصار الا اعترضوا ناقته ويقولون هلم الى العدد والعدة ويقول خلوا سبيلها فانها مأمورة الى ان وصلت الى موضع المسجد الآن فبركت فيه فنزل عنها وأقام بمنزل أبى أيوب الانصارى الى ان بنى المسجد ومساكنه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج عائشة قبل الهجرة فدخل بها بعد الهجرة بثمانية أشهر وهى ابنة تسع سنين واتخذ عليا أخا وآخى بين المهاجرين والانصار آخى بين أبى بكر وخارجة بن زيد وبين عمر وحسان بن مالك وبين أبى عبيد وسعد بن معاذ وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد ابن الربيع وبين عثمان ابن عفان وأوس بن ثابت وبين طلحة وكعب وبين سعيد بن زيد وأبى بن كعب وأول مولود المهاجرين بعد الهجرة عبد الله بن الزبير وأول مولود الانصار

على

على أننى ما حلت عما عهدته * ولا غيرت هذى السنون ودا ديا
فلا غرو عند الحادثات فاننى * أراك يمينى والانام شماليا
تحمل بها عذراء لو قرنت بها * نجوم السماء لم تعد درا ريا
تحلت بدر من صفاتك زانها * كما زان منظوم اللآلى الغوانيا
وعش باليا للمجد ما كان واهيا * مشيدا من الاحسان ما كان هاويا

وكان الامر بينهما فيه تماسك فلما توفى مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لاولاده ظهر المجن وبادأهم بما يسوءهم وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد أكثرهم نور الدين وشكوا اليه ما لقوا من عمهم فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده والاخذ بثارهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج وتخوفه ان يسلم شيزر الى الفرنج ثم توفى سلطان وولى بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد حنقه عليهم وانتظر فرصة تمكنه فلما خربت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينج من بنى منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم أجمعين ان صاحبها منهم كان قد ختن ولدا له وعمل دعوة للناس واحضر جميع بنى منقذ عنده فى داره وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه واذا كان فى مجلس أقيم الفرس على بابه وكان المهر فى ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلا كان أولهم فقتله وامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ولم ينج منها الا الشريد فبادر اليها بعض أمراء نور الدين وكان بالقرب منها فصعد اليها وتسلمها نور الدين منه فملكها وعمر أسوارها ودورها وأعادها جديدة

﴿ذكر وفاة الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة﴾

كانت الجزيرة لاتابك زنكى فلما قتل سنة احدى وأربعين أقطعها ابنه سيف الدين غازى للامير أبى بكر الدبيسى وكان من أكابر أمراء والده فبقيت بيده الى الآن وتمكن منها وصار بحيث يتعذر على قطب الدين أخذها منه فمات فى ذى الحجة سنة اثنتين وخمسين ولم يخلف ولدا فاستولى عليها مملوك له اسمه غلبك وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة أشهر ثم تسلمها من غلبك فى صفر من سنة ثلاث وخمسين وأعطاه عوضها اقطاعا كثيرة

﴿ذكر وفاة السلطان سنجر﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول توفى السلطان سنجر بن ملكشاه ابن ألب ارسلان أبو الحرث أصابه قولنج ثم بعده اسهال فمات منه ومولده بسنجار من ديار الجزيرة فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وسكن خراسان واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد الى محمد بالسلطنة وجعل سنجر ولى عهده فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان واستقام أمره وأطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وجده مترقيا الى أن أسره الغز على ما ذكرناه ثم انه خلص بعد مدة وجمع اليه أطرافه وكان يعود اليه ملكه فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد فى زمانه آمنة ولما مات دفن فى قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة ولما وصل خبر موته الى بغداد قطعت خطبته ولم يجلس له فى الديوان للعزاء ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر فأقام بها خائفا من الغز فقصد جرجان يستظهر بها وعاد الغز الى مرو

النعمان بن بشير (وفى سنة اثنتين) من الهجرة حولت القبلة وكانت الصلاة الى بيت المقدس بمكة وبعد الهجرة بالمدينة بثمانية عشر شهرا وحولت يوم الثلاثاء منتصف شعبان فاستقبل المسلمون الكعبة فى صلاة الظهر وتحول أهل قباء وهم فى الصلاة وفيها فرض صيام رمضان وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش فى ثمانية أنفس الى نخلة بين مكة والطائف ليتعرفوا أخبار قريش فغنموا عيرا لقريش وأسروا اثنين وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون وفيها رأى عبد الله بن زيد بن عبد ربه الانصارى صورة الاذان فى نومه ونزل الوحى به وفيها كانت غزوة بدر الكبرى قدم لقريش قفل من الشام مع أبى سفيان بن حرب فى ثلاثين رجلا فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم المسلمين وبلغ أبا سفيان فارسل الى قريش وأعلمهم فخرج المشركون سراعا لم يتخلف منهم غير أبى لهب بعث مكانه العاص ابن هشام وكان عدتهم تسعمائة وخمسين رجلا فيهم مائة فارس وخرج صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من رمضان ومعه ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون من

وخراسان واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أي أبه المؤيد فاستولى على طرف من خراسان وبقيت خراسان على هذا الاختلال الى سنة أربع وخمسين وراسل الغز الملك محمودا على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين وسألوه ان يحضر عندهم ليملكوه عليهم فلم يثق اليهم وخافهم على نفسه فارسل ابنه اليهم فاطاعوه مديدة ثم لحق بهم الملك محمود على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين

(ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملثمين بالاندلس)

في هذه السنة انقرضت دولة الملثمين بالاندلس وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المرية من الفرنج وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر الى مالقة واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني صاحب غرناطة ان يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة باهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه الى مراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم الا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهي بأيدي الفرنج أخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا وجاء الفرنج الى حصنها فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سورا على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من ينجدهما من أن يصل اليهما فجمع الاذفونش ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين في اثني عشر ألف فارس من الفرنج ومعه محمد بن سعد بن مردنيش في ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ودفع المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين في عوده قبل ان يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فاجابهم أبو سعيد اليه وأمنهم وتسلم الحصن ورحل الفرنج في البحر عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين

(ذكر غزو صاحب طبرستان الاسماعيلية)

في هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن علي بن شهريار عسكره وسار ولم يعلم أحدا جهة مقصده وسلك المضايق وجد السير الى بلد ألموت وهي للاسماعيلية فاغار عليها وأحرق القرى والسواد وقتل فاكثر وغنم أموالهم وسبى نساءهم واسترق أبناءهم فباعهم في السوق وعاد سالما غانما وانخذل الاسماعيلية ودخل عليهم من الوهن ما لم يصابوا بمثله وخرب من بلادهم ما لا يعمر في السنين الكثيرة

(ذكر أخذ حجاج خراسان)

في هذه السنة في ربيع الاول سار حجاج خراسان فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان فاخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم وسلم الباقون وساروا من موضعهم فبينما هم سائرون اذ طلع عليهم الاسماعيلية فقاتلهم الحجاج قتالا عظيما وصبروا صبرا عظيما فقتل أميرهم فانخذلوا وألقوا بأيديهم واستسلموا وطلبوا الامان وألقوا أسلحتهم مستأمنين فأخذهم الاسماعيلية وقتلوهم ولم يبق منهم الا شرذمة يسيرة وقتل فيهم من الائمة العلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الاسلام وخصت خراسان ولم يبق بلد

المهاجرين والباقي من الانصار فيهم فرسان واحدة للمقداد بن عمرو الكندي والثانية قيل للزبير وقيل لغيره وكانت الابل سبعين يتعاقبون عليها ونزل صلى الله عليه وسلم الصفراء وجاءته الاخبار بأن العير قاربت بدرا فسبقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل على أدنى ماء من القوم ببدر وأشار سعد ببناء العريش فعمل وجلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وأقبلت قريش فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم هذه قريش أقبلت بخيلائها وفخرها تكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني وتقارب الفريقان فبرز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبرز لعتبة عبيدة ابن الحرث بن عبد المطلب ولشيبة حمزة وللوليد علي رضي الله تعالى عنه فقتل حمزة شيبة وعلي الوليد وكرا على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله فمات وتزاحف القوم ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على العريش يقول اللهم وعدك وعدك حتى خفق ثم أفاق فقال ابشر يا أبا بكر فقد أنجز الله لي ما وعدني وخرج من العريش يحرض

الا وفيه المأتم فلما كان الغد طاف شيخ في القتلى والجرحى ينادي يا مسلمون يا حجاج ذهب الملاحدة وانا رجل مسلم فمن أراد الماء سقيته فمن كلمه قتله وأجهز عليه فهلكوا أجمعون الا من سلم وولى هاربا وقليل ما هم

(ذكر الحرب بين المؤيد والامير ايثاق)

قد ذكرنا تقدم الامير أي أبه مملوك السلطان سنجر وتقدمه على عساكر خراسان فحسده جماعة من الامراء منهم الامير ايثاق وهو من الامراء السنجرية وانحرف عنه وكان تارة يقصد خوارزمشاه وتارة مازندران وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ويبطن المخالفة فلما كان الآن فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد وكل منحرف عن المؤيد وقصد خراسان وأقام بنواحي نسا وابيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها وانتقل المؤيد من المكاتبة الى المكافحة وسار اليه جريدة فأغار عليه وأوقع به فتفرق عنه جموعه ونجا بحشاشة نفسه وغنم المؤيد وعسكره كل ما لايثاق ومضى منهزما الى مازندران وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه علي تنازع على الملك وقد قوي رستم فلما وصل ايثاق الى مازندران قتل عليا وحمل رأسه الى أخيه رستم فعظم ذلك على رستم واشتد واستشاط غضبا وقال آكل لحمي ولا أطعمه غيري ولم يزل ايثاق يتردد في خراسان بالنهب والغارة لا سيما مدينة اسفراين فانه أكثر من قصدها حتى خربت فراسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد يدعوانه الى الموافقة فامتنع فسارا اليه في العساكر فلما قارباه أتاهما كثير من عسكره فمضى من بين أيديهما الى طبرستان في صفر سنة ثلاث وخمسين فتبعاه في عساكرهما فارسل شاه مازندران يطلب الصلح فأجاباه واصطلحوا وحمل شاه مازندران أموالا جليلة وهدايا نفيسة وسير ايثاق ابنه رهينة فعاد عنه

(ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزي)

كان سنقر العزيزي من أمراء السلطان سنجر وممن يناوي أيضا المؤيد أي أبه فلما اشتغل المؤيد بحرب ايثاق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد الى هراة ودخلها وبها جماعة من الاتراك وتحصن بها فاشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغورية فلم يفعل واستبد بنفسه منفردا لانه رأى اختلاف الامراء على السلطان محمود بن محمد فطمع وحدث نفسه بالقوة فقصده المؤيد الى هراة فلما وصل اليها قاتل من بها شيأ من قتال ثم ان الاتراك مالوا الى المؤيد وأطاعوه وانقطع خبر سنقر العزيزي من ذلك الوقت ولم يعلم ما كان منه فقيل انه سقط عن فرسه فمات وقيل بل اغتاله الاتراك فقتلوه وتقدم السلطان محمود الى ولاية هراة في عساكره وجنوده والتحق جماعة من عسكر سنقر بالامير ايثاق وأغاروا على طوس وقراها فبطلت الزروع والحرث واستولى الخراب على البلاد وعمت الفتن أطراف خراسان وأصابهم العين فانهم كانوا أيام السلطان سنجر في أرغد عيش وأمنه وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر وشوائب وآفات وقلما يخلص شرها من خير فنسأل الله أن يحسن لنا العون والعقبى بمحمد وآله

(ذكر ملك نور الدين بعلبك)

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها وكانت بيد انسان يقال له ضحاك البقاعي منسوب الى بقاع بعلبك وكان قد ولاه اياها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف الحال معه الى الآن فملكها

المؤمنين على القتال وأخذ حفنة من الحصباء ورمى بها المشركين وقال شاهت الوجوه وقال للمؤمنين شدوا عليهم فحملوا وانهزمت المشركون وكانت الوقعة صبيحة الجمعة سابع عشر رمضان وأحضر عبد الله بن مسعود رأس أبي جهل فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شكرا وكان عمر أبي جهل سبعين سنة واسمه عمرو بن هشام وقتل أخوه العاص بن هشام ونصر الله المؤمنين بالملائكة المقربين وجاء الخبر الى أبي لهب بمكة فمات غما وكانت عدة قتلى بدر من المشركين سبعين رجلا والاسرى كذلك وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فجر منهم الى القليب أربعة وعشرون رجلا من صناديد قريش وأقام صلى الله عليه وسلم بعرصة بدر ثلاثة أيام وجميع من استشهد من المسلمين أربعة عشر نفرا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار ولما وصل الصفراء عائدا ضرب عنق النضر ابن الحرث وعقبة بن أبي معيط وكانت مدة غيبته تسعة عشر يوما وكان عثمان بالمدينة بسبب مرض زوجته رقية وكانت فيها غزوة بني قينقاع وهم أول يهود نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج

واستولى عليها

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قلع الخليفة المقتفى لامر الله باب الكعبة وعمل عوضه بابا مصفحا بالنقرة المذهبة وعمل لنفسه من الباب الاول تابوتا يدفن فيه اذا مات وفيها توفى محمد بن عبد اللطيف بن محمد ابن ثابت أبو بكر الخجندى رئيس أصحاب الشافعى باصفهان وسمع الحديث بها من أبى على الحداد وكان صدرا مقدما عند السلاطين وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض ووقعت لموته فتنة عظيمة بأصفهان وقتل فيها خلق كثير وفيها كان بخراسان غلاء شديد أكلت فيه سائر الدواب حتى الناس وكان بنيسابور رطباخ فذبح انسانا علويا وطبخه وباعه فى الطبيخ ثم ظهر عليه أنه فعل ذلك فقتل وأسفر الغلاء وصلحت أحوال الناس وفيها توفى القاضى أبو العباس أحمد بن بختيار بن على المايداى الواسطى قاضيها وكان فقيها عالما وفيها فى ربيع الآخر توفى القاضى برهان الدين أبو القاسم منصور بن أبى سعد محمد بن أبى نصر أحمد الصاعدى قاضى نيسابور وكان من أئمة الفقهاء الحنفية

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر الحرب بين سنقر وارغش﴾

فى هذه السنة كانت حرب شديدة بين سنقر الهمذانى وارغش المسترشدى وسببها أن سنقر الهمذانى كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان وكثر جمعه فخرج الخليفة المقتفى لامر الله فى جمادى الاولى بنفسه يطلبه فلما وصل الى بلد اللحف قال له الامير خطلوبرس أنا أكفيك هذا المهم وكان بينه وبين سنقر مودة فركب اليه وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لاجل خروجه عن طاعة الخليفة فاجاب سنقر الى الطاعة وعاد خطلوبرس واصلح حاله فاقطعه بلد اللحف والامير ارغش المسترشدى فلما توجها الى اللحف جرى بينهما منازعة فاراد سنقر قبض ارغش فرآه محترزا فتحاربا واقتتلا قتالا شديدا وغدر بارغش اصحابه فعاد منهزما الى بغداد وانفرد سنقر ببلد اللحف وخطب فيه للملك محمد فسير من بغداد عسكر القتاله مقدمهم خطلوبرس فجرت بينهما حرب شديدة انهزم فى آخرها سنقر وقتلت رجاله ونهبت أمواله التى فى العسكر وسار هو الى قلعة الماهكى وأخذ ما كان له فيها واستخلف فيها بعض غلمانه وسار هو الى همذان فلم يلتفت اليه الملك محمد شاه فعاد الى قلعة الماهكى

﴿ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطانى﴾

فى هذه السنة أيضا كان قتال بين شملة صاحب خوزستان ومعه ابن مكاية وبين قايماز السلطانى فى ناحية بادرايا فجمعا عسكرهما وسارا اليه فاتاه الخبر بذلك وهو يشرب فلم يحفل بذلك وركب اليهم فى نحو ثلثمائة فارس وكان معجبا بنفسه فحمل عليهم واختلط بهم فأخذ قوابه وقاتل أشد قتال فانهزم أصحابه وأخذ هو أسيرا فتسلمه انسان تركمانى كان له عليه دم لانه قتل ابنا للتركمانى فقتله بابنه وأرسل برأسه الى محمد شاه وأرسل الخليفة عسكرا الى قاتل شملة ومن معه فانزاحوا من بين أيديهم ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد

﴿ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان﴾

كان الاتراك الغزية قد أقاموا ببلخ واستوطنوها وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان وكان المتولى لامور دولته المؤيد

اليهم فى منتصف شوال فحاصرهم خمسة عشر يوما ثم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتفوا للقتل وكانوا حلفاء الخزرج فشفع فيهم عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق وألح فتركهم له وغنم المسلمون أموالهم ورحلوا وفيها كانت غزوة السويق كان أبو سفيان حلف لا يمس طيبا ولا نساء حتى يغزو محمدا بسبب قتلى بدر فخرج فى مائتى راكب بعير قدامه رجال الى المدينة فوصلوا الى العريض وقتلوا رجلا من الانصار فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبهم فهرب أبو سفيان بجمعه وألقوا أجربة السويق فسموا غزوة السويق وفيها كانت غزوة قرقرة الكدر وقيل كانت سنة ثلاث وهى مما يلى جادة العراق الى مكة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بها جمعا من بنى سليم وغطفان فخرج اليهم فلم يجدهم فاستاق ما بها من النعم وعاد وفيها مات عثمان بن مظعون رضى الله تعالى عنه وفيها تزوج على بفاطمة رضى الله تعالى عنهما وفيها كانت وقعة ذى قار التى تقدم ذكرها وفيها هلك أمية بن أبى الصلت الذى رثى قتلى قليب بدر بقصيدته التى أولها

اى أبه وعن رأيه يصدر محمود فلما كان هذه السنة فى شعبان سار الغز من بلخ الى مرو وكان السلطان محمود بسرخس فى العساكر فسار المؤيد فى طائفة من العسكر اليهم فأوقع بطائفة منهم وظفر بهم ولم يزل يتبعهم الى أن دخلوا الى مرو أوائل رمضان وغنم من أموالهم وقتل كثيرا وعاد الى سرخس فاتفق هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم فجمعا العساكر وحشدا وسارا الى الغز فالتقوا سادس شوال من هذه السنة وجرت بينهم حرب طال مداها فبقوا يقتتلون من يوم الاثنين سابع شوال الى نصف الليل من ليلة الاربعاء الحادى عشر من الشهر تواقعوا عدة وقعات متتابعة ولم يكن بينهما راحة ولا نزول الا لما لا بد منه انهزم الغز فيها ثلاث دفعات وعادوا الى الحرب فلما أسفر الصبح يوم الاربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خراسان وتفرقهم فى البلاد وظفر الغز بهم وقتلوا فأكثروا فيهم وأما الجرحى والاسرى فأكثر من ذلك وعاد المؤيد ومن سلم معه الى طوس فاستولى الغز على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والائمة مثل تاج الدين أبى سعد السمعانى وشيخ الاسلام على البلخى وغيرهما وأغاروا على سرخس وخربت القرى وجلى أهلها وقتل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف قتيل ونهبوا طوس أيضا وقتلوا أهلها الا القليل وعادوا الى مرو وأما السلطان محمود بن محمد الخان والعساكر التى معه فلم يقدروا على المقام بخراسان من الغز فساروا الى جرجان ينتظرون ما يكون من الغز فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغز الى السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم فلم يثق بهم وخافهم على نفسه فأرسلوا يطلبون منه ابنه جلال الدين عمر ليملكوه أمرهم ويصدروا عن أمره ونهيه فى قليل الامور وكثيرها وترددت الرسل واحتاط السلطان محمود لولده بالعهود والمواثيق وتقرير القواعد ثم سيره من جرجان الى خراسان فلما سمع الامراء الغزية بقدومه ساروا من مرو الى طريقه فالتقوه بنيسابور وأكرموه وعظموه ودخل نيسابور واتصلت به العساكر الغزية واجتمعوا عنده فى الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثم ان السلطان محمودا سار من جرجان الى خراسان فى الجيوش التى معه من الامراء السنجرية وتخلف عنه المؤيد اى ابه فوصل الى حدود نسا وابيورد وأقطع نسا الامير اسمه عمر بن حمزة النسوى فقام فى حفظها المقام المرضى ومنع عنها أيدى المفسدين وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ جمادى الآخرة من السنة ولما كان الغز بنيسابور هذه السنة ارسلوا الى طوس يدعونهم الى الطاعة والموافقة فامتنع أهل راذكان من اجابتهم الى ذلك واغتروا بسور بلدهم وما عندهم من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة فقصدها طائفة من الغز وحصروهم وملكوا البلد وقتلوا فيه ونهبوا وأكثروا ثم عادوا الى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد بن السلطان محمود الخان الى بيهق وحصروا سابزوار رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين على بن محمد بن يحيى العلوى الحسينى نقيب العلويين واجتمعوا معه ورجعوا الى أمره ونهيه ووقفوا عند اشارته فامتنعوا على الغز وحفظوا البلد منهم وصبروا على القتال فلما رأى الغز امتناعهم عليهم وقوتهم أرسلوا اليهم يطلبون الصلح فاصطلحوا ولم يقتل من أهل سابزوار فى تلك الحروب غير رجل واحد ورحل الملك جلال الدين والغز عن سابزوار فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة وساروا الى نسا وابيورد

هلا بكيت على الكرا * م بنى الكرام أولى الممادح كبكا الحمام على فروع الايك فى الغصن الجوانح

(وفى سنة ثلاث فى رمضان ولد الحسن بن على رضى الله تعالى عنه وفيها قتل كعب بن الاشراف اليهودى قتله محمد بن مسلمة الانصارى وفيها كانت غزوة احد اجتمعت قريش فى سبعمائة درع ومائتى فرس قائدهم أبو سفيان ومعه زوجته هند بنت عتبة فى خمس عشرة امرأة يضربن بالدفوف يحرضن على قتلى بدر ونزلوا بذى الحليفة نهار الاربعاء رابع شوال فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكون قتالهم بالمدينة وكذلك عبد الله ابن أبى ابن سلول ورأى الصحابة الخروج اليهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ألف من الصحابة فلما صار بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبى ابن سلول فى ثلث الناس وقال أطاعهم وعصانى علام نقتل انفسنا ورجع بمن معه من أهل النفاق فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعب من أحد وجعل ظهره اليه وكانت الوقعة نهار السبت وكانت عدة المسلمين سبعمائة فى مائة درع وفرسين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولابى

﴿ذكر أسر المؤيد وخلاصه﴾

قد ذكرنا ان المؤيد أى أبه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان فلما كان الآن سار من جرجان الى خراسان فنزل بقرية من قرى خبوشان اسمها ازانك وبها حصن فسمع الغز بوصوله الى زانك فساروا اليه وحصروه فيه فخرج منه هار بافرآه واحد من الغز فأخذه فوعده بمال جزيل ان اطلقه فقال الغزى وأين المال فقال هو مودع فى بعض هذه الجبال فسار هو والغزى فوصلا الى جدار قرية فيها بساتين وعيون فقال للفارس المال ههنا وصعد الجدار ونزل من ظهره ومضى هار بافرأى الغز قد ملؤا الارض فدخل قرية فعرفه طمعان فيها فأعلم زعيم القرية به وطلب منه مركبا فأتاه بما أراد وأعانه على الوصول الى نيسابور فوصل اليها واجتمعت العساكر وقوى أمره وعاد الى حاله وأحسن الى الطمعان و بالغ فى الاحسان اليه

﴿ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم الى نيسابور﴾

لما عاد الغز ومعهم الملك محمد بن محمود الخان الى نسا وابيورد كما ذكرناه خرج والده السلطان محمود الخان وكان هناك فيمن معه من العساكر الخراسانية فاجتمع بهم واتفقت الكلمة على طاعته وأراد عمارة البلاد وحفظها فلم يقدر على ذلك فلما اجتمعوا ساروا الى نيسابور وبها المؤيد أى أبه فى شعبان فلما سمع بقربهم منه رحل عنها الى خواف فى سادس عشره ووصلوا اليها فى الحادى والعشرين منه ونزلوا فيه وخافهم الناس خوفا عظيما فلم يفعلوا بهم شيأ وساروا عنها فى السادس والعشرين منه الى سرخس ومرو وكان بها الفقيه المؤيد بن الحسين الموفق رئيس الشافعية وله بيت قديم وهو من أجناد الامام أبى سهل الصعلوكى وله مصاهرة الى بيت أبى المعالى الجوينى وهو المقدم فى البلد والمشار اليه وله من الاتباع مالا يحصى فاتفق ان بعض أصحابه قتل انسانا من الشافعية اسمه أبو الفتوح الفستقانى خطأ وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسينى وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور فغضب من ذلك وأرسل الى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه وتهدده ان لم يفعل فامتنع المؤيد من تسليمه وقال لا مدخل لك مع أصحابنا انما حكمك على الطائفة العلويين فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعية فاجتمعوا له وقاتلوه فقتل منهم جماعة ثم ان النقيب أحرق سوق العطارين وأحرقوا سكة معاذ أيضا وسكة باغ طاهر ودار امام الحرمين أبى المعالى الجوينى وكان الفقيه المؤيد الشافعى به اللصهر الذى بينهم وعظمت المصيبة على كافة الناس وجمع بعد ذلك المؤيد الفقيه جموعا من طوس واسفراين وجوين وغيرهم وقتلوا واحدا من اتباع النقيب زيد يعرف بابن الحاجى الاشنانى فأهم العلوية ومن معهم فاقتتلوا ثامن عشر شوال من سنة أربع وخمسين وقامت الحرب على ساق وأحرقت المدارس والاسواق والمساجد وكثر القتل فى الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعى فى شرذمة الى قلعة فرخك وقصر باع الشافعية عن القتال ثم انتقل المؤيد الى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد وكثر القتل فيه

﴿ذكر حصر صاحب ختلان ترمذ وعوده وموته﴾

فى هذه السنة فى رجب سار الملك أبو شجاع فرخشاه وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور وقد تقدم ذكره أيام كسرى ابرويز الى ترمذ وحصرها وكان سبب ذلك انه كان فى طاعة السلطان سنجر فلما خرج عليه الغز طلبه ليحضر معه حربه لهم فجمع عسكره وأظهر انه واصل فيمن عنده من

بردة ولواء رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مصعب بن عمير وكان على ميمنة المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ولواؤهم مع عبد الدار فالتقى الفريقان وقاتل حمزة قتالا شديدا فقتل ارطاة حامل لواء المشركين وقتل سباعا فبينما هو مشغول بقتله غدره وحشى بحربة فقتله وقتل مصعب بن عمير فاعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية لعلى وانهزمت المشركون فطمعت رماة المسلمين فى الغنيمة وكانوا خمسين رجلا وراء النبى صلى الله عليه وسلم ففارقوا المكان الذى قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تفارقوه فأن خالد بن الوليد فى خيل المشركين ونادى الصارخ قتل محمد فانكشفت المسلمون وأصاب منهم المشركون واستشهد من المسلمين سبعون رجلا وشج رسول الله صلى الله عليه وسلم عتبة بن أبى وقاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ومثلت هند بشهداء المسلمين واتخذت من آذانهم وانوفهم قلائد وبقرت عن كبد حمزة ولاكت ولم تسغه وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلا وانصرف أبو سفيان بمن معه وقال يوم بيوم بدر والحرب سجال

العساكر اليه وأقام ينتظر ما يكون منه فان ظفر حضر وقال له سبقتنى بالحرب وان كان الظفر للغز قال لهم انما تأخرت محبة وارادة ان تملكوا فلما انهزم سنجر وكان ما ذكرناه بقى الى الآن فسار الى ترمذ ليحصرها فجمع صاحبها فيروزشاه أحمد بن أبى بكر بن قماج عسكره ولقيه ليمنعه فاقتتلوا فانهزم فيروزشاه ومضى منهزما لا يلوى على شئ فاصابه فى الطريق قولنج فمات منه

﴿ذكر عود المؤيد الى نيسابور وتخريب ما بقى منها﴾

فى هذه السنة عاد المؤيد أى أبه الى نيسابور فى عساكره ومعه الامام المؤيد الموفق الشافعى الذى تقدم ذكر الفتنة بينه وبين ذخر الدين نقيب العلويين وخروجه من نيسابور فلما خرج منها صار مع المؤيد وحضر مع المؤيد وحضر معه حصار نيسابور وتحصن النقيب العلوى بشارستان واشتد الخطب وطال الحرب وسفكت الدماء وهتكت الاستار وخربوا ما بقى من نيسابور من الدور وغيرها وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام فخربوا المدرسة الصندلية لاصحاب أبى حنيفة وخربوا غيرها وحصروا قهندز وهذه الفتنة استأصلت نيسابور ثم رحل المؤيد أى أبه عنها الى بيهق فى شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغى أن تكون هذه الحوادث الغريبة الواقعة فى سنة أربع وخمسين مذكورة فى سنتها وانما قدمناها ههنا ليتلو بعضها بعضا فيكون أحسن لسياقها

﴿ذكر ملك ملكشاه خوزستان﴾

فى هذه السنة ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلد خوزستان وأخذه من شملة التركمانى وسبب ذلك أن الملك محمد ابن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد كما ذكرناه مرض وبقى مريضا بهمذان ومضى أخوه ملكشاه الى قم وقاجان وما والاها فنهبها جميعها وصادر أهلها وجمع أموالا كثيرة فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولى عهده فى الملك فلم يفعل ومضى الى أصفهان فلما قاربها أرسل رسولا الى ابن الخجندى وأعيان البلد فى تسليم البلد اليه فامتنعوا من ذلك وقالوا الاخ يدك فى رقابنا يمين ولا نغدر به فحينئذ شرع ملكشاه فى الفساد والمصادرة لاهل القرى فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان وعلى مقدمته كردباز وه الخادم فتفرقت جموع ملكشاه عنه فدفرسين فلحق به قويدان وكان قد فارق المقتفى لامر الله واتفق مع سنقر الهمذانى فلحقا كلاهما به وحسنا له قصد بغداد فسار عن بلد خوزستان الى واسط ونزل بالجانب الشرقى وهم على غاية الضر من الجوع فنهبوا القرى نهبا فاحشا ففتح بثق بتلك الناحية فغرق منهم كثير ونجا ملكشاه ومن سلم معه وسار الى خوزستان فمنعه شملة من العبور فراسله ليمكنه من العبور الى أخيه الملك محمد شاه فلم يجبه الى ذلك وكاتب حينئذ الاكراد الكرد الذين هنالك واستدعاهم اليه ففرحوا به ونزل اليه من تلك الجبال خلق كثير فاطاعوه فرحل ونزل على كرخانا وطلب من شملة الحرب فالان له شملة القول وقال انا أخطب لك وأكون معك فلم يقبل منه فاضطر شملة الى الحرب فجمع عسكره وقصده فلقيه ملكشاه ومعه سنقر الهمذانى وقويدان وغيرهما من الامراء فاقتتلوا فانهزم شملة وقتل كثير من أصحابه وصعد الى قلعته دندرزين وملك ملكشاه البلاد وجبى الاموال الكثيرة وأظهر العدل وتوجه الى أرض فارس

﴿ذكر الحرب بين التركمانى والاسماعيلية بخراسان﴾

كان بنواحى قهستان طائفة من التركمان فنزل اليهم جمع من الاسماعيلية من قلاعهم وهم ألف وسبعمائة فأوقعوا بالتركمان فلم يجدوا الرجال وكانوا قد فارقوا بيوتهم فنهبوا الاموال وأخذوا

والموعد العام القابل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمزة فسجى ببرده فصلى عليه وكبر سبع تكبيرات وكلما جىء بشهيد صلى عليه مع حمزة حتى صلى على اثنين وسبعين شهيدا ثم دفن حمزة موضعه وأمر ان يدفن الشهداء حيث صرعوا وكان قد نقل بعضهم الى المدينة (وفى سنة أربع) كانت غزوة بنى النضير من اليهود وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ربيع الاول ونزل تحريم الخمر وهو محاصرهم ونزلوا بعد ستة ايام على ان لهم ما حملت الابل والباقى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه على المهاجرين دون الانصار الا سهل بن حنيف وأبا دجانة منهم فانهما شكيا فقرا وفيها كانت غزوة ذات الرقاع غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم نجدا فلقى جمعا من غطفان فتقارب الفريقان ولم يقع قتال وذلك فى جمادى الاولى وسميت غزوة الرقاع لانهم رقعوا فيها راياتهم وفى شعبان منها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض غزواته ورجع وولد الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما (وفى سنة خمس) كانت غزوة الاحزاب وهى غزوة الخندق بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم تحزب

النساء والاطفال وأحرقوا مالم يقدروا على حمله وعاد التركمان فرأوا ما فعل بهم فتبعوا أثر الاسماعيلية فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة فكبروا وحملوا عليهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا حتى أفنوهم قتلا وأسرا ولم ينج الا تسعة رجال لا غير

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة كثر فساد التركمان أصحاب ترجم الايوائي بالجبل فسير اليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدي فلما قاربهم اجتمع التركمان فالتقوا واقتتلوا وانهزم التركمان أقبح هزيمة وقتل بعضهم وأسر بعض وحملت الرؤس والاسارى الى بغداد وفيها حج الناس فلما وصلوا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وصل لهم الخبران العرب قد اجتمعت لتأخذهم فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب وفيها توفي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحراني ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته أيضا وكان يقرأ القرآن وهو والد ظهير الدين الذي حكم في دولة المستضيء بأمر الله على مانذكره ان شاء الله وفيها توفي أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب السجزي ببغداد وهو سجزي الاصل هروي المنشا وكان قدم الى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج فسمع الناس بها عليه صحيح البخاري وكان عالي الاسناد فتأخر لذلك عن الحج فلما كان هذه السنة عزم على الحج فمات وفيها توفي يحيى بن سلامة بن الحسن بن محمد أبو الفضل الحصكفي الاديب بميافارقين وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة وكان يتشيع ومولده بطنزة فمن شعره

وخليع بت أعذله * ويرى عذلي من العبث
قلت ان الخمر مخبثة * قال حاشاها من الخبث
قلت فالارفاث تتبعها * قال طيب العيش في الرفث
قلت منها القيء قال أجل * شرفت عن مخرج الحدث
وسأسلوها فقلت متى * قال عند الكون في الحدث

﴿ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع افريقية﴾

قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة المهدية من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذكرنا أيضا سنة احدى وخمسين مافعله الفرنج بالمسلمين في زويلة المجاورة للمهدية من القتل والنهب فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وانه ليس في ملوك الاسلام من يقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال ابشروا لانصرنكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وأطلق لهم ألفي دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب ومايحتاج اليه العساكر في السفر وكتب الى جميع نوابه في الغرب وكان قد ملك الى قريب تونس يأمرهم بحفظ جميع مايحصل من الغلات وان يترك في سنبله ويخزن في مواضعه وان يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل وطينوا عليها فصارت كأنها تلال فلما كان في صفر من هذه السنة سار عن مراكش وكان أكثر أسفاره في صفر فسار يطلب

قبائل العرب فحفر الخندق قيل باشارة سلمان الفارسي وهو أول مشهد شهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهر له فيها عدة معجزات منها مارواه جابر ابن عبد الله انه اشتدت عليه كدية أي صخرة فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء ووضعه في فيه ثم نفحه على الصخرة فانهالت تحت المساحي ومنها ان ابنة أخت النعمان بن بشير بعثتها أمها بغداء ابنها بشير وخالها عبد الله بن رواحة وهو شيء قليل من التمر فمرت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هات مامعك قالت فصببت بكفيه فما امتلأ فدعا بثوب وردذلك فيه ثم قال لانسان اصرخ في أهل الخندق أن هلموا الى الغداء فجاؤا وجعلوا يأكلون منه وهو يزيد حتى صدروا عنه وانه ليسقط من أطراف الثوب ومنها مارواه جابر من شبع أهل الخندق من شويهة كان صنعها له وحده ومنها مارواه سلمان الفارسي انه صلى الله عليه وسلم ضرب بمعول على صخرة فلمعت بكل ضربة لمعة فقال فتح الله علي بالاولى اليمن وبالثانية الشام والغرب وبالثالثة الشرق وفرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وأقبلت قريش في أحابيشها ومن

افريقية واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وبلغ من حفظه لعساكره انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلوا جميعهم مع امام واحد بتكبيرة واحدة لايتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وكان صاحب المهدية وافريقية وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبد المؤمن فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل اسطوله في البحر في سبعين شينيا وطريدة وشلندي فلما نازلها أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح عاصف فمنعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها الى عبد المؤمن يسألونه الامان لاهل بلدهم فأجابهم الى الامان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهاليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وان يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وسار عبد المؤمن منها الى المهدية والاسطول يحاذيه في البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان حينئذ بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غاية سهم فدخل عبد المؤمن من زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد مايخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر وكانت الفرنج تخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فتنال منه ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن أن يبنى سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله مارأى من حصانتها وعلم أنها لاتفتح بقتال برا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال فيقال لهم هي حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفي مدته أطاع سفاقس عبد المؤمن ومدينة طرابلس وجبال نفوسة وقصور افريقية وماوالاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه أبا محمد عبد الله في جيش ففتح بلادا ثم ان أهل مدينة قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة الى طاعته وتسليم المدينة اليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبد المؤمن قد اشتبه عليك ليس هؤلاء أهل قفصة فقال له لم يشتبه علي قال له عبد المؤمن كيف يكون ذلك والمهدي يقول ان أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها ومع هذا فنقبل منهم ونكف عنهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا فأرسل

تبعها من كنانة في عشرة آلاف وغطفان ومن تبعها من أهل نجد ونقض بنو قريظة العهد وصار وامع الاحزاب وعظم الخطب وظهر النفاق وأقام المشركون بضعا وعشرين ليلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقابلهم ولاقتال بينهم غير المراماة بالنبل ثم خرج عمرو بن عبد ود من ولد لؤي بن غالب يريد المبارزة فبرز اليه علي فقال عمرو يا ابن أخي والله ما أريد ان أقتلك فقال علي والله لكني أحب ان أقتلك فحمي عمرو واقتتلا وسمع المسلمون التكبير من تحت العجاج فعرفوا ان عليا قتله فلما ارتفع الغبار اذا علي على صدر عمرو وهو يذبحه وأرسل الله ريح الصبا على قريش فأكفأت قدورهم ورمت خيامهم وأوقع الله بينهم الخلاف فتفرقوا ورحلت قريش فبلغ غطفان فرحلوا وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤيدا منصورا ورجع من الخندق الى المدينة فلما كان الظهر أتاه جبريل عليه السلام وأمره بالمسير الى قريظة فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان سامعا مطيعا فلا يصل العصر الا في بني قريظة وقدم علي بالراية ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئر من آبارهم

اليهم طائفة من أصحابه ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فوصله بألف دينار ولما كان فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة جاء اسطول صاحب صقلية فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قدوقدم من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجىء الى المهدية فقدموا فى التاريخ فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المينى فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ماراوه من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكى ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا فى البحر فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم شوانى لاخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد اسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر الى آخر شهر ذى الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياما بالكلام اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة ملكهم المهدية اثنتى عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسماها عبد المؤمن سنة الاخماس وأقام بالمهدية عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الذى كان صاحبها وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهدية أول صفر من السنة الى بلاد الغرب

(ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب)

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية وأراد العود الى الغرب جمع أمراء العرب من بنى رياح الذين كانوا بافريقية وقال لهم قد وجبت علينا نصرة الاسلام فان المشركين قد استفحل أمرهم بالاندلس واستولوا على كثير من البلاد التى كانت بأيدى المسلمين وما يقاتلهم أحد مثلكم فبكم فتحت البلاد أول الاسلام وبكم يدفع عنها العدو الآن ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون فى سبيل الله فأجابوا بالسمع والطاعة فحلفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف فحلفوا ومشوا معه الى مضيق جبل زغوان وكان منهم انسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤس القبائل فيهم فجاء الى عبد المؤمن بالليل وقال له سرا ان العرب قد كرهت المسير الى الاندلس وقالوا ما غرضه الا اخراجنا من بلادنا وانهم لا يفون بما حلفوا عليه فقال يأخذ الله عز وجل الغادر فلما كان الليلة الثانية هربوا الى عشائرهم ودخلوا البر ولم يبق منهم الا يوسف بن مالك فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ولم يحدث عبد المؤمن فى أمرهم شيأ وسار مغربا يحث السير حتى قرب من القسطنطينية فنزل فى موضع مخصب يقال له وادى النساء

وتلاحق الناس وحاصرهم خمسا وعشرين يوما ثم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل الاوس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم طمعا ان يتركهم لهم كما ترك بنى قينقاع لعبد الله المنافق فقال ألا ترضون بحكم سعد ابن معاذ فقالوا نعم هو سيدنا فأمر بسعد وكان قد جرح فى الخندق فى أكحله فجاؤا به على حمار وكان رجلا جسيما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قوموا لسيدكم قيل عم الناس وقيل خص الانصار فقاموا اليه وقالوا يا أبا عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكمك فى مواليك فقال أحكم فيهم ان يقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى والنساء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى من فوق سبع سمواته فرجع الى المدينة وحفرت لهم خنادق فضربت رقابهم فيها وكانوا سبعمائة رجل يزيدون أو ينقصون قليلا وقسم السبايا وأخرج الخمس واستبقى لنفسه ريحانة بنت عمرو وبقيت فى ملكه الى ان مات (وفى سنة ست) كانت غزوة ذى قرد أغار عيينة بن حصن على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة فخرج اليه

والفصل ربيع والكلأ مستحسن فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة ودام كذلك عشرين يوما فبقى الناس فى جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبرا مع كثرته وعظمه ويقولون ما أزعجه الا خبر وصله من الاندلس فحث لاجله فى السير فعادت العرب الذين جفلوا منه من البرية الى البلاد لما أمنوا جانبه وسكنوا البلاد التى ألفوها واستقروا فى البلاد فلما علم عبد المؤمن برجوعهم جهز اليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله فى ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحدين وشجعانهم فجدوا السير وقطعوا المفاوز فما شعر العرب الا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول اليها ان راموا ذلك وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدميهم أبو محفوظ محرز ابن زياد ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم فلما أطلت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم ففر مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من عشائرهما وثبت محرز ابن زياد وأمرهم بالثبات والقتال فلم يلتفتوا اليه فثبت هو ومن معه من جمهور العرب فناجزهم الموحدون القتال فى العشر الاوسط من ربيع الآخر من السنة وثبت الجمعان واشتد العراك فاتفق ان محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والاولاد والاموال وحمل جميع ذلك الى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة الى بلاد الغرب وفعل معهن مثل ما فعل فى حريم الاثبج ثم أقبلت اليه وفود رياح مهاجرين فى طلب حريمهم كما فعل الاثبج فأجمل الصنيع لهم ورد الحريم اليهم فلم يبق منهم أحد الا صار عنده وتحت حكمه وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الاحسان ثم انه جهزهم الى ثغور الاندلس على الشرط الاول وجمعت عظام العرب المقتولين فى هذه المعركة عند جبل قرن فبقيت دهرا طويلا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد وبقيت افريقية مع نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته الا مسعود البلاط بن زمام وطائفته فى أطراف البلاد

(ذكر غرق بغداد)

فى هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة فى دجلة وخرق القورج فوق بغداد وأقبل الماء الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا انها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح ظفر والاجمة والمختارة والمقتدية ودرب القبار وخرابة ابن جردة والريانى وقراح القاضى وبعض القطيعة وبعض باب الازج وبعض المأمونية وقراح أبى الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربى فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور يدب فى المحال التى لم يركبها الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وانما هى تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين وأما الجانب الغربى فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس الماء وكذلك المشهد والحربية وكان أمرا عظيما

(ذكر عود سنقر الهمذانى الى اللحف وانهزامه)

رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصل ذا قرد موضع على ميلين من المدينة فاستنقذ بعضها وعاد بعد خمسة أيام (وفيها) كانت غزوة بنى المصطلق فى شعبان وقائدهم الحرث ابن أبى ضرار لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماء يسمى المريسيع ووقع القتال وانهزم بنو المصطلق فقتل وسبى ووقعت جويرية بنت قائدهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسها فادى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها وتزوجها فقال الناس اصهار رسول الله فاعتقوا من أجلها أسرى كثيرة وكانت عظيمة البركة على قومها وفى هذه الغزوة قال عبد الله بن أبى ابن سلول لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب فقال عبد الله بن عبد الله وكان صالحا ائذن لى يا رسول الله فاحضر لك رأس أبى فقال صلى الله عليه وسلم بل نحسن اليه وفيها قال أهل الافك ما قالوا وهم مسطح وحسان وعبد الله بن أبى ابن سلول وأم حبيبة بنت جحش رموا عائشة رضى الله عنها بصفوان بن المعطل رضى الله عنه فأنزل الله براءتها وجلد رسول الله الكل الا عبد الله وفيها نزلت

فى هذه السنة عاد سنقر الهمذانى الى اقطاعه وهو قلعة الماهكى و بلد اللحف وكان الخليفة قد أقطعه للامير قايماز العميدى ومعه أربعمائة فارس فأرسل اليه سنقر يقول له ارحل عن بلدى فامتنع فسار اليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدى ورجع الى بغداد باسوا حال فبرز الخليفة وسار فى عساكره الى سنقر فوصل الى النعمانية وسير العساكر مع ترشك ورجع الى بغداد ومضى ترشك نحو سنقر الهمذانى فتوغل سنقر فى الجبال هاربا ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ونزل على الماهكى وحصرها أياما ثم عاد الى البندنيجين وأرسل الى بغداد بالبشارة وأما سنقر فانه لحق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هناك وأفسد أصحابه فى البلاد وأرسل ترشك الى بغداد يطلب نجدة فجاءته فاراد سنقر أن يكبس ترشك فعرف ذلك فاحترز فعدل سنقر الى المخادعة فأرسل رسولا الى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خف من أصحابه فكبس سنقر ليلا فانهزم هو وأصحابه وكثر القتل فيهم وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل مالهم ونجا سنقر جريحا

﴿ذكر الفتنة بين عامة استراباذ﴾

فى هذه السنة وقع فى استراباذ فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة و بين الشافعية ومن معهم وكان سببها ان الامام محمدا الهروى وصل الى استراباذ فعقد مجلس الوعظ وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمد بن اسمعيل النعيمى شافعى المذهب أيضا فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون فقتل من الشافعية جماعة وهرب القاضى ونهبت داره ودور من معه وجرى عليهم من الامور الشنيعة ما لا حد عليه فسمع شاه مازندران الخبر فاستعظمه وأنكر على العلويين فعلهم و بالغ فى الانكار مع انه شديد التشيع وقطع عنهم جرايات كانت لهم ووضع الجبايات والمصادرات على العامة فتفرق كثير منهم وعاد القاضى الى منصبه وسكنت الفتنة

﴿ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه﴾

فى هذه السنة توفى السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذى حاصر بغداد طالبا السلطنة وعاد عنها فأصابه سل وطال به فمات بباب همذان وكان مولده فى ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فلما حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه ومماليكه فنظر الى الجميع من طيارة تشرف على ما تحتها فلما رآه بكى وقال هذه العساكر والاموال والمماليك والسرارى ما أرى يدفعون عنى مقدار ذرة ولا يزيدون فى أجلى لحظة وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيأ كثيرا وكان عظيما كريما عاقلا كثير التأنى فى أموره وكان له ولد صغير فسلمه الى آقسنقر الاحمديلى وقال له أنا أعلم أن الناس لا تطيع مثل هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به الى بلادك فرحل الى مراغة فلما مات اختلفت الامراء فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه وهم الاكثر وطائفة طلبوا أرسلان الذى مع ايلدكز فأما ملكشاه فانه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركمانى وغيرهما فوصل الى أصفهان فسلمها اليه ابن الخجندى وجمع له مالا أنفقه عليه وأرسل الى العساكر بهمذان يدعوهم الى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم ولان أكثرهم كان يريد سليمان شاه

﴿ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها اليه﴾

آية التيمم وفى هذه السنة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة معتمرا لا يريد حربا فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والانصار فلما وصل الحديبية أسفل مكة نزل بها فقالوا انزلنا على غير ماء فاخرج سهما من كنانته وأمر رجلا ان يغرسه ببعض تلك القلب فجاش الماء حتى ضرب الناس بعطن فارسلت قريش عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف فقال ان قريشا قد لبست جلود النمور وعاهدوا الله أن لا يدخل مكة عنوة أبدا فبعث عثمان بن عفان فاعلمهم انه لم يأت لحرب بل زائرا معظما لهذا البيت فقالوا لعثمان ان شئت الطواف فطف فقال لا أفعل حتى يطوف رسول الله فأمسكوه وحبسوه فبلغ رسول الله انهم قتلوا عثمان فقال لا نبرح حتى نناجزهم وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة بايع المسلمون كلهم الا الجد بن قيس استتر براحلته ثم بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عثمان لم يقتل فكانت قضية الصلح صالح رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا على وضع الحرب عشر سنين ومن أحب ان يدخل فى عهد محمد وعقده دخل ومن أحب ان يدخل فى عهد قريش وعقدهم

فى هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب مرضا شديدا أرجف بموته وكان بقلعة حلب ومعه أخوه الاصغر أميران فجمع الناس وحصر القلعة وكان شيركوه وهو أكبر أمرائه بحمص فبلغه خبر موته فسار الى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه أيوب ذلك وقال أهلكتنا والمصلحة أن تعود الى حلب فان كان نور الدين حيا خدمته فى هذا الوقت وان كان قد مات فأنا فى دمشق نفعل ما تريد من ملكها فعاد الى حلب مجدا وصعد القلعة وأجلس نور الدين فى شباك يراه الناس وكلمهم فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أمير أميران فسار الى حران فملكها فلما عوفى نور الدين قصد حران ليخلصها فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران فى القلعة فملكها نور الدين وسلمها الى زين الدين على نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل ثم سار نور الدين بعد أخذ حران الى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الامراء وقد توفى وبقى أولاده فنازلها فشفع جماعة من الامراء فيهم فغضب من ذلك وقال هلا شفعتم فى أولاد أخى لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الاشياء الى فلم يشفعهم وأخذها منهم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة مرض الخليفة المقتفى لامر الله واشتد مرضه وعوفى فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلق البلد اسبوعا وفيها عاد ترشك الى بغداد ولم يشعر به أحد الا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن وكان قد عصى على الخليفة والتحق بالعجم فعاد الآن فرضى عنه وأذن له فى دخول دار الخلافة واعطى مالا وفيها فى جمادى الاولى أرسل محمد بن أنز صاحب قهستان عسكرا الى بلد الاسماعيلية من الجبال فقتلوا كثيرا من العسكر وأسر والامير الذى كان مقدما عليهم اسمه قيبة وهو صهر ابن أنز فبقى عندهم أسيرا عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الاسماعيلية على بن الحسن وخلص من الاسر وفيها توفى شرف الدين على بن أبى القاسم منصور بن أبى سعد الساعدى قاضى نيسابور فى شهر رمضان وكان موته بالرى ودفن فى مقبرة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة رضى الله عنهما وكان القاضى حنفيا أيضا

﴿ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر مسير سليمان شاه الى همذان﴾

فى هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ليتولى السلطنة وقد تقدم سبب قبضه وأخذه الى الموصل وسبب مسيره اليها ان الملك محمد ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل اكابر الامراء من همذان الى أتابك قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل يطلبون منه ارسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه اليهم ليولوه السلطنة فاستقرت القاعدة بينهم ان يكون سليمان شاه سلطانا وقطب الدين أتابكه وجمال الدين وزير قطب الدين وزيرا لسليمان شاه وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه بالاموال الكثيرة والبرك والدواب والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين على وعسكر الموصل الى همذان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر اليهم أرسالا كل يوم يلقاه طائفة وأمير فاجتمع مع سليمان شاه عسكر فخافهم زين الدين على نفسه لانه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للادب معه ما أوجب الخوف منه فعاد الى الموصل فحين عاد عنه لم ينتظم امره ولم يتم له ما أراده وقبض العسكر عليه بباب همذان فى شوال سنة ست وخمسين وخطبوا لارسلان شاه ابن الملك

دخل وشهد فى عقد الصلح جماعة من المسلمين والمشركين ونحر رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه وحلق رأسه وفعل كذلك الناس معه وقال يرحم الله المحلقين وبعد ثلاث قال والمقصرين ثم قفل الى المدينة وفى سنة سبع خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منتصف المحرم الى خيبر وفتحها حصنا حصنا وأخذ من سباياها لنفسه صفية بنت حيى بن اخطب فتزوجها وجعل عتقها صداقها وهذا من خواصه وفيها ظهرت مزية على رضى الله عنه بأن الله يحبه وقتل مرحب وكان الفتح على يده وتترس بباب عجزت ثمانية أنفس ان يقلبوه ولما فرغ من خيبر افتتح وادى القرى عنوة فلما قدم المدينة دخل بقية المهاجرين من الحبشة منهم جعفر بن ابى طالب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أدرى بأيهما أسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر وقدمت أم حبيبة بنت أبى سفيان وكان قد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بالحبشة حين تنصر زوجها الذى هاجرت معه واقام بالحبشة هو وعبد الله بن جحش فامهرها النجاشى عن رسول الله أربعمائة دينار وعقد عقدها عنده ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص وبلغ أبا سفيان فقال ذلك

طغرل وهو الذي زوج اباكز بأمه وسيذكر مشروحا ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين﴾

فى هذه السنة توفى الفائز بنصر الله ابو القاسم عيسى بن اسمعيل الظافر صاحب مصر وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما ولى خمس سنين كما ذكرناه ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر اسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فأمر باحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله ابى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن ابوه خليفة وكان العاضد ذلك الوقت مراهقا قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الامر من العلويين الى الاتراك وتزوجت

﴿ذكر وفاة الخليفة المقتفى لامر الله وشئ من سيرته﴾

وفى هذه السنة ثانى ربيع الاول توفى أمير المؤمنين المقتفى لامر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ابى العباس احمد بن المقتدى بامر الله رضى الله عنه بعلة التراقى وكان مولده ثانى عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين واربعمائة وأمه أم ولد تدعى باغى وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوما ووافق اباه المستظهر بالله فى علة التراقى وماتا جميعا فى ربيع الاول وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من اول أيام الديلم الى الآن واول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن الا ان يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشر الحروب بنفسه وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار فى جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ

﴿ذكر خلافة المستنجد بالله﴾

وفى هذه السنة بويع المستنجد بالله امير المؤمنين واسمه يوسف وأمه أم ولد تدعى طاوس بعد موت والده وكان للمقتفى حظية وهى أم ولده ابى على فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على ان يكون ولدها الامير ابو على خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولى العهد فقالت اذا دخل على والده قبضت عليه وكان يدخل الى ابيه كل يوم فقالوا لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبى المعالى ابن الكيا الهراسى فدعوه الى ذلك فأجابهم على ان يكون وزيرا فبذلوا له ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم ابى على أحضرت عدة من الجوارى واعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله وكان له خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبى على وامه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هى الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى استاذ دار عضد الدولة واخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع واخذ بيده السيف فلما دخل ثاربه الجوارى فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك اخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى وأخذ اخاه أبا على وأمه فسجنهما واخذ الجوارى

الفحل الذى لا يقدع أنفه وفى غزوة خيبر أهدت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب اليهودية شاة مسمومة فاخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قطعة ولاكها ولفظها وقال تخبرنى هذه الشاة انها مسمومة وفى هذه السنة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسله وكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام فارسل الى كسرى ابرويز عبد الله بن حذافة فمزق الكتاب وأرسل الى باذان عامله باليمن فارسل الى رسول الله رجلين قد حلقا لحيتهما فقالا ان باذان يشير عليك بالمسير الى كسرى والا يهلكك فاخرا الى الغد ثم أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهما وقال ان ربى أخبرنى ان كسرى ابرويز قتله ابنه شهرويه وان ملكى سيعلو على ملك كسرى وقيصر فارجعا ومرا باذان أن يسلم فرجعا وأخبراه وجاء كتاب شهرويه بقتل أبيه فأسلم باذان وخلق كثير من فارس وأرسل دحية الى قيصر ملك الروم فاكرمه ورده ردا حسنا وأرسل حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك مصر فاكرمه وأهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع جوار وقيل جاريتين احداهن مارية وبغلة اسمها دلدل وحمارا

فقتل

فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه فلما توفى المقتفى لامر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضى القضاة وارباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم (حكى عنه) الوزير عون الدين بن هبيرة انه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام منذ خمس عشرة سنة وقال لى يبقى ابوك فى الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال صلى الله عليه وسلم قال ثم رأيته قبل موت ابى المقتفى بأربعة أشهر فدخل بى فى باب كبير ثم ارتقى الى رأس جبل وصلى بى ركعتين ثم ألبسنى قميصا ثم قال لى قل اللهم اهدنى فيمن هديت وذكر دعاء القنوت ولما ولى الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته واصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن المرخم وكان بئس الحاكم واخذ منه مالا كثيرا واخذت كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان استاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير ان يقوم له وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى ورتب مكانه ابا جعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه

﴿ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والاتراك البرزية﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار طائفة من عسكر خوارزمشاه الى اجنه وهجموا على يغمرخان ابن أودك ومن معه من الاتراك البرزية فاوقعوا بهم وأكثروا القتل فانهزم يغمرخان وقصد السلطان محمود بن محمد الخان والاتراك الغزية الذين معه وتوسل اليهم بالقرابة وظن يغمرخان ان اختيار الدين ايناق هو الذى هيج الخوارزمية عليه فطلب من الغز انجاده

﴿ذكر احوال المؤيد بخراسان هذه السنة﴾

قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أى أبه الى نيسابور وتمكنه منها وان ذلك كان سنة أربع وخمسين فلما دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة ورأى المؤيد تحكمه فى نيسابور وتمكنه فى دولته وكثرة جنده وعسكره أحسن السيرة فى الرعية لاسيما أهل نيسابور فانه جبرهم وبالغ فى الاحسان اليهم وشرع فى اصلاح اعمالها واصلاح ولاياتها فسير طائفة من عسكره الى ناحية اسفيل وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا العيث والفساد فى البلاد وطال تماديهم فى طغيانهم فارسل اليهم المؤيد يدعوهم الى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والصلاح فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما هم عليه فسير اليهم سرية كثيرة فقاتلوهم وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا فاكثروا القتل فيهم وخربوا حصنهم وسار المؤيد من نيسابور الى بيهق فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة وقصد منها حصن خسرو جرد وهو حصن منيع بناه كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل افراسياب وفيه رجال شجعان فامتنعوا على المؤيد فحصرهم ونصب عليهم المجانيق وجد فى القتال فصبر أهل الحصن حتى نفد صبرهم ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها ورتب فيها من يحفظها وعاد منها الى نيسابور فى الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة ثم سار الى هراة فلم يبلغ منها غرضا فعاد الى نيسابور وقصد مدينة كندر وهى من أعمال طريثيث وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربنده واجتمع معه جماعة من الرنود وقطاع الطريق والمفسدين فخربوا كثيرا من البلاد وقتلوا كثيرا من الخلق وغنموا من الاموال ما لا يحصى وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاء فقصدهم المؤيد فتحصنوا بالحصن الذى لهم فقوتلوا أشد قتال ونصب عليهم العرادات

اسمه يعفور وكان أرسل الى النجاشى عمرو بن أمية قبل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم على يد جعفر رضى الله عنه وأرسل شجاع بن وهب الاسدى الى الحرث بن أبى شمر الغسانى فلما قرأ الكتاب قال ها أنا سائر اليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم باد ملكه وأرسل سليط بن عمرو الى هوذة ملك اليمامة وكان نصرانيا فقال ان جعل الى الامر من بعده سرت اليه وأسلمت ونصرته والا حاربته فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا ولا كرامة اللهم اكفنيه فمات وأرسل العلاء بن الحضرمى الى ملك البحرين المنذر بن ساوى فأسلم هو وجميع عرب البحرين ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة لعمرة القضاء وساق معه سبعين بدنة وأخرجت له قريش عنها واصطفوا عند دار الندوة فدخل المسجد الحرام وطاف بالبيت ورمل فى أربعة أشواط وسعى بين الصفا والمروة وتزوج فى سفره هذا ميمونة بنت الحرث وهو محرم وجها منه عمه العباس وفى سنة ثمان قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان ابن طلحة وأسلموا وفى جمادى الاولى منها كانت (غزوة مؤتة) بعث رسول الله صلى

والمضيقات فاذعن هذا الخربنده أحمد الى طاعة المؤيد والانخراط فى سلك أصحابه وأشياعه فقبله أحسن قبول وأحسن اليه وأنعم عليه ثم انه عصى على المؤيد وتحصن بحصنه فاخذه المؤيد منه قهرا وعنوة وقيده واحتاط عليه ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده وقصد المؤيد فى شهر رمضان ناحية بيهق عازما على قتالهم لخروجهم عن طاعته فلما قاربها أتاه زاهد من أهلها ودعاه الى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم ووعظه وذكره فاجاب الى ذلك ورحل عنهم فارسل السلطان محمود بن محمد الخان وهو مع الغز الى المؤيد بتقرير نيسابور وطوس وأعمالها عليه ورد الحكم فيها اليه فعاد الى نيسابور رابع ذى القعدة من السنة ففرح الناس بما تقرر بينه وبين الملك محمود وبين الغز من ابقاء نيسابور عليه ليزول الخلف والفتن عن الناس

﴿ذكر الحرب بين شاه مازندران و يغمرخان﴾

لما قصد يغمرخان الغز وتوسل اليهم لينصروه على ايناق لظنه انه هو الذى حسن للخوارزمية قصده فاجابوه الى ذلك وساروا معه على طريق نسا وابيورد ووصلوا الى الامير ايناق فلم يجد لنفسه بهم قوة فاستنجد شاه مازندران فجاءه ومعه من الاكراد والديلم والاتراك والتركمان الذين يسكنون نواحى ادسكون جمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم وانهزم الاتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران خمس مرات ويعودون وكان على ميمنة شاه مازندران الامير ايناق فحملت الاتراك الغزية عليه لما أيسوا من الظفر بقلب شاه مازندران فانهزم ايناق وتبعه باقى العسكر ووصل شاه مازندران الى سارية وقتل من عسكره أكثرهم وحكى ان بعض التجار كفن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل وأما ايناق فانه قصد فى هربه خوارزم وأقام بها وسار الغز من المعركة الى دهستان وكان الحرب قريبا منها فنقبوا سورها وأوقعوا باهلها ونهبوهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة بعد أن خربوا جرجان وفرقوا أهلها فى البلاد وعادوا الى خراسان

﴿ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده﴾

فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود ابن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وكان عادلا حسن السيرة فى رعيته محبا للخير وأهله مقربا للعلماء محسنا اليهم راجعا الى قولهم وكان ملكه تسع سنين وملك بعده ابنه ملكشاه فلما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور الى غزنة فحصرها وكان الشتاء شديدا والثلج كثيرا فلم يمكنه المقام عليها فعاد الى بلاده فى صفر سنة ست وخمسين

﴿ذكر الحرب بين ايناق و بغراتكين﴾

فى هذه السنة منتصف شعبان كان بين الامير ايناق والامير بغراتكين برغش الجركانى حرب وكان ايناق قد سار الى بغراتكين فى آخر أعمال جوين فنهب وأخذ أمواله وكل ماله وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة فانهزم بغراتكين عنها وخلاها فافتضها ايناق واستغنى بها وقويت نفسه بها وكثرت جموعه وقصده الناس وأما بغراتكين فانه أرسل الى المؤيد صاحب نيسابور وسار فى جملته ومعدودا من أصحابه فتلقاه المؤيد بالقبول

﴿ذكر وفاة ملكشاه بن محمود﴾

فى هذه السنة توفى ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان باصفهان مسموما وكان سبب ذلك أنه لما كثر جمعه باصفهان أرسل الى بغداد وطلب أن يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق الى ما كانت أولا والا قصدهم فوضع

الوزير

الله عليه وسلم ثلاثة آلاف وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال ان قتل فالامير جعفر بن أبى طالب فان قتل فعبد الله بن رواحة فاجتمعت عليهم الروم والعرب المتنصرة فى مائة ألف فالتقوا فقتل زيد فأخذ الراية جعفر فقتل فأخذها عبد الله بن رواحة فقتل فاتفق الناس على خالد بن الوليد فأخذ الراية ورجع بالناس الى المدينة وكان سبب هذه الغزوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع رسوله الذى كان أرسله الى قيصر قتله عمرو بن شرحبيل ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره وفى هذه السنة كان نقض الصلح مع قريش وذلك ان بنى بكر كانوا فى عقد قريش فقتلوا من خزاعة جماعة وكانوا فى عقد رسول الله وأعانهم على ذلك قريش فانتقض بذلك عهد قريش فقدم أبو سفيان بن حرب ليجدد العهد ودخل على ابنته أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم وأراد ان يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوته عنه وقالت هذا فراش رسول الله وأنت نجس مشرك ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فكلمه فلم يرد عليه شيأ وأتى كبار الصحابة وكلمهم فلم يردوا شيأ فرد خائبا وأخبر

الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به فقال له اغلبك الكوهرايينى فمضى الى بلاد العجم واشترى جارية من قاضى همذان بالف دينار وباعها من ملكشاه وكان قد وضعها على سمه ووعدها أمورا عظيمة على ذلك وسمته فى لحم مشوى فاصبح ميتا وجاء الطبيب الى دكلا وشملة فعرفهما انه مسموم فعرفوا ان ذلك من فعل الجارية فاخذت وضربت وأقرت وهرب اغلبك ووصل الى بغداد ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ولما مات أخرج أهل أصفهان أصحابه من عندهم وخطبوا لسليمان شاه واستقر ملكه بتلك البلاد وعاد شملة الى خوزستان فاخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة حج أسد الدين شيركوه بن شاذى مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وشيركوه هذا هو الذى ملك الديار المصرية وسيرد ذكره ان شاء الله تعالى وفيها أرسل زين الدين على نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا الى المستنجد يعتذر مما جناه من مساعدة محمدشاه فى حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له فى الحج فأرسل اليه يوسف الدمشقى مدرس النظامية وسليمان بن قتلمش يطيبان قلبه عن الخليفة ويعرفانه الاذن فى الحج فحج ودخل الى الخليفة فأكرمه وخلع عليه وفيها توفى قايماز الارجوانى أمير الحاج سقط عن الفرس وهو يلعب بالاكرة فسال مخه من مناخيره وأذنيه فمات وفيها فى ربيع الآخر توفى محمد بن يحيى بن على ابن مسلم أبو عبد الله الزبيدى من أهل زبيد مدينة باليمن مشهورة وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان نحويا واعظا وصحبه الوزير ابن هبيرة مرة وكان موته ببغداد

﴿ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر الفتنة ببغداد﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول خرج الوزير ابن هبيرة من داره الى الديوان والغلمان يطرقون له وأرادوا يردون باب المدرسة الكمالية بدار الخليفة فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم فمنعهم الوزير ومضى الى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار فمضى أستاذ الدار وعاقبهم هناك واختفى مدرسهم الشيخ أبو طالب ثم ان الوزير أعطى كل فقير دينارا واستحل منهم وأعادهم الى المدينة وظهر مدرسهم

﴿ذكر قتل ترشك﴾

فى هذه الايام قصد جمع من التركمان الى البندنيجين فأمر الخليفة بتجهيز عسكر اليهم وأن يكون مقدمهم ترشك وكان فى أقطاعه بلد اللحف فأرسل اليه الخليفة يستدعيه فامتنع من المجىء الى بغداد وقال يحضر العسكر فأنا أقاتل بهم وكان عازما على الغدر فجهز العسكر وساروا اليه وفيهم جماعة من الامراء فلما اجتمعوا بترشك قتلوه وأرسلوا رأسه الى بغداد وكان قتل مملوكا للخليفة فدعا أولياء المقتول وقيل لهم ان أمير المؤمنين قد اقتص لا بكم ممن قتله

﴿ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لارسلان﴾

فى هذه السنة فى ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وسبب ذلك أنه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى انه شربها فى رمضان نهارا وكان يجمع المساخر

قريشا وأراد رسول الله أن يغزو قريشا فكتب حاطب بن أبى بلتعة اليهم كتابا مع سارة مولاة بنى هاشم يعلمهم الخبر فأطلع الله رسوله على ذلك فارسل عليا والزبير اليها فاحضرا الكتاب وحضر حاطب واعتذر وقبل منه رسول الله ومنع عمر من ضرب عنقه وقال ما يدريك ان الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لعشر مضين من رمضان فى عشرة آلاف فارس فلما قارب مكة أحضر العباس أبا سفيان بن حرب فأمنه رسول الله وقال يا أبا سفيان أما آن لك أن تعلم ان لا اله الا الله قال بلى قال ويحك ألم يأن لك أن تشهد أنى رسول الله قال بابى أنت وأمى أما هذه ففى النفس منها شىء فقال له العباس ويحك تشهد قبل أن تضرب عنقك فتشهد وأسلم وأسلم معه حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء وأمر النبى صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام أن يدخل مكة ببعض الجيوش من كداء وأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج ان يدخل من ثنية كدى وأمر عليا أن يأخذ الراية من سعد ويدخل بها لما بلغه ان سعدا قال اليوم يوم الملحمه اليوم تستحل الحرمه وأمر خالد بن

الوليد أن يدخل من أسفل مكة ونهى عن القتال فلم يقاتل الا خالد لقيه جماعة من قريش فرموه بالنبل فقاتلهم

ولا يلتفت الى الامراء فأهمل العسكر أمره وصار والا يحضرون بابه وكان قد رد جميع الامور
الى شرف الدين كردباز الخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يرجع الى دين وعقل وحسن
تدبير فكان الامراء يشكون اليه وهو يسكنهم فاتفق انه شرب يوما بظاهر همذان في الكشك
فحضر عنده كردباز فلامه على فعله فأمر سليمان شاه من عنده من المساخرة فعبثوا بكردباز وحتى
ان بعضهم كشف له سوأته فخرج مغضبا فلما صحا سليمان أرسل اليه يعتذر فقبل عذره الا أنه
تجنب الحضور عنده فكتب سليمان الى اينانج صاحب الري يطلب منه أن ينجده على كردباز
فوصل الرسول واينانج مريض فأعاد الجواب يقول اذا أفقت من مرضي حضرت اليك بعسكري
فبلغ الخبر كردباز فازداد استيحاشا فأرسل اليه سليمان يوما يطلبه فقال اذا جاء اينانج حضرت
وأحضر الامراء واستحلفهم على طاعته وكانوا كارهين لسليمان فحلفوا له فأول ما عمل ان قتل
المساخرة الذين لسليمان وقال انما أفعل ذلك للملك ثم اصطلحا وعمل كردباز دعوة عظيمة
حضرها السلطان والامراء فلما صار السلطان سليمان شاه في داره قبض عليه كردباز وعلى
وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي وعلى أصحابه في شوال سنة خمس وخمسين
وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه في قلعة ثم أرسل اليه من خنقه وقيل بل
حبسه في دار مجد الدين العلوي رئيس همذان وفيها قتل وقيل بل سقي سما فمات والله أعلم وأرسل الى
ايلدكز صاحب أرانية وأكثر بلاد اذربيجان يستدعيه اليه ليخطب للملك أرسلان شاه الذي معه
وبلغ الخبر الى اينانج صاحب الري فسار ينهب البلاد الى أن وصل الى همذان فتحصن كردباز و
فطلب منه اينانج أن يعطيه مصافا فقال أنا لا أحاربك حتى يصل الاتابك الاعظم ايلدكز
وسار ايلدكز في عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس ومعه أرسلان شاه بن طغرل
ابن محمد بن ملكشاه فوصل الى همذان فلقيهم كردباز وأنزله دار المملكة وخطب لارسلان شاه
بالسلطنة بتلك البلاد وكان أيلدكز أتابكه والبهلوان حاجبه وهو أخوه لامه وكان أيلدكز هذا
أحد مماليك السلطان مسعود وأمره أنه في أول أمره فلما ملك أقطعه أران وبعض أذربيجان
واتفق الحروب والاختلاف فلم يحضر عند أحد من السلاطين السلجوقية وعظم شأنه وقوي
أمره وتزوج بأم الملك أرسلان شاه فولدت له أولادا منهم البهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان وقد
ذكرنا سبب انتقال أرسلان شاه اليه وبقي عنده الى الآن فلما خطب له بهمذان أرسل أيلدكز
الى بغداد يطلب الخطبة لارسلان شاه أيضا وأن تعاد القواعد الى ما كانت عليه أيام السلطان
مسعود فاهين رسوله وأعيد اليه على أقبح حالة وأما اينانج صاحب الري فان أيلدكز راسله
ولاطفه فاصطلحا وتحالفا على الاتفاق وتزوج البهلوان بن أيلدكز بابنة اينانج ونقلت اليه بهمذان

﴿ذكر الحرب بين آقسنقر وعسكر أيلدكز﴾

لما استقر الصلح بين أيلدكز واينانج أرسل الى ابن آقسنقر الاحمديلي صاحب مراغة يدعوه الى
الحضور في خدمة السلطان أرسلان شاه فامتنع من ذلك وقال ان كففتم عني والا فعندي سلطان
وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود كما ذكرناه وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطمعه في الخطبة لولد
محمود شاه فجهز أيلدكز عسكرا مع ولده البهلوان فبلغ الخبر الى ابن آقسنقر فأرسل الى شاه أرمن
صاحب خلاط وحالفه وصارا يدا واحدة فسير اليه أرمن عسكرا كثيرا واعتذر عن تأخره بنفسه
لانه في ثغر لا يمكنه مفارقته فقوي بهم ابن آقسنقر وكثر جمعه وسار نحو البهلوان فالتقيا على نهر
اسبيرود فاشتد القتال بينهم فانهزم البهلوان أقبح هزيمة ووصل هو وعسكره الى همذان على أقبح

صورة

فقتل منهم ثمانية وعشرين
رجلا وقتل من المسلمين
رجلان وكان فتح مكة يوم
الجمعة لعشر بقين من
رمضان قال أبو حنيفة
فتحت صلحا وقال الشافعي
قهرا بالسيف وكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال
من دخل دار أبي سفيان
فهو آمن ومن دخل
المسجد فهو آمن ومن
دخل دار حكيم بن حزام فهو
آمن ومن أغلق بابه فهو
آمن فلما دخل رسول الله
صلى الله عليه وسلم مكة
قال لقريش ما ترون اني صانعا
بكم قالوا انك خير أخ
كريم وابن أخ كريم فقال
اذهبوا فانتم الطلقاء وطاف
رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالبيت سبعا على
راحلته واستلم الحجر بمحجن
كان في يده ودخل الكعبة
وطمس ما بها من الصور
وصلى فيها (وأهدر) دم
ستة رجال أولهم عكرمة
ابن أبي جهل فاستأمنت
له زوجته أم حكيم فامنه
وقدم عكرمة وأسلم وثانيهم
هبار بن الاسود وثالثهم
عبد الله بن سعد بن أبي
سرح أخو عثمان بن عفان
من الرضاعة فاتى به عثمان
وسأل فيه رسول الله فسكت
طويلا ثم أمنه فاسلم وقال

صلى الله عليه وسلم لاصحابه انما صمت له طويلا ليقوم له أحد فيقتله فقالوا هلا أشرت الينا فقال ان

صورة واستأمن أكثر أصحابه الى ابن آقسنقر وعاد الى بلاده منصورا

﴿ذكر الحرب بين ايلدكز واينانج﴾

لما مات ملكشاه ابن السلطان محمود كما ذكرناه أخذ طائفة من أصحابه ابنه محمودا وانصرفوا به نحو
بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلغري فأخذه منهم وتركه في قلعة اصطخر
فلما ملك ايلدكز والسلطان أرسلان شاه الذي معه البلاد وأرسل ايلدكز الى بغداد يطلب
الخطبة للسلطان كما ذكرناه شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير الخليفة في
اثارة أصحاب الاطراف عليه وراسل الاحمديلي وكان ما ذكرناه وكاتب زنكي بن دكلا صاحب
بلاد فارس يبذل له ان يخطب للملك الذي عنده وهو ابن ملكشاه وعلق الخطبة له بظفره بايلدكز
فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة وضرب الطبل على بابه خمس نوب وجمع
عساكره وكاتب اينانج صاحب الري يطلب منه الموافقة وسمع ايلدكز الخبر فحشد وجمع وكثر
عسكره وجموعه فكانت أربعين ألف فارس الى اصفهان يريد بلاد فارس وأرسل الى زنكي ابن
دكلا يطلب منه الموافقة وان يعود يخطب لارسلان شاه فلم يفعل وقال ان الخليفة قد أقطعني
بلاده وأنا سائر اليه فرحل ايلدكز وبلغه ان جشير الارسلان بوقا وهو أمير من أمراء زنكي وفي
اقطاعه ارجان بالقرب منه فأنفذ سرية للغارة عليه فاتفق ان ارسلان بوقا عزم على تغيير الخيل
التي معه فاضعفها وأخذ عوضها من ذلك الجشير فسار في عسكره الى الجشير فصادف العسكر الذي
سيره ايلدكز لاخذ دوابه فقاتلهم وأخذهم وقتلهم وأرسل الرؤس الى صاحبه فكتب بذلك
الى بغداد وطلب المدد فوعد بذلك وكان الوزير عون الدين بن هبيرة أيضا قد كاتب الامراء الذين
مع ايلدكز يبعثهم على طاعته ويضعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة زنكي بن دكلا واينانج
وكان اينانج قد برز من الري في عشرة آلاف فارس فأرسل اليه ابن آقسنقر الاحمديلي خمسة
آلاف فارس وهرب ابن البازدار صاحب قزوين وابن طغيرك وغيرهما فلحقوا باينانج وهو في
صحراء ساوة وأما ايلدكز فانه استشار نصحاءه فأشاروا بقصد اينانج لانه أهم فرحل اليه ونهب
زنكي سميرم وغيرها فرد ايلدكز اليه أميرا في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد فسار زنكي
اليهم فلقيهم وقاتلهم فانهزم عسكر ايلدكز اليه فتجلد ايلدكز وأرسل يطلب عساكر اذربيجان
فجاءه مع ولده قزل ارسلان وسير زنكي بن دكلا عسكرا كثيرا الى اينانج واعتذر عن الحضور
بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شملة صاحب خوزستان فسار ايلدكز الى اينانج وتدانى العسكران
فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة اينانج فانهزم أقبح هزيمة وقتلت
رجاله ونهبت أمواله ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك وحصر ايلدكز الري ثم شرع في الصلح
واقترح اينانج اقتراحات فأجابه ايلدكز اليها وأعطاه جرباذقان وغيرها وعاد ايلدكز الى همذان
وكان ينبغي ان تتأخر هذه الحادثة والتي قبلها وانما قدمت لتتبع أخواتها

﴿ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد﴾

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري ملك الغور
بعد انصرافه عن غزنة وكان عادلا من أحسن الملوك سيرة في رعيته ولما مات ملك بعده ابنه
سيف الدين محمد وأطاعه الناس وأحبوه وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الاسماعيلية
وكثر اتباعهم فأخرجهم من تلك الديار جميعها ولم يبق فيها منهم أحد وراسل الملوك وهاداهم
واستمال المؤيد آي ابه صاحب نيسابور وطلب موافقته

الانبياء لا يكون لهم خائنة
الاعين وهذا عبد الله كان
قد أسلم قبل الفتح وكتب
الوحي وكان يبدل القرآن
ثم ارتد وعاش الى خلافة
عثمان وولاه مصر ورابعهم
ابن صبابة مقيس الانصاري
الذي قتل أخاه خطأ وارتد
وخامسهم عبد الله بن خطل
وكان قد أسلم ثم قتل مسلما
ثم ارتد وسادسهم الحويرث
ابن نفيل كان يؤذي
رسول الله ويهجوه فلقيه
علي بن أبي طالب فقتله
واهدر دم أربع نسوة
احداهن هند زوجة أبي
سفيان أم معاوية التي
أكلت من كبد حمزة
فتنكرت مع نساء من
قريش وبايعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلما
عرفها قالت انا هند فاعف
عما سلف فعفا عنها ولما
جاء وقت الظهر يوم الفتح
أذن بلال على ظهر الكعبة
فقال الحرث بن هاشم
ليتني مت قبل هذا وقال
عتاب بن أسيد لقد أكرم
الله أبي فلم ير هذا اليوم
فخرج عليهم رسول الله
وذكر لهم ما قالوه فقال
الحرث بن هشام اشهد
انك رسول الله والله ما اطلع
على هذا أحد فنقول أخبرك
ومن النساء المهدرات
الدم أيضا سارة مولاة بني

هاشم التي حملت كتاب حاطب (وفي هذه السنة) كانت غزوة حنين واد بينه وبين مكة ثلاثة أميال

﴿ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها﴾

كان أهل العيث والفساد بنيسابور قد طمعوا في نهب الاموال وتخريب البيوت وفعل ما أرادوا فاذا نهبوا لم ينتهوا فلما كان الآن تقدم المؤيد أي ابه بقبض أعيان نيسابور منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وغيره وحبسهم في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وقال أنتم الذين أطمعتم الرنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال ولو أردتم منعهم لامتنعوا وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالكلية ومن جملة ما خرب مسجد عقيل وكان مجمعا لاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة وكان من أعظم منافع نيسابور وخرب أيضا من مدارس الحنفية ثمان مدارس ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة وأحرق خمس خزائن للكتب ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الاثمان هذا ما أمكن احصاؤه سوى ما لم يذكر

﴿ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان﴾

في هذه السنة في جمادى الآخرة قصد السلطان محمود بن محمد الخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وقد ذكرنا أنه ملك خراسان بعده في هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشاذياخ وكان الغز مع السلطان محمود فدامت الحرب الى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم ان محمودا أظهر انه يريد دخول الحمام فدخل الى شهرستان آخر شعبان كالهارب من الغز وأقاموا على نيسابور الى آخر شوال ثم عادوا راجعين فعاثوا في القرى ونهبوها ونهبوا طوس نهبا فاحشا واحضروا المشهد الذي لعلي بن موسى وقتلوا كثيرا ممن فيه ونهبوهم ولم يعرضوا للقبة التي فيها القبر ولما دخل السلطان محمود الى نيسابور أمهله المؤيد الى ان دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة وأخذه وكحله وأعماه وأخذ ما كان معه من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة وكان يخفيها خوفا عليها من الغز لما كان معهم وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها مما هو في تصرفه وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله وأخذ ابنه جلال الدين محمدا الذي كان قد ملكه الغز أمرهم قبل أبيه وقد ذكرنا ذلك وسمله أيضا وسجنهما ومعهما جواريهما وحشمهما وبقيا فيه فلم تطل أيامهما ومات السلطان محمود ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت أبيه والله أعلم

﴿ذكر عمارة شاذياخ نيسابور﴾

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان أميرا على خراسان للمأمون وسبب عمارتها انه رأى امرأة جميلة تقود فرسا تريد سقيه فسألها عن زوجها فأخبرته به فأحضره وقال له خدمة الخيل بالرجال أشبه فلم تقعد أنت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك فبكى الرجل وقال له ظلمك يحملنا على ذلك فقال وكيف قال لانك تنزل الجند معنا في دورنا فان خرجت انا وزوجتي بقي البيت فارغا فيأخذ الجندي ما لنا فيه وان سقيت انا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجندي فرأيت ان أقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس فعظم الامر عليه وخرج من البلد لوقته ونزل في الخيام وأمر الجند فخرجوا من دور الناس وبنى شاذياخ دارا له ولجنده وسكنها وهم معه ثم انها دثرت بعد ذلك فلما كان أيام السلطان الب أرسلان ذكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها ثم انها تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ولم يمكن حفظها والغز تطرق البلاد وتنهبها أمر المؤيد حينئذ بعمل سورها وسد ثلمه وسكناه ففعل ذلك وسكنها هو والناس معه وخربت حينئذ نيسابور كل خراب ولم يبق فيها اثنان

وذلك انه لما فتحت مكة تجمعت هوازن بحريمهم وأموالهم ومقدمهم مالك ابن عوف النصري وانضمت اليهم ثقيف أهل الطائف وبنو سعد بن بكر ومع بني جشم منهم دريد بن الصمة وكان شيخا فانيا جاوز المائة وأنشد

يا ليتني فيها جذع
أخب فيها وأضع

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم خرج في ست من شوال وكان يقصر الصلاة بمكة الى حين خرج في اثني عشر ألفا ألفان من مكة والعشرة التي كانت معه وكان صفوان بن أمية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن أسلم كان سأل ان يمهل بالاسلام شهرين فاجيب واستعار منه رسول الله مائة درع وحضرها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا جماعة من المشركين وانتهى رسول الله الى حنين والمشركون بأوطاس وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلته الدلدل فقال شخص من المسلمين لما رأى كثرة المسلمين لن يغلب هؤلاء من قلة فلما التقى الجمعان انكشفت المسلمون لا يلوي أحد على

أحد وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين في نفر من قريش والانصار وأهل بيته وأظهر أهل مكة ما في

﴿ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك﴾

في هذه السنة في شهر رمضان قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الارمني وزير العاضد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله انه تحكم في الدولة التحكم العظيم واستبد بالامر والنهي وجباية الاموال اليه لصغر العاضد ولانه هو الذي ولاه ووتر الناس فانه أخرج كثيرا من أعيانهم وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ثم انه زوج ابنته من العاضد فعاداه أيضا الحرم من القصر فأرسلت عمة العاضد الاموال الى أمراء المصريين ودعتهم الى قتله وكان أشدهم عليه في ذلك انسان يقال له ابن الداعي فوقفوا له في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة الا انه حمل الى داره وفيه حياة فأرسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره في خلافته فاقسم العاضد انه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريا فسلم عمتك الي حتى انتقم منها فأمر بأخذها فأرسل اليها فأخذها قهرا واحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد وفاة أبيه وللصالح أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها في الافتخار

أبى الله الا ان يدوم لنا الدهر * ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى الوفه * ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة * قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما اننا في السلم نبذل جودنا * ويرتع في انعامنا العبد والحر

وكان الصالح كريما فيه أدب له شعر جيد وكان لاهل العلم عنده انفاق ويرسل اليهم العطاء الكثير بلغه ان الشيخ أبا محمد بن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره وهو هذا

تجنب سمعي ما يقول العواذل * وأصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز اليه هدية سنية ليرسلها اليه فقتل قبل ارسالها وبلغه أيضا ان انسانا من أعيان الموصل قد اثنى عليه بمكة فأرسل اليه كتابا يشكره ومعه هدية وكان الصالح اماميا لم يكن على مذهب العلويين المصريين ولما ولي العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل انهم يفرحون بالخليفة فقال كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا وما علموا أنني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم قال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولني قرطاسا فيه بيتان من شعره وهما

نحن في غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعري متى يكون الحمام

فكان آخر عهدي به وقال عمارة أيضا ومن عجيب الاتفاق أنني انشدت ابنه قصيدة أقول فيها

أبوك الذي تسطو الليالي بحده * وأنت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومنال
تخالسك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

فانتقل الامر اليه بعد ثلاثة أيام

﴿ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد﴾

في هذه السنة في شهر رمضان اجتمعت خفاجة الى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام

نفوسهم من الحقد فقال أبو سفيان لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وكانت الازلام معه في كنانته وصرخ كلدة الآن بطل السحر وهو أخو صفوان ابن أمية لامه وكان صفوان يومئذ مشركا فقال له صفوان اسكت فض الله فاك لان يربني رجل من قريش أحب الي من ان يربني رجل من هوازن واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتا وتراجع المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبغلته دلدل البدي البدي فوضعت بطنها بالارض وأخذ حفنة من تراب ورمى بها في وجه العدو فكانت الهزيمة ونصر الله المسلمين وأثخنوا في المشركين قتلا وأسرا وكان في السبي حليمة مرضعة رسول الله وبنتها الشيماء فعرفها حين أرته عضته صلى الله عليه وسلم في ظهرها وبسط لها رداءه وردها الى قومها بسؤالها ولما انكسرت ثقيف انهزمت الى الطائف فتبعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاغلقوا باب مدينتهم فحاصرهم نيفا وعشرين يوما ثم قطع

والتمر وغير ذلك فتبعهم أمير الحاج ارغش وهو مقطع الكوفة ووافقه على منعه الامير قيصر شحنة الحلة وهما من مماليك الخليفة فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والحلة فأسرى اليهم الامير قيصر شحنة الحلة فى مائتين وخمسين فارسا وخرج اليه ارغش فى عسكر وسلاح فانتزحت خفاجة من بين أيديهم وتبعهم العسكر الى رحبة الشام فأرسل خفاجة يعتذرون ويقولون قد قنعنا بلبن الابل وخبز الشعير وأنتم تمنعونا رسومنا وطلبوا الصلح فلم يجبهم ارغش وقيصر وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وأرسلت العرب طائفة الى خيام العسكر ورحالهم فحالوا بينهم وبينها وحمل العرب حملة منكرة فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الامير قيصر وأسرت جماعة أخرى وجرح أمير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شحنتها وأخذ له الامان وسيره الى بغداد ومن نجا مات عطشا فى البرية وكان اماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى فاذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه فخرج فى طلب خفاجة فدخلوا البرية وخرجوا الى البصرة ولما دخلوا البر عاد الوزير الى بغداد وأرسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون بغى علينا وفارقنا البلاد فتبعونا واضطررنا الى القتال وسألوا العفو عنهم فأجيبوا الى ذلك

﴿ذكر حصر المؤيد شارستان﴾

فى هذه السنة حصر المؤيد أى أبه مدينة شارستان قرب نيسابور وقاتله أهلها ونصب المجانيق والعرادات فصبر أهلها خوفا على أنفسهم من المؤيد وكان مع المؤيد جلال الدين الموفق الفقيه الشافعى فبينما هو راكب اذ وصل اليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة وتعدى الحجر منه الى شيخ من شيوخ بيهق فقتله فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على أهل العلم خصوصا أهل السنة والجماعة وكان فى عنفوان شبابه رحمه الله لما قتل ودام الحصار الى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجكى صاحبها بعدما كثر القتل ودام الحصر وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم أرباب النهى والامر وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها أحدهم خواجكى هذا والثانى داعى بن محمد ابن أخى حرب العلوى والثالث الحسين بن أبى طالب العلوى الفارسى فنزلوا كلهم أيضا الى المؤيد أى ابه فيمن معهم من أشياعهم وأتباعهم فأما خواجكى فانه أثبت عليه انه قتل زوجته ظلما وعدوانا وأخذ مالها فقتل بها وملك المؤيد شارستان وصفت له فنهبها عسكره الا انهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوها

﴿ذكر ملك الكرج مدينة انى﴾

فى هذه السنة فى شعبان اجتمعت الكرج مع ملكهم وساروا الى مدينة انى من بلاد اران وملكوها وقتلوا فيها خلقا كثيرا فانتدب لهم شاه أرمن بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط وجمع العساكر واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير وسار اليهم فلقوه وقاتلوه فانهزم المسلمون وقتل أكثرهم وأسر كثير منهم وعاد شاه ارمن مهزوما لم يرجع معه غير أربعمائة فارس من عسكره

﴿ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى﴾

كان أمير مكة هذه السنة قاسم بن فليتة بن قاسم بن أبى هاشم العلوى الحسينى فلما سمع بقرب الحجاج من مكة صادر المجاورين وأعيان أهل مكة وأخذ كثيرا من أموالهم وهرب من مكة خوفا من أمير الحاج أرغش وكان قد حج هذه السنة زين الدين على بن بكتكين صاحب جيش

أعناب بنى ثقيف ورحل عنهم نصيبه ونصيب بنى المطلب ورد الناس أبناءهم ونساءهم ثم لحق مالك بن عوف برسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن اسلامه واستعمله على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل وكان عدة السبى الذى أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة آلاف نسمة ثم قسم الاموال وكان عدة الابل أربعة وعشرين ألف بعير والغنم أكثر من أربعين ألفا والفضة أربعة آلاف أوقية وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم مثل أبى سفيان وابنيه يزيد ومعاوية والاقرع بن حابس التميمى وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وعمه الحرث بن هشام وصفوان بن أمية هؤلاء من قريش وعيينة بن حصن الفزارى ومالك بن عوف مقدم هوازن وأمثالهم لكل واحد من أشرافهم مائة من الابل ومن دونهم أربعين وأعطى العباس بن مرداس أباعر لم يرضها فانشد

فاصبح نهبى ونهب العبيد بين عيينة والاقرع

الموصل ومعه طائفة صالحة من العسكر فلما وصل أمير الحاج الى مكة رتب مكان قاسم بن فليتة عمه عيسى بن قاسم بن هاشم فبقى كذلك الى شهر رمضان ثم ان قاسم بن فليتة جمع جمعا كثيرا من العرب أطمعهم فى مال له بمكة فاتبعوه فسار بهم اليها فلما سمع عمه عيسى فارقها ودخلها قاسم فاقام بها أميرا أياما ولم يكن له مال يوصله الى العرب ثم انه قتل قائدا كان معه حسن السيرة فتغيرت نيات أصحابه عليه وكاتبوا عمه عيسى فقدم عليهم فهرب وصعد جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم عليه قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليتة واستقر الامر بعده لعيسى والله أعلم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة سار عبد المؤمن بن على الى جبل طارق وهو على ساحل الخليج مما يلى الاندلس فعبر المجاز اليه وبنى عليه مدينة حصينة وأقام بها عليه عدة شهور وعاد الى مراكش وفيها فى المحرم ورد نيسابور جمع كثير من تركمان بلاد فارس ومعهم اغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن ونزلوا على مرحلتين من طابس كنكلى وباتوا هناك فنزل اليهم الاسماعيلية وكبسوهم ليلا ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأكثروا ولم ينج منهم الا الشريد وغنم الاسماعيلية جميع ما معهم من مال وعروض وعادوا الى قلاعهم وفيها كثرت الامطار فى أكثر البلاد ولاسيما خراسان فان الامطار توالت فيها من العشرين من المحرم الى منتصف صفر لم تنقطع ولا رأى الناس فيها شمسا وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن على صاحب ارزن الروم قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره وأسر هو وكانت أخته شاه بانوار قد تزوجها شاه ارمن بن سكمان بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط فارسلت الى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت منه ان يفاديها باخيها فاطلقه فعاد الى ملكه وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود صاحب الشام ملتجئا اليه فامنه وسير معه عسكرا يمنعه من الفرنج أيضا فظفر عليهم فى الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم الباقون وفيها ملك قرا ارسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان وكانت لطائفة من الاكراد يقال لهم الجونية فلما ملكها اخربها وأضاف ولايتها الى حصن طالب وفيها توفى الكمال حمزة بن على بن طلحة صاحب المخزن كان جليل القدر أيام المسترشد بالله وولى المقتفى وبنى مدرسة لاصحاب الشافعى بالقرب من داره ثم حج وعاد وقد ابس الفوط وزى الصوفية وترك الاعمال فقال بعض الشعراء فيه

يا عضد الاسلام يا من سمت * الى العلا همته الفاخره

كانت لك الدنيا فلم ترضها * ملكا فاخلدت الى الآخره

وبقى منقطعا فى بيته عشرين سنة ولم يزل محترما يغشاه الناس كافة

﴿ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها﴾

فى هذه السنة فى السابع والعشرين من صفر نازل المؤيد أى ابه ابابكر جاندار بقلعة وسكرة خوى من طوس وكان قد تحصن بها وهى حصينة منيعة لا ترام فقاتله وأعانه أهل طوس على أبى بكر لسوء سيرته كانت فيهم وظلمه فلما رأى أبو بكر ملازمة المؤيد ومواصلة القتال عليه خضع وذل ونزل من القلعة بالامان فى العشرين من ربيع الاول من السنة فلما نزل منها حبسه المؤيد وامر بتقييده ثم سار منها الى كرستان وصاحبها أبو بكر فاخر فنزل من قلعته وهى من أمنع الحصون على

يفوقان مرداس فى مجمع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه فأعطى حتى رضى ثم اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاد الى المدينة واستخلف على مكة عتاب ابن أسيد وعمره دون عشرين سنة وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس وفى ذى الحجة من هذه السنة ولد ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها مات حاتم الطائى (وفى سنة تسع) قدم عروة ابن مسعود الثقفى وأسلم وسأل أن يكون داعيا قومه الى الاسلام فقال له رسول الله انهم قاتلوك فاختار المضى اليهم بالطائف فقتلوه وفيها قدم كعب بن زهير الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمه بسبب أبيات بعثها الى أخيه بجير وامتدح رسول الله بقصيدته المشهورة التى أولها

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

فاسلم وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته فاشتراها معاوية فى خلافته من أهل كعب باربعين ألفا وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون

رأس جبل عال وصار في طاعة المؤيد ودان له ووافقه وسير جيشا في جمادى الآخرة منها الى اسفراين فتحصن رئيسها عبد الرحمن بن محمد بن علي الحاج بالقلعة وكان أبوه كريم خراسان على الاطلاق ولكن كان عبد الرحمن هذا بئس الخلف فلما تحصن أحاط به العسكر المؤيدي واستنزلوه من الحصن وحملوه مقيدا الى شاذياخ وحبس بها وقيل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وملك المؤيد أيضا قهندز نيسابور واستدارت مملكة المؤيد حول نيسابور وعادت الى ما كانت عليه قبل الان أهلها انتقلوا الى شاذياخ وخربت المدينة العتيقة وسير المؤيد جيشا الى خواف وبها عسكر مع بعض الامراء اسمه ارغش فكمن ارغش جمعا في تلك المضايق والجبال وتقدم الى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين فانهزم عسكر المؤيد وقتل منهم جمع وعاد الباقون الى المؤيد بنيسابور وسير جيشا الى بوشنج هراة وهي في طاعة الملك محمد بن الحسين الغوري فحصروها واشتد الحصار عليها وقام القتال والزحف فسير الملك محمد الغوري جيشا اليها ليمنع عنها فلما قاربوا هراة فارقها العسكر الذي يحصرها وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغورية

﴿ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها اليه﴾

في هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهي لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد وصار من أصحاب عبد المؤمن وفي طاعته وممن يحرضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة سار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الاندلس فارسل اليه ألفي فارس من انجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقواهم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول أبي سعيد اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم أبو سعيد واقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر وكان قد سار الى مدينة سلا فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذي أمر به ابن همشك أولا وهم ألفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فاقاموا في سفحه أياما ثم سير واسرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جهاتهم فما لحقوا يركبون فقتلوهم عن آخرهم وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك انهم لا طاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة في باقي السنة المذكورة وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا الى مراكش

﴿ذكر حصر نور الدين حارم﴾

في هذه السنة جمع نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام العساكر بحلب وسار الى قلعة حارم وهي للفرنج غربي حلب فحصرها وجد في قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة

حتى أخذها التتر وفي رجب من هذه السنة كانت غزوة تبوك أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مقصدهم وكان قبل ذلك نوري لغيره وكان في شدة الحر ولذلك سمي جيش العسرة وأمر المسلمين بالنفقة فانفق أبو بكر جميع ماله وأنفق عثمان نفقة عظيمة قيل كانت ألف دينار وثلثمائة بعير طعاما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ماضر عثمان ما صنع بعد هذا اليوم وتخلف عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق والثلاثة الذين تيب عليهم من الانصار كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا على أهله فقال المنافقون انما خلفه استثقالا له فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبوا انما خلفتك لما ورائي فارجع اما ترضى أن تكون منزلتك مني بمنزلة هرون من موسى الا انه لا نبي بعدي وكان مع رسول الله ثلاثون ألفا في عشرة آلاف فارس ووجدوا في الطريق شدة من العطش ونهاهم رسول الله عن ورود ماء الحجر وهي أرض ثمود وأمرهم ان يهريقوا ماءه وان يطعموا عجينه الابل ووصل الى تبوك وأقام بها عشرين ليلة وقدم عليه يوحنا

من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه اليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه فلما رأى انه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه الى المصاف عاد الى بلاده وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان من الشجاعة في الغاية فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد شيزر وكان قد دخله في العام الماضي سائرا الى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه

لك الحمد يا مولاي كم لك منة * علي وفضل لا يحيط به شكري

نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزو موفور النصيب من الاجر

ومنه رحلت العيس في عامي الذي * مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما * تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

﴿ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي﴾

في هذه السنة في رجب ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكي وسبب ذلك ان سنقر الهمذاني صاحبها اسلمها الى أحد مماليكه ومضى الى همذان فضعف هذا المملوك عن مقاومة ما حولها من التركمان والاكراد فاشير عليه ببيعها من الخليفة فراسل في ذلك فاستقرت على خمسة عشر الف دينار وسلاح وغير ذلك من الامتعة وعدة من القرى فسلمها وتسلم ما استقر له وأقام ببغداد وهذه القلعة لم تزل من ايام المقتدر بالله بايدي التركمان والاكراد الى الآن

﴿ذكر الحرب بين المسلمين والكرج﴾

في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج في خلق كثير يبلغون ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الاسلام وقصدوا مدينة دوين اذربيجان فملكوها ونهبوها وقتلوا من اهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا الى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين وقلن لهم قد احوجتم المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم وكسونهن ولما بلغ الخبر الى شمس الدين ايلدكز صاحب اذربيجان والجبل واصفهان جمع عساكره وحشدها وانضاف اليه شاه أرمن بن سكمان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة وغيرها فاجتمعوا في عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل وساروا الى بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين ونهبوها وسبوا النساء والصبيان وأسروا الرجال ولقيهم الكرج واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر وكان الظفر للمسلمين فانهزم الكرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك وكان سبب الهزيمة ان بعض الكرج حضر عند ايلدكز فاسلم على يديه وقال له تعطيني عسكرا حتى أسير بهم في طريق اعرفها واجيء الى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون فاستوثق منه وسير معه عسكرا وواعده يوما يصل فيه الى الكرج فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبينما هم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم فانهزموا وكثر القتل فيهم والاسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الاحصاء لكثرته فانهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم فخيب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها وعاد المسلمون منصورين قاهرين

﴿ذكر عدة حوادث﴾

صاحب أيلة فصالحه على الجزية فبلغت ثلثمائة دينار وصالح أهل أذرح على مائة دينار في كل سنة وأرسل خالد بن الوليد الى أكيدر ابن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانيا من كندة فاخذه خالد وقتل أخاه وأخذ منه ديباجا لقباء مخوصا بالذهب فجعل المسلمون يتعجبون منه وقدم باكيدر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن دمه وصالحه على الجزية وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة في شعبان وقدم عليه ثقيف وسألوا الاسلام وأن يعفوا من الصلاة ويترك لهم اللات والعزى ثلاث سنين ثم تركوا الى شهر فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا خير في دين لا صلاة فيه ثم رضوا وأسلموا وارسل معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب ليهدما اللات فهدمها المغيرة وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها وفيها بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر ليحج بالناس ومعه ثلثمائة رجل وعشرون بدنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعليا يقرأ سورة براءة ويؤذن يوم الاضحى ان لا يحج مشرك ولا يطوف عريان وفيها توفي عبد الله المنافق (وفي سنة عشر) دخلت الناس في دين الله أفواجا

في هذه السنة وصل الحجاج الى منى ولم يتم الحج لاكثر الناس لصدهم عن دخول مكة والطواف والسعي فمن دخل يوم النحر مكة طاف وسعى وكمل ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة كان سببها ان جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم الى مكة وجمعوا جمعا وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريبا من ألف جمل فنادى أمير الحاج في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم فقتل جماعة ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد وعاد كثير من الناس رجالة لقتل الجمال ولقوا شدة وممن حج هذه السنة جدتنا أم أبينا ففاتها الطواف والسعي فاستفتى لها الشيخ الامام أبو القاسم بن البرزي فقال تدوم على ما بقي عليها من احرامها وان أحبت تفدي وتحل من احرامها الى قابل وتعود الى مكة فتطوف وتسعى فتكمل الحجة الاولى ثم تحرم احراما ثانيا وتعود الى عرفات فتقف وترمي الجمار وتطوف وتسعى فتصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها الى قابل وحجت وفعلت كما قال فتم حجها الاول والثاني وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار أواخر نيسان وكان أكثره بجوين ونيسابور وما والاهما فاهلك الغلات ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام وفيها في جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد احترق سوق الطيوريين والدور التي تليه مقابله الى سوق الصفرة الجديد والخان الذي في الرحبة ودكاكين البزوريين وغيرها وفيها توفي الكيا الصباحي صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية وقام ابنه مقامه فاظهر التوبة وأعاده هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان وأرسلوا الى قزوين يطلبون من يصلي بهم ويعلمهم حدود الاسلام فارسلوا اليهم وفيها في رمضان درس شرف الدين يوسف الدمشقي في المدرسة النظامية ببغداد وكان مدرسا بمدرسة أبي حنيفة وكان موته في ذي القعدة وفيها توفي صدقة ابن وزير الواعظ وفيها في المحرم توفي الشيخ عدي بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من اعمال الموصل وهو من الشام من بلد بعلبك فانتقل الى الموصل وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحي وأطاعوه وحسنوا الظن فيه وهو مشهور جدا

﴿ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده﴾

في هذه السنة في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي صاحب مصر وكان ابتداء أمره ووزارته انه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فاقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال بعد الوزارة فلما ولي الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل انه لا يغير على شاور فانني انا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكني عزله فلا تغير واما به فيكون لكم منه ما تكرهون فلما توفي الصالح من جراحته وولي ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فارسل اليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فأخذ وقتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهرا واياما وصار شاور وزيرا وتلقب بامير الجيوش وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم وذخائرهم وأخذ منه أيضا طي والكامل ابنا شاور شيئا كثيرا وتفرق كثير منها وجد

وظهرت

وأسلم أهل اليمن وملوك حمير وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا الى اليمن فاستسلم من بها وأخذ صدقات نجران وجزيتهم وعاد فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع والاظهر عند العلماء انه كان قارنا وعلم الناس مناسك الحج وخطب الناس بعرفة خطبة بين فيها الاحكام منها انما النسيء زيادة في الكفر وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله وأنزل الله اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وأنزل اليوم يئس الذين كفروا من دينكم وسميت حجة الوداع لانه لم يحج بعدها ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وفيها توفي ابراهيم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمره سنة وعشرة أشهر

(وفي سنة احدى عشرة)

ابتدأ برسول الله مرضه الذي توفي فيه لليلتين بقيتا من صفر ولما اشتد وجعه قال مروا أبا بكر فليصل بالناس وقال ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده فتنازعوا وكانت الرزية فيما حال بينهم وبين كتاب رسول الله وأخبر صلى الله عليه

وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ثم ان الضرغام جمع جموعا كثيرة ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان وظهر أمره وانهزم شاور منه الى الشام على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصار ضرغام وزيرا كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك وشاور وضرغام فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين لتخلوله البلاد من منازع فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم

﴿ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف﴾

في هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة توفي عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب وافريقية والاندلس وكان قد سار من مراكش الى سلا فمرض بها ومات ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم قد جربت ابني محمدا فلم أره يصلح لهذا الامر وانما يصلح له ابني يوسف وهو أولى بها فقدموه ووصاهم به وبايعوه ودعي باميرالمؤمنين وكتموا موت عبد المؤمن وحمل من سلا في محفة بصورة مريض الى ان وصل الى مراكش وكان ابنه أبو حفص في تلك المدة حاجبا لابيه فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ويوسف يقعد مقعد أبيه الى ان كملت المبايعة له في جميع البلاد واستقرت قواعد الامور له ثم أظهر موت أبيه عبد المؤمن فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهورا وكان عاقلا حازما سديد الرأي حسن السياسة للامور كثير البذل للاموال الا أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الاشعري في الاصول وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين المرجع اليهم والكلام معهم ولهم

﴿ذكر ملك المؤيد اعمال قومس والخطبة للسلطان ارسلان بخراسان﴾

في هذه السنة سار المؤيد أي أبه صاحب نيسابور الى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان واستناب بقومس مملوكه تنكز فأقام تنكز بمدينة بسطام فجرى بين تنكز وبين شاه مازندران اختلاف أدى الى الحرب فجمع كل منهما عسكره والتقوا أوائل ذي الحجة في هذه السنة واقتتلوا فانهزم عسكر مازندران وأخذت اسلابهم وقتل منهم طائفة كبيرة ولما ملك المؤيد بلاد قومس أرسل اليه السلطان ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعا نفيسة وألوية معقودة وهدية جليلة وامره ان يهتم باشعاث بلاد خراسان ويتولى ذلك اجمع وان يخطب له فلبس المؤيد الخلع فخطب له في البلاد التي هي بيده وكان السبب في هذا اتابك شمس الدين ايلدكز فانه كان هو الذي يحكم في مملكة ارسلان وليس لارسلان غير الاسم وكان بين ايلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما أطاع المؤيد السلطان ارسلان خطب له ببلاده وهي قومس ونيسابور وطوس واعمال نيسابور جميعها ومن نسا الى طبس كنكلي وكان يخطب لنفسه بعد ارسلان وكانت الخطبة في جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن ارسلان بن اتسز وبعده للامير ايثاق وكانت الخطبة في مرو وبلخ وهراة وسرخس وهذه البلاد بيد الغز الى هراة فانها بيد الامير ايتكين وهو مسالم للغز فكانوا يخطبون للسلطان سنجر فيقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد المبارك سنجر وبعده للامير الذي هو الحاكم في تلك البلاد

﴿ذكر قتل الغز ملك الغور﴾

وسلم بقتل الاسود العنسي ساعة قتله قبل موته عليه السلام بيوم وليلة وهذا الاسود اسمه عبهلة بن كعب ولقبه ذو الخمار لانه كان يقول يأتيني ذو خمار وكان يشعبذ ويري الجهال الاعاجيب ويسلب عقولهم بمنطقه وكان قد أسلم ثم ارتد وكاتبه أهل نجران وسار منها الى صنعاء فملكها واستفحل أمره وكان خليفته في مذحج عمرو بن معديكرب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رسولا الى الانباران يستعينوا على قتله برجال من حمير وهمدان فاجتمعوا بقيس ابن عبد يغوث فوافقهم هو وامرأة الاسود العنسي على قتله فانه كان قتل أباها فنقبوا عليه البيت ودخل رجل اسمه فيروز فقتل الاسود واحتز رأسه فخار فقامت الحرس فقالت أم زوجته ان الوحي ينزل عليه فسكنوا فلما أصبح الصباح أذن المؤذن أشهد أن محمدا رسول الله وأن عبهلة كذاب فأعلم الله نبيه بذلك وهو في مرضه ثم ان رسول الله نعى نفسه للمسلمين واستحل منهم وأوصى بالانصار وقال ان عبدا خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله يعني نفسه وعند وفاته رفع بصره الى السماء وقال

صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول

فى هذه السنة فى رجب قتل سيف الدين محمد بن الحسين الغورى ملك الغور وقتله الغز وسبب ذلك انه جمع عساكره وحشد فاكثر وسار من جبال الغور يريد الغز وهم ببلخ واجتمعوا وتقدموا اليه فاتفق ان ملك الغور خرج من معسكره فى جماعة من خاصته جريدة فسمع به أمراء الغز فساروا وايطلبونه مجدين قبل ان يعود الى معسكره فاوقعوا به فقاتلهم أشد قتال رآه الناس فقتل ومعه نفر ممن كان معه وأسر طائفة وهربت طائفة فلحقوا بعسكرهم وعادوا الى بلادهم منهزمين لا يقف الاب على أبيه ولا الاخ على أخيه وتركوا كل ما معهم بحاله ونجوا بنفوسهم فكان عمر ملك الغور لما قتل نحو عشرين سنة وكان عادلا حسن السيرة فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم انه حاصر أهل هراة فلما ملكها أراد عسكره ان ينهبوها فنزل على درب المدينة واحضر الاموال والثياب فاعطى جميع عسكره منها وقال هذا خير من ان تنهبوا أموال المسلمين وتسخطوا الله تعالى فان الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم ولما قتل عاد الغز الى بلخ ومرو وقد غنموا شيأ كثيرا من العسكر الغورى لان أهله تركوه ونجوا

﴿ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج﴾

فى هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكى من الفرنج تحت حصن الاكراد وهى الوقعة المعروفة بالبقيعة تحت حصن الاكراد محاصرا له وعازما على قصد طرابلس ومحاصرتها فبينما الناس يوما فى خيامهم وسط النهار لم يرعهم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه حصن الاكراد وذلك ان الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا فانهم يكونون آمنين فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون الا وقد قربوا منهم فارادوا منعهم فلم يطيقوا فارسلوا الى نور الدين يعرفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج فى ظهورهم فوصلوا معا الى العسكر النورى فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم فاكثروا القتل والاسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومى فانه كان قد خرج من بلاده الى الساحل فى جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين فى زعمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه ولسرعته ركب الفرس والشبحة فى رجله فنزل انسان كردى قطعها فنجا نور الدين وقتل الكردى فاحسن نور الدين الى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة قدس بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربع فراسخ وتلاحق به من سلم من العسكر وقال له بعضهم ليس من الرأى ان تقيم ههنا فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء الينا فنؤخذ ونحن على هذا الحال فوبخه وأسكته وقال اذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا ابالى بهم ووالله لا استظل بسقف حتى آخذ بثارى وثار الاسلام ثم أرسل الى حلب ودمشق وأحضر الاموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فاعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم فعاد العسكر كان لم تصبه هزيمة وكل من قتل أعطى اقطاعه لاولاده واما الفرنج فانهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لانها أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا لم يفعل هذا الا وعنده قوة يمنعنا بها ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه قال له بعضهم ان لك فى بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت فى هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال والله انى لا ارجو النصر الا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى بسهام لا تخطى

وأصرفها

اللهم الرفيق الاعلى وتوفى وعمره ثلاث وستون على الصحيح قبل البعثة أربعون سنة وقبل الهجرة ثلاث عشرة سنة وبعدها عشرة ودفن ليلة الاربعاء تحت فراشه فى بيت عائشة وولى غسله وهو فى قميصه لم يجرد عنه على بن أبى طالب هو يغسله والعباس وابناه الفضل وقثم يقلبونه وأسامة وشقران يصبان الماء ولم يرمنه ما يرى من الميت فقال على بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا وكفن فى ثوبين سحوليين وبرد حبرة درج فيها درجا

(صفته صلى الله عليه وسلم) ليس بالطويل ولا بالقصير ضخم الرأس كث اللحية شثن الكفين والقدمين ضخم الكراديس مشربا وجهه بحمرة أدعج العينين سبط الشعر سهل الخدين كان عنقه ابريق فضة كان فى مقدم لحيته عشرون شعرة بيضاء وفى مفرق رأسه شعرات بيض وكان يخضب بالحناء والكتم وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة تشبه سائر جسده وقيل حمراء حولها شعرات وكان أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا يكثر الذكر ويقل اللغو دائم البشر يطيل

الصمت لين الجانب سهل الخلق يحب المساكين ولا يهاب الملوك يصابر

وأصرفها الى من لا يقاتل عنى الا اذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطى وهؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال كيف يحل لى ان أعطيه غيرهم ثم ان الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم

﴿ذكر اجلاء بنى أسد من العراق﴾

فى هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله باهلاك بنى أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم ولما كان فى نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمد لما حصر بغداد فامر يزدن بن قماج بقتالهم واجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين فى البطائح والاوير فلا يقدر عليهم فتوجه يزدن اليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل وأرسل الى ابن معروف مقدم المنتفق وهو بارض البصرة فجاء فى خلق كثير وحصرهم وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فارسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه الى موافقته فى التشيع وكان يزدن يتشيع فجد هو وابن معروف فى قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم فى الماء فاستسلموا حينئذ فقتل منهم أربعة آلاف قتيل ونودى فيمن بقى من وجد بعد هذا فى الحلة المزيدية فقد حل دمه فتفرقوا فى البلاد ولم يبق منهم بالعراق من يعرف وسلمت بطائحهم الى ابن معروف وبلادهم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة وقع فى بغداد حريق فى باب درب فراشا الى مشرعة الصباغين من الجانبين وفيها فى رجب توفى سديد الدولة أبو عبد الله بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم المعروف بابن الانبارى كاتب الانشاء بديوان الخلافة وكان فاضلا أديبا ذا تقدم كثير عند الخلفاء والسلاطين وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة الى الآن فى ديوان الخلافة وعاش حتى قارب تسعين سنة وتوفى فى رمضان هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز بن محمد المتوثى وسمع الحديث وهو من الشعراء المشهورين الا انه كثير الهجو ومن شعره

يامن هجرت ولا تبالى * هل ترجع دولة الوصال
هل أطمع يا عذاب قلبى * ان ينعم فى هواك بالى
الطرف كما عهدت باك * والجسم كما تريد بال
ماضرك ان تعلليني * فى الوصل بموعد المحال
أهواك وأنت حظ غيرى * يا قاتلتى فما احتيالى

وهى أكثر من هذا

﴿ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين الى ديار مصر وعودهم عنها﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرا كثيرا الى مصر وجعل عليهم الامير أسد الدين شيركوه بن شاذى وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وسنذكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده ان شاء الله تعالى وكان سبب ارسال هذا الجيش ان شاور وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر نازعه فى الوزارة ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه الى الشام ملتجئا الى نور الدين ومستجيرا به فاكرم مثواه وأحسن اليه وأنعم عليه وكان وصوله فى ربيع الاول من السنة وطلب منه ارسال العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر ويكون شيركوه

مجالسه ومسائله حتى يكون هو المنصرف يتفقد أصحابه ويسأل عما الناس فيه يحلب العنز ويجلس على الارض ويخصف النعل ويرقع الثوب وكان قد تزوج خمسة عشر امرأة دخل بثلاث عشرة منهن وجمع بين أحدى عشرة مات عن تسع عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وسودة بنت زمعة وزينب بنت جحش وميمونة وصفية وجويرية وأم حبيبة وأم سلمة وكان يكتب الوحى له احيانا عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وخالد بن سعيد بن العاص وابان بن سعيد والعلاء بن الحضرمى وأول من كتب له أبى بن كعب وكتب له زيد ابن ثابت وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ثم ارتد ثم أسلم بعد الفتح وكتب بعد الفتح معاوية بن ابى سفيان وكان له من السلاح سيفه ذو الفقار غنمه يوم بدر من منبه بن الحجاج السهمى وقيل من غيره وسمى ذو الفقار لفقر فيه وغنم من بنى قينقاع ثلاثة أسياف وقدم معه الى المدينة سيفان شهد بأحدهما بدرا وكان له ارماح ثلاثة وثلاث قسى ودرعان غنموهما من بنى قينقاع وكان له ترس فيه تمثال فاصبح وقد أذهب الله

مقيما بعساكره فى مصر و يتصرف هو بامر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا و يؤخر أخرى فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنج فيه وتخوف ان شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفى ثم قوى عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة عللها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى بمخافة فتجهز وسار واجتمعا وشاور فى صحبتهم فى جمادى الاولى من سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين الى شيركوه أن يعيد شاور الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنج مما يلى دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين والعساكر معه الى مدينة بلبيس فخرج اليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد الى القاهرة ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن فى القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد الى الوزارة وتمكن منها وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا وأرسل اليه يأمره بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه فلما رأى ذلك أرسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها فلما أرسل شاور يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك أسد الدين مصر أشد فتركوا فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فاعانوهم فسار بعضهم معهم وأقام بعضهم فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو ممتنع بها مع ان سورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها وهو يغاديهم القتال و يراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيأ فبينما هم كذلك اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس على ما نذكره ان شاء الله تعالى فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة فحدثنى من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال اخرج أصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون اليه قال فاتاه فرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وباصحابك ولا يبقى لكم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوه حتى

كنت

تعالى عنه وكان من أصحابه مشاهيرهم أبو هريرة وأبو ذر و واثلة بن الاسقع ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطربت الخلق وارتجت مكة وكادوا ان يرتدوا فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة ونادى يا أهل مكة كنتم آخر الناس اسلاما فلا تكونوا أول من ارتد والله ليتمن هذا الامر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم واختفى عتاب بن أسيد خوفا على نفسه وارتد أكثر العرب الا أهل مكة والمدينة مع الطائف وقال عمر بن الخطاب حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال انه مات علوت رأسه بسيفى فقرأ ابو بكر رضى الله عنه وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فرجع الناس الى قوله وبادروا سقيفة بنى ساعدة فبايع عمر أبا بكر وانثال الناس عليه فبايعوه وخلا جماعة من بنى هاشم والزبير وعتبة بن ابى لهب وخالد ابن سعيد بن العاص والمقداد بن الاسود وسلمان الفارسى وأبى ذر وعمار ابن ياسر والبراء بن عازب

كنت ترى ما افعله كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم فنملك بلادهم ونهلك من بقى والله لو أطاعنى هؤلاء لخرجت اليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام فوصل سالما وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق فى الطريق رصدا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة

أخذتم عن الافرنج كل ثنية * وقلتم لايدى الخيل مرى على مرى

لئن نصبوا فى البرج جسرا فانكم * عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولفظة مرى فى آخر البيت الاول اسم ملك الفرنج

﴿ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم﴾

فى هذه السنة فى شهر رمضان فتح نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم من الفرنج وسبب ذلك ان نور الدين لما عاد منهزما من البقيعة تحت حصن الاكراد كما ذكرناه قبل فرق الاموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ما تقدم فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا وأخذ فى الاستعداد للجهاد والاخذ بثاره واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم الى مصر كما ذكرناه فأراد ان يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر فارسل الى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة والى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا والى نجم الدين البى صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الاطراف يستنجدهم فاما قطب الدين فانه جمع عسكره وسار مجدا وفى مقدمته زين الدين على أمير جيشه وأما فخر الدين صاحب الحصن فبلغنى عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه على أى شئ عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقى نفسه فى المهالك فكلهم وافقه على هذا الرأى فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ما عدا مما بدا فارقناك أمس على حالة فنراك اليوم على ضدها فقال ان نور الدين قد سلك معى طريقا ان لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى وأخرجوا البلاد عن يدى فانه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم مالقى المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والاسر ويستمد منهم الدعاء و يطلب ان يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه واتباعه وهم يقرؤن كتب نور الدين و يبكون و يلعنوننى و يدعون على فلابد من المسير اليه ثم تجهز وسار بنفسه واما نجم الدين فانه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها فاجتمع من بقى بالساحل من الفرنج فجاؤا فى حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم وأقبلوا اليه من كل حدب ينسلون وكان المقدم عليهم البرنس بيمند صاحب انطاكية وقمص صاحب طرابلس وأعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه رحل عن حارم الى ارتاح طمعا ان يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم اذا لقوه فساروا فنزلوا على عمر ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا الى حارم فلما عادوا اتبعهم نور الدين فى ابطال المسلمين على تعبية الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأى دبروه وهو ان يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين

ابن نويرة وكان فارسا مطيقا شاعرا قدم على رسول الله تولاه صدقة قومه فارسل

بيت على ليحرقه على من فيه فلقيته فاطمة فقال ادخلوا فيما دخلت فيه الامة قال ابن واصل فخرج على الى أبى بكر وبايعه وقالت عائشة لم يبايع على أبا بكر حتى ماتت فاطمة فطلب على أبا بكر الى منزله فبايعه وفى أيام أبى بكر ادعت سجاح بنت الحرث بن سويد التميمية النبوة وأطاعها بنو تميم وأخوالها من تغلب وقصدت مسيلمة الكذاب وباتت عنده ثلاث ليال يزنى بها وهذا مسيلمة كان قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم ثم ارتد وادعى النبوة باليمامة استقلالا ثم مشاركة النبى صلى الله عليه وسلم وجهز اليه أبو بكر جيشا وأمر عليهم خالد بن الوليد وجرى بينهم قتال شديد ثم قتل مسيلمة وحشى قاتل حمزة بالحربة وأما سجاح فلم تزل فى اخوالها بنى تغلب حتى أتت معاوية عام بويع فيه فاسلمت وحسن اسلامها وفى أيام أبى بكر جمع القرآن من الجلود والجريد ووضع فى مكتوب حفصة فلما ولى عثمان كتب بها نسخا وفرقها فى الامصار وفى أيام أبى بكر منعت بنو يربوع الزكاة وكان كبيرهم مالك

بالسيوف فاذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلا يلجؤن اليه ولا وزرا يعتمدون عليه ويعود المنهزمون فى آثارهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فكان الامر على ما دبروه فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف عليهم زين الدين على فى عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلا وأسرا وعادت خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على راجلهم فعاد المنهزمون فى آثارهم فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى وأسرى فسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد هلكوا وبقوا فى الوسط قد أحدق بهم المسلمون من كل جانب فاشتدت الحرب وقامت على ساق وكثر القتل فى الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الاسر فأسروا مالا يحد وفى جملة الاسرى صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة على المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل وأشار المسلمون على نور الدين بالمسير الى انطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يذب عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة فمنيعة وربما سلموها الى ملك الروم لان صاحبها ابن أخيه ومجاورة بيمند أحب الى من مجاورة صاحب قسطنطينية وبث السرايا فى تلك الاعمال فنهبوها وأسروا أهلها وقتلوهم ثم انه فادى برنس بيمند صاحب انطاكية واشترى من المسلمين خلقا كثيرا فأطلقهم

﴿ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج ايضا﴾

فى ذى الحجة من هذه السنة فتح نور الدين محمود قلعة بانياس وهى بالقرب من دمشق وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود الى بلادهم وأظهر انه يريد طبرية فجعل من بقى من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها فسار محمود الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران فأصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الاجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى وجد فى حصارها فسمع الفرنج فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الفرنج فى أعمال طبرية وقرروا له على الاعمال التى لم يشاطرهم عليها مالا فى كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصر بانياس الى الفرنج بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا الا وقد ملكها ولما عاد منها الى دمشق كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه فسقط من يده فى شعراء بانياس وهى كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد عن المكان الذى ضاع فيه علم به فأعاد أصحابه فى طلبه ودلهم على المكان الذى كان آخر عهده به فيه وقال أظنه هناك سقط فعادوا اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت

ان يمتر الشكاك فيك بأنك الـ * مهدى مطفى جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذى اضللته * بالامس بين غياطل وجبال
لم يعطها الا سليمان وقد * نبت الربا وشك الاجبال
وحرحر لسرير ملكك انه * كسريره عن كل حد عالى
فلو البحار السبعة استهوينه * وأمرتهن قذفنه فى الحال

اليه أبو بكر خالد بن الوليد فقال مالك انا آتى الصلاة دون الزكاة فقال خالد أما علمت ان الصلاة والزكاة معا لا يقبل أحدهما بدون الآخر فقال مالك أما لو كان صاحبكم يقول ذلك ثم أعاد هذه الكلمة مرة أخرى فقال خالد أوما تراه لك صاحبا والتفت الى ضرار بن الازور وأمره بضرب عنقه فالتفت مالك الى زوجته وقال لخالد هذه التى قتلتنى وكانت فى غاية الجمال فقال خالد بل قتلك رجوعك عن الاسلام فقال مالك أنا مسلم فقال خالد ياضرار اضرب عنقه فضرب عنقه وفى ذلك يقول أبو غير السعدى

ألا قل لحى أوطؤا بالسنابك * تطاول هذا الليل من بعد مالك
قضى خالد بغيا عليه بعرسه * وكان له فيها هوى قبل ذلك
فأمضى هواه خالد غير عاطف * عنان الهوى عنها ولا متمالك
وأصبح ذا أهل وأصبح مالك * الى غير أهل هالكا فى الهوالك

فلما بلغ ذلك أبا بكر وعمر قال عمر لابى بكر ان خالدا قد زنى فاجلده قال أبو بكر لا لانه تأول فأخطأ قال فانه قتل مسلما فاقتله قال لا لانه تأول فأخطأ ثم قال يا عمر ما كنت لأغمد سيفا سله الله عليهم ورثى مالكا أخوه متمم بقصائد عديدة فمن جملتها قصيدته المشهورة العينية

ولما

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنر الذى سلم بانياس الى الفرنج فقال له للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذاك قال لان اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم

﴿ذكر أخذ الاتراك غزنة من ملكشاه وعوده اليها﴾

فى هذه السنة قصد بلاد غزنة الاتراك المعروفون بغز ونهبوها وخربوها وقصدوا غزنة وبها صاحبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودى فعلم انه لا طاقة له بهم ففارقها وسار الى مدينة لهاوور وملك الغز مدينة غزنة وكان القيم بأمرهم أمير اسمه زنكى بن على بن خليفة الشيبانى ثم ان صاحبها ملكشاه جمع وعاد الى غزنة ففارقها زنكى وعاد ملكها ملكشاه ودخلها فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة وتمكن فى دار ملكه

﴿ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشئ من سيرته﴾

فى هذه السنة توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الاصفهانى وزير قطب الدين صاحب الموصل فى شعبان مقبوضا وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين فبقى فى الحبس نحو سنة حكى لى انسان صوفى يقال له أبو القاسم كان مختصا بخدمته فى الحبس قال لم يزل مشغولا فى محبسه بأمر آخرته وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست الى القبر فلما اتفق أن مرض قال لى فى بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أبيض الى الدار فعرفنى قال فقلت فى نفسى قد اختلط عقله فلما كان الغد أكثر السؤال عنه واذ طائر أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى الى ان توفى فلما توفى طار ذلك الطائر فعلمت انه رأى شيأ فى معناه ودفن بالموصل عند فتح الكرامى رحمة الله عليهما نحو سنة ثم نقل الى المدينة فدفن بالقرب من حرم النبى صلى الله عليه وسلم فى رباط بناه لنفسه وقال لابى القاسم بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله الى المدينة فدفنه بها فى التربة التى عملها فاذا أنا مت فامض اليه وذكره فلما توفى سار أبو القاسم الى شيركوه فى المعنى فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد أجرة جمل يحمله وجمل يحملنى وزادى فانتهره وقال مثل جمال الدين يحمل هكذا الى مكة واعطاه مالا صالحا يحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرؤن عليه بين يدى تابوته اذا حمل واذا نزل عن الجمل واذا وصل الى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلى عليه فى كل بلدة يجتاز بها واعطاه أيضا مالا للصدقة عنه فصلى عليه فى تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة وكان يجتمع له فى كل بلد من الخلق مالا يحصى ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وانشد باعلى صوته

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى رماله * عليه وبالنادى فتثنى أرامله

فلم ير باكيا أكثر من ذلك اليوم فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم الشريف وبين قبره وقبر النبى صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا وأما سيرته فكان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم بذلا للمال رحيما بالخلق متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة انه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة جسيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وذهبها وعملها بالرخام ولما أراد ذلك أرسل الى المقتفى لامر الله هدية جليلة وطلب منه ذلك وأرسل الى الامير عيسى امير مكة هدية كبيرة وخلعا سنية منها عمامة شراها بثلثمائة دينار حتى مكنه من ذلك وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات والدرج التى يصعد فيها اليه وكان الناس يلقون شدة

وكنا كندمانى جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير فى الحياة وقبلنا * أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(وفى أيام أبى بكر) فتحت الحيرة بالامان على الجزية (وفى سنة ثلاث عشرة) كانت وقعة اليرموك ولما بلغ هرقل وهو بحمص هزيمة الروم من اليرموك هرب من حمص الى الرها فلما فرغ خالد وأبو عبيدة من وقعة اليرموك قصدا دمشق وتوفى أبو بكر ليلة الاربعاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام وعمره ثلاث وستون سنة وغسلته أسماء بنت عميس وحمل على السرير الذى حمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى عليه عمر فى المسجد بين القبر والمنبر ودفن الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب وصيته وكان قد عهد لعمر بالخلافة وكان موته قيل بالسم سمته يهودية فى ارز وقيل فى حسو أكله هو والحرث بن كلدة فماتا بعد سنة وعن عائشة انه اغتسل بماء بارد فى يوم بارد فحم خمسة عشر يوما ومات رحمه الله وكان حسن القامة خفيف العارضين معروق الوجه غائر العينين وبويع عمر بن الخطاب

فى صعودهم وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء وأجرى الماء اليها من نعمان فى طرق معمولة تحت الارض فخرج عليها مال كثير وكان يجرى الماء فى المصانع كل سنة أيام عرفات وبنى سورا على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى فيد وبنى لها أيضا فصيلا وكان يخرج على باب داره كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار اميرى هذا سوى الادرارات والتعهدات للائمة والصالحين وأرباب البيوت ومن ابنيته العجيبة التى لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس فقبض قبل ان يفرغ وبنى عندها أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالارماد وبنى الربط وقصده الناس من اقطار الارض ويكفيه ان ابن الخجندى رئيس أصحاب الشافعى باصفهان قصده وابن الكافى قاضى همذان فأخرج عليهما مالا عظيما وكانت صدقاته وصلاته من اقاصى خراسان الى حدود اليمن وكان يشترى الاسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام حسب سوى ما يشترى من الكرج حكى لى والدى عنه قال كثيرا ما كنت أرى جمال الدين اذا قدم اليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه فى خبز بين يديه فكنت انا ومن يراه نظن انه يحمله الى ام ولده على فاتفق انه فى بعض السنين جاء الى الجزيرة مع قطب الدين وكنت اتولى ديوانها وحمل جاريته أم ولده الى دارى لتدخل الحمام فبقيت فى الدار اياما فبينما انا عنده فى الخيام وقد اكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس فقمت فقال اقعد فقعدت فلما خلا المكان قال لى قد آثرتك اليوم على نفسى فاننى فى الخيام ما يمكننى ان افعل ما كنت أفعله خذ هذا الخبز واحمله أنت فى كمك فى هذا المنديل واترك الجامقة من رأسك وعد الى بيتك فاذا رأيت فى طريقك فقيرا يقع فى نفسك انه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام قال ففعلت ذلك وكان معى جمع كثير ففرقتهم فى الطريق لئلا يرونى أفعل ذلك وبقيت فى غلمانى فرأيت فى موضع انسانا أعمى وعنده أولاده وزوجته وهم من الفقر فى حال شديد فنزلت عن دابتى اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم اياه وقلت للرجل تجىء غدا بكرة الى دار فلان أعنى دارى ولم أعرفه نفسى فاننى آخذ لك من صدقة جمال الدين شيأ ثم ركبت اليه العصر فلما رآنى قال ما الذى فعلت فى الذى قلت لك فأخذت أذكر له شيأ يتعلق بدولتهم فقال ليس عن هذا أسألك انما أسألك عن الطعام الذى سلمته اليك فذكرت له الحال ففرح ثم قال بقى أنك لو قلت للرجل يجىء اليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجرى لهم كل شهر دنانير قال فقلت له قد قلت للرجل حتى يجىء الى فازداد فرحا وفعلت بالرجل ما قال ولم يزل يصل اليه رسمه حتى قبض وله من هذا كثير فمن ذلك انه تصدق بثيابه من على بدنه فى بعض السنين التى تعذرت الاقوات فيها

(ذكر اجلاء القارغلية من وراء النهر)

كان خان خانان الصينى ملك الخطا قد فوض ولاية سمرقند وبخارا الى الخان جغرى خان بن حسن تكين واستعمله عليهما وهو من بيت الملك قديم الابوة فبقى فيهما مدبرا للامور فلما كان الآن أرسل اليه ملك الخطا باجلاء الاتراك القارغلية من أعمال بخارا وسمرقند الى كاشغر وأن يتركوا حمل السلاح ويشتغلوا بالزراعة وغيرها من الاعمال فتقدم جغرى خان اليهم بذلك فامتنعوا فألزمهم وألح عليهم بالانتقال فاجتمعوا وصارت كلمتهم واحدة فكثروا وساروا الى بخارا فأرسل الفقيه محمد بن عمر بن برهان الدين عبد العزيز بن مازة رئيس بخارا الى جغرى خان يعلمه ذلك ويحثه على الوصول اليهم بعسكره قبل ان يعظم شرهم وينهبوا البلاد وأرسل اليهم ابن مازة يقول لهم ان الكفار بالامس لما طرقوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب والقتل وأنتم مسلمون

غزاة

رضى الله عنه بالخلافة يوم مات أبو بكر الصديق فعزل خالد بن الوليد عن الامر وولى أبا عبيدة على الجيش وعلى الشام وهو أول من سمى أمير المؤمنين وسار أبو عبيدة ونزل دمشق من باب الجابية ونزل خالد باب توما ونزل عمرو بن العاص بناحية أخرى وحاصرها نحو سبعين ليلة وفتح خالد ما يليه بالسيف فخرج أهل دمشق وصالحوا أبا عبيدة من الجانب الآخر فأمنهم ودخل فالتقى هو وخالد وسط البلد وفى أيام عمر فتح العراق (وفى سنة عشرة) فى المحرم أمر عمر بالبصرة فاختطت وقيل فى سنة خمس عشرة وفيها توفى أبو قحافة والد أبى بكر وعمره سبع وتسعون سنة (وفى سنة ست عشرة) فتحت حمص صالحهم أبو عبيدة على صلح دمشق ثم سار الى حماة فخرجت اليه الروم الذين كانوا بها فصالحوه ووضع الجزية على رؤسهم والخراج على أراضيهم وجعل كنيستهم العظمى جامعا وهو الذى بالسوق الاعلى اليوم وقال ابن واصل كانت حماة مدينة عظيمة فى زمن داود وسليمان وفى زمن اليونان الا انها فى زمن الفتوح وقبله كانت هى وشيزر من أعمال حمص ثم سار أبو عبيدة الى شيزر والمعرة فصالحوه على حكم حماة وكان يقال لها معرة حمص الى ان أضيفت مع حمص فى خلافة معاوية الى النعمان بن بشير فقيل لها معرة

غزاة يقبح بكم مد الايدى الى الاموال والدماء وأنا أبذل لكم من الاموال ما ترضون به لتكفوا عن النهب والغارة فترددت الرسل بينهم فى تقرير القاعدة وابن مازة يطاول بهم ويمادى الايام الى ان وصل جغرى خان فلم يشعر الاتراك القارغلية الا وقد دهمهم جغرى خان فى جيوشه وجموعه بغتة ووضع السيف فيهم فانهزموا وتفرقوا وكثر القتل فيهم والنهب واختفى طائفة منهم فى الغياض والآجام ثم ظفر بهم أصحاب جغرى خان فقطعوا دابرهم ودفعوا عن بخارا ونواحيها ضررهم وخلت الارض منهم

(ذكر استيلاء سنقر على الطالقان وغرشستان)

فى هذه السنة استولى الامير صلاح الدين سنقر وهو من مماليك السنجرية على بلاد الطالقان وأغار على حدود غرشستان وتابع الغارات عليها حتى ملكها فصار الولايتان له وبحكمه وله فيها حصون منيعة وقلاع حصينة وصالح الامراء الغزية وحمل لهم الاتاوة كل سنة

(ذكر قتل صاحب هراة)

كان صاحب هراة ايتكين بينه وبين الغز مهادنة فلما توفى ملك الغور محمد طمع فى بلادهم فغزاهم غير مرة ونهب وأغار فلما كان فى شهر رمضان من هذه السنة جمع ايتكين جموعه وسار الى بلاد الغور وساروا الى باميان والى ولاية بست والرخج فقاتله صاحبها طغرل تكين برنقش العلكى من قبل الغورية فظهر والى باميان واستولى على بست والرخج فسلمها الى بعض أولاد ملوك الغور وأما ايتكين فانه توغل فى بلاد الغور فأتاه أهلها وقاتلوه وصدوه وصدقوه القتال فانهزم عسكره وقتل هو فى المعركة

(ذكر ملك شاه مازندران قومس وبسطام)

قد ذكرنا استيلاء المؤيد صاحب نيسابور على قومس وبسطام وتلك البلاد وأنه استناب بها مملوكه تنكز فلما كان هذه السنة جهز شاه مازندران جيشا واستعمل عليهم أميرا له يعرف بسابق الدين القزوينى فسار الى دامغان فملكها فجمع تنكز من عنده من العساكر وسار اليه الى دامغان فخرج اليه القزوينى فوصل الى تنكز على غرة منه فلم يشعر هو وعسكره الا وقد كبسهم القزوينى ووضع السيف فيهم فتفرقوا وولوا منهزمين واستولى عسكر شاه مازندران على تلك البلاد وعاد تنكز الى المؤيد صاحب نيسابور واشتغل بالغارة على بسطام وبلاد قومس

(ذكر عصيان غمارة بالمغرب)

لما تحقق الناس موت عبد المؤمن سنة تسع وخمسين ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو وكان مقدما كبيرا وتبعوه باجمعهم وامتنعوا فى جبالهم وهى معاقل مانعة وهم أمم جمة فتجهز اليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومعه أخواه عمر وعثمان فى جيش كبير من الموحدين والعرب وتقدموا اليهم فاقتتلوا سنة احدى وستين وخمسمائة فانهزمت غمارة وقتل منهم كثير وفيمن قتل مفتاح بن عمرو مقدمهم وجماعة من اعيانهم ومقدميهم وملكوا بلادهم عنوة وكان هناك قبائل كثيرة يريدون الفتنة فانتظروا ما يكون من غمارة فلما قتلوا ذلت تلك القبائل وانقادوا للطاعة ولم يبق متحرك لفتنة ومعصية فسكنت الدهماء فى جميع المغرب

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة أغار الامير محمد بن أنز على بلد الاسماعيلية بخراسان وأهلها غافلون فقتل منهم وغنم وأسر وسبى وأكثر وملأ أصحابه أيديهم من ذلك وفيها توفى أبو الفضل نصر بن خلف ملك سجستان

النعمان ثم سار الى اللاذقية ففتحها عنوة وفتح جبلة وانطرسوس ثم نزل هو وخالد قنسرين كرسى المملكة الحلبية اليوم وكانت حلب من جملة أعمالها وكان بها جمع عظيم من الروم وجرى بينهم قتال شديد انتصرت فيه المسلمون على الروم وصالحوا أهلها بشرط تخريبها فخربت الى اليوم ثم فتح أبو عبيدة حلب وانطاكية ومنبج ودلوك وسرمين وتيزين وعزاز واستولى على الشام من هذه الناحية وسار خالد الى مرعش فأجلى أهلها وخربها وفتح الحدث وتم ذلك كله فى أثناء سنة خمس عشرة فأيس هرقل من الشام وسار من الرها الى قسطنطينية ثم فتحت قيسارية وسبسطية وبها قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام ونابلس ولد ويافا وملك البلاد جميعها وحصر بيت المقدس فطال حصاره وطلب أهله الصلح على يد عمر بن الخطاب فارسل أبو عبيدة الى عمر بالحضور فحضر عمر واستخلف عليا على المدينة وفتح بيت المقدس وفى هذه السنة وضع عمر الدواوين وفرض العطاء للمسلمين فبدأ بالعباس ففرض له خمسة وعشرين ألفا ثم الاقرب فالاقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرض لاهل بدر خمسة آلاف درهم ولمن بعدهم الى الحديبية والى بيعة الرضوان أربعة ولمن بعدهم ثلاثة ثلاثة ولاهل القادسية

وعمره أكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة وملك بعده ابنه شمس الدين أبو الفتح أحمد بن نصر وكان أبو الفضل ملكا عادلا عفيفا عن رعيته وله آثار حسنة في نصرة السلطان سنجر في غير موقف وفيها اخرج ملك الروم من القسطنطينية في عساكر لا تحصى وقصد بلاد الاسلام التي بيد قلج أرسلان وابن دانشمند فاجتمع التركمان في تلك البلاد في جمع كبير فكانوا يغيرون على أطراف عسكره ليلا فاذا اصبح لا يرى أحدا وكثر القتل في الروم حتى بلغت عدة القتلى عشرات ألوف فعاد الى القسطنطينية وملك المسلمين منه عدة حصون وفيها توفي الامام عمر الخوارزمي خطيب بلخ ومفتيها بها والقاضي أبو بكر المحمودي صاحب التصانيف والاشعار وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريري بالعربية

﴿ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده﴾

في هذه السنة ثامن ربيع الاول توفي شاه مازندران رستم بن علي بن شهريار بن قارن ولما توفي كتم ابنه علاء الدين الحسن موته أياما حتى استولى على سائر الحصون والبلاد ثم أظهره فلما ظهر خبر وفاته أظهر اينباق صاحب جرجان ودهستان المنازعة لولده في الملك ولم يرع حق أبيه عليه فانه لم يزل يذب عنه ويحميه اذا التجأ اليه ولكن الملك عقيم ولم يحصل من منازعته على شيء غير سوء السمعة وقبح الاحدوثة

﴿ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها﴾

كان المؤيد قد سير جيشا الى مدينة نسا فحصروها الى جمادى الاولى في هذه السنة فسير خوارزمشاه بن أرسلان بن اتسز جيشا الى نسا فلما قاربوها رحل عنها عسكر المؤيد وعادوا الى نيسابور آخر جمادى الاولى وسار عسكر المؤيد الى عسكر خوارزم لانهم توجهوا الى نيسابور وتقدم العسكر المؤيدي ليردوهم عنها فلما سمع العسكر الخوارزمي بهم عادوا عنهم وصار صاحب نسا في طاعة خوارزمشاه والخطبة له فيها وسار عسكر خوارزم الى دهستان فالتجأ صاحبها الامير اينباق الى المؤيد صاحب نيسابور بعد تمكن الوحشة بينهما فقبله المؤيد أحسن قبول وسير اليه جيشا كثيفا فاقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان وأما دهستان فان عسكر خوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شحنة

﴿ذكر استيلاء المؤيد على هراة﴾

قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين فلما قتل تجهز الامراء الغزية وساروا الى هراة وحصروها وقد تولى أمرها انسان يلقب أثير الدين وكان له ميل الى الغز وهو يحاربهم ظاهرا ويراسلهم باطنا فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هراة فاجتمع اليها أهلها فقتلوه وقام مقامه أبو الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي فارسل أهلها الى المؤيد أي أبه صاحب نيسابور بالطاعة والانقياد اليه فسير اليهم مملوكه سيف الدين تنكز في جيش وسير جيشا آخر أغاروا على سرخس ومرو فاخذوا دواب الغز وعادوا سالمين فلما سمع الغز بذلك رحلوا عن هراة الى مرو

﴿ذكر الحرب بين قلج ارسلان وبين ابن الدانشمند﴾

في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها ان قلج أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق بن علي بن أبي

القادسية واليرموك ألفا ألفا وللروادف خمسمائة خمسمائة ثم ثلثمائة

والشام ألفين ألفين ولمن بعد ثلثمائة وأدناهم مائتي درهم وخمسين درهما وفي هذه السنة كانت وقعة القادسية وكان أمير المسلمين فيها سعد بن أبي وقاص وكبير العجم رستم ودام القتال بينهم أياما مسماة أولها يوم اغواث ثم يوم اغماس ثم ليلة الهرير لتركهم الكلام فيها بل كانوا يهرون هريرا ويقتتلون الى الضحوة الكبرى وهبت ريح عاصفة فمال الغبار على المشركين وانكسروا وانتهى القعقاع الى سرير رستم فهرب ولحقه هلال بن علقمة فأخذه برجله وقتله وصعد على السرير ونادى ورب الكعبة قتلت رستم فتمت الهزيمة على العجم وقتل منهم مالا يحصى ورحل سعد نحو المدائن ونزل على نهر شير من دجلة ودخل المسلمون المدائن وقتلوا كل من وجدوا وهرب يزدجرد ونزل سعد بايوان كسرى واحتاط على الاموال من الذهب والفضة والآنية والثياب مايخرج عن الاحصاء من جملتها بساط حوله ستون ذراعا في ستين على هيئة روضة حكى فيها أنواع الزهر بمثله من الذهب والجواهر فاستوهب سعد ما خص اصحابه منه وبعثه الى عمر بن الخطاب فقطعه عمر وقسمه بين المسلمين

القاسم فسيرت الزوجة الى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره وأغار ياغي صاحب ملطية عليه وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند فأمرها بالردة عن الاسلام فزوجها من ابن أخيه فجمع قلج أرسلان عسكره وسار الى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهزم قلج أرسلان والتجأ الى ملك الروم واستنصره فأرسل اليه جيشا كثيرا فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الايام وملك قلج أرسلان بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد ابن دانشمند لانه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان واستولى ذو النون بن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم واتفقوا

﴿ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان﴾

في هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وبين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب الروم أدت الى الحرب والتضاغن فلما بلغ خبرها الى مصر كتب الصالح بن رزيك وزير صاحب مصر الى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقته وكتب فيه شعرا

نقول ولكن اين من يتفهم *	ويعلم وجه الرأي والرأي مبهم
وما كل من قاس الامور وساسها *	يوفق للامر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبقى مخلدا *	وما احد مما قضى الله يسلم
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم *	بفيهم وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم *	وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده *	أما في رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينه *	اذا ما نصرنا الدين نحن وانتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة *	بامثالها تحوى البلاد وتقسم

وهي أطول من هذا هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وان الصالح ارسل بهذا الشعر فان كان الشعر للصالح فينبغي أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ويحتمل أن يكون هذا التنافس كان ايام الصالح فكتب الابيات ثم امتد الى الآن

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في صفر وقع باصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف بن الخجندي وغيره من اصحاب المذاهب بسبب التعصب للمذاهب فدام القتال بين الطائفتين ثمانية ايام متتابعة قتل فيها خلق كثير واحترق وهدم كثير من الدور والاسواق ثم افترقوا على أقبح صورة وفيها بنى الاسماعيلية قلعة بالقرب من قزوين فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها فلم يكن له انكار لهذه الحال خوفا من شرهم وغائلتهم فتقدموا بعد ذلك الى قزوين فحصروها وقاتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس وحكى لي بعض اصدقائنا بل مشايخنا من الائمة الفضلاء قال كنت بقزوين أشتغل بالعلم وكان بها انسان يقود جمعا كبيرا وكان موصوفا بالشجاعة وله عصابة حمراء اذا قاتل عصب بها رأسه قال فكنت احبه واشتهى الجلوس معه قال فبينما انا عنده يوما واذا هو يقول كأني بالملاحدة وقد قصدوا البلد غدا فخرجنا اليهم وقاتلناهم فكنت اول الناس وانا متعصب بهذه العصابة فقاتلناهم فلم يقتل غيري ثم ترجع الملاحدة ويرجع أهل البلد قال فوالله لما كان الغد

فباع علي رضي الله عنه القطعة التي اصابته بعشرين ألفا وأقام سعد بالمدائن

وأرسل جيشا الى جلولاء وكان بها جمع كثير من الفرس فقتل المسلمون منهم مالا يحصى وكان يزدجرد بحلوان فهرب منها وقصد المسلمون المدينة واستولوا عليها وكان دخولهم المدائن وأخذهم لها في أول سنة ست عشرة وكبر المسلمون وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وفتح المسلمون بعد ذلك تكريت والموصل ثم ماسندان وقرقيسيا وفي هذه السنة قدم جبلة ابن الايهم على عمر بن الخطاب ودخل في زي حسن وتلقاه جمع من المسلمين وقيدت الجنائب بين يديه ولبس أصحابه الديباج فحج جبلة مع عمر فوطئ رجل من فزارة طرف ردائه فلطمه جبلة فهشم أنفه فقال له عمر اقتد نفسك والا أمرته فلطمك فقال جبلة وكيف ذاك وأنا ملك وهذا من السوقة فقال عمر ان الاسلام قد جمعكما وسوى بين الملك والسوقة في الحد فقال انظرني ليلتي هذه فأنظره فسار جبلة ليلا الى الشام بخيله ورجله ثم وصل الى القسطنطينية ومعه خمسمائة من قومه فتنصروا جميعا ثم ندم جبلة على فعله ذلك وأنشد

تنكفني فيها اللجاج ونخوة

تنصرت الاشراف من أجل لطمة * وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

اذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة فخرج الناس قال فذكرت قول الرجل فخرجت والله وليس لى همة الا انى انظر هل يصح ما قال ام لا قال فلم يكن الا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على ايديهم قتيلا بعصابته الحمراء وذكروا انه لم يقتل بينهم غيره فبقيت متعجبا من قوله كيف صح ولم يتغير منه شئ ومن اين له هذا اليقين ولما حكى لى هذه الحكاية لم اسأله عن تاريخها وانما كان فى هذه المدة فى تلك البلاد فلهذا اثبتها هذه السنة على الظن والتخمين وفيها قبض المؤيد اى ابه صاحب نيسابور على وزيره ضياء الملك محمد بن أبى طالب سعد بن أبى القاسم محمود الرازى وحبسه واستوزر بعده نصير الدين ابا بكر محمد بن ابى نصر محمد المستوفى وهو من اعيان الدولة السنجرية وفى هذه السنة وردت الاخبار ان الناس حجوا سنة تسع وخمسين ولقوا شدة وانقطع منهم خلق كثير فى فيد والثعلبية وواقصة وغيرها وهلك كثير ولم يمض الحاج الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الاسباب ولشدة الغلاء فيها وعدم ما يقتات ووقع الوباء فى البادية وهلك منهم عالم لا يحصون وهلكت مواشيهم وكانت الاسعار بمكة غالية وفيها فى صفر قبض المستنجد بالله على الامير توبة بن العقيلى وكان قد قرب منه قربا عظيما بحيث يخلو معه وأحبه المستنجد محبة كثيرة فحسده الوزير ابن هبيرة فوضع كتبا من العجم مع قوم وامرهم ان يتعرضوا فيؤخذوا ففعلوا ذلك وأخذوا واحضروا عند الخليفة فاظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج الى نهر الملك يتصيد وكانت حال توبة على الفرات فحضر عنده فامر بالقبض عليه فقبض وادخل بغداد ليلا وحبس فكان آخر العهد به فلم يمتع الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة اشهر وكان توبة من اكمل العرب مروأة وعقلا وسخاء واجازة واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرق فى الناس وفيها فى ربيع الاول توفى الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدى الهروى وزير السلطان ارسلان ووزير اتابك شمس الدين ايلدكز وفيها توفى عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحيى بن محمد بن المظفر وزير الخليفة وكان موته فى جمادى الاولى ومولده سنة تسعين وأربعمائة ودفن بالمدرسة التى بناها للحنابلة بباب البصرة وكان حنبلى المذهب دينا خيرا عالما يسمع حديث النبى صلى الله عليه وسلم وله فيه التصانيف الحسنة وكان ذا رأى سديد ونافق على المقتفى نفاقا عظيما حتى ان المقتفى كان يقول لم يزر لبنى العباس مثله ولما مات قبض على اولاده واهله وتوفى بهذه السنة محمد بن سعيد البغدادى بالموصل وله شعر حسن فن قوله

افدى الذى وكلنى حبه * بطول اعلالى وامراضى

ولست أدرى بعد ذا كله * أساخط مولاى ام راضى

وفيها توفى الشيخ الامام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزى الشافعى تفقه على الفقيه الكيا الهراسى وكان واحد عصره فى الفقه تاتيه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد وهو من جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة)

(ذكر فتح المنيطرة من الفرنج)

فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكى حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره وانما سار اليه جريدة على غرة منهم وعلم انه ان جمع العساكر حذر وافسار اليه جريدة وانتهز الفرصة وحصره وجد فى قتاله فاخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة فان الذين به كانوا آمنين فاخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يجمع

وبعث بها العين الصحيحة بالعور

فياليت أمى لم تلدنى وليتنى * رجعت الى القول الذى قاله عمر

وأرسل جبلة مع رسول المسلمين الى حسان بن ثابت هدية فأوصلها عمر بن الخطاب اليه فامتدحه بأبيات

ان ابن جفنة من بقية معشر

لم يغرهم آباؤهم باللوم

لم ينسنى بالشام اذ هو ربها

كلا ولا متنصرا بالروم

يعطى الجزيل ولا يراه عنده

الا كبعض عطية المذموم

(وفى سنة سبع عشرة) اختطت الكوفة وتحول سعد اليها واعتمر عمر بن الخطاب ووسع المسجد الحرام وهدم منازل قوم أبوا ان يبيعوها وجعل ثمنها فى بيت المال وتزوج أم كلثوم بنت فاطمة من على وفيها فتح المسلمون الاهواز وتستر وكان المتولى عليها الهرمزان عظيم الفرس ونزل من قلعته على حكم عمر فارسل به مع أنس بن مالك والاحنف ابن قيس وجماعة فلما وصلوا الى المدينة ألبسوه تاجه وكسوته الديباج المذهب والمكلل باللؤلؤ واليواقيت ودخلوا به فوجدوا عمر نائما فى المسجد فى زى فقير غريب فقال الهرمزان أين عمر فجلس عمر وقال الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا واشباهه وأمر فنزع ماعليه وألبسه خشنا وجرى الكلام بينهما فطلب الهرمزان ماء ليشربه

الفرنج لدفعه الا وقد ملكه ولو علموا انه جريدة فى قلة من العساكر لاسرعوا اليه وانما ظنوه انه فى جمع كثير فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من رده

(ذكر قتل خطلو برس مقطع واسط)

فى هذه السنة قتل خطلو برس مقطع واسط قتله ابن أخى شملة صاحب خوزستان وسبب ذلك ان ابن شنكا وهو ابن أخى شملة كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة فاتفق ان المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما قتل قصد ابن شنكا البصرة ونهب قراها فأرسل من بغداد الى كمشتكين صاحب البصرة بمحاربة ابن شنكا فقال أنا عامل لست بصاحب جيش يعنى انه ضامن لا يقدر على اقامة عسكر فطمع ابن شنكا وأصعد الى واسط ونهب سوادها فجمع خطلو برس مقطعها جمعا وخرج الى قتاله وكاتب ابن شنكا الامراء الذين مع خطلو برس فاستمالهم ثم قاتلهم فانهزم عسكره فقتله وأخذ ابن شنكا علم خطلو برس فنصبه فلما رآه أصحابه ظنوه باقيا فجعلوا يعودون اليه وكل من رجع أخذه ابن شنكا فقتله أو أسره

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة خرج الكرج فى جمع كثير وأغاروا على بلدان حتى بلغوا كنجة فقتلوا وأسروا وسبوا كثيرا ونهبوا مالا يحصى وفيها توفى الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الاصفهانى الرستمى الشيخ الصالح وهو مشهور يروى عن أحمد بن خلف وغيره وفيها فى ربيع الآخر توفى الشيخ عبد القادر بن أبى صالح أبو محمد الجيلى المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين وأربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلى المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد

(ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة)

(ذكر عود أسد الدين شيركوه)

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير أسد الدين شيركوه الى مصر وما كان منه وقفوله الى الشام فلما وصل الى الشام أقام على حاله فى خدمة نور الدين الى الآن وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير فلما كان هذه السنة تجهز وسار فى ربيع الآخر فى جيش قوى وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم ألفى فارس وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين فى المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى البلاد الغربية وحكم عليها وأقام نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجىء أسد الدين اليهم قد أرسل الى الفرنج يستنجدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا فى ملكها وخوفا أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربى وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فأدركوه بها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أرسل الى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه فعزم على قتالهم الا انه خاف من أصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال فى هذا المقام الخطر الذى عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق فاستشارهم

فأتى به فقال انى أخاف ان تقتلنى وأنا أشرب فقال عمر لا باس عليك حتى تشرب ولم يشرب ذلك وتعذر شربه فاسلم الهرمزان وفرض له ألفين (وفى سنة ثمان عشرة) حصل بالمدينة قحط عظيم فارسل عمر الى سائر الأمصار ليستعينهم فجاء أبو عبيدة من الشام بأربعة آلاف راحلة من الزاد ولما اشتد القحط استسقى المسلمون وعمر بالعباس فسقوا وجعل الناس يتمسحون باذيال العباس وفيها كان طاعون عمواس بالشام مات فيه أبو عبيدة بن الجراح الفهرى أحد العشرة المبشرة بالجنة واستخلف معاذ بن جبل فمات أيضا بالطاعون واستخلف عمرو بن العاص ومكث الطاعون شهرا ومات فيه خمسة وعشرون ألفا وكان فى البصرة مثله *(ودخلت سنة تسع عشرة وسنة عشرين)* ففيهما فتحت مصر والاسكندرية على يد عمرو ابن العاص والزبير بن العوام واختط عمرو مصر وبنى الجامع المعروف به الآن موضع فسطاطه وفى سنة عشرين توفى بلال بن حمامة رضى الله عنه وحمامة أمة من مولدى الحبشة مات بالشام ودفن بالباب الصغير *(وفى سنة احدى وعشرين)* فتحت اذربيجان والرى وجرجان وقزوين وزنجان وطبرستان وسار عمرو بن العاص الى برقة

فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فالى أين نلتجئ وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا وقال من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فى بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن ما لنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقول تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال أسد الدين هذا الرأى وبه اعمل وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وجعل الاثقال فى القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد وجعل صلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معه ان المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم انى فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فاذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم فى الحرب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والاسر فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والارض منهم قفرا فانهزموا أيضا وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

﴿ذكر ملك أسد الدين الاسكندرية وعوده الى الشام﴾

لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما فى القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد الى الصعيد فملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام رمضان وأما المصريون والفرنج فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة وأصلحوا حال عساكرهم وجمعوا وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر أهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب الى ذلك وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فأجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية فى نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذى القعدة وأما الفرنج فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله استقر مع شاور فان العاضد لم يكن له معه حكم لانه قد حجر عليه وحجبه عن الامور كلها وعاد الفرنج الى بلادهم بالساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا ويبذل مالا يحمله كل سنة فأجابه الى ذلك وحمل اليه مالا

وصالح أهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب وفتحها عنوة وسار الاحنف بن قيس الى خراسان وافتتح هراة عنوة ثم سار الى مرو وهرب يزدجرد الى بلخ ولحقه المسلمون فعبر نهر جيحون واختلفت عليه عساكره وانضم غالبهم الى المسلمين وفيها توفى أبى بن كعب بن قيس من ولد مالك بن النجار وكان يكنى أبا المنذر ﴿وفى سنة ثلاث وعشرين﴾ توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه طعنه عبد المغيرة بن شعبة فيروز أبو لؤلؤة بخنجر فى خاصرته وهو فى الصلاة وذلك لست بقين من ذى الحجة وتوفى يوم السبت سلخ ذى الحجة ودفن يوم الاحد مستهل المحرم سنة أربع وعشرين فكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ودفن عند النبى صلى الله عليه وسلم وكان عمره خمسا وخمسين سنة وقيل ستين وقيل ثلاثا وستين وكان أبيض أصلع اشنب طويل القامة هو أول من نهى عن بيع أمهات الاولاد وجمع الناس على أربع تكبيرات فى صلاة الجنائز بعد أن كانوا يكبرون أربعا وخمسا وستا وأول من جمع الناس على امام يصلى بهم التراويح وأول من عس بالليل وأول من حمل الدرة وبويع عثمان بن عفان رضى الله عنه بالخلافة بعد ثلاث من المحرم بايعه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ثم الناس فرقى المنبر وحمد الله وتشهد

جزيلا فبقى الامر على ذلك الى ان قصد الفرنج مصر سنة أربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره هناك ان شاء الله تعالى

﴿ذكر ملك نور الدين صافيتا وعريمة﴾

فى هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار اليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فأغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة وأخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين فى بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريمة وصافيتا وعاد الى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج أيضا من أمنع حصونهم ومعاقلهم فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه وأراد الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلف أوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات وكانت له فأخذها فى طريقه وعاد الى الموصل

﴿ذكر قصد ابن شنكا البصرة﴾

فى هذه السنة عاود ابن شنكا فقصد البصرة ونهب بلدها وخربه من الجهة الشرقية وسار الى مطارا فخرج اليه كمشتكين صاحب البصرة وواقعه فاجتمع بشرف الدين أبى جعفر بن البلدى الناظر فيها ومعهما مقطعهما ارغش واتصلت الاخبار بان ابن شنكا واصل الى واسط فخاف الناس منه خوفا شديدا فلم يصل اليها

﴿ذكر قصد شملة العراق﴾

فى هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان الى قلعة الماهكى من أعمال بغداد وأرسل الى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيأ من البلاد ويشتط فى الطلب فسير الخليفة أكثر عساكره اليه ليمنعوه وأرسل اليه يوسف الدمشقى يلومه ويحذره عاقبة فعله فاعتذر بان ايلدكز والسلطان ارسلان شاه اقطعا الملك الذى عنده وهو ولد ملكشاه البصرة وواسط وعرض التوقيع بذلك وقال انا اقنع بثلث ذلك فعاد الدمشقى بذلك فأمر الخليفة بلعنه وانه من الخوارج وجمعت العساكر وسيرت الى ارغش المسترشدى وكان بالنعمانية هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلدى ناظر واسط مقابل شملة ثم ان شملة أرسل قلج ابن أخيه فى طائفة من العسكر لقتال طائفة من الاكراد فركب ارغش فى بعض العسكر الذى عنده وسار الى قلج فحاربه فاسر قلج وبعض أصحابه وسيرهم الى بغداد وبلغ شملة وطلب الصلح فلم تقع الاجابة اليه ثم ان ارغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقى شملة مقيما مقابل عسكر الخليفة فلما علم انه لا قدرة له عليهم رحل وعاد الى بلاده وكانت مدة سفره أربعة أشهر

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة عصى غازى ابن حسان المنبجى على نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وكان نور الدين قد أقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها فسير اليه عسكرا فحصروه وأخذوها منه وأقطعها نور الدين أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عادلا خيرا محسنا الى الرعية جميل السيرة فبقى فيها الى ان أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وفيها توفى فخر الدين ارسلان بن داود بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا وأكثر ديار بكر ولما اشتد مرضه أرسل الى نور الدين محمود صاحب الشام يقول له بيننا صحبة فى جهاد الكفار اريد ان

ثم ارتج عليه فقال ان أول كل أمر صعب وان أعش فستأتيكم بالخطب على وجهها ثم نزل وأقر ولاة عمر سنة لانه كان قد أوصى بذلك ثم عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبى وقاص ثم عزله وولاها عبد الله بن عقبة بن أبى معيط وكان أخاه لامه أروى ﴿وفى سنة خمس وعشرين﴾ توفى أبو ذر الغفارى جندب بن جنادة رضى الله عنه بالربذة كان نفاه اليها عثمان لما شكا منه معاوية وهو بالشام انه ينكر عليه كنز الذهب والفضة ويتلو والذين يكنزون الذهب والفضة ﴿وفى سنة ست وعشرين وسبع وعشرين وثمان وعشرين﴾ عزل عمرو بن العاص عن مصر وولاها عبد الله بن أبى سرح أخاه من الرضاعة وفتح عبد الله افريقية وسار هو وعسكر عظيم من جهة معاوية الى البحر وحاصروا قبرس وفتحوها صلحا على سبعة آلاف دينار فى كل سنة وقتل وسبى كثيرا ﴿وفى سنة تسع وعشرين﴾ عزل أبا موسى الاشعرى عن البصرة وولاها ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز ثم عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة بسبب أنه شرب الخمر وصلى بالمسلمين الصبح أربعا ثم التفت فقال هل أزيدكم فقال ابن مسعود ما زلنا معك فى زيادة منذ اليوم ﴿وفى سنة ثلاثين﴾ سقط من عثمان خاتم النبى صلى الله عليه وسلم فى بئر اريس ﴿وفى سنة احدى وثلاثين﴾ هلك يزدجرد آخر ملوك الفرس وفيها

نرعى بها أولادي ثم توفي وملك بعده ولده محمد فقام نور الدين الشامي بنصرته والذب عنه بحيث ان أخاه قطب الدين مودودا صاحب الموصل أراد قصد بلاده فارسل اليه أخوه نور الدين ينعه ويقول له ان قصدته أو تعرضت الى بلاده منعتك قهرا فامتنع من قصده وفيها توفي أبو المعالي محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوسا وفيها توفي قماج المسترشدي ولد الامير يزدن وهو من أكابر الامراء ببغداد

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة﴾

﴿ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين في البلاد﴾

في هذه السنة فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار الى اربل وكان هو الحاكم في الدولة وأكثر البلاد بيده منها اربل وفيه بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها وجميع بلد الهكارية وقلاعه منه العمادية وغيرها وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل هو بها وكان قد أصابه طرش وعمي أيضا فلما عزم على مفارقة الموصل الى بيته باربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود وبقي معه اربل حسب وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة لم ينهزم من حرب قط وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدة فلما أراد ان ينشد قال أنا لا أعرف ما يقول ولكني أعلم انه يريد شيأ فامر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة مجموع ذلك ألف دينار ولم يزل باربل الى ان مات بها بهذه السنة ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين الى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد فعمر القلعة وكانت خرابا لان زين الدين كان قليل الالتفات الى العمارة وسار عبد المسيح سيرة سديدة وسياسة عظيمة وهو خصي أبيض من مماليك زنكي اتابك عماد الدين

﴿ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة﴾

في هذه السنة أرسل آقسنقر الاحمديلي صاحب مراغة الى بغداد يسأل ان يخطب للملك الذي هو عنده وهو ولد السلطان محمد شاه ويبذل انه لا يطأ أرض العراق ولا يطلب شيأ غير ذلك وبذل مالا يحمله اذا أجيب الى ما التمسه فاجيب بتطييب قلبه وبلغ الخبر ايلدكز صاحب البلاد فساءه ذلك وجهز عسكرا كثيفا وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان وسيرهم الى آقسنقر فوقعت بينهم حرب اجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيق عليه ثم ترددت الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان الى أبيه بهمذان

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي وكان ناظرا بواسط أبان في ولايتها عن كفاية عظيمة فاحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحكم تحكما عظيما فتقدم الخليفة الى ابن البلدي بكف يده وأيدي أهله وأصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخي استاذ الدار وطالبه بحساب نهر الملك لانه كان يتولاه من أيام المقتفي وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك أموال جمة وخافه استاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا وفي هذه السنة توفي عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعيد بن أبي المظفر السمعاني المروزي الفقيه الشافعي وكان مكثرا من سماع الحديث سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره ورحل الى ما وراء النهر وخراسان دفعات ودخل الى بلد الجبل وأصفهان والعراق

والموصل

مات أبو سفيان بن حرب أبو معاوية ﴿وفي سنة اثنتين وثلاثين﴾ توفي عبد الله بن مسعود جاء في بعض الروايات انه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وصاحب هذه الرواية يسقط أبا عبيدة بن الجراح ﴿وفي سنة ثلاث وثلاثين﴾ تكلم جماعة من الكوفة في حق عثمان وأنكروا عليه ولاية جماعة من أقاربه لا يصلحون وقال الناس في عثمان ﴿وفي سنة أربع وثلاثين﴾ اقطع عثمان ابن عفان مروان بن الحكم فدك صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تزل في يد مروان وبنيه الى ان ردها عمر بن عبد العزيز صدقة وفيها توفي المقداد بن الاسود وكان الاسود قد تبناه فلما دعت الناس لآبائهم كما أمر الله تعالى سمي المقداد ابن عمرو وكان عمره نحو سبعين سنة ﴿وفي سنة خمس وثلاثين﴾ قدم المدينة من مصر جمع دون الالف وكذلك من الكوفة وكذلك من البصرة فلما جاءت الجمعة قام عثمان على المنبر وقال للجموع يا هؤلاء يعلم الله وأهل المدينة انكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فقام محمد بن سلمة وقال أنا أشهد بذلك وثار القوم باجمعهم وحصبوا الناس وعثمان حتى خر عن المنبر مغشيا وحمل الى داره وقاتل ذلك اليوم عن عثمان سعد ابن أبي وقاص والحسن بن علي وزيد بن ثابت وأبو هريرة حتى أرسل اليهم عثمان يعزم عليهم بالانصراف

والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد وله التصانيف المشهورة منها ذيل تاريخ بغداد وتاريخ مدينة مرو وكتاب النسب وغير ذلك أحسن فيها ما شاء وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي فقطعه فمن جملة قوله فيه انه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به الى فوق نهر عيسى فيقول حدثني فلان بما وراء النهر وهذا بارد جدا فان الرجل سافر الى ما وراء النهر حقا وسمع في عامة بلاده من عامة شيوخه فأي حاجة به الى هذا التدليس البارد وانما ذنبه عند ابن الجوزي انه شافعي وله اسوة بغيره فان ابن الجوزي لم يبق على أحد الا مكثري الحنابلة وفيها توفي قاضي القضاة أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفي في جمادى الآخرة وفيها توفي يوسف الدمشقي مدرس النظامية بخوزستان وكان قد سار رسولا الى شملة وفيها توفي الشيخ أبو النجيب الشهرزوري الصوفي الفقيه وكان من الصالحين المشهورين ودفن ببغداد

﴿ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر﴾

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة جعبر أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده وبيد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه وقد تقدم ذكر ذلك وهي من أمنع القلاع وأحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقي واما سبب ملكها فان صاحبها نزل منها يتصيد فاخذه بنو كلاب وحملوه الى نور الدين في رجب سنة ثلاث وستين فاعتقله وأحسن اليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل الى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل فسير اليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن علي الزعفراني فحصرها مدة فلم يظفر منها بشئ فامدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية وهو رضيع نور الدين وأكبر امرائه فحصرها أيضا فلم ير له فيها مطمعا فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه ان يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر في حفظها بنفسه فقبل قوله وسلمها فاخذ عوضا عنها سروج وأعمالها والملاحة التي بين بلد حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة وهذا اقطاع عظيم جدا الا انه لا حصن فيه وهذا آخر أمر بني مالك بالقلعة ولكل أمر أمد ولكل ولاية نهاية بلغني انه قيل لصاحبها أيما أحب اليك وأحسن مقاما سروج والشام أم القلعة فقال هذه أكثر مالا واما العز ففارقناه بالقلعة

﴿ذكر ملك اسد الدين مصر وقتل شاور﴾

في هذه السنة في ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي الى ديار مصر فملكها ومعه العساكر النورية وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وانهم جعلوا لهم في القاهرة شحنة وتسلموا أبوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى العظيم فلما رأوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردهم ارسلوا الى ملك الفرنج بالشام وهو مري ولم يكن للفرنج مذ ظهروا بالشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهونوا أمرها عليه فلم يجبهم فاجتمع اليه فرسان الفرنج وذوو الرأي منهم وأشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم الرأي عندي اننا لا نقصدها ولا نطمع فيها فانها أموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على

فانصرفوا وصلى عثمان بعد ذلك ثلاثين يوما بالناس ثم منعوه فلزم أهل المدينة بيوتهم وعثمان محصور في الدار ودام على ذلك أربعين يوما أو خمسين يوما ثم وقع الاتفاق على ولاية محمد بن أبي بكر مصر وعزل عبد الله ابن أبي سرح وتوجه محمد بن أبي بكر بعد ان ولاه عثمان مصر فسار اليها في عدة من المهاجرين والانصار فبينما هم في اثناء الطريق اذا بعبد على هجين يجهد فقالوا له أين قال الى عامل مصر فقالوا هذا عامل مصر يعنون محمد ابن أبي بكر فقال العبد بل العامل الآخر فأمسكوه فوجدوا معه كتابا عليه ختم عثمان يقول فيه اذا جاءك محمد بن أبي بكر ومن معه بانك معزول فلا تقبل واحتل في قتله وقر في عملك فرجع محمد ومن معه من المهاجرين والانصار الى المدينة وجمعوا الصحابة وأوقفوهم على الكتاب فاعترف عثمان بالختم وحلف بالله انه لم يأمر بذلك فطلبوا منه مروان ليسلمه اليهم فامتنع فجدوا في قتاله وأقام علي ابنه الحسن يذب عنه وأقام الزبير ابنه عبد الله يذب عنه وأقام طلحة ابنه محمدا يذب عنه فتسورت الجموع على عثمان ونزل عليه جماعة وقتلوه وكان عثمان حين قتل صائما يتلو في المصحف وكان مقتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت مدة خلافته اثنتي عشرة سنة الا اثني عشر يوما وكان عمره خمسا وسبعين سنة وقيل اثنتان وثمانون سنة وقيل

تسليمها الى نور الدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض
الشام فلم يقبلوا قوله وقالوا له انه لا مانع فيها ولا حامى والى ان يتجهز عسكر نور الدين و يسير اليها
نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فسار معهم على
كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع
أيضا يجمع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنج فى السير الى مصر فقدموها ونازلوا
مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وكان جماعة من أعيان
المصريين قد كاتبوا الفرنج و وعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور منهم ابن الخياط وابن فرجلة
فقوى جنان الفرنج وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها
فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس فحماهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا
البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه فلو ان الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس ملكوا مصر
والقاهرة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك أى ما فعلوا ليقضى الله أمرا كان مفعولا وأمر شاور
باحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد فانتقلوا
و بقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر أهلها وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم
بيوم خوفا أن يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما وأرسل الخليفة العاضد الى
نور الدين يستغيث به و يعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وأرسل فى الكتب شعور النساء
وقال هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فشرع فى تسيير الجيوش
واما الفرنج فانهم اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو المتولى للامر والعساكر
والقتال فضاق به الامر وضعف عن ردهم فاخلد الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الفرنج يذكر له
مودة ومحبة له قديما وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على
التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين فاجابه الى ذلك على ان يعطوه ألف
ألف دينار مصرية يعجل البعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج ان
البلاد قد امتنعت عليه وربما سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال فنتقوى به
ونعاود البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فعجل لهم شاور مائة
ألف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل
القاهرة ومصر فلم يتحصل له الا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار وسببه ان أهل مصر كانوا قد احترقت
دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الاقوات فضلا عن الاقساط وأما أهل القاهرة
فالاغلب على أهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الاموال وهم فى خلال هذا يراسلون نور
الدين بما الناس فيه ويبذلوا له ثلث بلاد مصر وان يكون أسد الدين مقيما عندهم فى عسكر واقطاعهم
من البلاد المصرية أيضا خارجا عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصله كتب العاضد بحلب
أرسل الى أسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من
حمص وكانت اقطاعه وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته أيضا فى المعنى فسار أيضا الى
نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره فى الحال وسره ذلك وتفاءل به وأمر بالتجهيز
الى مصر وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه فى
العسكر والخزائن واختار من العسكر ألفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو
ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس

تسعون ومكث ثلاثة أيام لم يدفن ثم أمر على بدفنه وكان معتدل القامة حسن الوجه به أثر جدرى عظيم

اللحية أسمر اللون أصلع
يصفر لحيته كان كاتبه ابن
عمه مروان بن الحكم
وقاضيه زيد بن ثابت و بويع
على بن أبى طالب رضى
الله عنه يوم قتل عثمان
اجتمع أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وفيهم
طلحة والزبير فاتوا عليا
وسألوه البيعة فامتنع
مرارا فأتى المسجد فبايعوه
وأول من بايعه طلحة بن
عبد الله وكانت يده شلاء
من نوبة أحد فقيل لا يتم
هذا الامر فان أول يد بايعته
شلاء وتأخر عن البيعة سعد
ابن أبى وقاص وعبد الله بن
عمر و بايعت الانصار
الا نفرا قليلا منهم حسان
ابن ثابت وكعب بن مالك
ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد
الخدرى والنعمان بن
بشير ومحمد بن مسلمة
وفضالة بن عبيد وكعب بن
عجرة وزيد بن ثابت واعتزل
عن البيعة سعيد بن زيد
وعبد الله بن سلام وصهيب
واسامة بن زيد وقدامة بن
مظعون والمغيرة بن شعبة
وسموا هؤلاء المعتزلة
لاعتزالهم عن بيعة على ثم
فارقه طلحة والزبير ولحقا
بمكة واتفقا مع عائشة على
قتال على وكان عبد الله بن
عباس بمكة لما قتل عثمان
فجاء الى المدينة فقال له على ان المغيرة بن شعبة أشار على باقرار معاوية وغيره من عمال عثمان الى

ممن

ممن مع أسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته وأضاف الى أسد الدين جماعة
أخرى من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة
الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على
كره منه وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيأ وهو شر لكم أحب نور الدين
مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد ذلك عند
موت شيركوه ان شاء الله تعالى وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدا منتصف ربيع
الاول فلما قارب مصر رحل الفرنج الى بلادهم بخفى حنين خائبين مما أملوا وسمع نور الدين بعودهم
فسره ذلك وأمر بضرب البشائر فى البلاد وبث رسله فى الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتحا
جديدا لمصر وحفظا لبلاد الشام وغيرها فاما أسد الدين فانه وصل الى القاهرة سابع جمادى
الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله وخلع عليه وعاد الى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح
به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور
المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار
ما فى نفسه وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند
وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى أسد الدين و يسير معه و يعده و يمنيه وما
يعدهم الشيطان الا غرورا ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها أسد الدين والامراء الذين
معه و يقبض عليهم و يستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل
وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه فقال له أبوه والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن
جميعا فقال صدقت ولان نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج
فانه ليس بينك و بين عود الفرنج الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى
نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا و يملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه ولما رأى العسكر
النورى مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعز الدين جرديك وغيرهم على
قتل شاور فنهاهم أسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله فاتفق ان شاور قصد عسكر أسد
الدين على عادته فلم يجده فى الخيام كان قد مضى يزور قبر الشافعى رضى الله تعالى عنه فلقيه صلاح
الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه فى زيارة قبر الامام الشافعى
فقال نمضى اليه فساروا جميعا فسايره صلاح الدين وجرديك وألقوه الى الارض عن فرسه فهرب
أصحابه عنه فاخذ أسيرا فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا وأعلموا أسد الدين
فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى أسد الدين
يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل رأسه الى العاضد فى السابع عشر من
ربيع الآخر ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم
أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس عنه اليها فنهبوها وقصد هو
قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع الى دار
الوزارة وهى التى كان فيها شاور فلم ير فيها ما يقعد عليه واستقر فى الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع
ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق اليه من أصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل
ابن شاور فانه لما قتل أبوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان
شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع أبيه فى منعه من قتل شيركوه وكان

ان يبايعوا ويستقر الامر فأبيت ثم جاءنى الآن وقال الرأى ما رأيته فقال

عبد الله نصحك فى الاولى وغشك
فى الثانية وأنا أشير عليك
باستمرار معاوية فقال على
والله لا أعطيه الا السيف
وتمثل
وما ميتة ان متها غير عاجز
بعار اذا ما غالت النفس
غولها
فقال يا أمير المؤمنين أنت
شجاع وأنا صاحب رأى فقال
على اذا عصيتك فأطعنى
فقال عبد الله افعل فأيسر ما
عندى طاعتك وخرج المغيرة
ولحق بمكة (وفى سنة ست
وثلاثين) أرسل على بن أبى
طالب الى البلاد عماله
فبعث عمارة بن شهاب الى
الكوفة وكان من المهاجرين
وولى عثمان بن حنيف
الانصارى البصرة وعبيد
الله بن عباس اليمن وقيس
ابن سعد الانصارى مصر
وسهل بن حنيف الانصارى
الشام فرجع من الطريق
لما سمع بعصيان معاوية
وكذلك عمارة لقيه طليحة
ابن خويلد الذى ادعى
النبوة فى خلافة أبى بكر
فقال له ان أهل الكوفة
لا يستبدلون بأبى موسى
الاشعرى فرجع ولما وصل
عبيد الله الى اليمن خرج
الذى كان بها من قبل
عثمان وهو يعلى بن منبه
بما بها من الاموال الى مكة
وصار مع عائشة وطلحة
والزبير وجمعوا جمعا عظيما
وقصدوا البصرة ولم يوافقهم عبد الله بن عمر واعطى يعلى بن منبه لعائشة جملا كان اشتراه بمائة دينار اسمه عسكر فوصلوا البصرة

يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاء لصنيعه

﴿ذكر وفاة أسد الدين شيركوه﴾

لما ثبت قدم أسد الدين وظن انه لم يبق له منازع اتاه أجله حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام واما ابتداء أمره وسبب اتصاله بنور الدين فانه كان هو وأخوه نجم الدين أيوب ابنا شاذي من بلد دوين من اذربيجان وأصلهما من الاكراد الروادية وهذا القبيل هم أشرف الاكراد فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فرأى من نجم الدين عقلا وافرا وحسن سيرة وكان أكبر من شيركوه فجعله مستحفظا لقلعة تكريت وهي له فسار اليها ومعه أخوه شيركوه فلما انهزم أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجا الساقي على ماذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل منهزما الى تكريت فخدمه نجم الدين واقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه فاحسن أيوب صحبتهم وسيرهم ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فاخرجهما بهروز من القلعة فسارا الى الشهيد زنكي فاحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعهما اقطاعا حسنا فلما ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظا بها فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها فضاق عليه الامر وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولا عنه باصلاح البلاد فاضطر الى تسليمها اليهم فسلمها على اقطاع ذكره فاجيب الى ذلك وصار من أكبر الامراء بدمشق واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي وكان يخدمه في أيام والده فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره فلما أراد نور الدين ملك دمشق أمره فراسل أخاه أيوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها فاجاب الى ذلك على ما راده منه على اقطاع ذكره له ولاخيه وقرى يتملكانها فاعطاهما ما طلبا وفتح دمشق على ماذكرناه ووفى لهما وصارا أعظم امراء دولته فلما أراد ان يرسل العساكر الى مصر لم ير لهذا الامر العظيم والمقام الخطر غيره فارسله ففعل ماذكرناه أولا وآخرا والله أعلم

﴿ذكر ملك صلاح الدين مصر﴾

لما توفي أسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذي قد سار معه على كره منه للمسير حكى لي عنه بعض أصدقائنا ممن كان قريبا اليه خصيصا به قال لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ويطلب ارسال العساكر أحضرني واعلمني الحال وقال تمضي الى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحثه أنت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير ففعلت وخرجنا من حلب فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادما في هذا المعنى فأمره نور الدين بالمسير فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي الي فقال لي تجهز يا يوسف فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبدا فقال لنور الدين لا بد من مسيره معي فتأمر به فامرني نور الدين وانا استقيل وانقضى المجلس وتجهز أسد الدين ولم يبق غير المسير قال لي نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكأنما أساق الى الموت فسرت معه وملكها ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه وأما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة

واستنزلوا عليها بعد قتال عظيم مع عثمان بن حنيف وقتل من أصحاب عثمان بن حنيف أربعون رجلا وأمرت عائشة بنتف لحيته وحاجبيه وسجنته ثم اطلقته وبلغ ذلك عليا فسار في أربعة آلاف من أهل المدينة فيهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة وحامل رايته ابنه محمد بن الحنفية وعلى ميمنته الحسن وعلى ميسرته الحسين وعلى الخيالة عمار بن ياسر وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر وعلى مقدمته عبد الله ابن عباس رضي الله عنهم واجتمع من أهل الكوفة الى علي جمع والى عائشة جمع وسار بعضهم الى بعض والتقوا بمكان يقال له الخريبة في نصف جمادى الآخرة وكانت وقعة الجمل انتصر فيها علي وصار هودج عائشة كالقنفذ من النشاب ورمى مروان بن الحكم طلحة بسهم فقتله وكلاهما من أصحاب عائشة قيل انه كان ينسبه الى ان عثمان قتل باختياره وقتل من الفريقين خلق كثير وقطعت على خطام الجمل أيد كثيرة وهرب الزبير نحو المدينة فسمع الأحنف بن قيس فقال جمع بين الغارين قتال علي والهزيمة فقصد اليه شخص اسمه عمرو بن جرموز المجاشعي فوجده نائما بوادي السباع فقتله وعقر جمل عائشة وبقيت في هودجها الليل وأدخلها أخوها محمد بن أبي بكر

الباروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فارسل العاضد الى صلاح الدين أحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذي حمله على ذلك ان أصحابه قالوا له ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف والرأي أن يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه أحد من أولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا يخدمونه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى أماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما ثم قصد الحارمي وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك فمال اليه أيضا ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم أطاع غير عين الدولة الباروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف أمر العاضد ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته وأهله فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها أهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة قد اعتبرت التواريخ فرأيت كثيرا من التواريخ الاسلامية التي يمكن ضبطها ورأيت كثيرا ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه الى بعض أهله وأقاربه منهم أول الاسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته فتنتقل الملك من أعقابه الى بني مروان من بني عمه ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك من أعقابه الى أخيه المنصور ثم السامانية أول من استبد منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك عنه الى أخيه اسمعيل بن أحمد واعقابه ثم يعقوب الصفار وهو أول من ملك من أهل بيته فانتقل الملك الى أخيه عمرو واعقابه ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهله انتقل الملك عنه الى أخويه ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في اعقاب ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في اعقاب ركن الدولة ثم الدولة السلجوقية أول من ملك منهم طغرلبك انتقل الملك الى أولاد أخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك الى اعقاب أخيه أيوب ثم ان صلاح الدين لما أنشأ الدولة وعظمها وصار كانه أول لها انتقل الملك الى اعقاب أخيه العادل ولم يبق بيد اعقابه غير حلب وهذه أعظم الدول الاسلامية ولولا خوف التطويل لذكرنا كثيرا من هذا والذي أظنه السبب في ذلك ان الذي يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله اعقابه ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له

﴿ذكر وقعة السودان بمصر﴾

في هذه السنة في أوائل ذي القعدة قتل مؤتمن الخلافة وهو خصي كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم الى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه وأقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقيه انسان تركماني

البصرة ليلا وطاف علي على القتلى وصلى عليهم ودفنهم ولما مر بطلحة قال انا لله وانا اليه راجعون والله لقد كنت أكره ان أرى قريشا صرعى أنت والله كما قال الشاعر

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وصلى عليه وأمر عائشة أن تعود الى المدينة فسارت اليها مستهل رجب وجهزها وأحسن اليها وسار أولاده معها يوما فتوجهت الى مكة وحجت ثم عادت الى المدينة قيل كانت عدة القتلى يوم الجمل من الفريقين عشرة آلاف واستعمل علي على البصرة عبد الله ابن عباس وانتظم الامر لعلي بالعراق ومصر واليمن والحرمين وخراسان ولم يبق خارج عنه الا الشام وأقام علي بالكوفة وأرسل جرير بن عبد الله البجلي الى الشام ليأخذ البيعة على معاوية فماطله معاوية الى ان وصل اليه عمرو بن العاص من فلسطين واتفقا على قتال علي وعاد جرير وأعلم عليا فسار من الكوفة نحو معاوية وسار معاوية نحوه

(وكانت وقعة صفين)

ودخلت سنة سبع والجيشان بها وفي صفر وقع القتال قيل كانت تسعين وقعة قتل فيها من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا منهم عمار بن ياسر وكان عمره تسعين سنة وتقاتلوا

فرأى معه نعلين جديدين فاخذهما منه وقال فى نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة وارتاب به وبهما فاتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه وكان مقصود مؤتمن الخلافة ان يتحرك الفرنج الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج صلاح الدين فى العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه فلا يبقى لهم باقية فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودى فأحضر فامر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم وأخبره الخبر وأخفى صلاح الدين الحال وان مؤتمن الخلافة استشعر فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شيأ من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين أرسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه وأتوا برأسه وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض وكان لا يجرى فى القصر صغير ولا كبير الا بامره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضا وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل فى الفريقين فارسل صلاح الدين الى محلتهم المعروفة بالمنصورة فاحرقها على أموالهم وأولادهم فلما أتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الامان بعد أن كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك فاخرجوا من مصر الا الجيزة فعبر اليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الاكبر فى طائفة من العسكر فابادهم بالسيف ولم يبق منهم الا القليل الشريد وكفى الله تعالى شرهم والله أعلم

﴿ذكر ملك شملة فارس واخراجه عنها﴾

فى هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس واخرج عنها وسبب ذلك ان زنكى بن دكلا صاحبها أساء السيرة مع عسكره فارسلوا الى شملة بخوزستان وحسنوا له قصد فارس فجمع عساكره وتجهز وسار اليها فخرج اليه زنكى بن دكلا ووقعت بينهم حرب خامر فيها أصحاب زنكى عليه فانهزم فى شرذمة من عسكره ونجا بنفسه وقصد الاكراد الشوانكار والتجأ اليهم فاجاره صاحبها وأحسن ضيافته ونزل شملة ببلاد فارس فملكها فاساء السيرة الى أهلها ونهب ابن أخيه ابن شنكا البلاد فتغيرت بواطن أهلها عليه واجتمع الى زنكى بعض العسكر الذين خامروا عليه لما رأوا من سوء سيرة شملة واستعاد زنكى بلاده ورجع الى ملكه وعاد شملة الى بلاد خوزستان

﴿ذكر ملك ايلدكز الرى﴾

فى هذه السنة ملك ايلدكز مدينة الرى والبلاد التى كانت بيد اينانج وسبب ذلك ان ايلدكز كان قد استقر الامر بينه وبين اينانج على مال يؤديه الى ايلدكز فمنعه سنتين فارسل ايلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته فتجهز ايلدكز وقصد الرى فالتقاه اينانج وحاربه فخرج باعظيما فانهزم اينانج ومضى منهزما فتحصن بقلعة طبرك فحصره ايلدكز فيها وراسل سرا جماعة من مماليكه فاطمعهم فى الاقطاعات والاموال والاحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه وكانوا جماعة كثيرة وسلموا البلد الى ايلدكز فرتب فيه عمر بن على ياغ وعاد الى همذان ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج وسلموا البلد اليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغى ان لا يستخدموا وأبعدهم عنه فتفرقوا فى البلاد فسار بعضهم وهو الذى تولى قتله الى خوارزمشاه فصلبه خوارزمشاه نكالا

بما فعل بصاحبه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة رؤى فى دار الخليفة رجل غريب فى الطريق التى يركب فيه وفى يده سكين صغيرة وفى يده الاخرى سكين كبيرة فاخذوه وقرروه فقال انا من حلب فحبس وعوقب البواب ولم يعلم من أين دخل وفيها قبض ابن البلدى وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السينى وعلى أخيه الاصغر وكانا ابنى عمة عضد الدين استاذ الدار وكان الاصغر عامل البيمارستان فقطعت يده ورجله قيل كان عنده صنج يقبض بها ويحمل الى الديوان بالصنج الصحيحة وقيل غير ذلك وحمل الى البيمارستان فمات به وكان شاعرا فمن شعره وهو محبوس هذه الابيات

سلام على أهلى وصحبى وجلاسى * ومن فى فؤادى ذكرهم راسب راسى
اعالج فيكم كل هم ولا أرى * لداء همومى غير رؤيتكم آسى
لقد أبدت الايام لى كل شدة * تشيب لها الاكباد فضلا عن الراس
فيا ابنة عبد الله صبرا على الذى * لقيت فهذا الحكم من مالك الناس
فلو ابصرت عيناك ذلى بكيت لى * بدمع سوى بالمدامع رجاس
أقول لقلبى والهموم تنوشه * وقد حدثته النفس بالضر والباس
فلو هم طيف من خيالى يزوركم * لمانعه دون المغالق حراسى
وما حذرى الا على النفس لا على * سواها لأنى حاف فقر وافلاس

وفيها توفى المعمر بن عبد الواحد بن رجار أبو أحمد الاصفهانى الحافظ يروى عن أصحاب أبى نعيم وكان موته بالبادية ذاهبا الى الحج فى ذى القعدة وفى رجب منها توفى الشيخ أبو محمد الفارقى المتكلم على الناس وكان أحد الزهاد له كرامات كثيرة وكان يتكلم على الخاطر وكلامه مجموع مشهور وفيها مات جعيفر الرقاص من ندماء دار الخلافة وفى شوال منها توفى القاضى أبو الحسن على بن يحيى القرشى الدمشقى وفى ذى الحجة توفى نجم الدين بن محمد بن على بن القاسم الشهرزورى قاضى الموصل وولى ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء

﴿ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصر الفرنج دمياط﴾

فى هذه السنة فى صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك أسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وأيقنوا بالهلاك وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والاندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الاتراك مصر وانهم خائفون على البيت المقدس منهم فارسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فأمدوهم بالاموال والرجال والسلاح واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به الديار المصرية فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا فالى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فارسل اليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالاموال والسلاح والذخائر وأرسل الى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول انى ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وان سرت اليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنج أمامى فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا ثم سار هو بنفسه الى بلاد

ليلة سميت ليلة الهرير تشبيها بليلة القادسية وكانت ليلة الجمعة استمر القتال فيها الى الصبح قيل كبر فيها على أربعمائة تكبيرة وكان لا يكبر حتى يقتل رجلا ولما عجز معاوية رفع المصاحف وقال بيننا وبينكم كتاب الله فاختلف على على طائفة سموا بعد ذلك الخوارج فكف على عن القتال وكتب بينهما مقاضاة مؤخرة الى رمضان والحكمان فيهما من جهة على أبو موسى الاشعرى عبد الله بن قيس ومن جهة معاوية عمرو بن العاص وسار على الى العراق واعتزلت عنه المعتزلة ثم بعث الى الموعد أربعمائة فيهم أبو موسى الاشعرى وبعث معاوية أربعمائة فيهم عمرو بن العاص فغدر عمرو أبا موسى الاشعرى واتفقا على خلع على ومعاوية ويولى الناس من يختارونه فتشهد أبو موسى وقال أيها الناس انا لم نر الاصلح لهذه الامة الا أن نخلع عليا ومعاوية وانى قد خلعتهما فقام عمرو وتشهد وقال قد سمعتم ما قاله صاحبى وانى قد قررت خلع على وثبت معاوية فانه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فقال أبو موسى مالك لا وفقك الله غدرت ولحق بمكة حياء من الناس ومن ثم أخذ على فى الضعف ومعاوية فى القوة وقاتل على المعتزلة وكانوا أربعة آلاف فقتلوهم عن آخرهم ولم يفلت من يده الا سبعة أنفس وجهز معاوية فى سنة ثمان وثلاثين عمرو بن العاص الى مصر ليقاتل محمد بن أبى بكر فارسل على يجده بالاشتر فسقوه فى الطريق عسلا مسموما فمات فاخذ عمرو مصر وهرب محمد بن أبى بكر وقتله معاوية ابن خديج وأحرقه فى جوف حمار وبث معاوية سراياه على عمال على وجعل كل منهما يقنت على الآخر ويدعو عليه ثم اجتمع ثلاثة من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادى وعمرو بن بكر التميمى والحجاج ابن عبد الله التميمى فقال عبد الرحمن أنا أكفيكم عليا وقال الحجاج أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو وأنا أكفيكم عمرا واستصحبوا سيوفا مسمومة وتواعدوا التسع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين فوثب الحجاج على معاوية فجاءت الضربة فى أليته وسلم وأمسك الحجاج فقال اطلقنى وأبشرك ان عليا قتل فقال لعله سلم وقتله وأما عمرو بن العاص فكان خرج عامل شرطته خارجة ليصلى بالناس عوضه فوثب عليه عمرو بن بكر فقتل خارجة فقال أردت عمرا وأراد الله خارجة ووثب عبد الرحمن على على وقد خرج الى الصلاة فضربه فى وجهه فامسك وأحضر بين يديه مكتوفا فاحضر ولديه الحسن والحسين فقال أوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا ولا تبكيا على شئ زوى عنكما ثم لم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض يوم الجمعة سابع عشر رمضان سنة أربعين وعمره ثلاث وستون سنة وكانت مدة خلافته خمس

الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى مالم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع فلما رأى الفرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشئ ووجدوا بلادهم خرابا وأهلها بين قتيل وأسير فكانوا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما أخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى حكى أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها

﴿ذكر حصر نور الدين الكرك﴾

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار نور الدين الى بلد الفرنج فحصر الكرك وهو من أمنع المعاقل على طرف البر وكان سبب ذلك ان صلاح الدين أرسل الى نور الدين يطلب ان يرسل اليه والده نجم الدين أيوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكرا واجتمع معه من التجار خلق كثير وانضاف اليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة فخاف نور الدين عليهم من الفرنج فسار فى عساكره الى الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المنجنيقات فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له وساروا اليه وقد جعلوا فى مقدمتهم اليه ابن هنفرى وفريب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج فى وقتهما فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل ان يلتحق بهما باقى الفرنج فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقى الفرنج وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى الى ان وصل الى بلاد الاسلام فنزل على عشترا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم فأقام هو حتى أتاهم خبر الزلزلة الحادثة فرحل وأما نجم الدين أيوب فانه وصل الى مصر سالما هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة الى لقائه اكراما له

﴿ذكر غزوة لسرية نورية﴾

كان شهاب الدين الياس بن ايلغازى بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار فى عسكره وهو فى مائتى فارس الى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل الى قرية اللبوة وهى من عمل بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان لا سيما المسلمون فان ألف فارس لا يصبرون لحملة ثلثمائة فارس افرنجية وكثر القتلى بين الطائفتين فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر فلم يفلت منهم الامن لا يعتد به وسار شهاب الدين برؤس القتلى وبالاسرى الى نور الدين فركب نور الدين والعسكر فلقوهم فرأى نور الدين فى الرؤس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وكان شجا فى حلوق المسلمين

﴿ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام﴾

فى هذه السنة أيضا ثانى عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها وعمت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد وأشدها كان بالشام فخربت كثيرا من دمشق وبعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وحلب وغيرها وتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد فلما أتاه الخبر سار الى بعلبك ليعمر ما انهدم من سورها وقلعتها فلما وصلها أتاه خبر باقى البلاد وخراب أسوارها وقلاعها وخلوها من أهلها فجعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك ثم الى حماه ثم الى بعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ثم أتى مدينة حلب فرأى

شنين الاثلاثة أشهر واختلف فى موضع قبره والاصح انه حيث يزار اليوم بالنجف وأحضر عبد الرحمن بن ملجم فقطع عبد الله بن جعفر يده ورجله وسملت عيناه وأحرق بالنار لعنه الله وكان على رضى الله عنه شديد الادمة حسن الوجه معتدل القامة كبير اللحية عظيم البطن وكان شريح قاضيه واستمر قاضيا بالكوفة الى أيام الحجاج بن يوسف وولد لعلى من الذكور أربعة عشر ولدا وبنات كثيرة فمن فاطمة رضى الله عنها الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم ولم يتزوج غيرها حتى ماتت ولم يعقب من أولاده المذكورين سوى الحسن والحسين ومحمد بن خولة بنت جعفر الحنفية والعباس من أم البنين بنت حزام الكلابية وعمر من الصهباء بنت جعفر عمر هذا تسعين سنة وحاز نصف ميراث على ولما توفى على رضى الله عنه بويع بالخلافة ولده الحسن رضى الله عنه ثم بعد ستة أشهر صالحه معاوية وترك الخلافة على أن لا يسب عليا ويعطيه ما ببيت المال بالكوفة وخراج دارابجرد ودخل معاوية الكوفة وبويع بالخلافة وأقام الحسن بالمدينة الى ان توفى فى ربيع الاول سنة تسع وأربعين ولم يف له معاوية بشئ مما عاهده عليه وكان الحسن مطلاقا وولد له خمسة عشر ذكرا وثمان بنات وكانت وفاته بسم سقته زوجته جعدة بنت الاشعث قيل فعلت ذلك بأمر

فيها

فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ وكانوا لا يقدرون يأوون مساكنهم خوفا من الزلزلة فأقام بظاهرها وباشر عمارتها بنفسه فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها وأما بلاد الفرنج فان الزلازل أيضا عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفا من نور الدين عليها فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر

﴿ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى وملك ابنه سيف الدين غازى﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وكان مرضه حمى حادة ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الاكبر عماد الدين زنكى وعدل عنه الى ابنه الآخر سيف الدين غازى وانما صرف الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكى بن مودود لان القيم بأمور دولته والمقدم فيها كان خادما له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لانه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولانه زوج ابنته وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى وهى والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين الى سيف الدين فدخل عماد الدين الى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على أخذ الملك لنفسه وتوفى قطب الدين وعمره نحو أربعين سنة وكان ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا وكان فخر الدين هو المدبر للامور والحاكم فى الدولة وكان قطب الدين من أحسن الملوك سيرة وأعفهم عن أموال رعيته محسنا اليهم كثير الانعام عليهم محبوبا الى كبيرهم وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضيعهم كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم فكأن القائل أراده بقوله

خلق كماء المزن طيب مذاقة * والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع * عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث الا أن وابل جوده * أبدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر الا أنه ذو رحمة * والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان سريع الانفعال للخير بطيأ عن الشر جم المناقب قليل المعايب رحمه الله ورضى عنه وعن جميع المسلمين بمنه وكرمه انه جواد كريم

﴿ذكر حالة ينبغى للملوك ان يحترزوا من مثلها﴾

حدثنى والدى رحمه الله قال كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم فلما كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة وهذه العقيمة هى قرية تحاذى الجزيرة منها دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شئ معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع قال وكان لى فيها ملك كثير فكنت أقول ان المصلحة أن لا يغير على الناس شئ وما أقول هذا لاجل ملكى فاننى أنا أمسح ملكى وانما أريد ان يدوم الدعاء من الناس للدولة فجاء فى كتاب النائب يقول لا بد من المساحة قال فأظهرت الامر وكان بها قوم صالحون لى بهم انس وبيننا مودة فجاء فى الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فأعلمتهم انى راجعت وما أجبت الى ذلك فجاءنى منهم رجلان أعرف صلاحهما وطلبا منى المعاودة ومخاطبة ثانية ففعلت فأصروا على المماسحة فعرفتهما الحال فلما مضى الا عدة أيام واذ قد جاءنى الرجلان فلما رأيتهما ظننت انهما جاآ يطلبان المعاودة فعجبت منهما وأخذت

معاوية وقبل بأمر يزيد وكان أوصى ان يدفن عند جده صلى الله عليه وسلم فمنعت من ذلك عائشة (واستقل) معاوية بالخلافة وولى بعده من بنى أمية ثلاثة عشر نفرا مدة ولاية الجميع ألف شهر وولى معاوية منها تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وكان قبلها أميرا على الشام عشرين سنة استعمله عمر أربع سنين واستمر مدة خلافة عثمان نحو اثنتى عشرة سنة ومتغلبا أربع سنين نحو وفى سنة أربع وأربعين ٥ استخلف معاوية زيادا وأثبت نسبه من أبى سفيان بشهادة أبى مريم الخمار انه زنى بسمية البغى وحملت منه ومات زياد وكان زياد ثابت النسب من عبيد الرومى وشق ذلك على بنى أمية ثم ولاه معاوية البصرة والكوفة وخراسان وسجستان والهند والبحرين وعمان وظلم وتجبر وقويت به شوكة معاوية وكان معاوية وعماله يسبون عليا على المنابر وكان من عادة حجر بن عدى اذا سبوا عليا عارضهم وأثنى عليه ففعل كذلك فى امرة زياد بالكوفة فأمسكه وأرسل به مع جماعة من أصحابه الى معاوية فأمر بقتله وثمانية من جماعته فقتلوا بقرية عذراء رحمهم الله وعظم ذلك على المسلمين قال السلطان عماد الدين روى عن الشافعى انه أسر الى الربيع ان أربعة من الصحابة لا تقبل لهم شهادة معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة وزياد * وفى سنة خمس وأربعين توفى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بسم دسه اليه معاوية مع

أعتذر اليهما فقالا ماجئنا اليك فى هذا وانما جئنا لنعرفك أن حاجتنا قضيت قال فظننت انهما قد
أرسلا الى الموصل الى من يشفع لهما فقلت من الذى خاطب فى هذا بالموصل فقالا ان حاجتنا قد
قضيت من السماء ولكافة أهل العقيقة قال فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما ثم قاما عنى
فلم يمض غير عشرة أيام واذا قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون باطلاق المساجين والمحبوسين
والمكوس ويأمرون بالصدقة ويقال ان السلطان يعنى قطب الدين مريض يعنى على حالة شديدة
ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته فعجبت من قولهما واعتقدته كرامة لهما فصار والذى بعد
ذلك يكثر اكرامهما واحترامهما ويزورهما

ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش

كان محمد بن سعيد بن مردنيش ملك شرق الاندلس قد اتفق هو والفرنج وامتنع على عبد المؤمن
وابنه بعده فاستفحل أمره لاسيما بعد وفاة عبد المؤمن فلما كان هذه السنة جهز اليه يوسف
ابن عبد المؤمن فجاسوا بلاده وخربوها وأخذوا مدينتين من بلاده وأخافوا عساكره وجنوده
وأقاموا ببلاده مدة يتنقلون فيها ويجبون أموالها

ذكر وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده

فى هذه السنة توفى الملك طغرل بن قاورت صاحب كرمان واختلف أولاده بهرام شاه وارسلان
شاه وهو الاكبر وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه الى خراسان فدخل على المؤيد صاحب
نيسابور واستنجده فانجده بعساكر سار بها الى كرمان فجرى بين الاخوين حرب ظفر فيها بهرام
شاه وهرب ارسلان شاه فقصد اصفهان مستجيرا بايلدكز فانفذ معه عسكرا واستنقذوا البلاد من
بهرام شاه وسلموها الى أخيه ارسلان شاه فعاد بهرام شاه الى نيسابور مستجيرا بالمؤيد صاحبها
فأقام عنده فاتفق أن اخاه ارسلان شاه مات فسار الى كرمان فملكها وأقام بها بغير منازع

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة كثرت الاذية من عبد الملك بن محمد بن عطاء وتطرق الى بلاد حلوان ونهب وأفسد
وأخذ من الحجاج فانفذ اليه من بغداد عسكر فنازلوه فى قلاعه وضايقوه ونهبوا أمواله وأموال
أهله حتى أذعن بالطاعة ولا يعاود اذى الحجاج ولا غيرهم فعاد عنهم العسكر وفيها توفى مجد الدين
أبو بكر بن الداية وهو رضيع نور الدين وكان أعظم الامراء منزلة عنده وله فى اقطاعه حلب وحارم
وقلعة جعبر فلما توفى رد نور الدين ما كان له الى أخيه شمس الدين على بن الداية وفيها فى شعبان توفى
أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلى وهو من مشهورى المحدثين (الجيلى) بالجيم والياء تحتها
نقطتان

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

ذكر وفاة المستنجد بالله

فى هذه السنة تاسع ربيع الآخر توفى المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله أبى عبد
الله محمد بن المستظهر بالله وقد تقدم باقى النسب فى غير موضع وأمه أم ولد اسمها طاوس وقيل
نرجس رومية ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل
اللحية وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين أبو الفرج
ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوى وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد فلما اشتد مرض
الخليفة اتفقا ووضعا الطبيب على ان يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ثم

نصرانى * وفى سنة ثلاث وخمسين هلك زياد بآكلة فى يده * وفى سنة ست وخمسين بايع معاوية لولده
يزيد وامتنع عن البيعة
الحسين بن على وعبد الله
ابن عمر وعبد الرحمن بن أبى
بكر وعبد الله بن الزبير *
وفى سنة ستين مات معاوية
وكان عمره خمسا وسبعين
سنة وكان يغلب حلمه على
ظلمه وكان داهية يحسن
سياسة الملك دخلت عليه
أروى بنت الحرث بن عبد
المطلب فقال لها مرحبا بك
ياخالة كيف حالك قالت
بخير يا ابن أختى لقد كفرت
النعمة وأسأت لابن عمك
الصحبة وتسميت بغير اسمك
وأخذت غير حقك وكنا
أهل بيت أعظم الناس فى
هذا الدين بلاء حتى قبض
الله نبيه مشكورا سعيه
مرفوعا منزلته فوثب علينا
بعده تيم وعدى وأمية فكنا
فيكم بمنزلة بنى اسرائيل فى
آل فرعون وكان على بن
أبى طالب بعد نبينا بمنزلة
هرون من موسى فقال
لها عمرو بن العاص أيتها
العجوز الضالة اقصرى
عن قولك مع ذهاب عقلك
فقالت وأنت يا ابن الباغية
تتكلم وأمك كانت اشهر
بغى بمكة وأرخصهن أجرة
فادعاك خمسة من قريش
كل يقول هو ابنى فسئلت
أمك عن ذلك فقالت كلهم
أتونى فانظروا أيهم أقرب
شبها به فكان أقربهم شبها
العاص بن وائل فالحقوك به فقال معاوية عفا الله عما سلف هاتى حاجتك فقالت أريد ألفى دينار اشترى بها

انه

انه دخل واغلق عليه بابه فمات وهكذا سمعت من غير واحد ممن يعلم الحال وقيل ان الخليفة كتب
الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على استاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن
صفية باستاذ الدار واعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول انى أوصلت الخط الى الوزير ففعل
ذلك وحضر استاذ الدار وقطب الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل
الخليفة فدخل اليه يزدن وقايماز الحميدى فحملاه الى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب
عليه وهو يصيح الى ان مات رحمه الله وكان وزيره أبا جعفر بن البلدى وبينه وبين استاذ الدار
وبين قطب الدين عداوة مستحكمة لان المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها
فكانا يظنان انه هو الذى يسعى بهما فلما مرض المستنجد وأرجف بموته ركب الوزير ومعه
الامراء والاجناد وغيرهم بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فارسل اليه عضد الدين يقول ان أمير
المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند
فربما أنكر عليه ذلك فعاد الى داره وتفرق الناس عنه وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدا
للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد اغلق استاذ الدار ابواب الدار
وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه
المستضىء بامر الله وشرطا عليه شروطا ان يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين استاذ الدار
وقطب الدين أمير العسكر فاجابهم الى ذلك ولم يتول الخلافة من اسمه الحسن الا الحسن بن على
ابن أبى طالب والمستضىء بأمر الله واتفقا فى الكنية والكرم فبايعه أهل بيته البيعة الخاصة يوم
توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرق
أموالا جليلة المقدار وعلم الوزير ابن البلدى فسقط فى يده وقرع سنه ندما على ما فرط فى عوده
حيث لا ينفعه وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضىء فمضى الى دار الخلافة فلما
دخلها صرف الى موضع وقتل وقطع قطعا وألقى فى دجلة رحمه الله وأخذ جميع ما فى داره فرأوا فيها
خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض عليهما وخط الوزير يراجعه فى ذلك ويصرفه عنه
فلما وقفا عليها اعترفا براءته مما كانا يظنان فيه فندما حيث فرطا فى قتله وكان المستنجد بالله من
أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك
بالعراق منها شيأ وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس (بلغنى) انه قبض على
انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة
آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انسانا آخر مثله لاكف شره عن
الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الاموال على أصحابها أيضا وقبض على القاضى ابن المرخم وأخذ
منه مالا كثيرا فاعاده على أصحابه أيضا وكان ابن المرخم ظالما جائرا فى أحكامه

ذكر ملك نور الدين الموصل واقرار سيف الدين عليها

لما بلغ نور الدين محمودا وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين
غازى الموصل والبلاد التى كانت لابيه بعد وفاته وقام فخر الدين عبد المسيح بالامر معه وتحكمه
عليه وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته فقال أنا أولى بتدبير أولاد أخى
وملكهم وسار عند انقضاء العزاء جريدة فى قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل
المحرم من هذه السنة وقصد الرقة فحصرها وأخذها ثم سار الى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين

عينا فوارة فى أرض خوارة تكون لفقراء بنى عبد المطلب وألفى دينار
أخرى ازوج بها فقراء بنى الحرث
والفى دينار أخرى أستعين
بها على شدة الزمان
فأعطاها ستة آلاف دينار
وانصرفت ومعاوية أول
خليفة بايع لولده وأول من
وضع البريد وأول من جعل
المقصورة فى المسجد
(وثانى خلفاء بنى أمية ابنه
يزيد) بويع بالخلافة
استقلالا فى رجب سنة
ستين فارسل أهل الكوفة
الى الحسين ليبايعوه
فارسل اليهم ابن عمه مسلم
ابن عقيل فبايعه ثلاثون
ألفا منهم وكان العامل
بالكوفة النعمان بن بشير
فعزله يزيد وولى عبيد الله
بن زياد لعنه الله وكان واليا
على البصرة فلما قدم عبيد
الله الكوفة اجتمع عليه
مبايعو الحسين وحصروه
فى قصره ومعه ثلاثون
رجلا فاعمل عبيد الله الحيلة
وقلب الناس وفرقهم عن
مسلم واحضر مسلما اليه
وقتله وارسل برأسه ورأس
هانئ بن عروة الذى أخذ
البيعة للحسين الى يزيد
وكان الحسين بن على قد خرج
نحو الكوفة فلما بلغه قتل
مسلم تخاذل عنه أكثر
جموعه وتفرقوا فلما وصل
الى مكان يقال له سراف
وصل اليه الحر صاحب
شرطة عبيد الله بن زياد
فى ألف فارس فقال له
الحسين ما أتيت الا بكتبكم فان رجعتم رجعت فأبى الحر الا ان يسير معه فسار معه فورد كتاب عبيد الله بأن ينزل الحسين على غير

وأقام بها لجمع العساكر فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وكثر جمعه وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب المنجنيقات وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول اليهم فسار الى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة عندها مخاضة الى الجانب الشرقى وسار فنزل شرقى الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل ومن العجب ان يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان سيف الدين غازى قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى أتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وبلد الجبل واذربيجان واصفهان والرى وتلك الاعمال يستنجده على عمه نور الدين فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض الى الموصل ويقول له ان هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها فلم يلتفت اليه وقال للرسول قل لصاحبك انا أصلح لاولاد أخى منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولا يحل لى السكوت عنك فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وازالة الظلم عن المسلمين فاقام نور الدين على الموصل فعزم من بها من الامراء على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد الى نور الدين فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين فى تسليم البلد اليه على ان يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الامان ولماله فأجابه الى ذلك وشرط ان فخر الدين يأخذه معه الى الشام ويعطيه عنده اقطاعا يرضيه فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الاولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السر لانه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه حلف ان لا يدخلها الا من أحصن موضع فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من أبواب المظالم وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصر ووصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضىء بأمر الله فلبسها ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النورى وركب هو بنفسه الى موضعه فرآه وصعد منارة مسجد أبى حاضر فأشرف منها على موضع الجامع فأمر أن يضاف الى الارض التى شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت وأن لا يؤخذ منها شىء بغير اختيار أصحابه وولى الشيخ محمد الملا عمارته وكان من الصالحين الاخيار فاشترى الاملاك من أصحابها بأوفر الاثمان وعمره فخرج عليه أموال كثيرة وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة وأما نور الدين فانه عاد الى الشام واستناب فى قلعة الموصل خصيا كان له اسمه كمشتكين ولقبه سعد الدين وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الامور ولا بكثير وحكمه واقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين فلما فعل ذلك قال كمال الدين ابن الشهرزورى هذا طريق الى أذى يحصل ببيت أتابك لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلاف ويطمع الاعداء فكان كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح وغير اسمه فسماه عبد الله وأقطعه اقطاعا كبيرا

ماء فازاله بكربلا يوم الخميس
ثانى محرم سنة احدى وستين وقدم ثانى يوم من الكوفة عمر بن سعد بن أبى
وقاص باربعة آلاف فارس لحرب الحسين فطلب منهم الحسين اما ان يمكن من العود أو ارساله الى يزيد فكتب عمر الى ابن زياد بذلك فغضب وارسل شمر بن ذى جوشن الى عمر بن سعد اما ان تقابل الحسين وتقتله وتطأ الخيل جثته واما ان تنعزل ويكون الامير على الجيوش شمر فقال عمر بن سعد بل اقاتله ونهض عشية الخميس تاسع المحرم فسألهم المهلة الى الغد فاجابوه وأذن لاصحابه ان يتفرقوا حيث أرادوا فقال أخوه العباس لانبقى بعدك ولا أرانا الله ذلك اليوم وقال نحو ذلك اخوته وبنو اخيه وبنو عبد الله بن جعفر وكان الحسين وأصحابه يصلون الليل كله يدعون على يزيد فلما أصبح يوم عاشوراء يوم الجمعة ركب عمر بن سعد فى الجيش وثبت الحسين ومن معه وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا وتقاتلوا الى الظهر واشتد على الحسين العطش وتقدم ليشرب فرمى بسهم وقع فى فمه ونادى شمر لعنه الله ويحكم اقتلوه فضربه زرعة ابن شريك على كفه وآخر على عاتقه وطعنه سنان
ابن انس النخعى بالرمح فوقع فنزل اليه فذبحه واحتز رأسه وقيل الذى احتز رأسه هو الشمر وجاء به

﴿ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح ايلة﴾

وفى هذه السنة سار صلاح الدين أيضا عن مصر الى بلاد الفرنج فاغار على اعمال عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنج فى قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيرا وعاد الى مصر وعمل مراكب مفصلة وحملها اقطاعا على الجمال فى البر وقصد ايلة فجمع قطع المراكب وألقاها فى البحر وحصر ايلة برا وبحرا وفتحها فى العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها وعاد الى مصر

﴿ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة﴾

كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام قاضيا شافعيا فى مصر فاستناب القضاة الشافعية فى جميع البلاد فى العشرين من جمادى الآخرة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة اشترى تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين منازل العز بمصر وبناها مدرسة للشافعية وفيها أغار شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين على الاعراب الذين بالصعيد وكانوا قد أفسدوا فى البلاد ومدوا أيديهم فكفوا عما كانوا يفعلونه وفيها مات القاضى ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم وكان صاحب ديوان الانشاء بها وفيها وقع حريق ببغداد فى درب المطبخ وفى خرابة ابن جردة وفيها توفى الامير نصر بن المستظهر بالله عم المستنجد بالله وجموه وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله وكان موته فى ذى القعدة ودفن فى الترب بالرصافة وفيها جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد ولقب ظهير الدين وفيها حج بالناس الامير طاشتكين المستنجدى وكان نعم الامير رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة﴾

﴿ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية﴾

فى هذه السنة فى ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبى محمد الامام عبد الله بن يوسف ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد ابن الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور بن العزيز بالله أبى منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى الطاهر اسمعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المهدى بالله أبى محمد عبيد الله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بامرة المؤمنين وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة بها العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصى كان من أعيان الامراء الاسدية كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين فانه كان يخافه ان يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع

الى عمر بن سعد فأمر جماعة فوطئوا ظهر الحسين وصدره بخيولهم ثم بعث بالرؤس والنساء والاطفال الى عبيد الله بن زياد فبعثهم عبيد الله الى يزيد فجهزهم الى المدينة فلقيهم نساء بنى هاشم حاسرات وفيهن ابنة عقيل تبكى وتقول

ماذا تقولون ان قال النبى لكم
ماذا فعلتم وأنتم آخر الامم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى
منهم اسارى وصرعى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم
ان تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

وقتل مع الحسين من أولاد على أربعة العباس وجعفر ومحمد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة وعدة من أولاد جعفر وعقيل واختلف فى موضع رأسه فقيل جهز الى المدينة ودفن عند أمه وقيل عند باب الفراديس بدمشق وقيل ان خلفاء مصر نقلوا رأسا من عسقلان الى القاهرة ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المعروف بمشهد الحسين والصحيح ان عمره كان خمسا وخمسين سنة قيل حج خمسا وعشرين حجة وكان يصلى فى اليوم

خطبته وألزمه الزاما لا فسحة له فى مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض هذا الوقت مرضا شديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فنهم من أشار به ولم يفكر فى المصريين ومنهم من خافه الا أنه ما يمكنه الا امتثال أمر نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمى يعرف بالامير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ماهم فيه من الاحجام وان أحدا لا يتجاسر يخطب للعباسى قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء فنعلوا ذلك لم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفى فهو يعلم وان توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذى كان قد رتبه قبل موت العاضد فحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا أنا لا أشك فانى رأيته ووزنته واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فسخروا من العاضد فاخذه انسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب به ضرط فالقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل لاجل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه ونقل أهل العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالامس فسبحان الحى الدائم الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده وكان فى نسبه تسع خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدى ومنهم من لم يخطب له بالخلافة أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الامير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقى من خطب له بالخلافة وليس من آبائه المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بافريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج اليها من افريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وجميع مدة ملكهم من حين ظهر المهدى بسجلماسة فى ذى الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين الى أن توفى العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمررت ولم تصف الا وتكدرت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل قلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا فى الآخرة انه سميع الدعاء قريب من الاجابة ولما وصلت البشارة الى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة أيام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه وسيرت الخلع مع عماد الدين

والليلة ألف ركعة

(وفى سنة اثنتين وستين)

اتفق أهل المدينة على خلع يزيد وأخرجوا نائبه عثمان بن محمد بن أبى سفيان منها فجهز يزيد جيشا مع مسلم بن عقبة فسار اليها فى عشرة آلاف فارس وحاصرها وعمل أهل المدينة خندقا وجرى قتال شديد قتل فيه الفضل بن العباس وربيعة بن الحرث وجماعة من الاشراف والانصار ثم انهزم أهل المدينة وأباح مسلم نهبها وسبيها ثلاثة أيام يقتلون الناس وينهبون الاموال ويفسقون فى النساء وبايع من بقى بها من الناس ان يكونوا عبيدا ليزيد ثم سار بالجيش الى مكة فهلك فى الطريق وأقام مقامه الحصين بن نمير فى المحرم سنة أربع وستين وحاصر الحصين عبد الله بن الزبير بمكة أربعين يوما حتى جاء الخبر بموت يزيد فارتحل نحو الشام بعد أن رمى الكعبة بالمنجنيق وأحرقها بالنار وكانت وفاة يزيد بحوران من عمل حمص فى ربيع الاول سنة أربع وستين وعمره ثمان وثلاثون سنة ومدة خلافته ثلاث سنين ونصف وخلف عدة بنين وبنات وكان شاعرا فصيحا عربيا ربى فى

صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التى لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية والاعلام السود ثم ان هذا صندلا صار أستاذ دار الخليفة المستضىء بامر الله ببغداد وكان يدرى الفقه على مذهب الشافعى وسمع الحديث ورواه ويعرف أشياء حسنة وفيه دين وله معروف كثير وهو من محاسن بغداد

(ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا)

فى هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه أن صلاح الدين يوسف بن أيوب سار عن مصر فى صفر من هذه السنة الى بلاد الفرنج غازيا ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال وطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام فاجابهم الى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل اليه من جهة أخرى فقيل لصلاح الدين ان دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين اليك وأنت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء تركك أولا فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فرحل عن الشوبك عائدا الى مصر ولم يأخذه من الفرنج وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لامور بلغته عن بعض شيعته العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها فانه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلم يقبلها نور الدين منه وتغير عليه وعزم على قصد مصر واخراجه عنها وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فقال اذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وشتم تقى الدين وأقعده وقال لصلاح الدين أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكنا الا أن نقبل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغنى انك تريد الحركة لاجل البلاد فأى حاجة الى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى اليك وما ههنا من يمتنع وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا فلما خلا به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لا نقوى عليه وأما الآن اذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره فكان الامر كما ظنه أيوب فتوفى نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها

بنى كلب مع أمه ميسون بنت بحدل الكلبية طلقها معاوية حين سمعها تنشد

لَلُبس عباءة وتقر عينى
أحب الى من لبس الشفوف
وبيت تخفق الارواح فيه
أحب الى من قصر منيف
وبكر يتبع الاظعان صعب
أحب الى من بغل زفوف
وكلب ينبح الاضياف دونى
أحب الى من هر الدفوف
وخرق من بنى عمى نحيف
أحب الى من علج عنيف

فقال لها معاوية ما رضيت يا بنت بحدل حتى جعلتنى علجا الحقى بأهلك فمضت الى كلب ويزيد معها ومن شعر يزيد

دعوت بماء فى اناء فجاءنى
غلام به خمرا فاوسعته زجرا
فقال هو الماء القراح وانما
تبدى به خدى فاوهمك الخمرا

ولما توفى يزيد بويع بالخلافة ولده معاوية وكان شابا دينا فلم تكن ولايته الا أربعين يوما وقيل تسعين ومات وعمره احدى وعشرون سنة كان قبل مرضه جمع الناس وقال قد ضعفت عن أمركم فاختاروا من شئتم ثم دخل منزله وتغيب حتى مات فبايع الناس عبد الله بن الزبير فقام مروان بن الحكم بالشام واجتمعت عليه الناس وبنو أمية وجرت

﴿ ذكر غزوة الى الفرنج بالشأم ﴾

وفى هذه السنة خرج مركبان من مصر الى الشأم فارستا بمدينة لاذقية فاخذهما الفرنج وهما مملوآنان من الامتعة والتجارة وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فارسل نور الدين اليهم فى المعنى واعادة ما أخذوه من أموال التجار فغالطوه واحتجوا بامور منها ان المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء وكان الشرط أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه فلم يقبل مغالطتهم وجمع العساكر وبث السرايا فى بلادهم بعضها نحو انطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيثا وعريمة فاخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا اليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها الى ان قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وأما الذين ساروا الى انطاكية ففعلوا فى ولايتها مثل ما فعل فى ولاية طرابلس فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم فأجابهم الى ذلك وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم

﴿ ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده ﴾

فى هذه السنة توفى الامير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الاندلس وهى مرسية وبلنسية وغيرهما ووصى أولاده ان يقصدوا بعد موته الامير أبا يعقوب وكان قد اجتاز الى الاندلس فى مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه

﴿ ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه ﴾

فى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسمع صاحبها خوارزمشاه ايل ارسلان ابن اتسز فجمع عساكره وسار الى امرية ليقاتلهم ويصدهم فمرض وأقام بها وسير بعض جيشه مع أمير كبير اليهم فلقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ورجع به الخطا الى ماوراء النهر وعاد خوارزمشاه الى خوارزم مريضا

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة اتخذ نور الدين بالشأم الحمام الهوادى وهى التى يقال لها المناسيب وهى تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها وجعلها فى جميع بلاده وسبب ذلك انه لما اتسعت بلاده وطالت مملكته وعرضت أكنافها وتباعدت أوائلها عن أواخرها ثم انها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نازلوا حصنا من ثغوره فالى ان يصل الخبر يصل اليهم قد بلغوا غرضهم منه أمر بالحمام ليصل الخبر اليه فى يومه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها واقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين وفيها عزل الخليفة المستضىء بامر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء لان قطب الدين قايماز ألزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته وفيها مات أبو محمد عبد الله بن أحمد الخشاب اللغوى وكان قيما بالعربية وسمع الحديث وفيها مات البورى الفقيه الشافعى تفقه على محمد بن يحيى وقدم بغداد ووعظ وكان يذم الحنابلة وكثرت أتباعه فاصابه اسهال فمات هو وجماعة من أصحابه فقيل ان الحنابلة اعدوا له حلواء فاكل منها فمات وكل من أكل منها وفيها مات القرطبى أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الازدى الاندلسى وكان اماما فى القراءة والنحو وغيره

من

بينهما حروب قتل فيها الضحاك بن قيس من جهة ابن الزبير وآخر الامر انه استقر عبد الله بن الزبير خليفة على الحجاز والعراق واليمن ومروان بن الحكم خليفة على الشام ومصر

(وفى سنة أربع وستين)

هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت حيطانها مالت بسبب رمى المنجنيق وأعادها على ما كانت عليه أولا وأدخل الحجر فيها

(وفى سنة خمس وستين)

مات مروان بن الحكم حتف أنفه وقيل خنقته زوجته أم خالد بن يزيد وصاحت مات فجأة ودفن بدمشق وعمره ثلاث

وستون سنة ومدة خلافته تسعة أشهر وثمانية عشر يوما وبويع ابنه عبد الملك فى ثالث رمضان منها واستتب الامر له بمصر والشام

(وفى سنة ست وستين)

قام المختار بالكوفة طالبا لدم الحسين وبايعه الناس بها وطلب الشمر فقتله وبعث الى خولى بن يزيد الاصبحى فقتله وحرقه بالنار وقتل عمر بن سعد وابنه حفصا وبعث برأسيهما الى محمد بن الحنفية بالحجاز وأرسل الجنود الى قتال عبد الله بن زياد مع ابراهيم

من العلوم زاهدا عابدا انتفع به الناس فى كثير من البلاد ولاسيما أهل الموصل فانه أقام بها وفيها توفى رحمه الله

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة خوارزمشاه ايل ارسلان وملك ولده سلطانشاه وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه ﴾

فى هذه السنة توفى خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين قد عاد من قتال الخطا مريضا فتوفى وملك بعده سلطانشاه محمود ودبرت والدته المملكة والعساكر وكان ابنه الاكبر علاء الدين تكش مقيما فى الجند قد أقطعه أبوه اياها فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير انف من ذلك وقصد ملك الخطا واستمده على أخيه وأطمعه فى الاموال وذخائر خوارزم فسير معه جيشا كثيفا مقدمهم قرما فسار واحتى قاربوا خوارزم فخرج سلطانشاه وأمه الى المؤيد وأهدى له هدية جليلة المقدار ووعده أموال خوارزم وذخائرها فاغتر بقوله وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سوبرلى بليدة على عشرين فرسخا من خوارزم وكان تكش قد عسكر بالقرب منها فتقدم اليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد وكسر المؤيد وأخذ أسيرا وجىء به الى خوارزمشاه تكش فامر بقتله فقتل بين يديه صبرا وهرب سلطانشاه وأخذ الى دهستان فقصده خوارزمشاه تكش فافتتح المدينة عنوة فهرب سلطانشاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد الى خوارزم ولما عاد المنهزمون الى نيسابور ملكوا طغانشاه أبا بكر بن المؤيد واتصل به سلطانشاه ثم سار من هناك الى غياث الدين ملك الغورية فاكرمه وعظمه وأحسن ضيافته وأما علاء الدين تكش فانه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم فاخذته حمية الملك والدين وقتل أحد أقارب الملك وكان قد ورد اليه ومعه جماعة أرسله ملكهم فى مطالبة خوارزمشاه بالمال فامر خوارزمشاه أعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا فلم يسلم منهم أحد ونبذوا الى ملك الخطا عهده وبلغ ذلك سلطانشاه فسار الى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه علاء الدين تكش وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ولو رأوه لسلموا البلد اليه فسير معه جيشا كثيرا من الخطا مع قرما أيضا فوصلوا الى خوارزم فحصروها فامر خوارزمشاه علاء الدين باجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يغرقون فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضا ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ولاموا سلطانشاه وعنفوه فقال لقرما لو أرسلت معى جيشا الى مرو فاستخلصتها من يد دينار الغزى وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز الى الآن فسير معه جيشا فنزل على سرخس على غرة من أهلها وهجم على الغز فقتل مقتلة عظيمة فلم يتركوا بها أحدا منهم وألقى دينار ملكهم نفسه فى خندق القلعة فاخرج منه ودخل القلعة وتحصن بها وسار سلطانشاه الى مرو فملكها وعاد الخطا الى ماوراء النهر وجعل سلطانشاه دأبه قتال الغز والقتل فيهم والنهب منهم فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل الى نيسابور الى طغانشاه بن المؤيد يقول له ليرسل اليه من يسلم اليه قلعة سرخس فارسل اليه جيشا مع أمير اسمه قراقوش فسلم اليه دينار القلعة ولحق بطغانشاه فقصد سلطانشاه سرخس وحصر قلعتها وبلغ ذلك طغانشاه فجمع جيوشه وقصد سرخس فلما التقى هو وسلطانشاه فر طغانشاه الى نيسابور وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة فاخلى قراقوش قلعة سرخس ولحق بصاحبه وملكها سلطانشاه ثم أخذ طوس والزام وضيق الامر على طغانشاه بعلو همته وقلة قراره وحرصه على طلب الملك

ابن الاشتر النخعى فانهزمت أصحاب ابن زياد وقتل ابراهيم عبيد الله وبعث برأسه وعدة رؤس الى المختار وانتقم الله للحسين

(وفى سنة سبع وستين)

ولى عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا البصرة وطلب المهلب بن أبى صفرة من خراسان وأمرهما بالمسير معا لقتال المختار بالكوفة فحصروا المختار حتى قتل ونزل أصحابه فقتلهم مصعب جميعهم وكانوا سبعة آلاف

(وفى سنة احدى وسبعين)

سار عبد الملك لمصعب وسار مصعب اليه ولما التقى الجمعان نافق قوم مصعب عليه وقاتل حتى قتل هو وولداه ودخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق له الملك بالعراقين وجهز عبد الملك الحجاج ابن يوسف الى قتال ابن الزبير وجرت بينهما وافعات كثيرة آخرها انه حصر عبد الله بن الزبير ورمى البيت الحرام بالمنجنيق وأبى ابن الزبير أن يسلم نفسه وقاتل حتى قتل بعد حصار سبعة أشهر وكان عمره ثلاثا وسبعين سنة ومدة خلافته تسع سنين وبويع لعبد الملك فى الحجاز واليمن واجتمع

وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر فلم يزل الحال كذلك الى أن مات طغان شاه سنة اثنتين
وثمانين وخمسمائة فى المحرم وملك ابنه سنجر شاه فغلب عليه مملوك جده المؤيد اسمه منكلى
تكين فتفرق الامراء أنفة من تحكمه واتصل أكثرهم بسلطان شاه وسار الملك دينار الى
كرمان ومعه الغز فملكها وأما منكلى تكين فانه أساء السيرة فى الرعية وأخذ أموالهم وقتل
بعض الامراء فسمع خوارزمشاه بذلك فسار اليه فحصره بنيسابور فى ربيع الاول سنة اثنتين
وثمانين وخمسمائة فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد الى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين
الى نيسابور فحصرها وطلبوا منه الامان فامنهم فسلموا البلد اليه فقتل منكلى تكين وأخذ سنجر
شاه وأكرمه وأنزله بخوارزم وأحسن اليه فارسل الى نيسابور يستميل أهلها ليعود اليهم فسمع به
خوارزمشاه فاخذ سنجر شاه فسمله وكان قد تزوج بامه وزوجه بابنته فماتت فزوجه باخته
وبقى عنده الى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ذكر هذا أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى
فى كتاب مشارب التجارب وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا فى
بعض الامور مع تقديم وتأخير ونحن نوردها فقال ان تكش خوارزمشاه بن ارسلان أخرج
أخاه سلطان شاه من خوارزم وكان قد ملكها بعد موت أبيه فجاء الى مرو فملكها وأزاح الغز
عنها فخرجوا أياما ثم عادوا عليه فأخرجوه منها وانتهبوا خزائنه وقتلوا أكثر رجاله فعبر الى الخطا
فاستنجدهم وضمن لهم مالا وجاء بجيش عظيم فاخرج الغز عن مرو وسرخس ونسا وابيورد
وملكها ورد الخطا فلما أبعدوا كاتب غياث الدين الغورى يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج
وبادغيس وماوالاها ويتوعده ان هو لم ينزل عن ذلك فاجابه غياث الدين يطلب منه اقامة
الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات
على بادغيس وبيوار وماوالاها وحصر بوشنج ونهب الرساتيق وصادر الرعايا فلما سمع غياث الدين
ذلك لم يرض لنفسه أن يسير هو بل سير ملك سجستان وكاتب ابن أخته بهاء الدين سام صاحب
باميان باللحاق به لان أخاه شهاب الدين كان بالهند والزمان شتاء فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث
الدين وملك سجستان ومن معهما من العساكر ووافق ذلك وصول سلطان شاه الى هراة فلما
علم بوصولهم عاد الى مرو من غير أن يقاتلها وأحرق كل ما مر به من البلاد ونهب وأقام بمرو الى
الربيع وأعاد مراسلة غياث الدين فى المعنى فارسل الى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال فنادى فى
عساكره الرحيل لساعته وعاد الى خراسان واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان
وغيرهم من العساكر وقصدوا سلطان شاه فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه من الغز
والمفسدين وقطاع الطريق ومن عنده طمع خلق كثير فنزل غياث الدين ومن معه فى الطالقان
ونزل سلطان شاه بمرو الروذ وتقدم عسكر الغورية اليه وتواعدوا للمصاف وبقوا كذلك شهرين
والرسل تتردد بين غياث الدين وبين سلطان شاه وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الاذن
فى الحرب فلا يتركه وتقرر الامر على أن يسلم غياث الدين الى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع
بيوار وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين صاحب باميان الا أنهما لم يخالفا غياث الدين وفى آخر
الامر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين وحضر الامراء ليكتب العهد فقال الرسول
ان سلطان شاه يطلب ان يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الامر فارسل غياث الدين اليهما
فاعاد الجواب انا مماليكك ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك فبينما الناس مجتمعون فى تحرير الامر
واذ قد أقبل مجد الدين العلوى الهروى اليه وكان خصيصا بغياث الدين بحيث يفعل فى ملكه

الناس على طاعته
(وفى سنة ثلاث وسبعين)
بعد موت ابن الزبير بثلاثة
أشهر توفى عبد الله بن عمر
ابن الخطاب وعمره سبع
وثمانون سنة
(وفى سنة أربع وسبعين)
هدم الحجاج الكعبة
وأخرج الحجر عن البيت
وأعادها كما كانت على
زمن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو الى الآن
واستمر الحجاج بالحجاز أميرا
ثم ولى العراق وخرج فى
أيامه شبيب الخارجى
وكثرت جموعه وحروبه مع
الحجاج وآخر الامر انه
تفرقت جموعه وسقط من
فوق الجسر بفرسه فمات
وخرج على الحجاج عبد
الرحمن بن الاشعث
واستولى على العراق ثم
[على الكوفة ثم أمد عبد
الملك الحجاج بجيوشه وانهزم
عبد الرحمن ولحق بالترك
فقبض عليه ملك الترك
وأرسله مع أربعين من
أصحابه الى الحجاج فالقى
عبد الرحمن نفسه من سطح
ومات وهو فى الطريق
(وفى سنة ثلاث وثمانين)
بنى الحجاج مدينة واسط
(وفى سنة ست وثمانين)
مات عبد الملك بن مروان
فى منتصف شوال منها
وكانت مدة خلافته منذ

ما يختار فلا يخالف فجاء العلوى ويده فى يد ألب غازى ابن أخت غياث الدين وقد كتبوا الكتاب
وقد أحضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان فجاء العلوى كأنه يسار
غياث الدين ووقف فى وسط الحلقة وقال للرسول يا فلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من
جانب السلطان الاعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين ويقول لك العلوى خصمك أنا ومولانا
ألب غازى بيننا وبينك السيف ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأقبل على
غياث الدين وقال له هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريدا وحيدا لم تترك له مملكته باسيافنا من
الغز والاتراك والسنجرية فاذا سمع هذا عنا يجيء أخوه يطلب منازعته والهند وجميع ما بيدك
فحرك غياث الدين رأسه ولم يفه بكلمة فقال ملك سجستان للعلوى اترك الامر ينصلح فلما لم
يتكلم غياث الدين بمنع العلوى قال شهاب الدين للجاووشية نادوا فى العسكر بالتجهز للحرب
والتقدم الى مرو الروذ وقام وأنشد العلوى بيتا من الشعر عجميا معناه ان الموت تحت السيوف
أسهل من الرضا بالدنية فرجع الرسول الى سلطان شاه وأعلمه الحال فرتب عساكره للمصاف
والتقى الفريقان واقتتلوا فصبر والحرب فانهزم سلطان شاه وعسكره وأخذ أكثر أصحابه اسارى
فاطلقهم غياث الدين ودخل سلطان شاه مرو فى عشرين فارسا ولحق به من أصحابه نحو ألف
وخمسمائة فارس ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لاخيه سار من خوارزم فى ألفى فارس
وأرسل الى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه ان أراد الخطا وجد فى
السير ليقبض على أخيه قبل ان يقوى فاتت الاخبار سلطان شاه بذلك فلم يقدر على عبور جيحون
الى الخطا فسار الى غياث الدين وكتب اليه يعلمه قصده اليه فكتب الى هراة وغيرها من بلاده
باكرامه واحترامه وحمل الاقامات اليه ففعل به ذلك وقدم على غياث الدين والتقاه وأكرمه
وأنزله معه فى داره وأنزل أصحاب سلطان شاه كل انسان منهم عند من هو فى طبقته فانزل الوزير
عند وزيره والعارض عند عارضه وكذلك غيره وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فارسل علاء الدين بن
خوارزمشاه الى غياث الدين يذكره ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده وجمع العساكر
عليه ويشير بالقبض عليه ورده اليه فانزل الرسول واذا قد أتى كتاب نائبه بهراة يخبره ان كتاب
خوارزمشاه جاءه يتهدده فاجابه أنه لا يظهر لخوارزمشاه أنه أعلمه بالحال وأحضر الرسول وقال
له يقول لعلاء الدين أما قولك ان السلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها فلعمرى انه ملك وابن
ملك وله همة عالية واذا أراد الملك فمثله اراده وللامور مدبر يوصلها الى مستحقها وقد التجأ الى
وينبغى ان تنزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ومن الاملاك التى خلف والاموال
وأحلف لكما يمينا على المودة والمصافاة وتخطب لى بخوارزم وتزوج أخى شهاب الدين باختك
فلما سمع خوارزمشاه الرسالة امتعض لذلك وكتب الى غياث الدين كتابا يتهدده بقصد بلاده فجهز
غياث الدين العساكر مع ابن أخت ألب غازى وصاحب سجستان وسيرهما مع سلطان شاه الى
خوارزم وكتب الى المؤيد صاحب نيسابور يستنجده وكان قد صار بينهم مصاهرة زوج المؤيد
ابنه طغان شاه بابنة غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم
وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم الى لقاء عسكر الغورية الذين مع أخيه سلطان شاه وقد
نزلوا بطرف الرمل فبينما هو فى مسيره أتاه خبر المؤيد انه قد جمع عساكره وانه على قصد خوارزم
اذا فارقها فوقع فى قلبه وعاد الى خوارزم فاخذ أمواله وذخائره وعبر جيحون الى الخطا وأخلى
خوارزم فوقع بها خبط عظيم فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازى وسألوه ارسال أمير معهم

وفاة عبد الله بن الزبير
ثلاث عشرة سنة وأربعة
أشهر تنقص سبع ليال
وكان شديد البخر فكان
اذا مر الذباب بفمه مات
فسمى لذلك بابى الذبان
وكان يلقب لبخله برشح
الحجر وكان قد عهد لابنه
الوليد وفتحت فى خلافته
جزيرة الاندلس وماوراء
النهر وأضاف الى الحجاج
خراسان مع العراقين
وتغلغل الحجاج فى بلاد الترك
ومسلمة بن عبد الملك فى
بلاد الروم فتحا وسبيا وفتح
محمد بن القاسم الثقفى بلاد
الهند وفى هذه السنة ولى
الوليد بن عبد الملك عمه عمر
ابن عبد العزيز المدينة
وأمره بتوسعة مسجد
النبى صلى الله عليه وسلم
فدعا عمر عشرة من فقهاء
المدينة وهم عروة بن الزبير
وعبد الله بن عبد الله بن
عتبة وأبو بكر بن عبد
الرحمن وأبو بكر بن سليمان
وسليمان بن يسار والقاسم
ابن محمد بن أبى بكر الصديق
وسالم بن عبد الله بن عمر بن
الخطاب وأخوه عبد الله
وعبد الله بن عامر بن ربيعة
وخارجة بن زيد وقال اللهم
لا أقطع أمرا دونكم (وفى
سنة سبع وثمانين) وسع
عمر بن عبد العزيز مسجد
النبى صلى الله عليه وسلم

يضبط البلاد فخاف أن تكون مكيدة فلم يفعل فبينما هم على ذلك توفى سلطان شاه سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكتب ألب غازى الى غياث الدين يعلمه الخبر فكتب اليه يأمره بالعود اليه فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه فأمر غياث الدين بان يستخدموا وأقطع الاجناد الاقطاعات الجيدة وكلهم قابل احسانه بكفران وسنذكر باقى أخبارهم ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة أخيه عاد الى خوارزم وأرسل الى سرخس ومرو وشحنا فجهز اليهم أمير هراة عمر المرغنى جيشا فاخرجوهم وقال حتى نستأذن السلطان غياث الدين وأرسل خوارزمشاه رسولا الى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود وهو الذى جعل غياث الدين شافعيا وكان له عنده منزلة كبيرة فوعظوه وخوفوه الله تعالى وأعلموه ان خوارزمشاه يراسلهم يتهددهم بانه يجىء بالاتراك والخطا ويستبيح حريمهم وأموالهم وقالوا له اما ان تحضر أنت بنفسك وتجعل مرو دار ملكك حتى ينقطع طمع الكفرين ويأمن أهلها واما ان تصالح خوارزمشاه فاجاب الى الصلح وترك معارضة البلاد فلما سمع من بخراسان من الغز بذلك طمعوا فى البلاد فعاودوا النهب والاحراق والتخريب فسمع خوارزمشاه فجمع عساكره وحضر بخراسان ودخل مرو وسرخس ونسا وابيورد وغيرها وأصلح البلاد وتطرق الى طوس وهى للمؤيد صاحب نيسابور فجمع المؤيد جيوشه وسار اليه فلما سمع خوارزمشاه بمسيره اليه عاد الى خوارزم فلما وصل الى الرمل أقام بطرفه فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه وتبعه فلما سمع خوارزمشاه بذلك أرسل الى المناهل التى فى البريه فالقى فيها الجيف والتراب بحيث لا يمكن الانتفاع بها فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده فجاء خوارزمشاه اليه وهو على تلك الحال ومعه الماء على الجمال فاحاط به فاما عسكره فاستسلموا باسرهم وجىء بالمؤيد أسيرا الى خوارزمشاه فأمر بضرب عنقه فقال له يا مخنث هذا فعال الناس فلم يلتفت اليه وقتله وحمل رأسه الى خوارزم فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه طغان شاه فلما كان من قابل جمع خوارزمشاه عساكره وسار الى نيسابور فحاصرها وقاتلها فتبعه طغان شاه وأخذه وزوجه أخته وحمله معه الى خوارزم وملك نيسابور وما كان لطغان شاه وقوى أمره هذا الذى ذكره فى هذه الرواية تخالف لما تقدم ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت فان أحدهما قد قدم ما أخره الآخر فلهذا أوردنا جميع ما قالاه ولبعد البلاد لم نعلم أى القولين أصح لنذكره ونترك الآخر وانما أوردتها فى موضع واحد لان أيام سلطان شاه لم تطل له ولا عقابه حتى تتفرق على السنين فاذا أوردتها متتابعة

﴿ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول اجتمعت الفرنج وساروا الى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه وبلغ الخبر الى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة فسار اليهم مجدا وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم دخلوا الى السواد وهو من أعمال دمشق أيضا ولحقهم المسلمون فتخطفوا من ساقتهم ونالوا منهم وسار نور الدين فنزل فى عشترا وسير منها سرية الى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا وأحرقوا وخربوا فسمع الفرنج ذلك فرحلوا اليهم ليمنعوا عن بلدهم فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الفرنج فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم فاشتد القتال وصبر الفريقان الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردوها والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها

فلما

وجدد عمارته وأدخل بيوت زوجاته فيه بحيث صارت ساحة المسجد مائتى ذراع فى مثلها بصناع جهزها اليه الوليد (وفى سنة ثمان وثمانين) عمر الوليد الجامع المعروف ببنى أمية بدمشق وصرف عليه أموالا لا تحصى (وفى سنة أربع وتسعين) قتل الحجاج سعيد بن جبير أرسله اليه خالد القسرى أمير مكة بامر الوليد قال أحمد بن حنبل رحمه الله قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض الا وهو محتاج اليه والى علمه وفى هذه السنة توفى سعيد بن المسيب وكان من كبار التابعين وفقهائهم وفيها توفى زين العابدين على بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وكان مع أبيه لما قتل لكن سلم بسبب انه كان مريضا فى فراشه دفن بالبقيع وعمره ثمان وخمسون سنة (وفى سنة خمس وتسعين) هلك الحجاج لعنه الله تعالى وعمره أربع وخمسون سنة وكانت مدة ولايته العراق نحو عشرين سنة وكان أخفش رقيق الصوت قتل مائة وعشرين ألفا من المسلمين (وفى سنة ست وتسعين)

فلما طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا أن يستردوا منها شيأ

﴿ذكر مسير شمس الدولة الى بلد النوبة﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلد النوبة فوصل الى أول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك ان صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد فان قووا على منعه أقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتله أهلها فلم يكن لهم بقتال العسكر الاسلامى قوة لانهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فسلموها فملكها وأقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه وتحتمل المشقة لاجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجوارى

﴿ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى هزم مليح بن ليون الارمنى صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية وسبب ذلك ان نور الدين كان قد استخدم مليحا المذكور وأقطعه اقطاعا سنيا وكان ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهد الحروب معه مع الفرنج ومباشرها وكان هذا من جيد الرأى وصائبه فان نور الدين لما قيل له فى معنى استخدامه واعطائه الاقطاع فى بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكرى تكون بازائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح أيضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الارمن والروم وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم لانها تجاور بلاده فسير اليه ملك الروم جيشا كثيفا وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال وصابرهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والاسر وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد وأرسل مليح الى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الاسرى ثلاثين رجلا من مشهوريهم وأعيانهم فسير نور الدين بعض ذلك الى الخليفة المستضىء بأمر الله وكتب يعتد بهذا الفتح لان بعض جنده فعلوه

﴿ذكر وفاة ايلدكز﴾

فى هذه السنة توفى أتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد وكان ايلدكز هذا مملوكا للكمال السميرمى وزير السلطان محمود فلما قتل الكمال كما ذكرناه صار ايلدكز الى السلطان محمود فلما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والرى وما والاهما من البلاد وخطب بالسلطنة لابن امرأته ارسلان شاه بن طغرل وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان ارسلان معه حكم انما كان له جراية تصل اليه وبلغ من تحكمه عليه انه شرب ليلة فوهب ما فى خزانته وكان كثيرا فلما سمع ايلدكز بذلك استعاده جميعا وقال له متى أخرجت المال

مات الوليد بن عبد الملك ابن مروان ودفن بدمشق وعمره اثنتان وأربعون سنة ومدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر وكان سائل الانف جدا وكان لحانا ولما مات فى جمادى الآخرة من هذه السنة بويع بالخلافة أخوه سليمان بن عبد الملك وكان بمدينة الرملة فأتى دمشق وأحسن السيرة واستوزر عمر بن عبد العزيز (وفى سنة ثمان وتسعين) خرج بالجيوش الى غزو القسطنطينية ونزل بمرج دابق وأرسل أخاه مسلمة الى قسطنطينية وأقام على قسطنطينية وزرع بها الناس وأكلوا ولم يزل مسلمة قاهرا لاهلها حتى جاءه الخبر بموت سليمان وكان وفاته فى صفر سنة تسع وتسعين ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر وعمره خمس وأربعون سنة مات بالتخمة فانه كان أكولا الى الغاية قيل أتاه وهو بدابق بعض الاكارين بزنبيلين مملوأين تينا وبيضا فاكل الجميع تينه وبيضه فتخم ومات وأوصى بالخلافة لعمر بن عبد العزيز فبويع بالخلافة وأبطل سب على رضى الله عنه وكان يسب من سنة احدى وأربعين وجعل مكان السب ان

في غير وجهه أخذته أيضا من غير وجهه وظلمت الرعية وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم وينصف بعضهم من بعض

﴿ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها﴾

في هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب الى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجا عن طاعة عبد المؤمن فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيرا من بلاد افريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جبلت عليه من التخريب والنهب والافساد بقطع الاشجار والثمار وغير ذلك فجمع بها أموالا عظيمة وجعلها بمدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع افريقية لبعد أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها وكان ما سنذكره ان شاء الله

﴿ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس﴾

في هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من اشبيلية الى الغزو فقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة وندى وهي بالقرب من طليطلة ثم قام منها وحصرها واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ملك طليطلة في جمع كثير فلم يقدموا على لقاء المسلمين فاتفق ان الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات عندهم وهم في جمع كثير فاضطروا الى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وأقام يعقوب بها الى سنة احدى وسبعين وخمسمائة وهو على ذلك يجهز العساكر ويسيرها الى غزو بلاد الفرنج في كل وقت فكان له فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة ما لا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد أبو يعقوب الى مراكش

﴿ذكر نهب نهاوند﴾

في هذه السنة نهب عسكر شملة نهاوند وسبب ذلك ان شملة كان أيام ايلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة بلاده ويبذل فيها الاموال فلا يجيبه الى ذلك فلما مات ايلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان وسار الى اذربيجان لاصلاحها انفذ شملة ابن أخيه بن شنكا لاخذ نهاوند وبلغ أهل البلد الخبر فتحصنوا وحصرهم وقاتلهم وقاتلوه وأفحشوا في سبه فلما علم انه لا طاقة له بهم رجع الى تستر وهي قريبة منها وأرسل أهل نهاوند الى البهلوان يطلبون منه نجدة فتأخرت عنهم فلما اطمأنوا خرج ابن شنكا من تستر في خمسمائة فارس وسار يوما وليلة فقطع أربعين فرسخا حتى وصل الى نهاوند وضرب البوق وأظهر انه من أصحاب البهلوان لانه جاءهم من ناحيته ففتح أهل البلد له الابواب فدخله فلما توسط قبض على القاضي والرؤساء وصلبوهم ونهب البلد وقطع أنف الوالي وأطلقه وتوجه نحو ماسبذان قاصدا للعراق

﴿ذكر قصد نور الدين بلاد قلج ارسلان﴾

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي الى مملكة عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهي ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج ارسلان وأخذ بلاده وأخرجه

الله يأمر بالعدل والاحسان الآية (وفي سنة احدى ومائة) توفي عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لخمس بقين من رجب بخناصرة ودفن بدير سمعان قال ابن واصل والظاهر ان دير سمعان هو المعروف الآن بدير النقرة من عمل المعرة وأكثر الناس على انه مات بالسم سمه بنو أمية وكان مولده بمصر سنة احدى وستين وعمره أربعون سنة وشهر ومدة خلافته سنتان وخمسة أشهر وكان يدعى بالأشج لشجة كانت في وجهه ولما مات عمر بن عبد العزيز بويع بالخلافة ليزيد بن عبد الملك بن مروان وكان بعهد من سليمان اليه بعد عمر وفي خلافته خرج عليه يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فارسل اليه أخاه مسلمة فقاتله وقتله وقتل جميع آل المهلب وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة وأنشد

نزلت على آل المهلب شاتيا ... غريبا عن الاوطان في زمن المحل

فما زلت في احسانهم وافتقادهم ... وبرهم حتى حسبتهم أهلي

(وفي سنة خمس ومائة) توفي يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من شعبان وعمره أربعون سنة وخلافته

عنها طريدا فريدا فصار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا اليه فأكرم نزله وأحسن اليه وحمل له ما يليق أن يحمل الى الملوك ووعده النصرة والسعي في رد ملكه اليه ثم انه أرسل الى قلج ارسلان يتشفع في اعادة ملكه فلم يجبه الى ذلك فسار نور الدين اليه فابتدأ بكيسون وبهنسى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها وكان ملكه لمرعش أوائل ذي القعدة والباقي بعدها فلما ملكها سير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما سار نور الدين الى بلاده قد سار من طرفها التي تلي الشام الى وسطها وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقف نور الدين عن قصده رجاء ان ينصلح الامر بغير حرب فأتاه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه الى الصلح وشرط عليه ان ينجده بعساكره الى الغزاة وقال له أنت مجاور الروم ولا تغزوهم وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام ولا بد من الغزاة معي فاجابه الى ذلك وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهي لذي النون فبقي العسكر في خدمة ذي النون الى ان مات نور الدين فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلج ارسلان وملكها وهي بيد أولاده الى الآن سنة نيف وعشرين وستمائة ولما كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وباربل وخلاط والشام وبلاد قلج ارسلان وديار مصر

﴿ذكر رحيل صلاح الدين من مصر الى الكرك وعوده عنها﴾

في هذه السنة في شوال رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها الى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك والاجتماع مع نور الدين عليه والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما في جهة بعسكره وسبب ذلك ان نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي وأراد نور الدين قصده مصر وأخذها منه أرسل يعتذر ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما ان صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر لان طريقه أبعد وأشق ووصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل اليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لانهم علموا انه ان اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلا فلما عاد أرسل الفقيه عيسى الى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وانه مريض شديد المرض ويخاف ان يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود الا انه لم يظهر للرسول تأثرا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وسار صلاح الدين الى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه وكلمة تقول لقائلها دعني وكان سبب موت نجم الدين انه ركب يوما فرسا بمصر فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة فسقط عنه فحمل الى قصره وقيذا وبقي أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة وكان خيرا عاقلا حسن السيرة كريما جوادا كثير الاحسان الى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم وقد تقدم من ذكره وابتداء أمره وأمر أخيه شيركوه ما لا حاجة الى اعادته

أربع سنين وشهر وكان كثير اللهو والطرب واستقر في الخلافة هشام فان يزيد كان عهد بالخلافة الى أخيه هشام ثم من بعده لابنه الوليد (وفي سنة عشر ومائة) توفي الحسن البصري وكان مولده في خلافة عمر وفيها توفي محمد ابن سيرين وكان سيرين عبد الانس بن مالك (وفي سنة ست عشرة ومائة) توفي محمد الباقر بن زين العابدين رضي الله تعالى عنهما وعمره ثلاث وسبعون سنة ونقل ودفن بالبقيع (وفي سنة سبع عشرة ومائة) غزا المسلمون الترك وقتلوا منهم خلقا عظيما وقتلوا خاقان ملكهم وكان أمير المسلمين أسد بن عبد الله القسري (وفي سنة اثنتين وعشرين ومائة) قام زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب بالكوفة وبايعه جمع كثير فقاتله الوالي على الكوفة من جهة هشام يوسف بن عمير الثقفي فقتل زيد بسهم غرب ودفن واستخرجه بعد دفنه يوسف المذكور وبعث برأسه الى هشام فعلق رأسه بدمشق وصلبت جثته بالكوفة وكان عمر زيد لما توفي اثنتين وأربعين سنة (وفي سنة أربع وعشرين ومائة)

ذكر عدة حوادث

فى هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق فى شعبان وسدوا أبواب الدروب ووصل الماء الى قبة أحمد بن حنبل ووصل الى النظامية ورباط شيخ الشيوخ واشتغل الناس بالعمل فى القورج ثم نقص وكفى الناس شره وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز الى باب جامع القصر ومن الجانب الآخر من حجر الخاص الى دار أم الخليفة وفيها أغار بنو خزن من خفاجة على سواد العراق وسبب ذلك ان الحماية كانت لهم لسواد العراق فلما تمكن يزدن من البلاد وتسلم الحلة أخذها منهم وجعلها لبنى كعب من خفاجة وأغار بنو خزن على السواد فسار يزدن فى عسكر ومعه الغضبان الخفاجى وهو من بنى كعب لقتال بنى خزن فبينما هم سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساده وكان فى السواد فلما قتل عاد العسكر الى بغداد وأعيدت خفارة السواد الى بنى خزن وفيها خرج ترجم الايوانى فى جمع من التركمان فى حياة ايلدكز وتطرق أعمال همذان ونهب الدينور واستباح الحريم وسمع ايلدكز الخبر وهو بنقجوان فسار مجدا فيمن خف من عسكره فقصده فهرب ترجم الى أن قارب بغداد وتبعه ايلدكز فظن الخليفة انها حيلة ليصل الى بغداد فجأة فشرع فى جمع العساكر وعمل السور فأرسل الى ايلدكز الخلع والالقاب الكبيرة فاعتذر انه لم يقصد الا كف الامير يزدن وهو من أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع فوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة بواسط لان الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهر السنية الشماتة به فآل الامر الى القتال فقتل بينهم جماعة ولما مات أقطع أخوه تنامش ما كان لاخيه وهى مدينة واسط ولقب علاء الدين وفيها أرسل نور الدين محمود بن زنكى رسولا الى الخليفة وكان الرسول القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزورى قاضى بلاده جميعها مع الوقوف والديوان وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ويطلب تقليدا بما بيده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل وبما فى طاعته كديار بكر وما يجاور ذلك كخلاط وبلاد قلج ارسلان وان يعطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لابيه زنكى وهو صريفين ودرب هرون والتمس أرضا على شاطئ دجلة يبنيها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هرون فاكرم كمال الدين اكراما لم يكرمه رسول قبله وأجيب الى ما التمسه فمات نور الدين قبل الشروع فى بناء المدرسة رحمه الله

(ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة)

ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن

قد ذكرنا قبل ان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل الى مصر فيأخذها منهم فشرعوا فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم ان أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها فسير واشمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الاكبر الى بلد النوبة فكان ما ذكرناه فلما عاد الى مصر استأذنوا نور الدين فى أن يسير الى اليمن لقصد عبد النبى صاحب زبيد لاجل قطع الخطبة العباسية فأذن فى ذلك وكان بمصر شاعر اسمه عمارة من أهل اليمن فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن ويصف البلاد له ويعظم ذلك فى عينه فزاده قوله رغبة فيها فشرع يتجهز ويعد الازواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الاجناد فجمع وحشد وسار عن مصر مستهل رجب فوصل الى مكة أعزها الله تعالى ومنها الى زبيد وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبى فلما قرب منها رآه

توفى محمد بن مسلم الزهرى من كبار التابعين وكان اذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله ولا يلتفت الى أحد فقالت له زوجته والله لهذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر (وفى سنة خمس وعشرين ومائة) توفى هشام بن عبد الملك بالرصافة لست خلون من ربيع الاول وكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وكان عمره خمسا وخمسين سنة وكان أحول بين الحول (وبويع) الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان فى أسوا حال خوفا من هشام فعكف على اللهو وشرب الخمر ومعاشرة النساء وزاد فى العطايا ولم يقل فى شئ سئله لا وثقل ذلك على الرعية ورمى بالكفر وغشيان أمهات أولاد أبيه فخرج عليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وبايعه الناس وجرت بينهما حروب وآخر الامر انه أحضر الى يزيد رأس الوليد وطيف به فى دمشق وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر وعمره اثنتان وأربعون سنة (واستقر) يزيد بن الوليد فى الخلافة ونقص الناس زيادتهم فسمى

أهلها فاستقل من معه فقال لهم عبد النبى كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا الا أكلة رأس فخرج اليهم بعسكره فقاتلهم شمس الدولة ومن معه فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ووصل المصريون الى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا عبد النبى أسيرا وزوجته المدعوة بالحرة وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لاسيما اذا حجت فان فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة وخيرا كثيرا ومعروفا عظيما فلما أسر شمس الدولة عبد النبى وسلم شمس الدولة عبد النبى الى بعض امرائه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بنى منقذ أصحاب شيزر وأمره ان يستخرج منه الاموال فاعطاه منها شيأ كثيرا ثم انه دلهم على قبر كان قد صنعه لوالده وبنى عليه بنية عظيمة وله هناك دفائن كثيرة فاعلمهم بها فاستخرجت الاموال من هناك وكانت جليلة المقدار وأما الحرة فانها أيضا كانت تدلهم على ودائع لها فأخذ منها مالا كثيرا ولما ملكوا زبيد واستقر الامر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية أصلحوا احوالها وساروا الى عدن وهى على البحر ولها مرسى عظيم وهى فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك وهى من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها انسان اسمه ياسر فلو أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين وانما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج اليهم ومباشرة قتالهم فسار اليهم وقاتلهم فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه وأخذوا صاحبه ياسرا أسيرا وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة وقال ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيأ فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره ولما مضى الى عدن كان معه عبد النبى صاحب زبيد أسورا فلما دخل الى عدن قال سبحان الله كنت قد علمت انى أدخل الى عدن فى موكب كبير فانا أنتظر ذلك وأسر به ولم أكن أعلم انى أدخلها على هذا الحال ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد الى زبيد وحصر ما فى الجبل من الحصون فملك قلعة تعز وهى من أحصن القلاع وبها تكون خزائن صاحب زبيد وملك أيضا قلعة التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجيلى وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل فى كل قلعة نائبا من أصحابه وألقى ملكهم باليمن جرانه ودام وأحسن شمس الدولة الى أهل البلاد واستصفى طاعتهم بالعدل والاحسان وعادت زبيد الى أحسن أحوالها من العمارة والامن بعد خرابها

ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

فى هذه السنة ثانى رمضان صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شئ بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا البلاد فان خرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به وأخذوه أخذا باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وانا قد أبعدت أخاه الى اليمن خوفا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة

يزيد الناقص وخالف عليه أهل حمص وأهل فلسطين وقهرهم وعصى عليه عامل العراق ثم استبدل به وبعد سنة أظهر الخلاف عليه مروان بن محمد وكانت خلافته خمسة أشهر واثنى عشر يوما ومات بدمشق واستقر فى الخلافة بعده أخوه ابراهيم المخلوع ولم يتم له الامر كان يسلم عليه بالخلافة تارة وبالامارة أخرى ومكث أربعة أشهر وقيل سبعين يوما فانه قد سار اليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم من الجزيرة ليخلعه فلما قرب من دمشق أرسل اليه ابراهيم سليمان بن هشام فى مائة وعشرين ألفا وكان مع مروان ثمانون ألفا واقتتلوا قتالا شديدا ودخل مروان دمشق وبويع له بالخلافة ورجع الى منزله بحران وجاء اليه ابراهيم المخلوع وسليمان ابن هشام بالامان وبايعاه وخالف عليه أهل حمص وأهل دمشق وأهل فلسطين فقهرهم ثم سار مروان الى قرقيسيا فخلعه سليمان بن هشام واجتمع عليه سبعون ألفا من أهل الشام وسار اليه مروان والتقى الجمعان بارض قنسرين وانكسر سليمان وقتل من عسكره ما يزيد على ثلاثين ألفا وفى سنة تسع

عليه بعده وأرسلوا الى الفرنج وصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الارحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعى والقضاة الاان بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنى شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الامر فأمره بلازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على مايريدون يفعلونه وتعريفه مايتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ماعزموا عليه ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو فى الظاهر اليه والباطن الى أولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فاتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم وقيل فى كشف أمرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا لقى القاضى الفاضل الصلاحى يخدمه ويتقرب اليه بجهده وطاقته فلقيه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضى الفاضل ماهذا الالسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجا الواعظ وأخبره الحال وقال أريد تكشف لى الامر فسعى فى كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيأ فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع فذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم فأقروا فأمر بصلبهم وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك فندم ثم اخرج عمارة ليصلب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصى الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم انه علم بحالهم وأما الفرنج فان فرنج صقلية قصدوا الاسكندرية على مانذكره ان شاء الله تعالى لانهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين وأما فرنج الساحل الشامى فانهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال وكان عمارة شاعرا مفلقا فمن شعره

لوان قلبى يوم كاظمة معى * لملكته وكظمت فيض الادمع
قلب كفاك من الصبابة انه * لبى نداء الظاعنين ومادعى
ماالقلب أول غادر فألومه * هى شيمة الايام مذ خلقت معى
ومن الظنون الفاسدات توهمى * بعد اليقين بقاءه فى اضلعى

﴿وله أيضا﴾

لى فى هوى الرشا العذرى اعذار * لم يبق لى مذ أقر الدمع انكار
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى * ضم النهود لبانات وأوطار
هذا اختيارى فوافق ان رضيت به * أولا فدعنى وما أهوى وأختار

وعشرين ومائة ظهرت دعوة بنى العباس بخراسان وذلك ان أبا مسلم الخراسانى كان يختلف الى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس وولده من بعده ابراهيم المدعو بالامام وكانا بالشراة من عمل الشام بقرية يقال لها الحميمة ويستدعى الناس الى مبايعة بنى العباس فتفطن له نصر بن سيار أمير خراسان وأرسل الى مروان يعلمه بذلك وهو يتغفل عنه ومن جملة ماأرسل اليه يقول

أرى تحت الرماد وميض نار
ويوشك ان يكون لها اضطرام
فان لم تطفها عقلاء قوم
يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى
أأيقاظ أمية أم نيام

واستولى أبو مسلم على بعض بلاد خراسان وبايع أهلها لابراهيم الامام بعد وفاة أبيه محمد بن على بن عبد الله ابن عباس فأرسل مروان الى عامله بالبلقاء فامسك ابراهيم الامام وبعث به اليه فحبسه حتى مات فى حران وكان ابراهيم نعى نفسه الى أهل بيته وأمرهم بالمسير من الحميمة مع أخيه عبد الله أبى العباس السفاح الى الكوفة وأوصى بالخلافة الى أخيه السفاح فسار بهم الى الكوفة واختفى بها شهرا ثم ظهر وسلم عليه الناس

وله ديوان شعر مشهور فى غاية الحسن والرقة والملاحة

﴿ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله﴾

فى هذه السنة توفى نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الاربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونقل منها الى المدرسة التى أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين ومن عجيب الاتفاق انه ركب ثانى شوال والى جانبه بعض الامراء الاخيار فقال له الامير سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نور الدين لاتقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين رحمه الله بعد احد عشر يوما ومات الامير قبل الحول فاخذ كل منهما بما قاله وكان قد شرع يتجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب فانه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته وكان يعلم انه انما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به فانه يؤثر كون الفرنج فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فارسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة وكان عزمه ان يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى مصر فبينما هو يتجهز لذلك آتاه أمر الله الذى لامرد له حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الاطباء قال استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الاطباء فدخلنا اليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا مابه قلت له كان ينبغى أن لاتؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضىء فله أثر فى هذا المرض وشرعنا فى علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين لايفتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه وكان اسمر طويل القامة ليس له لحية الا فى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك فى كتاب الباهر من أخبار دولتهم ولنذكر ههنا نبذة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدى به فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه فانه كان لايأكل ولايلبس ولايتصرف الا فى الذى يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت اليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين فى حمص كانت له يحصل له منها فى السنة نحو العشرين دينارا فلما استقلتها قال ليس لى الا هذا وجميع مابيدى أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلى كثيرا بالليل وله فيه أوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ماأحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبى حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث وأسمعه طلبا للاجر وأما عدله فانه لم يترك فى بلاده على سعتها مكسا ولا عشرا بل أطلقها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها وأحضره انسان الى مجلس الحكم فمضى معه اليه وأرسل الى القاضى كمال الدين بن الشهرزورى يقول قد جئت

بالخلافة وعزوه فى أخيه ابراهيم ودخل دار الامارة بالكوفة صبيحة الجمعة ثانى عشر ربيع الاول سنة اثنتين وثلاثين ومائة ودخل المسجد وخطب الناس وصلى بهم الجمعة ثم عاد الى المنبر وصعد معه عمه داود وخطبا الناس وحضاهم على الطاعة وجلس أبو جعفر المنصور لاخذ البيعة لاخيه السفاح فى المسجد وخرج عسكر السفاح ونزل بحمام أعين وبعث عماله الى البلاد ثم ارتحل ونزل هاشمية الكوفة بقصر الامارة فسار مروان الحمار ويسمى الجعدى لاخذه بقول جعد بن درهم وهو آخر خلفاء بنى أمية طالبا أبا عون عبد الملك بن يزيد المتولى على شهرزور من جهة بنى العباس فلما وصل مروان الى الزاب التقاه أبو عون بما معه من الجموع وكان مع مروان مائة ألف وعشرون ألفا من العسكر وحفر مروان خندقا وعقد عليه جسرا وتكاثرت جيوش السفاح والتقى الجمعان وانكسر مروان وسار عبد الله عم السفاح فى أثره الى دمشق وحاصرها وفتحها عنوة يوم الاربعاء لخمس مضين من رمضان وأقام بها خمسة عشر يوما ثم رحل منها الى

مجا كما فاسلك معى ماتسلك مع الخصوم وظهر الحق له فوهبه الخصم الذى أحضره وقال أردت ان أترك له مايدعيه انما خفت أن يكون الباعث لى على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى مجلس الشرع فحضرت ثم وهبته مايدعيه وبنى دار العدل فى بلاده وكان يجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم ولو انه يهودى من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده وأما شجاعته فالها النهاية وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها فقال له القطب النساوى الفقيه بالله عليك لاتخاطر بنفسك وبالاسلام فان أصبت فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد الا أخذه السيف فقال له نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلى من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذى لا اله الا هو وأما مافعله من المصالح فانه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النورى بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات فى الطرق وبنى الخانكاهات فى جميع البلاد واوقف على الجميع الوقوف الكثيرة سمعت ان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صورى وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجالسهم معه وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقورا مهيبا مع تواضعه وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة لايحتملها هذا الكتاب

ذكر ملك ولده الملك الصالح

لما توفى نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسمعيل بالملك بعده وكان عمره احدى عشرة سنة وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فقال له كمال الدين صاحب مصر هو من اصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لانه قد انفرد اليوم بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراضهم وخافوا ان يدخل صلاح الدين ويخرجهم فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل وملك البلاد الجزرية على مانذكره فارسل صلاح الدين أيضا الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر فى خدمته ويكشف سيف الدين وكتب الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته الى لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولايته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى وسوف أصل الى خدمته وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده وتمسك ابن المقدم وجماعة الامراء بالملك الصالح ولم يرسلوه الى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية فانه كان أكبر الامراء النورية وانما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه وكان هو واخوته بحلب وأمرها اليهم وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه قطب الدين فلم يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال الى حلب لما ذكرناه

فلسطين فاقام بها وأرسل أخاه صالحا وراء مروان فلحقه وقد جاوز نيل مصر بقرية بوصير وطعن انسان مروان برمح فقتله وهرب ابناه مروان عبد الله وعبيد الله الى أرض الحبشة وقتل عبيد الله ونجا عبد الله وبقى الى خلافة المهتدى فبعثه عامل فلسطين اليه وكان عمر مروان لما قتل اثنتين وستين سنة ومدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر ونصف واستقر الامر للسفاح واعمامه وكان السفاح قد قرب سليمان بن هشام بن عبد الملك فدخل عليه شريف يوما وأنشد

لا يغرنك ماترى من رجال ... ان تحت الضلوع داء خفيا
فضع السيف وارفع الصوت حتى ... لاترى فوق ظهرها أمويا

فامر السفاح بسليمان فقتل فى الحال وأما عمه عبد الله ابن على بن عبد الله بن عباس فكان عنده نحو تسعين رجلا من بنى أمية وقد اجتمعوا للطعام فدخل عليه شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم وأنشد

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم وشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لاتقيلن عبد شمس عثارا

ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية

كان نور الدين قبل ان يمرض قد أرسل الى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعى العساكر منها للجهة الغزاة والمراد غيرها وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل فى عساكره وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذى كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين فلما كانوا ببعض الطريق وصلت الاخبار بوفاة نور الدين فاما سعد الدين فانه كان فى المقدمة فهرب جريدة وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره وعاد الى نصيبين فلكها وأرسل الشحن الى الخابور فاستولوا عليه وأقطعه وسار هو الى حران فحصرها عدة أيام وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحرانى فامتنع بها وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له ونزل الى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه وسار الى الرها فحصرها وملكها وكان بها خادم خصى أسود لنور الدين فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأعطيها ثم أخذت منه ثم صار الى ان يستعطى مايقوم به ويقوته وسير سيف الدين الى الرقة فلكها وكذلك سروج واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فانها كانت منيعة وسوى رأس عين فانها كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرض اليها وكان شمس الدين على بن الداية وهو أكبر الامراء النورية بحلب مع عساكرها فلم يقدر على العبور الى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به وأرسل الى دمشق يطلب الملك الصالح فلم يرسل اليه لما ذكرناه ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل اليه من سيواس بعد موت نور الدين وهو الذى أقر له الملك بعد أبيه فظن ان سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ماغرس وكان عنده كبعض الامراء قال له الرأى ان تعبر الى الشام فليس به مانع فقال له أكبر أمرائه وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار قد ملكت أكثر ما كان لابيك والمصلحة ان تعود فرجع الى قوله وعاد الى الموصل ليقضى الله أمرا كان مفعولا

ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها

لما مات نور الدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا الى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العسكر عنده بدمشق فخرج عنها فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم فى القول وقال لهم ان أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه والا فنرسل الى سيف الدين صاحب الموصل ونعلمه ونصالحه ونستنجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولا تقومون لنا وأنتم تعلمون ان صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين والآن فقد زال ذلك الخوف واذا طلبناه الى بلادكم فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شئ من المال أخذوه واسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب الى الملك الصالح والامراء الذين معه يقبح لهم مافعلوه ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وازعاجهم عن قصد شئ من بلاد الملك الصالح وكان قصده أن يصير له طريق الى بلاد الشام ليملك البلاد والامراء الشاميون انما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل فانه كان قد أخذ البلاد الجزرية وخافوا منه أن يعبر الى الشام فرأوا اصلاح الفرنج أصلح من أن يجئ هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم

واقطعن كل رقلة وغراس ... ذلها أظهر التودد منها
وبها منكمو كحد المواسى ... أنزلوها بحيث أنزلها الله
بدار الهوان والاتعاس ... واذكروا مصرع الحسين وزيد
وشهيدا بجانب المهراس ... والقتيل الذى بحران أضحى
ثاويا بين غربة وتناسى

فأمر عبد الله بهم فضربوا مكانهم بالعمد حتى ماتوا وبسط عليهم الانطاع ومد عليهم الطعام وأكل الناس فوقهم وأنينهم يسمع ونبش عبد الله قبور بنى أمية بدمشق معاوية وابنه وعبد الملك بن مروان وهشام ابن عبد الملك فوجد صحيحا فأمر به فصلب ثم احرق وقتل أولاد بنى أمية عن آخرهم ولم يفلت منهم غير رضيع هرب به الى الاندلس وقتل سليمان بن على بن عبد الله بن عباس جماعة من بنى أمية وأطعمهم الكلاب وولى السفاح أخاه يحيى بن محمد بن على ابن عبد الله الموصل وأخاه أبا منصور الجزيرة وما يليها وعمه داود مكة والمدينة واليمن واليمامة وابن أخيه عيسى بن موسى الكوفة وسوادها وكان على الشام عمه عبد الله وعلى مصر أبو عون بن يزيد

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في المحرم وقع الحريق ليلا ببغداد فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها ودام الحريق الى بكرة وطفئت النار وفيها في شعبان بنى ابن شنكا وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان قلعة بالقرب من الماهكي ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الاعمال فسير اليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه فالتقوا الحمل بنفسه على الميمنة فهزمها واقتتل الناس قتالا عظيما وأسر ابن أخي شملة وحمل رأسه الى بغداد فعلق بباب النوبي وهدمت القلعة وفيها في رمضان وكان الزمان ربيعا توالت الامطار في ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يوما ما رأينا الشمس فيها غير مرتين كل مرة مقدار لحظة وخربت المساكن وغيرها وكثر الهدم ومات تحته كثير من الناس وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد فانها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطئ دجلة خوفا من انفتاح القورج وغيره وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده ونبع الماء في البلاليع وخرب كثير من الدور ودخل الماء الى البيمارستان العضدي ودخلت السفن من الشبابيك التي له فانها كانت قد تقلعت فمن الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد ان أشرفوا على الغرق وفيها في جمادى الاولى كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة وسببها ان الخليفة أمر باعادة عضد الدين بن رئيس الرؤساء الى الوزارة فمنع منه قطب الدين وأغلق باب النوبي وباب العامة وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة فأجاب الخليفة الى تركه وزارته فقال قطب الدين لا أقنع الا باخراج عضد الدين من بغداد فأمر بالخروج منها فالتجأ الى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل فأخذه الى رباطه وأجاره ونقله الى دار الوزير بقطفتا فأقام بها ثم عاد الى بيته في جمادى الآخرة وفيها سقط الامير أبو العباس أحمد بن الخليفة وهو الذي صار خليفة من قبة عالية الى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجا فقيل لنجاح لم ألقيت نفسك فقال ما كنت أريد البقاء بعد مولاي فرعى له الامير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابيا وصارت الدولة جميعها بحكمه ولقبه الملك الرحيم عز الدين وبالغ في الاحسان اليه والتقديم له وخدمه جميع الامراء بالعراق والوزراء وغيرهم وفيها في رمضان وقع ببغداد برد كبار ما رأى الناس مثله فهدم الدور وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المواشي فوزنت بردة منها فكانت سبعة أرطال وكان عامته كالنارنج يكسر الاغصان هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه والعهدة عليه وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد صاحب نيسابور وبين شاه مازندران قتل فيها كثير من الطائفتين فانهزم شاه مازندران ودخل المؤيد بلد الديلم وخربها وفتك بأهلها وعاد عنها وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها ان الماء لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكرا رد الماء عنهم فغرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح أهل الكرخ انقلعت الشجرة لعن الله العشرة فقامت الفتنة فتقدم الخليفة الى علاء الدين تنامش فمال على أهل باب البصرة لانه كان شيعيا وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها وأغلقوا الابواب ووقفوا على السور وأراد احراق الابواب فبلغ ذلك الخليفة فأنكره أشد انكار وأمر باعادة تنامش فعاد ودامت الفتنة أسبوعا ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج ارسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد الى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة وفيها في جمادى الاولى مات

وعلى خراسان أبو مسلم الخراساني (وفي سنة ست وثلاثين ومائة مات السفاح) بالانبار في الجدري وعمره ثلاث وثلاثون سنة ومدة خلافته من قتل مروان أربع سنين وقبله ثمانية أشهر وعهد الخلافة الى أخيه ابي جعفر المنصور فبويع بالخلافة وقدم من الحج بعد أن بايعه بمكة أبو مسلم والناس وقدم الكوفة فصلى بها وبايعه الناس وأقام بالانبار فقام عمه عبد الله بالشام وبايع الناس لنفسه فجهز اليه أبو جعفر ابا مسلم الخراساني فاقتتلا ثم انهزم عبد الله فكتب أبو جعفر المنصور بولاية مصر والشام لابي مسلم وصرفه عن خراسان فلم يجب الى ذلك فسار الى خراسان فتغير أبو جعفر لذلك وطلب أبا مسلم مرارا حتى جاءه في ثلاثة آلاف فارس واخرج باقي عسكره بحلوان فقبل يده وانصرف فلما جاءه بالغداة كان أبو جعفر أوقف جماعة من حرسه وراء السرادق وقال اذا صفقت بيدي فاخرجوا على أبي مسلم فاقتلوه ففعلوا ذلك وكان مقتل أبي مسلم في شعبان (سنة سبع وثلاثين ومائة) بالمدائن وكان أبو مسلم قد قتل في

أحمد بن علي بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوي الحسيني نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الظاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد وفيها توفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمداني سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من أعيان المحدثين وكان له قبول عظيم ببلده عند العامة والخاصة

﴿ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وصول اسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامهم منها﴾

في هذه السنة ظفر أهل الاسكندرية وعسكر مصر باسطول الفرنج من صقلية وكان سبب ذلك ما ذكرناه من ارسال أهل مصر الى ملك الفرنج بساحل الشام والى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر فجهز صاحب صقلية اسطولا كثيرا عدته مائتا شيني تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الازواد وفيها من الراجل خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلي وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وسيره الى الاسكندرية من ديار مصر فوصلوا اليها في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وابعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج الى البر مما يلي البحر والمنارة وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم وسيرت الكتب بالحال الى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان في اقطاعه وهو قريب من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فاحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت اماراته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل أهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالتهم وأما صلاح الدين فانه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكا له ومعه ثلاثة جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها فسار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في ايديهم وازدادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من

مدة دولته ستمائة ألف صبرا (وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة) وسع المنصور المسجد الحرام وفيها أخذ قسطنطين ملك الروم ملطية من المسلمين وهدم سورها وعفا عن أهلها ﴿وفي سنة تسع وثلاثين ومائة﴾ ظفر المنصور بعمه عبد الله وأعدمه وكان مستخفيا عند اخيه سليمان وفيها ابتدأت الدولة الاموية بالاندلس لعبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك ﴿وفي سنة أربعين ومائة﴾ أرسل المنصور عبد الرحمن ابن أخيه ابراهيم الامام في سبعين ألفا من المسلمين فعمر ملطية وفيها أمر المنصور بعمارة المصيصة وأسكنها ألف جندي وسماها المعمورة ﴿وفي سنة احدى وأربعين ومائة﴾ ظهرت زنادقة يقولون بالتناسخ على مذهب أبي مسلم الخراساني فحبس المنصور منهم نحو مائتي رجل فاخذ الباقون نعشا وأوهموا أنهم اجتمعوا لجنازة فلما وصلوا باب السجن رموا النعش وكسروا باب السجن واخرجوا أصحابهم وتجمعوا نحو ستمائة نفر وأتوا باب المنصور فخرج المنصور ماشيا واجتمع عليه الناس وكان

ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم

﴿ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر﴾

وفى أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع اليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الصلاحية فى اقطاعه وهو أخو الامير أبى الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه وهو من أكبر الامراء وأشجعهم فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الامراء وكثيرا من العسكر ووصلوا الى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد العز وقهروا واستكانوا ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود الى الكنز وهو فى طغيانه بعمه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الاعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها

﴿ذكر ملك صلاح الدين دمشق﴾

فى هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وسبب ذلك ان نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازى الى حلب كما ذكرناه فأقام بها عند شمس الدين على بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يغير الى حلب فيملكها فأرسل سعد الدين الى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر الى حلب فلما قارب دمشق سير اليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا فنهبوه وعاد منهزما الى حلب فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم ان الامراء الذين بدمشق نظروا فى المصلحة فعلموا ان مسيره الى حلب أصلح للدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا الى ابن الداية يطلبون ارسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح فجهزه وسيره ✱ وعلى نفسها براقش تجنى ✱ فسار الى دمشق فى المحرم من هذه السنة وأخذ الملك الصالح وعاد الى حلب فلما وصلوا اليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية واخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الاحداث بها ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وقالوا ان استقر امر حلب أخذ الملك الصالح وسار به الينا وفعل مثل ما فعل بحلب وكاتبوا سيف الدين غازى صاحب الموصل ليعبر الفرات اليهم ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فهلك اشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان يقدر البعيد من الشر قريبا ويرى الجبن حزما كما قال

يرى الجبناء ان الجبن حزم ✱ وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما أشار عليه بهذا الرأى زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ما أخذه من البلاد فلما امتنع عن العبور الى دمشق عظم خوفهم وقالوا حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير الينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم وكان كبيرهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم وقد ذكرنا مخامرة أبيه فى تسليم سنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة فلما وصلت

من بن زائدة مستخفيا منه فخرج وقاتل معه الزنادقة فانكسرت الزنادقة وقتلوا عن آخرهم ﴿وفى سنة أربع وأربعين ومائة﴾ حبس المنصور من أولاد الحسن بن على بن أبى طالب احد عشر رجلا وقيدهم ﴿وفى سنة خمس وأربعين ومائة﴾ ظهر محمد بن عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى طالب بالمدينة وتبعه أهلها فارسل المنصور اليه ابن أخيه عيسى بن موسى وخندق محمد بن عبد الله وتقاتلا فقتل محمد بن عبد الله وجماعة من أهل بيته وكان هذا محمد بن عبد الله يلقب بالمهدى وبالنفس الزكية وفى هذه السنة ابتدأ المنصور فى عمارة بغداد وفيها قدم أخو النفس الزكية ابراهيم الى البصرة قبل موت أخيه ودعا الناس الى بيعة أخيه فاجابوه وعظم أمره وملك الاهواز وواسط وبلغ عسكره مائة ألف فلما جاءه خبر مقتل أخيه وجاءه عيسى ابن موسى قاتله وآخر الامر انه حمل رأس ابراهيم الى المنصور ﴿وفى سنة سبع وأربعين ومائة﴾ خلع المنصور العهد الذى كان عهده السفاح بعد المنصور لابن أخيه عيسى بن موسى

الرسل الى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة فى سبعمائة فارس والفرنج فى طريقه فلم يبال بهم فلما وطئ أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه فخرج ولقيه فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد فان كان معكم مال سهل الامر فقالوا انما مال كثير يكون خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فخرج كل من بها من العسكر اليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيقى وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله الى ريحان ليسلم القلعة اليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت الا لانصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه اليه وكان يخطب له فى بلاده كلها فصعد كمال الدين الى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها وأخذ ما فيها من الاموال وأخرجها واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه

﴿ذكر ملك صلاح الدين مدينتى حمص وحماة﴾

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق وقرر أمرها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب وسار الى مدينة حمص مستهل جمادى الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى اقطاع الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته فى أهلها ولم يكن له فى قلاع هذه البلاد حكم انما فيها ولاة لنور الدين وكان بقلعة حمص وال يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص حادى عشر الشهر المذكور راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فملك البلد وأمن أهله وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة الى ان عاد من حلب على ما نذكره ان شاء الله وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وان تصعد اليهم ميرة وسار الى مدينة حماة وهو فى جميع أحواله لا يظهر الا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وانه انما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من البلاد الجزرية فلما وصل الى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وانما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره الى حلب فى اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفى اطلاق شمس الدين على وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

﴿ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك﴾

لما ملك صلاح الدين حماة سار الى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبى وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبى اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدى اليه

وبايع لابنه المهدى محمد ابن المنصور وفيها ولى المنصور خالد بن برمك الموصل وفيها ولد الفضل ابن يحيى بن خالد بن برمك وارضعته الخيزران أم الرشيد فكان أخا الرشيد من الرضاعة وفيها توفى جعفر الصادق بن محمد الباقر ودفن بالبقيع ومولده سنة ثمانين ﴿وفى سنة خمسين ومائة﴾ مات الامام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه ببغداد مسجونا على قبول القضاء ودفن فيها وكان مولده سنة ثمانين وقيل سنة احدى وستين أدرك أربعة من الصحابة أنس بن مالك وعبد الله بن أبى أوفى بالكوفة وسهل بن سعد الساعدى بالمدينة وأبا الطفيل عامر بن واثلة قال أصحابه لقى هؤلاء وأخذ عنهم وعن غيرهم وقال غيرهم نعم أدركهم ولكن لم يلقهم ولم يرو عنهم والمثبت أولى من النافى وكذلك قال أصحابه هو النعمان بن ثابت بن النعمان ابن المرزبان وقال غيرهم هو النعمان بن ثابت بن زوطا مولى تيم الله بن ثعلبة وكان زوطا من أهل بابل وقيل كابل وقيل الانبار وهو الذى مسه الرق فى زعمهم وقال اسمعيل بن حماد بن أبى حنيفة ما وقع علينا رق قط

بأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثيرا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الاموال والانفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا فى القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها حيث كان الفرنج بالقرب منهم فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن فلا يقدر على القرب من البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فارسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقيس فعرفهم لانه جارهم فى البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذى أقدمكم وفى أى شئ جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا وبقى صلاح الدين محاصرا لحلب الى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب وسبب رحيله ان القومص الصنجيلى صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبقى فى الحبس الى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير فلما وصل الى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنؤنه بالسلامة وكان عظيما فيهم من أعيان شياطينهم فاتفق ان مرى ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة فلما توفى خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القمص ريمند تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرون فأرسل اليه من حلب يطلبون منه ان يقصد بعض البلاد التى بيد صلاح الدين ليرحل عنهم فسار الى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل الى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم ثم رحل الى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها فحصر القلعة الى ان ملكها فى الحادى والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام بيده ولما ملك حمص سار منها الى بعلبك وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين فحصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الامان له ولمن عنده فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة

(ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار)

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين الى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب ان يعبر اليه ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار ويأمره ان ينزل اليه بعساكره ليجتمعوا على المسير الى الشام فامتنع من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لانه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا فى عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره الى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضا زلفندار وجعله المدبر للامر وسار سيف الدين الى سنجار فحصرها فى شهر رمضان وقاتلها وجد فى القتال وامتنع عماد الدين بها وجد فى حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل الى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازى فى الصلح فلم يستقر حال

روى ان ثابتا أبا أبى حنيفة رآه على بن أبى طالب وهو صغير فدعا له ولذريته بالبركة فيهم وأهدى جده النعمان ابن المرزبان لعلى فالوذجا يوم المهرجان فقال على بن أبى طالب مهرجونا كل يوم وكان أبو حنيفة عالما عاملا زاهدا ورعا حسن الوجه حسن المنطق محتاجا (قيل) صلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة وختم القرآن فى الموضع الذى مات فيه سبعة آلاف مرة وفيها مات محمد بن اسحق صاحب المغازى كان ثقة ولكن طعن فيه مالك بن أنس ولذلك لم يرو عنه البخارى ولم يخرج عنه مسلم الا حديثا واحدا فى الترجمة وفيها مات مقاتل ابن سليمان البلخى وفيها بنى المنصور الرصافة لابنه المهدى وهى من الجانب الشرقى ببغداد (وفى سنة سبع وخمسين ومائة) مات الاوزاعى واسمه عبد الرحمن ابن عمرو وعمره سبعون سنة واسم جده محمد (وفى سنة ثمان وخمسين ومائة) مات المنصور وكان قد خرج من بغداد يريد الحج ومعه ولده المهدى يودعه فقال ياولدى انى ولدت فى الحجة ووقع فى نفسى انى أموت فى الحجة هذه ولذلك خرجت

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب)

فى هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعز الدين زلفندار الى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وان يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب الى ذلك وقال لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب فلما امتنع سيف الدين من اجابته الى ما بذل سار فى عساكره الى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه الا انه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفى وانهزموا لا يلوى أخ على أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال اما ان هذا أشجع الناس أو أنه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحا عظيما ودواب فارهة وعادوا بعد طول البيكار مستريحين وعاد المنهزمون الى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصرا لها ومقاتلا وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة فى بلاده ودام محاصرا لهم فلما طال الامر عليهم راسلوه فى الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فاجابهم الى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب فى العشر الاول من شوال ووصل الى حماة ووصلت اليه بها خلع الخليفة مع رسوله

(ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين)

فى هذه السنة فى العشر الآخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام وكان صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وهو من أكابر الامراء النورية فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن ان صلاح الدين يكرمه ويشاركه فى ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم ير من ذلك شيأ ففارقه ولم يكن بقى له من اقطاعه التى كانت له فى الايام النورية غير بعرين ونائبه بها فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد الى حماة وسار منها الى بعرين وهى قريبة منها فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وادام قتالها فسلمها واليها بالامان فلما ملكها عاد الى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى وأقطع حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وسار منها الى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة

(ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز)

فى هذه السنة ملك البهلوان بن ايلدكز مدينة تبريز وهى من جملة بلاد آقسنقر الاحمديلى وسبب ذلك ان البهلوان سار الى مراغة وحصرها وكان ابن آقسنقر الاحمديلى قد مات ووصى بالملك لابنه فلك الدين فقصده البهلوان ونزل على قلعة رويندز وحصرها فامتنعت عليه فتركها وحصر مراغة وسير أخاه قزل ارسلان فى جيش الى مدينة تبريز فحصرها أيضا وكان البهلوان يقاتل أهل مراغة فظفروا بطائفة من عسكره فخلع عليهم صدر الدين قاضى مراغة وأطلقهم فحسن ذلك عند البهلوان وشرع القاضى فى الصلح على أن يسلموا تبريز الى البهلوان فأجيب الى ذلك واستقرت القاعدة عليه وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز وأعطاها أخاه قزل ارسلان ورحل عن مراغة بعسكره

الى الحج فاتق الله فى عباد الله فمرض بالاسهال ومات فى ست من الحجة من هذه السنة ببئر ميمونة محرما وكان عمره ثلاثا وستين سنة ومدة خلافته اثنتين وعشرين سنة وثلاثة أشهر وولد بالحميمة وكان أسمر خفيف العارضين ودفن بالمعلى وكان من أحسن الناس خلقا فى الخلوة حتى يخرج الى الناس ووصل الخبر بموته (وبايع) الناس ولده المهدى فى منتصف الحجة (وفى سنة ستين ومائة) حج المهدى وفرق أموالا ووسع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر برد نسب زياد الى أبيه عبيد الرومى وأخرجه من نسب الامويين الى نسب ثقيف وفيها مات داود الطائى الزاهد وكان من أصحاب أبى حنيفة وتوفى عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى والخليل بن أحمد البصرى النحوى وسفيان الثورى وكان مولده سنة سبع وتسعين وابراهيم ابن أدهم بن منصور البلخى الزاهد بن بكر بن وائل (وفى سنة ثلاث وستين ومائة) قتل المقنع عطاء الخراسانى كان يسحر ويخيل للناس صورة قمر يطلع وادعى الربوبية وتبعه جماعة وبنى

(ذكر وفاة شملة)

فى هذه السنة مات شملة التركمانى صاحب خوزستان وكان قد كثرت ولايته وعظم شأنه وبنى عدة حصون وبقى كذلك زيادة على عشرين سنة وكان سبب موته انه قصد بعض التركمان فطلبوا بذلك فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب عراق العجم فسير اليهم جيشا فاقتتلوا فأصاب شملة سهم ثم أخذ أسيرا وولده وابن أخيه وتوفى بعد يومين وهو من التركمان الافشرية ولما مات ملك ابنه بعده

(ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد)

فى هذه السنة فى شوال سير علاء الدين تنامش وهو من أكابر الامراء ببغداد وكان قطب الدين قايماز زوج أخته عسكرا الى العراق فنهبوا أهله وبالغوا فى أذاهم فجاء منهم جماعة الى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنامش وتحكمهما عليه فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفاتت الصلاة أكثر الناس فأنكر الخليفة ماجرى فلم يلتفت قطب الدين وتنامش الى ما فعل واحتقروه فلاجرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدرائهم أهله فلما كان خامس ذى القعدة قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار وكان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة فى صاحبه فارسل اليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب فأحرق قطب الدين داره وحالف الامراء على المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصد دار الخليفة لعلمه ان ابن العطار فيها فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعد الى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لى فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحه فى ظهرها لكثرة الخلق على بابها وخرج من بغداد ونهبت داره وأخذ منها من الاموال مالا يعد ولا يحصى فروى فيها من النعم ماليس لاحد مثله فمن جملة ذلك ان بيت الطهارة الذى كان له فيه سلسلة ذهب من السقف الى محاذى وجه القاعد على الخلاء وفى أسفلها كرة كبيرة ذهب مخرمة محشوة بالمسك والعنبر ليشمها اذا قعد فتشبث انسان وقطعها ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير وكان الاقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس فلما أخذ ذلك الصعلوك الاكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طبيخا وألقى الاكياس فيها وجعلها على رأسه والناس يضحكون منه فيقول انا أريد شيأ أطعمه عيالى اليوم فجاء بما معه فاستغنى بعد ذلك فظهر المال ولم يبق من نعمة قطب الدين فى ساعة واحدة قليل ولا كثير ولما خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الامراء فنهبت دورهم أيضا وأخذت أموالهم وأحرق أكثرها وسار قطب الدين الى الحلة ومعه الامراء فسير الخليفة اليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة الى الموصل على البر فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ومات قطب الدين قبل وصوله الى الموصل فحمل ودفن بظاهر باب العمادى وقبره مشهور هناك وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الاحسان والظلم وسوء التدبير فانه ظلم أهل العراق وكفر احسان الخليفة الذى كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الامور كلها كما كان فان عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قوى بالاحسان على البلاد فأطاعوه ولما مات فى ذى الحجة وصل علاء الدين تنامش الى الموصل فأقام مديدة ثم أمره الخليفة بالقدوم الى بغداد فعاد اليها وبقى بها الى ان مات بغير

قامة وسماها سنام وراه النهر فلما حوصر فيها سقى نسوته سما فتن ثم تناول منه فمات وقتل كل من فى قلعته من اشياعه وكان أول أمره قصارا فى مرو وأعور مشوه الخلقة قصيرا جدا اتخذ له وجها من ذهب ولذلك سمى المقنع (وفى سنة ست وستين ومائة) قتل بشار بن برد الشاعر على الزندقة وكان ممسوح العينين خلقة عاش تسعين سنة (وفى سنة سبع وستين ومائة) زاد المهدى فى المسجد الحرام ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم (وفى سنة تسع وستين ومائه) توفى المهدى محمد بن عبد الله المنصور لثمان بقين من المحرم وكانت خلافته عشر سنين وشهرا وعمره ثلاث وأربعون سنة وبويع ولده موسى الهادى فظهر عليه الحسين ابن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب بالمدينة وقوى أمره وأخذ مكة فقاتله من كان حاجا من العباسيين فقتل الحسين وحمل رأسه مع رؤس كثيرة من قومه الى الهادى فانكر عليهم الهادى وقطع جوائزهم فان الحسين المذكور كان شجاعا كريما قدم مرة على المهدى فاعطاه أربعين ألف دينار ففرقها ببغداد والكوفة

اقطاع

اقطاع وكان هذا آخر أمرهم ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاج من السفر فتأخروا الى ان رحل عنها فدخلوا من الكوفة فى ثمانية عشر يوما وهذا مالم يسمع بمثله وفات كثيرا منهم الحج ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير وأعيد الى الوزارة قال بعض الشعراء فى قطب الدين وتنامش هذه الابيات

ان كنت معتبرا بملك زائل * وحوادث عنقية الادلاج
فدع العجائب والتواريخ الاولى * وانظر الى قيماز وابن قماج
عطف الزمان عليهما فسقاهما * من كاسه صرفا بغير مزاج
فتبدلوا بعد القصور وظلها * ونعيمها بهامه وفجاج
فليحذر الباقون من امثالها * نكبات دهر خائن مزعاج

وكان قطب الدين كريما طلق الوجه محبا للعدل والاحسان كثير البذل للمال والذى كان جرى منه انما كان يحمله عليه تنامش ولم يكن بارادته

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن واسمه يحيى بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل وحج بالناس عدة سنين واليه الحكم فى الطريق وناب عن الوزارة وتنقل فى هذه الاعمال أكثر من عشرين سنة وكان يحفظ القرآن

(ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين)

فى هذه السنة عاشر شوال كان المصاف بين سيف الدين غازى بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتل السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماه وانهزم سيف الدين وسبب ذلك انه لما انهزم أخوه عز الدين مسعود من صلاح الدين فى العام الماضى وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار عاد الى الموصل وجمع عساكره وفرق فيهم الاموال واستنجد صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس فسار الى نصيبين فى ربيع الاول من هذه السنة وأقام بها فاطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم وصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ثم سار الى حلب فنزل اليه سعد الدين كمشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح ومعه عساكر حلب وكان صلاح الدين فى قلة من العساكر لانه كان صالح الفرنج فى المحرم من هذه السنة على ما نذكره ان شاء الله وقد سير عساكره الى مصر فأرسل يستدعيها فاقوا عاجلوه ليبلغوا اغراضهم منه لكنهم تربثوا وتأخروا عنه فجاءته عساكره فسار من دمشق الى ناحية حلب ليلقى سيف الدين فالتقى العسكران بتل السلطان وكان سيف الدين قد سبقه فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فالقوا نفوسهم الى الارض ليس فيهم حركة فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال فقال زلفندار ما بنا هذه الحاجة الى قتال هذا الخارجى فى هذه الساعة غدا بكرة نأخذهم كلهم فترك القتال الى الغد فلما أصبحوا اصطفوا للقتال فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السيفى اعلامهم فى وهدة من الارض لا يراها الا من هو بالقرب منها فلما لم يرها الناس ظنوا ان السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهزموا ولم يلو أخ على أخيه ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم

وزجع بفروة ليس تحتها قميص (وفى سنة سبعين ومائة) مات الهادى وعمره ست وعشرون سنة وخلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر وبويع أخوه هرون الرشيد بن المهدى وأمه أم الهادى الخيزران واستوزر الرشيد يحيى بن خالد البرمكى وألقى مقاليد الامور اليه وفى هذه السنة عمر الرشيد طرسوس على يد فرج الخادم التركى وفيها عمر عبد الرحمن الاموى على الاندلس جامع قرطبة موضع الكنيسة وصرف عليه مائة ألف دينار (وفى سنة احدى وسبعين ومائة) مات عبد الرحمن المذكور وملك بعده ولده هشام وكان عمر عبد الرحمن حين مات مائة وخمسين سنة ومدة ملكه بالاندلس ثلاث وثلاثون سنة وكان طويلا أصهب أعور خفيف العارضين اجتمع عليه من أسلم من بنى أمية (وفى سنة ست وسبعين ومائة) ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن ابن على بن أبى طالب بالديلم واشتدت شوكته وجهز الرشيد الفضل بن يحيى البرمكى فى جيش عظيم فصالحه وأحضره الى

غير رجل واحد ووصل سيف الدين الى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعودا فى جمع من العسكر ولم يقم هو وعبر الفرات وسار الى الموصل وهو لا يصدق انه ينجو وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقرا الحميدية فقال له مجاهد الدين ارأيت ان ملكت الموصل عليك اتقدر أن تمتنع ببعض ابراج الفصيل فقال لا فقال برج فى الفصيل خير من العقر ومازال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب واتفق هو والوزير على شد أزره وتقوية قلبه فثبت ثم أعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على امارة الجيوش مجاهد الدين قايماز على ما نذكره ان شاء الله وقد ذكر العماد الكاتب فى كتاب البرق الشامى فى تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره فى هذه الوقعة عشرين ألف فارس ولم يكن كذلك انما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة فانى وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية وغير ذلك وكان المتولى لذلك والكاتب له أخى مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله وانما قصد العماد ان يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا والحق أحق ان يتبع ثم ياليت شعرى كم هى الموصل واعمالها الى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس

﴿ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين﴾

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا الى حلب عاد سيف الدين الى الموصل كما ذكرناه وترك بحلب أخاه عز الدين مسعودا فى طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح وأما صلاح الدين فانه لما استولى على اثقال العسكر الموصلى هو وعسكره وغنموها واتسعوا بها وقووا سار الى بزاعة فحصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها وجعل فيها من يحفظها وسار الى مدينة منبج فحصرها آخر شوال وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والاطماع فيه والطعن فيه فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فاما المدينة فملكها ولم تمتنع عليه وبقى القلعة وبها صاحبها قد جمع اليها الرجال والسلاح والذخائر فحصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف الى القلعة فوصل النقابون الى السور فنقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحى كل ما فيها وأخذ صاحبها أسيرا فأخذ صلاح الدين كل ماله وأصبح فقيرا لا يملك نقيرا ثم أطلقه صلاح الدين فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار الى قلعة اعزاز فنازلها ثالث ذى القعدة من السنة وهى من أحصن القلاع وأمنعها فنازلها وحصرها وأحاط بها وضيق على من فيها ونصب عليها المنجنيقات وقتل عليها كثير من العسكر فبينما صلاح الدين يوما فى خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولى وهو مقدم الطائفة الاسدية اذ وثب عليه باطنى فضربه بسكين فى رأسه فجرحه فلولا ان المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله فامسك صلاح الدين يد الباطنى بيده الا انه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية انما يضرب ضربا ضعيفا فبقى الباطنى يضربه فى رقبته بالسكين وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع فى زيق الكزاغند فتقطعه والزردية تمنعها من الوصول الى رقبته لبعد أجله فجاء أمير من امرائه اسمه بازكش فامسك السكين بكفه فجرحه الباطنى ولم يطلقها من يده الى أن قتل الباطنى وجاء آخر من الاسماعيلية فقتل أيضا وثالث فقتل وركب صلاح الدين الى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته ثم اعتبر جنده فمن أنكره أبعده ومن عرفه أقره على خدمته ولازم حصار اعزاز ثمانية

وثلاثين

الرشيد فأكرمه ثم أمسكه وحبسه ومات فى الحبس (وفى سنة تسع وسبعين ومائة) توفى الامام مالك بن أنس بن أبى عامر بن عمرو ابن الحرث من ولد ذى الاصبح أخى الحرث بن عوف من ولد يعرب بن قحطان وكان مولده سنة خمس وتسعين ودفن بالبقيع وكان طويلا أشقر (وفى سنة ثمانين ومائة) مات هشام بن عبد الرحمن بالاندلس وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر ومدة ملكه سبع سنين وسبعة أشهر واستخلف بعده ولده الحكم فخرج عليه عماه سليمان وعبد الله ثم ظفر بهما وقتل سليمان وصالح عبد الله وفيها توفى سيبويه النحوى بقرية يقال لها البيضاء من قرى شيراز واسمه عمرو ابن عثمان بن قنبر وكان أعلم الناس بالنحو وبرز على شيخه الخليل بن أحمد وقيل توفى بالبصرة سنة احدى وستين ومائة قال أبو الفرج بن الجوزى توفى سيبويه سنة أربع وتسعين ومائة وعمره اثنتان وثلاثون سنة بمدينة ساوة وذكر خطيب بغداد عن ابن

وثلاثين يوما كل يوم أشد قتالا مما قبله وكثرت النقوب فيها فاذعن من بها وسلموا القلعة اليه فتسلمها حادى عشر ذى الحجة

﴿ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها﴾

لما ملك صلاح الدين قلعة اعزاز رحل الى حلب فنازلها منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر وقد قام العامة فى حفظ البلد القيام المرضى بحيث انهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد لانه كان اذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد فترك القتال واخلد للمطاولة وانقضت سنة احدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصر لها ثم ترددت الرسل بينهم فى الصلح فى العشرين من المحرم فوقعت الاجابة اليه من الجانبين لان أهل حلب خافوا من طول الحصار فانهم ربما ضجروا وضعفوا وصلاح الدين رأى انه لا يقدر على الدنو من البلد ولا على قتال من به فأجاب أيضا وتقررت القاعدة فى الصلح للجميع للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين وتحالفوا واستقرت القاعدة ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر فلما انفصل الامر رحل عن حلب بعد أن عاد قلعة اعزاز الى الملك الصالح فانه أخرج الى صلاح الدين أختا له صغيرة طفلة فاكرمها صلاح الدين وحمل لها شيأ كثيرا وقال لها ما تريدين قالت أريد قلعة اعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها اليهم ورحل الى بلد الاسماعيلية

﴿ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها واقامة غيره﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة كان بمكة حرب شديدة بين أمير الحاج طاشتكين وبين الامير مكثر بن عيسى أمير مكة وكان الخليفة قد أمر أمير الحاج بعزل مكثر واقامة أخيه داود مقامه وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبى قبيس فلما سار الحاج من عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة وانما اجتازوا بها فلم يرموا الجمار انما بعضهم رمى بعضها وهو سائر ونزلوا الابطح فخرج اليهم ناس من أهل مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة وصاح الناس الغزاة الى مكة فهجموا عليها فهرب أمير مكة مكثر فصعد الى القلعة التى بناها على جبل أبى قبيس فحصروه بها ففارقها وسار عن مكة وولى أخوه داود الامارة ونهب كثير من الحاج وأخذوا من أموال التجار المقيمين بها شيأ كثيرا وأحرقوا دورا كثيرة ومن أعجب ما جرى فيها ان انسانا زراقا ضرب دارا بقارورة نفط فاحرقها وكانت لايتام فاحرقت ما فيها ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانا آخر فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها فبقى ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها وأظلمت الارض حتى بقى الوقت كانه ليل مظلم وظهرت الكواكب وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه وكنت حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء اقرأ عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفا شديدا وتمسكت به فقوى قلبى وكان عالما بالنجوم أيضا وقال لى الآن ترى هذا جميعه انصرف فانصرف سريعا وفيها ولى الخليفة المستضىء بأمر الله حجبة الباب أبا طالب نصر بن على الناقد وكان يلقب فى صغره قنبرا فصاروا يصيحون به ذلك اذا ركب فأمر الخليفة ان يركب معه جماعة من الاتراك ويمنعون الناس من ذلك فامتنعوا فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب فى

دريد أن سيبويه توفى بشيراز وقبره بها وسيبويه لفظ فارسى معناه بالعربية رائحة التفاح وسبب تلقبه بذلك انه كان حسن الوجه وجنتاه كانهما تفاحتان وجرى له مع الكسائى بحثه المشهور فى قولك كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور فاذا هو هى فقال الكسائى فاذا هو اياها وانتصر الخليفة للكسائى فغضب سيبويه وسافر من العراق الى شيراز وتوفى بها ﴿وفى سنة احدى وثمانين ومائة﴾ توفى أبو يوسف القاضى يعقوب ابن ابراهيم من ولد سعد بن حبتة الصحابى الانصارى وحبتة اسم أمه واسم أبيه عوف بن بجير ﴿وفى سنة ثلاث وثمانين ومائة﴾ توفى موسى الكاظم ببغداد فى حبس الرشيد وسمى الكاظم لانه كان يحسن الى من يسىء اليه وقبره ببغداد مشهور وكان مولده سنة تسع وعشرين ومائة ﴿وفى سنة سبع وثمانين ومائة﴾ أوقع الرشيد بالبرامكة وقتل جعفر بن يحيى وأكثر الناس على ان السبب ان الرشيد زوج أخته العباسة به ليحل له النظر اليها

الموكب فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيأ كثيرا وعزموا على ارسالها فى الموكب اذا رأوا ابن الناقد فأنهى ذلك الى الخليفة وقيل له بصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج وفيها فى ذى الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الاتراك بسبب أخذ جمال النحر فقتل بينهم جماعة ونهب شئ كثير من الاموال ففرق الخليفة أموالا جليلة فيمن نهب ماله وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق الى ما وراء الرى وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة وأكثر ذلك كان بالرى وقزوين وفيها فى ربيع الآخر استوزر سيف الدين غازى صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن بن جمال الدين محمد بن على وكان جمال الدين وزير البيت الاتابكى وقد تقدمت أخباره وهو المشهور بالجود والافضال ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة وكان جوادا فاضلا خيرا وكان عمره لما ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة وفيها فى ذى الحجة استناب سيف الدين أيضا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض اليه الامور وكان قبل ذلك اليه الامر بمدينة اربل وأعمالها وكان رحمه الله من صالحى الامراء وأرباب المعروف بنى كثيرا من الجوامع والخانات فى الطرق والقناطر على الانهار والربط وغير ذلك من أبواب البر وكان دائم الصدقة كثير الاحسان عادل السيرة رحمه الله وفيها قبض الخليفة على سنجر المقتفوى أستاذ الدار ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن على بن هبة الله بن الصاحب وفيها فى رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذى ملك اليمن الى دمشق ولما سمع ان أخاه صلاح الدين ملكها حن الى الوطن والاتراب ففارق اليمن وسار الى الشام وأرسل من الطريق الى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله وكتب فى الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصرى

والى صلاح الدين أشكو أننى * من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن * لولا هواه لبعد دار أجزع
فلأركبن اليه متن عزائمى * ويخب بى ركب الغرام ويوضع
ولأقطعن من النهار هواجرا * قلب النهار بحرها يتقطع
ولأسرين الليل لا يسرى به * طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن اليه قلبى مخبرا * انى بجسمى من قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة * من أفقها صبح السعادة يطلع

وفى هذه السنة فى المحرم برز صلاح الدين من دمشق وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبكسره عسكر الموصل لمخافة الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلدهم ونهبه والاغارة عليه فارسلوا اليه يطلبون الهدنة معه فأجابهم اليها وصالحهم فأمر العساكر المصرية بالعود الى مصر والاستراحة الى ان يعاود طلبهم وشرط عليهم انه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون فساروا اليها وأقاموا بها الى ان استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما ذكرناه وفيها مات أبو الحسن على بن عساكر البطائحى المقرى وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه وكان نحويا جيدا وفى ذى الحجة منها توفى أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع الحديث ورواه وله شعر جيد فمن ذلك انه كتب اليه بعض أصدقائه مكاتبة وضمنها شعرا فأجابه

يا من أياديه تغنى من يعددها * وليس يحصى مداها من لها يصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم * وصرت عبدا ولى فى ذلك الشرف

فواقعها سرا واحتاط على جميع أموال البرامكة فى سائر البلاد الا محمد بن خالد ابن برمك وذويه ولما قتل جعفر كان عمره سبعا وثلاثين سنة وكانت الوزارة فيهم سبع عشرة سنة وقال يحيى لما نكبوا الدنيا دول والمال عارية ولنا بمن قبلنا اسوة وفينا لمن بعدنا معتبر

﴿وفى سنة تسع وثمانين ومائة﴾ توفى محمد بن الحسن الشيبانى كان والده الحسن من أهل خراسان من دمشق فسافر الى العراق وأقام بواسط فولد له محمد ونشأ بالكوفة وصحب أبا حنيفة

﴿وفى سنة تسعين ومائة﴾ توفى يحيى بن خالد بن برمك وعمره سبعون فى حبس الرقة

﴿وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة﴾ مات ابنه الفضل فى حبس الرقة أيضا وعمره خمس وأربعون سنة قال السلطان المؤيد عماد الدين رحمه الله وكان خالد بن برمك من محاسن الدنيا ولم يرق العالم مثله وفيها مات الرشيد لثلاث خلون من جمادى الآخرة بمدينة طوس وكان عمره سبعا وأربعين سنة وخمسة أشهر ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهران وثمانية عشر يوما وكان جميل

اهديت

أهديت منظوم شعر كله درر * فكل ناظم عقد عنده يقف
اذا أتيت ببيت منه كان لنا * قصر ودور المعانى فوقه شرف
وان أتيت أنا بيتا يناقضه * أتيت لكن ببيت سقفه يكف
ما كنت منه ولا من أهله أبدا * وانما حين أدنو منه أقتطف

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر نهب صلاح الدين بلد الاسماعيلية﴾

لما رحل صلاح الدين من حلب على ما ذكرناه قبل قصد بلاد الاسماعيلية فى المحرم ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه وارادة قتله فنهب بلدهم وخربه وأحرقه وحصر قلعة مصيات وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها ولم يزل كذلك فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى شهاب الدين الحارمى صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه الى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وكان عسكره قد ملوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ونهب بلد الاسماعيلية فطلبوا العود الى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو الى مصر مع عسكرها لانه كان قد طال عهده عنها ولم يمكنه المضى اليها فيما تقدم خوفا على بلاد الشام فلما انهزم سيف الدين وحصر هو حلب وملك بلادها واصطلحوا أمن على البلاد فسار الى مصر وأمر ببناء سور على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمى ولم يزل العمل فيه الى ان مات صلاح الدين

﴿ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين﴾

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك فأتاه خبر أن جمعا من الفرنج قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك وأغاروا عليها فسار اليهم وكمن لهم فى الشعراء والغياض وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر وأسر نحو مائتى رجل منهم وسيرهم الى صلاح الدين وكان شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين وهو الذى ملك اليمن قد وصل الى دمشق كما ذكرناه وهو فيها فسمع ان طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم الى أعمال دمشق فسار اليهم ولقيهم عند عين الجر فى تلك المروج فلم يثبت لهم وانهزم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم منهم سيف الدين أبو بكر ابن السلار وهو من أعيان الجند الدمشقيين واجترأ الفرنج بعدها وانبسطوا فى تلك الولاية وجبروا الكسر الذى ناله منهم ابن المقدم

﴿ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده الى طاعته﴾

فى هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن بزان صاحب شهرزور على سيف الدين غازى وكان فى طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك ان مجاهد الدين قايماز كان متوليا مدينة اربل وكان بينه وبين ابن بزان عداوة محكمة فلما استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن بزان ان يناله منه أذى فاظهر الامتناع من النزول الى الخدمة فأرسل اليه جلال الدين وزير سيف الدين كتابا يأمره بمعاودة الطاعة ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسن الكتب وأبلغها فى هذا المعنى ولولا خوف التطويل لذكرته فيطلب من مكاتباته فلما وصل اليه الكتاب والرسول بادر الى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلف

الوجه أبيض يتصدق كل يوم بألف درهم وعهد بالخلافة الى ابنه الامين ابن زبيدة ثم الى المأمون ابن مراجل وكتب بينهما عهدا بذلك وجعله فى الكعبة وبويع بالخلافة للامين وخالف عليه أهل مصر ثم أطاعوا وكان يخطب للامين والمأمون معا فلما كانت خمس وتسعون ومائة أبطل الامين اسم المأمون من الخطبة وجعل مكانه فى العهد ابنه موسى وسماه الناطق بالحق وكان طفلا وجهز جيشا لحرب المأمون وكان طاهر ابن الحسين مقيما بالرى من جهة المأمون فخلع بيعة الامين وبايع المأمون وكسر عسكر الامين وقتل أميره على بن عيسى بن ماهان وحمل رأسه الى المأمون بخراسان وجرت حروب وآخر الامر أنه قوى أمر طاهر ودخل بغداد وحصر الامين وأمسكه وقتله ونصب رأسه على برج من ابرجة بغداد ثم أرسل به الى المأمون وكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وعمره ثمانيا وعشرين سنة وكان سبطا انزع صغير العينين

﴿ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ﴾

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فنك وهو على رأس جبل عال وهو للاكراد البشنوية له بأيديهم نحو ثلثمائة سنة وكان صاحبه هذه السنة أميرا منهم اسمه ابراهيم وله أخ اسمه عيسى قد أخرج منه وهو لا يزال يسعى فى أخذه من أخيه ابراهيم فأطاعه بعض بطانة ابراهيم وفتح باب السر ليلا وأصعد منه الى رأس القلعة نيفا وعشرين رجلا فقبضوا على ابراهيم ومن عنده ولم يكن عنده الا نفر من خواصه وهذه قلة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعا كثيرا وبها يسكن الامير وأهله وخواصه وباقى الجند فى القلعة تحت القلة فلما قبضوا ابراهيم جعلوه فى خزانة وضربه بعضهم بسيف فى يده على عاتقه فلم يصنع شيأ فلما جعل فى الخزانة وكل به رجلين وصعد الباقون الى سطح القلة ولا يشكون ان القلعة لهم لا مانع عنها ووصل من الغد بكرة الامير عيسى ليتسلم القلعة وبينهما دجلة وكانت امرأة الامير ابراهيم فى خزانة أخرى وفيها شباك حديد ثقيل يشرف الى القلعة فجذبته بيدها فانقلع وجند زوجها فى القلعة لا يقدرون على شئ فلما قلعت الشباك أرادت أن تدلى حبلا ترفع به الرجال اليها فلم يكن عندها غير ثياب خام فوصلت بعضها ببعض ودلتها الى القلعة وشدت طرفيها عندها فى عود فأصعدت اليها عشرة رجال ولم يكن يراهم الذين على السطح ورأى الامير عيسى وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه الى أولئك الذين على السطح ليحذروا وكان كلما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الاصوات فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ويمنعون من ذلك فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها الى زوجها قدح شراب وأمرته ان يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويعرفه الحال ففعل ذلك وجلس بين يديه ليسقيه وعرفه الحال فقال ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلا وخرجوا من عندها فمد ابراهيم يده الى الرجلين الموكلين به فأخذ شعورهما وأمر الخادم بقتلهما وكان عنده فقتلهما بسلاحهما فخرج واجتمع بأصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد اليه أصحابه من القلة فلم يجد المفاتيح وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا الى الصعود الى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى فعلموا الحال فجاؤا ووقفوا على رأس المرقى فلم يقدر أحد يصعد فأخذ بعض أصحاب ابراهيم ترسا وجعله على رأسه وحصل فى الدرجة وصعد وقاتل القوم على رأس المرقى حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقى منهم رجل ألقى نفسه من السطح فنزل الى أسفل الجبل فتقطع فلما رأى عيسى ما حل بأصحابه عاد خائبا مما أمله واستقر الامير ابراهيم فى قلعته على حاله

﴿ذكر نهب البندنيجين﴾

فى هذه السنة وصل الملك الذى بخوزستان عند شملة وهو ابن ملكشاه بن محمود الى البندنيجين فخربها ونهبها وفتك فى الناس وسبى حريمهم وفعل كل قبيح ووصل الخبر الى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاشتكين أمير الحاج وغرغلى وساروا نحو العدو فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد وكان معه من التركمان جمع كثير فتبعهم عسكر بغداد ورجعوا من غير أمر بالعود فأنكر عليهم ذلك وأمروا بالعود الى موافقهم فعادوا لأوائل شهر رمضان وقد رجع الملك فنهب من البندنيجين ما كان سلم فى الاول ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثم افترقوا فمضى الملك وفارق ولاية العراق

﴿ذكر عدة حوادث﴾

جميلا طوبلا منهمكا على المعاصى واللهو واستوثق الامر للمأمون شرقا وغربا وولى الحسن بن سهل العراق وفارس والحجاز واليمن والاهواز وكان عقد لاخيه الفضل بن سهل فوق ذلك وسماه ذا الرياستين يعنى الحرب والقلم وظهر فى أيام المأمون أبو طباطبا العلوى محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن ابن على بن أبى طالب بالكوفة وقوى أمره ومات (وفى سنة مائتين) ظهر أيضا ابراهيم بن موسى بن جعفر ابن محمد العلوى واستولى على الجزيرة وكان يسمى الجزار لكثرة من قتل وسبى وفى هذه السنة أمر المأمون باحصاء بنى العباس وكانوا ثلاثا وثلاثين ألفا ما بين ذكر وأنثى (وفى سنة احدى ومائتين) جعل المأمون ولى عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم وطرح السواد ولبس الخضرة وكتب بذلك الى الآفاق فأظهر العباسيون الخلاف وأنكروا عليه جعل الخلافة فى آل على وتفويض الامر الى الحسن ابن سهل وبايع أهل بغداد ابراهيم بن المهدى فى المحرم من سنة اثنتين

فى هذه السنة فى جمادى الاولى أقيمت الصلاة فى الجامع الذى بناه فخر الدولة ابن المطلب بقصر المأمون غربى بغداد وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التى على قبر الشافعى رضى الله عنه بمصر وعمل بالقاهرة بيمارستان ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ورأسين ورقبتين وظهرين وثمانى قوائم كأنهما خروفان ببطن واحد وجه أحدهما الى وجه الآخر وهذا من العجائب وفيها انقض كوكب أضاءت له الارض اضاءة كثيرة وسمع له صوت عظيم وبقى أثره فى السماء مقدار ساعة وذهب وفيها توفى تاج الدين أبو على الحسن بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة وفيها فى المحرم توفى القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى قاضى دمشق وجميع الشام واليه الوقوف بها والديوان وكان جوادا فاضلا رئيسا ذا عقل ومعرفة فى تدبير الدول رحمه الله ورضى عنه

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر الى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج وجمع معه عساكره وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى عسقلان فى الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا فى تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا ان الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساحوا فى الارض آمنين ووصل صلاح الدين الى الرملة عازما على ان يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم الا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لان أكثرهم تفرقوا فى طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه محمد ابن أخى صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدى عمه فقتل من أصحابه جماعة وكذلك من الفرنج وكان لتقى الدين ولد اسمه أحمد وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالما قد أثر فيهم أثرا كثيرا فأمره بالعودة اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا رحمه الله ورضى عنه وكان أشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل اليه فقتل الفرنجى بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف ليلحقه العسكر الى ان دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى فى نفر يسير الى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذى كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فان أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير وكان من جملة من أسر الفقيه عيسى الهكارى وهو من أعيان الاسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة وأسر أيضا أخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من أصحابهما وبقوا سنين فى الاسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الاسرى ووصل صلاح الدين الى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتابا كتبه صلاح الدين بخط يده الى أخيه شمس الدولة تورانشاه وهو بدمشق يذكر الوقعة وفى أوله

ذكرتك والخطى يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله سبحانه منه الا لأمر يريده سبحانه

* وما ثبتت الا وفى نفسها أمر *

ومائتين وجرت فتن فسار المأمون من مرو الى العراق فلما وصل سرخس وثب أربعة على الفضل بن سهل وقتلوه فى الحمام فجعل المأمون لمن يحضرهم عشرة آلاف دينار فلما حضروا قالوا للمأمون أنت أمرتنا بقتله فقتلهم وعقد المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل وزوج ابنته من على الرضا فلما دخلت سنة ثلاث ومائتين مات على الرضا فجاءة بطوس وصلى عليه المأمون ودفنه عند قبر أبيه الرشيد وكتب الى بغداد يدعونه وان السبب فى اختلافهم عليه قد زال فخلعوا ابراهيم بن المهدى واختفى الى أن قدم المأمون بغداد وكانت مدة خلافته نحو سنة واحد عشر شهرا وفى هذه السنة فى ذى الحجة كانت بخراسان زلازل عظيمة فامت سبعين يوما وهلك بها خلق كثير وبلاد كثيرة وفيها غلبت السوداء على عقل الحسن بن سهل حتى شد فى الحديد (وفى سنة أربع ومائتين) قدم المأمون بغداد فأعاد لبس السواد وفيها توفى الامام الشافعى محمد بن ادريس بن العباس

﴿ذكر حصر الفرنج مدينة حماة﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة وسبب ذلك انه وصل من البحر الى الساحل الشامى كند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزما فاغتنم خلو البلاد لان شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر وكان أيضا كثير الانهماك فى اللذات مائلا الى الراحات فجمع ذلك الكند الفرنجى من بالشام من الفرنج وفرق فيهم الاموال وسار الى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا اليها وأعانوا من بها وقاتل الفرنج على البلد قتالا شديدا وهجموا بعض الايام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهرا وقسرا فاجتمع أهل البلد مع العسكر الى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقتل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد الى ظاهره ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهارا وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم فساروا الى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمى وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام

﴿ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم﴾

فى هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشتكين وكان المتولى لامر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه انه كان بحلب انسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجمى وكان مقدما عند نور الدين محمود فلما مات نور الدين تقدم أيضا فى دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة أتباعه بحلب وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضم الى صالح وقوى جنانه وكثر اسواده وكان عنده اقدام وجراءة فصار واحد الدولة بحلب ومن يصدر الجماعة عن رأيه وأمره فبينما هو فى بعض الايام فى الجامع وثب به الباطنية فقتلوه ومضى شهيدا وتمكن بعده سعد الدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه الى العجز وانه ليس له حكم وان سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره ولم يزالوا به حتى قبض عليه وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه اياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا فيها فسير سعد الدين اليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها الى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات فى العذاب وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان فلما رأى الفرنج ذلك ساروا الى حارم من حماة فى جمادى الاولى على ما ذكرنا منهم انهم لا ناصر لهم وان الملك الصالح صبى قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها المنجنيقات والسلالم فلم يزالوا كذلك الى ان بذل لهم الملك الصالح مالا وقال لهم ان صلاح الدين واصل الى الشام وربما سلم القلعة من بها اليه فأجابوه حينئذ الى الرحيل عنها فلما رحلوا عنها سير اليها الملك الصالح جيشا فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا كأنهم طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير فسلموا القلعة الى الملك الصالح فاستناب بها مملوكا كان لابيه اسمه سرخك

ذكر

ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ابن عبد مناف وكان مولده بغزة سنة خمسين ومائة أخذ العلم عن مالك بن انس وسمع الحديث من محمد ابن الحسن الشيبانى وأثنى عليه قال الشافعى حفظت القرآن وأنا ابن تسع سنين والموطأ وأنا ابن عشر وقدمت على مالك وأنا ابن خمس عشرة سنة قال ورأيت على بن أبى طالب فى منامى فصافحنى وجعل خاتمه فى اصبعى ففسرت المصافحة بالامان من العذاب ووضع الخاتم فى اصبعى انه سيبلغ اسمى فى الآفاق ما بلغ اسمه وكان حسن الشعر ومنه قوله

وأحق خلق الله بالهم امرؤ
ذو همة يبلى بعيش ضيق

(وقال أيضا)

رعت النسور بقوة جيف الفلا
ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى المحرم خطب للسلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم عند ايلدكز بهمذان وكان أبوه ارسلان قد توفى وفيها سابع شوال هبت ببغداد ريح عظيمة فزلزلت الارض واشتد الامر على الناس حتى ظنوا ان القيامة قد قامت فبقى ذلك ساعة ثم انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة وفيها رابع ذى القعدة قتل عضد الدين أبو الفرج محمد ابن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبى القاسم بن المسلمة وزير الخليفة وكان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير وعبر معه أرباب المناصب وهو فى موكب عظيم وتقدم الى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحدا فلما وصل الى باب قطيبا القيه كهل فقال أنا مظلوم وتقدم ليسمع الوزير كلامه فضربه بسكين فى خاصرته فصاح الوزير قتلنى ووقع من الدابة وسقطت عمامته فغطى رأسه بكمه وضرب الباطنى بسيف وعاد الى الوزير فضربه وأقبل حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير فضربه الباطنى بسكين وقيل بل ضربه رفيق كان للباطنى ثم قتل الباطنى ورفيقه وكان لهما رفيق ثالث فصاح وبيده سكين فقتل ولم يعمل شيأ وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير الى دار له هناك وحمل حاجب الباب مجروحا الى بيته فمات هو والوزير وحمل الوزير فدفن عند أبيه بتربة الرباط عند جامع المنصور وكان الوزير قد رأى فى المنام انه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه ولده انه اغتسل قبل خروجه وقال هذا غسل الاسلام وأنا مقتول بلا شك وكان مولده فى جمادى الاولى سنة أربع عشرة وخمسمائة وكان أبوه أستاذ دار المقتفى لامر الله فلما مات ولى هو مكانه كذلك الى أن مات المقتفى فاقره المستنجد على ذلك ورفع قدره فلما ولى المستضىء استوزره وكان حافظا للقرآن سمع الحديث وله معروف كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج وفيها كانت فتنة ببغداد وسببها انه حضر قوم من مسلمى المدائن الى بغداد فشكوا من يهودها وقالوا لنا مسجد نؤذن فيه ونصلى وهو مجاور الكنيسة فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بكثرة الاذان فقال المؤذن ما نبالى بذلك فاختصموا وكانت فتنة استظهر فيها اليهود فجاء المسلمون يشكون منهم فأمر ابن العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة فخفف الخطيب الخطبة والصلاة فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم فلما رأى العامة ما فعل بهم غضبوا نصرة للاسلام فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقلعوا طوابيق الجامع ورجموا الجند فهربوا ثم قصد العامة دكاكين المخلطين لان أكثرهم يهود فنهبوها وأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم وانقلب البلد وخربوا الكنيسة التى عند دار البساسيرى وأحرقوا التوراة وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التى بالمدائن وتجعل مسجدا ونصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين فظنها العامة نصبت تخويفا لهم لاجل ما فعلوا فعلقوا عليها فى الليل جرذانا ميتة وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها وفيها فى شعبان قبض سيف الدين غازى صاحب الموصل على وزيره جلال الدين على بن جمال الدين لغير جرم ولا عجز ولا تقصير بل لعجز سيف الدين فان جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز شاحنة فقال مجاهد الدين لسيف الدين لا بد من قبض الوزير فقبض عليه كارها لذلك ثم شفع فيه ابن رئيس آمد لانه صهره بينهما فأخرج وسار الى آمد فمرض بها وعاد الى دنيسر فمات سنة خمس وسبعين وعمره سبع وعشرون سنة وحمل الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فدفن عند والده فى الرباط الذى بناه بها وكان رحمه الله من محاسن الدنيا جمع كرما

وفيها توفى النضر بن شميل البصرى النحوى خرج من البصرة مسافرا ومعه من أعيانها ثلاثة آلاف رجل يودعونه فقال والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلا ما رحلت عنكم فلم يكن أحد منهم يتكلف له ذلك ويرده وصار الى مرو وصحب المأمون وحظى عنده وصار ذا مال عظيم ومما أفاده ان السداد بفتح السين القصد فى الدين وبكسرها البلغة من العيش وأمر له المأمون على هذه المسئلة بخمسين ألف درهم وهو من أصحاب الخليل بن أحمد وفيها مات الحسن بن زياد صاحب أبى حنيفة وأبو داود الطيالسى صاحب المسند (وفى سنة ست ومائتين) مات الحكم بن هشام ملك الاندلس وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة ملكه ست وعشرون سنة وفيها مات قطرب تلميذ سيبويه سماه سيبويه قطربا لانه كان يبكر بليل للاشتغال عليه (وفى سنة سبع ومائتين) توفى الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله وكان معلما لاولاد المأمون لقب بالفراء لانه كان يفرى الكلام ولم يكن فراء بالفراء (وفى سنة

وعلما ودينا وعفة وحسن سيرة واستحلفه سيف الدين انه لايمضى الى صلاح الدين لانه خاف ان يمضى اليه للمودة التى كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فبلغنى ان صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين وفيها اجتمع الفرنج طائفة منهم وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم ووقف على طريقهم وكمن لهم فلما وصلوا اليه خرج اليهم هو والكمين ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسر جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموا فرده على أصحابه وفيها فى ربيع الآخر توفى صدقة بن الحسين الحداد الذى ذيل تاريخ الزاغونى ببغداد وفيها فى جمادى الاولى توفى محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفى المعروف بالمشطب ببغداد

﴿ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار جمع كثير من الفرنج بالشام الى مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعا فى النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا اليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والاسر فيهم واستردوا ما غنموه من السواد وكان صلاح الدين قد عاد من مصر الى الشام فى شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليه فأمر بقتل الاسرى فقتلوا

﴿ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه﴾

فى هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبك وكانت له قد سلمها اليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له حيث سلم اليه ابن المقدم دمشق على ما سبق ذكره فلم تزل بيده الى الآن فطلب شمس الدولة محمد بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه فى طلبها لان تربيته ومنشأه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الاكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها الى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب الى ذلك وذكره العهود التى له وما اعتمده معه من تسليم البلاد اليه فلم يصغ اليه وألح فى أخذها وسار ابن المقدم اليها واعتصم بها فوجه اليه صلاح الدين عسكرا وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها وترك عليه عسكرا يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل الى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها اليه فعوضه عنها وسلمها فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة

﴿ذكر الغلاء والوباء العام﴾

فى هذه السنة انقطعت الامطار بالكلية فى سائر البلاد الشامية والجزيرة والعراقية والديار البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاما فى سائر البلاد فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق وهى أربعة عشر مكوكا بالموصلى بعشرين دينارا صورية عتق وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكى بدينار أميرى وفى سائر البلاد ما يناسب ذلك واستسقى الناس فى أقطار الارض فلم يسقوا وتعذرت الاقوات وأكلت الناس الميتة وما ناسبها ودام كذلك الى آخر سنة خمس وسبعين ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضا كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيأ واحدا وهو السرسام وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى الا أن بعض البلاد كان أشد من

ثمان ومائتين) مات الفضل ابن الربيع (وفى سنة تسع ومائتين) مات أبو عبيدة اللغوى محمد بن حمزة وعمره تسع وتسعون سنة وكان مع فضله فى العلوم لا يفهم وزن الشعر فى بيت يستشهد به وبلغ عدد مصنفاته مائتين (وفى سنة عشر ومائتين) ظفر المأمون بابراهيم بن المهدى وحبسه ثم عفا عنه ودخل على بوران بنت الحسن بن سهل ونثرت عليه جدة بوران أم الحسن بن سهل ألف حبة لؤلؤ فوق البندق وأوقدت شمعة زنتها أربعون منا وكتب أسماء الضياع فى رقاع ونثرها على القواد فكل من أصاب منها شيأ تسلم ما كتب منها (وفى سنة احدى عشرة ومائتين) نادى المأمون برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير وفيها توفى الاخفش أبو الحسن سعيد بن مسعدة والاخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما أخذ النحو عن سيبويه وكان يقول ما وضع سيبويه فى كتابه شيأ الا عرضه على وهذا الاخفش هو الاوسط وهو أفضل الثلاثة وهو الذى زاد بحر الخبب فى العروض والاخفش الذى قبله اسمه أبو الخطاب

البعض ثم ان الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الامطار وأرخص الاسعار ومن عجيب ما رأيت أننى قصدت رجلا من العلماء الصالحين بالجزيرة لاسمع عليه شيأ من حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس فى أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الامطار وقد توسط الربيع ولم تجئ قطرة واحدة من المطر فبينا أنا جالس ومعى جماعة ننتظر الشيخ اذ قد أقبل انسان تركمانى قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكى الجوع فأرسلت من يشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه وهو يبكى ويتمرغ على الارض ويشكو الجوع فلم يبق فينا الا من بكى رحمة له وللناس فتغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز فأكل التركمانى بعضه وأخذ الباقى ومشى واشتد المطر ودام المطر من تلك الليلة

﴿ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين﴾

فى هذه السنة فى ذى القعدة اجتمع الفرنج وساروا الى بلد دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فأرسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه فى جمع من العسكر اليهم وأمره انه اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح طائر ليسير اليه وتقدم اليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدى الفرنج فسار فرخشاه فى عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والفرنج قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها الى سواه فانهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفرى وما أدراك ما هنفرى كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فأراح الله من شره وقتل غيره من اضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس وفيها أيضا أغار البرنس صاحب انطاكية ولاذقية على حشير المسلمين بشيزر وأخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فاجتحف بأموالهم وكان صلاح الدين على بانياس على ما نذكره ان شاء الله فسير ولد أخيه تقى الدين عمر الى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو دمرهم الله تعالى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث الليل الاخير وغاب منكسفا وفيها أيضا فى التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة وفى هذه السنة فى شعبان توفى الحيص بيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء والسلاطين والاكابر وشعره مشهور فمنه قوله

كلما أوسعت حلمى جاهلا * أوسع الفحش له فحش المقال
واذا شاردة فهت بها * سبقت مر النعامى والشمال
لا تملى فى شقائى بالعلا * رغد العيش لربات الحجال
سيف عز زانه رونقه * فهو بالطبع غنى عن صقال

وفى المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الابرى وسمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت هى قاربت مائة سنة وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلو اسنادها

﴿ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر تخريب الحصن الذى بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان﴾

كان الفرنج قد بنوا حصنا منيعا يقارب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف

عبد الحميد من أهل هجر كان نحويا أيضا والذى بعده على بن سليمان بن الفضل وكان نحويا أيضا توفى سنة خمس وثلثمائة (وفى سنة اثنتى عشرة ومائتين) أظهر المأمون القول بخلق القرآن وتفضيل على على جميع الصحابة (وفى سنة خمس عشرة ومائتين) توفى أبو سليمان الدارانى بداريا وتوفى مكى بن ابراهيم البلخى وأبو سعيد الاصمعى اللغوى واسمه عبد الملك ابن قريب (وفى سنة ثمان عشرة ومائتين) مات المأمون لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب وحمل الى طرسوس ودفن بها وكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ومولده نصف ربيع الاول سنة سبعين ومائة وكان كثير الاحسان الى العلويين وأوصى بهم عند موته كثيرا وأعاد فدك الى آل فاطمة وكان فاضلا مشاركا فى علوم كثيرة وشعره حسن فمنه

بعثتك مرتادا ففزت بنظرة
وأغفلتنى حتى أسأت بك الظنا
فناجيت من أهوى وكنت مباعدا

بمخاضة الاحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار الى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود اليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار في العساكر مجدا حتى وافاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخا صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم فاما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية واطلاق ألف أسير من المسلمين وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين وحكى عنه قال ذكرت في تلك الحال بيتي المتنبي وهما

فان تكن الدولات قسما فانها * لمن يرد الموت الزؤام تؤول

ومن هون الدنيا على النفس ساعة * وللبيض في هام الكماة صليل

فهان الموت في عيني فالقيت نفسي اليه وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين الى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول الى ذلك الحصن ومحاصرته فسار اليه في ربيع الاول وأحاط به وقوي طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه وبث العساكر في بلاد الفرنج للاغارة ففعلوا ذلك وجمعوا من الاخشاب والزرجون شيأ كثيرا ليجعله متارس للمنجنيقات فقال له جاولي الاسدي وهو مقدم الاسدية ومن أكابر الامراء الرأي أننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من به وننظر الحال معهم فان استضعفناهم والا نصب المنجنيقات ما يفوت فقبل رأيه وأمر فنودي بالزحف اليه والجد في قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم الامر فصعد انسان من العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من اضرابه ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها الى اسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم الى أن يأتيهم المدد وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية فالح المسلمون في قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج اليهم وازاحتهم عنه وأدركهم الليل فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة الى الغد ففعلوا فلما كان الغد أصبحوا نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فانه كان تسعة أذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا ونصفا فانتظروه يومين فلم يسقط فامر صلاح الدين باطفاء النار التي في النقب فحمل الماء وألقي عليها فطفئت وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الاول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وأدخل الباقين الى دمشق فحبسوا وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالارض وكان قد بذل للفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظنا منهم انه اذا بقي بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الاسلام وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر باخذه فت في اعضادهم فتفرقوا الى بلادهم وأكثر الشعراء فيه فمن ذلك قول صديقنا النشو بن نفاذة رحمه الله

ويا ليت شعري عن ذلك ما أغنى
أرى آثارها بعينيك بينا
لقد أخذت عيناك من عينها حسنا

وأوصى بالخلافة لاخيه المعتصم فبويع بها وأراد الجند مبايعة العباس بن المأمون فطلبه المعتصم فدخل اليه وبايعه وخرج الى الجند وقال قد بايعت عمي فرضوا وكان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قد صمم على عدم القول بخلق القرآن وكان قد طلبه المأمون فلما أحضر الى المعتصم جلده حتى غاب عقله وتمزق جلده وحبسه (وفي سنة عشرين ومائتين) خرج المعتصم لبناء سامرا وتوفي محمد الجواد بن علي الرضا ابن موسى الكاظم وعمره خمس وعشرون سنة ودفن ببغداد عند جده موسى الكاظم * (وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين) * خرج ملك الروم توفيل وبلغ زبطرا وقتل وسبي ومثل بالمسلمين وصاحت امرأة هاشمية بايدي الروم وامعتصماه وبلغ المعتصم فخرج من وقته بعسكر لا تحصى بينه وبين ميمنته فرسخان وكذلك ميسرته فخرب بلاد الروم وحرقها حتى

هلاك الفرنج أتى عاجلا * وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفها * لما عمرت بيت أحزانها

وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي

أتسكن أوطان النبيين عصبة * تمين لدى أيمانها وهي تحلف

نصحتكم والنصح للدين واجب * ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

(ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج ارسلان)

في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب بلاد قونية وأقصرا وسببها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر رحمه الله كان قد أخذ قديما من قلج ارسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم الى الآن فطمع فيه قلج ارسلان بسبب أن الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين فارسل اليه من يحصره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألفا فأرسل اليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد الى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الاحزان فكان يفتخر ويقول هزمت بالف مقاتل عشرين ألفا

(ذكر وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله)

في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الامام المستضيء بامر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة باخذه وكان الناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا رضي الله عنه فلقد كانت أيامه كما قيل

كأن أيامه من حسن سيرته * مواسم الحج والاعياد والجمع

ووزراؤه عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء الى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكنا كثيرا فلما مات المستضيء قام ظهير الدين بن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أمير المؤمنين فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ووكل عليه في داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفي ليلة الاربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتا على رأس حمال سرا فغمز به بعض الناس فثار به العامة فالقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعني انها قلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون وقع لنا يا مولانا الى غير هذا من الافعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همذان وأصفهان والري وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له في القول حتى انه قال لعسكره في حضرته ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه من

وصل عمورية وكانت أشرف بلاد النصارى لم تؤخذ منهم قط فحاصرها وأحرقها وخربها وسبى أهلها وغنم أموالها وكان مقامه عليها خمسة وخمسين يوما وفي عوده أمسك العباس وحبسه بمنبج ومنع الماء حتى مات * (وفي سنة أربع وعشرين ومائتين) * مات ابراهيم بن المهدي وصلى عليه المعتصم (وفي سنة سبع وعشرين ومائتين) مات المعتصم بسامرا وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ويومين فكان ثامن الخلفاء العباسيين وترك ثمانية بنين وثمان بنات وهو أول من أضيف الى لقبه اسم الله وكان مولده سنة سبع وتسعين ومائة وكان طيب الخلق كثير الصدقة وبويع بالخلافة ولده الواثق بالله ابن قراطيس الرومية (وفي سنة احدى وثلاثين ومائتين) مات البويطي العالم الشافعي الذي هو منسوب الى قرية من قرى مصر اسمها بويط وفيها توفي محمد ابن زياد بالكوفة المعروف بابن الاعرابي ولد في الليلة التي مات فيها أبو حنيفة وقيل ان الشافعي ولد فيها أيضا والاعرابي منسوب

الامارة وتداولوه فاضطر الى البيعة والخطبة وأرسل رضى الدين القزوينى مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى السنة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر الى أن مضى من الليل ربعه وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الانسان يبصر صاحبه وكنت حينئذ بالموصل فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار وظنوا أن القيامة قد قامت فلما مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام والعتمة التى غطت السماء فنظرنا فرأينا النجوم فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لان الظلام لم يزد بدخول الليل وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك وفيها فى ذى القعدة نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبك وطلب عوضا عنها الاسكندرية فاجابه صلاح الدين الى ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه ابن أخيه فسار اليها وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل الى قلعة صفد وهى مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم وخرج وفعل فى الفرنج أفاعيل عظيمة وأما شمس الدولة فانه سار الى مصر وأقام بالاسكندرية واذا أراد الله أن يقبض رجلا بارض جعل له اليها حاجة فانه أقام بها الى أن مات بها وفيها فارب الجامع الذى بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع وفيها توفى أحمد بن عبد الرحمن الصوفى شيخ رباط الزوزنى وسمع الحديث وكان يصوم الدهر وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه وهو من بيت الحديث والقاضى عمر بن على بن الخضر أبو الحسن الدمشقى سمع الحديث ورواه وولى قضاء الحريم وعلى ابن أحمد اليزيدى سمع الحديث الكثير وله وقف كتب كثيرة ببغداد وكان زاهدا خيرا صالحا ومحمد ابن على بن حمزة بن على الاقساسى نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيرا

رب قوم فى خلائقهم * عرر قد صيرت غررا

ستر المال القبيح لهم * سترى ان زال ما سترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الانبارى كاتب الانشاء بعد أبيه وأبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغانى الفقيه كان مناظرا حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبى حنيفة

﴿ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده﴾

فى هذه السنة ثالث صفر توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه فى آخره برسام ومات ومن عجيب ما يحكى أن الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين فى موكبه فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا ما بها من خمور وكسروا الظروف وعملوا ما لا يحل فاستغاث أصحاب الدور الى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن فى الذى فعله العامة من النهب وما لا يجوز فعله انما أراق الخمور ونهى العامة عن الذى يفعلونه فلم يسمعوا منه فلما شكى

الى الاعراب يقال رجل اعرابى اذا كان بدويا وان لم يكن من العرب ورجل عربى منسوب الى العرب وان لم يكن بدويا ويقال رجل أعجم وأعجمى اذا كان فى لسانه عجمة وان كان من العرب ورجل عجمى منسوب الى العجم وان كان فصيحا هكذا ذكره محمد بن عزيز السجستانى فى كتابه المنسوب اليه المسمى بغريب القرآن *(وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين)* مات الواثق بالله لست بقين من الحجة بالاستسقاء وحضر المنجمون ونظروا فى مولده وقدروا له أنه يعيش بعد ذلك خمسين سنة فلم يعش الا عشرة أيام وكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكسرا وعمره اثنان وثلاثون سنة وكان محسنا الى العلويين حتى انه لم يبق فى الحرمين فى أيامه سائل وبويع أخوه المتوكل جعفر بن المعتصم (وفى سنة خمس وثلاثين ومائتين)* ظهر رجل بسامرا يقال له محمود فرج وادعى النبوة وتبعه سبعة وعشرون رجلا واتى به الى المتوكل فامر أصحابه ان يصفعوه فصفعه كل واحد منهم عشر صفعات وضربه حتى

الخمارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فارادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا غطيت رأسى حتى ينتقم الله لى ممن ظلمنى فلم يمض غير أيام حتى توفى الزردار الذى تولى أذاه ثم يعقبه مرض سيف الدين واستمر الى ان مات وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات اذا ركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه ما ينافى العفة وكان غيورا شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدم الصغار فاذا كبر أحدهم منعه وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الاموال على شح فيه وجبن ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجرشاه وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة فخاف على الدولة من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى أمره وامتنع أخوه عز الدين مسعود بن مودود من الاذعان لذلك والاجابة اليه فاشار الامراء الاكابر ومجاهد الدين قايماز بان يجعل الملك بعده فى عز الدين أخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وان يعطى ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما الى عز الدين عمهما والمتولى لامرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل الملك فى أخيه وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجرشاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد أخوه عز الدين وكان المدبر للدولة مجاهد الدين وهو الحاكم فى الجميع واستقرت الامور ولم يختلف اثنان

﴿ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج ارسلان﴾

فى هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام الى بلاد قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهى ملطية وسيواس وما بينهما وقونية ليحاربه وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلج ارسلان المذكور وبقيت عنده مدة ثم انه أحب مغنية فتزوجها ومال اليها وحكمت فى بلاده وخزائنه وأعرض عن ابنة قلج ارسلان وتركها نسيا منسيا فبلغ أباها الخبر فعزم على قصد نور الدين وأخذ بلاده فارسل نور الدين الى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلج ارسلان عنه فارسل صلاح الدين الى قلج ارسلان فى المعنى فاعاد الجواب انى كنت قد سلمت الى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتى فحيث آل الامر معه الى ما يعلمه فانا أريد ان يعيد الى ما أخذه منى وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيهما فهادن صلاح الدين الفرنج وسار فى عساكره وكان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود بحلب فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر الى رعبان فاتاه بها نور الدين محمد وأقام عنده فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل اليه أكبر أمير عنده ويقول له ان هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول قل لصاحبك والله الذى لا اله الا هو لئن لم يرجع لاسيرن الى ملطية وبينى وبينها يومان ولا أنزل عن فرسى الا فى البلد ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه فرأى الرسول أمرا شديدا فقام من عنده وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه فعلم انه ان قصدهم أخذ بلادهم فارسل اليه من الغد يطلب ان يجتمع به فاحضره فقال له أريد ان أقول شيأ من عندى ليس رسالة عن صاحبى وأحب ان تنصفنى فقال له قل قال يا مولانا ما هو قبيح

مات وحبس أصحابه وفيها مات الحسن بن سهل وعمره تسعون سنة وفيها مات عبد السلام بن غيات المعروف بديك الجن وكان شيعيا ومن أحسن شعره

وقم أنت فاحثث كأسها غير صاغر
ولا تسق الا خمرها وعقارها

مشعشعة من كف ظبى كأنما
تناولها من خده فادارها

(وفى سنة ست وثلاثين ومائتين) أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على وكان كثير البغض فى على ولكنه منع من القول بخلق القرآن (وفى سنة سبع وثلاثين ومائتين) مات حاتم الاصم الزاهد ولم يكن أصم وانما كانت امرأة تسأله عن شئ فخرج منها ريح بصوت فخجلت فقال لها ارفعى صوتك حتى أسمع فزال خجلها وغلب عليه هذا الاسم (وفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين) مات عبد الرحمن ابن الحكم ملك الاندلس وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة وولايته احدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وخلف خمسا وأربعين ابنا وملك بعده ابنه محمد (وفى سنة أربعين ومائتين) مات أبو ثور

بمثلك وأنت من أعظم السلاطين وأكبرهم شانا أن تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت أنت وعساكرك الاموال العظيمة لاجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الاسلام وكافة العالم وأحسب أن أحدا ما يواجهك بهذا أما يعلمون أن الامر هكذا ثم أحسب ان قلج أرسلان مات وهذه ابنته قد أرسلتنى اليك تستجيرك وتسألك ان تنصفها من زوجها فان فعلت فهو الظن بك أن لا تردها فقال والله الحق بيدك وان الامر لكما تقول ولكن هذا الرجل دخل على واستجار بى ويقبح بى تركه لكنك أنت اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ما تحبون وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله ووعد من نفسه بكل جميل فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد القول بينهم فاستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة وان كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلج أرسلان عليه واصطلحوا على ذلك وعاد صلاح الدين عنه الى الشام وعاد نور الدين الى بلاده فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت الى بغداد وأقامت بها الى ان ماتت

(ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمنى)

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمنى بعد فراغه من أمر قلج أرسلان وسبب ذلك أن ابن ليون الارمنى كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الاموال فامرهم ان يرعوا مواشيهم فى بلاده وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول اليها صعب لانها مضايق وجبال وعرة ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد ان قتل منهم من حان أجله ونزل صلاح الدين على النهر الاسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل ان يؤخذ فخربه وأحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فاسرع السير اليه فادركه قبل ان ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فارسل ابن ليون يبذل اطلاق من عنده من الاسرى والسبى واعادة أموالهم على ان يعودوا عن بلاده فاجابه صلاح الدين الى ذلك واستقر الحال وأطلق الاسرى وأعيدت أموالهم وعاد صلاح الدين عنه فى جمادى الآخرة

(ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه)

فى هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى افريقية وملك قفصة وكان سبب ذلك ان صاحبها على بن المعز بن المعتز لما رأى دخول الترك الى افريقية واستيلاءهم على بعضها وانقياد العرب اليهم طمع أيضا فى الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان فى طاعته فاظهر ما فى نفسه وخالفه وأظهر العصيان ووافقه أهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبى يعقوب وكان ذلك فى شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فارسل والى بجاية الى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب أمور البلاد واجتماع كثير من العرب الى قراقوش التركى الذى دخل الى افريقية وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى فى قفصة من قتل الموحدين ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع فى سد الثغور التى يخافها بعد مسيره فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار الى افريقية سنة خمس وسبعين ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر وهى بلد حصينة وأهلها انجاد وقطع شجرها فلما اشتد الامر على صاحبها وأهلها خرج منها مستخفيا لم يشعر به أحد من أهل قفصة ولا من عسكره وسار الى خيمة يوسف وعرف حاجبه انه قد حضر الى

ابراهيم بن خالد بن أبى اليمان الكلبى البغدادى كان حنفيا فلما قدم الشافعى العراق واختلف اليه نقل أقواله القديمة وترك مذهبه الاول (وفى سنة احدى وأربعين ومائتين) توفى الامام أحمد بن حنبل بن هلال ابن أسد بن ادريس ينسب الى معد بن عدنان قال الامام الشافعى خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه ولا أورع من أحمد بن حنبل (وفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين) مات القاضى يحيى بن أكثم كان عالما من محاسنه أنه رد المأمون عن القول بحل المتعة مستدلا بقوله الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم والمتمتع بها لا زوجة ولا ملك يمين وكان دميم الخلق يرمى بمحبة الغلمان حتى قيل فيه

وكنا نرجى ان نرى العدل بيننا
فاعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها
وقاضى قضاة المسلمين يلوط

وأكتم بالتاء المثناة والثاء المثلثة لغتان فى عظيم البطن (وفى سنة أربع وأربعين ومائتين) رحل المتوكل الى دمشق وجعلها

أمير المؤمنين يوسف فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة الى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد وأمر بادخاله عليه فدخل وقبل يده وقال قد حضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عنى وعن أهل بلدى وأن يفعل ما هو أهله واعتذر فرق له يوسف فعفا عنه وعن أهل البلد وتسلم المدينة أول سنة ست وسبعين وسير على بن المعز صاحبها الى بلاد المغرب فكان فيها مكرما عزيزا وأقطعه ولاية كبيرة ورتب يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحدين وحضره مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضا فعفا عنه وسيره الى مراكش وسار يوسف الى المهدية فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنين وكانت بلاد افريقية مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب فسار الى المغرب مسرعا والله أعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية وكان قد أخذها من أخيه اقطاعا فاقام بها فتوفى وكان له أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل وكان أجود الناس وأسخاهم كفا يخرج كل ما يحمل اليه من أموال اليمن ودخل الاسكندرية وحكمه فى بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دين فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما دخل الى مصر فانه لما بلغه خبر وفاته سار الى مصر فى شعبان من السنة واستخلف بالشام عز الدين فرخشاه ابن أخيه شاهنشاه وكان عاقلا حازما شجاعا وفيها توفى أبو طاهر أحمد ابن محمد بن سلفة الاصفهانى بالاسكندرية وكان حافظ الحديث وعالما به سافر فى طلب الكثير وتوفى أيضا فى المحرم على بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللغوى ببغداد وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجواليقى

(ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر غزاة الى بلاد الكرك من الشام)

فى هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الى أعمال كرك ونهبها وسبب ذلك ان البرنس ارناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين فتجهز وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع وعزم على المسير فى البر الى تيماء ومنها الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة فسمع عز الدين فرخشاه ذلك فجمع العساكر الدمشقية وسار الى بلده ونهبه وخربه وعاد الى طرف بلادهم وأقام بها ليمنع البرنس من المسير فامتنع من مقصده فلما طال مقام كل واحد منهما فى مقابلة الآخر علم البرنس ان المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه وانقطع طمعه من الحركة فعاد فرخشاه الى دمشق وكفى الله المؤمنين شر الكفار

(ذكر تلبيس ينبغى أن يحتاط من مثله)

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكنانى ينوب عن شمس الدولة أخى صلاح الدين باليمن وتحكم فى الاموال والبلاد بعد أن فارقها شمس الدولة كما ذكرنا وكان هواه بالشام لانه وطنه فارسل الى شمس الدولة يطلب الاذن فى المجىء اليه فأذن له فى المجىء فاستناب بزبيد أخاه حطان بن كامل بن منقذ الكنانى وعاد الى شمس الدولة وكان معه بمصر فمات شمس الدولة وبقى مع صلاح الدين فقيل عنه انه أخذ أموال اليمن وادخرها وسعى به أعداؤه فلم يعارضه صلاح الدين

دار الخلافة ونقل دواوين الملك اليها وأنشد يزيد المهلبى

أظن الشام تشمت بالعراق
اذا عزم الامام على انطلاق
فان تدع العراق وساكنيها
فقد تبلى المليحة بالطلاق

ثم استوبأ المتوكل دمشق واستثقل ماءها وعاد الى سامرا وكان مقامه بدمشق شهرين وأياما وفى هذه السنة سأل المتوكل يعقوب ابن السكيت امام النحو واللغة أيما أحب اليك ابناى المعتز والمؤيد أم الحسن والحسين فقال والله ان قنبرا خادم على خير منك ومن ابنيك فامر به فسل لسانه من قفاه فمات من ساعته والسكيت الكثير السكوت (وفى سنة سبع وأربعين ومائتين) قتل المتوكل جماعة بالليل بالسيوف فى خلوته باتفاق ولده المنتصر وقتل وزيره الفتح ابن خاقان لاربع خلون من شوال وكانت خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وثلاثة أيام وعمره نحو أربعين سنة فلما أصبح المنتصر قال للناس ان الفتح بن خاقان قتل أبى فقتلته به وبويع المنتصر بالخلافة وبقى فيها ستة أشهر ومات بعد ان أمر بزيارة العلويين وأمر بزيارة

فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاما وعمل دعوة كبيرة ودعا اليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمى العدوية وأرسل أصحابه يتجهزون من البلد ويشترون مايحتاجون اليه من الاطعمة وغيرها فقيل لصلاح الدين ان ابن منقذ يريد الهرب وأصحابه يتزودون له ومتى دخل اليمن اخرجه عن طاعتك فارسل صلاح الدين فاخذه والناس عنده وحبسه فلما سمع صلاح الدين جلية الحال علم أن الحيلة تمت لاعدائه فى قبضه فخفف ما كان عنده وسهل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ماالتهامن الحمل لاخوة صلاح الدين وأصحابه وأطلقه وأعاده الى منزلته وكان أديبا شاعرا

(ذكر ارسال صلاح الدين العساكر الى اليمن)

فى هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من أمرائه منهم صارم الدين قتلغ أبه والى مصر الى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة وهم عز الدين عثمان بن الزنجيلى والى عدن وحطان بن منقذ والى زبيد وغيرهما فانه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عز الدين عثمان وبين حطان حرب وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده واشتد الامر فخاف صلاح الدين أن يطمع أهل البلاد فارسل هؤلاء الامراء اليها واستولى قتلغ أبه على زبيد وأزال حطان عنها ثم مات قتلغ أبه فعاد حطان الى امارة زبيد وأطاعه الناس لجوده وشجاعته

(ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب)

فى هذه السنة فى رجب توفى الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما اشتد مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر للتداوى فقال لا أفعل حتى أستفتى الفقهاء فاستفتى فافتاه فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك فقال له أرأيت ان قدر الله تعالى بقرب الاجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا فقال والله لا لقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه على ولم يشربه فلما أيس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد ووصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد الدين ابن عمك أيضا وهو زوج أختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان اصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ولا حاجة به الى بلدك فقال له ان هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام وان سلمتها الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات وكان حليما كريما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما للدين لا يعرف له شئ مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر أو غيره حسن السيرة فى رعيته عادلا فيهم ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى اتابك عز الدين يستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل أحضر الامراء عنده من حلب فحضروا وسار واجميعا الى حلب ودخلاها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم فلما اجتاز فى طريقه اليها من الفرات كان تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا الى حماة وثار أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين فاشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق واطمعوه فيها وفى غيرها من بلاد الشام وأعلموه محبة أهلها له ولاهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها الى الرقة

قبر الحسين وكان عمره خمسا وعشرين سنة فاتفق أرباب الدولة بغا الكبير وبغا الصغير واتامش على أن لا يولوا أحدا من أولاد المتوكل لكونهم قتلوا أباهم وبويع المستعين أحمد بن محمد المعتصم (وفى سنة خمسين ومائتين) ظهر يحيى ابن عمرو بن يحيى بن حسين ابن زيد بن على بن أبى طالب بالكوفة وكثر جمعه ثم قتل وحمل رأسه الى المستعين ثم ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن على بن أبى طالب بطبرستان وكثر جمعه ووثب أهل حمص على عاملهم فقتلوه وتوجه اليهم موسى بن بغا الكبير وتقاتلوا بين حمص والرستن وكسر أهل حمص وقتل منهم جمعا كثيرا وأحرقها (وفى سنة احدى وخمسين ومائتين) قتل بغا الصغير باغر وجرت فتنة بين الاتراك فهرب المستعين من سامرا الى بغداد فأخرجوا المعتز بن المتوكل من الحبس وبايعوه فجهز أخاه طلحة فى خمسين ألفا من الاتراك الى المستعين فحصن فى بغداد وجرى قتال كثير أدى الى أن خلع المستعين نفسه وبايع المعتز ثم بعد زمان كتب المعتز الى أحمد بن طولون أن يقتل المستعين فسلمه

(ذكر تسليم حلب الى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها)

لما دخل عز الدين الى الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب أن يسلم اليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك ولج عماد الدين فى ذلك وقال ان سلمتم الى حلب والا سلمت أنا سنجار الى صلاح الدين فاشار حينئذ جماعة من الامراء بتسليمها اليه وكان أشدهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره وبلاده وانما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لانه عظم فى نفسه وكثر معه العسكر وكان الامراء الحلبيون لا يلتفتون الى مجاهد الدين ويسلكون معه من الادب ما يفعله عسكر الموصل فاستقر الامر على تسليم حلب الى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها فسار عماد الدين فتسلمها وسلم سنجار الى أخيه وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الامر عليه وخاف أن يسير منها الى دمشق وغيرها ويملك الجميع وأيس من حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومسير صاحبها مع صلاح الدين)

كانت قلعة البيرة وهى مطلة على الفرات من أرض الجزيرة لشهاب الدين الارتقى وهو ابن عم قطب الدين ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى بن ارتق صاحب ماردين وكان فى طاعة نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار فى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين الى عز الدين يطلب منه أن يأذن له فى حصر البيرة وأخذها فاذن له فى ذلك فسار فى عسكره الى قلعة سميساط وهى له ونزل بها وسير العسكر الى البيرة فحصرها فلم يظفر منها بطائل الا أنهم لازموا الحصار فأرسل صاحبها الى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ما نذكره يطلب منه أن ينجده ويرحل العسكر الماردانى عنه ويكون هو فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نور الدين فاجابه الى ذلك وأرسل رسولا الى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب أن يرحل عسكره عنه فلم يقبل شفاعته واشتغل صلاح الدين عما نذكره من الفرنج فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ولم يبلغوا منها غرضا أمرهم بالرحيل عنها وعاد الى ماردين فسار صاحبها الى صلاح الدين وكان معه حتى عبر معه الفرات على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فاقام حاجب الباب جماعة لاراقة الخمور وأخذ المفسدات فبينما امرأة منهن فى موضع علمت بمجىء أصحاب حاجب الباب فاضطجعت وأظهرت انها مريضة وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال فتركوها وانصرفوا فاجتهدت بعدهم أن تقوم فلم تقدر وجعلت تصيح الكرب الكرب الى أن ماتت وهذا من أعجب ما يحكى وفيها فى عاشر ذى الحجة توفى الامير همام الدين تتر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة وكان قد استخلف الامير عيسى ابن أخى مودود وحج فتوفى ودفن بالمعلى مقبرة مكة وفيها فى شعبان توفى عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد أبو البركات النحوى المعروف بابن الانبارى ببغداد وله تصانيف حسنة فى النحو وكان فقيها صالحا وفيها توفى ابراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعى بجزيرة ابن عمر وكان فاضلا كثير الورع

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة)

الى الحاجب سعيد بن صالح فضربه حتى مات وحمل رأسه الى المعتز وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر وعمره أربعا وعشرين سنة فتغلب عيسى ابن الشيخ عامل الرملة على دمشق وأعمالها وتغلب يعقوب الصفار على هراة وتوابعها وعظم أمرهم (وفى سنة أربع وخمسين ومائتين) قتل بغا الصغير المعروف بالشرابى وحمل رأسه الى المعتز وفيها توفى على الزكى بن محمد الجواد ويقال له العسكرى وكان مولده فى رجب سنة أربع عشرة ومائتين لسكناه بسر من رأى لان اسمها العسكر لسكنى العسكر بها وهو عاشر الائمة الاثنى عشر على مذهب الامامية ووالد حادى عشرهم ولده الحسن العسكرى ولد الحسن المذكور فى سنة ثلاثين ومائتين وتوفى سنة ستين ومائتين ودفن الى جانب أبيه بسر من رأى وولد لهذا الحسن ولده المنتظر ثانى عشرهم ويقال له المهدى والقائم والحجة محمد ولد فى سنة خمس وخمسين ومائتين تزعم الشيعة انه دخل السرداب الذى بدار أبيه فى سر من رأى وأمه تنظر اليه فلم يخرج منه

﴿ ذكر مسير صلاح الدين الى الشام واغارته على الفرنج ﴾

فى هذه السنة خامس المحرم سار صلاح الدين عن مصر الى الشام ومن عجيب ما يحكى من التطير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده واعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل منهم يقول شيأ فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وفى الحاضرين معلم لبعض أولاده فاخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد

تمتع من شميم عرار نجد ❊ فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد اليها الى ان مات مع طول المدة ثم سار عن مصر وتبعه من التجار وأهل البلاد ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره عالم كثير فلما سار جعل طريقه على ايلة فسمع ان الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والاثقال مع أخيه تاج الملوك بورى الى دمشق وبقى هو فى العساكر المقاتلة لا غير فشن الغارات باطراف بلادهم وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منهم أحد ولا أقدم على الدنو منه ثم سار فاتى دمشق فوصلها حادى عشر صفر من السنة

﴿ ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج ﴾

فى هذه السنة أيضا فى صفر فتح المسلمون بالشام شقيفا من الفرنج يعرف بحبس جالدك وهو من اعمال طبرية مطل على السواد وسبب فتحه ان الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر الى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة أو يظفرون بنصرة وربما عاقوا المسلمين عن المسير بان يقفوا على بعض المضايق فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه الخبر فجمع من عنده من عساكر الشام ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها ونهب دبورية وما يجاورها من القرى وأسر الرجال وقتل وأكثر وسبى النساء وغنم الاموال وفتح منهم الشقيف وكان على المسلمين منه اذى شديد ففرح المسلمون بفتحه فرحا عظيما وأرسل الى صلاح الدين بالبشارة فلقيه فى الطريق ففت ذلك فى عضد الفرنج وانكسرت شوكتهم

﴿ ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن وتغلبه عليه ﴾

فى هذه السنة سير صلاح الدين أخاه سيف الاسلام طغدكين الى بلاد اليمن وأمره بتملكها وقطع الفتن بها وفوض اليه أمرها وكان بها حطان بن منقذ كما ذكرناه قبل وكتب عز الدين عثمان الزنجيلى متولى عدن الى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بارسال بعض أهله اليها لان حطان كان قوى عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين أخاه سيف الاسلام وسيره الى بلاد اليمن فوصل الى زبيد فخافه حطان بن منقذ واستشعر منه وتحصن فى بعض القلاع فلم يزل به سيف الاسلام يؤمنه ويهدى اليه ويتلطفه حتى نزل اليه فاحسن صحبته وعمل معه ما لم يكن يتوقعه من الاحسان فلم يثق حطان به وطلب منه دستورا ليقصد الشام فامتنع من اجابته اظهارا للرغبة فى كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى أذن له فاخرج اثقاله وأمواله ودوابه وأهله وأصحابه وكل ماله وسير الجميع بين يديه فلما كان الغد دخل الى سيف الاسلام ليودعه فقبض عليه واسترجع جميع ماله فاخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير ثم سجنه فى بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل انه قتله وكان فى جملة ما أخذ منه من الاموال الذهب العين فى سبعين غلافا

الى الآن وكان عمره تسع سنين (وفى سنة خمس وخمسين ومائتين) طلبت الاتراك من المعتز نفقة فعجز عنها فاتفقت الاتراك والمغاربة والفراعنة على خلعه وصاروا الى بابه فأذن لبعضهم فى الدخول فجروه برجله وضربوه بالدبابيس وأقاموه فى الحر طويلا ثم أدخلوه حجرة وأحضروا القاضى ابن أبى الشوارب وأشهدوا عليه بخلعه نفسه ثم منعوه الطعام والشراب الى أن مات وكانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر الا سبعة أيام وعمره أربعة وعشرين سنة وثلاثة عشر يوما وبويع لمحمد بن الواثق بالخلافة ولقب بالمهتدى وامسكت قبيحة أم المعتز وظهر لها أموال عظيمة ألف ألف دينار تحت الارض وقدر مكوك لؤلؤ وكيلجة ياقوت أحمر فقال صالح بن وصيف قبح الله قبيحة عرضت ابنها للقتل لاجل خمسين ألف دينار وعندها هذه الاموال كلها وكان المتوكل سماها قبيحة لحسنها ثم سارت قبيحة الى مكة وكانت تدعو بصوت عال على صالح بن وصيف وتقول هتك سترى وقتل ولدى وغربنى عن بلدى وركب الفاحشة

زردية مملوأة ذهبا عينا واما عز الدين عثمان الزنجيلى فانه لما سمع ما جرى على حطان خاف فسار نحو الشام خائفا يترقب وسير معظم أمواله فى البحر فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل مال عز الدين ولم يبق له الا ما صحبه فى الطريق وصفت زبيد وعدن وما معهما من البلاد لسيف الاسلام

﴿ ذكر اغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج واعمالها ﴾

لما وصل صلاح الدين الى دمشق كما ذكرناه اقام أياما يريح ويستريح هو وجنده ثم سار الى بلاد الفرنج فى ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى الاقحوانة من الاردن وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه الى بيسان فدخلها قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبى وجنف الغور غارة شعواء فعم أهله قتلا واسرا وجاءت العرب فاغارت على جينين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا ولم يتحركوا لقتال فامر ابنى أخيه تقى الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن معهما فاقتتلوا قتالا شديدا ثم ان الفرنج انحازوا على حاميتهم فنزلوا اغثر بلا فلما رأى صلاح الدين ما قد اثخن فيهم وفى بلادهم عاد عنهم الى دمشق

﴿ ذكر حصر بيروت ﴾

ثم انه سار عن دمشق الى بيروت فنهب بلدها وكان قد أمر الاسطول المصرى بالمجىء فى البحر اليها فساروا ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام وكان عازما على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد ألقى بسطة للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس فاسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى ألفا وستمائة وستا وسبعين أسيرا فضربت بذلك البشائر

﴿ ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة ﴾

فى هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات الى الديار الجزرية وملكها وسبب ذلك ان مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعه اياها عز الدين اتابك المدينة والقلعة تقوية واعتمادا أرسل الى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه محب لدولته ووعده النصرة له اذا عبر الفرات ويطمعه فى البلاد ويحثه على الوصول فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تترى اليه يحثه على المجىء فجد صلاح الدين فى السير مظهرا انه يريد حصر حلب تسترا للحال فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به فقصد البيرة وهى قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفى طاعته وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذى عند البيرة وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين الى الشام قد جمعا العسكر وسارا الى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين الى حلب ثم تقدما الى دارا فنزلا عندها فجاءهما أمر لم يكن فى الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا الى الموصل وارسلا الى الرها عسكرا يحميها ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الاطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته

منى وفى هذه السنة ظهر على بن محمد بن عبد الرحيم من ولد عبد القيس بجمع عظيم من الزنج وادعى انه على بن محمد بن أحمد بن عيسى ابن زيد بن على بن أبى طالب واستفحل أمره بالبصرة وفيها توفى الجاحظ عمرو ابن بحر قال ذكرت للمتوكل لاعلم أولاده فلما استحضرنى استبشع منظرى فامر لى بعشرة آلاف دينار وصرفنى ولما جاوز التسعين سنة أنشد بحضرة المبرد

أترجو أن تكون وأنت شيخ ❊ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ❊ دريس كالجديد من الثياب

كان موته لوقوع مجلدات من العلم عليه وهو ضعيف (وفى سنة ست وخمسين ومائتين) قتل موسى بن بغا صالح بن وصيف وكتب المهتدى الى بابكيال مقدم الاتراك أن يقتل موسى ابن بغا فاطلعه على ذلك واتفقا على قتل المهتدى فلما وصلا اليه أمسك المهتدى بابكيال وحبسه وقتله وركب الى موسى فخامرت عليه الاتراك الذين كانوا معه وصاروا مع موسى فهرب المهتدى واختفى ثم أمسك وعصر على خصيتيه حتى مات فكانت خلافته أحد عشر شهرا ونصفا وعمره ثمانيا

فاجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن الى ماطلب منه لقاعدة استقرت بينهما لما
كان نور الدين عنده بالشام فانه استقر الحال ان صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها اليه
وسار صلاح الدين الى مدينة الرها فحصرها فى جمادى الاولى وقاتلها أشد قتال فحدثنى بعض
من كان بها من الجند أنه عد فى غلاف رمح أربعة عشر خرقا وقد خرقته السهام ووالى الزحف
عليها وكان بها حينئذ مقطع وهو الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى فحيث رأى شدة القتال
أذعن الى التسليم وطلب الامان وسلم البلد وصار فى خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف
الى القلعة فسلمها اليه الدزدار الذى بها على مال أخذه فلما ملكها اسلمها الى مظفر الدين مع حران
ثم سار عنها على حران الى الرقة فلما وصل اليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال ابن حسان
المنبجى فسار عنها الى عز الدين اتابك وملكها صلاح الدين وسار الى الخابور وقرقيسيا وماكسين
وعرابان فملك جميع ذلك فلما استولى على الخابور جميعه سار الى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت
القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضا وأقام بها ليصلح شأنها ثم اقطعها أميرا كان معه يقال له
أبو الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن وأتاه الخبر ان الفرنج قصدوا دمشق
ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وأرادوا تخريب جامعها فارسل النائب بدمشق اليهم جماعة
من النصارى يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته وأخربنا كل بيعة لكم فى بلادنا ولا نمكن
أحدا من عمارتها فتركوه ولما وصل الخبر الى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الدين
بالعود فقال يخربون قرى وغلات عوضها بلادا ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع
فكان كما قال

❁(ذكر حصر صلاح الدين الموصل)❁

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع امراءه وأرباب المشورة عنده واستشارهم باى البلاد يبدأ وأيها
يقصد بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمر فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبرى
ابن زين الدين لا ينبغى ان يبدأ بغير الموصل فانها فى أيدينا لا مانع لها فان عز الدين ومجاهد الدين متى
سمعا بسيرنا اليها تركاها وسارا عنها الى بعض القلاع الجبلية ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه
وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ليقطعه الموصل اذا ملكها وقد أجابه صلاح الدين الى ذلك
فاشار بهذا الرأى لهواه فسار صلاح الدين الى الموصل وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه
قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل وأظهرا من السلاح وآلات الحصار
ماحارت له الابصار وبذلا الاموال الكثيرة وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيرا واصطلى الامور
بنفسه فاحسن تدبيرها وشحنوا ما بقى بايديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار والموصل واربل
وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والاموال وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره
وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه ومعهم نفر من أعيان دولته وقربوا من
البلد فلما قربوا ورآه وحققه رأى ماهاله وملأ صدره وصدور أصحابه فانه رأى بلدا عظيما كبيرا
ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال وليس فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل سوى من
عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا فقال لناصر
الدين ابن عمه اذا رجعنا الى المعسكر فاحمل ما بذلت من المال فنحن معك على القول فقال قد رجعت
عما بذلت من المال فان هذا البلد لا يرام فقال له ولمظفر الدين غررتمانى وأطمعتمانى فى غير مطمع
ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل أخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه

وثلاثين سنة وكان ورعا
كثير العبادة قصد أن يكون
فى بنى عباس كعمر بن
عبد العزيز فى بنى أمية
وأخرج كبراء الدولة أبا
العباس أحمد بن المتوكل
وسموه المعتمد على الله
وبويع بالخلافة وهو
خامس عشر خليفة من بنى
العباس فاستمر فى الخلافة
ثلاثا وعشرين سنة وستة
أيام وكان محكوما عليه
ضيق عليه أخوه الموفق
فى الاموال والاحكام
واستقل أحمد بن طولون
بمصر والشام واستولى
صاحب الزنج المقدم ذكره
على البصرة وواسط وبلاد
كثيرة واستولى يعقوب
الصفار على بلخ وكابل
ونيسابور والاهواز وملك
حسن بن زيد العلوى
طبرستان ونصر بن سامان
ماوراء النهر وخرج بالصين
خارجى مجهول الاسم
والنسب واستولى على
بلاد كثيرة وقتل وسبى خلقا
كثيرا ثم عدم وتغلب الاجناد
والقواد فى غالب البلاد
وقطع أحمد بن طولون خطبة
الموفق واسمه من الاطرزة
فلعنه المعتمد على المنابر
بالزام أخيه الموفق وفى
خلافة المعتمد توفى البخارى
محمد بن اسمعيل الجعفى فى
سنة ست وخمسين ومائتين
هذه وكان مولده سنة

بن كسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا ثم رجع الى معسكره وصبح البلد وكان نزوله عليه فى رجب
فنازله وضايقه ونزل محاذى باب كندة وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر وأنزل أخاه تاج الملوك
عند الباب العمادى وأنشب القتال فلم يظفر وخرج اليه يوما بعض العامة فنالوا منه ولم يمكن عز
الدين ومجاهد الدين أحدا من العسكر يخرجون لقتال بل ألزموا الاسوار ثم ان تقى الدين أشار
على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق فقال مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه
أخذوه ولو خربنا برجا وبدنة من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير فألح تقى الدين
وقال نجربهم به فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات وخرج جماعة من العامة
فاخذوه وجرى عنده قتال كثير فاخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة
ورمى بها أميرا يقال له جاولى الاسدى مقدم الاسدية وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألما
شديدا وأخذ اللالكة وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات
ما رأينا بعد مثلها وألقى اللالكة وحلف انه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه ثم ان
صلاح الدين رحل من قرب البلد ونزل متأخرا خوفا من البيات فانه لقربه كان لا يأمن ذلك وكان
سببه أيضا ان مجاهد الدين أخرج فى بعض الليالى جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم
المشاعل فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل الى دجلة مما يلى عين الكبريت ويطفئ المشعل
فرأى العسكر الناس يخرجون فلم يشكوا فى الكبسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر
البيات على أهل الموصل وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل اليه قبل نزوله على
الموصل ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله فى الصلح فاقاما معه على
الموصل وترددت الرسل الى عز الدين ومجاهد الدين فى الصلح فطلب عز الدين اعادة البلاد التى
أخذت منهم فاجاب صلاح الدين الى ذلك بشرط ان تسلم اليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين
ثم نزل عن ذلك وأجاب الى تسليم البلاد بشرط ان يتركوا انجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوا الى
ذلك أيضا وقال عز الدين هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى أن انكثها ووصلت أيضا رسل
قزل ارسلان صاحب اذربيجان ورسل شاه أرمن صاحب خلاط فى المعنى فلم ينتظم أمر ولا تم
صلح فلما رأى صلاح الدين انه لا ينال من الموصل غرضا ولا يحصل على غير العناء والتعب وان من
بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه سار من
الموصل اليها

❁(ذكر ملكه مدينة سنجار)❁

لما سار صلاح الدين عن الموصل الى سنجار سير مجاهد الدين اليها عسكرا قوة لها ونجدة فسمع بهم
صلاح الدين فمنعهم من الوصول اليها وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار اليها ونازلها وكان
بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عز الدين صاحب الموصل فى عسكر معه فحصر البلد
وضايقه وألح فى قتاله فكاتبه بعض امراء الاكراد الذين به من الزرزارية وخامر معه وأشار
بقصده من الناحية التى هو بها ليسلم اليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلا فسلم اليه ناحيته فملك
الباشورة لا غير فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الامان فأمن ولو قاتل على تلك
الناحية أخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز فلما طلب
الامان أجابه صلاح الدين اليه فامنه وملك البلد وسار شرف الدين ومن معه الى الموصل واستقر
جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار فانه كان قد أن يسترده المواصلة اذا فارقه لانه لم يكن فيه

أربع وتسعين ومائة ورمى
بانه يقول بخلق الافعال
للعباد وبخلق القرآن فانكر
ذلك وارتحل عن بخارا
ونزل عند اقاربه بقرية من
قرى سمرقند اسمها خرتنك
ومات بها وتوفى حنين بن
اسحق العبادى الطبيب
وهو الذى نقل كتب
الحكمة اليونانية الى
العربية وعرب اقليدس
والمجسطى فى سنة ستين
ومائتين وتوفى سنة احدى
وستين ومائتين أبو يزيد
البسطامى واسمه طيفور
ابن عيسى رضى الله تعالى
عنه وكان جده سروشيا
مجوسيا وفيها توفى مسلم بن
الحجاج صاحب الصحيح
❁وفى سنة أربع وستين
ومائتين❁ توفى ابراهيم
المزنى الشافعى (وفى سنة
خمس وستين ومائتين) مات
يعقوب الصفار وكان يعمل
الصفر فى أول عمره (وفى سنة
سبعين ومائتين) قتل صاحب
الزنج وحمل رأسه بين يدى
الموفق وبعث الى بغداد
وفيها توفى الحسن بن زيد
العلوى وملك طبرستان بعده
محمد بن زيد وفيها توفى أحمد
ابن طولون فكانت امارته
نحو ست وعشرين سنة
وكان حازما عاقلا بنى جامعه
المعروف بين مصر والقاهرة
وولى بعده ابنه خمارويه
❁وفى سنة ثلاث وسبعين

حصن غير الرها لا غير فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين انز وكان من اكابر الامراء وأحسنهم صورة ومعنى

﴿ ذكر عود صلاح الدين الى حران ﴾

لما ملك صلاح الدين سنجار وقرر قواعدها سار الى نصيبين فلقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين باكين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم فلما سمع ذلك أنكر على أبي الهيجاء ظلمه وعزله عنهم وأخذه معه وسار الى حران وفرق عساكره ليستريحوا وبقي جريدة في خواصه وثقات أصحابه وكان وصوله اليها أوائل ذي القعدة من السنة

﴿ ذكر اجتماع عز الدين وشاه ارمن ﴾

في هذه السنة في ذي الحجة اجتمع اتابك عز الدين صاحب الموصل وشاه ارمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين وسبب ذلك ان رسل عز الدين ترددت الى شاه ارمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فارسل شاه ارمن الى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة اليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين فلم يجبه الى ذلك وغالطه فارسل اليه أخيرا مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه ارمن فاتاه وهو يحاصر سنجار يطلب اليه ان يتركها ويرحل عنها وقال له ان رحل عنها والا فتهدده بقصده ومحاربته فابلغه بكتمر الشفاعة فسوفه في الجواب رجاء ان يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولا صلة وأخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الاهمال والتواني عن صلاح الدين فسار شاه ارمن من خلاط وكان مخيما بظاهرها وسار الى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين البي وهو ابن أخت شاه ارمن وابن خال عز الدين وحموه لان عز الدين قد زوج ابنة قطب الدين وحضر مع شاه ارمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن وسار اتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال وكان صلاح الدين قد ملك سنجار وسار عنها الى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير الى تقي الدين ابن أخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل اليه مسرعا وأشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون وكان هوى صلاح الدين في الرحيل فرحل الى رأس عين فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه أرمن الى خلاط واعتذر بانني أجمع العساكر وأعود ورجع عز الدين الى الموصل وأقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بحوزم تحت ماردين عدة أيام

﴿ ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب ﴾

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك اسطولا وفرغ منه بالكرك ولم يبق الا جمع قطعه بعضها الى بعض وحملها الى بحر ايلة وجمعها في أسرع وقت وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فساروا في البحر وافترقوا فرقتين فرقة قامت على حصن ايلة يحصرونه ويمنعون أهله من ورود الماء فنال أهله شدة شديدة وضيق عليهم وأما الفرقة الثانية فانهم ساروا نحو عيذاب وأفسدوا في السواحل ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الاسلامية ومن فيها من التجار وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لا تاجرا ولا محاربا وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين فعمر اسطولا وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا كريما فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم فابتدأ بالذين على ايلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده فقاتلهم فقتل بعضهم وأسر الباقي وسار من وقته بعد

وماثتين ﴾ توفي محمد بن الحكم بن عبد الرحمن بن الحكم صاحب الاندلس وكان عمره نحو خمس وستين سنة وملكه أربع وثلاثون سنة واحد عشر شهرا وخلف ثلاثا وثلاثين ذكرا وولي بعده المنذر وفيها مات أبو داود صاحب السنن سليمان بن الاشعث والحافظ محمد بن يزيد بن ماجه القزويني المشهور وكانت ولادته سنة تسع ومائتين ﴿ وفي سنة خمس وسبعين ومائتين ﴾ قبض الموفق على ابنه المعتضد وبقي محبوسا الى ان مات والده الموفق في سنة ثمان وسبعين ومائتين بداء الفيل وولي ابنه المعتضد مكانه ولاية العهد وكان قد بلغ ديوانه مائة ألف جندي وفي هذه السنة تحركت القرامطة بسواد الكوفة استنزل عقاهم شخص اسمه كرمينه ثم خففوه فقالوا قرمط أحدث لهم دينا ودعاهم اليه وغير الصلاة والاذان والصيام وأباح الخمر ورفع غسل الجنابة ولما مات المعتمد في سنة تسع وسبعين ومائتين من كثرة شرب الخمر والاكل ليلا أحضر المعتضد ابن أخيه الموفق طلحة بن المتوكل وأحضر القضاة وأعيان الدولة فنظروا الى

الظفر يقص أثر الذين قصدوا عيذاب فلم يرهم وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا الى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على الدخول الى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك الى اليمن فلما وصل لؤلؤ الى عيذاب ولم يرهم سار يقفو أثرهم فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما فادركهم بساحل الجوزاء فاوقع بهم هناك فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم أشد قتال وأخذ خيلا من الاعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرسانا ورجالة فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد بالباقين الى مصر فقتلوا جميعهم

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

في هذه السنة في جمادى الاولى توفي عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق وهو ثقته من أهله وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وامرائه وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالادب وغيره وله شعر جيد من بين اشعار الملوك وكان ابتداء مرضه انه خرج من دمشق الى غزو الفرنج فمرض وعاد مريضا فمات ووصل خبر موته الى صلاح الدين وقد عبر الفرات الى الديار الجزرية فاعاد شمس الدين محمد بن المقدم الى دمشق ليكون مقدما على عسكرها وفيها مات فخر الدولة أبو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان أبوه وزير الخليفة وأخوه استاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعا بالجانب الغربي منها وفيها توفي الامير أبو منصور هاشم ولد المستضيء بامر الله ودفن عند أبيه وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط وكان صالحا ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة ما لا يحصى

﴿ ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها الى صاحب الحصن ﴾

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بحوزم تحت ماردين فلم يرلطمعه وجها وسار عنها الى آمد على طريق البارعية وكان نور الدين محمد بن قرا ارسلان يطالبه في كل وقت بقصدها وأخذها وتسليمها اليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل الى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها وأقام يحاصرها وكان المتولي لامرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها وليس له من الامر شيء مع ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيأ ولا فرق فيهم دينارا واحدا ولا قوتا وقال لاهل البلد قاتلوا عن نفوسكم فقال له بعض أصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم فلم يفعل شيأ وقاتلهم صلاح الدين ونصب المنجنيقات وزحف اليها وهي الغاية في الحصانة والمنعة بها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان على حاله من الشح بالمال وتصرفه تصرف من ولت سعادته وأدبرت دولته فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا الى السلامة وكانت أيام ابن نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء سيرته وصنيعه وتضييقه عليهم في مكاسبهم فالناس كارهون لها محبون لانقراضها وأمر صلاح الدين ان يكتب على السهام الى أهل البلد يعدهم الخير والاحسان ان أطاعوه ويتهددهم ان قاتلوه فزادهم ذلك تقاعدا وتخاذلا وأحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقابون الى السور

حمه مينا وحمل الى سامرا ودفن بها وكان عمره خمسين سنة وستة أشهر وبويع لابي العباس أحمد المعتضد بالخلافة وتزوج بنت خمارويه بن أحمد بن طولون وفي هذه السنة توفي أبو عيسى الترمذي صاحب المسند تلميذ البخاري وكان ضريرا ﴿ وفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين ﴾ وضع المعتضد النيروز في حزيران وفيها توفي خمارويه قتله بعض خدمه على فراشه بدمشق وبويع ولده جيش صغيرا وفيها توفي أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري ﴿ وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين ﴾ خلع طغج أمير دمشق جيش بن خمارويه ونهبوا مصر وأحرقوها وأقعدوا مكانه أخاه هرون وفيها مات البحتري الشاعر بمنبج أو حلب واسمه الوليد ابن عبادة وكان مولده سنة ست ومائتين وفيها أمر المعتضد بتوريث ذوي الارحام وأبطل ديوان المواريث وأظهر سب معاوية وأبيه وابنه وصحح ان المفسرين اتفقوا على ان المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية ﴿ وفي سنة ست وثمانين ومائتين ﴾ توفي المبرد وهو أبو العباس محمد بن عبد الله بن زيد ومولده سنة سبع ومائتين

فنقبوه وعاقوه فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان واشتطوا في المطالب فحين صارت الحال لذلك أخرج ابن نيسان نساءه الى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يسأله ان يأخذ له الامان ولاهله وماله وان يؤخره ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلاد من الاموال والذخائر فسعى له الفاضل في ذلك فاجابه صلاح الدين اليه فسلم البلد في العشر الاول من المحرم هذه السنة وأخرج خيمه الى ظاهر البلد ورام نقل ماله فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه واطراحهم أمره ونهيه فارسل الى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فامر له بالدواب والرجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الايام الثلاث قبل الفراغ فمنع من الباقي وكانت ابراج المدينة مملوأة من أنواع الذخائر فتركها بحالها ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمه وأمواله لكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها الصاحب الحصن نور الدين فقيل له قبل تسليمها ان هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك واعطيته جندك وسلمت البلد اليه فارغا لكان راضيا فانه لا يطمع في غيره فامتنع من ذلك وقال ما كنت لاعطيه الاصل وأبخل بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ودعا اليها صلاح الدين وامراءه ولم يكن دخل البلد وقدم له ولاصحابه من التحف والهدايا أشياء كثيرة

﴿ ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من اعمال الشام ﴾

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار الى الشام وقصد تل خالد وهو من اعمال حلب فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل أهلها وطلبوا الامان فأمنهم وتسلمها في المحرم أيضا ثم سار منها الى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو أخو الشيخ اسمعيل الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه وكان قد سلمها اليه نور الدين فبقيت معه الى الآن فلما نازله صلاح الدين ارسل اليه يطلب ان يقر الحصن بيده وينزل الى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فاجابه صلاح الدين الى ذلك وحلف له عليه فنزل اليه وصار في خدمته وكان أيضا في المحرم من هذه السنة

﴿ ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام ﴾

في هذه السنة في العاشر من المحرم سار اسطول المسلمين من مصر في البحر فلقوا بطسة فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الاموال والسلاح الى فرنج الساحل فقاتلوهم وصبر الفريقان وكان الظفر للمسلمين وأخذوا الفرنج اسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم اسرى وغنموا ما معهم وعادوا الى مصر سالمين وفيها أيضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم الى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا اليهم على طريق صدر وايلة فانتزح الفرنج من بين أيديهم فنزلوا بماء يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين اليه فاتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء فأنشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فقطر وامنها حتى رووا وكان الزمان قيظا والحر شديدا في برمهلك فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم وتقووا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد الفريد وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله

﴿ ذكر ملك صلاح الدين حلب ﴾

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب الى حلب فنزل عليها في المحرم أيضا في الميدان الاخضر وأقام به عدة أيام ثم انتقل الى جبل جوشن فنزل باعلاه وأظهر انه يريد أن يبني مساكن

له

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين توفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الاول ومولده في الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وخلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما وكان مهيبا شهما عفيفا شحيحا وبويع ولده المكتفي بالله على واشتدت شوكة القرامطة حتى حصروا دمشق وقتل كبيرهم يحيى المعروف بالشيخ وأقاموا أخاه أبا الحسين أحمد وله شامة في وجهه وزعم أنها آيته وكثر جمعه وصالحه أهل دمشق على مال دفعوه اليه فأخذه وانصرف عنهم وأخذ حمص وخطب له على منابرها وتسمى أمير المؤمنين المهدي وعهد الى ابن عمه عبد الله وسماه المدثر المذكور في القرآن ونهب حماة والمعرة وبلادهما وقتل الاطفال فخرج المكتفي ونزل الرقة وأرسل اليه الجيوش فكسروه وادخل رأس صاحب الشامة بين يدي المكتفي بالله الى بغداد وطيف به وفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين جهز المكتفي بالله جيشا الى الشام ومصر وافتتحهما جديدا وقتلت أولاد أحمد ابن طولون وكانوا بضعة عشر رجلا وفي سنة

له ولاصحابه وعساكره وأقام عليها أياما والقتال بين العسكرين كل يوم وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي ومعه العسكر النوري وهم مجدون في القتال فلما رأى كثرة الخرج كانه شح بالمال فحضر يوما عنده بعض اجناده وطلبوا منه شيأ فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلي نسائه فمال حينئذ الى تسليم حلب وأخذ العوض منها وأرسل مع الامير طمان الياروقي وكان يميل الى صلاح الدين انه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك وباعها باوكس الاثمان اعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا ما أتى حتى ان بعض عامة حلب احضر اجانة وماء وناداه انت لا يصلح لك الملك وانما يصلح لك ان تغسل الثياب وأسمعوه المكروه واستقر ملك صلاح الدين بملكها وكان متزلزلا فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار واذا أراد الله أمرا فلا مرد له وسار عماد الدين الى البلاد التي أعطيها فتسلمها وأخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما ان عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لا يحتج بحجة ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر * مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين وأعطيناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم وكتب أيضا أعطيناه ما لم يخرج عن اليد يعني انه متى شاء أخذه لعدم حصانته وكان في جملة من قتل على حلب تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن في ركبته فانفكت فمات منها بعد ان استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل ان يدخلها صلاح الدين فلما استقر منه الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهي لك فقال ذلك لو كان وأنا حي والله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلي فبكى صلاح الدين والحاضرون ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم في سرور اذ جاء انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل

﴿ ذكر فتح صلاح الدين حارم ﴾

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم وهي من اعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها الى صلاح الدين فراسله صلاح الدين في التسليم وقال له اطلب من الاقطاع ما أردت ووعده الاحسان فاشتط في الطلب وترددت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتمي بهم فسمع من معه من الاجناد انه يراسل الفرنج فخافوا ان يسلمها اليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الامان والانعام فاجابهم الى ما طلبوا وسلموا اليه الحصن فرتب به دزدارا بعض خواصه واما باقي قلاع حلب فان صلاح الدين أقر عينتاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد الامير

ثلاث وتسعين ومائتين توبت القرامطة وأخذوا دمشق ونهبوا وسفكوا وتوجهوا الى الكوفة وجهز اليهم المكتفي جيشا فكسروه وقتلوا وغنموا من المسلمين خلقا كثيرا ومالا وفيها توفي الزنديق أحمد ابن يحيى بن اسحق الراوندي المتكلم قال السلطان عماد الدين له عدة كتب صنفها في الكفر والالحاد وسماها قضيب الذهب وكتاب اللامع وكتاب الفرند وكتاب الزمرد وتوفي برحبة مالك ابن طوق قال القاضي شهاب الدين ابن أبي الدم كان عمره ستا وثلاثين سنة وقال ابن خلكان كانت وفاته في سنة خمس وأربعين ومائتين وقيل خمسين ومائتين وفي سنة أربع وتسعين ومائتين أخذت القرامطة حاج العراق وقتلوهم عن آخرهم وبلغت القتلى عشرين ألفا وجهز اليهم المكتفي بالله عسكرا واقتتلوا وانكسرت القرامطة ومات كبيرهم زكرويه وفي سنة خمس وتسعين ومائتين توفي المكتفي بالله لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وعمره ثلاث وثلاثون سنة وبويع أخوه المقتدر بالله وعمره ثلاث

بقال له: اروم اليار وقى وهو صاحب تل باشر واما قلعة اعزاز فان عماد الدين اسمعيل كان قد خربها فاقطعها صلاح الدين لامير يقال له سليمان بن جندر فعمرها وأقام صلاح الدين بحلب الى ان فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها ودواوينها واقطع اعمالها وأرسل منها الجمع العساكر من جميع بلاده

﴿ ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك ﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز وكان اليه الحكم فى جميع البلاد واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر فى مضرة صاحبه وكان الذى أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبى الخير الذى كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الامراء فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين فاظهر انه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيام فدخل اليه مجاهد الدين وحده وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته الى القلعة فاحتوى على الاموال التى لمجاهد الدين وخزائنه وولى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب وحكمهما فى دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ اربل وأعمالها ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين على وهو صبى صغير ليس له من الحكم شئ والحكم والعسكر الى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر وهى لمعز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو أيضا صبى والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين وبيده أيضا شهرزور وأعمالها ونوابه فيها ودقوقا ونائبه فيها وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعز الدين مسعود بعد ان أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك واسمه لعز الدين فلما قبض عليه امتنع صاحب اربل من طاعة عز الدين واستبد وكذلك أيضا صاحب جزيرة ابن عمر وأرسل الخليفة الى دقوقا فحصرها وأخذها ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور والعقر وصارت اربل والجزيرة أضر شئ على صاحب الموصل وأرسل صاحبها الى صلاح الدين بالطاعة له والكون فى خدمته وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ ومعه بشير الخادم الخاص الى صلاح الدين فى الصلح مع عز الدين صاحب الموصل وسير عز الدين معه القاضى محيى الدين أبا حامد بن الشهرزورى فى المعنى فأجاب صلاح الدين الى ذلك وقال ليس لكم مع الجزيرة واربل حديث فامتنع محيى الدين عن ذلك وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين الى الصلح الا ان تكون اربل والجزيرة معه فلم يتم أمره وقوى طمع صلاح الدين فى الموصل بقبض مجاهد الدين فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف وزلفندار عقوبة لهما ثم أخرج مجاهد الدين على ما نذكره ان شاء الله

﴿ ذكر غزو بيسان ﴾

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى وهو صبى وجعل معه الامير سيف الدين يازكج وكان أكبر الامراء الاسدية وسار الى دمشق وتجهز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار الى بلد الفرنج فعبر نهر الاردن تاسع جمادى الآخرة من السنة فرأى أهل تلك النواحى قد فارقوها خوفا فقصد بيسان فأحرقها وخربها وأغار على ما هناك فاجتمع الفرنج وجاؤا الى قبالته فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه فأقام عليهم وقد استندوا

عشرة سنة وفيها توفى المنذر ابن محمد بن عبد الرحيم بن الحكم وبويع أخوه عبد الله ابن محمد وتوفى سنة ست وتسعين ومائتين ﴿ خلع القواد والقضاة المقتدر بالله وبايعوا عبد الله بن المعتز ولقبوه الراضى بالله وجرت بسبب ذلك حروب كثيرة وامسك الراضى بالله وخنق واعيد المقتدر وكان مولده لسبع بقين من شعبان سنة سبع وأربعين ومائتين وكان فاضلا شاعرا وتشبيهاته اليها النهاية ولى الخلافة يوما واحدا ورثاه ابن بسام بابيات منها

ما فيه لولا ولا ليت فينقصه
وانما أدركته حرفة الادب

والحق انه أصابته دعوة العلويين فانه كان يقول ان وليت ما أبقيت علويا فدعوا عليه وفى هذه السنة قوى أبو عبد الله الشيعى القائم بدعوة العلويين الفاطمية بالغرب وقتل جميع عساكر زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ابن الاغلب فهرب زيادة الله الى مصر ثم مات وانقضت به دولة الاغالبة فكانت مدة ملكهم بافريقية مائة سنة وثنتى عشرة سنة فان الرشيد كان ولى ابراهيم ابن الاغلب افريقية سنة أربع وثمانين ومائة وابتدأت دولة الفاطميين بافريقية

الى جبل هناك وخندقوا عليهم فأحاط بهم عساكر الاسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضا فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم فى غير السلامة وأغار المسلمون على تلك الاعمال يمينا وشمالا ووصلوا فيها الى ما لم يكونوا يطمعون فى الوصول اليه والاقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود الى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعادوا الى بلادهم على عزم الغزو

﴿ ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب ﴾

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكرك فسار اليه فى العساكر وكتب الى أخيه العادل أبى بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر الى الكرك وكان العادل قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه الى ذلك وأمره ان يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين الى الكرك فى رجب ووافاه أخوه العادل فى العسكر المصرى وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون الى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه فى القتال ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمى بالحجارة ليلا ونهارا وكان صلاح الدين يظن ان الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك وانهم يبذلون جهدهم فى رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفى لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع فرحل عنه منتصف شعبان وسير تقى الدين ابن أخيه الى مصر نائبا عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاه واستصحب أخاه العادل معه الى دمشق وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيره اليها فى شهر رمضان من السنة وأحضر ولده الظاهر منها الى دمشق

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة فتح الرباط الذى بنته أم الخليفة بالمأمونية وفيها فى ذى الحجة توفى مكرم بن بختيار أبو الخير الزاهد ببغداد وروى الحديث وكان كثير البكاء وفى جمادى الآخرة توفى محمد بن بختيار ابن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر ويعرف بالابله فمن جملة شعره

أراق دمعى لا بل أراق دمى * ظلما بظلم من ريقه الشبم
ذو قامة كالقضيب ناضرة * وناظر من سقامه سقمى
حصلت من وعده على أصدق الـ * ـوعد ومن وصله على التهم

﴿ ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر اطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم ﴾

فى هذه السنة فى المحرم أطلق أتابك عز الدين صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل وسيره الى البهلوان وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين فسار الى قزل أولا وهو صاحب اذربيجان فلم يمكنه من المضى الى البهلوان وقال مهما تختاره أنا أفعله وجهز معه عسكرا كثيرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو اربل ليحصروها فلما قاربوها أفسدوا فى البلاد وخربوها ونهبوا وسبوا وأخذوا النساء قهرا ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم فسار اليهم زين الدين يوسف صاحب اربل فى عسكره فلقيهم وهم متفرقون فى القرى ينهبون ويحرقون فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم وألقى بنفسه

من هذه السنة وانقرضت بمصر سنة سبع وستين وخمسمائة وكان أولهم أبو محمد عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسمعيل بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب وطعنت طائفة فى نسبه فقالوا اسمه سعيد ابن أحمد بن عبد الله القداح ابن ميمون بن ديصان وسمى القداح لانه كان يقدح العيون وبدولة الفاطميين انقرضت دولة الادارسة ولد ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب وكان استفحل أمرهم بالمغرب بفاس والبربر وطنجة وحملت رؤسهم الى المهدى وكانت مدة دولتهم فوق مائة سنة ودولة بنى مدرار من سجلماسة وكانت مدة ملكهم مائة وثلاثين سنة ودولة بنى رستم وكان مدة ملكهم مائة وستين سنة ولما استقرت دولة عبيد الله الفاطمى المهدى قتل أبا عبد الله الشيعى وأخاه أبا العباس اللذين أقاما دولته ودعوا الناس الى بيعته قال ابن الاثير كان قتلهما فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين ومائتين وقال صاحب الجمع والبيان فى تاريخ القيروان انه فى سنة ثمان وتسعين ومائتين

وعسكره على أول من لقيه منهم فهزمهم وتمت الهزيمة على الجميع وغنم الاربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم وعاد العجم الى بلادهم منهزمين وعاد صاحب اربل الى بلاده مظفرا غانما وعاد مجاهد الدين الى الموصل فكان يحكي انني مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم فانني رأيت منهم مالا كنت أظنه يفعله مسلم وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان

﴿ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب﴾

فى هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى بلاد الاندلس وجاز البحر اليها فى جمع عظيم من عساكر المغرب فانه جمع وحشد الفارس والراجل فلما عبر الخليج قصد غربى البلاد فحصر مدينة شنترين وهى للفرنج شهرا فأصابه بها مرض فمات منه فى ربيع الاول وحمل فى تابوت الى مدينة اشبيلية من الاندلس وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ومات عن غير وصية بالملك لاحد من أولاده فاتفق رأى قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذى مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو فقام فى ذلك أحسن قيام وأقام راية الجهاد وأحسن السيرة فى الناس وكان دينا مقيما للحدود فى الخاص والعام فاستقامت له الدولة وانقادت اليه بأسرها مع سعة أقطارها ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة فى سائر بلادها وأصلح أحوالها وعاد الى مراكش وكان أبوه يوسف حسن السيرة وكان طريقه ألين من طريق ابيه مع الناس يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وهم أهل خدمته وخاصته وأحبه الناس ومالوا اليه وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك فى جباية الاموال ما كان أبوه يأخذه ولم يتعده الى غيره واستقامت له البلاد بحسن فعله مع أهلها ولم يزل كذلك الى ان توفى رحمه الله تعالى

﴿ذكر غزو صلاح الدين الكرك﴾

فى هذه السنة فى ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو وجمع عساكره فأتته من كل ناحية وممن أتاه نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن وكتب الى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على من به وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه واشتد القتال فملك المسلمون الربض وبقى الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقا عظيما عمقه نحو ستين ذراعا فأمر صلاح الدين بالقاء الاحجار والتراب فيه ليطمه فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمى عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والاحجار من المنجنيقات فأمر ان يبنى بالاخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف ويلقون فى الخندق ما يطمه ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمى الحصن ليلا ونهارا وأرسل من فيه من الفرنج الى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا الى نجدتهم عجالين فلما بلغ الخبر بمسيرهم الى صلاح الدين رحل عن الكرك الى طريقهم ليلقاهم ويصافهم ويعود بعد ان يهزمهم الى الكرك فقرب منهم وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الارض وصعوبة المسالك اليهم وضيقه فأقام أياما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفا على نفوسهم فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بازائهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلا الى الكرك فلما علم صلاح الدين ذلك علم انه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار الى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه من

وهو الظاهر (وفى سنة سبع وتسعين ومائتين) توفى أبو القاسم الجنيد بن محمد الصوفى وكان فقيها صوفيا أخذ الفقه عن أبى ثور والتصوف عن سرى السقطى (وفى سنة تسع وتسعين ومائتين) قبض المقتدر على وزيره أبى الحسن بن الفرات ونهب داره وولى محمد بن يحيى بن عبيد الله بن خاقان وكان يرتشى كثيرا ويعزل كثيرا سريعا حتى أنشدوا فيه وزير قد تكامل فى الرقاعة يولى ثم يعزل بعد ساعة اذا أهل الرشا اجتمعوا عليه فخير القوم أوفرهم بضاعة ثم عزله المقتدر بعد سنة وولى على بن عيسى (وفى سنة ثلثمائة) توفى عبد الله الاموى صاحب الاندلس وعمره اثنتان وأربعون سنة وولايته خمس سنين وأحد عشر شهرا وولى بعده ابن ابنه عبد الرحمن ابن محمد المقتول كان قتله ابوه عبد الله فى حد من الحدود وهذا عبد الرحمن سمى بعد ذلك بالناصر وأرسل المهدى الفاطمى أبو محمد عبيد الله ثلاث مرات لاخذ مصر ويرسل المقتدر اليه عساكر يدفعه عنها بعد أخذه الاسكندرية وبلادا معها وبنى المهدية

البلاد فلما وصل الى نابلس أحرقها وخربها وقتل فيها وأسر وسبى فأكثر وسار عنها الى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جينين فنهبها وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا فى طريقه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون ووصل الى دمشق

﴿ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها الى أولاد عبد المؤمن﴾

فى هذه السنة فى شعبان خرج على بن اسحق المعروف بابن غانية وهو من أعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة الى بجاية فملكها وسبب ذلك انه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله فكان عشرين قطعة وسار فى جموعه فأرسى فى ساحل بجاية وخرجت خيله ورجاله من الشوانى فكانوا نحو مائتى فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل فدخل مدينة بجاية بغير قتال لانه اتفق ان واليها سار عنها قبل ذلك بأيام الى مراكش ولم يترك فيها جيشا ولا حماية لعدم عدو يحفظها منه فجاء الملثم ولم يكن فى حسابهم انه يحدث نفسه بذلك فأرسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بنى حماد وصاروا معه فكثر جمعه بهم وقويت نفسه فسمع خبره والى بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلثمائة فارس فجمع من العرب والقبائل الذين فى تلك الجهات نحو ألف فارس فسمع بهم وبقربهم منه فخرج اليهم وقد صار معه قدر ألف فارس وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التى كانت مع والى بجاية الى الملثم فانهزم حينئذ والى بجاية ومن معه من الموحدين وساروا الى مراكش وعاد الملثم الى بجاية فجمع جيشه وخرج الى أعمال بجاية فأطاعه جميعها الا قسطنطينية الهوى فحصرها الى ان جاء جيش من الموحدين من مراكش فى صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة الى بجاية فى البر والبحر وكان بها يحيى وعبد الله أخو على بن اسحق الملثم فخرجا منها هاربين ولحقا باخيهما فرحل عن القسطنطينية وسار الى افريقية وكان سبب ارسال الجيش من مراكش ان والى بجاية وصل الى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها وخوفه عاقبة التوانى فجهز العساكر فى البر عشرين ألف فارس وجهز الاسطول فى البحر فى خلق كثير واستعادوها

﴿ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده﴾

فى هذه السنة مات قطب الدين ايلغازى بن نجم الدين بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى بن ارتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين بولق ارسلان وهو طفل وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك أبيه وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم فى دولته وهو رتب البقش مع ولده وكان البقش دينا خيرا عادلا حسن السيرة سليما فأحسن تربية الولد وتزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ قد تحكم فى دولته وحكم فيها فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد ولم يزل الامر كذلك الى ان مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام فى الملك وليس له منه الا الاسم والحكم الى النظام ولؤلؤ فبقى كذلك الى سنة احدى وستمائة فمرض النظام البقش فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ وضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل الى النظام وبيده السكين فقتله أيضا وخرج وحده ومعه غلام له والقى الرأسين الى الاجناد وكانوا كلهم قد انشأهم النظام ولؤلؤ فاذعنوا له بالطاعة فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها وقلعة البارعية وصور وهو الى الآن حاكم

المشهورة ببلاد الغرب على جانب البحر وجعلها دار ملكه وجعل لها سورا محكما وأبوابا عظيمة وزن كل مصراع مائة قنطار وقال الآن أمنت على الفاطميين (وفى سنة ثلاث وثلثمائة) توفى أبو عبد الرحمن أحمد بن على بن شعيب النسائى بمكة ودفن بين الصفا والمروة (وفى سنة أربع وثلثمائة) قدم رسل ملك الروم الى بغداد فلما استحضروا صفت دار الخلافة بالاسلحة وأنواع الزينة وصف العسكر وكان عدته مائة ألف وستين ألفا ما بين راكب وواقف ووقف الغلمان بالمناطق الذهب والخدام وكانوا أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف أسود والحجاب وهم سبعمائة حاجب وجعلت المراكب فى دجلة مزينة لا يحصى عددها وكانت الستور المعلقة على الابواب ثمانية وثلاثين ألف ستر منها ديباج مذهب اثنا عشر ألفا وخمسمائة وكانت البسط اثنين وعشرين ألفا وجىء بمائة سباع معها مائة سبع وعملت شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشر غصنا عليها عصافير وطيور من ذهب وفضة والاوراق

فيها احازم فى أفعاله

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

وفى هذه السنة توفى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ اسمعيل بن شيخ الشيوخ أبى سعيد أحمد فى شعبان وكان قد سار فى ديوان الخلافة رسولا الى صلاح الدين معه شهاب الدين بشير الخادم فى معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل فوصل دمشق وصلاح الدين يحصر الكرك فأقام الى ان عاد فلم يستقر فى الصلح أمر ومرضا وطلبا العودة الى العراق فاشار عليهما صلاح الدين بالمقام الى ان يصطلحا فلم يفعلا وسارا فى الحر فمات بشير بالسخنة ومات صدر الدين بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين والدنيا وكان ملجأ لكل خائف صالحا كريما حليما وله مناقب كثيرة ولم يستعمل فى مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى وفيها توفى عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندى الفقيه الشافعى رئيس اصفهان وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحج وله شعر فمنه

بالحمى دارسقاها مدمعى * ياسقى الله الحمى من مربع
ليت شعرى والامانى ضلة * هل الى وادى الغضى من مرجع
أذنت عاذلة للواشى بنا * ماعلى عاذلة لو لم تسمع
أو تحرت رشدا فيما وشى * أو عفت عنى فما ابى معى

رحمه الله و رضى عنه وأرضاه

﴿ ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه أرمن ﴾

فى هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق فى ذى القعدة من السنة الماضية فوصل الى حلب وأقام بها الى ان خرجت السنة وسار منها فعبر الى أرض الجزيرة فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين الذى كان سبب ملكه الديار الجزرية وسبب قبضه عليه ان مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى انه بذل له اذا سار اليها خمسين ألف دينار فلما وصل صلاح الدين الى حران لم يف له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ووكل به ثم أطلقه واعاد اليه مدينتى حران والرها وكان قد أخذهما منه وانما أطلقه لانه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لانهم كلهم علموا بما اعتمده مظفر الدين معه من تمليك البلاد فأطلقه وسار صلاح الدين عن حران فى ربيع الاول فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة وهو ابن أخى عز الدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه بعد قبض مجاهد الدين وسار مع صلاح الدين الى الموصل فلما وصلوا الى مدينة بلد سير اتابك عز الدين والدته الى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه المصالحة وبذلوا له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم وانما أرسلهن لانه وكل من عنده ظنوا انهن اذا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك لاسيما ومعهم ابنة مخدومه وولى نعمته نور الدين فلما وصلن اليه أنزلهن وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله فأشار أكثرهم باجابتهن الى ماطلبن منه وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب وهما من بلد الهكارية من أعمال الموصل مثل الموصل لايترك لامرأة فان عز الدين ما أرسلهن الا وقد عجز

عن

ذهب وفضة والاغصان والطيور تصفر بحركات مرتبة مدهشة فشاهدت الرسل مايطول شرحه وصار الوزير يبلغ كلامهم للخليفة ويرد عنه (وفى سنة تسع وثلثمائة) قتل حسين ابن منصور الحلاج كان يخرج للناس فاكهة الشتاء فى الصيف وبالعكس ويمديده فى الهواء ويعيدها مملوأة دراهم مكتوب عليها قل هو الله أحد يسميها دراهم القدرة ويخبر الناس بما صنعوا فى بيوتهم ويتكلم بما فى ضمائرهم وفتن به خلق كثير واختلفوا فيه اختلاف النصارى فى المسيح وكان يصوم الدهر ويفطر على ماء وثلاث عضات من قرص وقدم من خراسان الى العراق وسار الى مكة وجاور بها سنة ثم عاد الى بغداد فالتمس حامد الوزير من المقتدر ان يسلمه اليه فسلمه اليه وجد الوزير فى قتله واستنطقه عدة مجالس بحضرة العلماء آخرها انه قرأ فى كتابه فاذا فيه ان من لم يمكنه الحج اذا أفرد من داره بيتا نظيفا ولم يدخله أحد فطاف حوله أيام الحج وفعل مايفعله الحاج ثم جمع ثلاثين يتيما وأطعمهم أجود الطعام فى ذلك البيت وكساهم وأعطى كل واحد منهم سبعة دراهم كان كمن

عن حفظ البلد ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر باعذار غير مقبولة ولم يكن ارسالهن عن ضعف ووهن انما أرسلهن طلبا لدفع الشر بالتى هى أحسن فلما عدن رحل صلاح الدين الى الموصل وهو كالمتيقن انه يملك البلد وكان الامر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه وامتد عسكره فى تلك الصحراء بنواحى الحلة المراقية وكان يجرى بين العسكر مناوشات بظاهر الباب العمادى وكنت اذ ذاك بالموصل وبذل العامة نفوسهم غيظا وحنقا لرده النساء فرأى صلاح الدين مالم يكن يحسبه فندم على رده النساء ندامة الكسعى حيث فاته الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ وجاءته كتب القاضى الفاضل وغيره ممن ليس له هوى فى الموصل يقبحون فعله وينكرونه وأتاه وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل فانزله ومعه أخوه مظفر الدين كوكبرى وغيرهما من الامراء بالجانب الشرقى من الموصل وسير من المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكارى الى قلعة الجزيرة من بلد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الاكراد والهكارية كثير وبقى هنالك الى ان رحل صلاح الدين عن الموصل وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقى من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عز الدين صاحبها ان نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود الى القلعة وعاد يقتدى برأى مجاهد الدين وكان قد أخرجه كما ذكرناه ويصدر عن أيه وضبط الامور وأصلح ما كان فسد من الاحوال حتى آل الامر الى الصلح على ما نذكره ان شاء الله وحضر عند صلاح الدين انسان بغدادى أقام بالموصل ثم خرج الى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل الى ناحية نينوى وقال ان دجلة اذا انقلت عن الموصل عطش أهلها فملكها بغير قتال فظن صلاح الدين ان قوله صدق فعزم على ذلك حتى علم انه لايمكن قطعه بالكلية فان المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه وقبحه عنده أصحابه فاعرض عنه وأقام بمكانه من اول ربيع الآخر الى ان قارب آخره ثم رحل عنها الى ميافارقين وكان سبب ذلك ان شاه ارمن صاحب خلاط توفى بها تاسع ربيع الآخر فوصل الخبر بوفاته فى العشرين منه فعزم على الرحيل اليها وتملكها حيث ان شاه أرمن لم يخلف ولدا ولا أحدا من أهل بيته يملك بلاده بعده وانما قد استولى عليه مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلفوا فاما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها واما من يكره أذى البيت الاتابكى فانه أشار بالرحيل وقال ان ولاية خلاط أكبر وأعظم وهى سائبة لاحافظ لها وهذه لها سلطان يحفظها ويذب عنها واذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها فتردد فى أمره فاتفق انه جاءه كتب جماعة من أعيان خلاط من أهلها وأمرائها يستدعونه ليسلموا اليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرا فان شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب اذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه بنتا له ليجعل ذلك طريقا الى ملك خلاط واعمالها فلما بلغهم مسيره اليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم فسار صلاح الدين وسير فى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا الى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط وسار صلاح الدين الى ميافارقين واما البهلوان فانه سار الى خلاط ونزل قريبا منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين ثم انهم أصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له

جج فقال القاضى أبو عمرو للحلاج من أين لك هذا قال من كتاب الاخلاص للحسن البصرى قال القاضى كذبت يا حلال الدم قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا وطالبه الوزير بكتابة خطه انه حلال الدم أياما فتمنع ثم أجابه وكتب باباحة دمه ووافقه جماعة من العلماء فقال الحلاج مايحل لكم دمى ودينى الاسلام ومذهبى السنة ولى فيها كتب موجودة فالله الله فى دمى فارسل الوزير الفتاوى الى المقتدر فاذن فى قتله فضرب ألف سوط ثم قطعت يده ثم رجله ثم قتل وأحرق بالنار ونصب رأسه ببغداد ﴿ وفى سنة عشر وثلثمائة ﴾ توفى ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى ببغداد ومولده سنة أربع وعشرين ومائتين وكان من المجتهدين وله مصنفات منها التاريخ المشهور من أول الزمان الى آخر سنة اثنتين وثلثمائة وله التفسير المعروف ورموه بعد موته بالرفض لكونه صنف كتابا فى اختلاف العلماء ولم يذكر فيه مذهب أحمد بن حنبل وقال لم يكن أحمد فقيها انما كان محدثا وفيها توفى أبو بكر محمد بن السرى بن سهل المعروف بالسراج أخذ النحو عن المبرد وأخذ عنه

﴿ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن﴾

فى هذه السنة توفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فملك الاكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الامور وزيره القوام بن سماقا الاسعردى وكان عماد الدين بن قرا أرسلان قد سيره أخوه نور الدين فى عساكره الى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار الى خرت برت فملكها وهى بيد أولاده الى سنة عشرين وستمائة ولما حضر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد وكانوا خافوا ان يأخذها منهم فلم يفعل وردهم الى بلادهم وشرط عليهم ان يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه ورتب معه أميرا لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه

﴿ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين﴾

لما سار صلاح الدين الى خلاط جعل طريقه على ميافارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين قد توفى كما ذكرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها الى شاه أرمن وعسكره فيها فلما توفى طمع فى أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الاولى وكان المقدم على أجنادها أميرا اسمه برنقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعا بهما يحفظ البلد أحسن الحفظ واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين الى ما يريده منها فلما رأى ذلك عدل من القوة والحرب الى اعمال الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها ان أسد الدين برنقش قد مال الينا فى تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد ان يكون لك فى هذا الامر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من أرسل الى الاسد يعرفه ان الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد الى السلطان وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك وانفق ان ورد ولاوصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء اليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل الى ميافارقين وقال للاسد أنت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط فى يده وضعفت قوته وأرسل يقترح اقطاعا ومالا فاجيب الى ذلك وسلم البلد سلخ جمادى الاولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون وأقر بيدها قلعة هتاخ لتكون فيها هى وبناتها

﴿ذكر عود صلاح الدين الى بلد الموصل والصلح بينه وبين اتابك عز الدين﴾

لما فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين وأحكم قواعدها وقرر اقطاعاتها وولاياتها أجمع على العود الى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل الى كفر زمار والزمان شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها واقطاع جميع بلاد الموصل وأخذ غلاتها ودخلها واضعاف الموصل بذلك اذ علم انه لايمكنه التغلب عليها وكان نزوله فى شعبان وأقام بها شعبان ورمضان وترددت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل وصار مجاهد الدين يراسل ويتقرب وكان قوله مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من محبته فبينما الرسل تتردد فى الصلح اذ مرض صلاح الدين وسار من كفر زمار وعاد الى حران فلحقه الرسل بالاجابة الى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة ان يسلم اليه عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ما وراء

أبو سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وكان يجهل الراء غينا وأما ابراهيم بن السرى الزجاج فتوفى فى سنة احدى عشرة وثلثمائة وفيها توفى محمد بن زكريا الرازى الطبيب وكان فى شبيبته يضرب بالعود فلما التحى قال كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لايستحسن وأقبل على كتب الطب والفلسفة وكان قد بلغ الاربعين وصار فيهما غاية ثم جرت حروب كثيرة مع القرامطة وانتصر فيها كبيرهم أبو طاهر ومعه سبعمائة فارس ومثلها رجالة كسر مرة أربعين ألفا وأسر أميرهم يوسف ابن أبى الساج وأخذ مرة الحجاج وأموالهم وأخذ البصرة مرة وقتل عاملها ونهب أموالها وأخذ مرة الكوفة ومافيها وأخذ مرة الرحبة ونهب وسلب وسبى ﴿وفى سنة اثنتى عشرة وثلثمائة﴾ ذبح المقتدر وزيره أبا الحسن بن الفرات وولده معا واستوزر أبا القاسم الخاقانى ﴿وفى سنة ست عشرة وثلثمائة﴾ استوزر أبا على بن مقلة عوضا عن على بن عيسى وفى هذه السنة وصل الدمستق وهو اسم للنائب على البلاد الى شرقى القسطنطينية وحصر خلاط ثم صالحهم

الزاب من اعمال وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف أرسل رسله فحلف عز الدين له وتسلم البلاد التى استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حران فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسمت مادة الفتن وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين قايماز رحمه الله واما صلاح الدين فانه طال مرضه بحران وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته فحلف الناس لاولاده وجعل لكل منهم شيأ من البلاد معلوما وجعل أخاه العادل وصيا على الجميع ثم انه عوفى وعاد الى دمشق فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما كان مريضا بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الاقطاع حمص والرحبة فسار من عنده الى حمص فاجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظرمونه ليسير الى دمشق فيملكها فعوفى وبلغه الخبر على جهته فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الاضحى فانه شرب الخمر وأكثر منه فأصبح ميتا فذكروا والعهدة عليهم ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق فحضر عنده ونادمه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن فلما توفى اعطى اقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك الا مالا خير فيه وبلغنى ان شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له الى أين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

﴿ذكر الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل﴾

فى هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور وروازربيجان وقتل فيها من الخلق مالا يحصى ودامت عدة سنين وتقطعت الطرق ونهبت الاموال وأريقت الدماء وكان سببها ان امرأة من التركمان تزوجت بانسان تركمانى واجتاز واتى طريقهم بقلعة من الزوزان الاكراد فجاء أهلها وطلبوا من التركمان وليمة العرس فامتنعوا من ذلك وجرى بينهم كلام صاروا منه الى القتال فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله فهاجت الفتنة وقام التركمان على ساق وقتلوا جمعا كثيرا من الاكراد وثار الاكراد فقتلوا من التركمان أيضا كذلك وتفاقم الشر ودام ثم ان مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جماعة من رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم وأعطاهم الخلع والثياب وغيرها وأخرج عليهم مالا جما فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها وعادوا الى ما كانوا عليه من الطمأنينة والامان

﴿ذكر ملك الملثمين والعرب افريقية وعودها الى الموحدين﴾

قد ذكرنا سنة ثمانين ملك على بن اسحق الملثم بجاية وارسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن العساكر واستعادتها فسار الى افريقية فلما وصل اليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب وانضاف اليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش وقد تقدم ذكر وصوله اليها ودخل أيضا من اتراك مصر مملوك لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين اسمه بوزابة فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين

على ان يضعوا الصليب مكان المنبر ففعلوا ورحل الى بدليس ففعل فيها كذلك ﴿وفى سنة سبع عشرة وثلثمائة﴾ أنكر الجند والقواد على المقتدر لاستيلاء النساء والخدام على الامور واخذ الاموال الكثيرة واجتمعوا الى مؤنس الخادم وألجؤا المقتدر الى ان اشهد عليه انه خلع نفسه وبايعوا أخاه محمد بن المعتضد ولقبوه القاهر ونهبوا دار الخلافة ونبشوا من بيت أم المقتدر ستمائة ألف دينار وثالث يوم بكر بالناس وازدحموا على القاهر فاستخفى وهرب جماعة فعاد الناس الى بيت مؤنس الخادم فطلبوا منه المقتدر فاخرجه فحملوه على رؤسهم حتى أدخلوه دار الخلافة وحضر اليه أخوه القاهر بالامان فرحب به وأقام عنده وحبسه عند أمه فاحسنت اليه ووسعت عليه وسكنت الفتنة وفى آخر هذه السنة دخل أبو طاهر القرمطى يوم التروية الى مكة فنهب الحجاج وقتلهم فى المسجد الحرام ودخل الكعبة وقلع الحجر الاسود ونقله الى هجر وقتل أمير مكة وقلع باب البيت واصعد رجلا ليقلع الميزاب فسقط ومات وطرح القتلى فى بئر زمزم ودفن الباقين فى المسجد الحرام حيث قتلوا وقسم

واتبعوا جميعهم على بن اسحق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا اليه ولقبوه بامير المسلمين وقصدوا بلاد افريقية فملكوها جميعها شرقا وغربا الا مدينتين تونس والمهدية فان الموحدين أقاموا بها وحفظوها على خوف وضيق وشدة وانضاف الى المفسد الملثم كل مفسد فى تلك الارض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم وقطعوا الاشجار وكان الوالى على افريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتى وهو بمدينة تونس فارسل الى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم جزيرة باشرا وهى بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها فطلب أهلها منه الامان فامنهم فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الاموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم وامتدت الايدى الى النساء والصبيان وتركوهم هلكى فقصدوا مدينة تونس فاما الاقوياء فكانوا يخدمون ويعملون ما يقوم بقوتهم وأما الضعفاء فكانوا يستعطون ويسألون الناس ودخل عليهم فصل الشتاء فاهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء فاحصى الموتى منهم فكانوا اثنى عشر ألفا هذا من موضع واحد فما الظن بالباقى ولما استولى الملثم على افريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للامام الناصر لدين الله الخليفة العباسى وأرسل اليه يطلب الخلع والاعلام السود وقصد فى سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فحصرها فاخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلموها الى الملثم فرتب فيها جندا من الملثمين والاتراك وحصنها بالرجال مع حصانتها فى البناء وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت فى البلاد ولما جرى فيها من التخريب والاذى وسار فى صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل الى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا الى على بن اسحق الملثم ليقاتلوه وكان بقفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فخامروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك فى ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس الى نصف رجب من السنة ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والاتراك فوصل اليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه فاكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم فلم ينج منهم الا القليل فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه الى قابس ففتحها وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وحملهم الى مراكش وتوجه الى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فارسل اليه الترك الذين فيها يطلبون الامان لانفسهم ولاهل البلد فأجابهم الى ذلك وخرج الاتراك منها سالمين وسير الاتراك الى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم فى العدو وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قرية وظهر ما أنذر به المهدى بن تومرت فانه قال انها تخرب أسوارها وتقطع أشجارها وقد تقدم ذكر ذلك فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة واستقامت افريقية عاد الى مراكش وكان وصوله اليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فارق الرضى أبو الخير اسمعيل القزوينى الفقيه الشافعى بغداد وكان مدرس النظامية بها وعاد الى قزوين ودرس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل وكان

كسوة البيت بين أصحابه وفى هذه السنة وقعت فتنة عظيمة ببغداد بسبب تفسير قوله تعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ودخلت فيها الجند والعامة وقتل فيها خلق كثير من ذلك ان الحنابلة قالوا وكبيرهم أبو بكر المروزى معنى الآية ان الله يقعد النبى صلى الله عليه وسلم معه على العرش وقال غيرهم انما هى الشفاعة وفيها توفى نصر بن أحمد البصرى الشاعر المعروف بالخبزرزى وكان أمياوله الاشعار الفائقة منها

خليلى هل أبصرتما أو سمعتما ... باحسن من مولى تمشى الى عبد
اتى زائرا من غير وعد وقال لى ... أجلك عن تعليق قلبك بالوعد
فما زال نجم الوصل بينى وبينه ... يدور بافلاك السعادة والسعد
فطورا على تقبيل نرجس ناظر ... وطورا على تقبيل تفاحة الخد

(وفى سنة عشرين وثلثمائة) سار مؤنس الخادم الى الموصل مغاضبا للمقتدر فاحتاط المقتدر على أمواله وأمر أهل الموصل بقتاله فانتصر مؤنس واجتمعت اليه العساكر بالموصل وقصد بغداد فخرج اليه المقتدر وانكسر وقتل وحمل

من العلماء الصالحين وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ثم أصلح النقيب الطاهر بينهم وفيها توفى الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد الموصلى وكان عالما بمذهب الشافعى وله نظم ونثر أجاد فيه وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز الى مصر واخراج الافضل من مصر الى دمشق واقطاعه اياها﴾

فى هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق واقطعها له وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك انه كان قد استناب تقى الدين بمصر كما ذكرناه وجعل معه ولده الاكبر الافضل عليا فارسل تقى الدين يشكو من الافضل ويذكر أنه قد عجز عن جباية الخراج معه لانه كان حليما كريما اذا أراد تقى الدين معاقبة أحد منعه فاحضر ولده الافضل وقال لتقى الدين لا تحتج فى الخراج وغيره بحجة وتغير عليه بذلك وظن انه يريد اخراج ولده الافضل لينفرد بمصر حتى يملكها اذا مات صلاح الدين فلما قوى هذا الخاطر عنده أحضر أخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع الاجناد والعساكر ليسير الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وقد كتب اليه يرغبه فى تلك البلاد فتجهز للسفر اليه واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثرهم فلما سمع ذلك صلاح الدين ساءه وعلم انه ان أرسل اليه يمنعه لم يجبه فارسل اليه يقول له أريد ان تحضر عندى لاودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى اقطاعه فصار اقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها وكان تقى الدين قد سير فى مقدمته مملوكه بوزابة فاتصل بقراقوش وكان منهم ما ذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد بلغنى من خبير باحوال صلاح الدين انه انما حمله على أخذ حلب من العادل واعادة تقى الدين الى الشام ان صلاح الدين لما مرض بحران على ما ذكرناه أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فارسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعا فى الجند الى مصر وأمره باخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجدا فلم يشعر تقى الدين الا وقد دخل الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يأمره بالخروج منها فطلب ان يمهل الى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول الى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل اليه يطلبه فسار الى الشام فاحسن اليه ولم يظهر له شيأ مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رحمه الله وأما أخذ حلب من العادل فان السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك وكان صلاح الدين يعتمد عليه وكان عاقلا ذا مكر ودهاء فاتفق ان الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنه وقدم غيره عليه فتأثر بذلك فلما مرض صلاح الدين وعوفى سار الى الشام فسايره يوما سليمان بن جندر فجرى حديث مرضه فقال له سليمان بأى رأى كنت تظن انك تمضى الى الصيد فلا يخالفونك بالله ما تستحى يكون الطائر أهدى

رأسه الى مؤنس وهو بالراشدية ولم يكن حضر القتال فلطم وبكى مؤنس وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وبويع القاهر بالله محمد بن المعتضد ثم بعد سنة قصد مؤنس خلع القاهر واتفق مع بليق الحاجب وابنه ان يبايعا أبا أحمد بن المكتفى فظفر بهم القاهر وقتلهم وعزل ابن مقلة الوزير وفى هذه السنة توفى أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ومولده بصر سنة ثلاث وعشرين ومائتين ابتلى فى كبره مع كثرة فضائله بحب الخمر والعيدان وكان قد جاوز التسعين وفيها توفى بمصر أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى انتهت اليه رياسة الحنفية بمصر وكان شافعيا فقال له يوما شيخه المزنى والله لا جاء منك شئ فغضب وانتقل الى مذهب أبى حنيفة وفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ظهر بنو بويه كان بويه من أوسط الناس بين الديلم وكنيته أبو شجاع ونسبه متصل الى اردشير بن بابك من الاكاسرة وكان له ثلاثة أولاد شجعان فى خدمة ما كان بن كالى الديلمى وأسماؤهم عماد الدولة أبو الحسن على وركن الدولة الحسن ومعز الدولة

منك الى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال اذا أراد الطائر أن يعمل عشا لفراخه قصد أعالى الشجرة ليحمى فراخه وأنت سلمت الحصون الى أهلك وجعلت أولادك على الارض هذه حلب بيد أخيك وحماة بيد تقى الدين وحمص بيد ابن شيركوه وابنك العزيز مع تقى الدين بمصر يخرجه أى وقت أراد وهذا ابنك الآخر مع أخيك فى خيمه يفعل به ما أراد فقال له صدقت واكتم هذا الامر ثم أخذ حلب من أخيه وأخرج تقى الدين من مصر ثم أعطى أخاه العادل حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لاولاده فلم ينفعه ما فعل لما أراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما نذكره

﴿ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل﴾

فى هذه السنة فى أولها توفى البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلد الجبل والرى واصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ذا سياسة حسنة للملك وكانت تلك البلاد فى أيامه آمنة والرعايا مطمئنة فلما مات جرى باصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والاحراق والنهب ما يجل عن الوصف وكان قاضى البلد رأس الحنفية وابن الخجندى رأس الشافعية وكان بمدينة الرى أيضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة وتفرق أهلها وقتل منهم وخربت المدينة وغيرها من البلاد ولما مات البهلوان ملك أخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان والخطبة له فى البلاد بالسلطنة وليس له من الامر شئ وانما البلاد والامراء والاموال بحكم البهلوان فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ولحق به جماعة من الامراء والجند فاستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها ان شاء الله تعالى

﴿ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس الى صلاح الدين﴾

كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلى قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل اليها وأقام عندها بطبرية ومات ملك الفرنج بالشام وكان مجذوما وأوصى بالملك الى ابن أخت له وكان صغيرا فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لانه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شانا ولا أشجع ولا أجود رأيا منه فطمع فى الملك بسبب هذا الصغير فاتفق ان الصغير توفى فانتقل الملك الى أمه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ثم ان هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كى فتزوجته ونقلت الملك اليه وجعلت التاج على رأسه وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية وأعلمتهم انها قد ردت الملك اليه وأشهدتهم عليها بذلك فاطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القمص وسقط فى يديه وطولب بحساب ما جبى من الاموال مدة ولاية الصبى فادعى انه أنفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاققة والمباينة وراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد وضمن له انه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان القمص فاطلقهم فحل ذلك عنده أعظم محل وأظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من أعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره ان شاء الله وسير صلاح الدين السرايا من ناحية

أبو الحسن أحمد فلما طرد مرداويج ما كان بن كالى عن طبرستان أحسن الى أولاد بويه وولى عماد الدولة كرخ فظهرت شجاعته وكسر صاحب اصفهان وعدة جيشه عشرة آلاف بتسعمائة فارس وعظم فى عيون الناس ونفوسهم وأخذ غيرها من البلاد واستولى على شيراز وجعل ابن مقلة يعمل الحيلة فى خلع القاهر ويوهم القواد منه حتى انه كان يعطى المائة دينار لمنجمه ليقول لهم عليكم قطع من القاهر ولمعبر المنامات ليفسرها بهذا النحو فاجتمعت القواد وسملوا عينيه وكانت خلافته سنة وستة أشهر وثمانية أيام وبويع الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر واستوزر ابن مقلة وذلك فى ست من جمادى الاولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وفيها توفى المهدى عبيد الله الفاطمى بالمهدية وكانت ولايته أربعا وعشرين سنة وشهرا وعمره ثلاثا وستين سنة وشهرا واستقر بعده ولده القائم أبو القاسم بعد ان اختفى سنة وقتل فيها محمد بن على الشلمغانى وشلمغان قرية بنواحى واسط كان أحدث مذهبا مداره على الحلول والتناسخ

طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج وخرجت سالمة غانمة فوهن الفرنج بذلك وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم

﴿ذكر غدر البرنس ارناط﴾

كان البرنس ارناط صاحب الكرك من أعيان الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين وأعظمهم ضررا عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فاجابه الى ذلك وهادنه وتحالفا وترددت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام فلما كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر اللعين بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودع السجون من أسر منهم فارسل اليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده ان لم يطلق الاسرى والاموال فلم يجب الى ذلك وأصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله ان ظفر به فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا ان هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة فى برج الميزان ويحدث باقترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك صحة ولم يهب من الرياح شئ البتة حتى ان الغلال الحنطة والشعير تأخر نجازها لعدم الهواء الذى يذرى به الفلاحون فأكذب الله احدوثة المنجمين وأخزاهم وفيها توفى عبد الله بن برى بن عبد الجبار بن برى النحوى المصرى وكان اماما فى النحو رحمه الله تعالى

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة﴾

اتفق أول هذه السنة يوم السبت وهو يوم النوروز السلطانى ورابع عشر آذار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية وكان القمر والشمس فى الحمل واتفق أول سنة العرب وأول سنة الفرس التى جددوها أخيرا وأول سنة الروم والشمس والقمر فى أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله

﴿ذكر حصر صلاح الدين الكرك﴾

فى هذه السنة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الامكان ثم خرج من دمشق أواخر المحرم فى عسكرها وحلقتها الخاص فسار الى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل على ليجتمع اليه من يرد اليه منها وسار هو الى بصرى جريدة وكان سبب مسيره وقصده اليها انه أتته الاخبار ان البرنس ارناط صاحب الكرك يريد ان يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم وأظهر انه اذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع الى طريق العسكر المصرى يصدهم عن الوصول الى صلاح الدين فسار الى بصرى ليمنع البرنس ارناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفا عليه وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره فلما سمع ارناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه فوصل

أمسكه الوزير ابن مقلة وأفتت العلماء باباحة دمه فقتل وصلب وأحرق بالنار وكان من مذهبه الخبيث ترك العبادات كلها واباحة الفروج من ذوى الارحام وانه لا بد للفاضل ان ينكح المفضول ليولج فيه النور وانه من امتنع من ذلك عاد فى الدور الثانى (وفى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة) ولى محمد بن طغج وهو الاخشيد مصر انتقل اليها من دمشق وكان قد انتقل الى دمشق من الرملة وفيها أرسل القائم الفاطمى والاندلس بيد عبد الرحمن جيشا ففتح جنوة وفيها أرسل الراضى وطلب محمد ابن رائق من واسط وسلم اليه الامر وبطلت الوزارة واقتصر حكمه على بغداد وعملها واستقرت البصرة بيد ابن رائق وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه واصفهان فى يد أخيه ركن الدولة والموصل وديار بكر وربيعة ومضر فى يد بنى حمدان ومصر والشام فى يد الاخشيد والمغرب وافريقية فى يد القائم الفاطمى والاندلس فى يد عبد الرحمن الاموى الملقب بالناصر وخراسان وما وراء النهر فى يد نصر بن أحمد الساماني وطبرستان وجرجان فى يد الديلم

الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفا من العسكر الذي مع ولده الافضل فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين

﴿ذكر الغارة على بلد عكا﴾

أرسل صلاح الدين الى ولده الافضل يأمره ان يرسل قطعة صالحة من الجيش الى بلد عكا ينهبونه ويخربونه فسير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب حران والرها وأضاف اليه قايماز النجمي ودلدرم الياروقي وهما من أكابر الامراء وغيرهما فساروا ليلا وصبحوا صفورية أواخر صفر فخرج اليهم الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين وله النكايات العظيمة في المسلمين ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم ينكر ذلك فكان فتحا كثيرا فان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج وسيرت البشائر الى البلاد بذلك

﴿ذكر عود صلاح الدين الى عسكره ودخوله الى الفرنج﴾

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية وقتل من قتل منهم وأسر من أسر منهم عاد عن الكرك الى العسكر الذي مع ولده الملك الافضل وقد تلاحقت سائر الامراء والعساكر واجتمع بهم وسار واجتمعوا وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس ممن له الاقطاع والجامكية سوى المتطوعة فعبى عسكره قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمرهم بلازمته وسار على تعبية فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية وكان القمص قد انتمى الى صلاح الدين كما ذكرنا وكتبه متصلة اليه بعده النصرة وتمنيه المعاضدة وما يعدهم الشيطان الا غرورا فلما رأى الفرنج العساكر الاسلامية وتصميم العزم على قصد بلادهم أرسلوا الى القمص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرا من الفرسان فانكروا عليه انتماءه الى صلاح الدين وقالوا له لاشك أنك أسلمت والا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهدده البطرك انه يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته الى غير ذلك من التهديد فلما رأى القمص شدة الامر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والموازرة على حفظ بلادهم فأجابهم الى المصالحة والانضمام اليهم والاجتماع بهم وسار معهم الى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيئا وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا الى صفورية وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى قد ملئت قلوبهم رعبا

﴿ذكر فتح صلاح الدين طبرية﴾

لما اجتمع الفرنج وساروا الى صفورية جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء وان يضعف الفرنج بشن الغارات واخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له بعض أمرائه الرأي عندي اننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي فان وقف أحد

والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي (وفي سنة ست وعشرين وثلثمائة) أشار ابن مقلة على الراضي بمسك ابن رائق فبلغ ابن الرائق فامسك ابن مقلة وحبس ثم أخرج وقطعت يده وكان يشد القلم عليها ويكتب ثم بلغ ابن رائق دعاؤه عليه وعلى الراضي فقطع لسانه وحبس الى ان مات في أسوأ حال ودفن مكانه ثم نبشه أهله فدفنوه في موضع آخر ثم نبش ودفن في موضع آخر فمن الاتفاق الغريب انه ولي الوزارة ثلاث مرات لثلاثة خلفاء المقتدر والقاهر والراضي وسافر ثلاث مرات ودفن ثلاث مرات وفي آخر هذه السنة سار بجكم من واسط ودخل بغداد وكسر ابن رائق وهرب منه وخلع الراضي على بجكم وصار أمير الامراء والحكم له والخليفة معه عارية (وفي سنة تسع وعشرين وثلثمائة) مات الراضي بالاستسقاء وكانت خلافته ست سنين وعشرة أيام وعمره اثنتان وثلاثون سنة وكان شاعرا حسنا سخيا يحب الادب وبعده لم يبق من بيت الخلفاء أحد يشعر وهو آخر خليفة دون شعرا وأنفق النفقات وجالس الجلساء ومن شعره يصفر وجهي اذا تأمله

من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فان الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال المسلمين والرأي ان نفعل فعلا نعذر فيه ونكف الالسنة عنا فقال صلاح الدين الرأي عندي ان نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فان الامور لا تجري بحكم الانسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع الا بعد الجد بالجهاد ثم رحل من الاقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم ير منهم أحدا ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل جريدة الى طبرية وقاتلها ونقب بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها الى القلعة التي لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها فنهب المدينة وأحرقها فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية وملكه المدينة وأخذ ما فيها واحراقها واحراق ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة فاشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص ان طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها وان أقام بها لا يقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر الى تركها ونفتك من أسر منا فقال له برنس ارناط صاحب الكرك قد أطلت في التخويف من المسلمين ولاشك انك تريدهم وتميل اليهم والا ما كنت تقول هذا واما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب فقال أنا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الاسلام فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريبا منه وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم وأما المسلمون فانهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضا وقد وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم فاكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب

﴿ذكر انهزام الفرنج بحطين﴾

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا الى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض الا ان الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا هذا القتال بينهم والفرنج قد جمعوا انفسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر

طرفي فيحمر وجهه خجلا حتى كأن الذي بوجنته من دم قلبي اليه قد نقلا وبويع بعده ابراهيم بن المقتدر باشارة كاتب بجكم أبي عبد الله الكوفي ولقب (المتقي بالله) وتصرف بجكم تصرف الخلفاء وأخذ فرس الخلافة وآلاتها وصار التدبير مكان الوزارة الى كاتب بجكم ثم قتل بجكم بعد حكمه سنتين وثمانية أشهر واستولى على الامر البريدي ثم أخرج من بغداد واستولى على الامر كورتكين ثم أخرج وكان ابن رائق قد استولى على الشام فجاء بغداد واستولى عليها ثم جاء ابن البريدي وقتل ابن رائق واستولى على بغداد ثم جاء ناصر الدولة بن حمدان الى المتقي وخلع عليه بامرة الامراء وأخذ بغداد وخلع على أخيه علي ولقبه سيف الدولة (وفي هذه السنة) توفي أبو الحسن علي بن اسمعيل بن أبي بشر الاشعري ودفن ببغداد بشرعة الزوايا ثم طمس قبره خوفا ان تنبشه الحنابلة فانهم كانوا يعتقدون كفره ويبيحون دمه وهو من ولد أبي موسى الاشعري وسبب ظهور مذهبه وترجيحه انه ناظر أبا علي الجبائي

فى وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا فلما رأى القمص شدة الامر علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين فى تلك الناحية تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم أنه لا سبب الى الوقوف فى وجوههم فأمر أصحابه ان يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد ألقى فى تلك الارض نارا وكان الحشيش كثيرا فاحترق وكانت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال فلما انهزم القمص سقط فى أيديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت الا الاقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم الا ان الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون الا وقد قتل منهم فوهنوا لذلك وهنا عظيما فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقى من الفرنج الى تل بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا انفسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير وأخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك هذا والقتل والاسر يعملان فى فرسانهم ورجالتهم فبقى الملك على التل فى مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين فحكى لى عن الملك الافضل ولد صلاح الدين قال كنت الى جانب أبى فى ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى قال فنظرت اليه وقد علته كآبة وارْبدّ لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان قال فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا الى التل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى هزمناهم فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الاولى ألحقوا المسلمين بوالدى وفعل مثل ما فعل أولا وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل فصحت أنا أيضا هزمناهم فالتفت والدى الى وقال اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة قال فهو يقول لى واذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فبكى من فرحه وكان سبب سقوطها ان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص فى بعض تلك الحملات مما هم فيه فلم يجدوا الى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الارض فصعد المسلمون اليهم فالقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والبرنس ارناط صاحب الكرك ولم يكن فى الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفرى ومقدم الداوية وكان من أعظم الفرنج شانا وأسروا أيضا جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية وكثر القتل والاسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا واحدا ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا أحدا وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل وهو سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة فلما فرغ المسلمون

منهم

وكان زوج أمه فى وجوب الاصلح على الله تعالى فانتبه الجبائى على قواعد مذهبه فقال له أبو الحسن ياعم ما تقول فى ثلاثة صبية اخترم الله تعالى أحدهم قبل البلوغ وبقى الآخران فكفر واحد وأسلم آخر ما العلة فى اخترام الصغير فقال لانه علم انه لو بلغ لكفر فقال الاشعرى هاقد بلغ أحدهم فكفر فقال الجبائى انما أحياه ليعرضه الى أعلى المراتب يريد البلوغ والتكليف فانها المرتبة الانسانية فقال الاشعرى فلم لا أحيا الذى اخترمه لذلك فقال الجبائى وسوست قال لا ولكن وقف حمار الشيخ يعنى انقطع البحث ﴿وفى سنة احدى وثلاثين وثلثمائة﴾ مات نصر بن أحمد بن سامان صاحب خراسان وما وراء النهر وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وثلاثة عشر يوما وكان حليما كريما وولى بعده ابنه نوح وفيها طلب ملك الروم من المتقى منديلا كان فى كنيسة الرها زعموا ان المسيح مسح وجهه به فانتقشت صورته فيه ووعده على ذلك باطلاق اسرى المسلمين واختلف الفقهاء فى ذلك وآخر الامر أرسلوه اليه وجاء باسارى كثيرة ﴿وفى سنة ثلاث

منهم نزل صلاح الدين فى خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك وأجلس الملك الى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب فقال صلاح الدين ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذنى فينال أمانى ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته وقام اليه بنفسه فضرب رقبته وقال كنت نذرت دفعتين أن أقتله ان ظفرت به احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن جاشه وأمنه وأما القمص صاحب طرابلس فانه لما نجا من المعركة كما ذكرناه وصل الى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث الا أياما قلائل حتى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة

﴿ذكر عود صلاح الدين الى طبرية وملك قلعتها مع المدينة﴾

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقى يومه وأصبح يوم الاحد عاد الى طبرية ونازلها فارسلت صاحبتها تطلب الامان لها ولاولادها وأصحابها ومالها فاجابها الى ذلك فخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الاسرى فارسلوا الى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية ان يجمعوا ليقتلهم ثم علم ان من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه فبذل فى كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصرية فاحضر عنده فى الحال مائتا أسير منهم فأمر بهم فضربت أعناقهم وانما خص هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الفرنج فاراح الناس من شرهم وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ففعل ذلك ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع فى تلك الآكام والوهاد

﴿ذكر فتح مدينة عكا﴾

لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل الى عكا يوم الاربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فعجب هو والناس من ذلك لانهم علموا ان عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وانهم لم يسلم منهم الا القليل الا أنه نزل يومه وركب يوم الخميس وقد صمم على الزحف الى البلد وقتاله فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل اذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى وصلوا بها الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح الدين جامعا وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد ان ملكه الفرنج وسلم البلد الى ولده الافضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من اقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى وغنم المسلمون ما بقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقى والشكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فانها كانت مقصدا للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله ففرق صلاح الدين وابنه الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وأكثر ذلك فعله

وثلاثين وثلثمائة﴾ أمسك توزون المتقى وسمل عينيه وبويع (المستكفى بالله) أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بالله على بن المعتضد بالله أحمد بن الموفق بالله طلحة فكانت خلافة المتقى لله ابراهيم بن المقتدر جعفر بن المعتضد بالله أحمد ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرين يوما فرحل سيف الدولة من العواصم وأخذ حلب من يانس المؤنسى وأخذ حمص (وفى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة) مات توزون فسار معز الدولة بن بويه من الاهواز الى بغداد وملكها وبايعه المستكفى وفى ذلك اليوم لقب معز الدولة وضرب اسمه فى الدراهم والدنانير ورتب معز الدولة للمستكفى كل يوم خمسة آلاف ثم خلع معز الدولة بن بويه المستكفى وبويع (المطيع لله) الفضل بن المقتدر وازدادت الخلافة ذلا وتسلمت عمال ابن بويه العراق باسره وأقطع معز الدولة للخليفة ما يقوم باوده وسار ناصر الدولة بن حمدان من سامرا الى بغداد وجرت بينه وبين معز الدولة حروب ثم اصطلحا وفيها مات القائم بامر الله أبو القاسم محمد بن المهدى صاحب المغرب وكان قد

الافضل لانه كان مقيما بالبلد وكانت شيمته فى الكرم معروفة وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لاصلاح حالها وتقرير قواعدها

﴿ذكر فتح مجدل يابا﴾

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل الى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير الى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه وورد كتابه بذلك الى صلاح الدين وكانت بشارة كبيرة

﴿ذكر فتح عدة حصون﴾

فى مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك بما سد الفضاء وسير تقى الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين فى عسكر الى نابلس فاتى سبسطية وبها قبر زكريا فاخذه من أيدى النصارى وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم وأموالهم

﴿ذكر فتح يافا﴾

لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا كما ذكرنا سار الى مدينة يافا وهى على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وكان عندى جارية من أهلها وأنا بحلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرا فسكنتها وأعلمتها انه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت ماله أبكى انما أبكى لما جرى علينا كان لى ستة اخوة كلهم هلكوا جميعهم وزوج واختان لا أعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة والباقى بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها الى باب فطرقه سيدها فخرج صاحب البيت فكلمهم ثم أخرج امرأة فرنجية فحين رأتها الاخرى صاحتا واعتنقتا وهما يصرخان ويبكيان وسقطتا الى الارض ثم قعدتا يتحدثان واذا هما أختان وكان لهما عدة من الاهل ليس لهما علم بأحد منهم

﴿ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت﴾

فاما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقى الدين ابن أخيه الى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم الا بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول اليه فرحل ثامن جمادى الاولى ونزل عليه حادى عشره فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهى من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من اسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم الى أهليهم وبقى الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الامان فأمنهم على أنفسهم فسلموها اليه ووفى لهم وسيرهم الى مأمنهم وأما صيدا فان صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها الى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فاخذها صفوا عفوا بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها

خرج عليه خارجى اسمه أبو يزيد وأخذ غالب بلاده وحصره فى المهدية فاخفى موته وقام بالامر بعده ولده اسمعيل ولقب بالمنصور بالله وقاتل أبا يزيد الخارجى وطرده وقتل الخارجى وفيها مات الاخشيد بدمشق وملكها سيف الدولة وولى مصر ولد الاخشيد أبو القاسم أنوجور وتفسيره محمود وكان صغيرا وكان الحاكم عبده كافورا الطواشى الاسود وسار الى دمشق وطرد سيف الدولة عنها وفيها مات عمر بن الحسين الخرقى وأبو بكر الشبلى وكان الشبلى حاجبا للموفق بالله طلحة ثم تاب وصحب الفقراء وكان مالكى المذهب قرأ الموطأ (وفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة) أعادت القرامطة الحجر الاسود الى الكعبة فكانت مدة مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة وبها مات عبد الرحمن الزجاج النحوى صاحب الجمل (وفى سنة احدى وأربعين وثلثمائة) توفى المنصور الفاطمى صاحب المغرب وكان شجاعا فصيحا يؤلف الخطبة لوقتها وعهد الى ابنه المعز لدين الله وكانت خلافة المنصور سبع سنين وستة عشر

فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها التسع بقين من جمادى الاولى وأما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد مرة فبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فاتاهم من أخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهرا وغلبة فأرسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فارادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع ارسلوا يطلبون الامان فامنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الاولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية أيام وأما جبيل فان صاحبها كان من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل على شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فاحضره مقيدا عنده تحت الاستظهار والاحتياط وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه وأطلق اسرى المسلمين الذين به وأطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من أعيان الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر به يضرب المثل بينهم وكان للمسلمين منه عدو أزرق وكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتى بيانه

﴿ذكر خروج المركيش الى صور﴾

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين الى مدينة صور فاقام بها وهى أعظم بلاد الشام حصانة واشد امتناعا على من رامها فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف ان يقصد صلاح الدين صور وهى فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها وتركها وسار الى مدينة طرابلس فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لاخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها فاراد ان يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها فكان ذلك سبب حفظها وكان أمر الله قدرا مقدورا واتفق أن انسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش لعنه الله خرج فى البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فارسى بعكا وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح وضرب الاجراس وغير ذلك وما رأى أيضا من زى أهل البلد فوقف ولم يدر ما الخبر وكانت الريح قد ركدت فأرسل الملك الافضل اليه بعض أصحابه فى سفينة يبصر من هو ومن يريد فأتاه القاصد فسأله المركيش عن الاخبار لما أنكره فاخبره بكسرة الفرنج وأخذ عكا وغيرها وأعلمه ان صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها وحكى الامر له على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح فرد الرسول يطلب الامان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال فاجيب الى ذلك فردده مرارا كل مرة يطلب شيأ لم يطلبه فى المرة الاولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به فبينما هو فى مراجعاته اذ هبت الريح فسار نحو صور وسير الملك الافضل الشوانى فى طلبه فلم يدركوه فاتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرنا أعطى أهلها الامان فساروا كلهم الى صور وكثر الجمع بها الا أنهم ليس لهم راس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم وليسوا أهل حرب وهم عازمون

يوما وعمره تسع وثلاثين وبويع ولده المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور اسمعيل وقوى أمر المعز وملك غالب الغرب وبلغ صاحب الاندلس الناصر عبد الرحمن الاموى قوة المعز الفاطمى وتلقبه بامير المؤمنين وبلغه ضعف الخلافة ببغداد فلقب أيضا بامير المؤمنين وتسمى ذلك اليوم بالناصر الى ان مات فى سنة خمس وثلثمائة وكانت مدة خلافته وامارته خمسين سنة ونصفا وعمره ثلاثا وسبعين سنة وولى الامر بعده ولده الحاكم وتلقب بالمنتصر وفى هذه السنة تولى قضاء القضاة ببغداد أبو العباس عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب والتزم كل سنة بمائتى ألف درهم وهو أول من ضمن القضاء ثم الحسبة ثم الشرطة (وفى سنة احدى وخمسين وثلثمائة) قدم دمستق الروم الى حلب بغتة وهرب سيف الدولة بعد ان قاتل وقتل من جماعته خلق وحاصرها مدة وهو على جبل جوشن حول دار سيف الدولة بعد ان نهبها ثم جرت بين عوام حلب وشرطها فتنة فاشتغلوا عن الاسوار فهجم الروم الى حلب

على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه فاتاهم المركيش وهم على ذلك العزم فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل مامعه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة وأعمالها له دون غيره فاجابوه الى ذلك فاخذ ايمانهم عليه وأقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع فى تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد فى حصانتها واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها

﴿ذكر فتح عسقلان وما يجاورها﴾

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لاسباب منها انهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار ان تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم اليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع باخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان فارسلا الى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون الى السور فنالوا من باشورته شيأ هذا وملكهم يكرر المراسلات اليهم بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم أنه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم لايجيبون الى مايقول ولا يسمعون مايشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا واذا قتل منهم الرجل لايجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين فى تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين اليها وكانوا قتلوا فى الحصار أميرا كبيرا من المهرانية فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثاره فاحتاطوا فيما اشترطوا لانفسهم فأجيبوا الى ذلك جميعه وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان

﴿ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان﴾

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبث السرايا فى اطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية

﴿ذكر فتح البيت المقدس﴾

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم وكان قد أرسل الى مصر أخرج الاسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة فاقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه فحين وصل الاسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان الى البيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شانا من ملكهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خلص

وفتحوا الابواب ووضعوا السيف وسبوا بضعة عشر ألف صبى وصبية وغنموا مالا يوصف كثرة وحرقوا ماعجزوا عن حمله وعاد الدمستق عنها الى بلاده بعد ان أقام بها سبعة أيام ولم ينهب القرى وأمرهم بالزرع ليعود (وفى سنة أربع وخمسين وثلثمائة) أخذ ملك الروم المصيصة بالسيف وأسر وقتل وكان أهلها فوق مائتى ألف انسان وأخذ انطاكية وطرسوس وفيها قتل المتنبى الشاعر وابنه قتلهما بنو ضبة فى السفر واسمه أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندى فانه ولد سنة ثلاث وثلثمائة بمحلة بالكوفة اسمها كندة وأما نسبه فجعفى وكان أبوه سقاء بالكوفة ولذلك أنشد فيه بعض حساده

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع فى الكوفة الما ء وحينا يبيع ماء المحيا

وكان شعره الى النهاية ورزق فيه السعادة وكان اماما فى اللغة سأله أبو على الفارسى كم لنا من الجموع على وزن فعلى فقال فى الحال حجلى وظربى قال أبو على فطالعت كتب اللغة ثلاث

من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحى عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير فى جماعة عن أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه فاهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية فى العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشد قتال رآه احد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطانى بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى بن مالك وهو من اكابر الامراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه كل يوم فقتل الى رحمة الله تعالى وكان محبوبا الى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فازالوا الفرنج عن مواقفهم فادخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الامر وتحريره فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب فى الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال له أيها السلطان اعلم اننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم انك تجيبهم اليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من

ليال فلم أجد لهما ثالثا كان ادعى النبوة فى برية السماوة وتبعه خلق من بنى كلب وغيرهم فخرج اليه لؤلؤ نائب الاخشيد بحمص فاسره وحبسه أياما ثم استتابه فلحق بسيف الدولة ثم اتصل بكافور الاخشيدى بمصر ثم هجاه ولحق بعضد الدولة بن بويه بفارس ثم رجع قاصدا الكوفة فقتل بالنعمانية من سواد بغداد ومن شعره فى صباه

ابلى الهوى أسفا يوم النوى بدنى
وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردد فى مثل الخلال اذا
أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا اننى رجل
لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

انى بلا نامن بعد افتراقهم
نأى بى الشوق عنى مذ نأى سكنى
لو ان ابرة رفاء أكلفها
جريت فى خرمها من دقة البدن

(وفى سنة ست وخمسين وثلثمائة) مات معز الدولة ابن بويه وولى بعده بغداد ابنه بختيار وكان مدة امرة معز الدولة احدى وعشرين سنة واحد عشر شهرا وكان مقطوع اليد قطعت بحرب فى كرمان

اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا
قاتلنا كم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت
اعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا
ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الامر فيه عن أى شئ تنجلى ونحسب انهم اسارى بأيدينا
فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر
أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات
دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون
يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار
فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا
ورفعت الاعلام الاسلامية على اسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد فى كل باب أمينا من
الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الامناء
الاموال وتفرقت أيدى سبا ولو اديت فيه الامانة لملأ الخزائن وعم الناس فانه كان فيه على
الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان ولا يعجب
السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحى من عسقلان وغيرها والداروم
والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس وكان الانسان لا يقدر ان
يمشى ومن الدليل على كثرة الخلق ان أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة وأطلق باليان
ابن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه
ما يعطى وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبى هذا بالضبط واليقين ثم ان
جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس
فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم وكان جماعة من الامراء يلبسون الفرنج زى الجند المسلمين
ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من
الفرنج فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل وكان بالقدس بعض
نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير
ولها من الاموال والجواهر النفيسة شئ عظيم فطلبت الامان لنفسها ومن معها فامنها وسيرها
وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس التى كان زوجها الذى أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج
بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك وأطلق مالها وحشمها واستأذنته فى المصير الى زوجها وكان
حينئذ محبوسا بقلعة نابلس فاذن لها فأتته وأقامت عنده وأتته أيضا امرأة للبرنس ارناط صاحب
الكرك وهو الذى قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين فشفعت فى ولد لها أسور فقال لها
صلاح الدين ان سلمت الكرك أطلقته فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه فلم يطلق
ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه من أموال البيع
منها الصخرة والاقصى وقمامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض
له صلاح الدين فقيل له ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة
دنانير وسيرا الجميع ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير
مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين

وهو الذى أنشأ السعاة
ببغداد ومات كافور
الاخشيدى ومات سيف
الدولة بن حمدان وهو أول
من استقل بحلب أخذها
من أحمد بن سعيد الكلابى
وكان شعره حسنا فمنه
ما أنشده لاخيه ناصر
الدولة

وهبت لك العلياء وقد كنت أهلها
وقلت فما بينى وبين أخى فرق
وما كان لى عنها نكول وانما
تجاوزت عن حقى فتم لك الحق
أما كنت ترضى ان أكون مصليا
اذا كنت أرضى ان يكون لك السبق

وكان كريما ممدحا قدم اليه
أبو الفرج الاصفهانى
كتاب الاغانى وكان قد
جمعه فى خمسين سنة فاعطاه
ألف دينار واعتذر وفى
هذه السنة توفى أبو الفرج
المذكور واسمه على بن
الحسين بن محمد بن أحمد بن
الهيثم بن عبد الرحمن بن
مروان بن عبد الله بن
مروان بن محمد بن مروان
ابن الحكم بن العاص بن
أمية بن عبد شمس ومع
هذا كان متشيعا (وفى
سنة ثمان وخمسين وثلثمائة)
سير المعز الفاطمى غلام
والده جوهرا الرومى فى
جيش عظيم الى مصر

صعدوا وصاح الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون
فكبروا فرحا وأما الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الارض أن تميد بهم
لعظمها وشدتها فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم فان
الداوية بنوا غربى الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هرى ومستراح وغير
ذلك وأدخلوا بعض الاقصى فى ابنيتهم فاعيد الى الاول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من
الاقذار والانجاس ففعل ذلك أجمع ولما كان الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة
ومعهم صلاح الدين وصلى فى قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيى الدين بن الزكى قاضى
دمشق ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له
ان نور الدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه واتقانه وقال هذا قد
عملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الاسلام مثله فامر باحضاره
فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من
كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة
المسجد الاقصى واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فاحضروا من الرخام الذى
لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطينى وغير ذلك مما يحتاجون اليه قد ادخر على طول السنين
فشرعوا فى عمارته ومحوا ما كان فى تلك الابنية من الصور وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق
الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش ان القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج
الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم
اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعل فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم ان تفنى
فأمر بها ففرش فوقها حفظا لها فلما كشفت نقل اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات
الجيدة ورتب القراء وادر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة
من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه
ذلك فخرا وشرفا وأما الفرنج من أهله فانهم أقاموا وشرعوا فى بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم
وذخائرهم وأموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل
العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج فانهم طلبوا من صلاح
الدين ان يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا
حينئذ من أموال الفرنج وترك الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق
والبتيات وغير ذلك وتركوا أيضا من الرخام الذى لا يوجد مثله من الاساطين والالواح والفص
وغيره شيأ كثيرا ثم ساروا

﴿ذكر رحيل صلاح الدين الى صور ومحاصرتها﴾

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور
البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهى فى غاية
ما يكون من الحسن فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج
عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين
البلد ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها اياما فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد فى عمل سور

فاستولى عليها وشرع فى
بناء القاهرة وخطب على
المنابر باسم المعز وقطعت
خطبة العباسيين ونودى
فى الاذان حى على خير
العمل وجهر فى الصلاة
ببسم الله الرحمن الرحيم
ثم خطب له بالشام وحلب
ومدينة النبى صلى الله عليه
وسلم وخطب بمكة للمطيع
(وفى سنة احدى وستين
وثلثمائة) رحل المعز الى
مصر باهله وأمواله وجعل
الذهب فردات طواحين
وحملها على الجمال ومعه ابن
هانئ الشاعر الاندلسى
فقتل غيلة فى الطريق
وكان قد تغالى فى مدح
المعز حتى كفر حين قال

صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه بحيث ان يتصل القتال على أهل البلد على ان الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فان المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال انما هو فى الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شوانى وحراقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانبى الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم عليهم لان أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى البلد فارسل صلاح الدين الى الشوانى التى جاءته من مصر وهى عشر قطع وكانت بعكا فاحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن فى الحساب وذلك ان خمس قطع من شوانى المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه فباتوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم عبد السلام المغربى الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا الا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور والمسلمون فى البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشوانى الباقية بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا نفوسهم فى شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فاخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفى بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام

﴿ذكر الرحيل عن صور الى عكا وتفريق العساكر﴾

لما رأى صلاح الدين ان أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع فى الايام القريبة كما ذكرناه بغير تعب ولا مشقة فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا

ما شئت لا ما شاءت الاقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
ودخل القاهرة خامس عشر رمضان سنة اثنتين وستين وثلثمائة ﴿وفى سنة ثلاث وستين وثلثمائة﴾ سار بختيار أمير الامراء ببغداد الى الاهواز واستخلف سبكتكين ببغداد فخرج عليه ونهب داره وأمر المطيع ان يخلع نفسه وكانت خلافته تسعا وعشرين سنة وشهرا وبويع ولده الطائع لله عبد الكريم ﴿وفى سنة خمس وستين وثلثمائة﴾ توفى المعز بمصر وعمره خمس وأربعون سنة وكان يعمل باقوال المنجمين وبويع ولده

الانتقال عنها ولم يكن لاحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فانه هو جهز اليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والاموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الامان ويرسلهم الى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل باموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فاجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤن اليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها وسنذكر ان شاء الله ما صار اليه الامر بعد ذلك ليعلم ان الملك لا ينبغى ان يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلأن يعجز حازما خير له من ان يظفر مفرطا مضيعا للحزم واعذر له عند الناس ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلفوا فجماعة يقولون الرأى أن نرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين فنريح ونستريح فى هذا البرد فاذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها وكان هذا قول الاغنياء منهم وكأنهم خافوا أن السلطان يقترض منهم ما ينفقه فى العسكر اذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الاموال من الدرهم والدينار فانه كان يخرج كل ما يحمل اليه منها وقالت الطائفة الاخرى الرأى ان نصابر البلد ونضايقه فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب وأخذنا باقى البلاد صفوا عفوا فبقى صلاح الدين مترددا بين الرحيل والاقامة فلما رأى من يرى الرحيل اقامته أخل بما رد اليه من المحاربة والرمى بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضر وانفقاتهم والعلوفات لدوابهم والاقوات لهم الى ذلك من الاعذار فصار وامقيمين بغير قتال فاضطر الى الرحيل فرحل عنها آخر شوال وكان أول كانون الاول الى عكا فاذن العساكر جميعها بالعود الى أوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر وبقى حلقته الخاص مقيما بعكا فنزل بقلعتها ورد أمر البلد الى عز الدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة

﴿ذكر فتح هونين﴾

لما فتح صلاح الدين تبنين امتنع من بهونين من تسليمها وهى من أحصن القلاع وأمنع فلم يرالتعريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سير اليها جماعة من العسكر والامراء فحصروها ومنعوا من حمل الميرة اليها واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الامان فامنهم فسلموا ونزلوا منها ووفى لهم بامانهم

﴿ذكر حصر صفد وكوكب والكرك﴾

لما سار صلاح الدين الى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهى مطلة على الاردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه وسير طائفة أخرى من العسكر أيضا الى قلعة صفد فحصروها وهى مطلة على مدينة طبرية وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ اليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما وانصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرا يقال له سيف الدين وهو أخو جاولى الاسدى وكان شهما شجاعا يرجع الى دين وعبادة فاقام عليه

العزيز وخطب له بمكة وفيها قبض عضد الدولة بن بويه على وزير أبيه أبى الفتح ابن العميد وسمل عينه الواحدة وقطع أنفه وكان قد انشرح ليلة مسكه انشراحا عظيما وأنشد

دعوت المنى ودعوت العلى
فلما أجاب دعوت القدح
وقلت لايام شرخ الشباب
الى فهذا اوان الفرح
اذا بلغ المرء آماله
فليس له بعدها مقترح

ولحنت له وغنيت فطرب لها وسكر بالخمر والملاهى فقبض عليه من سحر تلك الليلة وفيها عاد شريف بن سيف الدولة الى ملك حلب ﴿وفى سنة ست وستين

الى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم فى الحراسة وكان قد صلى ورده من الليل الى السحر وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون الا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا الى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنهم ان يحفظوا اقامتهم الى ان أخذت أواخر سنة أربع وثمانين على ما سنذكره ان شاء الله وأتى الخبر الى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه مضافا الى ما ناله من أخذ شوانيه ومن فيها ورحيله عن صور ثم رتب على حصن كوكب الامير قايماز النجمى فى جماعة أخرى من الاجناد فحصروها

﴿ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم﴾

فى هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات وهو أكبر الامراء الصلاحية وقد تقدم من ذكره ما فيه كفاية وسبب قتله انه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب اذنا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ويجمع فى سفرته بين الجهاد والحج وزيارة الخليل عليه السلام ومن بالشام من مشاهد الانبياء وبين زيارة رسول الله صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين فاذن له وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكة فجعل ابن المقدم أميرا عليهم فساروا حتى وصلوا الى عرفات سالمين ووقفوا فى تلك المشاعر وأدوا الواجب والسنة فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات فامر بضرب كوساته التى هى امارة الرحيل فضرب بها أصحابه فارسل اليه أمير الحاج العراقى وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الافاضة من عرفات قبله ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوساته فارسل اليه يقول انى ليس لى معك تعلق أنت أمير الحاج العراقى وأنا أمير الحاج الشامى وكل منا يفعل ما يراه ويختاره وسار ولم يقف ولم يسمع قوله فلما رأى طاشتكين اصراره على مخالفته ركب فى أصحابه واجناده وتبعه من غوغاء الحاج العراقى وبطاطيهم وطماعتهم العالم الكثير والجم الغفير وقصدوا حاج الشام مهولين عليهم فلما قربوا منهم خرج الامر من الضبط وعجزوا عن تلافيه فهجم طماعة العراق على حاج الشام وفتكوا فيهم وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسبيت جماعة من نسائهم الا انهن رددن عليهم وجرح ابن المقدم عدة جروح وكان يكف أصحابه عن القتال ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم فلما أثخن بالجراحات أخذه طاشتكين الى خيمته وأنزله عنده ليمرضه ويستدرك الفارط فى حقه وساروا تلك الليلة من عرفات فلما كان الغد مات بمنى ودفن بمقبرة المعلى ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى

﴿ذكر قوة السلطان طغرل على قزل﴾

فى هذه السنة قوى أمر السلطان طغرل وكثر جمعه وملك كثيرا من البلاد فارسل قزل الى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه وأرسل طغرل رسولا الى بغداد يقول أريد أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لاسكنها اذا

وصلت

ونلثمائة) توفى الحكم بن عبد الرحمن الاموى وكانت امارته خمس عشرة سنة وكسرا وعمره ثلاث وستون سنة وكسرا وبويع ولده هشام ولقب المؤيد وكان عمره عشر سنين وحجبه أبو عامر القحطانى واستقل بالامور وتلقب بالمنصور ومات سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة واستولى عضد الدولة على العراق وغيره وقتل بختيار ووزيره ابن تقية وصلبه ورثاه أبو الحسن الانبارى بقصيدته المشهورة التى منها

علو فى الحياة وفى الممات ... بحق أنت احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات

وصلت فاكرم رسول قزل ووعده بالنجدة ورد رسول السلطان طغرل بغير جواب وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة فهدمت الى الارض وعفى أثرها

﴿ذكر ملك شهرستى من الهند وانهزام المسلمين بعدها﴾

فى آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغورى ملك غزنة الى بلاد الهند وقصد بلاد اجمير وتعرف بولاية السوالك واسم ملكهم كولة وكان شجاعا شهما فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة وهى حصن منيع عامر وملكوا اشهرستى وملكوا كوهرام فلما سمع ملكهم جمع العساكر فاكثر وسار الى المسلمين فالتقوا وقامت الحرب على ساق وكان مع الهند أربعة عشر فيلا فلما اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم فقال لشهاب الدين بعض خواصه قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لئلا يهلك المسلمون فاخذ شهاب الدين الرمح وحمل على الهنود فوصل الى الفيلة فطعن فيلا منها فى كتفه وجرح الفيل لا يندمل فلما وصل شهاب الدين الى الفيلة زرقه بعض الهنود بحربة فوقعت الحربة فى ساعده فنفذت الحربة من الجانب الآخر فوقع حينئذ الى الارض فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه وحرصت الهنود على أخذه وكان عنده حرب لم يسمع بمثله وأخذه أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين فلم يتبعهم الهنود فلما أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمى على شهاب الدين من كثرة خروج الدم فحمله الرجال على أكتافهم فى محفة اليد أربعة وعشرين فرسخا فلما وصل الى لهاور وأخذ الامراء الغورية وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا وعلق على كل واحد منهم عليق شعير وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء وسار الى غزنة وأمر بعضهم يمشى اليها ماشيا فلما وصل الى غزنة أقام بها ليستريح الناس ونذكر ما فعله بملك الهند الذى هزمه سنة ثمان وثمانين ان شاء الله تعالى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله وكان متحكما فى الدولة ليس للخليفة معه حكم وكان هو القيم بالبيعة له وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها وكان حسن السيرة عفيفا عن الاموال وكان الذى سعى به انسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس فسعى به الى الخليفة وقبح آثاره فقبض عليه وقتله وفيها فى ربيع الآخر وقع حريق فى الحظائر ببغداد احترقت أحطاب كثيرة وسببه ان فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاما يأكله فغفل عن النار والطبيخ فعلقت النار واتصلت فاحترقت جميعها واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره وفيها فى شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى قاضى القضاة وكان ابن يونس من شهوده وكان يمشى ويقول لعن الله طول العمر وفيها فى المحرم توفى عبد المغيث ابن زهير الحربى ببغداد وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير وصنف كتابا فى فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزى وكان بينهما عداوة وفيها توفى قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى وولى القضاء للمقتفى بعد موت الزينبى ثم للمستنجد بالله ثم عزل ثم أعيد الى المستضىء بامر الله وفيها توفى على بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر وكان من الاولياء أرباب الكرامات وصحبته أناما فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة

مددت يديك نحوهم اقتفاء ... كمدهما اليهم فى الهبات
ولما ضاق بطن الارض عن أن ... يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا ... عن الاكفان ثوب السافيات
لعظمك فى النفوس تبيت ترعى ... بحراس وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلا ... كما قد كنت أيام الحيات

وفيها توفى قاضى القضاة بالسندية أبو فريعة محمد بن عبد الرحمن وكان من عجائب الدنيا فى سرعة الاجوبة الهزلية منها أن الوزير المهلبى أغرى العباس بن المعلى الكاتب على سؤاله هزلا فكتب اليه ما يقول القاضى

رحمه الله وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها أسنان
وفيها توفى نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن
المنى الفقيه الحنبلى لم يكن لهم
مثله رحمه الله
تعالى

تم الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير ويليه
الجزء الثانى عشر أوله ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

الفاضل وفقه الله تعالى فى
يهودى زنى بنصرانية فولدت
ولدا جسمه للبشر ووجهه
للبقر فكتب الجواب بديها
هذا من أعدل الشهود
على اليهود انهم أشربوا
العجل فى صدورهم فخرج
من ايورهم وأرى ان يناط
برأس اليهودى رأس العجل
ويصلب على رأس النصرانية
الساق مع الرجل ويسحبا
على الارض وينادى
عليهما ظلمات بعضها
فوق بعض والسلام

فهرسة الجزء الثانى عشر من تاريخ الكامل للعلامة ابن الاثير الجزرى

صحيفة

(الجزء الثانى عشر)

من تاريخ الكامل للعلامة أبى الحسن على بن
أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن
الاثير الجزرى الملقب
بعز الدين رحمه الله
آمين

وبهامش هذا الجزء روضة المناظر فى أخبار الاوائل والاواخر
للعلامة أبى الوليد محمد بن الشحنه لازال مغمورا فى بحار الفضل والمنه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصر صلاح الدين كوكب﴾

فى هذه السنة فى المحرم انحسر الشتاء فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر الى قلعة كوكب فحصرها ونازلها ظنا منه ان ملكها سهلا وان أخذها عجلا وهو فى قلة من العسكر متيسر فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لان البلاد الساحلية من عكا الى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ماعدا هذه الحصون وكان يختار أن لا يبقى فى وسطها ما يشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج الى حفظه ولئلا ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلما حصر كوكب ورآها منيعة يبطئ ملكها وأخذها رحل عنها وجعل عليها قايماز النجمى مستديم الحصاره وكان رحيله عنها فى ربيع الاول وأتاه رسل الملك قلج ارسلان وقزل ارسلان وغيرهما يهنونه بالفتح والظفر وسار من كوكب الى دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب الى البلاد جميعها باجتماع العساكر بها وأقام بها الى ان سار الى الساحل بالبلاد الشامية

﴿ذكر رحيل صلاح الدين الى بلد الفرنج﴾

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضى الفاضل مودعا له ومستشيرا وكان مريضا وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الاول الى حمص فنزل على بحيرة قدس غربى حمص وجاءته العساكر فأول من أتاه من أصحاب الاطراف عماد الدين زنكى بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الاكراد من الجانب الشرقى وكنت معه حينئذ فأقام يومين وسار جريدة وترك أثقال العسكر وضعها تحت الحصن ودخل الى بلد الفرنج فأغار على صافيثا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات ووصل الى قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من

(وفى سنة سبعين وثلثمائة) مات الاحدب المزور كان يكتب خط كل أحد فلا يشك المكتوب عنه انه خطه *(وفى سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة)* مات عضد الدولة فناخسرو ابن ركن الدولة حسن بن بويه ودفن بمشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه وكانت ولايته العراق خمس سنين ونصف سنة وعمره سبع وأربعون سنة وهو الذى بنى على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم سورا كان آخر كلامه ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه قيل انه أنشد أبياتا فلازمه الصرع بعدها الى ان مات وهى هذه الابيات

ليس شرب الكاس الا فى المطر
وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى
ناعمات فى تصانيف الوتر
مبرزات الكاس من مطلعها
ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها
ملك الاملاك غلاب القدر

الدواب على اختلاف أنواعها ما لا حد له وأقام تحت حصن الاكراد الى آخر ربيع الآخر

﴿ذكر فتح جبلة﴾

لما أقام صلاح الدين تحت حصن الاكراد أتاه قاضى جبلة وهو منصور بن نبيل يستدعيه اليه ليسلمها اليه وكان هذا القاضى عند بيمند صاحب انطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتعلق بالبيمند فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الاولى فنزل بانطرطوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا فى برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداوية باحد البرجين فحصرهما صلاح الدين فنزل اليه من فى أحد البرجين بامان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته فى البحر وبقى الذى فيه الداوية لم يسلموه وكان معهم مقدمهم الذى أسره صلاح الدين يوم المصاف وكان قد أطلقه لما ملك البيت المقدس فهو الذى حفظ هذا الحصن فخرب صلاح الدين ولاية انطرطوس ورحل عنها وأتى مرقية وقد أخلاها أهلها ورحلوا عنها وسار الى المرقب وهى من حصونهم التى لا ترام ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاسبتار والطريق تحته فيكون الحصن على يمين المجتاز الى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه الا الواحد بعد الواحد فاتفق ان صاحب صقلية من الفرنج قد سير نجدة الى فرنج الساحل فى ستين قطعة من الشوانى وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا فى البحر تحت المرقب فى شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلى البحر من أول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة ثامن عشر جمادى الاولى وتسلمها وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها اليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها بحصنها واحتموا بقلعتها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائنهم يكونون عنده الى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكان بيمند صاحبها قد أخذ رهائن القاضى ومسلمى جبلة وتركهم عنده بانطاكية فأخذ القاضى رهائن الفرنج وجاء رؤساء أهل الجبل الى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من أمنع الجبال وأشقها مسلكا وفيه حصن يعرف بيكسرايل بين جبلة ومدينة حماه فملكه المسلمون وصار الطريق فى هذا الوقت عليه من بلاد الاسلام الى العسكر وكان الناس يلقون شدة فى سلوكه وقرر صلاح الدين أحوال جبلة وجعل فيها لحفظها الامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها

﴿ذكر فتح لاذقية﴾

لما فرغ السلطان من أمر جبلة وسار عنها الى لاذقية فوصل اليها فى الرابع والعشرين من جمادى الاولى فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنج وزحفوا اليهما ونقبوا الاسوار ستين ذراعا وعلقوه وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الفرنج بالعطب ودخل اليهم قاضى جبلة فخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم صلاح

وولى بعده صمصام الدولة ولده كاليجار المرزبان (وفى سنة أربع وسبعين وثلثمائة) توفى الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن اسمعيل ابن نباتة خطيبا فارقين وكان اماما فى الادب لم يلحق فى الخطب رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وقال له مرحبا بخطيب الخطباء وادناه وتفل فى فيه فلم تزل رائحة المسك توجد فى فيه الى ان مات بعد أيام (وفى سنة خمس وسبعين وثلثمائة) ذكر ابن الاثير انه خرج من البحر طائر أكبر من الفيل بعمان وصاح بصوت عال قد قرب ثلاث مرات ثم خاض فى البحر فعل ذلك ثلاث مرات فى ثلاث أوقات وغاب ولم يعد (وفى سنة ست وسبعين وثلثمائة) قبض شرف الدولة شيرزيك ابن بويه على أخيه صمصام الدولة وحبسه ببرذعة ثم بعد سنتين وثمانية أشهر مات شرف الدولة واستقر بعده أخوه أبو نصر بهاء الدولة خلع عليه الطائع وقلده السلطنة وأخذ بغداد وكانت ولاية صمصام الدولة ثلاث سنين (وفى سنة ثمان وسبعين وثلثمائة) أهدى الصاحب بن عباد

الدين ورفعوا الاعلام الاسلامية الى الحصنين وكان ذلك فى اليوم الثالث من النزول عليها وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه فخرب المسلمون كثيرا منها ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من بيعها التى قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار وسلمها الى ابن أخيه تقى الدين عمر فعمرها وحصن قلعتها حتى اذا رآها اليوم من رآها ينكرها فلا يظن ان هذه تلك وكان عظيم الهمة فى تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماه

﴿ذكر حال اسطول صقلية﴾

لما نازل صلاح الدين لاذقية وصل أسطول صقلية الذى تقدم ذكره فوقف بازاء مينا الاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها الى صلاح الدين عزم أهل هذا الاسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظا وحنقا حيث سلموها سريعا فسمع بذلك أهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم ثم ان مقدم هذا الاسطول طلب من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشتد الحال فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجئ من البحر وانهم ان خرجوا أذاقهم ما اذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

﴿ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون﴾

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية فى السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهى قلعة منيعة شاهقة فى الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق فى بعض المواضع بحيث ان حجر المنجنيق يصل منه الى الحصن الا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم الى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المنجنيقات أيضا فرمى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم فى الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسى اليد والجرخ والزنبورك والزيار فجرح أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون اليهم ثانى جمادى الآخرة فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج احكامها فتسلقوا منها بين الصخور حتى التصقوا بالسور الاول فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقلة التى للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه الى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة ابى قبيس فحصنه وجعله من أحصن الحصون ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا فى تلك النواحى فملكوا حصن بلاطنوس وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفا ورعبا وملك أيضا حصن العيد وحصن الجماهرتين فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية الا ان الطريق اليها من البلاد الاسلامية على عقبة بكسرائيل شاق شديد لان الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لان بعضها بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنج

لى فخر الدولة على بن حسن
ابن ركن الدولة بن بويه
دينارا وزنه ألف مثقال
مكتوب عليه

وأحمر يحكى الشمس شكلا وصورة
فاوصافها مشتقة من صفاته
فان قيل دينار فقد صدق اسمه
وان قيل ألف فهو بعض سماته
بديع ولم يطبع على الدهر مثله
ولا ضربت اترابه لسرانه
وصار الى شاهان شاه انتسابه
على أنه مستصغر لعفاته
يخبر أن يبقى سنينا كوزنه
لتستبشر الدنيا بطول حياته

(وفى سنة احدى وثمانين وثلثمائة) سأل بهاء الدولة من الطائع ان يجدد عهده فلما دخل عليه جاء بعض الديلم ليقبل يده فأمسكها وأنزله عن سريره وأخذه على دار بهاء الدولة وهو يسترجع ويستغيث وخلع فكانت خلافته سبع عشرة سنة وكان من جملة الحاضرين الشريف الرضى وأنشد

أمسيت أرحم من قد كنت اغبطه
لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى
ياقرب ما عاد بالضراء يبكينى

﴿ذكر فتح حصن بكاس والشغر﴾

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم الى قلعة الشغر وهى وبكاس على الطريق السهل المسلوك الى لاذقية وجبلة والبلاد التى افتتحها صلاح الدين من بلاد الشأم الاسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل اليها بطريق من الطرق الا أنه أمر بزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره الى القلعة شئ الا القليل الذى لا يؤذى فبقى المسلمون عليه اياما لا يرون فيه طمعا وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق اليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم فى ذكر القلعة واعمال الحيلة فى الوصول اليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتى الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم فى هذا الحديث اذ قد أشرف عليهم فرنجى ونادى بطلب الامان لرسول يحضر عند صلاح الدين فاجيب الى ذلك ونزل رسول وسأل انظارهم ثلاثة أيام فان جاءهم من يمنعهم والا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فاجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة وكان سبب استمهالهم انهم أرسلوا الى البيمند صاحب انطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه انهم محصورون ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين فان فعل والا سلموها وانما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى فى قلوبهم والا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل اليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه الى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه

﴿ذكر فتح سرمينية﴾

لما كان صلاح الدين مشغولا بهذه القلاع والحصون سير ولده الظاهر غازى صاحب حلب فحصر سرمينية وضيق على أهله واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما انزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وعفى أثره وعالى بنيانه وكان فيه وفى هذه الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة واتفق ان فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة الى سرمينية مع كثرتها كان فى ست جمع مع انها فى أيدى أشجع الناس واشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من اذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال انطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى فى مكانه

﴿ذكر فتح برزية﴾

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية وكانت قد وصفت له وهى تقابل حصن افامية وتناصفها فى أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره وكان اهلها أضر شئ على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون فى الاذى فلما وصل اليها نزل شرقيها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها ينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده الا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فانه لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه

وبويع بالخلافة القادر بالله أبو العباس أحمد بن الامير اسحق بن المقتدر ابن المعتضد وبقى الطائع عنده مكرما الى ان مات فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ليلة الفطر (وفى سنة خمس وثمانين وثلثمائة) مات الصاحب أبو القاسم اسمعيل بن عباد بالرى ونقل الى اصبهان ودفن بها وكان أوحد زمانه علما وتدبيرا وكرما وهو أول من لقب بالصاحب لصحبته ابن العميد ومولده سنة ست وثلاثين وثلثمائة وفيها توفى ابو الحسن على على بن عمر الدارقطنى الشافعى ببغداد ومولده سنة ست وثلاثين وثلثمائة ودار القطن محلة كبيرة ببغداد (وفى سنة ست وثمانين وثلثمائة) توفى العزيز بالله بن نزار بن المعز بالله معد بن منصور العلوى الفاطمى ببلبيس وعمره اثنتان وأربعون سنة وخلافته احدى وعشرون سنة وخمسة أشهر ونصف وكان قد ولى كتابته رجلا نصرانيا اسمه عيسى بن نسطورس واستناب بالشام رجلا يهوديا اسمه ميشا وعظم امر اليهود والنصارى فعمل اهل

لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فان الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزل له المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا ابطلها ورأيت انا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شئ اليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين ان المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة اهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة اقسام يزحف قسم فاذا تعبوا وكلوا عادوا وزحف القسم الثانى فاذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فانهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك فاذا تعبوا وأعيوا اسلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم احد الاقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلوهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا اليهم حتى قربوا الى الجبل فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فانهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج الى أسفل الجبل فلا يقوم لها شئ فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص فقاتلوا قتالا شديدا وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم الى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم اليهم وبيده جماق يردهم وصاح فى القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا اخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا أيضا معهم فحينئذ اشتد الامر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لانهم لم يروا فيه مقاتلا ولم يكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الاخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهرا ودخل الفرنج القلة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين الى سطح القلة وأرجلهم فى القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلة وظن الفرنج ان المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا وألقوا بايديهم الى الاسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا اصاحبها وأهله وأمست خالية لا ديار بها وألقى المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت * ومن أعجب ما يحكى من السلامة انى رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين يسعى الى القلعة الى طائفة أخرى من المسلمين جنوبى القلعة وهو يعدو فى الجبل عرضا فالقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر اليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت فى الارض فوق الرجل فضرب به المنحدر فارتفع عن الارض وجاز الرجل ثم عاد الى الارض من جانبه

مصر صورة امرأة من قراطيس وفى يدها قصة فيها بالذى أعز اليهود بميشا والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك الا كشفت عنها فقبض على النصرانى وصادره وبويع ولده منصور أبو على الحاكم بامر الله وكان عمره احدى عشرة سنة وكان عهد اليه ابوه بالخلافة ودبره خادم أبيه أرجوان الخصى الابيض فلما كبر الحاكم استقل بالحكم وقتل ارجوان وفى هذه السنة توفى أبو طالب محمد بن على ابن عطية المكى صاحب قوت القلوب وكان رحل الى بغداد واختلط كلامه حتى قال يوما ليس على المخلوقين أضر من الخالق فمنع من الكلام الى ان مات (وفى سنة تسع وثمانين وثلثمائة) انقرضت الدولة السامانية وكانت قد طبقت كثيرا من الارض خراسان وبخارا وسائر بلاد العجم وكانت حسنة السيرة والعدل آخرهم عبد الملك بن نوح بن منصور ابن فرج بن نصر بن أحمد ابن اسمعيل بن أسد بن سامان وكان ابتداء دولتهم سنة أحدى وستين ومائتين وملك بعدهم محمود ابن سبكتكين وفتح بلاد

الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر وقام يعدو حتى لحق باصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست أم الجبان وأما صاحب برزية فانه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر فارسل صلاح الدين فى الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب انطاكية أطلقهم وسيرهم اليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة بيمند صاحب انطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الاحوال التى تؤثر فاطلق هؤلاء لاجلها

﴿ذكر فتح دربساك﴾

لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد فاتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من انطاكية فاقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره ثم سار عنه الى قلعة دربساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من معاقل الداوية الحصينة وقلاعهم التى يدخرونها لحماية نفوسهم عند نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيأ يسيرا فلم يبال من فيه بذلك فامر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذى يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد راسلوا الى صاحب انطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه اما بانجادهم وازاحة المسلمين عنهم واما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم فلما علموا عجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليها وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الامان فامنهم على شرط أن لا يخرج أحد الا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا اثاث بيت ولا دابة ولا شئ مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم الى انطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب

﴿ذكر فتح بغراس﴾

ثم سار عن دربساك الى قلعة بغراس فحصرها بعد ان اختلف أصحابه فى حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر فى اليزك مقابل انطاكية فاذا كان الامر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول اليها فاستخار الله تعالى وسار اليها وجعل أكثر عسكره يزكا مقابل انطاكية يغيرون على اعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها ان غفلوا القربهم منها وصلاح الدين فى بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم يؤثر فيها شيأ لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم الا ان صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء اليها فخفف الامر عليهم فبينما هو على هذه الحال اذ قد فتح باب القلعة وخرج منه انسان يطلب الامان فاجيب الى ذلك فاذن له فى الحضور فحضر وطلب الامان لمن فى الحصن حتى يسلموه اليه بما فيه على قاعدة دربساك فاجابهم الى ما طلبوا فعاد الرسول ومعه الاعلام الاسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين فان ابن ليون صاحب الارمن خرج اليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته واتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى بهم السواد الذى لحلب وهو الى الآن بايديهم

الهند وأخذ سجستان وتلقب بيمين الدولة (وفى سنة سبع وتسعين وثلثمائة) خرج على الحاكم بامر الله شخص أموى يقال له أبو ركوة من ولد هشام بن عبد الملك أمير العرب وصار له جمع كثير وأخذ برقة فجهز له جيشا فكسره وملك الصعيد وقوى أمره فجمع عليه الحاكم الجيوش من مصر والشام حتى حصله بعد قتال وطيف برأسه بعد صلبه بالقاهرة وفيها توفى أبو نصر اسمعيل بن حماد الجوهرى صاحب الصحاح بنيسابور والبديع أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى (وفى سنة أربعمائة) كان خرج على المؤيد الاموى هشام بن المنتصر الحكم بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المذكور واجتمع عليه الناس وبايعوه بالخلافة وقبض على المؤيد وحبسه فى قرطبة وتلقب بالمهدى وبعد مدة خرج عليه سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن بن الناصر المذكور فى أوائل سنة أربعمائة ثم جمع المهدى عليه وعاد الى الخلافة وهرب سليمان ثم اجتمع كبار الدولة وأخرجوا المؤيد من الحبس وأعادوه الى الخلافة فقتل المهدى فجمع سليمان

(ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية)

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف البيمند صاحبها من ذلك وأشفق منه فارسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة و بذل اطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار من عنده من أصحاب الاطراف وغيرهم فأشار أكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الناس ليستريحوا و يجددوا ما يحتاجون اليه فاجاب الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر أولها أول تشرين الاول وآخرها آخر ايار وسير رسوله الى صاحب انطاكية يستحلفه و يطلق من عنده من الاسرى وكان صاحب انطاكية فى هذا الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فانه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت القمص و جميع أعمالها مضافا الى ما كان له لان القمص لم يخلف ولدا فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الاكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فانه عاد الى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكى ابن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها ثم رحل من حلب الى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره و زار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيما هناك وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة وكان مع صلاح الدين الامير عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه و كان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا و ينبسط معه و يرجع الى قوله فى اعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقى بيد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من الفراغ منها فانها فى وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر أهلها وان أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم

(ذكر فتح الكرك وما يجاوره)

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك فى جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى درب ساك و بغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليه و يطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر الذى يحصرها فى المعنى فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضا ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الاسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من فى ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فانهم كانوا من بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين

(ذكر فتح قلعة صفد)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق وأشير عليه بتفريق العساكر وقال لا بد من الفرنج من صفد وكوكب وغيرها أقام بدمشق الى منتصف رمضان وسار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمى اليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى فى المدة التى كانوا فيها محاصرين فان عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم كما ذكرناه فلما رأى أهلها جد صلاح الدين فى قتالهم خافوا أن يقيم الى أن يفنى ما بقى

وحصر المؤيد وملك قرطبة بالسيف وخفى أمر المؤيد فلم يظهر له خبر وبويع سليمان بالخلافة ولقب بالمستعين بالله

(وفى سنة احدى وأربعمائة) خطب للحاكم بأمر الله بالكوفة والموصل والانبار والمدائن وغيرها

(وفى سنة اثنتين وأربعمائة) ملك حلب صالح بن مرداس بعد ابن حمدان الى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة

(وفى سنة ست وأربعمائة) توفى الشريف الرضى محمد ابن الحسين بن موسى بن ابراهيم بن موسى بن جعفر ابن محمد ومولده سنة تسع وخمسين وثلثمائة ببغداد

(وفى سنة سبع وأربعمائة) خرج على المستعين بالله سليمان على بن حمود العلوى و يلقب بالمتوكل على الله وهو على ابن حمود بن أبى العيش ميمون ابن أحمد بن على بن عبد الله ابن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وقتل سليمان واباه وأخاه واظهر موت المؤيد وبويع بالخلافة وبقى فيها سنة وتسعة اشهر فى نكد وحرب مع آخر من العلويين خرج عليه وبويع بالخلافة اسمه عبد الرحمن

معهم من أقواتهم وكانت قليلة و يأخذهم عنوة و يهلكهم أو انهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم فارسلوا يطلبون الامان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فانهم كانوا وسط البلاد الاسلامية

(ذكر فتح كوكب)

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على انفاذ نجدة لها سرا من رجال وسلاح وغير ذلك فاخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم فساروا الليل مستخفين واقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى ان رجلا من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيدا فلقى رجلا من تلك النجدة فاستغربه بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وما الذى أقدمه الى هناك فاقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندى المسلم الى قايماز النجمى وهو مقدم ذلك العسكر فأعلمه الخبر والفرنجى معه فركب فى طائفة من العسكر الى الموضع الذى قد اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم فى الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتار فحملوا الى صلاح الدين وهو على صفد فاحضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الداوية والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو و يصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها الى كوكب ونازلها وحصرها وأرسل الى من بها من الفرنج يبذل لهم الامان ان سلموا و يتهددهم بالقتل والسبى والنهب ان امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد فى قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمى الاحجار اليهم و زحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهارا فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذى يريدونه وطال مقامهم عليها وفى آخر الامر زحف اليها دفعات متناوبة فى يوم واحد ووصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذى القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل الى من بالاندلس وصقلية وغيرهما من جزائر البحر يستغيثون و يستنجدون والامداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين فى اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حد ايلة الى اقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور و جميع اعمال انطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد سار الى البيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة

(ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر)

فى هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثنا عشر رجلا ليلا ونادوا بشعار العلويين يال على يال على وسلكوا الدروب ينادون ظنا منهم ان رعية البلد يلبون دعوتهم و يخرجون معهم فيعيدون الدولة العلوية و يخرجون بعض من بالقصر محبوسا منهم و يملكون البلد فلم يلتفت أحد

ولقبه المرتضى ثم وثب عليه غلمانه فى الحمام فقتلوه و بويع بعده أخوه أبو القاسم بن حمود ولقب القائم و بقى الى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ثم خرج عليه ابن أخيه يحيى بن على وتلقب المعتلى وجرى بينهما حروب كثيرة وامسك فى الآخر عمه القاسم وحبسه حتى مات ثم خرج على يحيى عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصرى الاموى ولقب بالمستظهر بالله وهو أخو المهدى محمد بن هشام وبويع فى رمضان وقتل فى ذى الحجة وبويع محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الاموى ولقب بالمستكفى ثم خلع بعد سنة وأربعة أشهر وهرب عبد الرحمن ومات فى الطريق ولما كانت سنة ثمانى عشرة واربعمائة خلع يحيى بن على بن حمود وبويع هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الاموى ولقب المعتد بالله وجرت فتن وخلافات حتى خلع هشام المذكور سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وانقرضت الخلافة الاموية

منهم اليهم ولا أعارهم سمعه فلما رأوا ذلك تفرقوا اثنين اثنين فأخذوا وكتب بذلك الى صلاح الدين فأعجبه أمرهم وازعجه فدخل عليه القاضى الفاضل فاخبره الخبر فقال القاضى الفاضل ينبغى أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم حيث علمت من بواطن رعيتك المحبة لك والنصح وترك الميل الى عدوك ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن اصحابك ورعيتك وخسرت الاموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسرى عنه وكان هذا القاضى الفاضل صاحب دولة صلاح الدين وأكبر من بها وسنأتى مناقبه عند وفاته مانراه

﴿ ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل ﴾

فى هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيرا وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس وسيرهم الى مساعدة قزل ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر الى أن قارب همذان فلم يصل قزل اليهم وأقبل طغرل اليهم فالتقوا ثامن ربيع الاول بداى مرج عند همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأتاه من عسكر طغرل من أسره واخذ ما معه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك وعاد العسكر الى بغداد متفرقين وكنت حينئذ بالشام فى عسكر صلاح الدين يريد الغزاة فأتاه الخبر مع النجابين بتسيير العسكر البغدادى فقال كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم فقال له بعض الحاضرين وكيف ذلك فقال لا شك ان أصحابى واهلى اعرف بالحرب من الوزير وأطوع فى العسكر منه ومع هذا فما أرسل احدا منهم فى سرية للحرب الا وأخاف عليه وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية ولا يراه الامراء اهلا أن يطاع وفى مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الامر كذلك ووصل الخبر اليه بانهزامهم فقال لاصحابه كنت أخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو أحمد بن الواثق بالله

اتركونا من جانحات الجريه * طالعة طالعة تكون وخيمه
بركات الوزير قد شملتنا * فلهذا أمورنا مستقيمه
خرجت جندنا تريد خراسا * ن جميعا بأهبات عظيمه
بخيول وعدة وعديد * وسيوف مجربات قديمه
ووزير وطاق طنب ونقش * وخيول معدة للهزيمه
هم رأوا غرة العدو وقد أقـ * ـبل ولوا وانحل عقد العزيمه
وأتونا ولا بخفى حنين * بوجوه سود قباح دميمه
لو رأى صاحب الزمان ولوعا * ين أفعالهم وقبح الجريمه
قابل الكل بالنكال وناهيـ * ـك بها سبة عليهم مقيمه

كان ينبغى أن تتقدم هذه الحادثة وانما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضا لتعلق كل واحدة منها بالاخرى

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة توفى شيخنا أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن سويدة التكريتى كان عالما بالحديث وله تصانيف حسنة وفيها توفيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج ارسلان زوجة الخليفة وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن فلما توفى

من المغرب (وفى سنة احدى عشرة وأربعمائة) فقد الحاكم بامر الله لثلاث بقين من شوال وتحقق قتله ولكن لم توجد الا ثيابه وحماره مجروحا بحلوان وكانت ولايته خمسا وعشرين سنة وأياما وعمره ست وثلاثون سنة وتسعة أشهر وكان يصدر عنه افعال متناقضة وبويع بعد موته بسبعة أيام ولده الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن على وهو صغير ودبرت الامر له عمته ست الملك الى ان ماتت بعد أربع سنين * (وفى سنة اثنى عشرة وأربعمائة) توفى على بن هلال المعروف بابن البواب الخطاط ودفن بجوار احمد بن حنبل ببغداد * (وفى سنة ثمان عشرة وأربعمائة) * وقع بالعراق برد كبار زنة كل واحدة رطل ورطلان بالبغدادى اصغره كالبيضة وفيها نقضت الدار التى بناها معز الدولة بن بويه وكان قد بذل فى حكاكة سقف منها ثمانية آلاف دينار * (وفى سنة احدى وعشرين وأربعمائة) * توفى السلطان محمود بن سبكتكين ومولده عاشر المحرم سنة

عنها تزوجها الخليفة ووجد الخليفة عليها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربى والى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة وفيها توفى علاء الدين تنامش وحمل تابوته الى مشهد الحسين عليه السلام وفيها توفى خادم الخليفة وكان أكبر أمير ببغداد ومات أبو الفرج بن النقور العدل ببغداد وسمع الحديث الكثير وهو من بيت الحديث رحمه الله

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر فتح شقيف ارنوم ﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار صلاح الدين الى شقيف أرنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو ارناط صاحب صيدا وكان هذا ارناط من أعظم الناس دهاء ومكرا فدخل اليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له أنا محب لك ومعترف باحسانك وأخاف أن يعرف المركيس ما بينى وبينك فينال أولادى وأهلى منه أذى فانهم عنده فأشتهى أن تمهلنى حتى أتوصل فى تخليصهم من عنده وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن اليك وأكون أنا وهم فى خدمتك نقنع بما تعطينا من اقطاع فظن صلاح الدين صدقه واجابه الى ما سأل فاستقر الامر بينهما أن يتسلم الشقيف فى جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب انطاكية فامر تقى الدين ابن أخيه ان يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتى من بلاد المشرق ويكون مقابل انطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الامداد فى البحر وان ملك الفرنج الذى كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما وانهم قد اجتمعوا فى خلق لا تحصى فانهم قد خرجوا من مدينة صور الى ظاهرها وكان هذا واشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه الا انه مع هذه الاشياء مقيم على العهد مع ارناط صاحب الشقيف وكان ارناط فى مدة الهدنة يشترى الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه وكان صلاح الدين يحسن الظن واذا قيل له عنه مما هو فيه من المكر وان قصده المطاولة الى أن يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدى فضيحته ويظهر مخالفته لا يقبل فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره الى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده ارناط وقد بقى من الاجل ثلاثة أيام فقال له فى معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده وأهله وان المركيس لم يمكنهم من المجىء اليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمل رسالة الى من بالشقيف ليسلموه فاحضروه عنده فساره بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس الى الشقيف فأظهر أهله العصيان فسير صلاح الدين ارناط الى دمشق وسجنه وتقدم الى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال

﴿ ذكر وقعة اليزك مع الفرنج ﴾

لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا فى مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها ان الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة فى شعبان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل

ستين وثلثمائة * (وفى سنة اثنين وعشرين وأربعمائة) * توفى القادر بالله أبو العباس أحمد بن الامير اسحق بن المقتدر وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته أحد وأربعون سنة وشهر وبويع ولده القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن عبد القادر * (وفى سنة ست وعشرين وأربعمائة) * انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد جدا (وفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة) توفى الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بامر الله وعمره ثلاث وثلاثون سنة وخلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وكانت له مصر والشام وافريقية وكان جميل السيرة وبويع ولده أبو تميم ولقب المستنصر بالله وفيها وقيل فى سنة سبع وثلاثين توفى الشيخ أبو اسحق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبى ويقال الثعالبى وكان أوحد زمانه فى علم التفسير وله كتاب العرائس فى قصص الانبياء وهو صحيح النقل * (وفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة) * توفى مهيار الشاعر وكان مجوسيا فأسلم وصحب الشريف الرضى فقال له ابن برهان

اليهم وقد فات الامر وذلك أن الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها المقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين أيضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله ثم ان الفرنج عجزوا عن الوصول الى صيدا فعادوا الى مكانهم

﴿ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة﴾

لما وصل صلاح الدين الى اليزك وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثار من قتلوه من المسلمين فركب في بعض الايام في عدة يسيرة على أن ينظر الى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف والحرب فساروا مجدين وأوغلوا في أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الامراء يردونهم ويحمونهم الى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد اعتقدوا ان وراءهم كمينا فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الامر فأتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا أن أناموهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم في حق أنفسهم رحمهم الله ورضي عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم في عسكره فحملوا على الفرنج فالقوهم الى الجسر وقد أخذوا طريقهم فألقوا أنفسهم في الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا الى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين الى تبنين ثم الى عكا ينظر حالها ثم عاد الى العسكر والمخيم

﴿ذكر وقعة ثالثة﴾

لما عاد صلاح الدين الى العسكر أتاه الخبر ان الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين فكتب الى من بعكا من العسكر واعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمناء في موضع من تلك الاودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم انهم اذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيأ من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فاذا تبعهم الفرنج استجروهم الى أن يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الامر ودامت الحرب وطال على الكمناء الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين واليهم قاصدين فأتوهم وهم في شدة الحرب فازداد الامر شدة على شدة وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طي وكانوا يجهلون تلك الارض فلم يسلكوا مسالك أصحابهم فسلكوا الوادي ظنا منهم أنه يخرجهم الى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادي علموا أنهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فانه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة

وجرحوه

يا مويار انتقلت باسلامك من زاوية الى زاوية في النار فانك كنت مجوسيا ثم صرت سبابا لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها توفي الشيخ أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد القدوري رئيس الحنفية بالعراق وفيها توفي الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري وكان والده من أهل بلخ ختم القرآن وهو ابن عشر سنين وحل اقليدس والمجسطي واتقن الطب في ثمان سنين وعمره ثمان وخمسون سنة وقد كفره الغزالي في كتابه المسمى بالمنقذ من الضلال وكفر أبا نصر الفارابي ومن الناس من يقول برجوع ابن سينا الى الشرائع (وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة) قويت شوكة طغرلبك وأخيه داود وولدا ميكائيل بن سلجوق بن دقاق كان دقاق رجلا شهما من مقدمي الترك ولد له سلجوق وظهرت عليه أمارات النجابة وصارت له جماعة فتغير عليه ملك الترك فهرب الى بلاد الاسلام وأقام ببلدة وراء بخارا اسمها جند وصار يغزو الكفار وتوفي بجند وعمره مائة وسبع سنين

وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو باخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم ان المسلمين جاؤا من الغد الى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه في كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا اليه فرأوه وقد قويت نفسه فاقبلوا عليه بمشروب فعوفي ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهدا الا كان له فيه الاثر العظيم

﴿ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها﴾

لما كثر جمع الفرنج بصور على ماذكرناه من أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الامان وسيرهم اليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الاموال ما لا يفنى على كثرة الانفاق في السنين الكثيرة ثم ان الرهبان والقسس وخلقا كثيرا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البترك الذي كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الاخذ بثار البيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فانهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الاقران على ما نذكره ان شاء الله تعالى ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والاموال ما لا يتطرق اليه الاحصاء (ولقد حدثني) بعض المسلمين المقيمين بحصن الاكراد وهو من اجناد أصحابه الذين سلموه الى الفرنج قديما وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج في الغارة على بلاد الاسلام والقتال معهم والسعي معهم وكان سبب اجتماعي به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة ان شاء الله تعالى قال لي هذا الرجل انه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الاكراد الى البلاد البحرية التي للفرنج والروم في أربع شواني يستنجدون قال فانتهى بنا التطواف الى رومية الكبرى فخرجنا منها وقد ملأنا الشواني نقرة (وحدثني) بعض الاسرى منهم ان له والدة ليس لها ولد سواه ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيرا وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده فخرجوا على الصعب والذلول برا وبحرا من كل فج عميق ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه الى الشام والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين فهذا كان سبب خروجهم فلما اجتمعوا بصور يموج بعضهم في بعض ومعهم الاموال العظيمة والبحر يمدهم بالاقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها فأرادوا قصد صيدا وكان ما ذكرناه فعادوا واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها فساروا اليها بفارسهم وراجلهم وقضهم وقضيضهم ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر الضيق والسعة وصراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم ان جاءهم ما لا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا وكان رحيلهم ثامن رجب ونزولهم على عكا في منتصفه ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر الى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع امراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج

وخلف من الاولاد ارسلان وميكائيل وموسى فقتل ميكائيل في الغزو شهيدا وخلف أولاده بيغو وطغرلبك وداود وملكت السلجوقية خراسان وكسروا السلطان مسعودا وخطب لهم على المنابر واستولى داود على كثير من النواحي وملك طغرلبك جرجان وطبرستان وخوارزم واصفهان وهرب منه السلطان مسعود بن محمود ابن سبكتكين فقتله ابن أخيه أحمد بن محمد بن محمود بن سبكتكين وكان السلطان محمود كثير الصدقة تصدق مرة في رمضان بالف ألف درهم وكان محسنا الى العلماء وصنفوا له التصانيف الكثيرة وكان يكتب خطا حسنا وكان ملكه فسيحا ملك أصفهان والري وطبرستان وجرجان وخراسان وخوارزم والران وكرمان وسجستان والسند وغزنة وأطاعه البر والبحر وملك بعد السلطان مسعود ولده مودود وقتل ابن عمه أحمد بن محمد قاتل أبيه ولم يبق منهم أحد وثبتت دولته * وفي هذه السنة طمعت العرب في نواحي الشام فجاء صاحب الرحبة

ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون في غير الطريق التي سلكوها فقالوا لا حاجة بنا الى احتمال
المشقة في مسايرتهم فان الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم والرأى اننا نسير
في الطريق المهيع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم الى الراحة المعجلة فوافقهم
وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال ان الفرنج اذا نزلوا التصقوا بالارض فلا
يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول الى عكا فخالفوه فتبعهم
وساروا على طريق كفركنا فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل في مقابل الفرنج
جماعة من الامراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم ولم يقدم الفرنج عليهم مع
قلتهم فلو ان العساكر اتبعت رأى صلاح الدين في مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا
لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ولما وصل صلاح الدين الى
عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين اليها
طريق فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته الى تل العياضية
وميسرته الى النهر الجارى ونزلت الاثقال بصفورية وسير الكتب الى الاطراف باستدعا
العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وأتاه تقى الدين ابن أخيه
وأتاه مظفر الدين بن زين الدين وهو صاحب حران والرها وكانت الامداد تأتى المسلمين في البر
وتأتى الفرنج في البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة
وكبيرة منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك وما عداها كان قتالا يسيرا من بعضهم مع بعض
فلا حاجة الى ذكره ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا الى عكا حتى انسلخ
رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية فلما كان الغد باكرهم
القتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر وصبر الفريقان صبرا
حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم
وأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لا يلوى أخ على أخ والتجؤا الى من يليهم من أصحابهم
واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد وملك تقى الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده
ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين
اليه من أراد من الرجال وما أراده من الذخائر والاموال والسلاح وغير ذلك ولو أن المسلمين لزموا
قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر
أخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وكان في جملة من أدخله
صلاح الدين الى عكا من جملة الامراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين وهو من أكابر امراء عسكره
وهو من الاكراد الحطبية من بلد اربل وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة

(ذكر وقعة أخرى وقعة العرب)

ثم ان المسلمين نهضوا الى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد
وسعهم في استئصالهم فقدموا عليهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على
ما فرطوا فيه بالامس وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا في حفر خندق يمنع من
الوصول اليهم فألح المسلمون عليهم في القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مراكزهم
فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم ان جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية
الاخرى الى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم في معاطف النهر ونواحيه سادس عشر

شعبان

أبو علوان ثمال المعز بن
صالح بن مرداس الى حلب
وملكها واستولى حسان
ابن مفرج الطائى على
فلسطين (وفى سنة أربع
وثلاثين وأربعمائة) أخذ
جلال الدولة أبو طاهر
ابن بهاء الدولة بن عضد
الدولة بن ركن الدولة بن
بويه الخراج ببغداد وكان
قبل ذلك للخليفة فارسل
الخليفة وهو القائم
بامر الله أبا الحسن الماوردى
اليه فلم يلتفت اليه (وفى
سنة خمس وثلاثين
وأربعمائة) توفى جلال
الدولة أبو طاهر وكان مولده
سنة ثلاث وثلاثين
وثلثمائة ومدة ملكه لبغداد
ست عشرة سنة واحد
عشر شهرا واستقر بعده
فى سلطنة بغداد كاليجار
ابن سلطان الدولة بن بهاء
الدولة بن عضد الدولة بن
ركن الدولة بن بويه وفيها
أسلم من الترك خمسة
آلاف خركاه ولم يتأخر
عن الاسلام سوى الخطا
والتتر وفيها قطع المعز بن
باديس بافريقية خطبة
خلفاء مصر وخطب
لخلفاء بغداد وأرسل
المستنصر العرب اليه
فقاتلوه واخرجوه عن
افريقية (وفى سنة سبع

شعبان فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا
ما كان معهم وحملوا الرؤس الى صلاح الدين فاحسن اليهم وأعطاهم الخلع

(ذكر الوقعة الكبرى على عكا)

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقى المسلمون الى العشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال
مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ثم ان الفرنج اجتمعوا
للمشورة فقالوا ان عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون اذا حضروا
والرأى أننا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والامداد اليهم وكان كثير من
عسكر صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل انطاكية ليرد واغائلة البيمند صاحبها عن أعمال حلب
وبعضهم فى حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر فى مقابل صور لحماية ذلك البلد
وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذى بقى من عسكر مصر كانوا لم يصلوا
لطول بيكارهم كما ذكرناه قبل وكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور الى قتال المسلمين وأصبح
المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم الى القتال ومنهم من هو فى خيمته ومنهم من قد توجه فى
حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج اليه هو وأصحابه ودوابه الى غير ذلك فخرج الفرنج من
معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الارض قد ملؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة
المسلمين وعليها تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين فلما رأى ان الفرنج نحوه قاصدين حذرهو
وأصحابه فتقدموا اليه فلما قرب وامنه تأخر عنهم فلما رأى صلاح الدين الحال وهو فى القلب أمد تقى
الدين برجال من عنده ليتقوى بهم وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين فى جناح القلب فلما رأى
الفرنج قلة الرجال فى القلب وان كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا
حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين ايديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم
كالامير مجلى بن مروان والظهير أخى الفقيه عيسى وكان والى البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة
والعلم والدين وكالحاجب خليل الهكارى وغيرهم من الشجعان الصابرين فى مواطن الحرب
ولم يبق بين أيديهم فى القلب من يردهم فقصدوا التل الذى عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من
مر وابه ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو على بن رواحة
الحموى وهو من أهل العلم وله شعر حسن وما ورث الشهادة من بعيد فان جده عبد الله بن رواحه
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله الروم يوم مؤتة وهذا قتله الفرنج يوم عكا وقتلوا غيره
وانحدروا الى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه وكان من لطف الله تعالى
بالمسلمين ان الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم اليها وانهزام العساكر
بين أيديهم فكانوا انهزموا أجمعون ثم ان الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم
فرجعوا خوفا أن ينقطعوا عن أصحابهم وكان سبب انقطاعهم ان الميمنة وقفت مقابلتهم فاحتاج
بعضهم يقف مقابلها وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال
بأصحابهم وعادوا الى طرف خنادقهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين الى خيمة صلاح الدين
صادفوهم وهم راجعون فقاتلوهم وثار بهم غلمان العسكر وكان صلاح الدين لما انهزم القلب
قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع معه منهم جماعة صالحة فحمل بهم
على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب
فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وفى جملة من أسر مقدم الداوية الذى

وثلاثين وأربعمائة) توفى
أحمد بن يوسف المنازى
وكان من اعيان الفضلاء
والشعراء اجتاز مرة بوادى
بزاعة فانشد

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمإ زلالا
ألذ من المدامة للنديم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

منسوب الى مناز جرد
مدينة عند خرت برت
وليست بمنازجرد التى عند
خلاط (وفى سنة تسع
وثلاثين وأربعمائة) كان
بالعراق غلاء عظيم حتى
أكلت الميتة وخلت
الاسواق (وفى سنة أربعين
وأربعمائة) مات ابو كاليجار
واسمه المرزبان وتسلطن
بعده الملك الرحيم أبو نصر
خسرو فيروز (وفى سنة
ثلاث وأربعين وأربعمائة)
وقعت فتنة عظيمة بين
السنية والشيعة أحرق
فيها ضريح موسى بن جعفر
الصادق وقبر زبيدة وقبور
ملوك بنى بويه وقتل
مدرس الحنفية أبو سعيد
السرخسى واحرقت دور
الفقهاء وظهر كوكب له

كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه فلما ظفر به الآن قتله وكانت عدة القتلى سوى من كان الى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا فى النهر الذى يشرب الفرنج منه وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج فان الرجالة لم يلحقوهم وكان فى جملة الاسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل فلما أسرن وألقى عنهن السلاح عرفن أنهن نساء وأما المنهزمون من المسلمين فنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الاردن وعاد ومنهم من بلغ دمشق ولولا ان العساكر تفرقت فى الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والاهلاك مرادهم على ان الباقين بذلوا اجهدهم وجدوا فى القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج فى معسكرهم لعلهم يفزعون منهم فجاءهم الصريخ بان رحالهم وأموالهم قد نهبت وكان سبب هذا النهب ان الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأنواعايه وكان فى عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون فى جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء باحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الارض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم

﴿ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا﴾

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الارض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الامزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده فحضر عنده الامراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأى اننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فان رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وان أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم الى ما نحن فيه ثم ان مزاجك منحرف والالم شديد ولو وقع ارجاف لهلك الناس والرأى على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الاطباء على ذلك فأجابهم اليه الى ما يريد الله أن يفعله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له وما لهم من دونه من وال فرحلوا الى الخروبة رابع شهر رمضان وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا فى تلك الارض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر ومراكبهم أيضا فى البحر تحصرها وشرعوا فى حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن فى الحساب وكان اليزك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون انما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ان عاد الى قتالهم فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الامر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بان يرسل العساكر جميعها اليهم ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال اذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيأ وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير فتأخر الامر الى أن عوفى فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا نفوسهم بما وجدوا اليه السبيل وكان من بعكا يخرجون اليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد

﴿ذكر وصول عسكر مصر والاسطول المصرى فى البحر﴾

ذؤابة غلب نوره على نور الشمس وسار سيرا بطيئا ثم انقض (وفى سنة سبع وأربعين واربعمائة) دخل طغرلبك بن داود بن سلجوق بغداد وخطب له بها وقبض على الملك الرحيم وانقضت به سلطنة بنى بويه من العراق فاولهم معز الدولة أحمد بن بويه ثم ابنه بختيار ثم ابن عمه عضد الدولة ثم ابنه صمصام الدولة ابو كاليجار المرزبان ثم أخوه شرف الدولة شيرزك ثم ابن اخيه كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة ثم ابنه الملك الرحيم (وفى سنة ثمان واربعين وأربعمائة) تزوج خليفة بغداد القائم بامر الله بنت داود أخت طغرلبك وفيها ظهرت دولة الملثمين سموا بذلك لانهم لثموا نساءهم فى حرب وانتصروا فيه فلازموه وكانوا من حمير ساروا فى أيام أبى بكر الصديق من اليمن الى الشام ثم الى مصر ثم الى الغرب واستوطنوا الصحراء محبة فى الانفراد وفى هذه السنة توجه رجل منهم اسمه جوهر الى الحج فلما عاد استصحب معه فقيها من القيروان اسمه عبد الله ابن ياسين ليعلم القبائل

فى منتصف شوال وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيأ كثيرا ومعهم من الرجالة الجم الغفير وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلا كثيرا وهو على عزم الزحف اليهم بالفارس والراجل ووصل بعده الاسطول المصرى ومقدمه الامير لؤلؤ وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة فوصل بغتة فوقع على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة فأدخلها الى عكا فسكنت نفوس من بها بوصول الاسطول وقوى جنانهم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى صفر خطب لولى العهد أبى نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل الى البلاد فى اقامة الخطبة ففعل ذلك وفيها فى شوال ملك الخليفة تكريت وسبب ذلك ان صاحبها وهو الامير عيسى قتله اخوته وملكوا القلعة بعده فسير الخليفة اليهم عسكرا فحصروها وتسلموها ودخل أصحابه الى بغداد فاعطوا اقطاعا وفيها فى صفر فتح الرباط الذى بناه الخليفة بالجانب الغربى من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوما مشهودا وفى هذه السنة فى رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبى عصرون الفقيه الشافعى بدمشق وكان قاضيها واضر وولى القضاء بعده ابنه وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية وفيها فى ذى القعدة توفى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى بالخروبة مع صلاح الدين وهو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الاسدية وكان فقيها جنديا شجاعا كريما ذا عصبية ومروأة وهو من أصحاب الشيخ الامام أبى القاسم بن البرزى تفقه عليه بجزيرة ابن عمر ثم اتصل بأسد الدين شيركوه فصار اماما له فرأى من شجاعته ما جعل له اقطاعا وتقدم عند صلاح الدين تقدما عظيما وفيها فى صفر توفى شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة وكان رحمه الله عالما متبحرا فى علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والاصولين والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاورا فتوفى بها وكان من أحسن الناس صحبة وخلقا وفيها فى ذى القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخى مدرس النظامية وكان من أصحاب أبى الحسن بن الخل وكان صالحا خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة وجاه عريض وكان حسن الخط يضرب به المثل

﴿ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين الى منازلة الفرنج﴾

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا الى الخروبة لمرضه فلما برأ أقام بمكانه الى أن ذهب الشتاء وفى مدة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج فلما دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج ان صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى فى اليزك عندهم قليلا وان الوحل الذى فى مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد ان ينجد اليزك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم

دين الاسلام فانه لم يبق فيهم غير الشهادتين والصلاة فى بعضهم فقالوا أما الصوم والزكاة والصلاة فقريب وأما أن من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنى يرجم فلا نلتزمه ثم اطاعتهما قبيلة جوهر فقال ابن ياسين للطيعين يجب عليكم قتال المخالفين فاقاموا لهم أميرا وسموه أمير المسلمين وتبعهم قوم وحصل بينهم قتال قتل فيه ابن ياسين ولما صار الامر لغير جوهر داخله الحسد فافسد فعقد له مجلس واوجبوا عليه القتل فاظهر الرضا بذلك وصلى ركعتين ثم قتل صبرا ولما ملك أمير المسلمين ابو بكر ابن عمر سجلماسة ولى عليهم يوسف بن تاشفين ففتح على يديه وكان دينا حازما ذاهيبة ولقب امير المسلمين وافتتح المغرب حصنا حصنا وبنى مراكش وجعلها تخت مملكته وملك طنجة وسبتة وسلا وغيرها وكثرت عساكره (وفى سنة تسعة وأربعين وأربعمائة) توفى أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى الاعمى ومولده سنة ثلاث وستين وثلثمائة عمى فى صغره من الجدرى وهو ابن

الامر وعلم المسلمون انه لا ينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج الى خندقهم ولما عاد صلاح الدين الى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس الى نصر اخوانهم فاتاه الخبر ان الفرنج عادوا الى خندقهم فأقام ثم انه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل بتل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون

﴿ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول﴾

كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا طول كل برج منها فى السماء ستون ذراعا وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوأة من المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر فان مثل هذه الابراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب الا القليل النادر وغشوها بالجلود والخل والطين والادوية التى تمنع النار من احراقها وأصلحوا الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين من ربيع الاول فاشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا فى طم خندقها فاشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا فارسل أهله الى صلاح الدين انسانا سبح فى البحر فاعلمه ماهم فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وعساكره وتقدموا الى الفرنج وقاتلوهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما يشغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا الا أن الامر قد خف عمن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهارا والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيأ وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فايقنوا بالبوار والهلاك فاتاهم الله بنصر من عنده واذن من احراق الابراج وكان سبب ذلك ان انسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسى انما اشتهى معرفتها وكان بعكا لامر يريده الله فلما رأى الابراج قد نصبت على عكا شرع فى عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شئ من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولى الامور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظا بقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فاجابه الى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج اذا رأوا القدر لا يحرق شيأ يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذى ألقاه قد تمكن من البرج القى قدرا مملوأة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار فى نواحى البرج وأعجلت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شئ كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا ان القدور الاولى لا تعمل بحماهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل

ثلاث سنين وقيل ولد أعمى وكان عالما لغويا شاعرا دخل بغداد فاستفاد من علمائها وأقام بها سنة ونصفا ولم يتلمذ لاحد أصلا ثم عاد الى المعرة ولزم بيته وترك أكل اللحم خمسة وأربعين سنة على مذهب الهنود وترك البيض واللبن وحرم اتلاف الحيوان وله مصنفات وكان فاسد العقيدة يظهر الكفر ويزعم ان له باطنا وانه مسلم فى الباطن واشعاره الدالة على كفره كثيرة منها

أتى عيسى فبطل شرع موسى
وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا لا نبى بعد هذا
فضل القوم بين غد وامس
ومهما عشت فى دنياك هذى
فما تخليك من قمر وشمس
اذا قلت المحال رفعت صوتى
وان قلت الصحيح اطلت همسى

(ومنها)

تاه النصارى والحنيفة ما اهتدت
ويهود حيرى والمجوس مضلله
قسم الورى قسمين هذا عاقل
لا دين فيه ودين لا عقل له

(وفى سنة خمسين وأربعمائة) غاب طغرلبك عن بغداد فدخل البساسيرى فى جماعة وقتل رئيس الرؤساء واخرج الخليفة منها وخطب للمستنصر العلوى خليفة

الآخرة فلما احترق البرج الاول انتقل الى الثانى وقد هرب من فيه لخوفهم فاحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لانهم ليس فيهم أحد الا وله فى البلد اما نسيب واما صديق وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال انما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وسيرت الكتب الى البلاد بالبشائر وأرسل يطلب العساكر الشرقية فأول من اتاه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى سيره أبوه مقدما على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الفرنج بعسكره وينضم اليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا الى طريقه اسطولا ليلقاه ويقاتله فركب صلاح الدين فى العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشئ فكان القتال بين الفريقين برا وبحرا وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك الا أن القتل فى الفرنج كان أكثر منه فى المسلمين ووصل الاسطول الاسلامى سالما

﴿ذكر وصول ملك الالمان الى الشام وموته﴾

فى هذه السنة خرج ملك الالمان من بلاده وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدهم بأسا وكان قد أزعجه ملك الاسلام البيت المقدس فجمع عساكره وأزاح علتهم وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية فارسل ملك الروم بهذا الى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعده انه لا يمكنه من العبور فى بلاده فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازواد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وساروا على أرض بلاد الاسلام وهى مملكة الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن قتلمش بن سلجق فلما وصلوا الى أوائلها ثار بهم التركمان الاوج فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه وكان الزمان شتاء والبرد يكون فى تلك البلاد شديدا والثلج متراكما فاهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين ملكشاه بن قلج أرسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد الى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه وتفرق أولاده فى بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير فى أثره فنازلوا قونية وأرسلوا الى قلج ارسلان هدية وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا أردناها وانما قصدنا البيت المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته فى اخراج ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فأذن فى ذلك فاتاهم ما يريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وان يسلم اليهم جماعة من امرائه رهائن وكان يخافهم فسلم اليهم نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض اليهم فقبض ملك الالمان وقيدهم فمنهم من هلك فى أسره ومنهم من فدى نفسه وسار ملك الالمان حتى أتى بلاد الارمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون فامدهم بالاقوات والعلوفات وحكمهم فى بلاده وأظهر

مصر فلما عاد طغرلبك الى بغداد هرب البساسيرى فارسل فى طلبه وقبض عليه عسكره فقتله وبعث رأسه الى الخليفة وعلق بباب الخليفة وكان البساسيرى مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة بن بويه واسمه رسلان وكان تاجرا من بسا وفيها توفى أبو الحسن على بن حبيب الماوردى الشافعى وعمره ست وثمانون سنة وله تصانيف كثيرة منها الحاوى المشهور والاحكام السلطانية وادب الدنيا والدين نسبته الى بيع الماورد *(وفى سنة ثلاث وخمسين واربعمائة)* مات المعز ابن باديس صاحب افريقية وكانت مدة ملكه سبعا وأربعين سنة وعمره ست وخمسون سنة وملك بعده ابنه تميم وهو آخرهم ومات نصر الدولة أبو نصر أحمد بن مروان الكردى صاحب ديار بكر وكان عمره سبعا وثمانين سنة وسارت بنعمه الركبان اشترى بعض جواريه المغنيات بخمسة آلاف دينار واكثر وملك خمسمائة سرية سوى توابعهن وخمسمائة خادم وكانت تزيد قيمة آلات مجلسه على مائتى ألف دينار وارسل

الطاعة لهم ثم ساروا نحو انطاكية وكان فى طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليغتسل فغرق فى مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره وكان معه ولد له فصار ملكا بعده وسار الى انطاكية فاختلف أصحابه عليه فاحب بعضهم العود الى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال الى تمليك أخ له فعاد أيضا وسار فيمن صحت نيته له فعرضهم وكانوا نيفا وأربعين ألفا ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا الى انطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور فتبرم بهم صاحبها وحسن لهم المسير الى الفرنج على عكا فساروا على جبلة ولاذقية وغيرهما من البلاد التى ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها اليهم وأخذوا منهم خلقا كثيرا ومات أكثر من أخذ فبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياما فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم الا نحو ألف رجل فركبوا فى البحر الى الفرنج الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا ما نالهم فى طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا الى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قلج ارسلان يكاتب صلاح الدين باخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور فى بلاده فلما عبروها وخلفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم لان أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الالمان فانه استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم الى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير من عنده من العساكر منها عسكر حلب وجبلة ولاذقية وشيزر وغير ذلك الى أعمال حلب ليكونوا من اطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم وكانوا حال المسلمين كما قال الله عز وجل (اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) فكفى الله شرهم ورد كيدهم فى نحرهم ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية وكان أخى رحمه الله يتولاها فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن فارسل اليه فى بيع الغلة فوصل كتابه يقول لا تبع الحبة الفرد واستكثر لنا من التبن ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فما بنا حاجة اليه ثم ان ذلك الامير قدم الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الاذن فيها بعد مدة يسيرة فقال لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا اذا جئنا اليكم فلما أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها

﴿ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا﴾

وفى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا الى المسلمين وهم كثير لا يحصى عددهم وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فعطف المصريون عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فاخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت امدادهم ألقوا بايديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم الا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر وكان مقدمهم علاء الدين خرمشاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فحملوا أيضا على

طباخيه الى مصر ليتعلموا أنواع الاطعمة ومات أمير مكة شكر العلوى الحسينى وله شعر حسن فيه

قوض خيامك عن أرض تضام بها
وجانب الذل ان الذل مجتنب
وارحل اذا كان فى الاوطان منقصة
فالمندل الرطب فى أوطانه حطب

(وفى سنة أربع وخمسين وأربعمائة) تزوج طغرلبك بنت الخليفة القائم بامر الله وكان العقد فى شعبان بظاهر تبريز *(وفى سنة خمس وخمسين وأربعمائة)* دخل بغداد وبنى على زوجته ثم سار عن بغداد بعدما حصل لاهلها الاذية من عسكره فلما وصل الى الرى مرض ومات يوم الجمعة ثامن رمضان من هذه السنة وكان عمره تقريبا سبعين سنة وكان عقيما واستقرت السلطنة بعده لابن أخيه الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق فقبض على وزير عمه عميد الملك وحبسه سنة ثم قتله وكان عميد الملك يقع فى حق الشافعى ومن غريب ما اتفق له ان ذكره دفن بخوارزم لما خصاه طغرلبك

الفرنج وبالغوا فى قتالهم ونالوا منهم نيلا كثيرا هذا جميعه ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاص التى مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة وكان بها عماد الدين زنكى صاحب سنجار وعسكر اربل وغيرهم ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الالمان وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والاسر وما صار أمرهم اليه من القلة والذلة واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بازائهم وظنوا ان الفرنج اذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهنا على وهنهم وخوفا على خوفهم فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد فى البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكندهرى ابن أخى ملك افرنسيس لابيه وابن أخى ملك انكلتار لامه ووصل معه من الاموال شئ كثير يفوق الاحصاء فوصل الى الفرنج فجند الاجناد وبذل الاموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم ان الامداد واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا وحفظوا مكانهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين من مكانه الى الخروبة فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى ثم ان الكندهرى نصب منجنيقا ودبابات وعرادات فخرج من بعكا من المسلمين فاخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم ان الكندهرى بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا فلم يتمكن من ذلك لان المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد ثم ان الفرنج كانوا ينقلون التل الى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه الى البلد فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فارسل صلاح الدين الى الاسكندرية يأمرهم بانفاذ الاقوات واللحوم وغير ذلك فى المراكب الى عكا فتأخر انفاذها فسير الى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير بطسة عظيمة مملوأة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملابس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا الى عكا لم يشك الفرنج انها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حازت ميناء عكا أدخلوها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم وتبلغوا بما فيها الى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الاسكندرية وأخذ من معها ثم ان الفرنج وصلهم كتاب من باباهم وكبيرهم الذى يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم انه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا ويعلمهم بوصول الامداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا

﴿ذكر خروج الفرنج من خنادقهم﴾

لما تتابعت الامداد الى الفرنج وجند لهم الكندهرى جمعا كثيرا بالاموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل اثقال المسلمين الى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ عن عكا وكان قد عاد اليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الالمان ولقى الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الافضل على والظاهر غازى

بسبب انه أرسله ليخطب له امرأة فتزوجها وأريق دمه بمرو ودفن جسده بكرد رود فن قحف رأسه بكرمان ودفن بقية رأسه بنيسابور وعصى عليه قطلومش وكان من السلجوقية وهو أبو ملوك قونية وأقصرا وملطية الى ان أخذها التتر وكان قد أتقن علم النجوم فركب اليه الب ارسلان واقتتل العسكران وانكسر قطلومش فلما هرب عسكره وجد ميتا من غير جرح وعظم ذلك على الب ارسلان وبكى عليه *(وفى سنة ست وخمسين وأربعمائة)* اتفقت غريبة وهو انه شاع ببغداد والعراق وكثير من البلادان جماعة من الاتراك خرجوا للصيد فرأوا فى البرية خياما سودا وسمعوا فيها لطما شديدا وعويلا طويلا وقائلا يقول قد مات سيدوك ملك الجن وأى بلد لم يلطم أهله قلع أصله فخرج جماعة من النساء وسفلة الرجال الى المقابر ولطموا (قال ابن الاثير) ولقد جرى وانا بالموصل وغيرها بتلك الناحية فى سنة ستمائة مثل هذا وهو ان الناس أصابهم وجع فى حلوقهم

والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم اليه وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فشاهدوا عساكر الاسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا الى غربى النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون وينضم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية فى اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم فلولا ذلك الالم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وانما الله أمر هو بالغه فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفى الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض للفرنج جماعة أخرى فخرج اليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيأ من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا وكان المسلمون يحملون اليهم الطعام من البلدان منهم الامير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين على بن أحمد المعروف بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضا اليهم وكذلك من عسقلان وغيرها ولولا ذلك لهلكوا جوعا خصوصا فى الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم لتهيج البحر

﴿ذكر تسيير البدل الى عكا والتفريط فيه حتى أخذت﴾

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التى عندهم لانها لم تمكن من الميناء فسيروها الى بلادهم صور والجزائر فانفتح الطريق الى عكا فى البحر فارسل أهلها الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فامر صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم اليها وأخرج عوضهم فدخل اليها عشرون أميرا وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى وكانوا اذا جاءهم جماعة قد جندوا ازعجوهم بأنواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وانضاف الى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه واهمال النواب فانحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنج الى عكا وانقطع الطريق الا من سابح يأتى بكتاب وكان من جملة الامراء الذين دخلوا الى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية بعد جاولى وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فانهم قد جربوا وتدربوا

واطمانت

فشاع ان امرأة من الجن يقال لها أم عنقود مات ابنها عنقود وكل من لا يعزيها يصيبها هذا المرض فجعل النساء وأوباش الناس يلطمون ويقولون يا أم عنقود اعذرينا مات عنقود وما دربنا وبلغنى انه جرى نظير ذلك بمصر وهو أنه فى أول الدولة الظاهرية أصاب الناس وجع فى حلوقهم فجعلوا يطبخون العصيدة ويلقونها فى النيل ويقولون يا أم حلقوم اعذرينا مات حلقوم وما دربنا *(وفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة)* ابتدأ نظام الدولة وزير ألب ارسلان فى عمارة المدرسة النظامية ببغداد وفرغت فى سنة تسع وخمسين وأربعمائة واستقر مدرسها الشيخ أبو اسحق الشيرازى فلما اجتمع الفقهاء للدرس تأخر أبو اسحق لانه بلغه ان أرضها مغصوبة فذكر الدرس يوسف بن الصباغ صاحب الشامل مدة عشرين يوما ثم لم يزالوا بالشيخ أبى اسحق حتى حضر المدرسة ودرس بها *(وفى سنة ستين وأربعمائة)* كانت بمصر وفلسطين زلزلة عظيمة طلع

واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل وظن فيهم الضجر والملال وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل فكان الامر بالضد

﴿ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل ومسير أخيه مظفر الدين اليها﴾

كان زين الدين يوسف بن زين الدين على صاحب اربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان وذكر العماد الكاتب فى كتابه البرق الشامى قال جئنا الى مظفر الدين نعزيه باخيه وظننابه الحزن وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه فاذا هو فى شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه وهو جالس فى خيام أخيه المتوفى وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم وعجل عليهم وما أغفلهم منهم بلداجى صاحب قلعة خفتيذكان وأرسل الى صلاح الدين يطلب منه اربل لينزل عن حران والرها فاقطعه اياها وأضاف اليها شهرزور وأعمالها ودربند قرابلى وبنى قفجاق ولما مات زين الدين كاتب من كان باربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه اليهم ليملكوه فلم يحضر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفا من صلاح الدين وكان أعظم الاسباب فى تركها ان عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين فتمكن زين الدين من اربل ثم ان عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه وجعل معه انسانا كان من بعض غلمان مجاهد الدين فكان يشاركه فى الحكم ويحل عليه ما يعقده فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد فلما طلب الى اربل قال لمن يثق اليه لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان ويكف يدى عنها فجاء مظفر الدين اليها وملكها وبقى غصة فى حلق البيت الاتابكى لا يقدرون على اساغتها وسنذكر ما اعتمده معهم مرة بعد أخرى ان شاء الله تعالى

﴿ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها الى المسلمين﴾

فى هذه السنة ملك ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الاندلس مدينة شلب وهى من كبار مدن المسلمين بالاندلس واستولى عليها فوصل الخبر بذلك الى الامير أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب والاندلس فتجهز فى العساكر الكثيرة وسار الى الاندلس وعبر المجاز وسير طائفة كثيرة من عسكره فى البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالا شديدا حتى ذلوا وسألوا الامان فأمنهم وسلموا البلد وعادوا الى بلادهم وسير جيشا من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وفتكوا فى الفرنج فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين وعاد أبو يوسف الى مراكش وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم اظهار الخلاف فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة فتحركوا وسنذكر خبرهم هناك ان شاء الله تعالى

﴿ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان﴾

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرض الى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكى الغورية من خراسان فتجهز غياث الدين وخرج من فيروزكوه الى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة فبقى يتردد بين بلاد الطالقان وينجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه فلم يزل كذلك الى أن دخلت سنة ست وثمانين فجمع سلطان شاه عساكره وقصد غياث الدين فتصافا واقتتلا فانهزم سلطان شاه وأخذ غياث الدين بعض بلاده وعاد الى غزنة

فيها الماء الى رؤس الآبار وهلك بالروم خلق كثير وزال البحر عن مكانه مسيرة يوم حتى نزل الناس الى أرضه يلتقطون فعاد عليهم وأهلك خلقا كثيرا *(وفى سنة اثنتين وستين وأربعمائة)* حصل بمصر غلاء شديد حتى أكل الناس بعضهم بعضا وأنفق خليفة مصر العلوى ثمانين ألف قطعة بلور ومثلها ديباجا وعشرين ألف سيف محلى *(وفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة)* ملك السلطان ألب ارسلان ديار بكر وحلب واستمر بها صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس وقاتل ملك الروم ارمانوس واستأسره ثم أطلقه وفتح ولده ملكشاه القدس والرملة وأخذها من نواب الخليفة المستنصر صاحب مصر *(وفى هذه السنة)* توفى أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب ابن زيدون الاندلسى القرطبى وزير المعتضد ابن عباد صاحب اشبيلية وله الاشعار الفائقة منها

بينى وبينك مالو شئت لم يضع
سر اذا ذاعت الاسرار لم يذع
يا بائعا حظه منى ولو بذلت
لى الحياة بحظى منه لم أبع

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة وكان سير اليها جيشا حصروها سنة خمس وثمانين فقاتلوا عليها قتالا شديدا ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير فلما ضاقت عليهم الاقوات سلموها على اقطاع عينوها ووصل صاحبها وأهلها الى بغداد واعطوا اقطاعا ثم تفرقوا فى البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وانه يتعرض بالسؤال الى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته وفى هذه السنة توفى مسعود بن البادر وكان مكثرا من الحديث حسن الخط خيرا ثقة وفيها توفى أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى بالموصل كان قاضيا وقبلها ولى قضاء حلب وجميع الاعمال وكان رئيسا جوادا ذا مروأة عظيمة يرجع الى دين واخلاق

﴿ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار اتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل الى جزيرة ابن عمر فحصرها وكان بها صاحبها سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو ابن أخى عز الدين وكان سبب حصره ان سنجرشاه كان كثير الاذى لعمه عز الدين والشناعة عليه والمراسلة الى صلاح الدين فى حقه تارة يقول انه يريد قصد بلادك وتارة يقول انه يكاتب اعداءك ويحثهم على قصدك الى غير ذلك من الامور المؤذية وعز الدين يصبر على ما يكره لامور تارة للرحم وتارة خوفا من تسليمها الى صلاح الدين فلما كان فى السنة الماضية سار صاحبها الى صلاح الدين وهو على عكا فى جملة من سار من أصحاب الاطراف واقام عنده قليلا وطلب دستورا للعود الى بلده فقال له صلاح الدين عندنا من اصحاب الاطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها وهو اكبر منك ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك فلم يلتفت الى قوله وأصر على ذلك وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجرشاه لانه ظلمهم وأخذ أموالهم وأملاكهم فكان يخافه لهذا ولم يزل فى طلب الاذن فى العود الى البلد الى عيد الفطر من سنة ست وثمانين فركب تلك الليلة سنجرشاه وجاء الى خيمة صلاح الدين وأذن لاصحابه فى المسير فساروا بالاثقال وبقى جريدة فلما وصل الى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الاذن وكان صلاح الدين قد بات محموما وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له فبقى كذلك مترددا على باب خيمته الى أن أذن له فلما دخل عليه هناه بالعيد وا كب عليه يودعه فقال له ما علمنا بصحة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك عندنا على هذا الوجه فلم يرجع وودعه وانصرف وكان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة فى عسكره فكتب اليه صلاح الدين يأمره باعادة سنجرشاه طوعا أو كرها فحكى لى عن تقى الدين انه قال ما رأيت مثل سنجرشاه لقيته بعقبة فيق فسألته عن سبب انصرافه فغالطنى فقلت له سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديته فيضيع تعبك وسألته العود فلم يصغ الى قولى فكأننى كأننى بعض مماليكه فلما رأيت ذلك منه قلت له ان رجعت بالتى هى أحسن والا أعدتك كارها فنزل عن دابته وأخذ يدى وقال قد استجرت بك وجعل يبكى فعجبت من حماقته أولا وذلته ثانيا فعاد معى فلما عاد بقى عند صلاح الدين عشرة أيام وكتب صلاح الدين الى عز الدين اتابك يأمره بقصد الجزيرة ومحاصرتها وأخذها وانه يرسل الى طريق سنجرشاه

يكفيك أنك لو حملت قلبى ما
لم تستطعه قلوب الناس
يستطع
ته أحتمل واستطل أصبر
وعز أهن
وول أقبل وقل أسمع
ومر أطع

(ومن قصائده المشهورة)

أضحى التنائى بديلا من
تدانينا*
٢
وناب عن طيب لقيانا
تجافينا
ألا وقد كان صبح البين
صبحنا
*حينا وقام بنا للحين
ناعينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا*
شوقا اليكم ولا جفت
ماقينا
تكاد حين تناجيكم
ضمائرنا*
تقضى علينا الأسى لولا
تأسينا
حالت لفقدكم ايامنا فغدت*
سودا وكانت بكم بيضا
ليالينا
اذ جانب العيش طلق من
تألفنا*
ومورد اللهو صاف من
تصافينا
قطوفها فجنينا منه
ماشينا*
لسبق عهدكم عهد الغمام فما
كنتم لارواحنا الا رياحينا

ليقبض عليه اذا عاد فخاف عز الدين ان صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد فلم يفعل شيأ من ذلك بل أرسل اليه يقول أريد خطك بذلك ومنشورا منك بالجزيرة فترددت الرسل فى ذلك الى أن انقضت سنة ست وثمانين فاستقرت القاعدة بينهما فسار عز الدين الى الجزيرة فحصرها اربعة أشهر وأياما آخرها شعبان ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجرشاه على يد رسول صلاح الدين فانه كان قد أرسل بعد قصدها يقول ان صاحب سنجار وصاحب اربل وغيرهما قد شفعا فى سنجرشاه فاستقر الصلح على ان لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ولسنجرشاه نصفها وتكون الجزيرة بيد سنجرشاه من جملة النصف وعاد عز الدين الى الموصل وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول ما قيل لى عن أحد شئ من الشر فرأيته الا كان دون ما يقال فيه الا سنجرشاه فانه كان يقال لى عنه أشياء استعظمتها فلما رأيته صغر فى عينى ما قيل

﴿ذكر عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره الى خلاط وموته﴾

فى هذه السنة فى صفر سار تقى الدين من الشام الى البلاد الجزرية حران والرها كان قد أقطعه اياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من مظفر الدين مضافا الى ما كان له بالشأم وقرر معه انه يقطع البلاد الجند ويعودوهم معه ليتقوى بهم على الفرنج فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار الى ميافارقين وكانت له فلما بلغها تجدد له طمع فى غيرها من البلاد المجاورة لها فقصد مدينة حانى من ديار بكر فحصرها وملكها وكان فى سبعمائة فارس فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حانى جمع عساكره وسار اليه فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس فلما التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خلاط لتقى الدين بل انهزموا وتبعهم تقى الدين ودخل بلادهم وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وحبسه فى قلعة هناك فلما انهزم كتب الى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق فوصل القاصد وتقى الدين قد نازل القلعة فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار الى خلاط فحصرها ولم يكن فى كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها وضيق على من بها وطال مقامه عليها فلما ضاق عليهم الامر طلبوا منه المهلة أياما ذكروها فاجابهم اليها ومرض تقى الدين فمات قبل انقضاء الاجل بيومين وتفرقت العساكر عنها وحمله ابنه وأصحابه ميتا الى ميافارقين وعاد بكتمر فقوى أمره وثبت ملكه بعد ان أشرف على الزوال وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فان ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ

﴿ذكر وصول الفرنج من الغرب فى البحر الى عكا﴾

وفى هذه السنة وصلت امداد الفرنج فى البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك افرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسبا وان كان ملكه ليس بالكثير وكان وصوله اليها ثانى عشر ربيع الاول ولم يكن فى الكثرة التى ظنوها وانما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولجوا فى قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل الى الامير اسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشوانى والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها فى البحر ليمنع الفرنج من الخروج الى عكا ففعل ذلك وسير الشوانى فى البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلتار الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم
*ثوبا من الحزن لا يبلى
ويبلينا
ان الزمان الذى قد كان
يضحكنا*
أنسا بقربكم قد كان يبكينا
غيظ العدا من تساقينا
الهوى فدعوا*
بان نغص وقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقودا
بانفسنا*
وانبت ما كان موصولا
بايدينا
بالامس كنا وما يخشى
تفرقنا*
واليوم نحن ولا يرجى
تلاقينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا*
اذ طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أرواحنا بدلا
عنكم ولا انصرفت فيكم
أمانينا

(ومنها)

كاننا لم نبت والوصل ثالثنا*
والدهر قد غض من اجفان
واشينا
سر بنا فى خاطر الظلماء
تكتمنا*
حتى يكاد لسان الصبح
يفشينا
انا قرأنا الاسى يوم النوى
سورا*
متلوة واتخذنا الصبح تلقينا
وفى السنة المذكورة توفى
الامام يوسف بن عبد الله

وتأخرهو بجزيرة قبرس ليملكوا فاقتتلت شوانى المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب أيضا صلاح الدين الى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم فى المجىء اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتاله فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك انكلتار ثالث عشر جمادى الاولى وكان قد استولى فى طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم فانه لما وصل اليها غدر بصاحبها وملكها جميعا فكان ذلك زيادة فى ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها الى من على عكا من الفرنج فوصل اليهم فى خمس وعشرين قطعة كبارا مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم فى المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثل لها ولما وردت الاخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل فلقيها ملك انكلتار مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها الى أسفلها وهو يعقوب الحلبى مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة الى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم ان الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا وما زالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من وراءه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف غلوة فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع

﴿ذكر ملك الفرنج عكا﴾

فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من بالبلد أن الامير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج الى ملك افرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك فعاد على بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم ثم ان أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا الى الامان اتخذوا الليل جملا وركبوا فى شئ صغير وخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عز الدين أرسل الاسدى وابن عز الدين جاولى وسنقر الوشاقى ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم ان الفرنج أرسلوا الى صلاح الدين فى معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوا هم من بعكا وان يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فارسل الى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم انه يتقدم الى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه

ابن محمد بن عبد البر صاحب التصانيف المشهورة منها الاستيعاب والتمهيد على موطأ مالك والدرر فى المغازى والسير وبهجة المجالس الذى منه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه انه دخل الجنة ورأى فيها عذقا أعجبه فقال لمن هذا قيل لابى جهل فقال ما لابى جهل والجنة والله لا يدخلها أبدا فلما جاءه عكرمة بن أبى جهل مسلما فرح به وتأوله ذلك العذق (ومنه) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه كان كلبا أبقع يلغ فى دمه فكان شمر بن ذى جوشن قاتل الحسين تفسير بعد خمسين سنة (ومنه) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر رأيت كانى وأنت نرقى فى درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف فقال يا رسول الله يقبضك الله الى رحمته وأعيش بعدك سنتين ونصفا (ومنه) ان شخصا من أهل الشام قص على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مناما فقال رأيت كان الشمس والقمر اقتتلا ومع كل واحد منهما فريق من النجوم فقال مع من كنت قال مع القمر قال مع الآية الممحوة والله

فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه لظهوره فلما عجز الناس من حفظ البلد وزحف اليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على سوره يحركون اعلامهم ليراها المسلمون وكانت هى العلامة اذا اخترمهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم ان الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو فى أولهم وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا فى مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب ان صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فأجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين فى ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع فى جمع المال وكان هو لا مال له انما يخرج ما يحصل اليه من دخل البلاد أولا بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيأ حتى يعاود يستحلفهم على اطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك لانهم أهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين فى ذلك فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لاننا نخاف غدر من عندنا وقال ملوكهم اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيأ وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقى وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لا نحلف انما ترسل الينا المائة ألف دينار التى حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجىء باقى المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وانما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والاكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الامراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم واذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف فى المال الذى كان جمعه وسير الاسرى والصليب الى دمشق

﴿ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان وتخريبها﴾

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا برزوا منها فى الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى فى عسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الافضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين اياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الامراء فضايقوا الفرنج فى مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة

لا توليت لى عملا فقتل المذكور على صفين وكان مع معاوية (ومنه) ان عائشة رضى الله عنها رأت فى منامها كان ثلاثة أقمار سقطت فى حجرتها فقال لها أبوها أبو بكر يدفن فى بيتك ثلاث من خيار أهل الارض فلما دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا أحد أقمارك (وفى سنة خمس وستين وأربعمائة) قتل السلطان ألب أرسلان وكان اسمه محمدا وذلك انه سار الى ما وراء النهر وعسكره مائتا ألف فارس وعقد على جيحون جسرا ومد سماطه على قرية فربر وهناك حصن على شاطئ جيحون وقع حارسه فى جريمة وغضب عليه السلطان فاحضره وأمر به ان يشد فى أربع سكك وكان اسمه يوسف الخوارزمى فقال للسلطان يا مخنث مثلى يقتل هذه القتلة فاخذ السلطان القوس والنشاب وقال للمتوكلين به خلوه ورماه بسهم فأخطأه وما كان سهمه يخطئ اصلا فوثب يوسف المذكور على السلطان بسكين كانت معه وعانقه فقام السلطان عن السرير مذعورا فوقع

وأسروا جماعة وأرسل الافضل الى والده يستمده ويعرفه الحال فأمر العساكر بالمسير اليه
فاعتذروا بانهم ماركبوا باهبة الحرب وانما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد ملك
الانكلتار الى ساقة الفرنج فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون
قرية بالقرب منهم وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض
ما هلك من الخيل ثم ساروا الى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه
فيقتلونه لان صلاح الدين كان قد أقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا فلما
قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيرا ونزل الفرنج بها
وبات المسلمون قريبا منهم فلما نزلوا اخرج من الفرنج جماعة فابعدوا عن جماعتهم فاوقع بهم
المسلمون الذين كانوا في اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف وكان
المسلمون قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج اليهم حمل
المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتل منهم كثير فلما رأى الفرنج ذلك
اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد وكان
كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريبا من المعركة فلما كان ذلك اليوم
كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون الى القلب وفيه صلاح
الدين فلو علم الفرنج انها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من
المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من
الضيق وقتل من الفرنج كند كبير من طواغيتهم وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه اياز
الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل
المسلمون وأعنة خيلهم بايديهم ثم سار الفرنج الى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين
فذكوها ولما كان من المسلمين بارسوف من الهزيمة ماذكرناه سار صلاح الدين عنهم الى الرملة
واجتمع باثقاله بها وجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له
قد رأيت ما كان منا بالامس واذا جاء الفرنج الى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها
فهم لا شك يقاتلونا لننزاح عنها وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا
ويعظم الامر علينا لان العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا
بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس الى
دخولها وحفظها فلم يجبه أحد الى ذلك وقالوا ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض
أولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الامر كذلك
سار الى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في البحر وهلك فيها
من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية مالا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في
قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها وكان المركيس لعنه الله
لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك انكلتار بالغدر به فهرب من عنده الى مدينة صور وهي
له وبيده وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثارها فلما خربت عسقلان أرسل
الى ملك انكلتار يقول له مثلك لا ينبغي أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع ان صلاح
الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت اليه
مجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار فانه ما خربها الا وهو عاجز عن حفظها وحق

لوجهه فضربه يوسف
بالسكين وجرح من
الواقفين واحدا وقتل
آخر ثم قطع بالسيوف
فقال السلطان الب
ارسلان وهو مجروح لما
كان بالامس صعدت على
جبل بالجيش فارتج به من
عظم الجيش فقلت في
نفسي أنا ملك الدنيا وما
يقدر احد على مقابلتي
فعجزني الله باضعف خلقه
وأنا أستغفر الله من ذلك
الخاطر ولم يزل به الجرح
حتى مات به بعد اربعة ايام
وكان عمره اربعين سنة
ومدة سلطنته تسع سنين
وشهرا واستقر في السلطنة
بعده ولده ملكشاه
واستقر نظام الملك وزيرا
وفوض اليه طوس وعمالها
ولقبه اتابك (وفي سنة
ست وستين واربعمائة)
حاصر ناصر الدولة بن
حمدان مصر وأخذها ثم
قتل ثم حكم بمصر أمير
الجيوش بدر الجمالي
وعدل بها وقرر أمورها
واصلح احوال المنتصر
العلوي ثم عاد الى سواحل
الشام مكانه (وفي سنة
سبع وستين واربعمائة)
توفي القائم بامر الله ابو
جعفر بن القادر أحمد بن
الامير اسحق بن المقتدر

المسيح لو انني معك كانت عسقلان اليوم بايدينا لم يخرب منها غير برج واحد فلما خربت عسقلان
رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ومضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لدّ وفي
مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار
صلاح الدين الى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر وقرر قواعده
وأسبابه وما يحتاج اليه وعاد الى المخيم ثامن رمضان وفي هذه الايام خرج ملك انكلتار من يافا
ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك
انكلتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضا كانت
وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون

(ذكر رحيل الفرنج الى نطرون)

لما رأى صلاح الدين ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته
الى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به فراسله ملك انكلتار بطلب المهادنة فكانت الرسل
تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخي صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن انكلتار يزوج
أخته من العادل ويكون القدس وما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ويكون عكا وما بيد
الفرنج من البلاد لاخت انكلتار مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها
وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فأجاب اليه فلما
ظهر الخبر اجتمع القسيسون والاساقفة والرهبان الى أخت انكلتار وأنكروا عليها فامتنعت
من الاجابة وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم وكان العادل وملك انكلتار يجتمعان بعد
ذلك ويتجاريان حديث الصلح وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين فاحضر له مغنية تضرب
بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح وكان ملك انكلتار يفعل ذلك خديعة ومكرا
ثم ان الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين الى الرملة جريدة وترك
الاثقال بالنطرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوما ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين
مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين الى النطرون ورحل
الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب بعضهم من بعض
فعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء فلقوا من ذلك شدة
شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما

(ذكر مسير صلاح الدين الى القدس)

لما رأى صلاح الدين ان الشتاء قد هجم والامطار متوالية متتابعة والناس منها في ضنك وحرج
ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم وكان كثير من العساكر قد طال بيكارها فاذن
لهم في العود الى بلادهم للاستراحة والاراحة وسار هو الى البيت المقدس فيمن بقي معه فنزلوا
جميعا داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه ونزل هو بدار الاقصى مجاور بيعة قمامة وقدم اليه
عسكر مصر مقدمهم الامير أبو الهيجاء السمين فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من
الرملة الى النطرون ثالث ذي الحجة على عزم قصد القدس فكانت بينهم وبين يزك المسلمين
وقعات أسر المسلمين في وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهوري الفرنج وشجعانهم وكان صلاح
الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد ما رث منه فاحكم الموضع الذي ملك البلد منه
واتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج الى أمير يتولى عمله فعمل ولده الافضل من

ابن جعفر بن المعتضد أحمد
وكان عمره ستا وستين سنة
وشهورا ومدة خلافته
أربعا وأربعين سنة
وشهورا وبويع ولد ولده
عبد الله بن محمد ولقب
المقتدي بامر الله وكان أبوه
مات في حياة جده القائم
بامر الله وكان لقبه ذخيرة
الدين وكانت له جارية اسمها
ارجوان فجاءت بعبد
الله المقتدي بعد وفاة ابيه
بستة أشهر وسر به القائم
سرورا عظيما وفي هذه
السنة جمع ملكشاه ونظام
الملك المنجمين ونقل
النيروز من نصف الحوت الى
أول الحمل (وفي سنة ثمان
وستين وأربعمائة) توفي
الشريف العباسي ابو
جعفر مسعود بن عبد
العزيز المعروف بالبياضي
وله اشعار حسنة منها

كيف يدوي عتب أشوا * ق ولي طرف مطير
ان يكن في العشق حر * فأنا العبد الاسير
أو على الحسن زكاة * فأنا ذاك الفقير

(ومنها)

يا من لبست لبعده ثوب الضنا
حتى خفيت به عن العواد
وأنست بالسهر الطويل فانسيت
أجفان عيني كيف كان رقادي

ناحية باب عمود الى باب الرحمة وأرسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم فى قطع الصخر اليد الطولى فعملوا له هناك برجا وبدنة وكذلك جميع الامراء ثم ان الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الامكنة البعيدة فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام

﴿ذكر عود الفرنج الى الرملة﴾

فى العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج الى الرملة وكان سبب عودهم انهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم ان ملك انكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا لى مدينة القدس فانى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فاخبر انه عميق وعر المسلك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لاننا ان نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل اليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون اليه وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع احدى الطائفتين ولم يكن الطائفة الاخرى أنجاد أصحابهم لانهم ان فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وان تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فالى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يتعذر علينا من ايصال ما يحتاج اليه من العلوفات والاقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين

﴿ذكر قتل قزل ارسلان﴾

فى شعبان من هذه السنة قتل قزل ارسلان واسمه عثمان بن ايلدكز وقد ذكرنا انه ملك البلاد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران واذربيجان وهمذان وأصفهان والرى وما بينهما واطاعه صاحب فارس وخوزستان واستولى على السلطان طغرل فاعتقله فى بعض القلاع ودانت له البلاد وفى آخر أمره سار الى اصفهان والفتن بها متصلة من لدن توفى البهلوان الى ذلك الوقت فتعصب على الشافعية وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد الى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس ثم انه دخل ليلة قتل الى منزله لينام وتفرق أصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله فأخذ أصحابه صاحب بابه ظنا وتخمينا وكان كريما حسن الاخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع الى حلم وقلة عقوبة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين فى رمضان وكان سبب قدومه ان والده عز الدين قلج ارسلان فرق مملكته على أولاده واعطى ولده هذا ملطية وأعطى ولده قطب الدين ملكشاه سيواس فاستولى قطب الدين على أبيه وحجر عليه وأزال حكمه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه ويسلمها اليه فخاف معز الدين فسار الى صلاح الدين ملتجئا اليه معتضدا به فاكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل فامتنع قطب الدين من قصده وعاد معز الدين الى ملطية فى ذى القعدة وحدثنى من أثق به قال رأيت

ان كان يوسف بالجمال مقطع الا
أيدى فانت مقطع الاكباد
(وفى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة) سار شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب صاحب الموصل الى حلب وملكها بعد حصارها سنة واستنزل من قلعتها سابقا ووثابا ولدى محمود بن نصر ابن صالح بن مرداس واقره السلطان ملكشاه على ذلك واستمر الى ان فتح سليمان بن قطلمش السلجوقى انطاكية فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فارسل شرف الدولة يطلب الحمل من سليمان بن قطلمش فاجابه ان الذى كان يحمل اليك كافر وأنا مسلم فركب اليه واقتتلا فقتل شرف الدولة وقتل بين يديه أربعمائة من أحداث حلب وأرسل سليمان بن قطلمش يطلب حلب فمنعوها فركب اليها وقاتل وانهزم عسكره عنه فقتل نفسه وسار السلطان ملكشاه الى حلب وملك فى طريقه حران فاستنقذها من يد الروم وأخذ قلعة جعبر من صاحبها سابق الدين جعبر

صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلا فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عز الدين صاحب الموصل قال فعجبت من ذلك وقلت ما تبالى يا ابن أيوب أى موتة تموت يركبك ملك سلجوقى وابن أتابك زنكى وفيها توفى حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر وهو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضا وفى رجب توفى الصفى بن القابض وكان متولى دمشق لصلاح الدين يحكم فى جميع بلاده

﴿ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر عمارة الفرنج عسقلان﴾

فى هذه السنة فى المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا فى عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس فسار ملك انكلتار جريدة من عسقلان الى يزك المسلمين فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض وفى مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصرى وهو من مقدمى المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم ما فيها

﴿ذكر قتل المركيس وملك الكندهرى﴾

فى هذه السنة فى ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجى لعنه الله صاحب صور وهو أكبر شياطين الفرنج وكان سبب قتله ان صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان ان أرسل من يقتل ملك انكلتار وان قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك انكلتار ولم يره سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم وشره فى أخذ المال فعدل الى قتل المركيس فارسل رجلين فى زى الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب رملة وكانا مع المركيس بصور فأقاما معهم ستة أشهر يظهران العبادة فانس بهما المركيس ووثق اليهما فلما كان بعد التاريخ عمل الاسقف بصور دعوة للمركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحا وثيقة وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفى فيها فاتفق ان المركيس حمل اليها ليشد جراحه فوثب عليه ذلك الباطنى فقتله وقتل الباطنيان بعده ونسب الفرنج قتله الى وضع من ملك انكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى فلما قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهرى وتزوج بالملكة فى ليلته ودخل بها وهى حامل وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح وهذا الكندهرى هو ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه وابن أخت ملك انكلتار من أمه وملك هذا كندهرى بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك انكلتار وعاش الى سنة أربع وتسعين وخمسمائة فسقط من سطح فمات وكان عاقلا كثير المداراة والاحتمال ولما رحل ملك انكلتار الى بلاده أرسل هذا كندهرى الى صلاح الدين يستعطفه ويستميله يطلب منه خلعة وقال أنت تعلم ان لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك فانفذ اليه خلعة سنية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا

﴿ذكر نهب بنى عامر البصرة﴾

فى هذه السنة فى صفر اجتمع بنو عامر فى خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة وكان الامير

الاعمى وكان اسمها قبل ذلك الدوسرية ولما وصل حلب دخل الامير نصر بن على بن منقذ صاحب شيزر تحت طاعته ثم أسلم حلب الى ابن سنقر وارتحل عنها الى بغداد وأقام بها فلما كانت سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة سار بجيوش لا تحصى الى وراء النهر فملك بخارا وسمرقند (وفى هذه السنة وقيل سنة ثمانين وأربعمائة) ملك يوسف ابن تاشفين غرناطة من الاندلس وانقرضت دولة الصنهاجية واجتمع اليه أهل الاندلس وكسر الافرنج وقتل منهم خلقا كثيرا وعمل من رؤسهم تلاعا ليأذن عليه ويسمى أمير المسلمين وملك غالب الغرب * (وفى سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة) * عمر القاضى أبو الحسن بن الخشاب منارة جامع بحلب * (وفى سنة أربع وثمانين وأربعمائة) * جاء السلطان ملكشاه الى بغداد وحضر اليه أخوه تتش من دمشق وآقسنقر من حلب وغالب نوابه من الاعمال وعمل الميلاد واحتفل له الناس وامتدحه الشعراء وأمر بعمارة الجامع المعروف بجامع السلطان ببغداد

بها اسمه محمد بن اسمعيل ينوب عن مقطعها الامير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله فوصلوا اليها يوم السبت سادس صفر فخرج اليهم الامير محمد فيمن معه من الجند فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخريبة ودام القتال الى آخر النهار فلما جاء الليل ثلم العرب فى السور عدة ثلم ودخلوا البلد من الغد فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ونهبت العرب الخانات بالشاطئ وبعض محال البصرة وعبر أهلها الى شاطئ الملاحين وفارق العرب البلد فى يومهم وعاد أهله اليه وكان سبب سرعة العرب فى مفارقة البلد انهم بلغهم ان خفاجة والمنتفق قد قاربوهم فساروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا الى البصرة بكرة الاثنين وكان الامير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعا كثيرا فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم فلم يقوموا للعرب وانهزموا ودخل العرب البصرة ونهبوها وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم وجرت أمور عظيمة ونهبت القسامل وغيرها يومين وفارقها العرب وعاد أهلها اليها وقد رأيت هذه القصة بعينها فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم

﴿ذكر ما كان من ملك انكلتار﴾

فى تاسع جمادى الاولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى البيت المقدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة وكان سبب طمعهم ان صلاح الدين فرق عساكره الشرقية وغيرها لاجل الشتاء ويستريحوا ويحضر البدل عوضهم وسار بعضهم مع ولده الافضل وأخيه العادل الى البلاد الجزرية لما نذكره ان شاء الله تعالى وبقى من حلقته الخاص بعض العساكر المصرية فظنوا انهم ينالون غرضا فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق ابراج البلد على الامراء وسار الفرنج من بيت نوبة الى قلونية سلخ الشهر وهى فرسخين من القدس فصب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا ارسال السرايا فبل الفرنج منهم بما لا قبل لهم به وعلموا انهم اذا نازلوا القدس كان الشر اليهم أسرع والتسلط عليهم امكن فرجعوا القهقرى وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها فقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا وغنموا وكان ذلك آخر جمادى الاولى

﴿ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل﴾

فى تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم العسكر فلك الدين سليمان أخو العادل لامه ومعه عدة من الامراء فاسرى الفرنج اليهم فواقعهم بنواحى الخليل فانهزم الجند ولم يقتل منهم أحد من المشهورين انما قتل من الغلمان والاصحاب وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم واما القفل فانه أخذ بعضه وصعد من نجا جبل الخليل فلم يقدم الفرنج على اتباعهم ولو اتبعوهم نصف فرسخ لاتوا عليهم وتمزق من نجا من القفل وتقطعوا ولقوا شدة الى أن اجتمعوا وحكى لى بعض اصحابنا وكنا قد سيرنا معه شيأ للتجارة الى مصر وكان قد خرج فى هذه القفل قال لما وقع الفرنج علينا كنا قد رفعنا أحمالنا للسير فحملوا علينا وأوقعوا بنا فضربت جمالى وصعدت الجبل ومعى عدة اجمال لغيرى فلحقنا قوم من الفرنج فاخذوا الاجمال التى فى صحبتى وكنت بين أيديهم بمقدار رمية سهم فلم يصلوا الى فنجوت بما معى وسرت لا أدرى أين أقصد واذ قد لاح لى بناء كبير على جبل فسألت عنه فقيل لى هذا الكرك فوصلت

وفيها توفى ارتق بن اكسك التركمانى جد ملوك ماردين بالقدس واستقر بالقدس ولداه ايلغازى وسقمان واستقرت بيدهما الى ان سار الافضل أمير الجيوش من مصر اليها وأخذها *(وفى سنة خمس وثمانين وأربعمائة)* حصلت وحشة بين السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك الحسين بن على بن اسحق فانصرف نظام الملك بعد الفطور عاشر رمضان الى خيمته بنهاوند فوثب عليه غلام السلطان ملكشاه وهو ديلمى فى صورة مستعط فقتله ثم أدركه أصحاب نظام الملك فقتلوه وبعده بخمس وثلاثين يوما مات السلطان ملكشاه بعد ان عاد الى بغداد بحمى محرقة وكان مولده سنة سبع وأربعين وأربعمائة وكان حسن السيرة والشكل وخطب له من حدود الصين الى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال الى آخر بلاد اليمن وكانت أيامه أيام عدل وأمن عمرت البلاد فى أيامه وكثرت الارزاق وبنى المصانع بطريق مكة وكان يحب الصيد ويتصدق عن كل

اليه ثم عدت منه الى القدس سالما وسار هذا الرجل من القدس سالما فلما بلغ براعة عند حلب أخذه الحرامية فنجا من العطب وهلك عند ظنه السلامة

﴿ذكر مسير الافضل والعادل الى بلاد الجزيرة﴾

قد تقدم ذكر موت تقى الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة فلما استولى عليها أرسل الى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه مضافا الى ما كان لابيه بالشام فلم ير صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم الى صبى فما أجابه الى ذلك فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج فطلب الافضل على بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقى الدين وينزل عن دمشق فاجابه الى ذلك وأمره بالمسير اليها فسار الى حلب فى جماعة من العسكر وكتب صلاح الدين الى أصحاب البلاد الشرقية مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها يأمرهم بانفاذ العساكر الى ولده الافضل فلما رأى ولد تقى الدين ذلك علم انه لا قوة له بهم فراسل الملك العادل عم أبيه يسأله اصلاح حاله مع صلاح الدين فانهى ذلك الى صلاح الدين وأصلح حاله وقرر قاعدته بان يقرر له ما كان لابيه بالشام وتؤخذ منه البلاد الجزرية واستقرت القاعدة على ذلك وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية وهى حران والرها وسميساط وميافارقين وحانى العادل وسيره الى ابن تقى الدين ليتسلم منه البلاد ويسيره الى صلاح الدين ويعيد الملك الافضل أين أدركه فسار العادل فلحق الافضل بحلب فاعاده الى أبيه وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ابن تقى الدين وجعل نوابه فيها واستصحب ابن تقى الدين معه وعاد الى صلاح الدين بالعساكر وكان عوده فى جمادى الآخرة من هذه السنة

﴿ذكر عود الفرنج الى عكا﴾

لما عاد الملك الافضل فيمن معه وعاد الملك العادل وابن تقى الدين فيمن معهما من عساكرهما ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج انهم لا طاقة لهم بها اذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها فأمر صلاح الدين ولده الافضل ان يسير اليها فى عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضا للفرنج فى مسيرهم نحوها فسار الى مرج العيون واجتمعت العساكر معه فاقام هنالك ينتظر مسير الفرنج فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها

﴿ذكر ملك صلاح الدين يافا﴾

لما رحل الفرنج نحو عكا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيرها فسار الى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها منهم وملكها فى العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيرا وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذى كان معهم وقد ذكر ذلك وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شئ من الغنيمة أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا ثم زحفت العساكر الى القلعة فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها فطلب من بالقلعة الامان على أنفسهم وخرج البترك الكبير الذى لهم ومعه عدة من أكابر الفرنج فى ذلك وترددوا وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا واذ قد

نسمة منه بدينار حتى انه اصطاد مرة عشرة آلاف فتصدق بعشرة آلاف دينار *(وفى سنة سبع وثمانين وأربعمائة)* توفى المقتدى بامر الله فجأة يوم السبت خامس عشر المحرم وكان عمره ثمانيا وثلاثين سنة وثمانية أشهر وخلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وامه ام ولد ارمينية تسمى ارجوان وبويع ولده المستظهر بالله أبو العباس احمد وفى هذه السنة جمع تتش الب أرسلان على آقسنقر صاحب حلب واقتتلا على تل سلطان وقتل آقسنقر صبرا وملك تتش حلب وحران والرها وبلاد الجزيرة وديار بكر (وفى هذه السنة) توفى امير الجيوش بدر الجمالى بمصر فى ربيع الاول وعمره فوق الثمانين وكان هو الحاكم فى ايام المستنصر العلوى وولى بعده ولده الافضل وبعده فى الحجة توفى المستنصر العلوى أبو تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله وكانت خلافته ستين سنة وأربعة أشهر وعمره سبع وستون سنة وكان طويل الروح قليل الشر لقى ضيقا كثيرا حتى

وصلهم نجدة من عكا وأدركهم ملك انكلتار فأخرج من بيافا من المسلمين وأتاه المدد من عكا وبرزوا الى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه أحد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل أكل فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد فى قتالهم فتقدم اليه بعض أمرائه يعرف بالجناح وهو اخو المشطوب بن على بن أحمد الهكارى فقال له ياصلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالجماقات يتقدمون فيقاتلون اذا كان القتال فنحن واذا كانت الغنيمة فلهم فغضب صلاح الدين من كلامه وعاد عن الفرنج وكان رحمه الله حليما كريما المقدرة ونزل فى خيامه وأقام حتى اجتمعت العساكر وجاء اليه ابنه الافضل وأخوه العادل وعساكر الشرق فدخل بهم الى الرملة لينظر مايكون منه ومن الفرنج فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها

﴿ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق﴾

فى العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها هذا التاريخ وافق أول ايلول وسبب الصلح ان ملك انكلتار لما رأى اجتماع العساكر وانه لايمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده وأرسل صلاح الدين فى الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا فلم يجبه صلاح الدين الى ماطلب ظنا منه انه يفعل ذلك خديعة ومكرا وأرسل يطلب منه المصاف والحرب فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة وأرسل الى الملك العادل فى تقرير هذه القاعدة فأشار هو وجماعة الامراء بالاجابة الى الصلح وعرفوه ماعند العسكر من الضجر والملل وماقد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا ان هذا الفرنجى انما طلب الصلح ليركب البحر ويعود الى بلاده فان تأخرت اجابته الى ان يجىء الشتاء وينقطع الركوب فى البحر نحتاج نبقى ههنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين وأكثروا القول له فى هذا المعنى فأجاب حينئذ الى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة وكان فى جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذى كان صاحب الرملة ونابلس فلما حالف صلاح الدين قال له ماعمل أحد فى الاسلام ماعملت ولا هلك من الفرنج مثل ماهلك منهم هذه المدة فاننا أحصينا من خرج الينا فى البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل ماعاد منهم الى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلته أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة اذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وعادت كل طائفة الى بلادها وأقام بالساحل الشامى ملكا على الفرنج والبلاد التى بأيديهم الكندهرى وكان خير الطبع قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم وتزوج بالملكة التى كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين كما ذكرناه وأما صلاح الدين فانه بعد تمام الهدنة سار الى البيت المقدس وأمر باحكام سوره وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه فلم يمكنه ذلك فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميرا اسمه جورديك وهو من المماليك النورية ولما سار عنه جعل طريقه على الثغور الاسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت وتعهد هذه البلاد وأمر باحكامها فلما كان فى بيروت أتاه بيمند صاحب انطاكية وأعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده فلما عاد رحل صلاح الدين الى

لم يبق له سوى سجادة يجلس عليها وولى الخلافة بعده بمصر ولده ابو القاسم المستعلى بالله * (وفى سنة ثمان وثمانين واربعمائة) قتل تتش بن الب أرسلان قتله ابن أخيه بركيارق وفيها قتل أحمدخان صاحب سمرقند قتله علماؤها بعد ثبوت زندقته خنقا وولى بعده ابن عمه مسعود وكان لتتش ولدان رضوان والآخر دقاق فملك رضوان حلب ودقاق دمشق (وفى هذه السنة) توفى المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية مسجونا باغمات وله أشعار مشهورة وأخبار حسنة ومن شعره حين جاءته بناته يوم عيد وهو فى السجن

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا
فجاءك العيد فى اغمات مأسورا
ترى بناتك فى الاطمار جائعة
يغزلن للناس مايملكن قطميرا
يطأن فى الطين والاقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا
فردك الامر منهيا ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به
فانما بات بالاحلام مغرورا

دمشق فدخلها فى الخامس والعشرين من شوال وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الاسلام

﴿ذكر وفاة قلج أرسلان﴾

فى هذه السنة منتصف شعبان توفى الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقى بمدينة قونية وكان له من البلاد قونية وأعمالها واقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك من البلاد وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة الى بلاد الروم فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا اليه وحجر عليه ولده قطب الدين وكان قلج ارسلان قد استناب فى مدينة ملكه رجلا يعرف باختيار الدين حسن فلما غلب قطب الدين على الامر قتل حسنا ثم أخذ والده وسار به الى قيسارية ليأخذها من أخيه الذى سلمها اليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج ارسلان فرصة فهرب ودخل قيسارية وحده فلما علم قطب الدين ذلك عاد الى قونية واقصرا فملكهما ولم يزل قلج ارسلان يتحول من ولد الى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى الى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلوا فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر وسار هو ومعه الى قونية فملكها وسار الى اقصرا ومعه والده قلج ارسلان فحصرها فمرض أبوه فعاد به الى قونية فتوفى بها ودفن هناك وبقى ولده غياث الدين فى قونية مالكا لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان على مانذكره ان شاء الله تعالى وقد حدثنى بعض من أثق اليه من أهل العلم بما يحكيه وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا ونحن نذكره قال ان قلج ارسلان قسم بلاده بين أولاده فى حياته فسلم دوقاط الى ابنه ركن الدين سليمان وسلم قونية الى ولده كيخسرو غياث الدين وسلم انقرة وهى التى تسمى انكورية الى ولده محيى الدين وسلم ملطية الى ولده معز الدين قيصرشاه وسلم ابلستين الى ولده مغيث الدين وسلم قيسارية الى ولده نور الدين محمود وسلم سيواس واقصرا الى ولده قطب الدين وسلم نكسار الى ولد آخر وسلم اماسيا الى ولد أخيه هذه أمهات البلاد وينضاف الى كل بلد من هذه مايجاورها من البلاد الصغار التى ليست مثل هذه ثم انه ندم على ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الاكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به فلما سمع باقى أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم فسار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدة وينتقل الى الآخر ثم انه مضى الى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته فخرج اليه ولقيه وقبل الارض بين يديه وسلم قونية اليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو أريد أسير الى ولدى الملعون محمود وهو صاحب قيسارية وتجىء أنت معى لآخذها منه فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية فمرض قلج ارسلان وتوفى عليها فعاد كيخسرو وبقى كل واحد من الاولاد على البلد التى بيده وكان قطب الدين صاحب اقصرا وسيواس اذا أراد أن يسير من احدى المدينتين الى الاخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود وليست على طريقه انما كان يقصدها ليظهر المودة لاخيه والمحبة له وفى نفسه الغدر فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به ففى بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط فقتله قطب الدين وألقى رأسه الى أصحابه وأراد أخذ البلد فامتنع من به من اصحاب اخيه عليه ثم انهم سلموه اليه على قاعدة استقرت بينهم وكان عند محمود امير كبير وكان يحذره من اخيه قطب الدين ويخوفه فلم يصغ اليه وكان جوادا كثير الخير والتقدم فى الدولة عند نور الدين

(وفى هذه السنة) ترك الغزالى درس النظامية ببغداد ولبس الخشن وتوجه الى الحجاز ثم عاد الى بغداد وسار الى خراسان (وفى سنة احدى وتسعين وأربعمائة) خرجت الفرنج وحاصروا انطاكية سبعة أشهر فأخذوها عنوة وخرج اليهم المسلمون فانكسروا وتبعهم الفرنج الى المعرة وقتلوا وفتكوا وأقاموا بها وقتلوا فيها مائة ألف مسلم وبعد أربعين يوما ساروا الى حمص وصالحهم أهلها ثم توجهوا الى القدس وحاصروها نيفا وأربعين يوما فأخذوها وقتلوا فيها مايزيد على سبعين ألفا فى المسجد الاقصى وغنموا من الاموال مالا يقع عليه احصاء (وفى سنة خمس وتسعين) توفى المستعلى بأمر الله وكانت خلافته سبع سنين وكان المدبر لدولته الافضل بن أمير الجيوش وبويع بالخلافة ولده أبو على منصور ولقب الآمر بأحكام الله واستمرت الفرنج عائثين فى بلاد الاسلام يحاصرون البعض ويأخذون البعض وملوك المسلمين مشتغلون بقتال بعضهم بعضا وحصرت

فلما قتل قطب الدين اخاه قتل حسنا معه وألقاه على الطريق فجاء كلاب يأ كل من لحمه فثار الناس وقالوا الاسمعا ولا طاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وافعال حسنة لا نتركه تأ كله الكلاب فأمر به فدفن فى مدرسته وبقى اولاد قلج ارسلان على حالهم ثم ان قطب الدين مرض ومات فسار اخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط الى سيواس وهى تجاوره فملكها ثم سار منها الى قيسارية واقصرا ثم بقى مديدة وسار الى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها وفارقها غياث الدين الى الشام ثم الى بلاد الروم وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى ثم سار بعد ذلك الى ركن الدين الى نكسار واماسيا فملكها وسار الى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها وفارقها أخوه معز الدين الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان هذا معز الدين تزوج ابنة للعادل فاقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الاخوة ماعدا انقرة فانها منيعة لا يوصل اليها فجعل عليها عسكرا يحصرها صيفا وشتاء ثلاث سنين فتسلمها سنة احدى وستمائة ووضع على أخيه الذى كان بها من يقتله اذا فارقها فلما سار عنها قتل وتوفى ركن الدين فى تلك الايام ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وانما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا ولانى لم أعلم تواريخ كل حادثة منها الا انبته فيه

﴿ذكر ملك شهاب الدين اجير وغيرها من الهند﴾

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغورى الى بلاد الهند وانهزامه وبقى الى الآن وفى نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة وقد جمع عساكره وسار فى طلب غزوة الهندى الذى هزمه تلك النوبة فلما وصل الى برشاور تقدم اليه شيخ من الغورية كان يدل عليه فقال له قد قربنا من العدو وما يعلم أحد أين يمضى ولا من يقصد ولا ترد على الامراء سلاما وهذا لا يجوز فعله فقال له السلطان اعلم أننى منذ هزمنى هذا الكافر مانمت مع زوجتى ولا غيرت ثياب البياض عنى وأنا سائر الى عدوى ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم فان نصرنى الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وان انهزمنا فلا تطلبونى فانى انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل فقال له الشيخ سوف ترى بنى عمك من الغورية ما يفعلون فينبغى أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك وبقى امراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل وسار الى أن وصل الى موضع المصاف الاول وجازه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو فلما سمع الهندى تجهز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين فلما بقى بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه والكافر فى أعقابه أربع منازل فارسل الكافر اليه يقول له أعطى يدك انك تصافقنى فى باب غزنة حتى اجىء وراءك والا فنحن متقابلون ومثلك لا يدخل البلاد شبيه اللصوص ثم يخرج هاربا ما هذا فعل السلاطين فاعاد الجواب انى لا أقدر على حربك وتم على حاله عائدا الى أن بقى بينه وبين بلاد الاسلام ثلاثة أيام والكافر فى اثره يتبعه حتى لحقه قريبا من مرنده فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفا وقال أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك وطلع الفجر ومن عادة الهنود انهم لا يبرحون من مضاجعهم الى أن تطلع الشمس فلما أصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكوسات فلم يلتفت ملك الهند الى ذلك وقال من يقدم على انا هذا والقتل قد كثر فى الهنود والنصر قد ظهر للمسلمين فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرسا له

الافرنج طرابلس واستمر القتال بينهم وبين المسلمين خمس سنين (ودخلت سنة خمسمائة) وفيها توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ملك الغرب والاندلس وكان لبس السلطنة جاءه من الخليفة المستظهر ببغداد وكان حسن السيرة وهو بانى مدينة مراكش وملك بعده البلاد ابنه على ولقب أمير المسلمين أيضا (وفى سنة ثلاث وخمسمائة) ملك الفرنج مدينة طرابلس بالسيف وخاف المسلمون (وفى سنة أربع وخمسمائة) سلموا صيدا بالامان وصالح رضوان صاحب حلب الفرنج على اثنين وثلاثين ألف دينار يحملها مع خيل وثياب وصالحهم أهل صور على سبعة آلاف دينار وصالحهم ابن منقذ صاحب شيرز على أربعة آلاف دينار وصالحهم على الكردى صاحب حماة على ألفى دينار (وفى هذه السنة) توفى الكيا الطبرى ومعنى الكيا الكبير القدر المقدم بين الناس واسمه أبو الحسن على بن محمد بن على مولده سنة خمس وأربعمائة وكان حسن الصورة والصوت فصيح العبارة تفقه على امام

سابقا وركبه ليهرب فقال له اعيان اصحابه انك حلفت لنا انك لا تخلينا وتهرب فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر فى اصحابه فانتهى المسلمون اليه واخذوه اسيرا وحينئذ عظم القتل والاسر فى الهنود ولم ينج منهم الا القليل واحضر الهندى بين يدى شهاب الدين فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه الى الارض حتى اصابها جبينه واقعده بين يدى شهاب الدين فقال له شهاب الدين لو استأسرتنى ما كنت تفعل بى فقال الكافر قد استعملت لك قيدا من ذهب أقيدك به فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك وغنم المسلمون من الهنود أموالا كثيرة وأمتعة عظيمة وفى جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذى جرح شهاب الدين فى تلك الوقعة وقال ملك الهند لشهاب الدين ان كنت طالب بلاد فما بقى فيها من يحفظها وان كنت طالب أموال فعندى أموال تحمل أجمالك فسار شهاب الدين وهو معه الى الحصن الذى له يعول عليه وهو اجير فأخذه وأخذ جميع البلاد التى تقاربه وأقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين ايبك وعاد الى غزنة وقتل ملك الهند

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد وكان نعم الامير عادلا فى الحاج رفيقا بهم محبا لهم له أوراد كثيرة من صلوات وصيام وكان كثير الصدقة لا جرم وقفت أعماله بين يديه فخلص من السجن على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها خرج السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل ارسلان بن ايلدكز والتقى هو وقتلغ اينانج بن البهلوان بن ايلدكز فانهزم اينانج الى الرى على ما نذكره ان شاء الله تعالى سنة تسعين وخمسمائة وفيها فى رجب توفى الامير السيد على بن المرتضى العلوى الحنفى مدرس جامع السلطان ببغداد وفى شعبان منها توفى أبو على الحسن بن هبة الله بن البوقى الفقيه الشافعى الواسطى وكان عالما بالمذهب انتفع به الناس

﴿ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته﴾

فى هذه السنة فى صفر توفى صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة وكان سبب مرضه انه خرج يتلقى الحاج فعاد ومرض من يومه مرضا حادا بقى به ثمانية أيام وتوفى رحمه الله وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الافضل عليا وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل وقال قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا فى هذه البلاد شاغل فأى جهة نقصد فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لانه كان قد وعده اذا أخذها ان يسلمها اليه وأشار ولده الافضل بقصد بلد الروم التى بيد أولاد قلج ارسلان وقال هى أكثر بلادا وعسكرا ومالا وأسرع مأخذا وهى أيضا طريق الفرنج اذا خرجوا على البر فاذا ملكناها منعناهم من العبور فيها فقال كلا كما مقصر ناقص الهمة بل أقصد أنا بلد الروم وقال لاخيه تأخذ أنت بعض أولادى وبعض العسكر وتقصد خلاط فاذا فرغت أنا من بلد الروم جئت اليكم وندخل منها اذربيجان ونتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها ثم أذن لاخيه العادل فى المضى الى الكرك وكان له وقال له تجهز واحضر لتسير فلما سار الى الكرك مرض صلاح الدين وتوفى قبل عوده وكان رحمه الله كريما حليما حسن الاخلاق متواضعا صبورا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب

الحرمين وولى درس النظامية (وفيها) قال ابن خلكان أو فى سنة احدى عشرة وخمسمائة قصد بردويل الفرنجى صاحب القدس وعكا وغيرهما ديار مصر ووصل الى الفرما وحرقها جميعها ورحل عنها وهو مريض فهلك قبل ان يصل الى العريش فشق أصحابه بطنه ورموا كرشه هناك وهى ترجم بالحجارة الى اليوم وتسمى بقبر بردويل فى طريق مصر وجثته نقلت الى القدس ودفنوها بالقمامة (وفيها) توفى الامام أبو حامد الغزالى زين الدين الطوسى ومولده سنة خمسين واربعمائة (وفى سنة سبع وخمسمائة) حصل بين المسلمين والفرنج قتال عظيم بالقرب من طبرية ونصر الله المسلمين وعادوا الى دمشق منصورين وقتلوا من الفرنج ماشاء الله (وفيها) توفى رضوان صاحب حلب وملكها ولده ألب أرسلان الاخرس لقب بذلك لانه كان تمتاما (وفيها) توفى الامام اسمعيل بن أحمد بن الحسين البيهقى بيبهق ومولده سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (وفيها) توفى الشاعر محمد ابن أحمد الابيوردى ومن شعره

أصحابه يسمع من أحدهم مايكره ولايعلمه بذلك ولا يتغير عليه و بلغني أنه كان جالسا وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بعضا بسرموز فأخطأته و وصلت الى صلاح الدين فأخطأته و وقعت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال ياأصحابنا والله قد قتلني العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التواني في احضاره وكان مرة قد مرض مرضا شديدا أرجف عليه بالموت فلما برئ منه وأدخل الحمام كان الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شئ على الارض فناله منه شئ فتألم له لضعفه ثم طلب البارد أيضا فأحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام ان كنت تريد قتلي فعرفني فاعتذر اليه فسكت عنه وأما كرمه فانه كان كثير البذل لايقف في شئ يخرجه و يكفي دليلا على كرمه انه لما مات لم يخلف في خزانته غير دينار واحد صوري وأربعين درهما ناصرية و بلغني انه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس و بغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فانه لايدخل تحت الحصر ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الانواع مايفوت الاحصاء ففرقه جميعه وأما تواضعه فانه كان ظاهرا لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية و يعمل لهم السماع فاذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير ولم يلبس شيأ مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث وأسمعه و بالجملة فكان نادرا في عصره كثير المحاسن والافعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار وفتوحه تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا

﴿ذكر حال أهله وأولاده بعده﴾

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل نور الدين علي وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياته فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس و بعلبك وصرخد و بصرى و بانياس وهونين وتبنين وجميع الاعمال الى الداروم وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز و برزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل وكان الملك العادل بالكرك قد سار اليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه فأرسل اليه الملك الافضل يستدعيه ليحضر عنده فوعد ولم يفعل فأعاد مراسلته وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ومن أتابك عز الدين بن صاحب الموصل فانه كان قد سار عنها الى بلاد العادل الجزرية على ماننذكره و يقول له ان حضرت جهزت العساكر وسرت الى بلادك حفظتها وان أقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بيننا من العداوة واذا ملك عز الدين بلادك فليس له دون الشام مانع وقال لرسوله ان حضر معك والا فقل له قد أمرني ان سرت اليه بدمشق عدت معك وان لم تفعل أسير الى الملك العزيز احالفه على ماتختار فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء فلما رأى انه ليس معه منه شئ غير الوعد أبلغه ماقيل له في معنى موافقة العزيز فحينئذ سار الى دمشق وجهز الافضل معه عسكرا من عنده وأرسل الى صاحب حمص وصاحب حماة والى أخيه الملك الظاهر بحلب يحثهم على انفاذ العساكر مع العادل الى البلاد الجزرية

ليمنعها

تنكر لي دهري ولم يدر انني
أعز واحوال الزمان تهون
وظل يريني الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون

(وفي سنة ثمان وخمسمائة) قتل ألب أرسلان الاخرس صاحب حلب وولي مكانه أخوه سلطان شاه بن رضوان قتله غلمانه بالقلعة (وفي سنة تسع وخمسمائة) توفي الشهرزوري المرتضى كان مشهورا ابا الفضل وله شعر رائق فمن شعره قصيدته التي على طريقة الصوفية ولقد أحسن فيها وهي قليلة الوجود مطلوبة (حكي) عن بعض المشايخ انه رأى في النوم قائلا يقول ماقيل في الطريق مثل القصيدة الموصلية يعني هذه وهي طويلة وقد كتبناها في آخر هذا الكتاب وأولها

لمعت نارهم وقد عسعس الليل وكل الحادي وحار الدليل
فتأملتها وفكري من البين عليل ولحظ عيني كليل
وفؤادي ذاك الفؤاد المعنى وغرامي ذاك الغرام الدخيل

(وفي سنة احدى عشرة وخمسمائة) مات السلطان محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان وكان قد قارب ملك أبيه ملكشاه ولقي

يمنعها من صاحب الموصل ويخوفهم ان هم لم يفعلوا ومما قال لاخيه الظاهر قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حران ليقومن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لا تعقل وكذلك يفعل في أهل دمشق فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه فجهزوا عساكرهم وسيروها الى العادل وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الريحان وسنذكر ما كان منه ان شاء الله تعالى

﴿ذكر مسير أتابك عز الدين الى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه﴾

لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على كل من فيها وهو نائبه فيهم واستشارهم فيما يفعل فسكتوا فقال له بعضهم وهو أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك أنا أرى انك تخرج مسرعا جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص وتتقدم الى الباقين باللحاق بك وتعطي من هو محتاج الى شئ مايتجهز به و يلحق بك الى نصيبين وتكاتب أصحاب الاطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل وسنجرشاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر وأخاك عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين تعرفهم انك قد سرت وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم اليمين على مايلتمسونه فتى رأوك قد سرت خافوك وان أجابك أخوك صاحب سنجار ونصيبين الى الموافقة والا بدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها ثم سرت نحو الخابور وهو له أيضا فاقطعه وتركت عسكره مقابل أخيك يمنعه من الحركة ان أرادها أو قصدت الرقة فلا تمنع نفسها وتأتي حران والرها فليس فيهما من يحفظهما الاصاحب ولا عسكر ولا ذخيرة فان العادل أخذهما من ابن تقي الدين ولم يقم فيهما ليصلح حالهما وكان القوم يتكلمون على قوتهم فلم يظنوا هذا الحادث فاذا فرغت من ذلك الطرف عدت الى من امتنع من طاعتك فقاتلته وليس وراءك ماتخاف عليه فان بلدك عظيم لايبالي بكل من وراءك فقال مجاهد الدين المصلحة اننا نكاتب أصحاب الاطراف ونأخذ رأيهم في الحركة ونستميلهم فقال له أخي ان أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم قال لا قال فانهم لايشيرون الا بتركها الانهم لا يرون أن يقوى هذا السلطان خوفا منه وكاني بهم يغالطونكم مهما كانت البلاد الجزرية فارغة من صاحب وعسكر فاذا جاءها من يحفظها جاهروكم بالعداوة ولم يمكنه أكثر من هذا القول خوفا من مجاهد الدين حيث رأى ميله الى ماتكلم به فانفصلوا على ان يكاتبوا أصحاب الاطراف فكاتبوهم فكل أشار بترك الحركة الى ان ينظر مايكون من أولاد صلاح الدين وعمهم فتثبط ثم ان مجاهد الدين كرر المراسلات الى عماد الدين صاحب سنجار يعده و يستميله فبينماهم على ذلك اذجاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق وقد سار عن دمشق الى بلاده يذكر فيه موت أخيه وان البلاد قد استقرت لولده الملك الافضل والناس متفقون على طاعته وانه هو المدبر لدولة الافضل وقد سيره في عسكر جم كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه ان صاحبها تعرض الى بعض القرى التي له وذكر من هذا النحو شيأ كثيرا فظنوه حقا وان قوله لاريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأي فسيروا الجواسيس فأتتهم الاخبار بانه في ظاهر حران من نحو مائتي خيمة لاغير فعادوا فتحركوا الى ان تقررت القواعد بينهم و بين صاحب سنجار وأقبلت العساكر الشامية التي سيرها الافضل وغيره الى العادل فامتنع بها وسار أتابك عز الدين من الموصل الى نصيبين واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها وساروا الى سنجار نحو الرها وكان العادل قد عسكر قريبا منها

مشاق كثيرة وكان حسن السيرة أطلق المكوس والضرائب في سائر مملكته وعهد بالملك الى ولده محمود وخاف أهل حلب من الفرنج وسلموها الى ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين فارسل اليها ولده تمرتاش واستمر تحت حكم ايلغازي بن ارتق *(وفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة) توفي المستظهر بالله احمد بن المقتدي بامر الله وعمره احدى وأربعون سنة ونصف وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر ومن الاتفاق الغريب أنه لما توفي السلطان ألب ارسلان توفي بعده القائم بامر الله ولما توفي السلطان ملكشاه توفي المقتدي بامر الله ولما توفي السلطان محمد توفي بعده المستظهر بالله وبويع بالخلافة ولده المسترشد بالله أبو المنصور فضل بن احمد وهو تاسع عشرهم *(وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة) وقع بين محمود بن السلطان محمد وبين عمه سنجر واشتركا في السلطنة وفيها كانت وقعة عظيمة بين ايلغازي وبين الفرنج عند عفرين حلب وانتصر فيها

بعرج الريحان نخافهم خوفا عظيما فلما وصل أتابك عز الدين الى تل موزن مرض بالاسهال فأقام عدة أيام فضعفت منه الحركة وكثر مجيء الدم منه نخاف الهلاك فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وعاد جريدة فى مائتى فارس ومعه مجاهد الدين وأخى مجد الدين فلما وصل الى دنيسر استولى عليه الضعف فاحضر أخى وكتب وصية ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب

(ذكر وفاة أتابك عز الدين وشئ من سيرته)

فى هذه السنة توفى أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وقد ذكرنا عوده اليها مريضا فبقى فى مرضه الى التاسع والعشرين من شعبان فتوفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى انشأها مقابل دار المملكة وكان قد بقى ما يزيد على عشرة أيام لا يتكلم الا بالشهادتين وتلاوة القرآن واذا تكلم بغيرها استغفر الله ثم عاد الى ما كان عليه فرزق خاتمة خير رضى الله عنه وكان رحمه الله خير الطبع كثير الخير والاحسان لاسيما الى شيوخ قد خدموا أباه فانه كان يتعهدهم بالبر والاحسان والصلة والاكرام ويرجع الى قولهم ويزور الصالحين ويقربهم ويشفعهم وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليسه الا وهو مطرق وما قال فى شئ يسئله لا حياء وكرم طبع وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج الى مسجد قد بناه فى داره ويصلى فيه نحو ثلث الليل وكان رقيق القلب شفيقا على الرعية بلغنى عنه أنه قال بعض الايام انى سهرت الليلة كثيرا وسبب ذلك أنى سمعت صوت نائحة فظننت ان ولد فلان قد مات وكان قد سمع انه مريض قال فضاق صدرى وقمت من فراشى أدور فى السطح فلما طال على الامر أرسلت خادما الى الجاندارية فأرسل منهم واحدا يستعلم الخبر فعاد وذكر انسانا لا أعرفه فسكن بعض ما عندى فنمت ولم يكن الرجل الذى ظن أن ابنه مات من أصحابه انما كان من رعيته كان ينبغى ان تتأخر وفاته وانما قدمناها لتتبع أخباره بعضها بعضا

(ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط)

فى هذه السنة أول جمادى الاولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران فانه أسرف فى اظهار الشماتة بموت صلاح الدين فلم يمهله الله تعالى ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحا كثيرا وعمل تختا جلس عليه ولقب نفسه بالسلطان المعظم صلاح الدين وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبد العزيز وظهر منه اختلال وتخليط وتجهز ليقصد ميافارقين يحصرها فادركته منيته وكان سبب قتله ان هزار ديناري وهو أيضا من مماليك شاه أرمن ظهير الدين كان قد قوى وكثر جمعه وتزوج ابنة بكتمر فطمع فى الملك فوضع عليه من قتله فلما قتل ملك بعده هزار ديناري بلاد خلاط وأعمالها وكان بكتمر دينا خيرا صالحا كثير الخير والصلاح والصدقة محبا لاهل الدين والصوفية كثير الاحسان اليهم قريبا منهم ومن سائر رعيته محبوبا اليهم عادلا فيهم وكان جوادا شجاعا عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة فى برشاور وجهز مملوكه أيبك فى عساكر كثيرة فادخله بلاد الهند يغنم ويسبى ويفتح من البلاد ما يمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالما قد ملؤا أيديهم من الغنائم وفيها فى رمضان توفى سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان وملك أخوه علاء الدين تكش بلاده وسنذكره سنة تسعين ان شاء الله وفيها أمر الخليفة

المسلمون وبما مدح به
ابا الغازى بسبب هذه
الوقعة
قل ما تشاء فقولك المقبول
وعليك بعد الخالق التعويل
استبشر القرآن حين
نصرته
وبكى لفقد رجاله الانجيل
وفيها كانت وقعة بين
العرب والفرنج واسر
عددا كثيرا وفيها ظهر قبر
الخليل وولديه اسحق
ويعقوب عليهم السلام
بالقرب من بيت المقدس
ورآهم كثير من الناس
ولم تبل أجسادهم وعندهم
فى المغارة قناديل من
ذهب وفضة (وفى سنة
أربع عشرة وخمسمائة)
كان ابتداء أمر محمد بن
تومرت وملك عبد المؤمن
المغرب وهو محمد بن عبد الله
ابن تومرت العلوى
الحسينى من قبيلة
المصامدة من جبل
السوس رحل الى المشرق
وأتقن العلوم وعاد مرشدا
لقومه منكرا عليهم ترك
الصلوات ولما وصل الى
قرية اسمها ملالة بالقرب
من بجاية اتصل به عبد
المؤمن وسار معه وتلقب
ابن تومرت بالمهدى
ووصل الى مراكش
وشدد فى الامر بالمعروف

الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل اليها من الكتب النفيسة ألوفا لا يوجد مثلها وفيها فى ربيع الاول فرغ من عمارة الرباط الذى أمر بانشائه الخليفة أيضا بالحريم الظاهرى غربى بغداد على دجلة وهو من أحسن الربط ونقل اليه كتبا كثيرة من أحسن الكتب وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان وسبب ذلك ان صاحبها سوسيان بن شملة جعل فيها دزدارا فاساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار الخليفة فأرسل اليها وملكها وفيها انقض كوكبان عظيمان وسمع صوت هدة عظيمة وذلك بعد طلوع الفجر وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار وفيها مات الامير داود بن عيسى بن محمد بن أبى هاشم أمير مكة وما زالت مكة تكون له تارة ولاخيه مكثر تارة الى أن مات

(ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى)

كان شهاب الدين الغورى ملك غزنة قد جهز مملوكه قطب الدين وسيره الى بلد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد فلما سمع به ملك بنارس وهو أكبر ملك فى الهند ولايته من حد الصين الى بلاد ملا واطولا ومن البحر الى مسيرة عشرة أيام من لهاور عرضا وهو ملك عظيم فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الاسلام ودخلت سنة تسعين فسار شهاب الدين الغورى من غزنة بعساكره نحوه فالتقى العسكران على ماخون وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل وكان مع الهندى سبعمائة فيل ومن العسكر على ما قيل ألف ألف رجل ومن جملة عسكره عدة أمراء مسلمين كانوا فى تلك البلاد أبا عن جد من أيام السلطان محمود بن سبكتكين يلازمون شريعة الاسلام ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم فانهزم الكفار ونصر المسلمون وكثر القتل فى الهنود حتى امتلأت الارض وجافت وكانوا لا يأخذون الا الصبيان والجوارى وأما الرجال فيقتلون وأخذ منهم تسعين فيلا وباقى الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها وقتل ملك الهند ولم يعرفه أحد الا انه كانت اسنانه قد ضعفت أصولها فامسكوها بشريط الذهب فلذلك عرفوه فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل وعاد الى غزنة ومعه الفيلة التى أخذها من جملتها فيل أبيض حدثنى من رآه لما أخذت الفيلة وقدمت الى شهاب الدين وأمرت بالخدمة فخدمت جميعها الا الابيض فانه لم يخدم ولا يعجب أحد من قولنا الفيلة تخدم فانها تفهم ما يقال لها ولقد شاهدت فيلا بالموصل وفياله يحدثه فيفعل ما يقول له

(ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الرى ووفاة أخيه سلطان شاه)

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب ارسلان السلجقى من الحبس وملكه همذان وغيرها وكان قد جرى بينه وبين قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصن بالرى وسار طغرل الى همذان وأرسل قتلغ اينانج الى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده فسار اليه فى سنة ثمان وثمانين فلما تقارب اندم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصن فى قلعة له فوصل خوارزم شاه الى الرى وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها فى يومين وراسله طغرل واصطلحا وبقيت الرى فى يد خوارزم شاه فرتب فيها عسكرا

والنهى عن المنكر وكثر
اتباعه واستحضره على بن
يوسف بن تاشفين وجمع
عليه الفقهاء وناظرهم
وقطعهم فقال له وزيره
مالك بن وهيب هذا غرضه
الملك ألبسه نكلا
او يسمعك طبلا فلم يقبل
وأمر باخراجه من مراكش
فسار الى اغمات واجتمع عليه
الناس وتفحل أمره
وبايعه عبد المؤمن بن على
فى جماعة من الناس فارسل
اليه أمير المسلمين جيشا
فكسره فعظم أمره
وأقبلت اليه القبائل
يبايعونه على انه المهدى
الموعود به وسمى الذين
يتبعونه الموحدين قيل انه
قتل سبعين ألفا كان يخافها
بالحيل منها أنه قال اعطانى
الله تعالى نورا أعرف به
أهل الجنة من أهل النار
وخرج بالناس الى جبل
وجعل يقول عمن يأمنه
هذا من أهل الجنة وعمن
يخافه هذا من أهل النار
فيلقى من أعلى الجبل
ميتا وبلغ جيشه الذى
جهزه أربعين ألفا
ومقدمهم عبد المؤمن
واستمر على العلو والعظمة
الى سنة أربع وعشرين
وخمسمائة فجهز عبد المؤمن
جيشه العظيم وحاصر أمير

يحفظها وعاد الى خوارزم لانه بلغه ان أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فجد فى السير خوفا عليها فأتاه الخبر وهو فى الطريق ان أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائبا فشتى خوارزم شاه بخوارزم فلما انقضى الشتاء سار الى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين فترددت الرسل بينهما فى الصلح فبينما هم فى تقرير الصلح واذ قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لاخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم اليه القلعة لانه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه فسار خوارزم شاه اليه مجدا فتسلم القلعة وصار معه وبلغ ذلك سلطان شاه فغص ذلك فى عضده وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته الى مرو فتسلمها وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه وأرسل الى ابنه علاء الدين محمد وكان يلقب حينئذ قطب الدين وهو بخوارزم فاحضره فولاه نيسابور وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو وذلك فى ذى الحجة سنة تسع وثمانين فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلد الرى فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه فقرمنه قتلغ اينانج بن البهلوان وارسل الى خوارزم شاه يعتذر ويسأل انجاده مرة ثانية ووافق ذلك وصول رسول الخليفة الى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور باقطاعه البلاد فسار من نيسابور الى الرى فتلقاه قتلغ اينانج ومن معه بالطاعة وسار وامعه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة فلم يقف ليجمعها بل سار اليه فيمن معه فقيل له ان الذى تفعله ليس برأى والمصلحة ان تجمع العساكر فلم يقبل وكان فيه شجاعة بل تمم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الرى فحمل طغرل بنفسه فى وسط عسكر خوارزم شاه فاحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول وحمل رأسه الى خوارزم شاه فسيره من يومه الى بغداد فنصب بها بباب النوبى عدة أيام وسار خوارزم شاه الى همذان وملك تلك البلاد جميعها وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير عسكرا الى نجدة خوارزم شاه وسير له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب فنزل على فرسخ من همذان فأرسل اليه خوارزم شاه يطلبه اليه فقال مؤيد الدين ينبغى ان تحضر انت وتلبس الخلعة من خيمتى وترددت الرسل بينهما فى ذلك فقيل لخوارزم شاه انها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك فدخل خوارزم شاه اليه قصد الاخذه فاندفع بين يديه الى بعض الجبال فامتنع به فرجع خوارزم شاه الى همذان ولما ملك همذان وتلك البلاد سلمها الى قتلغ اينانج واقطع كثيرا منها المماليكه وجعل المقدم عليهم مياجق وعاد الى خوارزم

﴿ذكر مسير وزير الخليفة الى خوزستان وملكها﴾

فى هذه السنة فى شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب فى الوزارة مؤيد الدين أبى عبد الله محمد بن على المعروف بابن القصاب خلع الوزارة وحكم فى الولاية وبرز فى رمضان وسار الى بلاد خوزستان وولى الاعمال بها وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف وعرف البلاد ومن أى وجه يمكن الدخول اليها والاستيلاء عليها فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بان يرسله فى عسكر اليها ليملكها له وكان عزمه انه اذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهر الطاعة مستقلا بالحكم فيها ليأمن على نفسه فاتفق ان صاحبها ابن شملة توفى واختلف أولاده بعده فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة فقوى الطمع فى البلاد فجهزت

مراكش عشرين يوما ثم انهزم سالما فبلغ ذلك محمد ابن تومرت فامر الناس بنصرة عبد المؤمن واخبرهم انه يفتح البلاد واغناهم المسلمون فقبلوا ذلك منه ثم مرض محمد بن تومرت ومات وكان عمره احدى وخمسين سنة ومدة ولايته عشر سنين وعاد عبد المؤمن الى سهل يؤلف قلوب الناس ثم استولى على الجبال ثم تقابل هو وتاشفين بن على بن تاشفين ووقع تاشفين عن فرسه فمات وملك عبد المؤمن غالب بلاده ثم ملك فاس بالامان فى آخر سنة أربعين وخمسمائة وفتح سلا ثم سار الى مراكش وقد مات على بن يوسف بن تاشفين فحاصر ابن ابنه اسحق احد عشر شهرا ثم فتحها بالسيف وضرب عنق اسحق وهو صبى صغير وبه انقرضت دولة المرابطين وكانت مدة ملكهم سبعين سنة فسبحان من لا يبيد ملكه

(وفى سنة خمس عشرة وخمسمائة) قتل الافضل ابن أمير الجيوش بمصر كان قد تولى الوزارة بعد وفاة والده وخلف من الاموال مالم يسمع بمثلها قال صاحب الدول المنقطعة خلف ستمائة ألف ألف

العساكر وسيرت معه الى خوزستان فوصلها سنة احدى وتسعين وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها وملك مدينة تستر فى المحرم وملك غيرها من البلاد وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الاموج وغيرها من الحصون والقلاع وأنفذ بنى شملة أصحاب بلاد خوزستان الى بغداد فوصلوا فى ربيع الاول

﴿ذكر حصر العزيز مدينة دمشق﴾

فى هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وهو صاحب مصر الى مدينة دمشق فحصرها وبها أخوه الاكبر الملك الافضل على بن صلاح الدين وكنت حينئذ بدمشق فنزل بنواحى ميدان الحصى فأرسل الافضل الى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان الافضل غاية الواثق به والمعتمد عليه وقد سبق ما يدل على ذلك فسار الملك العادل الى دمشق هو والملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم ان العزيز ان ملكها أخذ بلادهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم انه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ فى الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من اعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية واعمالها الغور للافضل على ما كانت عليه وان يعطى الافضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من الملوك الى بلده

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة كانت زلزلة فى ربيع الاول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبانة التى عند مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام وفيها فى جمادى الآخرة اجتمعت زغب وغيرها من العرب وقصدوا مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم هاشم بن قاسم أخو أمير المدينة فقاتلهم فقتل هاشم وكان أمير المدينة قد توجه الى الشام فلهذا طمعت العرب فيه وفيها توفى القاضى أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسى الحلبى بها فى شعبان وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى

﴿ثم دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم﴾

قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان فلما ملكها سار منها الى ميسان من اعمال خوزستان فوصل اليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد وقد تقدم ذكر تغلب خوارزم شاه عليها ومعه جماعة من الامراء فاكرمه وزير الخليفة وأحسن اليه وكان سبب مجيئه انه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان واقتتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره وقصد عسكر الخليفة ملتجئا الى مؤيد الدين الوزير فاعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج اليه وخلع عليه وعلى من معه من الامراء ورحلوا الى كرمانشاه ورحل منها الى همذان وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذين معهما فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا الى الرى واستولى الوزير على همذان فى شوال من هذه السنة ثم رحل هو وقتلغ اينانج خلفهم فاستولوا على كل بلد جازوا به

دينار عينا ومائتين وخمسين أردبا دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس وثلاثين راحلة من حقاق ذهب عراقى ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب كل مسمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بكون من الالوان أى ما أحب منها ألبسه وخمسمائة صندوق كسوة بخاصته من رق تنيس ودمياط وخلف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب والطيب والتجمل والحلى مالم يعلم قدره الا الله وخلف من البقر والجواميس والغنم ما يستحيا من ذكر عددها وضمان البانها فى سنة وفاته ثلاثين ألف دينار ووجد فى تركته صندوقان كبيران فيهما ابر ذهب برسم النساء والجوارى هكذا ذكر ابن خلكان وثب عليه ثلاثة وهو راكب فقتلوه بسوق الصياقلة ثم قطعوه بالسيوف وحمل الى الآمر باحكام الله خليفة مصر من دار الافضل أموال لا تحصى وولى بعده أبو

منها خرقان ومزدغان وساوة وآوة وساروا الى الرى ففارقها الخوارزميون الى خوار الرى فسير الوزير خلفهم عسكرا ففارقها الخوارزميون الى دامغان وبسطام وجرجان فعاد عسكر الخليفة الى الرى فأقاموا بها فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الامراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لانهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه فطمعوا فيها فدخلوا الرى فحصرها وزير الخليفة ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر فأمر الوزير بالنداء بالكف عن النهب وسار قتلغ اينانج ومن معه من الامراء الى مدينة آوة وبها شحنة الوزير فمنعهم من دخولها فسار واعنها ورحل الوزير فى أثرهم نحو همذان فبلغه وهو فى الطريق أن قتلغ اينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج وقد نزل على دربند هناك فطلبهم الوزير فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ورحل الوزير من موضع المصاف الى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزم شاه تكش وكان قد قصدهم منكرا أخذه البلاد من عسكره ويطلب اعادتها وتقرير قواعدها والصلح فلم يجب الوزير الى ذلك فسار خوارزم شاه مجدا الى همذان وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد توفى فى أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة وغنم الخوارزميون منهم شيأ كثيرا وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيره الى خوارزم وأظهروا أنه قتله فى المعركة ثم ان خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب ان يعود اليها فترك البلاد وعاد الى خراسان

﴿ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس﴾

فى هذه السنة فى شعبان غزا أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والاندلس بلاد الفرنج بالاندلس وسبب ذلك أن الفنش ملك الفرنج بها ومقر ملكه مدينة طليطلة كتب الى يعقوب كتابا نسخته باسمك اللهم فاطر السموات والارض أما بعد أيها الامير فانه لا يخفى على كل ذى عقل لازب ولا ذى لب ثاقب انك أمير الملة الحنيفية كما انا أمير الملة النصرانية وانك من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الاندلس من التخاذل والتواكل واهمال الرعية واشتغالهم على الراحات وأنا أسومهم الخسف واخلى الديار وأسبى الذرارى وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عددا منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا ثم حكى لى عنك انك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدرى الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لى عنك أنك لا تجد سبيلا للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها فها أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك ولك ان توفينى بالعهود والمواثيق والايمان ان تتوجه بجملة من عندك فى المراكب والشوانى وأجوز اليك بجملتى وأبارزك فى أعز الاماكن عندك فان كان لك فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهدية مثلت بين يديك وان كانت لى كانت يدى العليا عليك واستحققت امارة الملتين والتقدم على الفئتين والله يسهل الارادة ويوفق السعادة بمنه لا رب غيره ولا خير الا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب فى اعلاه هذه الآية ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود

عبد الله البطائحى وفيها انهدم بعض الركن اليمانى من الكعبة وفيها توفى أبو محمد القاسم بن محمد بن محمد الحريرى مصنف المقامات وكان أشار عليه بتصنيفها أنوشروان بن خالد وزير السلطان محمود وكان الحريرى ينسب الى ربيعة الفرس وهو بصرى المولد ولد سنة ست وأربعمائة (وفيها) توفى الشيخ مؤيد الدين الحسين بن على بن محمد الطغرائى من ولد أبى الاسود الدؤلى من أهل أصفهان وكان خدم السلطان ملكشاه بن الب أرسلان فاستوزره السلطان مسعود فلما انهزم السلطان مسعود من أخيه محمود امسك الطغرائى وقتله صبرا ومن شعره الحسن قصيدته المشهورة بلامية العجم التى أولها

اصالة الرأى صانتنى عن الخطل
وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

قال السلطان محمود لما قتله ثبت عندى فساد عقيدته وكان قد جاوز عمره ستين سنة وكان مولعا بالكيمياء (وفيها) توفى ايلغازى بن ارتق واستقر مكانه بماردين

لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون وأعاده اليه وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز الى الاندلس وقيل كان سبب عبوره الى الاندلس ان يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم بقى طائفة من الفرنج لم ترض الصلح كما ذكرناه فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج وخرجوا الى بلاد الاسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثا شديدا فانتهى ذلك الى يعقوب فجمع العساكر وعبر المجاز الى الاندلس فى جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم وأقبلوا اليه مجدين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالى قرطبة عند قلعة رباح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتتلوا قتالا شديدا فكانت الدائرة أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هى العليا والله عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر ثلاثة عشر ألفا وغنم المسلمون منهم شيأ عظيما فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة ألف وكان يعقوب قد نادى فى عسكره من غنم شيأ فهو له سوى السلاح وأحصى ما حمل اليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفا ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد أخلوا قلعة رباح وساروا عنها من الرعب والخوف فملكها وجعل فيها واليا وجندا يحفظونها وعاد الى مدينة اشبيلية وأما الفنش فانه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حمارا وأقسم ان لا يركب فرسا ولا بغلا حتى تنتصر النصرانية فجمع جموعا عظيمة وبلغ الخبر بذلك الى يعقوب فارسل الى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه فأتاه من المتطوعة والمرتزقين جمع عظيم فالتقوا فى ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والدواب وغيرها وتوجه الى مدينة طليطلة فحصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع أشجارها وشن الغارة على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون فقتل رجالها وسبى حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الاسلام بالاندلس وعاد يعقوب الى اشبيلية فأقام بها فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار عنها الى بلاد الفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح فأجابهم اليه بعد أن كان عازما على الامتناع مريدا الملازمة الجهاد الى ان يفرغ منهم فأتاه خبر على بن اسحق الملثم الميورقى أنه فعل بافريقية ما نذكره من الافاعيل الشنيعة فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين وعاد الى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

﴿ذكر فعلة الملثم بافريقية﴾

لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب الى الاندلس كما ذكرناه وأقام مجاهدا ثلاث سنين انقطعت أخباره عن افريقية فقوى طمع على بن اسحق الملثم الميورقى وكان بالبرية مع العرب فعاود قصد افريقية فانبث جنوده فى البلاد فخربوها وأكثروا الفساد فيها فمحيت آثار تلك البلاد وتغيرت وصارت خالية من الانيس خاوية على عروشها وأراد المسير الى بجاية ومحاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد وأظهر انه اذا استولى على بجاية سار الى المغرب فوصل الخبر الى يعقوب بذلك فصالح الفرنج على ما ذكرناه وعاد الى مراكش عازما على قصده واخراجه من البلاد كما فعله سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه

ابنه تمرتاش واستقر بحلب ابن عمه سليمان بن عبد الجبار بن ارتق الى أن ضعف حاله وهادن الفرنج وسلم اليهم الاثارب وبلغ ذلك ابن عمه ملك بن بهرام ابن ارتق فسار الى حلب فملكها ثم قتل ملك فى سنة ثمان عشرة وخمسمائة فى حصار منبج بسهم غرب فعاد ابن عمه تمرتاش بن ايلغازى الى حلب ثم ان الفرنج حاصروا مدينة صور وملكوها وخرج المسلمون منها باموالهم واجتمعت الفرنج وانضم اليهم دبيس بن صدقة أمير العرب وحاصروا حلب وضعف عنهم تمرتاش فأرسل أهل حلب الى آقسنقر البرسقى صاحب الموصل فجاء اليهم فلما قارب حلب هربت الفرنج عنها واستقرت حلب مع الموصل لآقسنقر البرسقى وسار الى كفرطاب وأخذها من الفرنج ثم سار الى عزاز ليأخذها فاجتمعت عليه الفرنج وكسروه وتوجه الى الموصل وجعل ولده عز الدين مسعودا فى حلب فلما كانت سنة عشرين وخمسمائة وثب عليه جماعة من الباطنية وهو فى صلاة الجمعة فقتلوه وكان تركيا شجاعا من خيار

(ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان)

فى هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا وسيره الى أصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق وكان باصفهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده وكان أهل أصفهان يكرهونهم فكاتب صدر الدين الخجندى رئيس الشافعية باصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد الى من يصل من الديوان من العساكر وكان يحكم باصفهان على جميع أهلها فسيرت العساكر فوصلوا الى أصفهان ونزلوا بظاهر البلد وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا الى خراسان وتبعهم بعض عسكر الخليفة فتخطفوا منهم وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه ودخل عسكر الخليفة الى أصفهان وملكوها

(ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها)

لما عاد خوارزم شاه الى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والامراء وقدموا على أنفسهم كوكجه وهو من أعيان البهلوانية واستولوا على الرى وما جاورها من البلاد وساروا الى أصفهان لاخراج الخوارزمية منها فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها فارسل الى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية وأنه انما قصد أصفهان فى طلب العساكر الخوارزمية وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار فى طلبهم فلم يدركهم وسار عسكر الخليفة من أصفهان الى همذان وأما كوكجه فانه تبع الخوارزمية الى طبس وهى من بلاد الاسماعيلية وعاد فقصد أصفهان وملكها وأرسل الى بغداد يطلب أن يكون له الرى وخوار الرى وساوة وقم وقاجان وما ينضم اليها من حد مزدغان وتكون أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة فاجيب الى ذلك وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع فعظم شأنه وقوى أمره وكثرت عساكره وتعظم على أصحابه

(ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها)

وفى هذه السنة أيضا خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر فى عساكره الى دمشق يريد حصرها فعاد عنها منهزما وسبب ذلك أن من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية فخر الدين جركس وسرا سنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الافضل على بن صلاح الدين لانه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وايبك وغيرهم فكانوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه ويقولون ان الاكراد والمماليك الاسدية من عسكر مصر يريدون أخاك ونخاف ان يميلوا اليه ويخرجوك من البلاد والمصلحة أن تأخذ دمشق فخرج فى العام الماضى وعاد كما ذكرناه فتجهز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر الى الافضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه الى نصرته وسار من عنده الى حلب الى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الافضل اليها ودخلها وكان الافضل لثقته به قد أمر نوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الافضل من حلب الى دمشق فارسل مقدم الاسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء السمين وغيره الى الافضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما ويأمرهما بالاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموه اليهما وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم الى الافضل ان العزيز لما ملك مصر مال الى المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت الى هؤلاء الامراء فأنفوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الافضل والعادل فاتفقا على ذلك

الولاة فحضر ولده مسعود من حلب وأخذ الموصل ثم اجتمعت الفرنج وقصدت دمشق ونزلوا بشقحب وخرج اليهم طغتكين صاحب دمشق وكان معه خيالة ورجالة كثيرون فانهزم هو والخيالة وتبعهم الفرنج وقصدت الرجالة منهم الفرنج وقتلوا كل من وجدوه ونهبوا أموالهم وتبعهم الفرنج فانهزموا أيضا (وفى سنة احدى وعشرين وخمسمائة) اعطى السلطان شحنكية العراق لعماد الدين زنكى ابن آقسنقر مضافا لما بيده من ولاية واسط وعظم أمره وأخذ نصيبين وسنجار وحران وجزيرة ابن عمر ومات مسعود بن آقسنقر البرسقى فولاه السلطان محمود الموصل أيضا وكان لما قتل آقسنقر البرسقى وجاء ولده مسعود الى الموصل جعل مكانه بحلب أميرا اسمه قيماز ثم استخلف وأساء السيرة بها وكان مقيما بها سليمان بن عبد الجبار بن ارتق الذى كان صاحبها أولا فاجمع أهل حلب على ولاية سليمان واستقر بحلب وبقى قتلغ بالقلعة عاصيا عليهم فبلغ الفرنج ذلك فقصدوها وصانعهم أهلها فبلغ ذلك

واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء ان الافضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق الى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق فانحاز اليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما العادل والافضل فانهما أرسلا الى القدس وفيه نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا فيمن معهما من الاسدية والاكراد الى مصر فرأى العادل انضمام العساكر الى الافضل واجتماعهم عليه فخاف انه يأخذ مصر ولا يسلم اليه دمشق فارسل حينئذ سرا الى العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بانه يمنع الافضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ووصل العادل والافضل الى بلبيس فنازلوا من بها من الناصرية وأراد الافضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر فمنعه العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فاذا اقتتلوا فى الحرب فمن يرد العدو الكافر وما بنا حاجة الى هذا فان البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثل هذا فطالت الايام وأرسل الى العزيز سرا يأمره بارسال القاضى الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحى لعلو منزلته كانت عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانفسخت العزائم واستقر الامر على ان يكون للافضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه الذى كان قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز وانما اختار ذلك لان الاسدية والاكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز

(ذكر عدة حوادث)

فى ذى القعدة تاسع عشره وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التى بين يديه ودكان ابن البخيل الهراس وقيل كان ابتداؤها من دار ابن البخيل

(ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند)

فى هذه السنة سار شهاب الدين الغورى صاحب غزنة الى بلد الهند وحصر قلعة بهنكر وهى قلعة عظيمة منيعة فحصرها فطلب أهلها منه الامان على أن يسلموا اليه فامنهم وتسلمها وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها وسار عنها الى قلعة كوالير وبينهما مسيرة خمسة أيام وفى الطريق نهر بخازه ووصل الى كوالير وهى قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل اليها حجر منجنيق ولا نشاب وهى كبيرة فاقام عليها صفرا جميعه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا فراسله من بها فى الصلح فاجابهم اليه على أن يقر القلعة بايديهم على مال يحملونه اليه فحملوا اليه فيلا حمله ذهب فرحل عنها الى بلاد آى وسور فاغار عليها ونهبها وسبى وأسر ما يعجز العاد حصره ثم عاد الى غزنة سالما

(ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الافضل)

فى هذه السنة فى السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق من ابن أخيه الافضل على بن صلاح الدين وكان أبلغ الاسباب فى ذلك وثوق الافضل بالعادل وانه بلغ من وثوقه انه أدخله بلده وهو غائب عنه ولقد أرسل اليه أخوه الظاهر غازى صاحب

السلطان محمود فكتب توقيعا لعماد الدين زنكى بالشام جميعه فارسل زنكى قراقوش الى حلب وتوجه سليمان وقتلغ الى زنكى فأصلح بينهما وركب بنفسه الى حلب وطلع أهل حلب الى تلقيه واستبشروا ودخلها وملك قلعتها فى المحرم سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وفى هذه السنة سار السلطان سنجر من خراسان وسار اليه ابن أخيه السلطان محمود والتقيا بالرى وجلسا على سرير واحد وصفح محمود عن دبيس بامر عمه وأعاده الى امرأته (وفيها) توفى صاحب دمشق طغتكين وهو من مماليك تتش ابن ألب ارسلان وكان عاقلا دينا خيرا ولقبه ظهير الدين وعهد الى ولده تاج الملوك بورى (وفى سنة ثلاثة وعشرين وخمسمائة) ملك عماد الدين زنكى حماة وذلك انه كان أرسل الى بورى صاحب دمشق يستنجده على الفرنج فارسل اليه ولده سونج وكان نائبه بحماة فلما وصل اليه قبض عليه ونهبه فركب من ساعته الى حماة فاخذها وتوجه الى الموصل وصحبته

حلب يقول له أخرج عمنا من بيننا فانه لا يجىء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد وأنا
أعرف به منك وأقرب اليه فانه عمى مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته ولو علمت أنه يريد لنا خيرا
لكنت أنا أولى به منك فقال له الافضل أنت سيئ الظن فى كل أحد أى مصلحة لعمنا فى أن يؤذينا
ونحن اذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا ملك من البلاد أكثر من بلادنا
وترجع سوء الذكر وهذا كان أبلغ الاسباب ولا يعلمها كل أحد وأما غير هذا فقد ذكرنا مسير
العادل والافضل الى مصر وحصارهم بلبيس وصلحهم مع الملك العزيز بن صلاح الدين ومقام
العادل معه بمصر فلما أقام عنده استماله وقرر معه أنه يخرج معه الى دمشق ويأخذها من أخيه
ويسلمها اليه فسار معه من مصر الى دمشق وحصروها واستمالوا أميرا من امراء الافضل يقال له
العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد عليه والوثوق به فسلم
اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى ليحفظه فمال الى العزيز والعادل ووعدهما أنه
يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه اليوم السابع والعشرين من رجب
وقت العصر وادخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم يشعر الافضل الا وعمه معه
فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الاخضر غربى دمشق فلما رأى الافضل ان البلد
قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل
فى دار اسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتفق العادل والعزيز على ان اوهما الافضل انهما يبقيان
عليه البلد خوفا انه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة فاخرجهم من البلد لان
العادل لم يكن فى كثرة واعاد الافضل الى القلعة وبات العادل فى دار شيركوه وخرج العزيز الى
الخيم فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه فاقام به وعساكره فى البلد فى كل يوم يخرج
الافضل اليهما ويجتمع بهما فبقوا كذلك أياما ثم أرسلا اليه وامراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد
على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق فخرج الافضل ونزل فى جوسق
بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياما فجلس يوما فى مجلس شرابه
فلما اخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه يعيد البلد الى الافضل فنقل ذلك الى العادل فى وقته
فحضر المجلس فى ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم البلد اليه وخرج منه وعاد الى مصر
وسار الافضل الى صرخد وكان العادل يذكر ان الافضل سعى فى قتله فلهذا أخذ البلد منه وكان
الافضل ينكر ذلك ويتبرأ منه والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لها الدنيا ووقع رمل أحمر واستعظم
الناس ذلك وكبروا واشتعلت الاضواء بالنهار وفيها قتل صدر الدين محمود بن عبد اللطيف بن محمد
ابن ثابت الخجندى رئيس الشافعية باصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة اصفهان بها
وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولى النظر فى المدرسة النظامية ببغداد
ولما سار مؤيد الدين بن القصاب الى خوزستان سار فى صحبته فلما ملك الوزير اصفهان أقام ابن
الخجندى بها فى بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة اصفهان للخليفة
منافرة فقتله سنقر وفى رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادى الفقيه
الشافعى بالمدرسة النظامية ببغداد وفى شوال منها أنيبت نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى
الرازى فى الوزارة ببغداد وكان قد توجه الى بغداد لما ملك ابن القصاب الرى وفيها ولى أبو طالب

سونج وأمراء دمشق معتقلين وجمع عساكره وعاد الى الشام وقصد حصن الاثارب لشدة كانت تلحق المسلمين منها فان فرنجها كانوا يقاسمون أهل حلب على جميع البلاد الغربية حتى على طاحون غربية بباب الجنان فجمع الفرنج جموعهم والتقى الجمعان ونصر الله المسلمين وقتل من الفرنج واسر جمع كثير وخرب عماد الدين زنكى حصن الاثارب وجعلها دكا لا اثر لها (وفى هذه السنة) توفى المقرى الشاعر المشهور ومن شعره

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة … باب الدواعى والبواعث مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى … منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب انه لا يشترى … ويخان فيه مع الكساد ويسرق

(وفى سنة أربع وعشرين وخمسمائة) وثبت الباطنية على خليفة مصر الآمر باحكام الله أبى على المنصور ابن المستعلى أحمد العلوى فقتلوه وكانت خلافته تسعا وعشرين سنة وخمسة عشر يوما وعمره أربع وثلاثون سنة وهو العاشر من ولد المهدى عبد الله

يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الانشاء ببغداد وكان كاتبا مفلقا وله شعر جيد وفى صفر منها توفى
الفخر محمود بن على القوفانى الفقيه الشافعى بالكوفة عائدا من الحج وكان من أعيان أصحاب محمد بن
يحيى وفى رجب منها توفى أبو الغنائم محمد بن على بن المعلم الشاعر الهرثى والهرث بضم الهاء والثاء
المثلثة قرية من أعمال واسط عن احدى وتسعين سنة وفى رابع شعبان منها توفى الوزير مؤيد
الدين أبو الفضل محمد بن على بن القصاب بهمذان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ارسال الامير أبى الهيجاء الى همذان وما فعله﴾

وصل الى بغداد أمير كبير من امراء مصر اسمه أبو الهيجاء ويعرف بالسمين لانه كان كثير السمن
وكان من أكابر أمراء مصر وكان فى اقطاعه أخيرا البيت المقدس وغيره مما يجاوره فلما ملك
العزيز والعادل مرتبة دمشق من الافضل أخذ القدس منه ففارق الشام وعبر الفرات الى
الموصل ثم انحدر الى بغداد لانه طلب من ديوان الخلافة فلما وصل اليها أكرم اكراما كثيرا ثم أمر
بالتجهيز والمسير الى همذان مقدما على العساكر البغدادية فسار اليها والتقى عندها بالملك أوزبك
ابن البهلوان وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة فلما اجتمع بهم
وثقوا اليه ولم يحذروه فقبض على اوزبك وابن سطمش وابن قرا بوافقة من أمير علم فلما وصل
الخبر بذلك الى بغداد أنكرت هذه الحال على أبى الهيجاء وأمر بالافراج عن الجماعة وسيرت لهم
الخلع من بغداد تطييبا لقلوبهم فلم يسكنوا وبعد هذه الحادثة ولا أمنوا ففارقوا أبا الهيجاء السمين
فخاف الديوان فلم يرجع اليه ولم يمكنه أيضا المقام فعاد يريد اربل لانه من بلدها فتوفى قبل
وصوله اليها وهو من الاكراد الحكمية من بلد اربل

﴿ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها﴾

فى هذه السنة فى شوال ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامى وهى بيد
الفرنج لعنهم الله وسبب ذلك ان الفرنج كان قد ملكهم الكندهرى على ما ذكرناه قبل وكان
الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى فلما توفى
وملك أولاده بعده كما ذكرناه جدد الملك العزيز الهدنة مع الكندهرى وزاد فى مدة الهدنة وبقى
ذلك الى الآن وكان بمدينة بيروت أمير يعرف باسامة وهو مقطعها فكان يرسل الشوانى تقطع
الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة الى الملك العادل بدمشق والى الملك العزيز
بمصر فلم يمنعا اسامة من ذلك فأرسلوا الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم ما يفعل بهم
المسلمون ويقولون ان لم تنجدونا والا أخذ المسلمون البلاد فامدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة
وكان أكثرهم من ملك الالمان وكان المقدم عليهم قس يعرف بالخنصلير فلما سمع العادل بذلك
أرسل الى العزيز بمصر يطلب العساكر وأرسل الى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر فجاءته
الامراء واجتمعوا على عين جالوت فاقاموا شهر رمضان وبعض شوال ورحلوا الى يافا وملكوا
المدينة وامتنع من بها بالقلعة التى لها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة
وقهرا بالسيف فى يومها وهو يوم الجمعة وأخذ كل ما بها غنيمة واسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا
الى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا وكان سبب تأخرهم ان ملكهم
الكندهرى سقط من موضع عال بعكا فمات فاختلفت أحوالهم فتأخروا لذلك وعاد المسلمون الى

والعاشر من الخلفاء العلويين وولى بعده ابن عمه الحافظ عبد المجيد بن أبى القاسم ابن المستنصر واستوزر أبا أحمد بن الافضل بن بدر الجمالى فاستبد بالامر وتغلب على الحافظ الى أن قتل سنة ست وعشرين وخمسمائة وفى السنة التى قبلها توفى السلطان محمود بن محمد بن ألب ارسلان السلجوقى بهمذان واستقر ابنه داود فى السلطنة توفى وعمره نحو سبع وعشرين سنة وكانت ولايته اثنتى عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما وكان حليما عاقلا (وفيها) أعنى سنة ست وعشرين وخمسمائة توفى صاحب دمشق تاج الملوك قورى بن طغتكين فاوصى بالملك لولده شمس الملوك اسمعيل وأوصى لولده شمس الدولة ببعلبك وأعمالها وقوى اسمعيل بدمشق وأخذ من الفرنج بانياس بالسيف وقلعتها بالامان وأخذ حماة من عماد الدين زنكى عنوة وخافت الفرنج منه ورحل غالبهم الى بلادهم (وفيها) توفى أبو المنصور ظافر الحداد وكان من الشعراء المجيدين وله ديوان شعر أكثره جيد ومن مشهور شعره قوله

عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر فى ذى القعدة الى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت فسار اليها جمع من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذى الحجة وشرعوا فى تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم اسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحى صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج تاسع ذى الحجة فوصلوا الى بيروت فلما قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقى منها فان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها وسافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا أشجارها وخربوا ما لها من قرى وابراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين واذن للعساكر الشرقية بالعود ظنا منه ان الفرنج يقيمون ببلادهم وأراد ان يعطى العساكر المصرية دستورا بالعود فأتاه الخبر منتصف المحرم ان الفرنج يريدون ان يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكرا يحمونه ويمنعون عنه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة أربع وتسعين وقاتلوا من به وجدوا فى القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك أرسل الى العزيز بمصر يطلب منه ان يحضر هو بنفسه ويقول له ان حضرت والا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجدا فمن بقى معه من العساكر واما من بحصن تبنين فانهم لما رأوا النقوب قد خربت القلعة ولم يبق الا ان يملكوها بالسيف نزل بعض من فيها الى الفرنج يطلب الامان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة وكان المرجع الى القسيس الخنصليرمن أصحاب ملك الالمان فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام ان سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا انفسكم فعادوا كأنهم يراجعون من فى القلعة ليسلموا فلما صعدوا اليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمى نفسه فحموها الى أن وصل الملك العزيز الى عسقلان فى ربيع الاول فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين وان الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وان أمرهم الى امرأة وهى الملكة فاتفقوا وأرسلوا الى ملك قبرس واسمه هيمرى فاحضروه وهو أخو الملك الذى أسر بحطين كما ذكرناه فزوجوه بالملكة زوجة الكندهرى وكان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية فلما ملكهم لم يعد الى الزحف على الحصن ولا قاتل واتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر الى جبل الخليل الذى يعرف بجبل عاملة فاقاموا أياما والامطار متداولة فبقى الى ثالث عشر الشهر ثم سار وقارب الفرنج وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف الى الفرنج ويجد فى قتالهم فرحلوا الى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلا ثم رحلوا الى عكا فسار المسلمون فنزلوا اللجون وتراسلوا فى الصلح وتطاول الامر فعاد العزيز الى مصر قبل انفصال الحال وسبب رحيله ان جماعة من الامراء وهم ميمون القصرى واسامة وسرا سنقر والجاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على الفتك به وبفخر الدين جركس مدبر دولته والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك فلما سمع بذلك سار الى مصر وبقى العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فى الصلح فى شعبان سنة أربع وتسعين فلما انتظم الصلح عاد العادل الى دمشق وسار منها الى ماردين من أرض الجزيرة فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة سيف الاسلام وملك ولده﴾

لو كان بالصبر الجميل ملاذه
ما سح وابل دمعه ورذاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه
حتى وهى وتقطعت افلاذه
لم يبق فيه من الغرام بقية
الا رسيس يحتويه جذاذه
من كان يرغب فى السلامة فليكن
أبدا من الحدق المراض عياذه
لا تخدعنك بالفتور فانه
نظر يضر بقلبك استلذاذه
يا أيها الرشأ الذى من طرفه
سهم الى حب القلوب نفاذه
در يلوح بفيك من نظامه
خمر يجول عليه من نباذه
وقناة ذاك القد كيف تقومت
وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه
رفقا بجسمك لا يذوب فاننى
أخشى بان يجفو عليه لاذه
هاروت يعجز عن مواقع سحره
وهو الامام فمن ترى استاذه
تالله ما علقت محاسنك امرأ
الا وعز على الورى استنقاذه
أغريت حبك بالقلوب فأذعنت
طوعا وقد أودى بها استحواذه
مالى أتيت الحظ من أبوابه
جهدى فدام نفوره ولواذه
اياك من طمع المنى فعزيزه
كذليله وغنيه شحاذه
دالية ابن دريد استهوى بها
قوم غداة نبت به بغداذه
دانوا الزخرف قوله فتفرقت
طمعا بهم صرعاه أوجذاذه
من قدر الرزق السنى لك انما

فى شوال من هذه السنة توفى سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين وهو صاحب اليمن بزبيد وقد ذكرنا كيف ملك وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشترى أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء وأراد ملك مكة حرسها الله تعالى فأرسل الخليفة الناصر لدين الله الى أخيه صلاح الدين فى المعنى فمنعه من ذلك وجمع من الاموال ما لا يحصى حتى انه من كثرته كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره ولما توفى ملك بعده ابنه اسمعيل وكان أهوج كثير التخليط بحيث انه ادعى انه قرشى من بنى أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادى فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب اليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود الى نسبه الصحيح وبترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت اليه ولم يرجع وانضاف الى ذلك انه أساء السيرة مع اجناده وامرائه فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميرا من مماليك أبيه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الآخر توفى أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلانى المقرى الواسطى بها عن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة اشهر وأيام وهو آخر من بقى من أصحاب القلانسى وفى جمادى الآخرة توفى قاضى القضاة أبو طالب على بن البخارى ببغداد ودفن بتربته فى مشهد باب التبن وفيها فى ربيع الآخر توفى ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور وكان أبوه قد جعله فيها وأضاف اليه عساكر جميع بلاده التى بخراسان وجعله ولى عهده فى الملك وخلف ولدا اسمه هندوخان فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمدا وهو الذى ملك بعد أبيه وكان بين الاخوين عداوة مستحكمة أفضت الى أن محمدا لما ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن على الفراتى الضرير الفقيه الشافعى كان اماما فى الفقه مدرسا صالحا كثير الصلاح سمعت عليه كثيرا لم أر مثله رحمه الله تعالى ولقد شاهدت منه عجبا يدل على دينه وارادته بعمله وجه الله تعالى وذلك انى كنت اسمع عليه ببغداد سنن أبى عبد الرحمن النسائى وهو كتاب كبير والوقت ضيق لانى كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الاكبر مجد الدين أبى السعادات اذ قد أتاه انسان من أعيان بغداد وقال له قد برز الامر لتحضر لامر كذا فقال أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذى يرادمنى لا يفوت فقال أنا لا أحسن أذكر هذا فى مقابل أمر الخليفة فقال لا عليك قل قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع فسألناه ليمشى معه فلم يفعل ذلك وقال اقرؤا فقرأنا فلما كان الغد حضر غلام لنا وذكر ان أمير الحاج الموصلى قد رحل فعظم الامر علينا فقال ولم يعظم عليكم العود الى أهلكم وبلدكم فقلنا لاجل فراغ هذا الكتاب فقال اذا رحلتم استعير دابة وأركبها فاسير معكم وأنتم تقرؤن فاذا فرغتم عدت فمضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ فعاد وذكر ان الحجاج لم يرحلوا ففرغنا من الكتاب فانظر الى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ويريد يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا

﴿ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد﴾

فى هذه السنة فى المحرم توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وقد تقدم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين وكان رحمه الله عادلا حسن السيرة فى رعيته عفيفا عن أموالهم وأملاكهم متواضعا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم

قد كان ليس يضره انفاذه
وقد نسب قوم بعض هذه الابيات الى أبى بكر بن محمد ابن الحداد الفقيه وسبب تلقبه بالحداد قيل ضاق الخاتم باصبع نائب الاسكندرية فورم خنصره فقيل له الرأى قطع حلقته فقال اختاروا من يصلح لذلك فجىء بظافر الحداد المذكور فقطع الحلقة وأنشد بديها

قصر عن أوصافك العالم
وكثر الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة
يضيق عن خنصره الخاتم

من تاريخ ابن خلكان ويروى عن ظافر الحداد انه عمل الابيات الى ان انتهى الى قوله وسنان ذاك اللحظ فحصر عن أبيات القافية وبقى زمانا الى ان وقف عليه يوما اعرابى وساومه موسى فأراه اياه فلما نظره قال ما فولاذه قال له ظافر خذه بارك الله لك فيه والله لا أخذت له ثمنا وفرح بذلك وتمم البيت بقوله
وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه

﴿وفى سنة تسع وعشرين وخمسمائة﴾ قتل شمس الملوك اسمعيل بن توزى قتله جماعة من غلمانه باتفاق من والدته وسر الناس بقتله لما كان عليه من الظلم واستقر

ويجلس معهم ويرجع الى أقوالهم الا أنه كان بخيلا شديد البخل وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برنقش مملوك أبيه وكان دينا خيرا عادلا حسن السيرة كثير البر والاحسان الى الفقراء وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية كثير الذم للشافعية فمن تعصبه انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبى حنيفة وشرط للفقهاء طبيخا يطبخ ذلك كل يوم وهذا نظر حسن رحمه الله

(ذكر ملك نور الدين نصيبين)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل الى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد وسبب ذلك ان عمه عماد الدين كان له نصيبين فتطاول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهى تجاور نصيبين فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل كلها والمرجوع اليه فيها فلم يعلم مخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا وخاف أن يجرى خلف بينهم فأرسل من عنده رسولا الى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا الفعل الذى فعله النواب بغير أمره وقال انى ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فانه ليس كوالده وأخاف أن يبدو منه ما يخرج الامر فيه عن يدى فأعاد الجواب انهم لم يفعلوا الا ما أمرتهم به وهذه القرى من أعمال نصيبين فترددت الرسل بينهما فلم يرجع عماد الدين عن أخذها فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال فارسل نور الدين رسولا من مشايخ دولته ممن خدم جدهم الشهيد زنكى ومن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة فمضى الرسول فلحق عماد الدين قد مرض فلما سمع الرسالة لم يلتفت وقال لا أعيد ملكى فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه وحذره عاقبة ذلك فاغلظ عليه عماد الدين القول وعرض بذم نور الدين واحتقاره فعاد الرسول وحكى لنور الدين جلية الحال فغضب نور الدين وعزم على المسير الى نصيبين وأخذها من عمه فاتفق ان عمه مات وملك بعده ابنه فقوى طمعه فنهاه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهز وسار اليها فلما سمع قطب الدين صاحبها سار اليها من سنجار فى عسكره ونزل عليها ليمنع نور الدين عنها فوصل نور الدين وتقدم الى البلد وكان بينهما حرب بارزه بعض أمرائه وقاتل من بازائه فلم يثبتوا له فعبر جميع العسكر النورى وتمت الهزيمة على قطب الدين فصعد هو ونائبه مجاهد الدين برنقش الى قلعة نصيبين وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين الى حران وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها وهو بدمشق وبذلوا له الاموال الكثيرة ليجدهم ويعيد نصيبين اليهم وأقام نور الدين بنصيبين مالكها فتضعضع عسكره بكثرة الامراض وعودهم الى الموصل وموت كثير منهم ووصل العادل الى الديار الجزرية فحينئذ فارق نور الدين نصيبين وعاد الى الموصل فى شهر رمضان فلما فارقها تسلمها قطب الدين وممن توفى من أمراء الموصل عز الدين جورديك وشمس الدين عبد الله بن ابراهيم وفخر الدين عبد الله بن عيسى المهرانيان ومجاهد الدين قايماز وظهير الدين بولق بن بلنكرى وجمال الدين محاسن وغيرهم ولما عاد نور الدين الى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها وضيق على أهلها على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة)

فى هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود وهو ابن أخت غياث الدين وشهاب الدين

صاحب

بدمشق بعد شهاب الدين أحمد بن نوزى وجاء اليه عماد الدين زنكى وحاول أخذها فلم يقدر وعاد بعد مصالحتهم (وفيها) أغرى بالخليفة المسترشد فخرج لقتال السلطان مسعود فهرب عنه عسكره وأسره السلطان مسعود وساربه الى مراغة فوصل عسكر سنجر فركب مسعود على غفلة فدخلت الباطنية على المسترشد فقتلوه وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وخلافته سبع عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما وأمه أم ولد وكان شهما فصيحا حسن الخط وبويع ابنه الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد فضل بن المستظهر بالله وبعده بقليل قتل السلطان مسعود دبيسا صبرا ودبيس بضم الدال وفتح الباء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها سين مهملة قال ابن خلكان فى تاريخه فى حرف الدال أبو الاغر دبيس بن سيف الدولة أبى الحسن صدقة بن منصور ابن دبيس بن على بن مزيد الاسدى ملك العرب صاحب الحلة كان جوادا كريما عنده معرفة بالادب والشعر وتمكن فى

صاحبى غزنة وغيرها وله باميان مدينة بلخ وكان صاحبها تركيا اسمه ازبه وكان يحمل الخراج كل سنة الى الخطا عما وراء النهر فتوفى فى هذه السنة فسار بهاء الدين سام الى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل الى الخطا وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الاسلام بعد ان كانت فى طاعة الكفار

(ذكر انهزام الخطا من الغورية)

وفى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون الى ناحية خراسان فعاثوا فى البلاد وأفسدوا فلقيهم عسكر غياث الدين الغورى وقاتلهم فانهزم الخطا وكان سبب ذلك ان خوارزم شاه تكش كان قد سار الى بلد الرى وهمذان واصفهان وما بينهما من البلاد وملكها وتعرض الى عساكر الخليفة وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد فارسل الخليفة الى غياث الدين ملك الغور وغزنة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق وكان خوارزم شاه قد عاد الى خوارزم فراسله غياث الدين يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم شاه الى الخطا يشكو اليهم من غياث الدين ويقول ان لم تدركوه بانفاذ العساكر والا أخذ غياث الدين بلاده كما أخذ مدينة بلخ وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضعفون عن رده عما وراء النهر فجهز ملك الخطا جيشا كثيفا وجعل مقدمهم المعروف بطاينكوا وهو كالوزير فساروا وعبروا جيحون فى جمادى الآخر وكان الزمان شتاء وكان شهاب الدين الغورى أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه وغياث الدين به من النقرس ما يمنعه من الحركة انما يحمل فى محفة والذى يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين فلما وصل الخطا الى جيحون سار خوارزم شاه الى طوس عازما على قصد هراة ومحاصرتها وعبر الخطا النهر ووصلوا الى بلاد الغور مثل كرزبان وشبرقان وغيرهما وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالافراج عن بلخ أو انه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال فلم يجبهم الى ذلك وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا فانتدب الامير محمد بن جربك الغورى وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعا وكاتب الحسين بن خرميل وكان بقلعة كرزبان واجتمع معهما الامير حروش الغورى وساروا بعساكرهم الى الخطا فبيتوهم وكبسوهم ليلا ومن عادة الخطا انهم لا يخرجون من خيامهم ليلا ولا يفارقونها فأتاهم هؤلاء الغورية وقاتلوهم وأكثروا القتل فى الخطا وانهزم من سلم منهم من القتل وأين ينهزمون والعسكر الغورى خلفهم وجيحون بين أيديهم وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم فى عساكره فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا ان غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم وثبتوا عامة نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم ولحقت المتطوعة بالغورية وأتاهم مدد من غياث الدين وهم فى الحرب فثبت المسلمون وعظمت نكايتهم فى الكفار وحمل الامير حروش على قلب الخطا وكان شيخا كبيرا فأصابه جراحة توفى منها ثم ان محمود بن جربك وابن خرميل حملا فى أصحابهما وتنادوا ان لا يرمى أحد بقوس ولا يطعن برمح وأخذوا اللتوت وحملوا على الخطا فهزموهم وألحقوهم بجيحون فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه فى الماء غرق ووصل الخبر الى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل الى خوارزم شاه يقول له أنت قتلت رجالى وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار وكان القتلى اثنى عشر ألفا وأنفذ اليه من رده الى خوارزم وألزموه بالحضور عنده فأرسل حينئذ خوارزم شاه الى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو اليه ويستعطفه

خلافة الامام المسترشد واستولى على كثير من بلاد العراق وهو من بيت كبير وله نظم حسن وكان دبيس المذكور فى خدمة السلطان مسعود بن محمد ابن ملكشاه السلجوقى وهم نازلون على باب المراغة من بلاد اذربيجان ومعهم الامام المسترشد بالله فيقال ان السلطان دس على الامام جماعة من الباطنية فهجموا خيمته وقتلوه وخاف أن تنسب القضية اليه وأراد أن تنسب الى دبيس المذكور فتركه الى أن جاء دبيس الى الخدمة وجلس على باب خيمة السلطان سير بعض مماليكه فجاء من ورائه وضرب رأسه بالسيف فأبانه وأظهر السلطان بعد ذلك انه انما فعل ذلك انتقاما لما فعل فى حق الامام المسترشد وكان ذلك بعد الامام بشهر ودبيس هذا ابن سيف الدولة صدقة وصدقة هذا هو الذى اختط الحلة فصارت تنسب اليه كان ملك العرب وكان ذا بأس وشدة وهيبة ناجز السلطان محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقى وافضت الحال الى الحرب فقتل فيها عنده

غيرمرة فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة واعادة ماأخذه الخطا من بلاد الاسلام فلم ينفصل بينهما حال

﴿ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا﴾

لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه أعاد الجواب ان عسكرك انما قصدا انتزاع بلخ ولم يأتوا الى نصرتى ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور وان كنت فعلت ذلك فانا مقيم بالمال المطلوب منى ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عدتم على بهذا القول وهذا المطلب واما أنا فقد اصلحت الغورية ودخلت فى طاعتهم ولا طاعة لكم عندى فعاد الرسول بالجواب فجهز ملك الخطا جيشا عظيما وسيره الى خوارزم فحصرها فكان خوارزم شاه يخرج اليهم كل ليلة ويقتل منهم خلقا عظيما وأتاه من المتطوعة خلق كثير فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على أكثرهم فدخل الباقون الى بلادهم ورحل خوارزم شاه فى آثارهم وقصد بخارا فنازلها وحصرها وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا حتى انهم أخذوا كلبا أعور والبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه لانه كان أعور وطافوا به على السور ثم ألقوه فى منجنيق الى العسكر وقالوا هذا سلطانكم وكان الخوارزميون يسبونهم ويقولون يا أجناد الكفار أنتم قد ارتددتم عن الاسلام فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد أيام يسيرة عنوة وعفا عن أهله وأحسن اليهم وفرق فيهم مالا كثيرا وأقام بها مدة ثم عاد الى خوارزم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة توفى أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الانشاء بديوان الخليفة وكان عالما فاضلا له كتابة حسنة وكان رجلا عاقلا خيرا كثير النفع للناس وله شعر جيد وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين فى شهر رمضان وقاتل من بها وكان صاحبها حسام الدين يولق ارسلان بن ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى بن أرتق كل هؤلاء ملوك ماردين وقد تقدم من أخبارهم ما يعلم به محاوسهم وكان صبيا والحاكم فى بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرنقش وليس لصاحبه معه حكم البتة فى شئ من الامور ولما حصر العادل ماردين ودام عليها اسلم اليه بعض أهلها الربض مخامرة منهم فنهب العسكر أهله نهبا قبيحا وفعلوا بهم أفعالا عظيمة لم يسمع بمثلها فلما تسلم الربض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقى عليها الى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين على ما نذكره ان شاء الله وفيها توفى الشيخ أبو على الحسن بن مسلم بن أبى الحسن القادسى الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التى ينسب اليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد وكان من عباد الله الصالحين العالمين ودفن بقريته وأبو المجد على بن أبى الحسن على بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفى مدرس أصحاب أبى حنيفة ببغداد وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه

﴿ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الافضل ديار مصر﴾

فى هذه السنة فى العشرين من المحرم توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر وكان سبب موته انه خرج الى الصيد فوصل الى الفيوم متصيدا فرأى ذئبا فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه فى الارض ولحقته حمى فعاد الى القاهرة مريضا فبقى كذلك الى أن توفى فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس وهو

النعمانية وقتل الامير صدقة المذكور فى المعركة سنة احدى وخمسمائة وحمل رأسه الى بغداد وذكر ابن الاثير أنه توفى سنة خمسمائة والله اعلم (وفى سنة تسع وعشرين وخمسمائة) توفى أبو الصلت أمية الاندلسى الشاعر المشهور والفاضل فى العلوم ومن شعره

وقائلة ما بال مثلك خاملا
أأنت ضعيف الراى أم أنت عاجز
فقلت لها ذنبى الى القوم اننى
لما لم يحوزوه من المجد حائز
وما فاتنى شئ سوى الحظ وحده
وأما المعانى فهى عندى غرائز

(وله أيضا)

جد بقلبى وعبث
ثم مضى وما اكترث
واحربا من شادن
فى عقد الصبر نفث
يقتل من شاء بعينيه
ومن شاء بعث
فاى ودلم يخن
وأى عهد ما نكث

(وفى سنة ثلاثين وخمسمائة) سارت عساكر عماد الدين زنكى من حلب وحماة الى بلاد الفرنج وأوقعوا بهم وكسبوا منهم ما ملأ الشام قنا اورقيقا وفيها خلع

الحاكم فى بلده فأحضر انسانا كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأراه العزيز ميتا وسيره الى العادل وهو يحاصر ماردين كما ذكرناه ويستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الافضل على بن صلاح الدين فقال له قل لصاحبك ان أخاه العزيز توفى وليس فى البلاد من يمنعها فليسر اليها فليس دونها مانع وكان الافضل محبوبا الى الناس يريدونه فلم يلتفت الافضل الى هذا القول واذ قد وصله رسل الامراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه وكان السبب فى ذلك ان الامير سيف الدين يازكج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يريدونه ويميلون اليه وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد ثغر الاسلام ولا بد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها والرأى اننا نجعل الملك فى هذا الطفل الصغير ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره الى أن يكبر فان العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لامير فاتفقا على هذا فقال جهاركس فمن يتولى هذا فاشار يازكج بغير الافضل تجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحدا بعد آخر الى ان ذكر آخرهم الافضل فقال جهاركس هو بعيد عنا وكان بصرخد مقيما فيها من حين أخذت منه دمشق فقال يازكج نرسل اليه من يطلبه مجدا فأخذ جهاركس يغالطه فقال يازكج نمضى الى القاضى الفاضل ونأخذ رأيه فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتمليك الافضل فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالافضل فأرسل يازكج فى الحال القصاد وراءه فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكرا فى تسعة عشر نفسا لان البلاد كانت للعادل وبضبط نوابه الطرق لئلا يجوز الى مصر ليجئ العادل ويملكها فلما قارب الافضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدى اليه لقيه فارسان قد أرسلا اليه من القدس فاخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته وجد فى السير فوصل الى بلبيس خامس ربيع الاول ولقيه اخوته وجماعة الامراء المصرية وجميع الاعيان فاتفق ان أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافا عنه وسوء اعتقاد فيه فتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العرب قد اقتتلوا وان لم نمض اليهم نصلح بينهم يؤدى ذلك الى فساد فاذن له الافضل فى المضى اليهم ففارقه وسار مجدا حتى وصل الى البيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الزركش وسراسنقر وأحضروا عندهم ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو أيضا من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل وأرسلوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لانه كانت اطماعه قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها وانه يأخذها والذى يريدونه لا يفوته وأما الافضل فانه دخل الى القاهرة سابع ربيع الاول وسمع بهرب جهاركس فاهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبينهم ليعودوا اليه فلم يزدادوا الا بعدا ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضا فاستوحش الافضل من الباقين فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور سوى من ليس مثلهم فى التقدم وعلو القدر وأقام الافضل بالقاهرة وأصلح الامور وقرر القواعد والمرجع فى

الراشد من الخلافة وكانت مدة خلافته احد عشر شهرا وأحد عشر يوما وبويع المقتفى لامر الله محمد بن المستظهر فهو والمسترشد اخوان وليا الخلافة وكذلك السفاح والمنصور اخوان وليا الخلافة وكذلك المهدى والرشيد وكذلك الواثق والمتوكل وأما ثلاثة اخوة ولوا الخلافة فالامين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد وكذلك المقتفى والمقتدر والقاهر أولاد المعتضد وكذلك الراضى والمتقى والمطيع أولاد المقتدر وأما اربعة اخوة ولوا الخلافة فالوليد وسليمان ويزيد وهشام أولاد عبد الملك ولا يعرف غيرهم (وفى سنة احدى وثلاثين وخمسمائة) عزل الحافظ خليفة مصر وزيره بهرام الارمنى بسبب اهانته للمسلمين واستوزر رضوان الوحشى ولقبه الملك الافضل وهو أول وزير لقب بمصر وفيها فتح عماد الدين زنكى المعرة وكفرطاب وملك حمص وفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة حاصر بعلبك ونصب عليها أربعة عشر منجنيقا وتسلمها بالامان فلما نزلوا

جميع الامور الى سيف الدين بازكج

(ذكر حصر الافضل مدينة دمشق وعوده عنها)

لما ملك الافضل مصر واستقر بها ومعه ابن أخيه الملك العزيز اسم الملك له لصغره واجتمعت الكلمة على الافضل بها وصل اليه رسول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج الى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فبرز من مصر منتصف جمادى الاولى من السنة على عزم المسير الى دمشق وأقام بظاهر القاهرة الى ثالث رجب ورحل فيه وتعوق فى مسيره ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر فوصل الى دمشق ثالث عشر شعبان فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق وكان العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الافضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجد فى السير فسبق الافضل فدخل دمشق قبل الافضل بيومين وأما الافضل فانه تقدم الى دمشق من الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان الى دمشق من باب السلامة وسبب دخولهم ان قوما من أجناده ممن بيوتهم بمجاورة الباب اجتمعوا بالامير مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصدهو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ معه أحدا من الامراء بل سار وحده بمفرده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الافضل واستسلم من به من الجند ونزلوا عن الاسوار وبلغ الخبر الى الملك العادل فكاد يستسلم وتماسك وأما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم ونبوابهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيمه بالميدان الاخضر وقارب عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقدر الله تعالى أن أشير على الافضل بالانتقال الى ميدان الحصى ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم فظن الافضل وباقى الاسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا فى العشرين من شعبان ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى الافضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ثانى عشر شهر رمضان وأراد الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك وأما الملك العادل فانه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه فأرسل الى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم ليمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء أولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوى العادل بهم قوة عظيمة وأيس الافضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق فى شوال فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين على

اليه غدر بهم وكانت عادته الغدر وصلبهم عن آخرهم وفيها اقتتل شهاب الدين محمود صاحب دمشق قتله ثلاثة من غلمانه غيلة على فراشه ونجا منهم واحد وقتل الاثنان وحضر أخوه جمال الدين محمد بن توزى من بعلبك وولى دمشق وكان هذا سببا فى طمع زنكى فى بعلبك فان هذا كان فى شوال ومسير زنكى الى بعلبك فى القعدة وفيها توالت الزلازل بالشام لاسيما حلب خرج أهلها الى الصحراء من رابع صفر الى تاسع عشره (وفى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة) قصد عماد الدين زنكى دمشق وحاصرها ومرض صاحبها جمال الدين محمد ومات وقام ولده مجير الدين ارتق فى الملك وعجز عنها زنكى وعاد وملك فى عودته شهرزور من صاحبها فلحق به ابن ارسلان شاه التركمانى وصار من جملة عسكره (وفى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة) توفى الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان قتيلا فى خندق مراكش كان فاضلا ألف عدة كتب منها قلائد العقيان ذكر فيه كثيرا من الشعراء وأشعارهم وأجاد فيه (وفى

ما نذكره ان شاء الله تعالى وهو بحران فاستدعاه اليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل الى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق الى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا الى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل منهم الى بلده فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص الى بلادهما وعاد الافضل الى مصر فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد)

فى هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر وقيل جمادى الاولى توفى أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والاندلس بمدينة سلا وكان قد سار اليها من مراكش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية من أحسن البلاد وأنزهها فسار اليها يشاهدها فتوفى بها وكانت ولايته خمس عشرة سنة وكان ذا جهاد للعدو ودين حسن وسيرة وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك فعظم امر الظاهرية فى أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون الى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية الا أنهم مغمورون بالمالكية ففى أيامه ظهروا وانتشروا ثم فى آخر أيامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال اليهم

(ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد)

كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من افريقية كما ذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة استعمل أبا سعيد عثمان وأبا على يونس بن عمر اينتى وهما أبوهما من أعيان الدولة فولى عثمان مدينة تونس وولى أخاه المهدية وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم وهو شجاع مشهور فعظمت نكايته فى العرب فلم يبق منهم الا من يخافه فاتفق انه أتاه الخبر بان طائفة من عوف نازلين بمكان فخرج اليهم وعدل عنهم حتى جازهم ثم أقبل عائدا يطلبهم وأتاهم الخبر بخروجه اليهم فهربوا من بين يديه فلقيهم امامهم فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال فاخذ الجميع ورجع الى المهدية وسلم العيال الى الوالى وأخذ من الاسلاب والغنيمة ما شاء وسلم الباقى الى الوالى والى الجند ثم ان العرب من بنى عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر اينتى فوجدوا وصاروا من حزب الموحدين واستجاروا به فى رد عيالهم وأموالهم فاحضر محمد بن عبد الكريم وأمره باعادة ما أخذ لهم من النعم فقال أخذه الجند ولا أقدر على رده فاغلظ له فى القول وأراد أن يبطش به فاستمهله الى أن يرجع الى المهدية ويسترد من الجند ما يجده عندهم وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله فامهله فعاد الى المهدية وهو خائف فلما وصلها جمع أصحابه وأعلمهم ما كان من أبى سعيد وحالفهم على موافقته فخلفوا له فقبض على أبى على يونس وتغلب على المهدية وملكها فأرسل اليه أبو سعيد فى معنى اطلاق أخيه يونس فاطلقه على اثنى عشر ألف دينار فلما أرسلها اليه أبو سعيد فرقها فى الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر وأراد قصد محاصرته فأرسل محمد بن عبد الكريم الى على بن اسحق الملثم فحالفه واعتضد به فامتنع أبو سعيد من قصده ومات يعقوب وولى ابنه محمد فسير عسكرا مع عمه فى البحر وعسكرا آخر فى البر مع ابن عمه الحسن بن أبى حفص بن عبد المؤمن فلما وصل عسكر البحر الى بجاية وعسكر البر الى قسنطينة الهوى هرب الملثم ومن معه من العرب من بلاد افريقية الى الصحراء ووصل الاسطول الى المهدية فشكا محمد بن

اصطلح عماد الدين زنكى مع السلطان مسعود وفتح ديار بكر وحصونها وكل ما كان بيد الفرنج منها وفيها اقتتل داود ابن السلطان محمود ابن ملكشاه قتله جماعة اغتالوه ولم يعرفوا وفيها توفى أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ومولده فى رجب سنة سبع وستين وأربعمائة وزمخشر قرية من قرى خوارزم وفضائله وتصانيفه أشهر من ان تذكر (وفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة) أخذ عماد الدين زنكى الرها من الفرنج بالسيف ومدينة سروج وسائر الاماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات وحاصر الفرنج بالبيرة ثم رحل عنها بسبب قتل نائبه بالموصل فلما رحل عنها خافت الفرنج عوده فسلموها لنجم الدين صاحب ماردين وهربوا ليلا الى بلادهم (وفى سنة احدى وأربعين وخمسمائة) حاصر عماد الدين زنكى جعبر فوثب عليه جماعة من مماليكه وهو نائم فقتلوه وكان حسن الصورة أسمر اللون وخطه الشيب وقد زاد عمره على ستين سنة وكان شديد الهيبة على عسكره ملك الموصل وما معها من البلاد والشام كله

عبد الكريم مالقى من أبى سعيد وقال أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد ولا أسلمها الى أبى سعيد وانما أسلمها الى من يرسله أمير المؤمنين فأرسل محمد من يتسلمها منه وعاد الى الطاعة

﴿ ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين ﴾

فى هذه السنة زال الحصار عن ماردين ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردين عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة وخافوا ان ملكها الا يبقى عليهم الا ان العجز عن منعه حملهم على طاعته فلما توفى العزيز صاحب مصر وملك الافضل مصر كما ذكرناه وبينه وبين العادل اختلاف فارسل أخذ عسكر مصر من عنده وأرسل الى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم الى موافقته فاجابوه الى ذلك فلما رحل الملك العادل عن ماردين الى دمشق كما ذكرناه برز نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عنها ثانى شعبان وسار الى دنيسر فنزل عليها ووافقه ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازى بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر فاجتمعوا كلهم بدنيسر الى ان عيدوا عيد الفطر ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم وتقدم العسكر الى تحت الجبل ليرتادوا موضعا للنزول وكان أهل ماردين قد عدمت الاقوات عندهم وكثرت الامراض فيهم حتى ان كثيرا منهم كان لا يطيق القيام فلما رأى النظام وهو الحاكم فى دولة صاحبها ذلك أرسل الى ابن العادل فى تسليم القلعة اليه الى أجل معلوم ذكره على شرط ان يتركهم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب فاجابهم الى ذلك وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم الى رأس القلعة وجعل ولد العادل بباب القلعة أميرا لا يترك يدخلها من الاطعمة الا ما يكفيهم يوما بيوم فأعطى من بالقلعة ذلك الامير شيأ فمكنهم من ادخال الذخائر الكثيرة فبينما هم كذلك اذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع فلما تقدم عسكره الى ذيل جبل ماردين قدر الله تعالى ان الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردين الى لقاء نور الدين وقتاله ولو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا ازالتهم لكن نزلوا ليقضى الله أمرا كان مفعولا فلما أصحروا من الجبل اقتتلوا وكان من عجيب الاتفاق ان قطب الدين صاحب سنجار كان قد واعد العسكر العادلى أن ينهزم اذا التقوا ولم يعلم بذلك أحدا من العسكر فقدر الله تعالى انه لما نزل العسكر العادلى واصطفت العساكر للقتال الجأت قطب الدين الضرورة بالزحمة الى أن وقف فى سفح بجبل ماردين ليس اليه طريق للعسكر العادلى ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين ففاته ما أراده من الانهزام فلما التقى العسكران واقتتلوا حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه فانهزم العسكر العادلى وصعدوا فى الجبل الى الربض وأسر منهم كثير فحملوا الى بين يدى نور الدين فاحسن اليهم ووعدهم الاطلاق اذا انفصلوا ولم يظن ان الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردين سريعا فجاءهم أمر لم يكن فى الحساب فان الملك الكامل لما صعد الى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا الى الذين جعلوهم بالربض من العسكر فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا فالقى الله الرعب فى قلوب الجميع فاعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال وتركوا كثيرا من أثقالهم ورحالهم وما أعدوه فاخذه أهل القلعة ولو ثبت العسكر العادلى بمكانه لم يمكن أحدا أن يقرب منهم ولما رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدين يولق بن ايلغازى الى نور الدين ثم عاد الى حصنه وعاد أتابك الى دنيسر ورحل عنها

الى

ماخلا دمشق ولما مات أخذ ولده نور الدين محمود خاتمه من اصبعه وسار الى حلب فملكها وسار ولده سيف الدولة غازى من شهرزور الى الموصل وملكها وسار الامير سيف الدولة غازى ونور الدين محمود ولدا عماد الدين الى دمشق مساعدين مجير الدين أتق بن محمد بن توزى بن طغتكين حين حصرها الفرنج بجموع عظيمة من الالمان والقسطنطينية فخاف الفرنج منهما ورحلوا عن دمشق عند وصولهما حمص وكان فى بعض القتال على دمشق قتل نور الدولة شاهنشاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف شهيدا وهذا شاهنشاه هو أبو الملك المظفر عمر صاحب حماه وأبو فرخشاه صاحب بعلبك وكان أكبر من شقيقه صلاح الدين ﴿ وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ﴾ مات سيف الدولة غازى بن زنكى بمرض حاد وكان كريما شجاعا وهو أول من حمل على رأسه السنجق وأمر الاجناد ان يشدوا السيوف فى أوساطهم ووضعوا الدبابيس تحت ركبهم واستقر أخوه مودود فى الموصل وبلادها وفيها توفى الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الامير أبى القاسم بن المستنصر

الى رأس عين على عزم قصد حران وحصرها فاتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكة وغير ذلك فتغيرت نية نور الدين وفتر عزمه عن حصرها فعزم على العود الى الموصل فهو يقدم الى العود رجلا ويؤخر أخرى اذ أصابه مرض فتحقق عزم العود الى الموصل فعاد اليها وأرسل رسولا الى الملك الافضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه فوصل الرسول ثانى ذى الحجة اليهم وهم على دمشق وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل فانه كان هو وكل من عنده ينتظرون مايجىء من أخباره فان من بحران استسلموا فقدر الله تعالى انه عاد فلما عاد جاء الملك الكامل الى حران وكان قد سار عن ماردين الى ميافارقين فلما رجع نور الدين سار الكامل الى حران وسار الى أبيه بدمشق على ما ذكرناه فازداد به قوة والافضل ومن معه ضعفا

﴿ ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان ﴾

فى هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة وهو بفيروزكوه عمت الرعية والملوك والامراء وسببها ان الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازى الامام المشهور الفقيه الشافعى كان قدم الى غياث الدين مفارقا لبهاء الدين سام صاحب باميان وهو ابن أخت غياث الدين فاكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ فى اكرامه وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع فقصده الفقهاء من البلاد فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة وأما الغورية فكلهم كرامية وكرهوه وكان أشد الناس عليه الملك ضياء الدين وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته فاتفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه للمناظرة وحضر فخر الدين الرازى والقاضى مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه وبيته فتكلم الرازى فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبه وشتمه وبالغ فى أذاه وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا الا واخذك الله استغفر الله فانفصلوا على هذا وقام ضياء الدين فى هذه الحادثة وشكى الى غياث الدين وذم الفخر ونسبه الى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين اليه فلما كان الغد وعظ ابن عم المجد بن القدوة بالجامع فلما صعد المنبر قال بعد ان حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم لا اله الا الله ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين أيها الناس انا لا نقول الا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها فلأى حال يشتم بالامس شيخ من شيوخ الاسلام يذب عن دين الله وعن سنة نبيه وبكى وضج الناس وبكى الكرامية واستغاثوا وأعانهم من يؤثر بعد الفخر الرازى عن السلطان وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة وكادوا يقتتلون ويجرى ما يهلك فيه خلق كثير فبلغ ذلك السلطان فارسل جماعة من عنده الى الناس وسكنهم ووعدهم باخراج الفخر من عندهم وتقدم اليه بالعود الى هراة فعاد اليها

﴿ ذكر مسير خوارزم شاه الى الرى ﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش الى الرى وغيرها من بلاد الجبل لانه بلغه أن نائبه بها مياجق قد تغير عن طاعته فسار اليه فخافه مياجق فجعل يفر من بين يديه وخوارزم شاه فى طلبه يدعوه الى الحضور عنده وهو يمتنع فاستأمن أكثر أصحابه الى خوارزم شاه وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فسارت العساكر فى طلبه فأخذ منها وأحضر بين يدى خوارزم شاه فامر بحبسه بشفاعة أخيه أقجة وسيرت الخلع من

العلوى صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة الا خمسة أشهر وكان عمره نحو سبعة وسبعين سنة ولم يكن من خلفاء مصر من أبوه غير خليفة الا هذا الحافظ والعاضد الآتى ذكره ولما توفى الحافظ بويع ولده الظافر أبو منصور اسمعيل وفيها حاصر نور الدين محمود بن زنكى حصن حارم وأسر البرنس صاحب انطاكية وجماعة من الفرنج ولناصح الدين شاور رسول اذا نابتك نائبة يوما وان كنت من أهل المشورات

فالعين تنظر منها ما نأى ودنا
ولا ترى نفسها الا بمرآة

﴿ وله أيضا عفى الله عنه ﴾

ماجبت آفاق البلاد مطوفا
الا وأنتم فى الورى متطلبى
سعيى اليكم فى الحقيقة والذى
تجدون عنكم فهو سعى الدهر بى

وفيها توفى ناصح الدين الارجانى وارجان من أعمال تستر وكان قاضيا بتستر واسمه أحمد بن محمد بن الحسين وله اشعار حسنة منها

ولما بلوت الناس أطلب عندهم
أخا ثقة عند اشتداد الشدائد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت
ولم أر فيما سرنى غير حاسد
تطلعت فى حالى رخاء وشدة
وناديت فى الحالين هل من مساعد

الخليفة لخوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليدما بيده من البلاد فلبس الخلعة واشتغل بقتال الملاحدة فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى ارسلان كشاه وانتقل الى حصار ألموت فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالرى وكان قد تقدم عنده تقدما عظيما فقتله الملاحدة وعاد خوارزم شاه الى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن على فقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين فامر تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة فقصد قلعة ترشيش وهى من قلاعهم فحصرها فاذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار ففارقها واغا صالحهم لانه بلغه خبر مرض أبيه وكانوا راسلونه بالصلح فلا يفعل فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول توفى مجاهد الدين قايماز رحمه الله بقلعة الموصل وهو الحاكم فى دولة نور الدين والمرجوع اليه فيها وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل فى ذى الحجة سنة احدى وسبعين وخمسمائة وولى اربل سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما مات زين الدين على كوجك سنة ثلاث وستين بقى هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم وكان عاقلا أديبا خبيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة ويحفظ من التاريخ والاشعار والحكايات شيأ كثيرا وكان كثير الصوم يصوم من كل سنة نحو أربعة أشهر وله أوراد كثيرة حسنة كل ليلة ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فيمن يستحق الصدقة ويعرف الفقير المستحق ويبرهم وبنى عدة جوامع منها الجامع الذى بظاهر الموصل بباب الجسر وبنى الربط والمدارس والخانات فى الطرق وله من المعروف شئ كثير رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية وصار شافعى المذهب وكان سبب ذلك أنه كان عنده انسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية متفننا فى كثير من العلوم فاوصل الى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروروذى الفقيه الشافعى فاوضح له مذهب الشافعى وبين له فساد مذهب الكرامية فصار شافعيا وبنى المدارس للشافعية وبنى بغزنة مسجدا لهم أيضا وأكثر مراعاتهم فسعى الكرامية فى أذى وجيه الدين فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك وقيل ان غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا فى خراسان قيل لهما ان الناس فى جميع البلاد يزرون على الكرامية ويحتقرونهم والرأى ان تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين وقيل ان شهاب الدين كان حنفيا والله أعلم وفى هذه السنة توفى أبو القاسم يحيى ابن على بن فضلان الفقيه الشافعى وكان اماما فاضلا ودرس ببغداد وكان من أعيان أصحاب محمد ابن يحيى النيسابورى

(ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك العادل الديار المصرية)

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الافضل والظاهر ولدى صلاح الدين دمشق ورحيلهما الى رأس الماء على عزم المقام بحوران الى ان يخرج الشتاء فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر بردا شديدا لان البرد فى ذلك المكان فى الصيف موجود فكيف فى الشتاء فتغير العزم على المقام واتفقوا على ان يعود كل انسان منهم الى بلده ويعودوا الى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الاول فعاد الظاهر وصاحب حمص الى بلادهما وسار الافضل الى مصر فوصل بلبيس فأقام بها ووصلته

تمتعتما يا ناظرى بنظرة
واوردتما قلبى أمر الموارد
أعينى كفا عن فؤادى فانه
من البغى سعى اثنين فى قتل
واحد

وفيها توفى بمراكش القاضى عياض السبتى ومولده بها سنة ست وسبعين وأربعمائة ومن تصانيفه الاكمال فى شرح مسلم ومشارق الانوار فى غريب الحديث والشفاء وغيره (وفى سنة ست واربعين وخمسمائة) جمع نور الدين محمود بن زنكى عساكره وتوجه نحو الفرنج بعد ان كسره منهم شجاع عظيم اسمه جوسلين ثم امسكه التركمان لما خرج يتصيد واحضروه الى نور الدين أسيرا فملك نور الدين سائر قلاعه تل باشر وعينتاب ودلوك وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لاثا ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك وكان فتحا عظيما للمسلمين (وفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة) مات السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان ومولده سنة اثنتين وخمسمائة وبه انقضت سعادة بيت سلجوق ولم يشهر بعد ذلك لولده رياسة ولا سمعة وفيها توفى صاحب ماردين وميافارقين حسام الدين تمرتاش ابن ايلغازى بن ارتق وفيها

الاخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوه ان يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك الى ان يكبر فساروا على هذا وكان عسكر مصر قد تفرق عن الافضل من الخشبى فسار كل منهم الى اقطاعه ايريحوا دوابهم فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة ممن قرب اقطاعه ووصل العادل وأشار بعض الناس على الافضل ان يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السائح فى طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر فانهزم الافضل ودخل القاهرة ليلا وفى تلك الليلة توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى كاتب الانشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الافضل الصلاة عليه وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل رسولا الى عمه فى الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه فنزل عنها الى حران والرها فلم يجبه فنزل الى ميافارقين وحانى وجبل جور فأجابه الى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ولما وصل الافضل الى صرخد أرسل من تسلم ميافارقين وحانى وجبل جور فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين وسلم ما عداها فترددت الرسل بين الافضل والعادل فى ذلك والعادل يزعم ان ابنه عصاه فامسك عن المراسلة فى ذلك لعلمه ان هذا فعل بأمر العادل ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز فى شوال من السنة وخطب لنفسه وحاقق الجند فى اقطاعاتهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم فكان ما نذكره سنة سبع وتسعين ان شاء الله

(ذكر وفاة خوارزم شاه)

فى هذه السنة فى العشرين من رمضان توفى خوارزم شاه تكش بن ارسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والرى وغيرها من البلاد الجبالية بشهرستانة بين نيسابور وخوارزم وكان قد سار من خوارزم الى خراسان وكان به خوانيق فأشار عليه الاطباء بترك الحركة فامتنع وسار فلما بلغ شهرستانة اشتد مرضه ومات ولما اشتد مرضه أرسلوا الى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعرفونه شدة مرض أبيه فسار اليهم وقد مات أبوه فولى الملك بعده ولقب علاء الدين لقب أبيه وكان لقبه قطب الدين وأمر فحمل أبوه ودفن بخوارزم فى تربة عملها فى مدرسة بناها كبيرة عظيمة وكان عادلا حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة ويعرف الاصول وكان ولده على شاه باصفهان فأرسل اليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه فسار اليه فنهب أهل اصفهان خزانته ورحله فلما وصل الى أخيه ولاه حرب خراسان والتقدم على جندها وسلم اليه نيسابور وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيرا من خزائن جده تكش لما مات وكان معه وسار الى مرو ولما سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر ان لا تضرب نوبته ثلاثة أيام وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة فعد ذلك عقلا منه ومروأة ثم ان هندوخان جمع جمعا كثيرا بخراسان فسير اليه عمه خوارزم شاه جيشا مقدمهم جقر التركى فلما سمع هندوخان بمسيرهم هرب من خراسان وسار الى غياث الدين يستنجده على عمه فاكرم لقاءه وانزله وأقطعه ووعده النصرة فأقام عنده ودخل

انقرضت دولة آل سبكتكين حين أمسك خسروشاه وحبس هو وولده ولم يظهر لهما بعد ذلك خبر حبسهما غياث الدين محمد ابن سام الآتى ذكره وهذا خسروشاه هو ابن بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود ابن سبكتكين ملكوا مائتى سنة وثلاث عشرة سنة وكانوا من أحسن الملوك سيرة بغزنة وما تابعها من بلاد العجم وملك بعدهم الغورية أولهم السلطان علاء الدين الحسين وتلقب بالسلطان المعظم واستعمل على غزنة غياث الدين محمدا وشهاب الدين أحمد ولدى أخيه سام ورتبا الامر على طريق السلجوقية واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وملكوا غالب بلاد الهند ووصلوا الى ما لم يصل اليه أحد من ملوك المسلمين وفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة وقع بين السلطان سنجر وبين الاتراك فتنة عظيمة وقتال كثير انتصر فيها سنجر ثم كسر ثم أسر ثم تزهد وترك الملك وتصوف بخانقاه مرو واستولى الغز على بلاد المسلمين الى خراسان وغيره وقتلوا القضاة والعلماء والصلحاء الذين بتلك البلاد الى ان اجتمعت المسلمون على شخص من مماليك

جقر مدينة مرو وبها والدة هندوخان وأولاده فاستظهر عليهم وأعلم صاحبه فأمره بارسالهم الى خوارزم مكرمين فلما سمع غياث الدين ذلك أرسل الى محمد بن جربك صاحب الطالقان يأمره ان يرسل الى جقر يتهدده ففعل وسار من الطالقان فأخذ مرو الرو وذوا لجس قرى وتسمى بالفارسية پنج ده وأرسل الى جقر يأمره باقامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد فأعاد الجواب يتهدد ابن جربك ويتوعده وكتب اليه سرا يسأله أن يأخذ له أمانا من غياث الدين ليحضر خدمته وكتب الى غياث الدين بذلك فلما قرأ كتابه علم ان خوارزم شاه ليس له قوة فلهذا طلب جقر الانحياز اليه فقوى طمعه في البلاد وكتب الى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج الى خراسان ليتفقا على أخذ بلاد خوارزم شاه محمد

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الاسماعيلية على نظام الملك مسعود بن علي وزير خوارزم شاه تكش فقتلوه وكان صالحا كثير الخير حسن السيرة شافعي المذهب بنى للشافعية بمرو جامعا مشرفا على جامع الحنفية فتعصب شيخ الاسلام وهو مقدم الحنابلة بها فيهم والرياسة وجمع الاوباش فأحرقه فأنفذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الاسلام وجماعة ممن سعى في ذلك فأغرمهم مالا كثيرا وبنى الوزير أيضا مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا وجعل فيها خزانة كتب وله آثار حسنة بخراسان باقية ولما مات خلف ولدا صغيرا فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق أبيه فأشير عليه ان يستعفي فأرسل يقول انني صبي لا أصلح لهذا المنصب الجليل فيولي السلطان فيه من يصلح له الى ان أكبر فان كنت أصلح فأنا المملوك فقال خوارزم شاه لست أعفيك وأنا وزيرك فكن مراجعي في الامور فانه لا يقف منها شئ فاستحسن الناس هذا ثم ان الصبي لم تطل أيامه فتوفي قبل خوارزم شاه بيسير وفي هذه السنة في ربيع الاول توفي شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحراني المقيم ببغداد وله ست وتسعون سنة وشهران وكان عالي الاسناد في الحديث وكان ثقة صحيح السماع وفي ربيع الآخر منها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه ودفن بظاهر مصر بالقرافة وكان دينا كثير الصدقة والعبادة وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الاسارى وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان وكان السلطان صلاح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع الى قوله رحمهما الله

﴿ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الافضل مدينة دمشق وعودهما عنها﴾

قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وانه لما فعل ذلك لم يرضه الامراء المصريون وخبثت نياتهم في طاعته فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والافضل بصرخد وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما الى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل اليهم فاذا خرج اليهم من مصر أسلموه وصاروا معهما فيملكا البلاد وكثر ذلك حتى فشا الخبر واتصل بالملك العادل وانضاف الى ذلك ان النيل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب الارض ليزرع الناس فكثر الغلاء فضعفت قوة الجند وكان فخر الدين جهاركس قد فارق مصر الى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل وكانت لامير كبير تركي اسمه بشارة قد اتهمه العادل فأمر جهاركس بذلك وكان أميرا من أمراء العادل يعرف بعز الدين أسامة قد حج هذه السنة فلما عاد من

سنجر اسمه أيبه لقبوه المؤيد فازاح الغز عن غالب بلاد المسلمين وأظهر العدل وانضم اليه مملوك آخر لسنجر اسمه اينانج وعظم شأنهما وفيها توفي الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني الاشعري صاحب نهاية الاقدام في علم الكلام والملل والنحل ومولده سنة سبع وستين وأربعمائة بشهرستان وتوفي بها وشهرستان التي هذا العالم منها هي مدينة بناها عبد الله بن طاهر أمير خراسان بين نيسابور وخوارزم وثم مدينة أخرى اسمها شهرستان بينها وبين اليهودية مدينة اصفهان نحو ميل ومدينة أخرى اسمها شهرستان بارض فارس (وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة) قتل الظافر بالله أبو منصور اسمعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي قتله وزيره عباس الصنهاجي لما قيل انه يفسق في ولده نصر وقتل أخويه يوسف وجبريل وولى الخلافة لابنه عيسى وكان عمره خمس سنين ولقبه القائم بنصر الله ثم هرب عباس بعمدة الى الشام فقتله الفرنج في الطريق وأسروا ابنه نصرا واستقر في الوزارة طلائع بن رزيك ولقب الملك الصالح وبنى جامع الصالح الذي خارج باب زويلة وفي هذه السنة بلغ

الحج وقارب صرخد نزل الملك الافضل فلقيه وأكرمه ودعاه الى نفسه فأجابه وحلف له وعرفه الافضل جلية الحال وكان أسامة من بطانة العادل وانما حاف لينكشف له الامر فلما فارق الافضل أرسل الى العادل وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه فأرسل الى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الافضل بصرخد وكتب الى اياس جركس وميمون القصري صاحب بلبيس وغيرهما من الناصرية يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الافضل وسمع الافضل الخبر فسار الى أخيه الظاهر بحلب مستهل جمادى الاولى من السنة ووصل الى حلب عاشر الشهر وكان الظاهر قد أرسل أميرا كبيرا من أمرائه الى عمه العادل فمنعه العادل من الوصول اليه وأمره بأن يكتب رسالته فلم يفعل وعاد لوقته فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فملكها السادس والعشرين من رجب وسار الى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب وأما الملك المعظم عيسى بن العادل المقيم بدمشق فانه سار الى بصرى وأرسل الى جهاركس ومن معه وهم على بانياس يحصرونها يدعوهم اليه فلم يجيبوه الى ذلك بل غالطوه فلما طال مقامه على بصرى عاد الى دمشق وأرسل الامير أسامة اليهم يدعوهم الى مساعدته فاتفق انه جرى بينه وبين البكاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغلظ له البكاء القول وتعدى الى الفعل باليد وثار العسكر جميعه على أسامة فاستذم بميمون فأمنه وأعاده الى دمشق واجتمعوا كلهم عند الملك الظافر خضر بن صلاح الدين وأنزلوه من صرخد وأرسلوا الى الملك الظاهر والافضل يحثونهما على الوصول اليهم والملك الظاهر يتربص ويتعوق فوصل من منبج الى حماة في عشرين يوما وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين الى تاسع عشر شهر رمضان فاصطلحا وحمل له ابن تقي الدين ثلاثين ألف دينار صورية وساروا عنها الى حمص وساروا منها الى دمشق على طريق بعلبك فنزلوا عليها عند مسجد القدم فلما نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصرية مع الملك الظافر خضر بن صلاح الدين وكانت القاعدة استقرت بين الظاهر وأخيه الافضل انهم اذا ملكوا دمشق تكون بيد الافضل ويسيرون الى مصر فاذا ملكوها تسلم الظاهر دمشق ويبقى الشام جميعه له وتبقى مصر للافضل وسلم الافضل صرخد الى زين الدين قراجة مملوك والده ليحضر في خدمته وأنزل والدته وأهله منها وسيرهم الى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها وكان الملك العادل قد سار من مصر الى الشام فنزل على مدينة نابلس وسير جمعا من العسكر الى دمشق ليحفظها فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وحضر فخر الدين جهاركس وغيره من الناصرية فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وزحفوا الى دمشق وقاتلوها رابع عشر ذي القعدة واشتد القتال عليها فالتصق الرجال بالسور فأدركهم الليل فعادوا وقد قوي الطمع في أخذها ثم زحفوا اليها مرة ثانية وثالثة فلم يبق الا ملكها الا ان العسكر صعد الى سطح خان ابن المقدم وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لملكوا البلد فلما أدركهم الليل وهم عازمون على الزحف بكرة وليس لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الافضل فأرسل اليه يقول له تكون دمشق له وبيده ويسير العساكر معه الى مصر فقال له الافضل قد علمت ان والدتي وأهلي وهم أهلك أيضا على الارض ليس لهم موضع يأوون اليه فاحسب ان هذا البلد لك تعيرنا اياه ليسكنه أهلي هذه المدة الى ان نملك مصر فلم يجبه الظاهر في ذلك ولج فلما رأى الافضل ذلك الحال قال للناصرية وكل من جاء اليهم من الجند ان كنتم جئتم الي فقد أذنت لكم في العود الى العادل وان كنتم جئتم الى أخي الظاهر فأنتم وهو أخبر وكان الناس كلهم يريدون الافضل فقالوا

نور الدين محمود بن زنكي ان الفرنج طمعوا في أن يأخذوا دمشق حتى انهم أطلقوا كل أسير بدمشق من الجواري والمماليك الذين لم يسلموا على رغم استاذيهم فكاتب أهل دمشق واستمالهم وسار اليها وحاصرها ففتح له الباب الشرقي فدخل منه وملك المدينة وحاصر صاحبها مجير الدين انق بن محمد بن توزي في القلعة ثم نزل اليه بالامان واعطاه نيابة حمص وقبل وصوله اليها عزله عنها واعطاه بالس فغضب وراح الى بغداد وسكنها الى ان مات (وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة) في رجب جاءت زلازل عظيمة بالشام خربت بها شيزر وحماة وحمص وحصن الاكراد وطرابلس وانطاكية ووقعت القلاع والاسواق وهلك تحت الهدم ما لا يحصى من الخلق قال السلطان عماد الدين كان بمدينة حماة اذ ذاك كتاب سقط على جميع الصبيان وكان الفقيه غائبا فلما حضر الى الكتاب لم يحضر أحد يسأل عن صبي كان له قال وكان صاحب شيزر قد ختن ولدا له وجمع في داره بني منقذ كلهم فلما جاءت الزلزلة وقع البيت عليهم أجمعين لم ينج منهم الا واحد

ما نريد سواك والعادل أحب الينا من أخيك فاذن لهم في العود فهرب فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجة الذي أعطاه الافضل صرخد فمنهم من دخل دمشق ومنهم من عاد الى اقطاعه فلما انفسخ الامر عليهم عادوا الى تجديد الصلح مع العادل فترددت الرسل بينهم واستقر الصلح على ان يكون للظاهر منبج وافامية وكفرطاب وقرى معينة من المعرة ويكون للافضل سميساط وسروج ورأس العين وجملين ورحلوا عن دمشق أول المحرم سنة ثمان وتسعين فقصد الافضل حمص فأقام بها وسار الظاهر الى حلب ووصل العادل الى دمشق تاسع المحرم وسار الافضل اليه من حمص فاجتمع به بظاهر دمشق وعاد من عنده الى حمص وسار منها اليتسلم سميساط فتسلمها وتسلم باقي ما استقر له برأس العين وسروج وغيرها

﴿ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان﴾

قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان واستيلاءه على مرو وذوسؤال جقر التركي نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه عروأن يكون في جملة عسكر غياث الدين ولما وصل كتاب ابن خرميل الى غياث الدين في معنى جقر علم ان هذا العاد عاه الى الانتماء اليهم ضعف صاحبه فأرسل الى أخيه شهاب الدين يستدعيه الى خراسان فسار من غزنة في عساكره وجنوده وعدته وما يحتاج اليه وكان بهراة الامير عمر بن محمد المرغني نائبا عن غياث الدين وكان يكره خروج غياث الدين الى خراسان فأحضره غياث الدين واستشاره فأشار بالكف عن قصدها وترك المسير اليها فأنكر عليه ذلك وأراد ابعاده عنه ثم تركه ووصل شهاب الدين في عساكره وعساكر سجستان وغيرها في جمادى الاولى من هذه السنة فلما وصلوا الى ميمنة وهي قرية بين الطالقان وكرزبان وصل الى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليسلمها اليه فاستأذن أخاه غياث الدين فأذن له فسار اليها فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمي وقاتلوه فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجد في قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة الى ان قاربوا السور فطلب أهل البلد الامان فأمنهم وكف الناس عن التعرض اليهم وخرج جقر الى شهاب الدين فوعده الجميل ثم حضر غياث الدين الى مرو بعد فتحها فأخذ جقر وسيره الى هراة مكرما وسلم مرو الى هندوخان بن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش وقد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش الى غياث الدين ووصاه بالاحسان الى أهلها ثم سار غياث الدين الى مدينة سرخس فأخذها صلحا وسلمها الى الامير زنكي بن مسعود وهو من أولاد عمه وأقطعه معها نسا وابيورد ثم سار بالعساكر الى طوس فأراد الامير الذي بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها فأغلق باب البلد ثلاثة أيام فبلغ الخبز ثلاثة أمناء بدينار ركني فضج أهل البلد عليه فأرسل الى غياث الدين يطلب الامان فأمنه فخرج اليه فخلع عليه وسيره الى هراة ولما ملكها أرسل الى علي شاه بن خوارزم شاه تكش وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره ان أقام سطوة أخيه شهاب الدين وكان مع علي شاه عسكر من خوارزم شاه فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا ما بظاهره من العمارة وقطعوا الاشجار وسار غياث الدين الى نيسابور فوصل اليها أوائل رجب وتقدم عسكر أخيه شهاب الدين الى القتال فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو وهم يريدون يفتحون نيسابور فيحصلون بالاسم فاحمل الى البلد ولا ترجع حتى تصل السور فحمل وحمل معه وجوه الغورية فلم يردهم أحد عن السور حتى أصعدوا علم

خرج الى الباب فضربته فرس كانت على الباب فقتلته وبلغ ذلك نور الدين فأرسل اليها وأخذها وقال ابن الاثير في الكامل ان بني منقذ ملكوا شيزر من أيام الصالح بن مرداس حين ملك حلب في سنة أربع عشرة وأربعمائة وذكر ابن خلكان وابن أبي الدم ان بني منقذ ملكوا شيزر في سنة أربع وسبعين وأربعمائة وذكر عن السلطان سنجر السلجوقي انه اصطبح خمسة أيام متوالية ذهب في الجود بها كل مذهب فبلغ ما وهبه من العين سبعمائة ألف دينار غير ما أنعم به من الخيل والاثاث وغير ذلك وقال خازنه اجتمع في خزائنه من الاموال ما لم أسمع انه اجتمع في خزائن أحد من الملوك الاكاسرة وقلت له يوما حصل في خزائنك ألف ثوب ديباج أطلس وأحب ان تبصرها فسكت وظننت انه رضي بذلك فأبرزت جميعها وقلت أما تنظر الى مالك أما تحمد الله تعالى على ما أعطاك وأنعم عليك فحمد الله تعالى ثم قال يقبح على مثلي ان يقال مال الى المال وأمر بالاذن للامراء في الدخول فدخلوا عليه ففرق عليهم الثياب الطلس وانصرفوا واجتمع عنده

غياث

غياث الدين اليه فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور قال لاصحابه اقصدوا بنا هذه الناحية واصعدوا السور من ههنا وأشار الى مكان فيه فسقط السور منهدما فضج الناس بالتكبير وذهل الخوارزميون وأهل البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار فبلغ الخبر الى غياث الدين فأمر بالنداء من نهب مالا أو آذى أحدا فدمه حلال فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره ولقد حدثني بعض أصدقائنا من التجار وكان بنيسابور في هذه الحادثة نهب من متاعي شيء من جملته سكر فلما سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا مني وبقي لي بساط وشيء من السكر مع جماعة فطلبته منهم فقالوا أما السكر فأكلناه فنسألك أن لا يسمع أحد وان أردت ثمنه أعطيناك فقلت أنتم في حل منه ولم يكن البساط مع أولئك قال فمشيت الى باب البلد مع النظارة فرأيت البساط الذي لي قد ألقي عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته وقلت هذا لي فطلبوا مني من يشهد به فأحضرت من شهد لي وأخذته ثم ان الخوارزميين تحصنوا بالجامع فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم وأخذ علي شاه بن خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلا فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الامر فيه وحضرت دابة كانت لعلي شاه وقال لغياث الدين أهكذا يفعل بأولاد الملوك فقال لا بل هكذا وأخذ بيده وأقعده معه على السرير وطيب نفسه وسير جماعة الامراء الخوارزمية الى هراة تحت الاستظهار وأحضر غياث الدين ابن عمه وصهره على ابنته ضياء الدين محمد بن أبي الغوري وولاه حرب خراسان وخراجها ولقبه علاء الدين وجعل معه وجوه الغورية ورحل الى هراة وسلم علي شاه الى أخيه شهاب الدين وأحسن الى أهل نيسابور وفرق فيهم مالا كثيرا ثم رحل بعده شهاب الدين الى ناحية قهستان فوصل الى قرية فذكر له ان أهلها اسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب الاموال وسبي الذراري وخرب القرية فجعلها خاوية على عروشها ثم سار الى كناباد وهي من المدن التي جميع أهلها اسماعيلية فنزل عليها وحصرها فأرسل صاحب قهستان الى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويقول بيننا عهد فما الذي بدا منا حتى تحاصر بلدي واشتد خوف الاسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين فطلبوا الامان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها الى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الاسلام ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للاسماعيلية فوصل اليه رسول أخيه غياث الدين فقال للرسول معي تقدم من السلطان فلا يجري حردان فعلته فقال لا أرحل قال اذن افعل ما أمرني قال افعل فسل سيفه وقطع اطناب سرادق شهاب الدين وقال ارحل بتقدم السلطان فرحل شهاب الدين والعسكر وهو كاره الى بلاد الهند ولم يقم بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه

﴿ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما﴾

في هذه السنة أيضا تجهز نور الدين ارسلان صاحب الموصل وجمع عساكره وسار الى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها وكان سبب حركته ان الملك العادل لما ملك مصر على ما ذكرناه قبل اتفق نور الدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهما على ان يكونوا يدا واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم فلما تجدد حركة الافضل والظاهر ارسلا الى نور الدين ليقصد البلاد الجزرية فسار عن الموصل في شعبان من هذه السنة وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين وصاحب ماردين ووصل الى رأس العين وكان الزمان قيظا فكثرت الامراض في عسكره وكان بحران ولد العادل يلقب بالملك الفائز ومعه عسكر

من الجوهر ألف وثلاثون رطلا ولم يسمع لاحد من الملوك بمثل هذا ولا ما يقاربه ولم يزل أمره في ازدياد وسعادة في الترقي الى ان ظهرت عليه الغز وكسروه وانحل نظام ملكه وملكوا نيسابور وأسروه ثم بعد ذلك افلت منهم وعاد الى خراسان وتوفي وانقطع بموته جميع الملوك السلجوقية بخراسان واستولى على أكثر مملكته خوارزمشاه فسبحان من لا يزول ملكه وفيها في ربيع الاول توفي السلطان سنجر بن ملكشاه ابن ألب أرسلان بالقولنج ومولده بسنجار في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة خطب له على أكثر منابر الاسلام بالسلطنة أربعين سنة وخوطب بالملك قبلها عشرين سنة وفيها استولى أبو سعيد بن عبد المؤمن على غرناطة من الاندلس وأخذها من الملثمين وانقضت دولة الملثمين وفتح المرية من أيدي الفرنج وكانت معهم عشرين سنة وفيها ملك نور الدين محمود بن زنكي بعلبك أخذها من ضحاك البقاعي وفيها قلع المقتفي الخليفة ببغداد باب الكعبة وعمل عوضه

يحفظ البلاد فلما وصل نور الدين الى رأس العين جاءت رسل الفائز ومن معه من أكابر الامراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدا يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والافضل وانضاف الى ذلك كثرة الامراض فى عسكره فأجاب اليه وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الامراء على القاعدة التى استقرت وحلفوا انهم يحلفون الملك العادل له فان امتنع كانوا معه عليه وحلف هو للملك العادل وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده فى طلب اليمين من العادل فأجاب الى ذلك وحلف له واستقرت القاعدة وأمنت البلاد وعاد نور الدين الى الموصل فى ذى القعدة من السنة

﴿ذكر ملك شهاب الدين نهرواله﴾

لما سار شهاب الدين من خراسان على ما ذكرناه لم يقم بغزنة وقصد بلاد الهند وأرسل مملوكه قطب الدين ايبك الى نهرواله فوصلها سنة ثمان وتسعين فلقيه عسكر الهنود فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم ايبك واستباح معسكرهم وما لهم فيه من الدواب وغيرها وتقدم الى نهرواله فملكها عنوة وهرب ملكها فجمع وحشد فكثر جمعه وعلم شهاب الدين انه لا يقدر على حفظها الا بأن يقيم هو فيها أو يخليها من أهلها فتعذر عليه ذلك فان البلد عظيم هو أعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلا فصالح صاحبها على مال يؤديه اليه عاجلا وآجلا وأعاد عساكره عنها وسلمها الى صاحبها

﴿ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم﴾

فى هذه السنة فى شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان مدينة ملطية وكانت لاخيه معز الدين قيصرشاه فسار اليه وحصره أياما وملكها وسار منها الى ارزن الروم وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق وهم بيت قد ملكوا ارزن الروم مدة طويلة فلما سار اليها وقاربها خرج صاحبها اليه ثقة به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وكان هذا آخر أهل بيته ملكوا فتبارك الله الحى القيوم الذى لا يزول ملكه أبدا سرمدا

﴿ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود﴾

فى هذه السنة توفى قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق كان له بظاهر حصن كيفا فمات وكان شديد الكراهة لاخيه هذا والنفور عنه قد أبعده وأنزله حصن منصور فى آخر بلادهم واتخذ مملوكا اسمه اياس فزوجه أخته وأحبه حبا شديدا وجعله ولى عهده فلما توفى ملك بعده عدة أيام وتم دوز يرا كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة فارسلوا الى أخيه محمود سرا يستدعونه فسار مجدا فوصل الى آمد وقد سبقه اليها اياس مملوك أخيه فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس المملوك فبقى مدة محبوسا ثم شفع له صاحب بلاد الروم فأطلق من الحبس وسار الى الروم فصار أميرا من أمراء الدولة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الاقوات حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضا ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس وفى شعبان منها زلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها فأثرت فى الشام آثارا قبيحة وخربت كثيرا من الدور بدمشق وحمص وحماة وانخسفت قرية من قرى بصرى وأثرت فى الساحل

الشامى أثرا كثيرا فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا ونابلس وغيرها من القلاع ووصلت الزلزلة الى بلاد الروم وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دورا وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان وذلك ان جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل وفى هذه السنة فى شهر رمضان توفى أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى الواعظ ببغداد وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة فى الناس لا سيما فى العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له وكان مولده سنة عشر وخمسمائة وفيها أيضا توفى عيسى بن نصير النميرى الشاعر وكان حسن الشعر وله أدب وفضل وكان موته ببغداد وفيها توفى العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد اوله باللام المشددة وهو العماد الكاتب الاصفهانى كتب لنور الدين محمود بن زنكى ولصلاح الدين يوسف بن أيوب رضى الله عنهما وكان كاتبا مفلقا قادرا على القول وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوى المتغلب على جبال اليمن جموعا كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس ومن الرجالة ما لا يحصى كثرة وكان قد انضاف اليه من جند المعز بن اسمعيل بن سيف الاسلام طغدكين بن أيوب صاحب اليمن خوفا منه وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف الاسلام خوفا عظيما فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة ليلا ليتفقوا على رأى يكون العمل بمقتضاه وكانوا اثنى عشر قائدا فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم فأتى الخبر ابن سيف الاسلام فى باقى الليلة بذلك فسار اليهم مجدا فأوقع بالعسكر المجتمع فلم يثبتوا له وانهزموا بين يديه ووضع السيف فيهم فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك وثبت ملكه واستقر أمره وفيها وقع فى بنى عنزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون فى عشرين قرية فوقع الوباء فى ثمان عشرة قرية فلم يبق منهم أحد وكان الانسان اذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها فتحاماها الناس وبقيت ابلهم وأغنامهم لا مانع لها وأما القريتان الاخريان فلم يمت فيهما أحد ولا أحسوا بشئ مما كان فيه أولئك

﴿ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده﴾

قد ذكرنا فى سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان ومرو ونيسابور وغيرها وعودهما عنها بعد ان أقطعا البلاد ومسير شهاب الدين الى الهند فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان ودخول شهاب الدين الهند أرسل الى غياث الدين يعاتبه ويقول كنت أعتقد ان تخاف على بعد أبى وان تنصرنى على الخطا وتردهم عن بلادى فحيث لم تفعل فلا أقل من ان لا تؤذينى وتأخذ بلادى والذى أريده ان تعيد ما أخذته منى الى والا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الاتراك ان عجزت عن أخذ بلادى فاننى انما شغلنى عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدى وتقرير أمر بلادى والا فأنا بها أعجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها فغالطه غياث الدين فى الجواب ليمهد الايام بالمراسلات ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر فان غياث الدين كان عاجزا باستيلاء النقرس عليه فلما وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل الى علاء الدين الغورى نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده ان لم يفعل فكتب علاء الدين الى غياث الدين بذلك ويعرفه ميل أهل البلد الى الخوارزميين فأعاد غياث الدين جوابه يقوى قلبه ويعده النصرة والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة فلما قارب نسا وابيورد هرب هندوخان ابن أخى ملك شاه من مرو

بابا مصفحا بالفضة المذهبة وعمل لنفسه من الباب تابوتا يدفن فيه (وفى سنة أربع وخمسين وخمسمائة) فتح عبد المؤمن المهدية من أيدى الفرنج وكانت معهم اثنتى عشرة سنة (وفى سنة خمس وخمسين وخمسمائة) توفى الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى ابن الظافر اسمعيل خليفة مصر وكانت خلافته ست سنين وشهرين واستقر فى الخلافة العاضد لدين الله أبو محمد بن عبد الله بن الامير يوسف بن الحافظ لدين الله وفيها توفى المقتفى لامر الله أبو عبد الله بن المستظهر خليفة بغداد وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوما وكان حسن السيرة وهو أول من استبد بالعراق عن سلطان يكون معه وبويع ولده يوسف ولقب المستنجد بالله وأمه تدعى طاوس (وفى سنة ست وخمسين وخمسمائة) توفى السلطان علاء الدين الحسين بن الحسين الغورى وكان عادلا حسن السيرة وملك موضعه ابن أخيه غياث الدين محمد وفيها قتل الملك الصالح وزير مصر للخليفة العاضد بعد وزارته للفائز وتزوج العاضد بابنته كان فاضلا لا سيما فى العطاء محبا لاهل الفضائل جيد الشعر ومن شعره

ومهفهف ثمل القوام سرت الى
أعطافه النشوات من عينيه
ماضى اللحاظ كأنما سلت يدى
سيفى غداة الروع من جفنيه
قد قلت اذ خط العذار بمسكه
فى خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وانما
أصداغه نفضت على خديه
الناس طوع يدى وأمرى نافذ
فيهم وقلبى الآن طوع يديه
فاعجب لسلطان يعم بعدله
ويجور سلطان الغرام عليه

وهذا الصالح هو الذى بنى الجامع الذى على باب زويلة بظاهر القاهرة ورزيك بضم الراء وتشديد الزاى المكسورة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها كاف طلائع ابن رزيك أرسلت له عمة العاضد الخليفة من قتله بالسكاكين ولم يمت من ساعته وحمل الى بيته وأرسل يعتب العاضد فاعتذر وحلف وأرسل عمته اليه فقتلها ثم مات واستقر ابنه رزيك فى الوزارة ولقب بالملك العادل وكان لطلائع المذكور شعر حسن منه

نبى الله الان يدين لنا الدهر

الى غياث الدين بفيروز كوه وملك خوارزم شاه مدينة مرو وسار الى نيسابور وبها علاء الدين فحصره وقاتله قتالا شديدا وطال مقامه عليها وراسله غير مرة فى تسليم البلد اليه وهو لا يجيب الى ذلك انتظار المدد من غياث الدين فبقى نحو شهرين فلما أبطأت عليه النجدة أرسل الى خوارزم شاه يطلب الامان لنفسه وان معه من الغورية وانه لا يتعرض اليهم بحبس ولا غيره من الاذى فأجابه الى ذلك وحلف لهم وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه اليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة وطلب من علاء الدين ان يسعى فى الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه فأجابه الى ذلك وسار الى هراة وفيها اقطاعه ولم يمض الى غياث الدين تجنيا عليه لتأخر امداده ولما خرج الغورية من نيسابور احسن خوارزم شاه الى الحسين بن خرميل وهو من اعيان امرائهم زيادة على غيره وبالغ فى اكرامه فقيل ان من ذلك اليوم استحلفه لنفسه وان يكون معه بعد غياث الدين واخيه شهاب الدين ثم سار خوارزم شاه الى سرخس وبها الامير زنكى فحصره اربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة ضاقت الميرة على اهل البلد لا سيما الحطب فأرسل زنكى خوارزم شاه يطلب منه ان يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو واصحابه ويترك البلد له فراسله خوارزم شاه فى الاجتماع به ليحسن اليه والى من معه فلم يجبه الى ذلك واحتج بقرب نسبه من غياث الدين فابعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره فخرج زنكى فأخذ من الغلات وغيرها التى فى العسكر ما أراد لا سيما من الحطب وعاد الى البلد واخرج منه من كان قد ضاق به الامر وكتب الى خوارزم شاه العود احمد فندم حيث لم ينفعه الندم ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الامراء يحصرونه فلما ابعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان وهو من امراء الغورية وارسل الى زنكى امير سرخس يعرفه انه يريد يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج اذا سمع الغلبة وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس وخرج زنكى ووافى محمد بن جربك وعسكرا فى مرو الروذ واخذا خراجها وما يجاورها فسير اليهم خوارزم شاه عسكرا مع خاله فلقيهم محمد بن جربك وقاتلهم وحمل بات فى يده على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله والقى علمهم وكسر كوساتهم فانقطع صوتها عن العسكر ولم يروا اعلامهم فانهزموا وركبهم الغورية قتلا واسرا نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك فى تسعمائة فارس وغنم جميع معسكرهم فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد الى خوارزم وارسل الى غياث الدين فى الصلح فأجابه عن رسالته مع امير كبير من الغورية يقال له الحسين بن محمد المرغنى ومرغن من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه

﴿ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها﴾

لما أرسل خوارزم شاه الى غياث الدين فى الصلح وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغنى مغالطا قبض خوارزم شاه على الحسين وسار الى هراة ليحاصرها فكتب الحسين الى أخيه عمر بن محمد المرغنى أمير هراة يخبره بذلك فاستعد للحصار وكان سبب قصد خوارزم شاه حصارها ان رجلين أخوين ممن كان يخدم محمدا سلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه فأكرمهما غياث الدين وأحسن اليهما فقال لاحدهما الامير الحاجى فكاتبا خوارزم شاه واطمعاه فى البلد وضمنا له تسليمه اليه فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها فسلم الامير عمر المرغنى أمير البلد مفاتيح الابواب اليهما وجعلهما على القتال ثقة منه بهما وظنا منه انهما عدوا خوارزم شاه تكش وابنه محمد بعده فاتفق ان بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغنى عند خوارزم شاه بحال الرجلين وانهما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل فلم يصدقه وأتاه بخط الامير

ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بان المال تفنى ألوفه
ويبقى لنا من بعده الذكر والاجر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا
سحاب لديه الرعد والبرق والقطر

(وفى سنة سبع وخمسين وخمسمائة) توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل وأصله من بلد بعلبك (وفى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة) استقر شاور خديم طلائع فى وزارة العاضد بمصر ولقب أمير الجيوش فجمع عليه الضرغام ونازعه فى الوزارة وقتل كثيرا من أمراء مصر بعد أن انهزم شاور الى نور الدين محمود بن زنكى وضعفت مصر بسبب ذلك وطمع فيها الفرنج وفيها توفى عبد المؤمن سلطان الغرب وكانت مدة ولايته ثلاثا وثلاثين سنة وشهورا يسفك الدماء كشيخه ابن تومرت يقتل على الذنب اليسير وكان حسن السياسة وجمع الناس فى الغرب على مذهب مالك ابن أنس فى الفقه وعلى مذهب أبى الحسن

حاجى فاخذه وأرسله الى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما وأخذ اصحابهما ثم ان ألب غازى وهو ابن أخت غياث الدين جاء فى عسكر من الغورية فنزل على خمسة فراسخ من هراة فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه ثم ان خوارزم شاه سير عسكرا الى أعمال الطالقان للغارة عليها فلقيهم الحسن بن جربك فقاتلهم فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد وسار غياث الدين عن فيروز كوه الى هراة فى عسكره فنزل برباط رزين بالقرب من هراة ولم يقدم على خوارزم شاه لقلة عسكره لان أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل لانه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان وقرب غياث الدين وكذلك أيضا قرب ألب غازى وسمع أيضا ان شهاب الدين قد خرج من الهند الى غزنة وكان وصوله اليها فى رجب من هذه السنة فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد فأرسل الى أمير البلد عمر المرغنى فصالحه على مال حمله اليه وارتحل عن البلد وأما شهاب الدين فانه لما وصل الى غزنة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها فسار الى خراسان فوصل الى بلخ ومنها الى باميان ثم الى مرو عازما على حرب خوارزم شاه وكان نازلا هناك فالتقى أوائل عسكريهما واقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير ثم ان خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم وقطع القناطر وقتل الامير سنجر صاحب نيسابور لانه اتهمه بالمخامرة عليه وتوجه شهاب الدين الى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المسير الى خوارزم ليحصرها فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فقصد هراة وترك ذلك العزم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة درس مجد الدين أبو على يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى بالنظامية ببغداد فى ربيع الاول وفيها توفيت بنفشة جارية الخليفة المستضئ بامر الله وكان كثير الميل اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والاحسان والصدقة وفيها أيضا توفى الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعى خطيب دمشق وكان فقيها شافعيا والدولعية قرية من أعمال الموصل

﴿ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها﴾

فى هذه السنة فى المحرم سير الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب دمشق ومصر عسكرا مع ولده الملك الاشرف موسى الى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها وانضاف اليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما ونزلوا بحرزم تحت ماردين ونزل عسكر من قلعة البارعية وهى لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادلى فسار اليهم طائفة من العسكر العادلى فاقتتلوا فانهزم عسكر البارعية وثار التركمان وقطعوا الطريق فى تلك الناحية واكثروا الفساد فتعذر سلوك الطريق الا للجماعة من أرباب السلاح فسار طائفة من العسكر العادلى الى رأس العين لاصلاح الطرق وكف عادية الفساد واقام ولد العادل ولم يحصل له غرض فدخل الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب فى الصلح بينهم وأرسل الى عمه العادل فى ذلك فاجابه اليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار يجاء صرف الدينار احد عشر قيراطا من أميرى ويخطب له ببلاده ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكره فى خدمته أى وقت طلبه وأخذ الظاهر عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادى من أعمال شحنان فرحل ولد العادل عن ماردين

الاشعرى فى الاصول وكان من وجده وقت الصلاة غير مصل قتله (وفى سنة تسع وخمسين وخمسمائة) عرف شاور لنور الدين محمود بن زنكى ان بلاد مصر غلب عليها الفرنج ووعده ان اعاده الى وزارة مصر يقوم له بثلث أموالها بعد اقامة الجند فارسل نور الدين عساكره معه الى مصر وجعل مقدمهم خديمه أسد الدين شيركوه بن شادى ووصلوا الى مصر وانكسر عسكر الضرغام وهرب ودخل أسد الدين شيركوه مصر واستقر شاور فى الوزارة فغدر بنور الدين ولم يف له بشئ مما شرطه وسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية فارسل شاور الى الفرنج وجمعهم على شيركوه وحاصروه ببلبيس ثلاثة شهور ثم خاف الفرنج من نور الدين ففتحوا لشيركوه وجعلوا له طريقا الى الرواح فسار بمن معه من الجيوش سالمين وفى هذه السنة فتح نور الدين قلعة حارم بعد مصاف عظيم مع الفرنج وأسر البرنس صاحب انطاكية والقومس صاحب طرابلس وغنم المسلمون منهم شيأ كثيرا وفتح

﴿ ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشئ من سيرته ﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى توفى غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغورى صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها وأخفيت وفاته وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازما على قصد خوارزم شاه فاتاه الخبر بوفاة أخيه فسار الى هراة فلما وصل اليها جلس للعزاء باخيه فى رجب وأظهرت وفاته حينئذ وخلف غياث الدين من الولد ابنا اسمه محمود لقب بعد موت أبيه غياث الدين وسنورد من أخباره كثيرا ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الامير محمد بن جربك فسار اليه جماعة من الامراء الخوارزمية فخرج اليهم محمد ليلا وبيتهم فلم ينج منهم الا القليل وأنفذ الاسرى والرؤس الى هراة فامر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل وجهز خوارزم شاه جيشا وسيرهم مع برفور التركى الى قتال محمد بن جربك فسمع بهم فخرج اليهم ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل بين الفريقين خلق كثير وانهزم الغورية ودخل محمد بن جربك مرو فى عشرة فرسان وجاء الخوارزميون فحصروه خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ فارسل فى طلب الامان فحلفوا له ان خرج اليهم على حكمهم انهم لا يقتلونه فخرج اليهم فقتلوه وأخذوا كل ما معه وسمع شهاب الدين الخبر فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه فلم يستقر الصلح وأراد العود الى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخيه الب غازى وقلد الملك علاء الدين محمد بن أبى على الغورى على مدينة فيروز كوه وجعل اليه حرب خراسان وأمر كل ما يتعلق بالمملكة وأتاه محمود ابن أخيه غياث الدين فولاه مدينة بست واسفرار وتلك الناحية وجعله بمعزل من الملك جميعه ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه ولا على غيره من أهله فمن جملة فعله ان غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنية فهويها وتزوجها فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها وأخذ أموالهم وأملاكهم وسيرهم الى بلد الهند فكانوا أقبح صورة وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباها وأمها وأخاها فهدمها ونبش قبور الموتى ورمى بعظامهم منها وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه فانه كان مظفرا منصورا فى حروبه لم تنهزم له راية قط وكان قليل المباشرة للحروب وانما كان له دهاء ومكر وكان جوادا حسن الاعتقاد كثير الصدقات والوقوف بخراسان بنى المساجد والمدارس بخراسان لاصحاب الشافعى وبنى الخانكاهات فى الطرق وأسقط المكوس ولم يتعرض الى مال أحد من الناس ومن مات ببلاده يسلم ماله الى أهل بلده من التجار فان لم يجد أحدا يسلمه الى القاضى ويختم عليه الى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع وكان اذا وصل الى بلد عم احسانه أهله والفقهاء وأهل الفضل يخلع عليهم ويفرض لهم الاعطيات كل سنة من خزانته ويفرق الاموال فى الفقراء وكان يراعى كل من وصل الى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم وكان فيه فضل غزير وأدب مع حسن خط وبلاغة وكان رحمه الله ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها فى المدارس التى بناها ولم يظهر منه تعصب على مذهب ويقول التعصب فى المذاهب من الملك قبيح الا انه كان شافعى المذهب فهو يميل الى الشافعية من غير ان يطمعهم فى غيرهم ولا أعطاهم ما ليس لهم

﴿ ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الافضل ﴾

فى هذه السنة أخذ الظاهر غازى قلعة نجم من أخيه الافضل وكانت فى جملة ما أخذ من العادل لما صالحه سنة سبع وتسعين فلما كان هذه السنة أخذ العادل من الافضل سروج وحملين

بانياس وكانت مع الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفى هذه السنة توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن أبى المنصور الاصفهانى وزير قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل وكان قد تعاهد مع اسد الدين شيركوه انه من مات منهما قبل الآخر ينقله الآخر الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ويدفنه فيها فاكترى له شيركوه وجعل له قراء يقرؤن القرآن عند شيله وحطه وينادى فى كل بلدة ينزلونها بالصلاة عليه ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد يقول

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى رماله
عليه وبالنادى فيبكى أرامله

و وجدت تمام البيتين

تراه اذا ما جئته متهللا
كانك تعطيه الذى أنت سائله
هو البحر من أى النواحى أتيته
فلجته المعروف والجود ساحله

وطيف به حول الكعبة ودفن برباط فى المدينة كان

ورأس العين وبقى بيده سميساط وقلعة نجم فارسل الظاهر اليه يطلب منه قلعة نجم وضمن له انه يشفع الى عمه العادل فى اعادة ما أخذ منه فلم يعطه فتهدده بان يكون الباً عليه ولم تزل الرسل تتردد حتى سلمها اليه فى شعبان وطلب منه أن يعوضه قرى أو مالا فلم يفعل وكان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه فى مثل قلعة نجم مع خستها وحقارتها وكثرة بلاده هو وعدمها الاخيه وأما العادل فانه لما أخذ سروج ورأس العين من الافضل أرسل والدته اليه لتسأل فى ردها فلم يشفعها وردها خائبة ولقد عوقب البيت الصلاحى بما فعله أبوهم مع البيت الاتابكى فانه لما قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنة عم نور الدين اليه يسألانه ان يعود فلم يشفعهما فجرى لاولاده هذا وردت زوجته خائبة كما فعل ولما رأى الافضل عمه وأخاه قد أخذا ما كان بيده أرسل الى ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب ملطية وقونية وما بينهما من البلاد يبذل له الطاعة وان يكون فى خدمته ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه فاجابه ركن الدين الى ذلك وأرسل له خلعة فلبسها الافضل وخطب له بسميساط فى سنة ستمائة وصار فى جملته

﴿ ذكر ملك الكرج مدينة دوين ﴾

فى هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من اذربيجان ونهبوها واستباحوها وأكثروا القتل فى أهلها وكانت هى وجميع بلاد اذربيجان للامير أبى بكر بن البهلوان وكان على عادته مشغولا بالشرب ليلا ونهارا لا يفيق ولا يصحو ولا ينظر فى أمر مملكته ورعيته وجنده قد ألقى الجميع عن قلبه وسلك طريق من ليس له علاقة وكان أهل تلك البلاد قد أكثرت الاستغاثة اليه واعلامه بقصد الكرج بلادهم بالغارة مرة بعد أخرى فكأنهم ينادون صخرة صماء فلما حصر الكرج هذه السنة مدينة دوين سار منهم جماعة يستغيثون فلم يغثهم وخوفه جماعة من أمرائه عاقبة اهماله وتوانيه واصراره على ما هو فيه فلم يصغ اليهم فلما طال الامر على أهلها ضعفوا وعجزوا وأخذهم الكرج عنوة بالسيف وفعلوا ما ذكرناه ثم ان الكرج بعد ان استقر أمرهم بها أحسنوا الى من بقى من أهلها فاذن الله تعالى ينظر الى المسلمين ويسهل الثغورهم من يحفظها ويحميها فانها مستباحة لاسيما هذه الناحية فانا لله وانا اليه راجعون فقد بلغنا من فعل الكرج باهل دوين من القتل والسبى والاسر ما تقشعر منه الجلود

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة أحضر الملك العادل محمدا ولد العزيز صاحب مصر الى الرها وذلك انه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين كما ذكرناه خاف شيعة أبيه ان يجتمعوا عليه ويصير لهم معهم فتنة فاخرجه سنة ثمان وتسعين الى دمشق ثم نقله هذه السنة الى الرها فاقام بها ومعه جميع اخوته واخواته ووالدته ومن يخصه وفيها فى رجب توفى الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المرورذى الفقيه الشافعى وهذا الذى كان السبب فى ان صار غياث الدين شافعيا وفى ربيع الاول منها توفى أبو الفتح عبيد الله بن أبى المعمر الفقيه الشافعى المعروف بالمستملى ببغداد وله خط حسن وفى ربيع الآخر توفيت زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله واخرجت جنازتها ظاهرة وصلى الخلق الكثير عليها ودفنت فى التربة التى بنتها لنفسها وكانت كثيرة المعروف

﴿ ثم دخلت سنة ستمائة ﴾

﴿ ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية ﴾

فى هذه السنة أول رجب وصل خوارزم شاه محمد الى مدينة هراة فحصرها وبها الب غازى ابن

بناه لنفسه وبين قبره وقبر النبى صلى الله عليه وسلم نحو خمسة عشر ذراعا وهذا جمال الدين هو الذى جدد مسجد الخيف بمنى وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وغرم جملة طائفة لصاحب مكة وللمقتفى حتى مكناه من ذلك وبنى المسجد الذى على جبل عرفات وعمل الدرج اليه وعمل بعرفات مصانع الماء وبنى سورا على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وبنى على دجلة جسرا عند جزيرة ابن عمر بالحجر والحديد والرصاص والكلس وقبض قبل ان يفرغ منه وبنى الربط وغيرها وفى هذه السنة توفى نصر بن خلف ملك سجستان وعمره فوق المائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة واستقر موضعه ولده أبو الفتح أحمد بن نصر (وفى سنة ستين وخمسمائة) توفى أبو الحسن هبة الله ابن صاعد بن هبة الله المعروف بامين الدولة وكان نصرانيا قد ناهز المائة وكانت له فضيلة زائدة فى النسب والادب وكان قسيس النصارى وشيخهم وكان افاضل عصره يتعجبون منه كيف حرم

أخت شهاب الدين الغورى ملك غزنة بعد مراسلات جرت بينه وبين شهاب الدين فى الصلح فلم يتم وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة الى لهاور عازما على غزو الهند فاقام خوارزم شاه على حصار هراة الى سلخ شعبان وكان القتال دائما والقتل من الفريقين كثيرا وممن قتل رئيس خراسان وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس وكان الحسين بن خرميل بكرزبان وهى اقطاعه فارسل الى خوارزم شاه يقول له ارسل الى عسكرا لنسلم اليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين فارسل اليه ألف فارس من أعيان عسكره الى كرزبان فخرج عليه هو والحسين بن محمد المرغنى فقتلوهم الا القليل فبلغ الخبر الى خوارزم شاه فسقط ما فى يديه وندم على انفاذ العسكر وارسل الى ألب غازى يطلب منه أن يخرج اليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه فلم يجبه الى ذلك فاتفق ان ألب غازى مرض واشتد مرضه فخاف أن يشتغل بمرضه فيملك خوارزم شاه البلد فاجاب الى ما طلب منه واستحلفه على الصلح وأهدى له هدية جليلة وخرج من البلد ليخدمه فسقط الى الارض ميتا ولم يشعر أحد بذلك وارتحل خوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار الى سرخس فاقام بها

﴿ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزم وانهزامه من الخطا﴾

فى هذه السنة فى رمضان عاد شهاب الدين الغورى الى خراسان من قصد الهند وسبب ذلك انه بلغه حصر خوارزم شاه هراة وموت ألب غازى نائبه بها فاشتد حنقه على خوارزم شاه فلما بلغ ميمند عدل الى طريق أخرى قاصدا الى خوارزم فارسل خوارزم شاه يقول له ارجع الى لاحاربك والا سرت الى هراة ومنها الى غزنة وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس الى مرو فاقام بظاهرها فاعاد اليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة لكن خوارزم تجمعنا ففرق خوارزم شاه عساكره وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين الى خوارزم فسبقه اليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها فتعذر على شهاب الدين سلوكها واقام أربعين يوما يصلحها حتى أمكنه الوصول الى خوارزم والتقى العسكران بسوقرا ومعناه الماء الاسود فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتلى فيه بين الفريقين وممن قتل من الغورية الحسين المرغنى وغيره وأسر جماعة من الخوارزمية فامر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا وأرسل خوارزم شاه الى الاتراك الخطا يستنجدهم وهم حينئذ أصحاب ما وراء النهر فاستعدوا وساروا الى بلاد الغورية فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم فالتقى أوائلهم فى صحراء اندخوى أول صفر سنة احدى وستمائة فقتل فيهم وأسر كثيرا فلما كان اليوم الثانى دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة وبقى شهاب الدين فى نفر يسير وقتل بيده أربعة أفيال له لانها أعيت واخذ الكفار فيلين ودخل شهاب الدين اندخوى فيمن معه وحصره الكفار ثم صالحوه على أن يعطيهم فيلا آخر ففعل وخلص ووقع الخبر فى جميع بلاده بانه قد عدم وكثرت الاراجيف بذلك ثم وصل الى الطالقان فى سبعة نفر وقد قتل اكثر عسكره ونهبت خزائنه جميعها فلم يبق منها شئ فاخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياما وجميع ما يحتاج اليه وسار الى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لانه قيل له عنه انه شديد الخوف لانهزامه وانه قال اذا سار السلطان هربت الى خوارزم شاه فأخذه معه وجعله أمير حاجب ولما شاع الخبر بقتل شهاب الدين جمع تاج الدين الدز وهو مملوك اشتراه شهاب الدين أصحابه وقصد قلعة غزنة ليصعد اليها فمنعه مستحفظها فعاد الى داره فاقام بها وأفسد الخلج وسائر المفسدين فى البلاد

الاسلام مع فضله وفهمه
والله يهدى من يشاء بفضله
ويضل من يريد بحكمه
وكان له رفيق فى الحكمة يهودى عالى الهمة وهو الحكيم المشهور بابن ملكان واسمه هبة وكان رفيعا متكبرا يكنى بابى البركات فأنشد فيه أمين الدولة النصرانى

لنا صديق يهودى حماقته
عند الملاقاة تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة
كانه بعد لم يخرج من التيه

وله تصانيف حسنة منها كتاب اقراباذين وهو معتمد عليه عند الاطباء (وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة) جهز نور الدين بن زنكى ألفى فارس الى مصر ومقدمهم أسد الدين شيركوه وخرج اليه شاور ومن معه من الفرنج وانكسر شاور وانهزم الفرنج عنه واستولى شيركوه على بلاد الجيزة ثم سار الى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب فجاء المصريون ومعهم الفرنج وحاصروا الاسكندرية وعاد اليهم شيركوه واتفقوا على الصلح على مال يحملونه لشيركوه

وقطعوا الطرق وقتلوا كثيرا فلما عاد شهاب الدين الى غزنة بلغه ما فعله الدز فاراد قتله فشفع فيه سائر المماليك فاطلقه ثم اعتذر وسار شهاب الدين فى البلاد فقتل من المفسدين من تلك الامم نفرا كثيرا وكان له أيضا مملوك آخر اسمه ايبك بال ترفسلم من المعركة ولحق بالهند ودخل المولتان وقتل نائب السلطان بها وملك البلد وأخذ الاموال السلطانية وأساء السيرة فى الرعية وأخذ أموالهم وقال قتل السلطان وأنا السلطان وكان يحمله على ذلك ويحسنه له انسان اسمه عمر بن يزان وكان زنديقا ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الاموال فاخاف الطريق فبلغ خبره الى شهاب الدين فسار الى الهند وأرسل اليه عسكرا فاخذوه ومعه عمر بن يزان فقتلهما أقبح قتلة وقتل من وافقهما فى جمادى الآخرة من سنة احدى وستمائة ولما رآهم قتلى قرأ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا الآية وأمر شهاب الدين فى جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا وغزوهم والاخذ بثارهم وقيل كان سبب انهزامه انه لما عاد الى الخطا من خوارزم فرق عسكره فى المفازة التى فى طريقه لقلة الماء وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل والاسر ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد ولم يرجع اليه أحد يعلم الحال وجاء شهاب الدين فى ساقة العسكر فى عشرين ألف فارس ولم يعلم الحال فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا وكان الخطا أضعاف أصحابه فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه منهم وحصروه فى اندخوى فجرى بينهم فى عدة أيام أربعة عشر مصافا منها مصاف واحد كان من العصر الى بكرة الغد ثم انه بعد ذلك سير طائفة من عسكره ليلا سرا وأمرهم أن يرجعوا اليه بكرة كانهم قد أتوه مددا من بلاده فلما فعلوا ذلك خافه الخطا وقال لهم صاحب سمرقند وكان مسلما وهو فى طاعة الخطا وقد خاف على الاسلام والمسلمين ان هم ظفروا بشهاب الدين فقال لهم ان هذا الرجل لا نجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه لم نظفر به والامداد أتته وكانكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق وحينئذ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه والرأى لنا الصلح معه فاجابوا الى ذلك فارسلوا اليه فى الصلح وكان صاحب سمرقند قد أرسل اليه وعرفه الحال سرا وأمره باظهار الامتناع من الصلح أولا والاجابة اليه أخيرا فلما أتته الرسل امتنع واظهر القوة بانتظار الامداد وطال الكلام فاصطلحوا على أن الخطا لا يعبرون النهر الى بلاده ولا يعبر الى بلادهم ورجعوا عنه وخلص هو وعاد الى بلاده والباقى نحو ما تقدم

﴿ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان﴾

فى هذه السنة وصل رسول الى شهاب الدين الغورى من عند مقدم الاسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها فامر علاء الدين محمد بن أبى على متولى بلاد الغورية بالمسير اليهم ومحاصرة بلادهم فسار فى عساكر كثيرة الى قهستان وسمع به صاحب زوزن فقصده وسار معه وفارق خدمة خوارزم شاه ونزل علاء الدين على مدينة قاين وهى للاسماعيلية وحصرها وضيق على أهلها ووصل خبر قتل شهاب الدين على ما نذكره فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية ورحل عنهم وقصد حصن كاخك فاخذه وقتل المقاتلة وسبى الذرية ورحل الى هراة ومنها الى فيروز كوه

﴿ذكر ملك القسطنطينية من الروم﴾

فى هذه السنة فى شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم وأزالوا ملك الروم عنها

ويرجع عنهم الى الشام وعاد شيركوه وصلاح الدين الى الشام سالمين واصطلح المصريون والفرنج على ان يكون من الفرنج شحنة بالقاهرة ويكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر فى كل سنة مائة ألف دينار (وفى سنة أربع وستين وخمسمائة) أخذ نور الدين قلعة جعبر وفى هذه السنة تمكن الفرنج من الديار المصرية وملكوا بلبيس قهرا ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ونزلوا على القاهرة وحاصروها واحرق شاور مصر خوفا من ان يملكها الفرنج وانقلب أهلها الى القاهرة وبقيت النار تحرق فيها أربعة وخمسين يوما فأرسل العاضد خليفة مصر الى نور الدين بن زنكى يستغيث به وأرسل فى الكتب شعور النساء وصالح شاور الفرنج على ألف ألف دينار وحمل منها مائة ألف دينار وقال لهم ارحلوا وأنا أجهز لكم الباقى فجهز نور الدين عساكره وأنفق فيهم المال العظيم واعطى شيركوه مائتى ألف دينار سوى الثياب والاسلحة والدواب وأرسل معه عدة أمراء

وكان سبب ذلك أن ملك الروم بها تزوج أخت ملك افرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا ثم وثب على الملك أخ له فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولده ومضى الى خاله مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ البيت المقدس فاخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصد الاصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع في سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه في عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم في ذى القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم الى أطراف البلاد وقيل ان ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وانما حصروه فيها وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبى فالقوا النار في البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك في ذلك الصبى وليس له من الحكم شئ وأخرجوا أباه من السجن انما الفرنج هم الحكام في البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وهو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الاناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا الى ذلك الصبى الملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الابواب واستحضروا الملك وكان ذلك في جمادى الاولى سنة ستمائة فاقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فارسلوا الى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد الى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لا يظهر امرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الابواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فاصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيأ ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى سوفيا فجاء الفرنج اليها فخرج اليهم جماعة من القسيسين والاساقفة والرهبان بايديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم اجمعين ونهبوا الكنيسة وكانوا ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وهو شيخ أعمى اذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الافرنسيس والآخر يقال له كندافلند وهو أكثرهم عددا فلما استولوا على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فاعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتى ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة اقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسيس البلاد التى هى شرقى الخليج مثل ازنيق ولاذيق فلم يحصل لاحد منهم شئ غير الذى أخذ القسطنطينية وأما الباقى فلم يسلم من به من الروم وأما البلاد التى كانت لملك القسطنطينية شرقى الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان ابن قلج ارسلان ومن جملتها ازنيق ولاذيق فانها تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه لشكرى وهى بيده الى ان توفى

﴿ ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية ﴾

منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وكان صلاح الدين يكره الرواح معه لما قاساه من قضية الاسكندرية وكان معه فى الرواح سعده وانتقال الملك اليه وقيام الدولة الايوبية وعسى ان تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وأحب نور الدين اصلاح الدين الرواح مع شيركوه ولم يشعر نور الدين ان فى الزامه صلاح الدين ذهاب الملك من يده فلما قارب شيركوه مصر هرب الفرنج الى بلادهم ودخل شيركوه القاهرة رابع ربيع الآخر وجعل شاور كل يوم يركب الى أوطاق شيركوه ويعدهم ويمنيهم بالوفاء بما كان التزم به أولا وما يعدهم الشيطان الا غرورا وقصد ان يعزم على شيركوه وأمرائه ويعمل لهم ضيافة ويمسك شيركوه ففطن بذلك صلاح الدين يوسف وجرديك وجاء شاور فلم يجد شيركوه فى خيمته وأخبر صلاح الدين يوسف أنه توجه لزيارة الشافعى وركبا وركب معهما جرديك قاصدين الشافعى فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور ورمياه عن فرسه وامسكاه وهرب أصحابه

فى هذه السنة فى العشرين من شوال انهزم نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكى صاحب سنجار وحشة مستحكمة أولا فاتفقا وسار معه الى ميافارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة الى قطب الدين واستماله فمال اليه وخطب له فلما سمع نور الدين ذلك سار الى مدينة نصيبين سلخ شعبان وهى لقطب الدين فحصرها وملك المدينة وبقيت القلعة فحصرها عدة ايام فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر أن مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب اربل قد قصد اعمال الموصل فنهب نينوى وأحرق غلاتها فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سار عن نصيبين الى الموصل على عزم العبور الى بلد اربل ونهبه جزاء بما فعل صاحبها ببلده فوصل الى مدينة بلد وعاد مظفر الدين الى بلده وتحقق نور الدين ان الذى قيل له وقع فيه زيادة فسار الى تل أعفر من بلد وهى لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوما وكان الملك الاشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران الى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب اربل وصاحب الحصن وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شئ من بلاده وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نور الدين سار الاشرف اليها وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن وصاحب الجزيرة وصاحب دارا وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريبا من بوشرى وسار نور الدين من تل أعفر الى كفر زمار وعزم على المطاولة ليتفرقوا فاتاه كتاب من بعض مماليكه يسمى جرديك وقد أرسله يتجسس اخبارهم فيقللهم فى عينه ويطمعه فيهم ويقول ان أذنت لى لقيتهم بمفردى فسار حينئذ نور الدين الى بوشرى فوصل اليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه ولقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة وأتاه الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم ير والهم أثرا فعاد الى خيامه ونزل هو وعساكره وتفرق كثير منهم فى القرى لتحصيل العلوفات وما يحتاجون اليه فجاءه من أخبره بحركة الخصم وقصده فركب نور الدين وعسكره وتقدموا اليهم وبينهم نحو فرسخين فوصلوا وقد زاد تعبهم والخصم مستريح فالتقوا واقتتلوا فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين وانهزم هو أيضا وطلب الموصل فوصل اليها فى اربعة أنفس وتلاحق الناس وأتى الاشرف ومن معه فنزلوا فى كفر زمار ونهبوا البلاد نهبا قبيحا وأهلكوا ما لم يصلح لهم لا سيما مدينة بلد فانهم أفحشوا فى نهبها ومن أعجب ما سمعنا ان امرأة كانت تطبخ فرأت النهب فالقت سوارين كانتا فى يديها فى النار وهربت فجاء بعض الجند ونهب ما فى البيت فرأى فيه بيضا فاخذه وجعله فى النار ليأكله فحرك فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسل تتردد فى الصلح فوقف الامر على اعادة تل اعفر ويكون الصلح على القاعدة الاولى وتوقف نور الدين فى اعادة تل اعفر فلما طال الامر سلمها اليهم واصطلحوا أوائل سنة احدى وستمائة وتفرقت العساكر من البلاد

﴿ ذكر خروج الفرنج بالشام الى بلاد الاسلام والصلح معهم ﴾

فى هذه السنة خرج كثير من الفرنج فى البحر الى الشام وسهل الامر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية وأرسوا بعكا وعزموا على قصد البيت المقدس حرسه الله واستنقاذه من المسلمين فلما

فحضر شيركوه وحضر قاصد العاضد بأمر الله يأمر باحضار رأس شاور اليه فقتله وأرسل رأسه اليه ودخل بعد ذلك شيركوه ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وسكن دار الوزارة التى كان فيها شاور وجاءت مدائح الشعراء الى شيركوه واستمر شهرين وخمسة أيام وجاء أجله فمات رحمة الله تعالى عليه وكان شيركوه وايوب ولدى شادى قال ابن الاثير أصلهما من الاكراد الروادية قصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية وجعلهما بتكريت يحفظان قلعتها فقتل شيركوه انسانا بتكريت وكان أصغر من أيوب فاخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكى ولما توفى شيركوه طلب العاضد صلاح الدين يوسف وولاه الوزارة ولقبه الملك الناصر فأرسل صلاح الدين الى نور الدين يقول انا نائبك بمصر فارسل الى أبى وأهلى فأرسلهم اليه مكرمين ورتب لهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن من ملك مصر وقتل الطواشى مؤتمن الخلافة وفرد مكانه

استراحوا بعكا ساروا ونهبوا كثيرا من بلاد الاسلام بنواحي الاردن وسبوا وفتكوا في المسلمين وكان الملك العادل بدمشق فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر وسار فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الاسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على كفركنا فأخذوا كل من بها وأموالهم والامراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها فلم يفعل فبقوا كذلك الى أن انقضت السنة وذلك سنة احدى وستمائة فاصطلح هو والفرنج على دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام ونزل لهم عن كثير من المناصفات في الرملة وغيرها واعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماة فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان في قلة فهزموه الى البلد فخرج العامة الى قتالهم فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج

﴿ ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية أيتغمش ﴾

قد ذكرنا قبل تغلب كوكجة مملوك البهلوان على الري وهمذان وبلاد الجبل وبقي الآن وكان قد اصطنع مملوكا آخر كان للبهلوان اسمه ايتغمش وقدمه وأحسن اليه ووثق به فجمع ايتغمش الجموع من المماليك وغيرهم ثم قصد كوكجة فتصافوا واقتتل الفريقان فقتل كوكجة في الحرب واستولى ايتغمش على البلاد وأخذ معه أوزبك بن البهلوان له اسم الملك وايتغمش هو المدبر له والقيم بأمر المملكة وكان شهما شجاعا ظالما وكان كوكجة عادلا حسن السيرة رحمه الله

﴿ ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان وملك ابنه بعده ﴾

وفي هذه السنة سادس ذي القعدة توفي ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب ديار الروم ما بين ملطية وقونية وكان موته بمرض القولنج في سبعة أيام وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب انكورية وتسمى أيضا أنقرة وهي مدينة منيعة وكان مشاققا لركن الدين فحصره عدة سنين حتى ضعف وقلت الاقوات عنده فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه فعوضه قلعة في أطراف بلده وحلف له عليها فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلمها ومعه ولدان له فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات واجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان وكان صغيرا فبقي في الملك الى بعض سنة احدى وستمائة وأخذ منه على ما نذكره هناك وكان ركن الدين شديدا على الاعداء قيما بأمر الملك الا أن الناس كانوا ينسبونه الى فساد الاعتقاد كان يقال انه يعتقد مذهب الفلاسفة وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوي اليه ولهذه الطائفة منه احسان كثير الا انه كان عاقلا يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه حكي لي عنه انه كان عنده انسان وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة وهو قريب منه فحضر يوما عنده فقيه فتناظرا فاظهر شيأ من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه اليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدين وركن الدين ساكت وخرج الفقيه فقال لركن الدين يجري على مثل هذا في حضرتك ولا تنكره فقال لو تكلمت لقتلنا جميعا ولا يمكن أظهار ما تريده أنت

﴿ ذكر قتل الباطنية بواسط ﴾

في هذه السنة في رمضان قتل الباطنية بواسط وسبب كونهم بها وقتلهم انه ورد اليها رجل يعرف بالركن محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط وكان باطنيا ملحدا ونزل مجاور الدور بني الهروي وغشيه الناس وكثر اتباعه وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابوني

الطواشي قراقوش الاسدي وتمكن من مصر وضعف أمر الخليفة العاضد قال ابن الاثير رأيت كثيرا ممن ابتدأ الملك ينتقل الملك الى غير عقبه معاوية تغلب على الملك فانتقل الملك الى بني مروان وملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك الى عقب أخيه المنصور وكذلك السامانية أول من استبد بالملك منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك الى أخيه اسمعيل وعقبه وابتدأ بالملك عماد الدولة ابن بويه فانتقل الى عقب أخيه ركن الدولة ثم ملك طغرلبك السلجوقي فانتقل الملك الى عقب أخيه داود ثم شيركوه فانتقل الملك الى ابن أخيه صلاح الدين يوسف وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو محمد الفارقي صاحب الكرامات الظاهرة وفيها توفي باروق ابن رسلان التركماني وكان له حلقة عظيمة سكن ظاهر حلب وكان مقدما كبيرا وله عمارة ظاهر حلب تعرف بالباروقية (وفي سنة ست وستين وخمسمائة) توفي المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي بن المستظهر تاسع ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وبويع

فاتفق أنه اجتاز بالسويقة فكلمه رجل نجار في مذهبهم فرد عليه الصابوني ردا غليظا فقام اليه النجار وقتله وتسامع الناس بذلك فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب الى هذا المذهب وقصدوا دار ابن عصية وقد اجتمع اليه خلق من أصحابه وأغلقوا الباب وصعدوا الى سطحها ومنعوا الناس عنهم فصعدوا اليهم من بعض الدور من على السطح وتحصن من بقي في الدار باغلاق الابواب والمارق فكسروها ونزلوا فقتلوا من وجدوا في الدار وأحرقوا وقتل ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم فقتلوا وبلغ الخبر الى بغداد وانحدر فخر الدين أبو البدر بن أمسينا الواسطي لاصلاح الحال وتسكين الفتنة

﴿ ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت ﴾

في هذه السنة استولى انسان اسمه محمود بن محمد الحميري على مدينة مرباط وظفار وغيرهما من حضرموت وكان ابتداء أمره انه له مركب يكريه في البحر للتجار ثم وزر لصاحب مرباط وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة فلما توفي صاحب مرباط ملك المدينة بعده وأطاعه الناس محبة له لكرمه وسيرته ودامت أيامه بها فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباطا وظفارا وبنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط وعندها عين عذبة كبيرة أجراها الى المدينة وعمل عليها سورا وخندقا وحصنها وسماها الاحمدية وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

في هذه السنة خرج اسطول من الفرنج الى الديار المصرية فنهبوا مدينة فوة وأقاموا خمسة أيام يسبون وينهبون وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لانهم لم تكن لهم سفن وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت أكثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس ووصلت الى الموصل والعراق وغيرها وخربت من مدينة صور سورها وأثرت في كثير من الشام وفيها في رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد وفيهم صوفي اسمه أحمد بن ابراهيم الداري من أصحاب شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل رحمهم الله ومعهم مغن يغني بقول الشعر

أعاذلتي أقصري * كفى بمشيبي عذل
شباب كأن لم يكن * وشيب كأن لم يزل
وحق ليالي الوصال * وآخرها والاول
وصفرة لون المحب عند استماع العذل
لئن عاد عتبي بكم * حلا العيش لي واتصل

فتحرك الجماعة عادة الصوفية في السماع وطرب الشيخ المذكور وتواجد ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت فصلي عليه ودفن وكان رجلا صالحا وفيها توفي أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلي الفقيه الشافعي باصفهان في صفر وكان اماما فاضلا وفي رمضان منها توفي قاضي هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوي وولي بعده ابنه صاعد

﴿ ثم دخلت سنة احدى وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم من ابن أخيه ﴾

في هذه السنة في رجب ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم التي كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لاخيه

ولده أبو محمد الحسن ولقب المستضيء بالله ولم يل الخلافة من اسمه الحسن غيره وفي هذه السنة ولي صلاح الدين قضاة شافعية وعزل الذين كانوا قضاة من الشيعة وبنى مدرسة للشافعية وعظم شأنه وأجلى كثيرا من الفرنج عن بلاد الساحل (وفي سنة سبع وستين وخمسمائة) بلغ نور الدين محمودا أن صلاح الدين يوسف تمكن من الديار المصرية غاية التمكن فشق ذلك عليه وأرسل اليه انك تقطع خطبة العلوية وتخطب للمستضيء العباسي خليفة بغداد وأكد عليه فما أمكن صلاح الدين المخالفة وكان العاضد ضعيفا فأمر صلاح الدين الخطباء بذلك وخطبوا ثاني جمعة من المحرم باسم المستضيء فانقطعت الخلافة العلوية من مصر ولم ينتطح فيها عنزان واشتد مرض العاضد ومات يوم عاشوراء وتسلم صلاح الدين القصر وبيوت الاموال وما فيها من الاشياء النفيسة الخارجة عن الاحصاء قال ابن الاثير صاحب الكامل من ذلك حبل ياقوت كان وزنه سبعة عشر درهما أو مثقالا وقال أنا رأيته ووقفت على وزنه وانتهت الخلافة العلوية وهم أربعة عشر المهدي والقائم والمنصور

غياث الدين وهو مدينة قونية فهرب غياث الدين منه وقصد الشام الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولا وتصربه فسار من عنده وتقلب فى البلاد الى ان وصل الى القسطنطينية فاحسن اليه ملك الروم واقطعه واكرمه فاقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين الى حميه وهو بقلعته فانزله عنده وقال له نشترك فى هذه القلعة وتقنع بدخلها فاقام عنده فلما مات أخوه سنة ستمائة كما ذكرناه اجتمع الامراء على ولده وخالفهم الاتراك الاوج وهم كثير بتلك البلاد وانف من أتباعهم وأرسل الى غياث الدين يستدعيه اليه ليملكه البلاد فسار اليه فوصل فى جمادى الاولى اجتمع به وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها وكان ولد ركن الدين والعساكر بها فاخرجوا اليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه فبقى حيران لا يدرى أين يتوجه فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية فقدر الله تعالى أن أهل مدينة اقصرا وثبوا على الوالى فاخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرا قالوا نحن أولى بفعل هذا لانه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم فنادوا باسمه أيضا واخرجوا من عندهم واستدعوه فحضر عندهم وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه وآتاه الله الملك وجمع له البلاد جميعها فى ساعة واحدة فسبحان من اذا أراد أمرا هيأ أسبابه وكان أخوه قيصرشاه الذى كان صاحب ملطية لما أخذها ركن الدين منه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب لانه كان زوج ابنته مستنصرا به فامره بالمقام بمدينة الرها فاقام بها فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار اليه فلم يجد عنده قبولا الا انه أعطاه شيأ وأمره بمفارقة البلاد فعاد الى الرها وأقام بها فلما استقر ملك غياث الدين سار اليه الافضل صاحب سميساط فلقيه بمدينة قيسارية وقصده أيضا نظام الدين صاحب خرت برت وصار معه فعظم شأنه وقوى أمره

﴿ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها﴾

كانت خرت برت لعماد الدين بن قرا أرسلان فمات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر والتجأ الى ركن الدين بن قلج ارسلان وبعده الى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان فامتنع به وكان صاحب آمد ملتجئا الى الملك العادل وفى طاعته وحضر مع ابنه الملك الاشرف قتال صاحب الموصل على شرط انه يسير معه عساكره ويأخذ له خرت برت وانما طمع فيها بموت ركن الدين فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الامر عليه فسار معه الملك الاشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها وكان نزولهم عليها فى شعبان وفى رمضان تسلموا ربضها وكان قد اجتمع بغياث الدين بعد ان ملك البلاد الرومية وصار معه فى طاعته فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث الدين يستنجده بعسكر يرحلهم عنه فجهز عسكرا كثيرا عدتهم ستة آلاف فارس وسيرهم مع الملك الافضل صاحب سميساط فلما وصل العسكر الى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت ونزلوا الى الصحراء وحصر والبحيرة المعروفة ببحيرة سهنين وبها حصنان أحدهما لصاحب آمد والآخر لصاحب خرت برت فحصره وزاحفه ففتحه ثانى ذى الحجة ووصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومى الى خرت برت فرحل صاحب آمد عن البحيرة وقوى الحصن الذى فتحه فيها فازاح علته ورحل الى خلف مرحلة ونزل وترددت الرسل والعسكر الرومى يطلب

والمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد ومدة خلافتهم من حين ظهر المهدى بسلجماسة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين ومائتين الى ان توفى العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وضربت البشائر ببغداد وجهزت منها خلع وانعام الى نور الدين وخطباء وأعلام سود (ومن غريب) ما اتفق أن العاضد كان قد رأى فى نومه ان عقربا خرجت من مسجد مصر فلدغته وعبرت له هذه الرؤيا انه ينال مكروها من شخص يسكن ذلك المسجد فطلب أهل ذلك المسجد فأحضر له شيخ صوفى يقال له نجم الدين الخوسانى فاستخبر العاضد عن مقدمه وسبب سكناه بهذا المسجد فاخبره بالصحيح فرآه العاضد أضعف من ان يناله مكروه منه فوصله بمال وقال له ادع لنا ياشيخ وصرفه فلما أراد السلطان صلاح الدين ازالة الخلافة العلوية استفتى أهل العلم فى ذلك وكان الشيخ نجم الدين المذكور هو المكثر فى الفتوى من الكلام وعدد مساوى العلوية حتى أخرجهم عن الايمان فتأول الناس من ذلك ما رآه العاضد فى منامه (وفى سنة تسع

اعادة البحيرة وصاحب آمد يمتنع من ذلك فلما طال الامر بقى الحصن بيد صاحب آمد وانفصل العسكران وعاد كل فريق الى بلاده

﴿ذكر الفتن ببغداد﴾

فى سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وأهل المأمونية وسببها ان أهل باب الازج قتلوا سبعا وأرادوا ان يطوفوا به فمنعهم أهل المأمونية فوقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير فجرح منهم خلق كثير وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة فجرح فرسه فعاد فلما كان الغد سار أهل المأمونية الى باب الازج فوقعت بينهم فتنة شديدة وقتال بالسيوف والنشاب واشتد الامر فنهبت الدور القريبة منهم وسعى الركن بن عبد القادر يوسف فى تسكين الناس وركب الاتراك فصاروا يبيتون تحت المنظرة فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع فسكنوا وفى العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب الغربى بسبب قتل سبع أيضا أراد أهل قطفتا ان يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية ان يجروا به عندهم فاقتتلوا وقتل بينهم عدة قتلى فارسل اليهم عسكر من الديوان لتلافى الامر ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا وفى تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية منشؤها ان رجلين من المحلتين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا فى مقبرة الجعفرية فسير اليهم من الديوان من تلافى الامر وسكنه فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة فطاف فى البلد وقتل جماعة ممن فيه شبهة فسكن الناس

﴿ذكر غارة الكرج على بلاد الاسلام﴾

فى هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الاسلام من ناحية اذربيجان فأكثروا العيث والفساد والنهب والسبى ثم أغاروا على ناحية خلاط من أرمينية وأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا ملازكرد ولم يخرج اليهم أحد من المسلمين يمنعهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون وكلما تقدموا تأخرت عساكر المسلمين منهم ثم انهم رجعوا فالله تعالى ينظر الى الاسلام وأهله وييسر لهم من يحمى بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم وفيها أغارت الكرج على بلاد خلاط فأتوا الى ارجيش ونواحيها فنهبوا وسبوا وخربوا البلاد وساروا الى حصن التين من أعمال خلاط وهو مجاور ارزن الروم فجمع صاحب خلاط عسكره وسار الى طغل شاه ولد قلج ارسلان صاحب ارزن الروم فاستنجده على الكرج فسير عسكره جميعه معه فتوجهوا نحو الكرج فلقوهم وتصافوا واقتتلوا فانهزمت الكرج وقتل زكرى الصغير وهو من أكابر مقدميهم وهو الذى كان مقدم هذا العسكر من الكرج والمقاتل بهم وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والكراع وغير ذلك وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وعاد الى بلاده

﴿ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة﴾

وفى هذه السنة أيضا كانت الحرب بين الامير قتادة الحسينى أمير مكة وبين الامير سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة ومع كل واحد منهما جمع كثير فاقتتلوا قتالا شديدا وكانت الحرب بذى الحليفة بالقرب من المدينة وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فلقيه سالم بعد ان قصد الحجرة على ساكنها الصلاة والسلام فصلى عندها ودعا وسار فلقيه فانهزم قتادة وتبعه سالم الى مكة فحصره بها فارسل قتادة الى من مع سالم من الامراء فافسدهم عليه فمالوا اليه

وستين وخمسمائة) ظهرت الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه شمس الدولة بعد موت أبيه أيوب فى السنة التى قبلها الى اليمن بعساكر عظيمة بحيث ان نور الدين اذا جاء مصر وأخذها يقاتله صلاح الدين فان انكسر منه هرب الى مملكة أخرى غيرها فيسر الله على أخيه توران شاه وملك بلاد اليمن واستقرت لصلاح الدين يوسف وصلب جماعة من أكابر المصريين كانوا قصدوا اعادة الخلافة العلوية منهم عمارة بن على اليمنى الشاعر صاحب المراثى العظيمة فى العلوية (منها)

رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

يا عاذلى فى هوى ابناء فاطمة
لك الملامة ان قصرت فى عذلى

جدعت مارنك الاقنى فانفك لا
ينفك ما بين أمر الشين والخجل

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول

بالله زر ساحة القصرين وابك لمن
عليهما لا على صفين والجمل

ماذا ترى كانت الافرنج فاعلة
فى نسل آل أمير المؤمنين على

مررت بالقصر والاركان خالية

وحالفوه فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائدا الى المدينة وعاد أمير قتادة قويا

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة فى يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قطعت خطبة ولى العهد وأظهر خط قرئ بدار الوزير نصير الدين بن مهدى الرازى واذا هو خط ولى العهد الأمير أبى نصر ابن الخليفة الى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد ويطلب الاقالة وشهد عدلان انه خطه وان الخليفة أقاله وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء وفى هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولدا له رأسان وأربع أرجل ويدان ومات فى يومه وفيها أيضا وقع الحريق فى خزانة السلاح التى للخليفة فاحترق فيها منه شئ كثير وبقيت النار يومين وسار ذكر هذا الحريق فى البلدان فحمل الملوك من السلاح الى بغداد شيأ كثيرا وفى هذه السنة وقع الثلج بمدينة هراة اسبوعا كاملا فلما سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سرا خرب كثيرا من البلاد ورمى من حصنه قطعة عظيمة وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار فلم يكن بها تلك السنة شئ الا اليسير وفيها فى شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الأمير زنكى بن مسعود الى مدينة مرو فلقيهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس وهو الأمير جقر وكمن لهم كمينا فلما وصلوا اليه هزمهم وأخذ وجوه الغورية أسرى فلم يفلت منهم الا القليل وأخذ أميرهم زنكى أسيرا فقتل صبرا وعلقت رؤسهم بمرو أياما وفيها فى ذى القعدة سار الأمير عماد الدين عمر بن الحسين الغورى صاحب بلخ الى مدينة ترمذ وهى للأتراك الخطا فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الأكبر وقتل من بها من الخطا ونقل العلويين منها الى بلخ وصارت ترمذ دار اسلام وهى من أمنع الحصون وأقواها وفيها توفى صدر الدين السجزى شيخ خانكاه السلطان بهراة وفيها فى صفر توفى أبو على الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطى وهو من الشعراء المجيدين واجتمعت به بالموصل وردها مادحا لصاحبها نور الدين ارسلان شاه وغيره من المقدمين وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة وفيها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضا وقتلاه بمسجد طمعا أن يأخذا منه شيأ فلم يجدا معه ما يأخذانه وأدركهما الصباح فهربا من الخوف يريدان الموصل ورؤى الرجل مقتولا ولم يعلم قاتله فاتفق ان بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم فى خصومة جرت فرأى الرجلين الضريرين فقال لمن معه هذان اللذان قتلا الاعمى يقوله مزاحا فقال أحدهما هذا والله قتله فقال الآخر بل أنت قتلته فأخذا الى صاحب الباب فأقرا فقتل أحدهما وصلب الآخر على باب المسجد الذى قتلا فيه الرجل

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة ﴾

﴿ ذكر الفتنة بهراة ﴾

فى هذه السنة فى المحرم ثار العامة بهراة وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين الحدادين والصفارين قتل فيها جماعة ونهبت الاموال وخربت الديار فخرج أمير البلد ليكفهم فضربه بعض العامة بحجر نال الله منه ألم شديد واجتمع الغوغاء عليه فرفع الى القصر الفيروزى واختفى أياما الى أن سكنت الفتنة ثم ظهر

﴿ ذكر قتال شهاب الدين الغورى بنى كوكر ﴾

قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغورى صاحب غزنة من الخطا الكفار وان الخبر ظهر ببلاده انه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خبر فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون فى أطراف

من الوفود وكانت قبلة القبيل

(وله أيضا)

غصبت أمية ارث آل محمد
سفها وشنت غارة الشنآن
وغدت تخالف فى الخلافة أهلها
وتقابل البرهان بالبهتان
وأتى زياد فى القبيح زيادة
تركت يزيد يزيد فى الطغيان
وتسلقوا فى رتبة نبوية
لم يبنها لهم أبو سفيان

ولما كان يوم الاربعاء حادى عشر شوال من هذه السنة توفى السلطان نور الدين محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشام وديار الجزيرة بقلعة دمشق بعلة الخوانيق وكان قد عزم على التوجه الى مصر ليأخذها من صلاح الدين وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية الا فى حنكه شعرات وكان حسن الصورة وكان اتسع ملكه خطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكان يخطب له بمصر وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق الارض ذكره بحسن السيرة والعدل والشجاعة وكان من الزهد والعبادة على جانب عظيم يقوم الليل وكان عارفا بفقه الحنفية غير متعصب وهو الذى بنى أسوار بلاد الشام دمشق وحلب وحماة وحمص وشيزر وبعلبك لما هدمت

البلاد وكان ممن أفسد دانيال صاحب جبل الجودى فانه كان قد أسلم فلما بلغه الخبر ارتد عن الاسلام وتابع بنى كوكر ومساكنهم فى جبال بين لهاوور والمولتان حصينة منيعة وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا اليه الخراج فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا وافقين معهم من قبائلهم وعشائرهم وأطاعهم صاحب جبل الجودى وغيره من القاطنين بتلك الجبال ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرها الى غزنة فلما بلغ شهاب الدين من قبل مملوكه ايبك بال وقد ذكرناه أرسل الى نائبه بلهاوور والمولتان وهو محمد بن أبى على يأمره بحمل المال لسنة ستمائة وسنة احدى وستمائة ليتجهز به لحرب الخطا فأجاب ان أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه ارسال المال وحضر جماعة من التجار وذكروا ان قفلا كبيرا أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه الا القليل فأمر شهاب الدين مملوكه ايبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بنى كوكر يدعوهم الى الطاعة ويتهددهم ان لم يجيبوا ففعل ذلك فقال ابن كوكر لاى معنى لم يرسل السلطان الينا رسولا فقال له الرسول وما قدركم أنتم حتى يرسل اليكم وانما مملوكه يبصركم رشدكم ويهددكم فقال ابن كوكر لو كان شهاب الدين حيا لراسلنا وقد كنا ندفع الاموال اليه فحيث عدم فقل لايبك يترك لنا لهاوور وما والاها وفرشابور ونحن نصالحه فقال الرسول نفذ أنت جاسوسا تثق اليه يأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور فلم يصغ الى قوله فرده فعاد وأخبر بما سمع ورأى فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين ايبك بالعود الى بلاده وجمع العساكر وقتال بنى كوكر فعاد الى دهلى وأمر عساكره بالاستعداد فأقام شهاب الدين فى فرشابور الى نصف شعبان من سنة احدى وستمائة ثم عاد الى غزنة فوصلها أول رمضان وأمر بالنداء فى العساكر بالتجهز لقتال الخطا وان المسير يكون أول شوال فتجهزوا لذلك فاتفق ان الشكايات كثرت من بنى كوكر وما يتعهدونه من اخافة السبل وأنهم قد أنفذوا شحنة الى البلاد وافقهم أكثر الهنود وخرجوا من طاعة أميرلهاوور والمولتان وغيرهما ووصل كتاب الوالى يذكر ما قد دهمه منهم وان عماله قد أخرجهم بنو كوكر وجبوا الخراج وان ابن كوكر مقدمهم أرسل اليه ليترك له لهاوور والبلاد والا قتله ويقول له ان لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر والا خرجت البلاد من يده وتحدث الناس بكثرة من معهم من الجموع وما لهم من القوة فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا وأخرج خيامه وسار عن غزنة خامس ربيع الاول سنة اثنتين وستمائة فلما سار وأبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزنة وفرشابور حتى أرجف الناس بانهزامه وكان شهاب الدين لما سار عن فرشابور أتاه خبر ابن كوكر أنه نازل فى عساكره ما بين جيلم وسودرة فجد السير اليه فدهمه قبل الوقت الذى كان يقدر وصوله فيه فاقتتلوا قتالا شديدا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر من بكرة الى العصر واشتد القتال فبينما هم فى القتال واذ قد أقبل قطب الدين ايبك فى عساكره فنادوا بشعار الاسلام وحملوا حملة صادقة فانهزم الكوكرية ومن انضم اليهم وقتلوا بكل مكان وقصدوا أجمة هناك فاحتموا بها وأضرموا نارا فكان أحدهم يقول لصاحبه لا تترك المسلمين يقتلونك ثم يلقى نفسه فى النار فيلقى صاحبه نفسه بعده فيها فعمهم الفناء قتلا وحرقا فبعدا للقوم الظالمين وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله حتى ان المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركنى ونحوه وهرب ابن كوكر بعد أن قتل اخوته وأهله وأما ابن دانيال صاحب جبل الجودى فانه جاء ليلا الى قطب الدين ايبك فاستجار به فأجاره وشفع فيه الى شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودى فلما فرغ منهم سار نحو لهاوور ليؤمن أهلها ويسكن روعهم وأمر الناس بالرجوع الى بلادهم والتجهيز لحرب

بالزلازل وبنى المدارس الكبيرة الحنفية والشافعية وفيه أنشد

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب فى المحراب

واستقر اسمعيل بن نور الدين مكان أبيه ولقب الملك الصالح وخطب له بمصر والشام وضربت السكة باسمه وملك ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى بلاد الجزيرة مع الموصل

(وفى سنة سبعين وخمسمائة) أرسل شمس الدين بن الداية المقيم بحلب يستدعى الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين من دمشق الى حلب ليكون مقامه بها مع سعد الدين كمشتكين فأجابه الى ذلك ولما استقر بحلب كمشتكين قبض على ابن الداية وابن الخشاب رئيس حلب وقبضهما واستقل بتدبير الملك الصالح اسمعيل وكان طفلا عمره اثنتا عشرة سنة وبلغ ذلك أهل دمشق فخافوا من كمشتكين وكاتبوا صلاح الدين صاحب مصر فسار اليهم فى جريدة سبعمائة فارس ووصل الى دمشق والتقاه الناس وفرحوا به ونزل دار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقى وسلمت له القلعة وصعد اليها واستخلف عليها أخاه سيف الاسلام

الخطا وأقام شهاب الدين بلهاوور الى سادس عشر رجب وعاد نحو غزنة وأرسل الى بهاء الدين سام صاحب باميان ليتجهز للسير الى سمرقند ويعمل جسر اليعبر هو وعساكره عليه

﴿ذكر الظفر بالتيراهية﴾

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضا على شهاب الدين التيراهية فانهم خرجوا الى حدود سوران ومكرهان للغارة على المسلمين فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين بتلك الناحية ويعرف بالخابجى وقتل منهم خلقا كثيرا وحمل رؤس المعروفين فعلقت ببلاد الاسلام وكانت فتنة هؤلاء التيراهية على بلاد الاسلام عظيمة قديما وحديثا وكان اذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب وكان أهل فرشابور معهم فى ضر شديد لانهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها لاسيما آخر أيام سبكتكين فان الملوك ضعفوا وقوى هؤلاء عليهم وكانوا يغيرون على أطراف البلاد وكانوا كفارا لادين لهم يرجعون اليه ولا مذهب يعتمدون عليه الا انهم كانوا اذا ولد لاحدهم بنت وقف على باب داره ونادى من يتزوج هذه من يقبلها فان أجابه أحد تركها والا قتلها ويكون للمرأة عدة أزواج فاذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب فاذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغورى فكفوا عن البلاد وسبب اسلامهم انهم أسروا انسانا من فرشابور فعذبوه فلم يمت ودامت أيامه عندهم فأحضره يوما مقدمهم وسأله عن بلاد الاسلام وقال له لو حضرت انا عند شهاب الدين ماذا كان يعطينى فقال له كان يعطيك الاموال والاقطاع ويرد اليك حكم جميع البلاد التى لكم فارسله الى شهاب الدين فى الدخول فى الاسلام فعاد ومعه رسول بالخلع والمنشور بالاقطاع فلما وصل اليه الرسول سار هو وجماعة من أهله الى شهاب الدين فأسلموا وعادوا وكان للناس بهم راحة فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة ليمنعوهم فأفسدوا وعملوا ماذكرناه

﴿ذكر قتل شهاب الدين الغورى﴾

فى هذه السنة أول ليلة من شعبان قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام الغورى ملك غزنة وبعض خراسان بعد عوده من لهاوور بمنزل يقال له دميك وقت صلاة العشاء وكان سبب قتله أن نفرا من الكفار الكوكرية لزموا عسكره عازمين على قتله لما فعل بهم من القتل والاسر والسبى فلما كان هذه الليلة تفرق عنه أصحابه وكان قد عاد ومعه من الاموال مالا يحد فانه كان عازما على قصد الخطا والاستكثار من العساكر وتفريق المال فيهم وقد أمر عساكره بالهند باللحاق به وأمر عساكره الخراسانية بالتجهز الى ان يصل اليهم فأتاه الله من حيث لم يحتسب ولم يغن عنه ماجمع من مال وسلاح ورجال لكن كان على نية صالحة من قتال الكفار فلما تفرق عنه أصحابه وبقى وحده فى خركاه فثار أولئك النفر فقتل أحدهم بعض الحرس بباب سرادق شهاب الدين فلما قتلوه صاح فثار أصحابه من حول السرادق لينظروا ما بصاحبهم فأخلوا مواقفهم وكثر الزحام فاغتنم الكوكرية غفلتهم عن الحفظ فدخلوا على شهاب الدين وهو فى الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة فقتلوه فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد فأخذوا أولئك الكفار فقتلوهم وكان فيهم اثنان مختونان وقيل اغتالته الاسماعيلية لانهم خافوا خروجه الى خراسان وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم على ماذكرناه فلما قتل اجتمع الامراء عند وزيره مؤيد الملك بن خوجا سجستان فتحالفوا على حفظ

طغتكين بن أيوب وسار الى حمص وملكها ثم سار الى حماة وملكها وسار الى حلب وحاصر الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين ولم يقدر عليه وبلغه ان الفرنج قصدوا حمص فعاد اليها وسار الى بعلبك وملكها واستنجد الملك الصالح ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل وجمع وقصد صلاح الدين واجتمعوا على قرون حماة واقتتلوا قتالا عظيما فانكسر الملك الصالح وتبعهم صلاح الدين الى حلب وحاصرهم ثم صالحهم ورحل عن حلب الى دمشق وقطع خطبة الملك الصالح واستبد بالسلطنة ثم عاد فى سنة احدى وسبعين وخمسمائة وأخذ بزاعا وفتح منبج وأخذ اعزاز وهرب منه سيف الدين غازى ونهب أمواله ونزل على حلب وحاصر الملك الصالح أيضا فاخرجوا اليه بنتا صغيرة للسلطان نور الدين فقبلها وأعطاها شيأ كثيرا وقال لها ماتريدين قالت أريد قلعة اعزاز فسلمها اليها ورحل عن حلب فى العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة واستمر متوجها الى مصر وقتل فى طريقه أهل مصياف

الخزانة والملك ولزوم السكينة الى ان يظهر من يتولاه وأجلسوا شهاب الدين وخيطوا جراحه وجعلوه فى المحفة وساروا به ورتب الوزير الامور وسكن الناس بحيث لم ترق محجمة دم ولم يوجد فى أحد شئ وكانت المحفة محفوفة بالحشم والوزير والعسكر والشمسية على حاله فى حياته وتقدم الوزير الى أمير دار العسكر باقامة السياسة وضبط العسكر وكانت الخزانة التى فى صحبته ألفى حمل ومائتى حمل وشغب الغلمان الاتراك الصغار لينهبوا المال فمنعهم الوزير والامراء الكبار من المماليك وهو صونج صهر الدز وغيره وأمروا كل من له اقطاع عند قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ببلاد الهند بالعود اليه وفرقوا فيهم أموالا كثيرة فعادوا وسار الوزير ومعه من له اقطاع وأهل بغزنة وعلموا انه يكون من غياث الدين محمود بن غياث الدين أخى شهاب الدين الاكبر وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين حروب شديدة وكان ميل الوزير والاتراك وغيرهم الى غياث الدين محمود وكان الامراء الغورية يميلون الى بهاء الدين سام صاحب باميان فارسل كل طائفة الى من يميلون اليه يعرفونه قتل شهاب الدين وجلية الامور وجاء بعض المفسدين من أهل غزنة فقال للمماليك ان فخر الدين الرازى قتل مولاكم لانه هو أوصل من قتله فوضع من خوارزمشاه فثار وابه ليقتلوه فهرب وقصد مؤيد الملك الوزير فاعلمه الحال فسيره سرا الى مأمنه ولما وصل العسكر والوزير الى فرشابور اختلفوا فالغورية يقولون نسير الى غزنة على طريق مكرهان وكان غرضهم ان يقربوا من باميان ليخرج صاحبها بهاء الدين سام فيملك الخزانة قال الاتراك بل نسير على طريق سوران وكان مقصودهم ان يكونوا قريبا من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين وهو صاحب كرمان مدينة بين غزنة ولهاوور وليست بكرمان التى تجاور بلاد فارس ليحفظ الدز الخزانة ويرسلون من كرمان الى غياث الدين يستدعونه الى غزنة ويملكونه وكثر بينهم الاختلاف حتى كادوا يقتتلون فتوصل مؤيد الملك مع الغورية حتى اذنوا له وللاتراك باخذ الخزانة والمحفة التى فيها شهاب الدين والمسير على كرمان وساروا هم على طريق مكرهان ولقى الوزير ومن معه مشقة عظيمة وخرج عليهم الامم الذين فى تلك الجبال التيراهية واوغان وغيرهم فنالوا من أطراف العسكر الى ان وصلوا الى كرمان فخرج اليهم تاج الدين الدز يستقبلهم فلما عاين المحفة وفيها شهاب الدين ميتا نزل وقبل الارض على عادته فى حياة شهاب الدين وكشف عنه فلما رآه ميتا مزق ثيابه وصاح وبكى فابكى الناس وكان يوما مشهودا

﴿ذكر مافعله الدز﴾

كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم وأكبرهم محلا عنده بحيث ان أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه فى أشغالهم فلما قتل صاحبه طمع ان يملك غزنة فاول ما عمل انه سأل الوزير مؤيد الملك عن الاموال والسلاح والدواب فاخبره بما خرج من ذلك وبالباقى معه فانكر الحال وأساء أدبه فى الجواب وقال ان الغورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب باميان ليملكوه غزنة وقد كتب الى غياث الدين محمود وهو مولاى يامرنى اننى لا أترك أحدا يقرب من غزنة وقد جعلنى نائبه فيها وفى سائر الولاية المجاورة لها لانه مشتغل بامر خراسان وقال للوزير انه قد أمرنى أيضا ان أتسلم الخزانة منك فلم يقدر على الامتناع لميل الاتراك اليه فسلمها اليه وسار بالمحفة والمماليك والوزير الى غزنة فدفن شهاب الدين فى التربة بالمدرسة التى أنشأها ودفن ابنته فيها وكان وصوله اليها فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة

﴿ذكر بعض سيرة شهاب الدين﴾

وخربها وأفنى الاسماعيلية ثم صفح عمن بقى منهم بشفاعة خاله شهاب الدين الحارمى ولما وصل الى مصر أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة وقلعة الجبل ودور السور تسعة وعشرون ألف ذراع ولم يزل يعمل فيه الى ان مات وأمر ببناء المدرسة التى على قبر الشافعى وعمل بالقاهرة مرستانا (وفى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة) سار السلطان صلاح الدين الى سواحل الشام لغزو الفرنج فوصل الى عسقلان وتفرقت العساكر عنه للاغارة فلم يشعر الا والفرنج قد طلعت عليه فقاتل قتالا شديدا وتمت الهزيمة على المسلمين ووصل السلطان الى مصر هاربا بمن معه ولقوا شدة من العطش وهلك كثير من الدواب وأخذت الفرنج العساكر الذين تفرقوا للاغارة أسرى قال الشيخ عز الدين بن الاثير مؤلف الكامل رأيت كتابا بخط السلطان صلاح الدين الى أخيه توران شاه يذكر له الواقعة وفى أوله

ذكرتك والخطى يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

نجوت من الموت الوحى غير مرة
وماثبت الاوفى نفسها أمر

كان رحمه الله شجاعا مقداما كثير الغزو الى بلاد الهند عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم حاكما بينهم بما يوجبه الشرع المطهر وكان القاضى بغزنة يحضر داره من كل اسبوع السبت والاحد والاثنين والثلاثاء ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب التربة فيحكم القاضى وأصحاب السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع وان طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره وسمع كلامه وأمضى عليه أوله حكم الشرع فكانت الامور جارية على أحسن نظام (حكى عنه) انه لقيه صبى علوى عمره نحو خمس سنين فدعا له وقال لى خمسة أيام ما أكلت شيأ فعاد من الركوب لوقته ومعه الصبى فنزل فى داره وأطعم العلوى أطيب الطعام بحضرته ثم أعطاه مالا بعد أن أحضر أباه وسلمه اليه وفرق فى سائر العلويين مالا عظيما (وحكى) أن تاجرا من هراة كان بغزنة وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار فقتل المملوك فى حرب كانت له فرفع التاجر حاله فأمر بأن يقر اقطاع المملوك بيد التاجر الى أن يستوفى دينه ففعل ذلك (وحكى عنه) انه كان يحضر العلماء بحضرته فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها وكان فخر الدين الرازى يعظ فى داره فحضر يوما فوعظ وقال فى آخر كلامه ياسلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى وأن مردنا الى الله فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه وكان رقيق القلب وكان شافعى المذهب مثل أخيه قيل وكان حنفيا والله أعلم

﴿ ذكر مسير بهاء الدين سام الى غزنة وموته ﴾

لما ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوجه أخته فأتاه منها ولد اسمه سام فبقى فيها الى أن توفى وملك بعده ابنه الاكبر واسمه عباس وأمه تركية فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين فى ذلك وأرسلا من أحضر عباسا عندهما فأخذ الملك منه وجعلا ابن أختهما سام ملكا على باميان وتلقب بهاء الدين وعظم شأنه وحمل له وجمع الاموال ليملك البلاد بعد خاله وأحبه أمراء الغورية حبا شديدا وعظموه فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الامراء الغورية الى بهاء الدين سام فأخبره بذلك فلما بلغه قتله كتب الى من بغزنة من الامراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد ويعرفهم أنه على الطريق سائر اليهم وكان والى قلعة غزنة ويعرف بأميرداد قد أرسل ولده الى بهاء الدين سام يستدعيه الى غزنة فأعاد جوابه انه تجهز ويصل اليه ويعده الجميل والاحسان وكتب بهاء الدين الى علاء الدين محمد بن أبى على ملك الغور يستدعيه اليه والى غياث الدين محمود بن غياث الدين والى ابن خرميل والى هراة يأمرهما باقامة الخطبة له وحفظ ما بأيديهما من الاعمال ولم يظن ان أحدا يخالفه فأقام أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والاتراك ويقولون لا نترك غير ابن سيدنا يعنون غياث الدين يدخل غزنة والغورية يتظاهرون بالميل الى بهاء الدين ومنع غيره فسار من باميان الى غزنة فى عساكره ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعا فنزل يستريح ينتظر خفته عنه فازداد الصداع وعظم الامر عليه وأيقن بالموت فأحضر ولديه وعهد الى علاء الدين وأمرهما بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية وضبط الملك والرفق بالرعايا وبذل الاموال وأمرهما أن يصالحا غياث الدين على ان يكون له خراسان وبلاد الغور ويكون لهما غزنة وبلاد الهند

﴿ ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه ﴾

لما فرغ بهاء الدين من وصيته توفى فسار ولداه الى غزنة فخرج أمراء الغورية وأهل البلد

وجاء الفرنج الى حماة وحاصروها وكان بها شهاب الدين الحارمى نائبا ورحلوا عنها بعد ان كادوا يأخذونها ومات شهاب الدين الحارمى ذلك اليوم من مرض كان به وراحت الفرنج الى حارم وحاصروها فأرسل اليهم الملك الصالح مالا ورحلوهم عنها (وفى سنة أربع وسبعين وخمسمائة) أرسل السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الى حماة وابن عمه محمد ابن شيركوه الى حمص وأمر كلا منهم بحفظ بلاده وفى هذه السنة توفى الحيصبيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد ومن شعره

لا تلمنى فى شقائى بالعلا ... رغد العيش لربات الحجال

سيف عز زانه رونقه ... فهو بالطبع غنى عن صقال

(وفى سنة خمس وسبعين وخمسمائة) جهز سلطان الروم قليج ارسلان عشرين ألف فارس لحصار شمس الدين المقدم بحصن رعبان فركب اليه تقى الدين عمر ابن شاهنشاه فى ألف فارس فكسرهم وانهزموا وكان تقى الدين يفتخر بها ويقول كسرت بالف عشرين ألفا وفيها فى ثانى القعدة توفى المستضىء

فلقوهما وخرج الاتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان وكانوا قد وصلوا فى ضر وقلة من العسكر وأراد الاتراك منعهم فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلتهم ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل والى هراة على مانذكره فلم يرجعوا ولما استقرا بالقلعة ونزلا بدار السلطنة راسلهما الاتراك بأن يخرجا من الدار والا قاتلوهما ففرقا فيهم أموالا كثيرة واستحلفاهم فحلفوا واستثنوا غياث الدين محمودا وأنفذا خلعا الى تاج الدين الدز وهو باقطاعه مع رسول وطلباه الى طاعتهما ووعداه بالاموال والزيادة فى الاقطاع وامارة الجيش والحكم فى جميع الممالك فأتاه الرسول فلقيه وقد سار عن كرمان فى جيش كثير من الترك والخلج والغز وغيرهم فأبلغه الرسالة فلم يلتفت اليه وقال قل لهما يعودان الى باميان وفيها كفاية فانى قد أمرنى مولاى غياث الدين أن أسير الى غزنة وأمنعهما عنها فان عادا الى بلدهما والا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون ورد ما معه من الهدايا والخلع ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه وانما أراد ان يجعل هذا طريقا الى ملك غزنة لنفسه فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز فأرسل وزيره وكان قبله وزيرا أبيه الى باميان وبلخ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود اليه فأرسل الدز الى الاتراك الذين بغزنة يعرفهم ان غياث الدين أمره أن يقصد غزنة ويخرج علاء الدين وأخاه منها فحضروا عند وزير علاء الدين وطلبوا منه سلاحا ففتح خزانة السلاح فهرب ابن الوزير الى علاء الدين وقال له قد كان كذا وكذا فلم يقدر أن يفعل شيأ وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين فركب وأنكر على الخازن تسليم المفاتيح وأمره فاسترد مانهبه الترك جميعه لانه كان مطاعا فيهم ووصل الدز الى غزنة فأخرج اليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الاتراك وفيهم صونج صهر الدز فأشار عليه أصحابه أن لا يفعل وينتظر العسكر مع وزيره فلم يقبل منهم وسير العساكر فالتقوا خامس رمضان فلما لقوه خدعه الاتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم وهو محمد بن على بن حردون ودخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغورية والبامانية وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها فى عشرين فارسا وسار عن غزنة فقالت له امرأة تستهزئ به الى أين تمضى خذ الجتر والشمسة معك ما أقبح خروج السلاطين هكذا فقال لها انك سترين ذلك اليوم وأفعل بكم ما تقرون به بالسلطنة لى وكان قد قال لاخيه احفظ القلعة الى أن آتيك بالعساكر فبقى الدز يحاصرها وأراد من مع الدز نهب البلد فنهاهم عن ذلك وأرسل الى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهدده ان لم يخرج منها وترددت الرسل بينهما فى ذلك فأجاب الى مفارقتها والعود الى بلده وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض اليه ولا الى أحد ممن يحلف له وسار عن غزنة فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل الى تربة شهاب الدين مولاه ونزل اليها ونهب الاتراك ما كان مع علاء الدين وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه وتركوه عريانا بسراويله فلما سمع الدز ذلك أرسل اليه بدواب وثياب ومال واعتذر اليه فأخذ ما لبسه وترك الباقى فلما وصل الى باميان لبس ثياب سواد وركب حمارا فأخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة فلم يركب ولم يلبس وقال أريد أن يرانى الناس وما صنع بى أهل غزنة حتى اذا عدت اليها وخربتها ونهبتها لا يلومنى أحد ودخل دار الامارة وشرع فى جمع العساكر

﴿ ذكر ملك الدز غزنة ﴾

قد ذكرنا استيلاء الدز على الاموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان صحبة شهاب الدين

بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بالله وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وخلافته نحو تسع سنين وبويع بالخلافة ولده الناصر لدين الله وهو رابع ثلاثينهم وفيها انتقل توران شاه من بعلبك الى الاسكندرية وأضيفت اليه بلاد اليمن جميعها واستمر بها الى ان مات واستقر فى بعلبك عز الدين فرخ شاه بن شاهنشاه (وفى سنة ست وسبعين وخمسمائة) مات صاحب الموصل بالسل وهو سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته نحو عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة عادلا عاقلا عفيفا شديد الغيرة لا يدخل بيته الا الخصيان الصغار وأوصى بالمملكة بعده الى ابن أخيه عز الدين مسعود بن مودود وجزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه بن غازى وفيها عاد السلطان صلاح الدين الى مصر بعد ان كان سار الى بلاد الروم مؤيدا منصورا واستخلف بدمشق ابن أخيه فرخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك (وفى سنة سبع وسبعين وخمسمائة) عزم

وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الاتراك والخلج والغز وغيرهم وسار الى غزنة وجرى له مع علاء الدين ماذكرنا فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين الا أنه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره وانما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب فلما كان فى اليوم الرابع أحضر مقدمى الغورية والاتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أميردار والى غزنة فلما كان الغد وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضا رسول الخليفة وهو الشيخ مجد الدين أبو على بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وكان قد ورد الى غزنة رسولا الى شهاب الدين فقتل شهاب الدين وهو بغزنة فارسل اليه والى قاضى غزنة يقول له انى أريد أن أنتقل الى الدار السلطانية وأن أخاطب بالملك ولابد من حضورك والمقصود من هذا أن تستقر أمور الناس فحضر عنده فركب الدز والناس فى خدمته وعليه ثياب الحزن وجلس فى الدار فى غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين فتغيرت لذلك نيات كثير من الاتراك لانهم كانوا يطيعونه ظنا منهم أنه يريد الملك لغياث الدين فحيث رأوه يريد الانفراد تغيروا عن طاعته حتى ان بعضهم بكى غيظا من فعله وأقطع الاقطاعات الكثيرة وفرق الاموال الجليلة وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد ملوك الغور وسمرقند وغيرهم فانفوا من خدمة الدز وطلبوا منه ان يقصدوا خدمة غياث الدين وأخيه صاحب باميان وأرسل غياث الدين الى الدز يشكره ويثنى عليه لاخراج أولاد بهاء الدين من غزنة وسير له الخلع وطلب منه الخطبة والسكة فلم يفعل وأعاد الجواب فغالطه وطلب منه ان يخاطبه بالملك وان يعتقه من الرق لان غياث الدين ابن أخى سيده لا وارث له سواه وان يزوج ابنه بابنة الدز فلم يجبه الى ذلك واتفق ان جماعة من الغور بين من عسكر صاحب باميان أغاروا على اعمال كرمان وسوران وهى اقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا فارسل صهره صونج فى عسكر فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيرا وأنفذ رؤسهم الى غزنة فنصبت بها وأجرى الدز فى غزنة رسوم شهاب الدين وفرق فى أهلها أموالا جليلة المقدار وألزم مؤيد الملك أن يكون وزيراله فامتنع من ذلك فالح عليه فاجابه على كره منه فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه فقال بماذا تهنئنى من بعد ركوب الجواد بالحمار وأنشد

ومن ركب الثور بعد الجوا * د أنكر اطلاقه والغبب

بينا الدز يأتى الى بابى ألف مرة حتى آذن له فى الدخول أصبح على بابه ولو حفظ النفس مع هؤلاء الاتراك لكان لى حكم آخر

﴿ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه﴾

واما غياث الدين محمود بن غياث الدين فانه كان فى اقطاعه وهو بست واسفرار وكان الملك علاء الدين بن محمد بن أبى على قد ولاه شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من أرض الراون فلما بلغه قتله سار الى فيروز كوه خوفا ان يسبقه اليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التى بها وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية الا أن الناس كرهوه لميلهم الى غياث الدين وأبى الامراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم ولانه كان كراميا مغاليا فى مذهبه وأهل فيروز كوه شافعية وألزمهم ان يجعلوا الاقامة مثنى فلما وصل الى فيروز كوه أحضر جماعة من الامراء منهم محمد المرغنى وأخوه ومحمد بن عثمان وهم من أكابر الامراء وحلفهم على مساعدته على قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان ولم يذكر غياث الدين احتقارا له

البرنس الفرنجي صاحب الكرك على المسير الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم والاستيلاء على تلك البقاع الشريفة وجمع جموعه لذلك فبلغ عز الدين فرخ شاه ابن شاهنشاه فخرج اليه بعساكره وغار على بلاده وفرق جموعه وانقطع عزمه عن الحركة وفيها توفى الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين صاحب حلب وعمره نحو تسع عشرة سنة وكان عفيفا صالحا تقيا وصف له الخمر فى مرضه بالقولنج فمات به ولم يذقه وأوصى بحلب لابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل فجاء الى حلب ثم استقر مكانه بحلب أخوه زنكى بن مودود صاحب سنجار واستقر هو بالموصل وسنجار (وفى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة) سار السلطان صلاح الدين الى الشام واستخلف بمصر الملك العادل أبا بكر أخاه ومن غريب ما اتفق انه لما خرج من القاهرة وخرج الناس يودعونه أنشدت الشعراء فى الوداع أشياء لطيفة وبينهم فقيه يعلم بعض أولاد السلطان أخرج رأسه من بين الجماعة وقال

تمتع من شميم عرار نجد

خلفه والده ولولده من بعده وكان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرك فى شئ انتظارا لما يكون من صاحب باميان لانهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين ان تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين وكان بهاء الدين أقوى فلهذا لم يفعل شيأ فلما بلغه خبر موت بهاء الدين جلس على التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان وحلف الامراء الذين قصدوه وهم اسمعيل الخلجى وسونج أميرشكار وزنكى بن خرجوم وحسين الغورى صاحب تكياباذ وغيرهم وتلقب بالقاب أبيه غياث الدين وكتب الى علاء الدين محمد بن أبى على وهو بفيروز كوه يستدعيه اليه ويستعطفه ليصده عن رأيه ويسلم مملكته اليه وكتب الى الحسين بن خرميل والى هراة مثل ذلك أيضا ووعده الزيادة فى الاقطاع فاما علاء الدين فأغلظ له فى الجواب وكتب الى الامراء الذين معه يتهددهم فرحل غياث الدين الى فيروز كوه فارسل علاء الدين عسكرا مع ولده وفرق فيهم مالا كثيرا وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين فالقوه قريبا من فيروز كوه فلما تراءى الجمعان كشف اسمعيل الخلجى المغفر عن وجهه وقال الحمد لله ان الاتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيعوا حق التربية وردوا ابن ملك باميان وأنتم مشايخ الغورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان ورباكم وأحسن اليكم كفرتم الاحسان وجئتم تقاتلون ولده اهذا فعل الاحرار فقال محمد المرغنى وهو مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه لا والله ثم ترجل عن فرسه وألقى سلاحه وقصد غياث الدين وقبل الارض بين يديه وبكى بصوت عال وفعل سائر الامراء كذلك فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده فلما بلغه الخبر خرج عن فيروز كوه هاربا نحو الغور وهو يقول انا امضى اجاور بمكة فانفذ غياث الدين خلفه من رده اليه فاخذه وحبسه وملك فيروز كوه وفرح به أهل البلد وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية وقتل بعضهم ولما دخل غياث الدين فيروز كوه ابتدأ بالجامع فصلى فيه ثم ركب الى دار أبيه فسكنها واعاد رسوم أبيه واستخدم حاشيته وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيرانى وزير أبيه واستوزره وسلك طريق أبيه فى الاحسان والعدل ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همة الا ابن خرميل بهراة واجتذابه الى طاعته فكاتبه وراسله واتخذه أبا واستدعاه اليه وكان ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان فجمع أعيان الناس منهم قاضى هراة صاعد بن الفضل النيسابورى وعلى بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وشيخ الاسلام رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمى المحال وقال لهم قد بلغنى وفاة السلطان شهاب الدين وانا فى نحو خوارزمشاه وأخاف الحصار وأريد ان تحلفوا لى على المساعدة على كل من نازعنى فأجابه القاضى وابن زياد بأننا نحلف على كل الناس الا ولد غياث الدين فحقد عليهما فلما وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس اليه فغالطه فى الجواب وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه ان يرسل اليه عسكرا ليصير فى طاعته ويمتنع به على الغورية فطلب منه خوارزمشاه انفاذ ولده رهينة ويرسل اليه عسكرا فسير ولده الى خوارزمشاه فكتب خوارزمشاه الى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه الى هراة وان يكونوا يتصرفون بأمر ابن خرميل ويمتثلون أمره هذا وغياث الدين يتابع الكتب الى ابن خرميل وهو يحتج بشئ بعد شئ انتظارا لعسكر خوارزمشاه ولا يؤيسه من طاعته ولا يخطب له ويطيعه طاعة غير مستوية ثم ان الامير على بن أبى على صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل فعزم غياث الدين على التوجه الى هراة فثبطه بعض الامراء الذين معه وأشار واعليه بانتظار آخر أمره وترك محاققته واستشار ابن خرميل القاضى فى أمر غياث الدين فقال له على بن

فما بعد العشية من عرار

فتطير السلطان صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه وتنكد المجلس على الحاضرين ولم يعد صلاح الدين بعدها الى مصر مع طول المدة وفيها سير السلطان صلاح الدين أخاه طغتكين سيف الاسلام الى اليمن ليقطع ما صار بها من الفتن فعصى عليه نائبها حطان صاحب زبيد وعفان الزنجيلى بعدن فتلطف سيف الاسلام بحطان حتى قبضه وأخذ أمواله منها سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا وكان آخر العهد بحطان فلما بلغ عفان قصد الشام وسير أمواله فى البحر فأخذها أصحاب سيف الاسلام وصفت بلاد اليمن لسيف الاسلام طغتكين بن أيوب وفيها سار السلطان صلاح الدين من دمشق واستنقذ بلادا كثيرة من الفرنج منها بيسان وجنين والنور وبيروت وعاد الى دمشق ثم خرج الى بلاد الجزيرة وملك الرها والرقة والخابور ونصيبين وملك سنجار وحاصر الموصل ومعه صاحب حصن كيفا ومعه تاج الملوك توزى بن أيوب ثم رحل عنها وفيها توفى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه

عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وهو متولى وقوف خراسان التى بيده للغورية جميعها ينبغى ان تخطب للسلطان غياث الدين وتترك المغالطة اننى أخاف على نفسى فامض أنت وتوثق لى منه وكان قصده ان يبعده عن نفسه فمضى برسالته الى غياث الدين وأطلعه على ماير يد ابن خرميل يفعله من الغدر به والميل الى خوارزمشاه وحثه على قصد هراة وقال له انا أسلمها اليك ساعة تصل اليها و وافقه بعض الامراء وخالفه غيرهم وقال ينبغى ان لا نترك له حجة فترسل اليه تقليدا بولاية هراة ففعل ذلك وسيره مع ابن زياد و بعض أصحابه ثم ان غياث الدين كاتب أميران ابن قيصر صاحب الطالقان يستدعيه اليه فتوقف وأرسل الى صاحب مرو ليسير اليه فتوقف أيضا فقال له أهل البلدان لم تسلم البلد الى غياث الدين وتتوجه والا سلمناك وقيدناك وأرسلناك اليه فاضطر الى المجىء الى فيروزكوه فخلع عليه غياث الدين واقطعه اقطاعات شتى واقطع الطالقان سونج مملوك أبيه المعروف بأمير اشكار

﴿ ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان ﴾

قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والى هراة خوارزمشاه ومراسلته فى الانتماء اليه والطاعة له وترك طاعة الغورية وخداعه لغياث الدين ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظار الوصول عسكر خوارزمشاه و وصول رسول غياث الدين وابن زياد بالخطبة فقال يوم الجمعة نخطب له فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم فلما كان يوم الجمعة قيل له فى معنى الخطبة فقال نحن فى شغل أهم منها بوصول هذا العدو فطالت المجادلات بينهم فى ذلك وهو مصر على الامتناع منها ووصل عسكر خوارزمشاه فلقيهم ابن خرميل وأنزلهم على باب البلد فقالوا له قد أمرنا خوارزمشاه اننا لا نخالف لك أمرا فشكرهم على ذلك وكان يخرج اليهم كل يوم وأقام لهم الوظائف الكثيرة وأتاه الخبر ان خوارزمشاه نزل على بلخ فحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد فلم ينزل بالقرب منها فنزل على أربعة فراسخ فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه وقال لخواصه لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل فانى أراه عاجزا وشرع فى اعادة العسكر فقال للامراء ان خوارزمشاه قد أرسل الى غياث الدين يقول له انى على العهد الذى بيننا وأنا أترك ما كان لابيك بخراسان والمصلحة ان ترجعوا حتى ننظر ما يكون فعادوا وأرسل اليهم الهدايا الكثيرة وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزمشاه الى هراة أخذ اقطاع ابن خرميل وأرسل الى كرزبان وأخذ كل ماله بها من مال وأولاد ودواب وغير ذلك وأخذ أصحابه فى القيود وأتاه كتب من يميل اليه من الغورية يقولون له ان رأيك يا غياث الدين قتلك ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين بأهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه والمكاتبة الى غياث الدين بانفاذ من يتسلم البلد وكتب القاضى صاعد قاضى هراة وابن زياد الى غياث الدين بذلك فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين بأهله وبما عزم عليه أهل هراة خاف ان يعاجله بالقبض فحضر عند القاضى وأحضر أعيان البلد وألان لهم القول وتقرب اليهم وأظهر طاعة غياث الدين وقال قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد أرسل رسولا الى غياث الدين بطاعتى والذى أوثره منكم ان تكتبوا معه كتابا بطاعتى فاستحسنوا قوله وكتبوا له بما طلب وسير رسوله الى فيروزكوه وأمره اذا جنه الليل ان يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه و يجد السير فاذا لحقهم ردهم اليه ففعل الرسول ما أمره ولحق العسكر على يومين من هراة فأمرهم بالعود فعادوا فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا الى هراة والرسول بين أيديهم فلقيهم ابن خرميل وأدخلهم البلد والطبول

تضرب بين أيديهم فلما دخلوا أخذ ابن زياد الفقيه فسمله وأخرج القاضى صاعدا من البلد فسار الى غياث الدين بفيروزكوه وأخرج من عنده من الغورية وكل من يعلم انه يريدهم وسلم ابواب البلد الى الخوارزمية واما غياث الدين فانه برز من فيروزكوه نحو هراة وارسل عسكرا فاخذوا حشيرا كان لاهل هراة فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الروذ وغيره فامر غياث الدين عسكره بالتقدم الى هراة وجعل المقدم عليهم على بن ابى على وأقام هو بفيروزكوه لما بلغه ان خوارزمشاه على بلخ فسار العسكر وعلى يزكه الامير اميران بن قيصر الذى كان صاحب الطالقان فارسل الى ابن خرميل يعرفه انه على اليزك ويامره بالمجىء اليه فانه لا يمنعه وحلف له على ذلك فسار ابن خرميل فى عسكره فكبس عسكر غياث الدين فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم فقتلوا فيهم فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفا ان يهلكوا وغنم واسر اسمعيل الخلجى واقام بمكانه وارسل عسكره فشنوا الغارة على البلاد باذغيس وغيرها وعظم الامر على غياث الدين فعزم على المسير الى هراة بنفسه فاتاه الخبر ان علاء الدين صاحب باميان قد عاد الى غزنة على ما نذكره فاقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدز وأما بلخ فان خوارزمشاه لما بلغه قتل شهاب الدين أخرج من كان عنده من الغوريين الذين كان اسرهم فى المصاف على باب خوارزم فخلع عليهم وأحسن اليهم وأعطاهم الاموال وقال ان غياث الدين أخى ولا فرق بينى وبينه فمن أحب منكم المقام عندى فليقم ومن احب ان يسير اليه فانى اسيره ولو ارادمنى مهما اراد نزلت له عنه وعهد الى محمد بن على بن بشير وهو من اكابر الامراء الغورية فاحسن اليه واقطعه استمالة للغورية وجعله سفيرا بينه وبين صاحب بلخ فسير اخاه على شاه بين يديه فى عسكره الى بلخ فلما قاربها خرج اليه عماد الدين عمر بن الحسين الغورى اميرها فدفعه عن النزول عليها فنزل على أربعة فراسخ عنها فارسل الى اخيه خوارزمشاه يعلمه قوتهم فسار اليها فى ذى القعدة من السنة فلما وصل الى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم فلم يقو بهم لكثرتهم فنزلوا افصارا يوقع بهم ليلا فكانوا معه على اقبح صورة فاقام صاحب بلخ محاصرا وهو ينتظر المدد من أصحابه اولاد بهاء الدين صاحب باميان وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة على ما ذكرناه وعلى ما نذكره ان شاء الله تعالى فأقام خوارزمشاه على بلخ اربعين يوما كل يوم يركب الى الحرب فيقتل من أصحابه كثير ولا يظفر بشىء فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن على بن بشير الغورى وبذل له بذلا كثيرا ليسلم اليه البلد فلم يجبه الى ذلك وقال لا أسلم البلد الا الى أصحابه فعزم على المسير الى هراة فلما سار أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان الى غزنة المرة الثانية على ما نذكره ان شاء الله تعالى واسرهم تاج الدين الدز عاد عن ذلك العزم وأرسل محمد بن على بن بشير الى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرهم وأنه لا يبقى عليه حجة ولا له فى التأخر عنه عذر فدخل اليه ولم يزل يخدعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب الى طاعة خوارزمشاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة وقال انا أعلم انه لا يفى له وارسل من يستحلفه على ما ارادفتم الصلح وخرج الى خوارزمشاه فخلع عليه واعاده الى بلده وكان سلخ ربيع الاول سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزمشاه الى كرزبان ليحاصرها وبها على بن أبى على وأرسل الى غياث الدين يقول ان هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل فتنزل عنها فامتنع وقال بينى وبينكم السيف فارسل اليه خوارزمشاه مع محمد بن على بن بشير فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين ولم يزل به حتى نزل عنها وسلمها وعاد الى فيروزكوه فأمر غياث الدين بقتله فشفع فيه الامراء فتركه وسلم خوارزمشاه كرزبان الى ابن

ابن أيوب بدمشق وكان نائبها و ببعلبك من عمه الناصر صلاح الدين يوسف وكان تقيا من بين أهله شجاعا كريما فاضلا له شعر جيد و وصل خبر موته الى صلاح الدين وهو ببلاد الجزيرة فجهز شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم الى دمشق واستمر بولد فرخشاه بهرامشاه على بعلبك وكان بها نائبا عن أبيه قبل وفاته وفيها توفى الشيخ أحمد بن الرفاعى من سواد واسط وكان صالحا عظيما وله قبول عند الناس وتلامذته لا تحصى ﴿وفى سنة تسع وسبعين وخمسمائة﴾ حاصر السلطان صلاح الدين آمد وملكها واعطاها لصاحب حصن كيفا نور الدين محمد ابن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن ارتق وملك عين تاب وأقر صاحبها عليها ونازل حلب وحاصرها فاتفق معه صاحبها عماد الدين زنكى على ان يسلمها اليه و يعاض عنها بسنجار ونصيبين والخابور على ان يحضر اليه بعسكره كما طلب وتسلم حلب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى صفر من هذه السنة ✽ ومن الاتفاق العجيب أن القاضى محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح

السلطان بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو السلطان صلاح الدين الاصغر كان قد طعن فى ركبته وكان السلطان فى دعوة عملها عماد الدين زنكى بسبب الصلح حافلة فجاء شخص أسر السلطان فى أذنه أن تاج الملوك مات فامر بتجهيزه سرا ولم يعلم الحاضرين بذلك لئلا يتكدر عليهم مع وجده العظيم عليه وكان يقول بعد ذلك ما وقعت حلب علينا رخيصة ثم جعل ولده الملك الظاهر غازى بحلب وسار الى دمشق ثم توجه الى الغور وأغار على بيسان وحرقها وطلب أخاه الملك العادل أبابكر فجاءه الى الكرك وحاصرها مدة ثم عاد الى دمشق وأعطى أخاه الملك العادل أبابكر حلب وأعطى مصر لابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه وأحضر ولده الملك الظاهر غازى الى دمشق وحاصر الكرك

خرميل ثم أرسل الى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه اليه و يقول قد حضر مهم ولا غنى عن حضورك فأنت اليوم من أخص أوليائنا فحضر عنده فقبض عليه وسيره الى خوارزم ومضى هو الى بلخ فاخذها واستناب بها جعفرا التركى

﴿ ذكر ملك خوارزمشاه ترمذ وتسليمها الى الخطا ﴾

لما أخذ خوارزمشاه مدينة بلخ سار عنها الى مدينة ترمذ مجدا وبها ولد عماد الدين الذى كان صاحب بلخ فارسل اليه محمد بن على بن بشير يقول له ان اباك قد صار من أخص أصحابى وأكابر أمراء دولتى وقد سلم الى بلخ وانما ظهر لى منه ما انكرته فسيرته الى خوارزم مكرما محترما وأما أنت فتكون عندى أخا وعده واقطعه الكثير فخدعه محمد بن على فرأى صاحبها ان خوارزمشاه قد حصره من جانب والخطا قد حصروه من جانب آخر واصحابه قد اسرهم الدز بغزنة فضعفت نفسه وارسل من يستحلف له خوارزمشاه فحلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها الى الخطا فاقد اكتسب بها خوارزمشاه مسبة عظيمة وذكرا قبيحا فى عاجل الامر ثم ظهر للناس بعد ذلك أنه انما سلمها اليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان ثم يعود اليهم فيأخذها وغيرها منهم لانه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا واخذها وأفناهم ظهر على الناس أنه فعل ذلك خديعة ومكرا غفر الله له

﴿ ذكر عود اصحاب باميان الى غزنة ﴾

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركى الى غزنة واخراجه علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين سام صاحب باميان منها بعد ان ملكها واقام هو فى غزنة من عاشر رمضان سنة اثنتين وستمائة الى خامس ذى القعدة من السنة يحسن السيرة و يعدل فى الرعية وأقطع البلاد للاجناد فبعضهم قام وبعضهم سار الى غياث الدين ولم يخطب لاحد ولا لنفسه وكان يعد الناس بأن رسولى عند مولاى غياث الدين فاذا عاد خطبت له ففرح الناس بقوله وكان يفعل ذلك مكرا وخديعة بهم و بغياث الدين لانه لو لم يظهر ذلك لفارقه اكثر الاتراك وسائر الرعايا وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان فكان يستخدم الاتراك وغيرهم بهذا القول واشباهه فلما ظفر بصاحب باميان على ما نذكره أظهر ما كان يضمره فبينما هو فى هذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين صاحب باميان فى العساكر الكثيرة وانهم قد عزموا على نهب غزنة واستباحة الاموال والانفس فخاف الناس خوفا شديدا وجهز الدز كثيرا من عسكره وسيرهم الى طريقهم فلقوا أوائل العسكر فقتل من الاتراك وادركهم العسكر فلم يكن لهم قوة بهم فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون و يأسرون فوصل المنهزمون الى غزنة فخرج عنها الدز منهزما يطلب بلده كرمان فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس فقاتلهم قتالا شديدا فردهم عنه وأحضر من كرمان مالا كثيرا وسلاحا ففرقه فى العسكر وأما علاء الدين وأخوه فانهما تركا غزنة لم يدخلاها وسارا فى أثر الدز فسمع بهم فسار عن كرمان فنهب الناس بعضهم بعضا وملك علاء الدين كرمان وأمنوا أهلها وعزموا على العود الى غزنة ونهبها فسمع اهلها بذلك فقصدوا القاضى سعيد بن مسعود وشكوا اليه حالهم فشى الى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب واخبره بحال الناس فطيب قلوبهم وأخبرهم غيره ممن يثقون اليه انهم يجمعون على النهب فاستعدوا وضيقوا ابواب الدروب والشوارع وأعدوا العرادات والاحجار وجاءت التجار من العراق والموصل والشام وغيرها وشكوا الى أصحاب السلطان فلم يسكنهم أحد فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع رسول الخليفة

واستغاثوا

مرة أخرى وعاد سالما الى دمشق (وفى سنة ثمانين وخمسمائة) مات سلطان الغرب أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن مغازيا فى بلاد الفرنج وحمل فى تابوت الى اشبيلية وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا وبويع ولده يعقوب بن يوسف وكنيته أبو يوسف وفيها مات قطب الدين ايلغازى بن نجم الدين طمورطاش بن ايلغازى ابن ارتق صاحب ماردين واستقر بعده ولده تولورسلان وفيها غزا السلطان الملك الناصر صلاح الدين الكرك وقارب أخذها وأحرق نابلس وأسر ونهب (وفى سنة احدى وثمانين وخمسمائة) سار الى الموصل واصطلح مع صاحبها على ان يخطب لصلاح الدين على منابر الموصل وما بيده من البلاد ويضرب السكة باسمه واستقر الصلح وأمنت البلاد وعاد الى دمشق بعد مرض أصابه فى الطريق أشرف منه على الموت قيل انه لما بلغ ابن عمه محمد بن شيركوه صاحب حمص ذلك توقع فى نفسه موت صلاح الدين يوسف وأرسل الى بعض أكابر دمشق انهم يسلمونها

واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم وفى أهل البلد فأرسل الى أمير كبير من الغورية يقال له سليمان بن سيسر وكان شيخا كبيرا يرجعون الى قوله يعرفه الحال و يقول له يكتب الى علاء الدين واخيه يتشفع فى الناس ففعل وبالغ فى الشفاعة وخوفهم من أهل البلدان اصروا على النهب فأجابوه الى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة فعوضوهم من الخزانة فسكن الناس وعاد العسكر الى غزنة اواخر ذى القعدة ومعهم الخزانة التى أخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين قتيلا فكانت مع ما أضيف اليها من الثياب والعين تسعمائة حمل ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج بالذهب اثنا عشر ألف ثوب وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فسمع أخوه جلال الدين فاحضره وخلع عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسه فتغيرت نيات الناس واختلفوا ثم ان علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة وجرى بينهما من المشاحنة فى القسمة ما لا يجرى بين التجار فاستدل بذلك الناس على انهما لا يستقيم لهما حال لبخلهما واختلافهما وندم الامراء على ميلهم اليهما وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه واحسانه ثم ان جلال الدين وعمه عباسا سارا فى بعض العسكر الى باميان وبقى علاء الدين بغزنة فاساء وزيره عماد الملك السيرة مع الاجناد والرعية ونهب أموال الاتراك حتى انهم باعوا أمهات أولادهم وهن يبكين و يصرخن ولا يلتفت اليهن

﴿ ذكر عود الدز الى غزنة ﴾

لما سار جلال الدين عن غزنة وأقام بها أخوه علاء الدين جمع الدز ومن معه من الاتراك عسكرا كثيرا وعادوا الى غزنة فوصلوا الى كلوا فملكوها وقتلوا جماعة من الغورية ووصل المنهزمون الى كرمان فسار الدز اليهم وجعل على مقدمته مملوكا كبيرا من مماليك شهاب الدين اسمه أى دكز التتر فى ألفى فارس من الخلج والاتراك والغز والغورية وغيرهم وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد ومعه جماعة من الامراء منهم أبو على بن سليمان بن سيسر وهو وأبوه من أعيان الغورية وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفتران عن ذلك فقيل لهما ان عسكر الاتراك قد قربوا منكم فلم يلتفتا الى ذلك ولا تركا ما كانا عليه فهجم عليهم أى دكز التتر ومن معه من الاتراك فلم يمهلهم يركبون خيولهم فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل فى المعركة ومنهم من قتل صبرا ولم ينج الا من تركه الاتراك عمدا ولما وصل الدز فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى قال كل هؤلاء قاتلونا فقال أى دكز التتر لا بل قتلناهم صبرا فلامه على ذلك و بخه وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه فسجد شكرا لله تعالى وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا وكان فى جملة القتلى أبو على بن سليمان بن سيسر ووصل الخبر الى غزنة فى العشرين من ذى الحجة من هذه السنة فصلب علاء الدين الذى جاء بالخبر فتغيمت السماء وجاء مطر شديد خرب بعض غزنة وجاء بعده برد كبار مثل بيض الدجاج فضج الناس الى علاء الدين بازال المصلوب فانزله آخر النهار فانكشفت الظلمة وسكن ما كانوا فيه وملك الدز كرمان وأحسن الى أهلها وكانوا فى ضر شديد مع أولئك ولما صح الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره الصاحب الى أخيه جلال الدين فى باميان يخبره بحال الدز و يستنجده وكان قد أعد العساكر ليسير الى بلخ يرحل عنها خوارزمشاه فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسار الى غزنة وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث

اليه اذا مات وبلغ صلاح الدين ذلك فلم يكن بعد قليل الا وأصبح محمد بن شيركوه ميتا فى داره بحمص وكانت ليلة عيد الاضحى قيل ان صلاح الدين دس عليه سما واستقر ولده شيركوه مكانه (وفى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة) احضر السلطان صلاح الدين ولده الافضل على من عند ابن عمه تقى الدين عمر من مصر واقطعه دمشق وطلب تقى الدين عمر من مصر واستقر به بحماة واضاف اليه منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين واحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل ولده العزيز عثمان معه وجهزهما الى مصر نيابة عنه (وفى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة) جمع السلطان صلاح الدين عساكره وتوجه للغزو ونزل على الكرك وأرسل ولده الافضل مغيرا على عكا وبلادها فغنم شيأ كثيرا ثم سار صلاح الدين الى مدينة طبرية وفتحها بالسيف وكانت للقومص صاحب طرابلس فجمع سائر الفرنج وخرج لقتال صلاح الدين فسار اليهم صلاح الدين والتقى الجمعان وكانت وقعة مشهورة ونصر الله تعالى فيها المسلمين

الدين فلما كان أواخر ذى الحجة وصل الدز الى غزنة ونزل هو وعسكره بازاء قلعة غزنة وحصر علاء
الدين وجرى بينهم قتال شديد وأمر الدز فنودى فى البلد بالامان وتسكين الناس من أهل البلد
والغورية وعسكر باميان وأقام الدز محاصر القلعة فوصل جلال الدين فى أربعة آلاف من
عسكر باميان وغيرهم فرحل الدز الى طريقهم وكان مقامه الى أن سار اليهم أربعين يوما فلما سار
الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من
بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيسر الغورى الى غياث
الدين بفيروزكوه فلما وصل اكرمه وعظمه وجعله اميرداربفيروزكوه وكان ذلك فى صفر سنة
ثلاث وستمائة وأما الدز فانه سار الى طريق جلال الدين فالتقوا بقرية بلق فاقتتلوا قتالا
صبروا فيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ جلال الدين اسيرا واتى به الى الدز فلما رآه ترجل
وقبل يده وأمر بالاحتياط عليه وعاد الى غزنة وجلال الدين معه أسير والف أسير من الباميانية
وغنم أصحابه اموالهم ولما عاد الى غزنة ارسل الى علاء الدين يقول له ليسلم القلعة اليه والا قتل
من عنده من الاسرى فلم يسلمها فقتل منهم أربعمائة اسير بازاء القلعة فلما رأى علاء الدين ذلك
ارسل مؤيد الملك يطلب الامان فامنه الدز فلما خرج قبض عليه ووكل به وباخيه من يحفظهما
وقبض على وزيره لسوء سيرته وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع
علاء الدين بقلعة غزنة فلما خرج منها قبض عليه أيضا وكتب الى غياث الدين بالفتح وارسل
اليه الاعلام وبعض الاسرى

﴿ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب اربل اذربيجان﴾

فى هذه السنة اتفق صاحب مراغة وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبرى صاحب اربل
على قصد اذربيجان وأخذها من صاحبها ابى بكر بن البهلوان لاشتغاله بالشرب ليلا ونهارا وتركه
النظر فى أحوال المملكة وحفظ العساكر والرعايا فسار صاحب اربل الى مراغة واجتمع
هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل الى ايتغمش صاحب بلاد
الجبل همذان واصفهان والرى ومابينهما من البلاد وهو مملوك أبيه البهلوان وهو فى طاعة أبى بكر
الا انه قد غلب على البلاد فلا يلتفت الى أبى بكر فأرسل اليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الحال وكان
حينئذ ببلاد الاسماعيلية فلما أتاه الخبر سار اليه فى العساكر الكثيرة فلما حضر عنده أرسل
الى صاحب اربل يقول له انا كنا نسمع عنك أنك تحب اهل العلم والخير وتحسن اليهم فكنا
نعتقد فيك الخير والدين فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الاسلام وقتال
المسلمين ونهب أموالهم واثارة الفتنة فاذا كنت كذلك فالك عقل تجئ الينا وأنت صاحب
قرية ونحن لنا من باب خراسان الى خلاط والى اربل واحسب انك هزمت هذا أما تعلم ان له
مماليك أنا أحدهم ولو أخذ من كل قرية شحنة أو من كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له اضعاف
عسكرك فالمصلحة انك ترجع الى بلدك وانما اقول لك هذا ابقاء عليك ثم سار نحوه عقيب هذه
الرسالة فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير ايتغمش عزم على العود فاجتمع به صاحب مراغة
ليقيم بمكانه ويسلم عسكره اليه وقال له انى قد كاتبنى جميع امراء ابى بكر ليكونوا معى اذا قصدتهم فلم يقبل
مظفر الدين من قوله وعاد الى بلده وسلك الطريق الشاقة والمضايق الصعبة والعقاب الشاهقة
خوفا من الطلب ثم ان ابابكر وايتغمش قصدا مراغة وحصراها فاصلحهما صاحبها على تسليم
قلعة من حصونه الى أبى بكر هى كانت سبب الاختلاف واقطعه أبو بكر مدينتين استوا

نصرا عظيما وفتحت سائر
البلاد الساحلية والجبلية
واباد المسلمون الفرنج قتلا
واسرا وجلس السلطان
صلاح الدين فى خيمة
عظيمة واحضر ملك الفرنج
واجلسه الى جانبه وكان
عطشانا وكان البرنس
صاحب الكرك الى جانبه
فاحضر السلطان ماء باردا
سقى منه ملك الفرنج
بعدما شرب منه البرنس
فقال السلطان لم يشرب
هذا الملعون باذنى ليكون له
امانا ثم التفت اليه وقال له
يابرنس لم غدرت المسلمين
وقصدت الحرمين الشريفين
وفعلت مافعلت ونهض
اليه وضرب عنقه بيده
فخاف ملك الفرنج فسكن
السلطان جاشه وامر
بالرحيل عن بلاد المسلمين
ثم ركب السلطان وعاد الى
طبرية ففتح قلعتها وفتح عكا
وسائر القلاع التى تليها وفتح
قلعة نابلس وصيدا وبيروت
وعسقلان والرملة
ومايليها الى القدس ونازل
القدس وبه من النصارى
مالايعلمه الا الله تعالى
فضايقهم بالنقابين واشتد
القتال وتعلق السور وطلب
الفرنج الامان مرارا فلم
يجبهم وقال لا آخذها الا
بالسيف كما أخذوها من
المسلمين ثم طلبوا الامان

وارمية وعاد عنه

﴿ذكر ايقاع ايتغمش بالاسماعيلية﴾

وفى هذه السنة سار ايتغمش الى بلاد الاسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم مقتلة كبيرة
ونهب وسبى وحصر قلاعهم ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر ألموت واستئصال أهلها
فاتفق ماذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب اربل واستدعاه الامير ابو بكر ففارق
بلادهم وسار الى أبى بكر كما ذكرناه

﴿ذكر وصول عسكر خوارزم الى بلاد الجبل وما كان منهم﴾

وفى هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس باهليهم
وأولادهم فوصلوا الى زنكان وكان ايتغمش صاحبها مشغولا مع صاحب اربل وصاحب
مراغة واغتنموا اخلاء البلاد فلما عاد مظفر الدين الى بلده وانفصل الحال بين ايتغمش وصاحب
مراغة سار ايتغمش نحو الخوارزمية فلقيهم وقاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ثم انهزم
الخوارزميون وأخذهم السيف فقتل منهم واسر خلق كثير ولم ينج منهم الا الشريد وسبى
نساؤهم وغنمت أموالهم وكانوا قد افسدوا فى البلاد بالنهب والقتل فلقوا عاقبة فعلهم

﴿ذكر الغارة من ابن ليون على اعمال حلب﴾

وفى هذه السنة توالت الغارة من ابن ليون الارمنى صاحب الدروب على ولاية حلب فنهب وحرق
وأسر وسبى فجمع الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره
واستنجد غيره من الملوك فجمع كثيرا من الفارس والراجل وسار عن حلب نحو ابن ليون وكان
ابن ليون قد نزل فى طرف بلاده مما يلى بلد حلب فليس اليه طريق لان جميع بلاده لا طريق
اليها الا من جبال وعرة ومضايق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها لاسيما من ناحية حلب
فان الطريق منها متعذر جدا فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب وجعل على مقدمته
جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصرى ينسب الى قصر الخلفاء
العلويين بمصر لان اباه منهم أخذه فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحا الى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون
اسمه دربساك وانفذ الى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده الى طريق هذه الذخيرة
ليسير وامعها الى دربساك ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره وبقى فى قلة فبلغ الخبر الى
ابن ليون فجد فوافاه وهو مخف من العسكر فقاتله واشتد القتال بينهم فأرسل ميمون الى الظاهر
يعرفه وكان بعيدا عنه فطالت الحرب بينهم وحمى ميمون نفسه وأثقاله على قلة من المسلمين وكثرة
من الارمن فانهزم المسلمون ونال العدو منهم فقتل وأسر وكذلك ايضا فعل المسلمون بالارمن
من كثرة القتل وظفر الارمن باثقال المسلمين فغنموها وسار وابها فصادفهم المسلمون الذين كانوا
قد ساروا مع الذخائر الى دربساك فلم يشعروا بالحال فلم يرعهم الا العدو وقد خالطهم ووضع
السيف فيهم فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم المسلمون أيضا وعاد الارمن الى بلادهم بما غنموا
واعتصموا بجبالهم وحصونهم

﴿ذكر نهب الكرج ارمينية﴾

فى هذه السنة قصدت الكرج فى جموعها ولاية خلاط من ارمينية ونهبوا وقتلوا واسروا وسبوا
أهلها كثيرا وجاسوا خلال الديار آمنين ولم يخرج اليهم من خلاط من يمنعهم فبقوا متصرفين فى
النهب والسبى والبلاد شاغرة لا مانع لها لان صاحبها صبى والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة

فاشترط عليهم ان يعطى كل
رجل بها عشرة دنانير وكل
امرأة خمسة دنانير وعن
كل طفل دينارين وكل من
عجز عن الاداء يكون أسيرا
فوقع الصلح على ذلك وتسلم
المسلمون القدس الشريف
يوم الجمعة سابع عشرى
رجب ورفعت الاعلام
الاسلامية على الاسوار
ورتب السلطان على
الابواب من يقبض الاموال
وكان على رأس قبة الصخرة
صليب كبير مذهب فلما
قلعه المسلمون كانت لهم
ضجة لم يسمع مثلها وكانت
الفرنج قد عملوا بالجامع
الاقصى مستراحا فازاله
السلطان واعاد الجامع
الى ما كان واحضر من
حلب منبرا عظيما كان
صنعه نور الدين محمود لبيت
المقدس واقام السلطان
صلاح الدين بالقدس
الشريف يرتب أموره
وأمر ببناء الرباط ومدارس
الشافعية ورحل فى خامس
شعبان وفى هذه السنة
توفى شمس الدين محمد بن
عبد الملك المعروف بابن
المقدم شهيدا حاجا ودفن
بمقبرة المعلى فى وقعة كانت
بين الحاج الشامى
والعراقى بسبب ان شمس
الدين بن المقدم كان أمير
الحاج الشامى وقصد

على الجند فلما اشتد البلاء على الناس تذامر واوحرض بعضهم بعضا واجتمعت العساكر الاسلامية التى بتلك الولاية جميعها وانضاف اليهم من المتطوعة كثير فساروا جميعهم نحو الكرج وهم خائفون فرأى بعض الصوفية الاخيار الشيخ محمد البستى وهو من الصالحين وكان قد مات فقال له الصوفى أراك ههنا فقال جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحا بجعل البستى من الاسلام وأتى الى مدبر العسكر والقيم بأمره وقص عليه رؤياه ففرح بذلك وقوى عزمه على قصد الكرج وسار بالعساكر اليهم فنزل منزلا فوصلت الاخبار الى الكرج فعزموا على كبس المسلمين فانتقلوا من موضعهم بالوادى الى اعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين اذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادى وأسفله وهو واد ليس اليه غير هذين الطريقين فلما رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك وسقط فى أيديهم وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيرا وأسروا مثلهم ولم يفلت من الكرج الا القليل وكفى الله المسلمين شرهم بعد ان كانوا أشرفوا على الهلاك

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى الامير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بتستر وكان قد ولاه الخليفة على جميع خوزستان وكان أميرا على الحاج سنين كثيرة وكان خيرا صالحا حسن السيرة كثير العبادة يتشيع ولما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر وهو صهر طاشتكين زوج ابنته وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق وكان سبب قتله أنه سعى بأبيه مقلد الى الخليفة الناصر لدين الله فأمر بالتوكيل على أبيه فبقى مدة ثم أطلقه الخليفة ثم ان سنجرا قتل أخاله اسمه [illegible] فأوغر بهذه الاسباب صدور أهله واخوته فلما كان هذه السنة فى شعبان نزل بأرض المعشوق وركب فى بعض الايام ومعه اخوته وغيرهم من أصحابه فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه على بن مقلد بالسيف فسقط الى الارض فنزل اخوته اليه فقتلوه وفيها تجهز غياث الدين خسروشاه صاحب مدينة الروم الى مدينة طرابزون وحصر صاحبها لانه كان قد خرج عن طاعته فضيق عليه فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ولم يخرج منهم أحد الى بلاد غياث الدين فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لانهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير بحيث لم ينفتح الطريق تأذوا أذى كثيرا فكان السعيد منهم من عاد الى رأس ماله وفيها تزوج أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان واران بابنة ملك الكرج وسبب ذلك ان الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه فى الشرب واللعب وما جانسهما واعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد فلما رأى هو أيضا ذلك ولم يكن عنده من الحمية والانفة من هذه المناحس ما يترك ما هو مصر عليه وانه لا يقدر على الذب عن البلاد عدل الى الذب عنها بأيره فخطب ابنة ملكهم فتزوجها فكف الكرج عن النهب والاغارة والقتل فكان كما قيل أغمد سيفه وسل أيره وفيها حمل الى ازبك خروف وجهه صورة آدمى وبدنه بدن خروف وكان هذا من العجائب وفيها توفى القاضى أبو محمد بن محمد المانداى الواسطى بها وفيها فى شوال توفى فخر الدين مباركشاه بن الحسن المروروذى وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما وكان له دار ضيافة فيها كتب وشطرنج فالعلماء يطالعون الكتب

الافاضة قبل العراقيين فمنعوه من ذلك واستمر السلطان صلاح الدين يفتح فى البلاد وينهب الفرنج ودخلت عليه سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو على ذلك فشتى على عكا ولم يدخل دمشق الا مارابها نحو خمسة ايام ونزل بحيرة قدس واجتمعت عليه العساكر منهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ابن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين ورحل بالعساكر فنزل على حصن الاكراد وشن الغارات ثم رحل الى انطرطوس فوجد الفرنج قد اخلوها فسار الى المرقب فوجدهم قد اخلوها فسار الى جبلة وتسلمها وسار الى اللاذقيه وحاصرها وتسلم قلعتها بالامان وسلمها الى ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه فعمرها وكان تقى الدين عالى الهمة فى العمارة وتحصين القلاع وسار الى صهيون فتسلمها بعد ان حاصرها فنزلوا على ما نزل عليه أهل القدس وسلمها الى الامير ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبى قبيس وسار الى الشغر وبكاس فتسلمهما ثم الى مرزبة فحصرها وأخذها ثم الى الدربساك

والجهال يلعبون بالشطرنج وفيها فى ذى الحجة توفى أبو الحسن على بن على بن سعادة الفارقى الفقيه الشافعى ببغداد وبقى مدة طويلة معيدا بالنظامية وصار مدرسا بالمدرسة التى أحدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله وكان مع علمه صالحا طلب للنيابة فى القضاء ببغداد فامتنع فالزم بذلك فوليه يسيرا ثم فى بعض الايام مشى الى جامع ابن المطلب فنزل ولبس مئزر صوف غليظ وغير ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف وأقام به حتى سكن الطلب عنه وعاد الى داره بغير ولاية وفيها وقع الشيخ أبو موسى المكى المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات وكان رجلا صالحا كثير العبادة وفيها أيضا توفى العفيف أبو المكارم عرفة بن على بن بصلا البندنيجى ببغداد وكان رجلا صالحا منقطعا الى العبادة رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة﴾

﴿ذكر ملك عباس باميان وعودها الى ابن أخيه﴾

فى هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدى أخيه بهاء الدين وسبب ذلك ان عسكر باميان لما انهزموا من الدز وعادوا اليها أخبروا ان علاء الدين وجلال الدين أسرا وان الدز ومن معه غنموا ما فى أيديهما فأخذ وزير أبيهما المعروف بالصاحب من الاموال كثيرا ومن الجواهر وغيرها من التحف وأخذ فيلا وسار الى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسير معه عسكرا يستخلص به صاحبيه فلما فارق باميان ورأى عمهما عباس خلو البلد منه ومن ابنى أخيه جمع أصحابه وقام فى البلد فملكه وصعد الى القلعة فملكها وأخرج أصحاب ابنى أخيه علاء الدين وجلال الدين منها فبلغ الخبر الى الوزير السائر الى خوارزم شاه فعاد الى باميان وجمع الجموع الكثيرة وحصر عباسا فى القلعة وكان مطاعا فى جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده وأقام محاصرا الا انه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج اليه انما كان معه ما أخذه ليحمله الى خوارزم شاه فلما خاص جلال الدين من أسر الدز على ما ذكره وسار الى باميان فوصل الى أرصف وهى مدينة باميان وجاء اليه وزير أبيه الصاحب واجتمع به وسار الى القلاع وأرسلوا عباسا المتغلب عليها ولاطفوه فسلم الجميع الى جلال الدين وقال انما حفظتها خوفا ان يأخذها خوارزم شاه فاستحسن فعله وعاد الى ملكه

﴿ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان﴾

لما تسلم خوارزم شاه ترمذ الى الخطا سار عنها الى ميمنة واندخوى وكتب الى سونج أمير اشكار نائب غياث الدين محمود بالطالقان يستميله فعاد الرسول خائبا لم يجبه سونج الى ما أراد منه وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه فالتقوا بالقرب من الطالقان فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجدا حتى قارب عسكر خوارزم شاه فالقى نفسه الى الارض ورمى سلاحه عنه وقبل الارض وسأل العفو فظن خوارزم شاه أنه سكران فلما علم انه صاح ذمه وسبه وقال من يثق الى هذا وأشباهه ولم يلتفت اليه وأخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب وأنفذه الى غياث الدين مع رسول وحمله رسالة تتضمن التقرب اليه والملاطفة له واستناب بالطالقان بعض أصحابه وسار الى قلاع كالوين وبيوار فخرج اليه حسام الدين على بن أبى على صاحب كالوين وقاتله على رؤس الجبال فارسل اليه خوارزم شاه يتهدده ان لم يسلم اليه فقال أما أنا فمملوك وهذه الحصون فهى أمانة بيدى ولا أسلمها الا الى صاحبها فاستحسن خوارزم شاه منه هذا وأثنى عليه وذم سونج ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان الى خوارزم شاه عظم عنده وشق عليه

فأخذها ثم الى بغراس فحصرها وأخذها ثم قصد انطاكية فأرسل صاحبها وكان عظيم الفرنج اسمه يميل يطلب المهادنة والتزم باطلاق كل أسير عنده فأجابه السلطان الى ذلك ثمانية شهور ثم سار السلطان صلاح الدين الى حلب وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة ودخل السلطان دمشق فى شهر رمضان فاشار عليه أصحابه بتفريق العساكر ليستريحوا فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وبلغه ان أخاه الملك العادل فتح الكرك بالامان وتسلمها والشوبك وسائر الجهات فسار الى صفد وتسلمها بالامان ثم سار الى القدس وعمل فيه عيد الاضحى وتوجه الى عكا فأقام بها حتى خرجت السنة وفيها توفى محمد بن عبد الله الكاتب الشهير بابن التعاويذى الشاعر المعروف وله أشعار حسنة منها وقد صودر جماعة من الدواوين من جملة قصيدة

يا قاصدا بغداد وجز عن بلد
للجور فيها زخرة وعباب
والناس قد قامت قيامتهم فلا

فسلاه أصحابه وهوّنوا الامر ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار الى هراة فنزل بظاهرها ولم يمكن ابن خرميل أحدا من الخوارزميين ان يتطرق بالاذى الى أهلها وانما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة فيقطعون الطريق وهذه عادة الخوارزميين ووصل رسول غياث الدين الى خوارزم شاه بالهدايا ورأى الناس عجبا وذلك ان الخوارزميين لايذكرون غياث الدين الكبير والد هذا غياث الدين ولايذكرون أيضا شهاب الدين أخاه وهما حيان الا بالغورى وصاحب غزنة وكان وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شأنه وقلة هذا غياث الدين لايذكره الا بمولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده وأما ابن خرميل فانه سار من هراة فى جمع من عسكر خوارزم شاه فنزل على اسفرار فى صفر وكان صاحبها قد توجه الى غياث الدين فحصرها وأرسل الى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم وان امتنعوا أقام عليهم الى ان ياخذهم فاذا أخذهم قهرا لايبقى على كبير ولا صغير فخافوا فسلموها فى ربيع الاول فأمنهم ولم يتعرض الى أهلها بسوء فلما أخذها أرسل الى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعوه الى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده فاجابه الى ذلك وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك فى الخطبة والدخول فى طاعته فغالطه ولم يجبه الى ماطلب ولما كان خوارزم شاه على هراة عاد اليها القاضى صاعد بن الفضل الذى كان ابن خرميل قد أخرجه من هراة فى العام الماضى وسار الى غياث الدين فعاد الآن من عنده فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه ان هذا يميل الى الغورية ويريد دولتهم ووقع فيه فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن وولى القضاء بهراة الصفى أبا بكر بن محمد السرخسى وكان ينوب عن صاعد وابنه فى القضاء بهراة

﴿ذكر حال غياث الدين مع الدز وايبك﴾

لما عاد الدز الى غزنة وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كما ذكرناه وكتب اليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له فاجابه فى هذه المدة أشد منه فيما تقدم فاعاد غياث الدين اليه يقول اما ان تخطب لنا واما ان تعرفنا ما فى نفسك فلما وصل الرسول بهذا أحضر خطيب غزنة وأمره يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين فخطب لتاج الدين الدز بغزنة فلما سمع الناس ذلك ساءهم وتغيرت نياتهم ونيات الاتراك الذين معه ولم يروه أهلا أن يخدموه وانما كانوا يطيعونه ظنا منهم انه ينصر دولة غياث الدين فلما خطب لنفسه أرسل الى غياث الدين يقول له بماذا تنبسط على وتتحكم هذه الخزانة نحن جمعناها باسيافنا وهذا الملك قد أخذناه وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة وأقطعتهم الاقطاعات ووعدتنى بامور لم تف بها فان أنت أعتقتنى خطبت لك وحضرت خدمتك فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين الى عتق الدز بعد الامتناع الشديد والعزم على مصالحة خوارزم شاه على ما يريد وقصد غزنة ومحاربته بها فلما أجابه الى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضا بعتق قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند وأرسل الى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفا كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل وأرسل الى كل واحد منهما رسولا فقبل الدز الخلع ورد الجتر وقال نحن عبيد ومماليك والجتر له أصحاب وسار رسول ايبك اليه وكان بفرشابور قد ضبط المملكة وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والاذى والناس معه فى أمن فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد وترجل وقبل حافر الفرس ولبس الخلعة وقال أما الجتر فلا يصلح للمماليك وأما العتق فمقبول وسوف أجازيه بعبودية الابد وأما خوارزم شاه فانه أرسل الى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا ويطلب منه ابن خرميل

انساب بينهم ولا احساب
شهدوا امعادهم فعاد مصدقا
من كان قبل بعثه يرتاب
حشر وميزان وعرض
جرائد
وصحائف منشورة وحساب
مافاتهم من كل ماوعدوا به
فى الحشر الاراحم وهاب
(وفى سنة خمس وثمانين
وخمسمائة) كان اجتمع فى
صور سائر الفرنج الذين
اخرجوا بالامان وساروا
جمعا كثيرا لايحصى
وارسلوا الى بلادهم
يستنجدون ملوكهم
ويتوصلون اليهم بصورة
المسيح وبنسائهم فاجتمع
عدة من الملوك ووصلوا
الى عكا ونازلوها فى منتصف
رجب من هذه السنة
واستمروا يحاصرونها الى
سابع عشر جمادى الآخرة
من سنة سبع وثمانين
وخمسمائة فانهم كانوا
محاصرين ومحصورين
من السلطان صلاح
الدين لانه سار اليهم مرتين
وقاتلوهم قتالا شديدا فلما
عجز المسلمون وملوا تسلم
الفرنج عكا بالامان وغدروا
وقتلوا خلقا كثيرا وأسروا
الباقى وتوجهوا نحو
قيسارية ووقع بينهم وبين
المسلمين مصاف عظيمة
ونزحوا فيها ثم ساروا الى
يافا وقد أخذها المسلمون
فملكوها وخرب السلطان

صاحب

صاحب هراة الى طاعته ويسيره معه فى العساكر الى غزنة فاذا ملكها من الدز اقتسموا المال أثلاثا ثلثا لخوارزم شاه وثلثا لغياث الدين وثلثا للعسكر فأجابه الى ذلك ولم يبق الا الصلح فوصل الخبر الى خوارزم شاه بموت صاحب مازندران فسار عن هراة الى مرو وسمع الدز بالصلح فجزع لذلك جزعا عظيما ظهر أثره عليه وأرسل الى غياث الدين يقول له ما حملك على هذا فقال حملنى عليه عصيانك وخلافك على فسار الدز الى تكياباذ فأخذها والى بست وتلك الاعمال فملكها وقطع خطبة غياث الدين منها وأرسل الى صاحب سجستان يأمره باعادة الترحم على شهاب الدين وقطع خطبة خوارزم شاه وأرسل الى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهددهما بقصد بلادهما فخافه الناس ثم ان الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز التترى مملوك شهاب الدين الى باميان ليعيدوه الى ملكه ويزيلوا ابن عمه عنه وزوجه ابنته وسار ومعه ايدكز فلما خلا به لامه على لبسه خلعة الدز وقال أنتم ما رضيتم تلبسون خلعة غياث الدين وهو أكبر منكم وأشرف بيتا تلبس خلعة هذا المأبون يعنى الدز ودعاه الى العود معه الى غزنة وأعلمه ان الاتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز فلم يجبه الى ذلك فقال ايدكز فانى لا أسير معك وعاد الى كابل وهى اقطاعه فلما وصل ايدكز الى كابل لقيه رسول من قطب الدين ايبك الى الدز يقبح له فعله ويأمره باقامة خطبة غياث الدين ويخبره انه قد خطب له فى بلاده ويقول له ان لم يخطب له هو أيضا بغزنة ويعود الى طاعته والا قصده وحاربه فلما علم ايدكز ذلك قويت نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على قصد غزنة ووصل أيضا رسول ايبك الى غياث الدين بالهدايا والتحف ويشير باجابة خوارزم شاه الى ما طلب الآن وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل أمور خوارزم شاه وغيره وأنفذ له ذهبا عليه اسمه فكتب ايدكز الى ايبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله فى البلاد وانه على عزم مشاققة الدز وهو ينتظر أمره فأعاد ايبك جوابه يأمره بقصد غزنة فان حصلت له القلعة أقام بها الى أن يأتيه وان لم تحصل له القلعة وقصده الدز انحاز اليه أو الى غياث الدين او يعود الى كابل فسار الى غزنة وكان جلال الدين قد كتب الى الدز يخبره خبر ايدكز وما عزم عليه فكتب الدز الى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه فوصلها ايدكز أول رجب من السنة وقد حذره فلم يسلموا اليه القلعة ومنعوه عنها فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع منه فتوسط القاضى الحال بأن سلم اليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية وأخذ له من التجار شيأ آخر وخطب ايدكز بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز ففرح الناس بذلك وكان مؤيد الملك ينوب عن الدز بالقلعة ووصل الخبر الى الدز بوصول ايدكز الى غزنة ووصول رسول ايبك اليه ففت فى عضده وخطب لغياث الدين فى تكياباذ وأسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل الى غزنة فلما قاربها رحل ايدكز عنها الى بلد الغور فاقام فى تمران وكتب الى غياث الدين يخبره بحاله وأنفذ اليه المال الذى أخذه من الخزانة ومن أموال الناس فارسل اليه خلعا وأعتقه وخاطبه بملك الامراء ورد عليه المال الذى كان أخذه من الخزانة وقال له اما مال الخزانة فقد أعدناه اليك لتخرجه وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلته مع رسولى ليعاد الى أربابه لئلا تفتضح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه وأرسل أموال الناس الى غزنة الى قاضى غزنة وأمره ان يرد المال المنفذ على أربابه فانهى القاضى الحال الى الدز وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين وقال أنا أسعى فى الوصلة بينكما والصلح فامره بذلك فبلغ الخبر الى غياث الدين فارسل الى القاضى ينهاه عن المجىء اليه وقال لا تسأل فى عبد أبق قد بان فساده واتضح عناده

صلاح الدين عسقلان
خوفا من أن يحصل لها
مثل عكا وخرب حصن
الرملة وكنيسة لد ثم سار
الى القدس وقرر أمورها
وعاد الى مخيمه بالناطرون
ثامن رمضان سنة سبع
وثمانين وخمسمائة وتراسل
السلطان والفرنج بالصلح
على ان يتزوج الملك العادل
أخو السلطان صلاح الدين
أخت ملك الانكتار
ويكون له القدس ولها عكا
فحضر القسيسون ومنعوا
من ذلك الا ان يتنصر الملك
العادل فلم يتفق الحال
وصارت المناوشة بين
المسلمين والفرنج فانتقل
الفرنج من يافا الى الرملة
وسار السلطان الى القدس
وأخذ فى عمارته وتحصينه
وفيها كان الملك المظفر
تقى الدين عمر بن أيوب
أوغل فيما وراء الفرات
من أخذ البلاد والقلاع
وحصر بكتمر صاحب
اخلاط وأخذ معظم البلاد
هنالك ومات ليلة الجمعة
حادى عشر رمضان فأخفى
ولده الملك المنصور محمد
وفاته وكان معه ورحل
عن بلاد كرد ووصل الى
حماة ودفنه بظاهرها وبنى
الى جانب التربة مدرسة
مشهورة هنالك واستقر

فاقام بغزنة هو والدز وسير غياث الدين عسكرا الى اى دكز التتر فاقاموا معه وسير الدز عسكرا الى روين كان وهى لغياث الدين وقد أقطعها لبعض الامراء فهجموا على صاحبها فنهبوا ماله وأخذوا أولاده فجاء وحده الى غياث الدين فاقتضى الحال ان سار غياث الدين الى بست وتلك الولاية فاستردها وأحسن الى أهلها وأطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدز من الاذى

﴿ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده﴾

فى هذه السنة توفى حسام الدين اردشير صاحب مازندران وخلف ثلاثة أولاد فملك بعده ابنه الاكبر وأخرج أخاه الاوسط من البلاد فقصد جرجان وبها الملك على شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد وهو ينوب عن أخيه فيها فشكا اليه ما صنع به أخوه من اخراجه من البلاد وطلب منه أن ينجده عليه ويأخذ له البلاد ليكون فى طاعته فكتب على شاه الى أخيه خوارزم شاه فى ذلك فامره بالمسير معه الى مازندران وأخذ البلاد له واقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها فساروا عن جرجان فاتفق ان حسام الدين صاحب مازندران مات فى ذلك الوقت وملك البلاد بعده أخوه الاصغر واستولى على القلاع والاموال فوصل على شاه البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها وامتنع منهم الاخ الصغير بالقلاع وأقام بقلعة كورا وهى التى فيها الاموال والذخائر وحصره فيها بعد أن ملكوا اسامة البلاد مثل سارية وآمل وغيرهما من البلاد والحصون وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت فى طاعته وعاد على شاه الى جرجان وأقام ابن ملك مازندران فى البلاد مالكها جميعها سوى القلعة التى فيها أخوه الاصغر وهو يراسله ويستميله ويستعطفه وأخوه لا يرد جوابا ولا ينزل عن حصنه

﴿ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية﴾

فى هذه السنة ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وبلد الروم مدينة انطاكية بالامان وهى للروم على ساحل البحر وسبب ذلك انه كان حصرها قبل هذا التاريخ وأطال المقام عليها وهدم عدة ابراج من سورها ولم يبق الا فتحها عنوة فارسل من بها من الروم الى الفرنج الذين بجزيرة قبرس وهى قريبة منها فاستنجدوهم فوصل اليها جماعة منهم فعند ذلك يئس غياث الدين منها ورحل عنها وترك طائفة من عسكره بالقرب منها بالجبال التى بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها فاستمر الحال على ذلك مدة حتى ضاق باهل البلد واشتد الامر عليهم فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم فظن الفرنج ان الروم يريدون اخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلف بينهم فاقتتلوا فارسل الروم الى المسلمين وطلبوهم ليسلموا اليهم البلد فوصلوا اليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج فانهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به فارسل المسلمون يطلبون غياث الدين وهو بمدينة قونية فسار اليهم مجدا فى طائفة من عسكره فوصلها ثانى شعبان وتقرر الحال بينه وبين الروم وتسلم المدينة ثالثه وحصر الحصن الذى فيه الفرنج وتسلمه وقتل كل من كان به من الفرنج

﴿ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين الى خلاط وعوده﴾

وفى هذه السنة قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان وكتب أهل خلاط الى ناصر الدين ارتق بن ايلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن ايلغازى بن ارتق يستدعونه اليها وسبب ذلك ان ولد بكتمر كان صبيا جاهلا فقبض على الامير شجاع الدين قتلغ مملوك

ولده على ما كان بيده خلا البلاد الشرقية فانها استقرت للعادل وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج ارسلان صاحب الروم الى السلطان صلاح الدين فأكرمه وزوجه ابنة أخيه الملك العادل وأعاده الى ملطية قال ابن الاثير لما ركب السلطان صلاح الدين ليودع قيصر شاه ترجل قيصر شاه فترجل السلطان صلاح الدين فلما ركب عضده وركبه قيصر شاه وكان السلطان علاء الدين ابن عز الدين صاحب الموصل حاضرا اذ ذاك فسوى ثياب السلطان صلاح الدين فقال بعض الحاضرين ما بقيت تبالى يا ابن أيوب بأى موتة تموت يركبك ملك سلجوقى ويصلح ثيابك ابن أتابك زنكى (وفيها) قتل أبو الفتح يحيى ابن حبش بن أميرك الملقب شهاب الدين السهروردى الحكيم الفيلسوف بقلعة حلب المحروسة محبوسا أمر بخنقه السلطان الملك الظاهر بأمر السلطان الملك الناصر صلاح الدين حين أفتى الفقهاء باباحة دمه لما ظهر من سوء عقيدته وكان كثير العلم قليل العقل (وقال) الشيخ سيف

من مماليك شاه أرمن وهو كان آتابكه ومدبر بلاده وكان حسن السيرة مع الجند والرعية فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة واشتغل هو باللهو واللعب وادمان الشرب فكاتب جماعة من أهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب ماردين يستدعونه اليهم وانما كاتبوه دون غيره من الملوك لان أباه قطب الدين ايلغازى كان ابن أخت شاه ارمن بن سكمان وكان شاه ارمن قد حلف له الناس فى حياته لانه لم يكن له ولد فلما تجددت بعده هذه الحادثة تذكروا تلك الايمان وقالوا نستدعيه ونملكه فانه من أهل شاه أرمن فكاتبوه وطلبوه اليهم ثم ان بعض مماليك شاه أرمن اسمه بلبان وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان سار من خلاط الى بلاد ملازكرد وملكها واجتمع الاجناد عليه وكثر جمعه وسار الى خلاط فملكها واتفق وصول صاحب ماردين اليها وهو يظن ان أحدا لا يمتنع عليه ويسلمون اليه المدينة فنزل قريبا من خلاط عدة أيام فارسل اليه بلبان يقول له ان أهل خلاط قد اتهمونى بالميل اليك وهم ينفرون من العرب والرأى انك ترحل عائدا مرحلة واحدة وتقيم فاذا تسلمت البلد سلمته اليك لانى لا يمكننى ان أملكه انا ففعل صاحب ماردين ذلك فلما أبعد عن خلاط أرسل اليه يقول له تعود الى بلدك والا جئت اليك واوقعت بك وبمن معك وكان فى قلة من الجيش فعاد الى ماردين وكان الملك الاشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة قد أرسل الى صاحب ماردين لما سمع انه يريد قصد خلاط يقول له ان سرت الى خلاط قصدت بلدك وانما خاف أن يملك خلاط فيقوى عليهم فلما سار الى خلاط جمع الاشرف العساكر وسار الى ولاية ماردين فاخذ دخلها وأقام بدنيسر حتى تجبى الاموال اليه فلما فرغ منه عاد الى حران فكان مثل صاحب ماردين كما قيل خرجت تطلب قرنين عادت بلا أذنين وأما بلبان فانه جمع العسكر وحشد وحصر خلاط وضيق على أهلها وبها ولد بكتمر فجمع من عنده بالبلد من الاجناد والعامة وخرج اليه فالتقوا فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه وعاد الى الذى بيده من البلاد وهو ملازكرد وأرجيش وغيرهما من الحصون وجمع العساكر واستكثر منها وعاود حصار خلاط وضيق على أهلها فاضطرهم الى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه ثم قبضوا عليه فى القلعة وأرسلوا الى بلبان وحلفوه على ما أرادوا وسلموا اليه البلد وابن بكتمر واستولى على جميع أعمال خلاط وسجن ابن بكتمر فى قلعة هناك واستقر ملكه فسبحان من اذا أراد أمرا هيأ أسبابه بالامس قصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصلاح الدين يوسف بن أيوب فلم يقدر أحدهما عليها والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والاموال فيملكها صفوا عفوا ثم ان نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميافارقين سار نحو ولاية خلاط وكان قد استولى على عدة حصون من أعمالها منها حصن موسى ومدينته فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته فطمع وأوغل فى القرب فاخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه ولم يفلت من أصحابه الا القليل وهم جرحى وعاد الى ميافارقين

﴿ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج﴾

فى هذه السنة ملك الكرج حصن قرس من أعمال خلاط وكانوا قد حصروه مدة طويلة وضيقوا على من فيه وأخذوا دخل الولاية عدة سنين وكل من نزل خلاط لا ينجدهم ولا يسعى فى راحة تصل اليهم وكان الوالى بها يواصل رسله فى طلب النجدة وازاحة من عليه من الكرج فلا يجاب له دعاء فلما طال الامر عليه ورأى ان لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير واقطاع

الدين الآمدى اجتمعت به فى حلب فقال لا بد لى ان أملك الارض فانى رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر فقلت له لعل العلم فامسك عن هذا فوجد على وكان عمره لما قتل ثمانيا وثلاثين سنة وكان قرأ الحكمة والاصلين بمراغة على مجد الدين الحلبى شيخ الامام فخر الدين الرازى وله عدة مصنفات فى الحكمة وكان ينسب الى معرفة السيميا وله شعر حسن منه

أبدا تحن اليكم الارواح ... ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم ... والى لذيذ لقاكم ترتاح
وارحمة للعاشقين تكلفوا ... ستر المحبة والهوى فضاح

﴿وفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة﴾ وقعت الهدنة بين المسلمين والفرنج اعطى يده ملك الانكار واعتذر عن الحلف بأن الملوك لا يحلفون وحلف سائر ملوك الفرنج وعظمائهم ووصلت رسلهم الى السلطان صلاح الدين فأعطى يده وحلفوا الملك العادل أخا السلطان والملك الافضل والظاهر ابنى السلطان والملك المنصور صاحب حماة محمد بن تقى الدين والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص والملك الامجد

بأخذه منهم وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد فانا لله وانا اليه راجعون ونسأل الله أن يسهل للاسلام وأهله نصرا من عنده فان ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد ثم ان الله تعالى نظر الى قلة ناصر الاسلام فتولاه فأمات ملكة الكرج واختلفوا فيما بينهم وكفى الله شرهم الى آخر السنة

﴿ ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان ﴾

في هذه السنة في رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر وهو كان المتولي لتلك الاعمال وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لانه زوج ابنة طاشتكين الى جبال كرستان وصاحبها يعرف بأبي طاهر وهي جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان فقاتلوا أهلها وعادوا منهزمين وسببه ذلك ان مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من أكابر مماليكه كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوي الرازي واجتاز بخوزستان وأخذ منها ما أمكنه ولحق بأبي طاهر صاحب كرستان فأكرمه وعظمه وزوجه ابنته ثم توفي أبو طاهر فقوي أمر قشتمر وأطاعه أهل تلك الولاية فأمر سنجر بجمع العساكر وقصده وقتاله ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار اليه فأرسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصده ويخرج الى الخروج عن العبودية فلم يقبل عذره فجمع أهل تلك الاعمال ونزل الى العسكر فلقيهم فهزمهم وأرسل الى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين ايغمش صاحب أصبهان وهمذان والري يعرفهما الحال ويقول انني لا قوة لي بعسكر الخليفة لما أضيف اليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا الى حربي وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة ان ملك تلك الجبال فأجاباه الى ما طلب فقوي جنانه واستمر على حاله

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

في هذه السنة قتل صبي صبيا آخر ببغداد وكانا يتعاشران وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة فقال أحدهما للآخر الساعة أضربك بهذه السكين يمازحه بذلك وأهوى نحوه بها فدخلت في جوفه فمات فهرب القاتل ثم أخذ وأمر به ليقتل فلما أرادوا قتله طلب دواة وبيضاء وكتب فيها من قوله

قدمت على الكريم بغير زاد * من الاعمال بل قلب سليم

وسوء الظن ان تعتد زادا * اذا كان القدوم على كريم

وفيها حج برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مازة البخاري رئيس الحنفية ببخارا وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدي الخراج الى الخطا وينوب عنهم في البلد فلما حج لم تحمد سيرته في الطريق ولم يصنع معروفا وكان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارا فلما عاد لم يلتفت اليه لسوء سيرته مع الحاج وسماه الحجاج صدر جهنم وفيها في شوال مات شيخنا أبو الحرم مكي بن ريان بن شبة النحوي المقرئ بالموصل وكان عارفا بالنحو واللغة والقراآت لم يكن في زمانه مثله وكان ضريرا وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة وكان من خيار عباد الله وصالحيهم كثير التواضع لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة الى الليل وفيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرخوم ومضى في طائفة من أصحابه الى الشام وسار الحاج ومعهم الجند فوصلوا سالمين ووصل هو الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب فأقطعه اقطاعا كثيرا بمصر وأقام عنده الى أن عاد الى

بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك وتوجه السلطان الى القدس ثم عاد الى دمشق بعد أربع سنين وفرح الناس به فرحا شديدا وكانت هدنة عامة في البر والبحر مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها ايلول الموافق لحادي عشري شعبان من تلك السنة وكانت الهدنة على أن تستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها وان تكون عسقلان خرابا وان تكون اللد والرملة مناصفة وفيها توفي سلطان الروم عز الدين قلج ارسلان ابن سليمان بن قطلمش بن ارسلان بن سلجوق وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسمائة وكانت هيبته عظيمة وعدله وافرا وغزواته كثيرة وكان له عشرة أولاد كل واحد منهم ملك بقطر من بلاد الروم أكبرهم قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس أراد الانفراد بالسلطنة فهجم على أبيه قلج ارسلان بمدينة قونية فقبض عليه وقال له أنا بين يديك انفذ أمرك وأشهد عليه انه ولي عهده وسار مقبوضا عليه الى أخيه نور الدين السلطان شاه صاحب قيسارية فخرج اليه عسكر

بغداد سنة ثمان وستمائة في جمادى الاولى فانه لما قبض الوزير أمن على نفسه وأرسل يطلب العود فأجيب اليه فلما وصل أكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة وفيها في جمادى الآخرة توفي أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندراني المعروف بابن النطروني في مارستان بغداد وكان قد مضى الى المايورقي في رسالة بافريقية فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية ففرقها جميعها في بلده على معارفه وأصدقائه وكان فاضلا خيرا نعم الرجل رحمه الله وله شعر حسن وكان قيما بعلم الادب وأقام بالموصل مدة واشتغل على الشيخ أبي الحرم واجتمعت به كثيرا عند الشيخ أبي الحرم رحمه الله

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك خوارزم شاه ما وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن واصلاحها ﴾

في هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا وسبب ذلك أن الخطا كانوا قد طالت أيامهم ببلاد تركستان وما وراء النهر وثقلت وطأتهم على أهلها ولهم في كل مدينة نائب يجبي اليهم الاموال وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا وكان مقامهم بنواحي أوزكند وبلاساغون وكاشغر وتلك النواحي فاتفق ان سلطان سمرقند وبخارا ويلقب خان خانان يعني سلطان السلاطين وهو من أولاد الخانية عريق النسب في الاسلام والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين فأرسل الى خوارزم شاه يقول له ان الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار وتخلصهم مما يجري عليهم من التحكم في الاموال والابشار ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل اليك ما نحمله اليهم ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة فأجابه الى ذلك وقال أخاف انكم لا توفون لي فسير اليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا وسمرقند بعد أن حلفوا وأصحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا عنه الصدق والثبات على ما بذل وجعلوا عنده رهائن فشرع في اصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها فولى أخاه علي شاه طبرستان مضافة الى جرجان وأمره بالحفظ والاحتياط وولى الامير كزلك خان وهو من أقارب أمه وأعيان دولته بنيسابور وجعل معه عسكرا وولى الامير جلدك مدينة الجام وولى الامير أمين الدين أبا بكر مدينة زوزن وكان هذا أمين الدين جمالا ثم صار أكبر الامراء وهو الذي ملك كرمان على ما نذكره ان شاء الله تعالى وأقر الامير الحسين على هراة وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية وصالح غياث الدين محمودا على ما بيده من بلاد الغور وكرمسير واستناب في مرو وسرخس وغيرهما من خراسان نوابا وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط وجمع عساكره جميعها وسار الى خوارزم وتجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان سمرقند وسمع الخطا فحشدوا وجمعوا وجاؤا اليه فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات فتارة له وتارة عليه

﴿ ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزم شاه وخلاصه ﴾

ثم ان ابن خرميل صاحب هراة رأى سوء معاملة عسكر خوارزم شاه للرعية وتعديهم الى الاموال فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولا الى خوارزم شاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا فعظم عليه ولم يمكنه محاققته لاشتغاله بقتال الخطا فكتب اليه يستحسن فعله ويأمره بانفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته اليهم وقال له انني قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل صاحب الجام أن يكون عندك لما أعلمه من عقله وحسن سيرته وأرسل الى جلدك يأمره بالمسير الى هراة

قيسارية فقاتلوه فوجد أبوه قلج ارسلان فرصة حال اشتغال العساكر بالقتال فهرب ودخل الى ولده سلطان شاه بقيسارية فأكرمه فرجع قطب الدين ملك شاه الى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة وبقي أبوه قلج ارسلان يتردد بين أولاده فلما كان عند ولده كيخسرو وصاحب تنفر لوجمع جمعا كثيرا وأنفق أموالا جزيلة وسار الى قونية فأخذها من ابنه ملكشاه بعد قليل واستقر كيخسرو في ملك قونية ثم قوي عليه أخوه ركن الدين سليمان وأخذ منه قونية وهرب كيخسرو الى الشام مستجيرا بالملك الظاهر صاحب حلب ثم مات سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قلج ارسلان بلاد الروم جميعها واستقرت له السلطنة الى ان قتل وملك موضعه ولده كيكاوس ثم توفي كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو وبقي الى ان كسره التتر سنة احدى وستين وستمائة وتضعضع ملك السلاطين السلجوقية وانقضى موت غياث الدين

وأسر اليه أن يحتال فى القبض على حسين بن خرميل ولو أوّل ساعة يلقاه فسار جلدك فى ألف فارس وكان أبوه طغرل أيام السلطان سنجر واليا بهراة فهو اليها بالاشواق يختارها على جميع خراسان فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه وكان الحسين وزير يعرف بخواجه الصاحب وكان كبيرا قد حنكته التجارب فقال لابن خرميل لاتخرج الى لقائه ودعه يدخل اليك منفردا فانى أخاف أن يغدر بك وان يكون خوارزمشاه أمر بذلك فقال لايجوز أن يقدم مثل هذا الامير ولا ألقيه وأخاف أن يضطغن ذلك على خوارزمشاه وما أظنه يتجاسر على فخرج اليه الحسين بن خرميل فلما أبصر كل واحد منهما صاحبه ترجل للالتقاء وكان جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه فاختلطوا بهما وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه وقبضوا عليه فانهزم أصحابه ودخلوا المدينة وأخبروا الوزير بالحال فأمر باغلاق الباب والطلوع الى الاسوار واستعد للحصار ونزل جلدك على البلد وأرسل الى الوزير يبذل له الامان ويتهدده ان لم يسلم البلد بقتل ابن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغورى وقال لجلدك لا أسلم البلد اليك ولا الى الغادر ابن خرميل وانما هو لغياث الدين ولابيه قبله فقدموا ابن خرميل الى السور فخاطب الوزير وأمره بالتسليم فلم يفعل فقتل ابن خرميل وهذه عاقبة الغدر فقد تقدم من أخباره عند شهاب الدين الغورى مايدل على غدره وكفرانه الاحسان ممن أحسن اليه فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك الى خوارزمشاه بجلية الحال فانفذ خوارزمشاه الى كزلك خان والى نيسابور والى أمين الدين أبى بكر صاحب زوزن يأمرهما بالمسير الى هراة وحصارها وأخذها فسارا فى عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة وراسلوا الوزير بالتسليم فلم يلتفت اليهم وقال ليس لكم من المحل مايسلم اليكم مثل هراة لكن اذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها اليه فقاتلوه وجدّوا فى قتاله فلم يقدروا عليه وكان ابن خرميل قد حصن هراة وعمل لها أربعة أسوار محكمة وحفر خندقها وشحنها بالميرة فلما فرغ من كل ما أراد قال بقيت أخاف على هذه المدينة شيأ واحدا وهو ان تسكر المياه التى لها أياما كثيرة ثم ترسل دفعة واحدة فتخرق أسوارها فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل فسكروا المياه حتى اجتمعت كثيرا ثم أطلقوها على هراة فاحاطت بها ولم تصل الى السور لان أرض المدينة مرتفعة فامتلأ الخندق ماء وصار حولها وحل فانتقل العسكر عنهم ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلئ الخندق ماء ويمنع الوحل من القرب عن المدينة فأقاموا مدة حتى نشف الماء فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل ونعود الى قتال خوارزمشاه الخطا وأسره وأما خوارزمشاه فانه دام القتال بينه وبين الخطا فى بعض الايام اقتتلوا واشتد القتال ودام بينهم ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة وأسر كثير منهم وقتل كثير وكان من جملة الاسرى خوارزمشاه وأسر معه أمير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين مسعود أسرهما رجل واحد وصلت العساكر الاسلامية الى خوارزم ولم يروا السلطان معهم فارسلت أخت كزلك خان صاحب نيسابور وهو يحاصر هراة وأعلمته الحال فلما أتاه الخبر سار عن هراة ليلا الى نيسابور وأحس به الامير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن فاراد هو ومن عنده من الامراء منعه مخافة أن يجرى بينهم حرب يطمع بسببها أهل هراة فيهم فيخرجون اليهم فيبلغون منهم مايريدونه فامسكوا عن معارضته وكان خوارزمشاه قد خرب سور نيسابور لما ملكها من الغورية فشرع كزلك خان يعمره وادخل اليها الميرة واستكثر من الجند وعزم على الاستيلاء على خراسان ان صح فقد السلطان وبلغ خبر عدم السلطان الى أخيه

هذا ملك السلجوقية وفرغت سلاطين الروم وحكمت نواب التتر ولم يبق للسلجوقية الا الاسم فخطب لصبى منهم مدة ثم انقطعت (وفى سنة تسع وثمانين وخمسمائة) توفى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بمرض حاد ليلة الاربعاء رابع عشرى صفر بقلعة دمشق وولى تجهيزه القاضى الفاضل والقاضى بهاء الدين بن شداد وغسله خطيب دمشق واجتمع الناس عليه بالقلعة وصلوا عليه فيها ودفن بالقلعة بالدار التى مرض فيها وحصل للناس حزن شديد وعزاء شديد جلس فيه الملك الافضل نور الدين على اكبر أولاده وكان قد حلف له الناس فى مرض أبيه وأرسل الكتب بوفاة والده الى أخيه العزيز بمصر والى أخيه الظاهر بحلب والى عمه العادل أبى بكر بالكرك فحضروا وجلس ابنه الملك الافضل ثلاثة أيام بالجامع للعزاء وأنفقت أخته ست الشام أموالا عظيمة ولم يخلف السلطان صلاح الدين فى خزائنه غير سبعة وأربعين درهما ولم يخلف دينارا ولا عقارا قال العماد الكاتب حسبت

على شاه وهو بطبرستان فدعا الى نفسه وقطع خطبة أخيه واستعد لطلب السلطنة واختلطت خراسان اختلاطا عظيما وأما السلطان خوارزمشاه فانه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود يجب ان تدع السلطنة فى هذه الايام وتصير خادما لعلى احتال فى خلاصك فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ويخلع ثيابه ويخفه ويعظمه فقال الرجل الذى أسرهما لابن مسعود أرى هذا الرجل يعظمك فمن أنت فقال أنا فلان وهذا غلامى فقام اليه وأكرمه وقال لولا ان القوم عرفوا بمكانك عندى لاطلقتك ثم تركه أياما فقال له ابن مسعود انى أخاف ان يرجع المنهزمون فلا يرانى أهلى معهم فيظنون انى قتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالى فاهلك وأحب أن تقرر على شيأ من المال حتى أحمله اليك فقرر عليه مالا وقال له أريد أن تأمر رجلا عاقلا يذهب بكتابى الى أهلى ويخبرهم بعافيتى ويحضر معه من يحمل المال ثم قال ان أصحابكم لايعرفون أهلنا ولكن هذا غلامى أثق به ويصدقه أهلى فأذن له الخطائى بانفاذه فسيره وأرسل معه الخطائى فرسا وعدة من الفرسان يحمونه فساروا حتى قاربوا خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ووصل خوارزمشاه الى خوارزم فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الاخبار بما صنع كزلك بنيسابور وبما صنع أخوه على شاه بطبرستان

(ذكر مافعله خوارزمشاه بخراسان)

لما وصل خوارزمشاه الى خوارزم أتته الاخبار بما فعله كزلك خان وأخوه على شاه وغيرهم فسار الى خراسان وتبعته العساكر فتقطعت ووصل هو اليها فى اليوم السادس ومعه ستة فرسان وبلغ كزلك خان وصوله فاخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق وبلغ أخاه على شاه فخافه وسار على طريق قهستان ملتجئا الى غياث الدين محمود الغورى صاحب فيروزكوه فتلقاه وأكرمه وأنزله عنده وأما خوارزمشاه فانه دخل نيسابور وأصلح أمرها وجعل فيها نائبا وسار الى هراة فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه وأحسن الى أولئك الامراء ووثق بهم لانهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا ولم يبلغوا من هراة غرضا بحسن تدبير ذلك الوزير فارسل خوارزمشاه الى الوزير يقول له انك وعدت عسكرى انك تسلم المدينة اذا حضرت وقد حضرت فسلم فقال لا أفعل لانى أعرف انكم غدارون لاتبقون على أحد ولا أسلم البلد الا الى غياث الدين محمود فغضب خوارزمشاه من ذلك وزحف اليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من أهل هراة وقالوا اهلك الناس من الجوع والقلة وقد تعطلت علينا معايشنا وقد مضى سنة وشهر وكان الوزير يعد تسليم البلد الى خوارزمشاه اذا وصل اليه وقد حضر خوارزمشاه ولم يسلم ويجب أن نحتال فى تسليم البلد والخلاص من هذه الشدة التى نحن فيها فانتهى ذلك الى الوزير فبعث اليهم جماعة من عسكره وأمره بالقبض عليهم فمضى الجند اليهم فثارت فتنة فى البلد عظم خطبها فاحتاج الوزير الى تداركها بنفسه فمضى لذلك فكتب من البلد الى خوارزمشاه بالخبر وزحف الى البلد وأهله مختلطون فخربوا برجين من السور ودخلوا البلد فملكوه وقبضوا على الوزير فقتله خوارزمشاه وملك البلد وذلك سنة خمس وستمائة وأصلح حاله وسلمه الى خاله أمير ملك وهو من أعيان أمرائه فلم تزل بيده حتى هلك خوارزمشاه وأما ابن شهاب الدين مسعود فانه اقام عند الخطا مديدة فقال له الذى استأسره يوما ان خوارزمشاه قد عدم فايش عندك من خبره فقال له أما تعرفه قال لا قال هو أسيرك الذى كان عندك فقال لم لا عرفتنى حتى كنت أخدمه

ما أطلقه فى مدة مقامه بمرج عكا فكان اثنى عشر ألف فرس غير ما أطلقه من الاثمان عن الخيل المصابة ولم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى الا فى جماعة ولا يفضل يوما على يوم وكان حسن الخلق كثير التغافل عن ذنوب أصحابه طاهر المجلس واللسان قال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال وفات الافضال وغاضت الايادى بفواته وفاضت الاعادى وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزئ الاسلام بمشيد أركانه وكان مولده بتكريت فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ومدة ملكه الشام قريبا من تسع عشرة سنة والديار المصرية قريبا من أربعة وعشرين سنة وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة وبقيت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل بمصر واستقر بدمشق وبلادها الملك الافضل نور الدين على وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عثمان وكان أصغر من الافضل بسنتين وبحلب ولده الظاهر غياث

وأسير بين يديه الى مملكته قال خفتكم عليه فقال الخطا انى سر بنا اليه فسارا اليه فأكرمهما وأحسن اليهما وبالغ فى ذلك

(ذكر قتل غياث الدين محمود)

لما سلم خوارزمشاه هراة الى خاله أمير ملك وسار الى خوارزم أمره أن يقصد غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد بن سام الغورى صاحب الغور وفيروزكوه وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن خوارزمشاه ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين فسار أمير ملك الى فيروزكوه وبلغ ذلك الى محمود فارسل يبذل الطاعة ويطلب الامان فأعطاه ذلك فنزل اليه محمود فقبض عليه أمير ملك وعلى على شاه أخى خوارزمشاه فسألاه أن يحملهما الى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه فأرسل الى خوارزمشاه يعرفه الخبر فأمره بقتلهما فقتلا فى يوم واحد واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه وذلك سنة خمس وستمائة أيضا وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهادا وكان محمود هذا عادلا حليما كريما من أكرم الملوك اخلاقا رحمه الله تعالى

(ذكر عود خوارزمشاه الى الخطا)

لما استقر أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه وعبر نهر جيحون جمع له الخطا جمعا عظيما وساروا اليه والمقدم عليهم شيخ دولتهم القائم مقام الملك فيهم المعروف بطاينكوه وكان عمره قد جاوز مائة سنة ولقى حروبا كثيرة وكان مظفرا حسن التدبير والعقل واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبروا فانهزم الخطا هزيمة منكرة وقتل منهم وأسر خلق لا يحصى وكان فيمن أسر طاينكوه مقدمهم وجىء به الى خوارزمشاه فأكرمه وأجلسه على سريره وسيره الى خوارزم ثم قصد خوارزمشاه الى بلاد ما وراء النهر فملكها مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند وجعل نوابه فيها وعاد الى خوارزم ومعه سلطان سمرقند وكان من أحسن الناس صورة فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا اليه فزوجه خوارزمشاه بابنته ورده الى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا

(ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين)

لما عاد صاحب سمرقند اليها ومعه شحنة لخوارزمشاه وأقام معه نحو سنة فرأى سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا فأرسل الى ملك الخطا يدعوه الى سمرقند ليسلمها اليه ويعود الى طاعته وأمر بقتل كل من فى سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديما وحديثا وأخذ أصحاب خوارزمشاه فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم فى الاسواق كما يعلق القصاب اللحم وأساء غاية الاساءة ومضى الى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه فأغلقت الابواب ووقفت بجواريها تمنعه وأرسلت اليه تقول أنا امرأة وقتل مثلى قبيح ولم يكن منى اليك ما أستوجب به هذا منك ولعل تركى أحمد عاقبة فاتق الله فىّ فتركها ووكل بها من يمنعها التصرف فى نفسها ووصل الخبر الى خوارزمشاه فقامت قيامته وغضب غضبا شديدا وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته أمه عن ذلك وقالت ان هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الارض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى وأمر عساكره بالتجهيز الى ما وراء النهر وسيرهم ارسالا كلما تجهز جماعة عبروا جيحون فعبر

الدين غازى أصغر من العزيز وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر وببعلبك الملك الامجد بهرام شاه بن فرخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن شادى وفيها توفى عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل فى سابع عشرى شعبان وكانت مدة ملكه بالموصل ثلاث عشرة سنة ونصفا وكان دينا خيرا كثير الاحسان أسمر خفيف العارضين يشبه جده زنكى واستقر مكانه ولده ارسلان وفيها قتل بكتمر صاحب خلاط وكان قد أظهر الشماتة بموت صلاح الدين ودق البشائر ولقب نفسه الملك الصالح صلاح الدين وسمى نفسه عبد العزيز فمات بعده بشهرين مقتولا وملك بعده خلاط آق سنقر هزارديناري (وفى سنة تسعين وخمسمائة) قتل طغريل بن ارسلان شاه بن طغريل بن محمد بن

منهم خلق كثير لا يحصى ثم عبر هو بنفسه فى آخرهم ونزل على سمرقند وأنفذ الى صاحبها يقول له قد فعلت مالم يفعله مسلم واستحللت من دماء المسلمين مالا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت فقال لا أخرج وافعل ما بدالك فأمر عساكره بالزحف فأشار عليه بعض من معه بان يأمر بعض الامراء اذا فتحوا البلد ان يقصدوا الدرب الذى يسكنه التجار فيمنع من نهبه والتطرق اليهم بسوء فانهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل فأمر بعض الامراء بذلك وزحف ونصب السلاليم على السور فلم يكن بأسرع من أن أخذوا البلد وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند فنهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام فيقال انهم قتلوا منهم مائتى ألف انسان وسلم ذلك الدرب الذى فيه الغرباء فلم يعدم منهم الفرد ولا الآدمى الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف الى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبة وخوفا فارسل يطلب الامان فقال لا أمان لك عندى فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزمشاه فقبل الارض فطلب العفو فلم يعف عنه وأمر بقتله فقتل صبرا وقتل معه جماعة من أقاربه ولم يترك أحدا ممن ينسب الى الخانية ورتب فيها وفى سائر البلاد نوابه ولم يبق لاحد معه فى البلاد حكم

(ذكر الوقعة التى أفنت الخطا)

لما فعل خوارزمشاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم الى ملكهم فانه لم يحضر الحرب فاجتمعوا عنده وكان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديما ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلى خان فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل الى خوارزمشاه يقول له أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به وانهم ان انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة ان تسير الينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ونحن نحلف لك اننا اذا ظفرنا بهم لا نتعرض الى ما أخذت من البلاد ونقنع بما فى أيدينا وأرسل اليه كشلى خان ملك التتر يقول ان هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم ونحلف أننا اذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التى ينزلونها فأجاب كلا منهما انى معك ومعاضدك على خصمك وسار بعساكره الى ان نزل قريبا من الموضع الذى تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها انه من أحدهما فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها وتواقع الخطا والتتر فانهزم الخطا هزيمة عظيمة فمال حينئذ خوارزمشاه وجعل يقتل ويأسر وينهب ولم يترك أحدا ينجو منهم فلم يسلم منهم الا طائفة يسيرة مع ملكهم فى موضع من نواحى الترك يحيط به جبال ليس اليه طريق الا من جهة واحدة تحصنوا فيه وانضم الى خوارزمشاه منهم طائفة وساروا فى عسكره وأنفذ خوارزمشاه الى كشلى خان ملك التتر يمن عليه بانه حضر لمساعدته ولولاه ما تمكن من الخطا فاعترف له كشلى خان بذلك مدة ثم أرسل اليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا وقال كما أننا اتفقنا على ابادتهم ينبغى أن نقتسم بلادهم فقال ليس لك عندى غير السيف ولستم بأقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا فان قنعت بالمساكنة والا سرت اليك وفعلت بك شرا مما فعلت بهم وتجهز وسار حتى نزل قريبا منهم وعلم خوارزمشاه انه لا طاقة له به فكان يراوغه فاذا سار الى موضع قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فنهبها واذا سمع ان طائفة سارت عن موطنهم سار اليها فأوقع بها فأرسل اليه كشلى خان يقول له ليس هذا فعل الملوك هذا فعل

ملك شاه بن ألب ارسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو آخر ملوك السلجوقية قتله تكش فى الحرب وملك بلاد العجم جميعها وكان ابتداء الدولة السلجوقية فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بنى بويه طغربل ابن ميكائيل بن سلجوق وفيها ظهرت الوحشة بين الاخوين العزيز عثمان صاحب مصر والافضل على صاحب دمشق وسار العزيز بعساكره مصر وحصر الافضل بدمشق فأرسل الى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه المنصور فحضروا وأصلحوا بينهما ورجع كل الى بلده وانهمك الافضل على المعاصى وفوض الامر الى وزيره ضياء الدين بن الاثير الجزرى يدبره برأيه الفاسد ثم تاب الافضل وواظب على الصلاة ونسخ مصحفا بيده (وفى سنة احدى وتسعين وخمسمائة) غزا ملك الغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن غزوة عظيمة فى الفرنج وقتل وأسر ما لا يحصى وفيها قصد العزيز أيضا دمشق ورجع من الطريق فخرج اليه الافضل هو

اللصوص والآن كنت سلطانا كما تقول فيجب أن نلتقى فاما ان تهزمنى وتملك البلاد التى بيدى واما أن أفعل أنا بك ذلك فكان يغالطه ولا يجيبه الى ما طلب لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التى لم يكن فى الدنيا أنزه منها ولا أحسن عمارة بالجلاء منها واللحاق ببلاد الاسلام ثم خرب جميعها خوفا من التتر أن يملكوها ثم اتفق خروج هؤلاء التتر الاخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكزخان التمرجى على كشلى خان التترى الاول فاشتغل بهم كشلى خان عن خوارزمشاه فخلا وجهه فعبر النهر الى خراسان

﴿ ذكر ملك نجم الدين بن الملك العادل خلاط ﴾

فى هذه السنة ملك الملك الاوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب مدينة خلاط وسبب ذلك انه كان بمدينة ميافارقين من جهة أبيه فلما كان من ملك بلبان خلاط ما ذكرناه قصد هو مدينة موش وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما يجاورها وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى يمنعه فلما ملكها طمع فى خلاط فسار اليها فهزمه بلبان كما ذكرناه أيضا فعاد الى بلده وجمع وحشد وسير اليه أبوه جيشا فقصد خلاط فسار اليه بلبان فتصافا واقتتلا فانهزم بلبان وتمكن نجم الدين من البلاد وازداد منها ودخل بلبان خلاط واعتصم بها وأرسل رسولا الى مغيث الدين طغرلشاه بن قلج أرسلان وهو صاحب ارزن الروم يستنجده على نجم الدين فحضر بنفسه ومعه عسكره فاجتمعا وهزما نجم الدين وحصرا موش فأشرف الحصار على أن تملك فغدر ابن قلج أرسلان بصاحب خلاط وقتله طمعا فى البلاد فلما قتله سار الى خلاط فمنعه أهلها عنها فسار الى ملازكرد فرده أهلها أيضا وامتنعوا عليه فلما لم يجد فى شئ من البلاد مطمعا عاد الى بلده فأرسل أهل خلاط الى نجم الدين يستدعونه اليهم ليملكوه فحضر عندهم وملك خلاط وأعمالها سوى اليسير منها وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه وكذلك أيضا خافه الكرج وكرهوه فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها ونجم الدين مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها فلقى المسلمون من ذلك أذى شديدا واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن وان وهو من أعظم الحصون وأمنعها وعصوا على نجم الدين واجتمع اليهم جمع كثير وملكوا مدينة ارجيش فأرسل نجم الدين الى أبيه الملك العادل يعرفه الحال ويطلب منه نجدة وان يمده بعسكر فسير اليه أخاه الملك الاشرف موسى بن العادل فى عسكر فاجتمعا فى عسكر كثير وحصرا قلعة وان وبها الخلاطية وجدوا فى قتالهم فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا وخرجوا منها وتسلمها نجم الدين واستقر ملكه بخلاط وأعمالها وعاد أخوه الاشرف الى بلده حران والرها

﴿ ذكر غارات الفرنج بالشام ﴾

وفى هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس وحصن الاكراد وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولاياتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة ولا يقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد الظاهر غازى صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد الا الظاهر فانه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم ان الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها الفرنجى على قاعدة استقرت من اطلاق أسرى من المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص فنزل على بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة ودخل الى بلاد طرابلس وحاصر موضعا يسمى القليعات وأخذه صلحا وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس

وعمه العادل ووصلا بلبيس وخرج القاضى الفاضل من القاهرة وأصلح بينهم وعاد الافضل وأقام العادل عند العزيز بمصر وتزهد وقنع (وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة) فرغت التربة التى كان بناها لابيه السلطان صلاح الدين بقرب الجامع كانت دار الرجل صالح فنقله من القلعة اليها وكانت مدة لبثه بالقلعة ثلاث سنين وفيها كثرت البلوى من ضياء الدين بن الاثير الجزرى واختلفت الاحوال وبلغ ذلك الملك العادل والملك العزيز بمصر فاتفقا على أخذ دمشق وسارا اليها وحاصرا الافضل ودخل الملك العزيز دمشق من باب الفرج والعادل من باب توما ونزل الافضل من القلعة واستقر بدمشق العادل وعاد العزيز الى مصر وضرب السكة باسم العزيز والخطبة أيضا له وسار الافضل الى صرخد واستوطنها وكتب الى الخليفة الامام الناصر يشكو من عمه أبى بكر العادل ومن أخيه عثمان أول الكتاب شعر

مولاى ان أبا بكر وصاحبه
عثمان قد أخذا بالظلم حق على
فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى
من الاواخر مالاقى من الاول

فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاد الى بحيرة قدس وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فى الصلح فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادهم قبل البرد فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وعادت عساكر ديار الجزيرة الى أماكنها وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر ان أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من اسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا فى رد ما أخذوا ويقول نحن صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لى عليهم حكم وان مرجعهم الى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان أهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم تعذرت عليهم الاقوات وعاد حكم قبرس الى صاحب عكا وأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل حال فخرج بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فأجابه حينئذ صاحبها الى ما طلب وأرسل الاسرى

﴿ ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها ﴾

لما تم ملك خلاط وأعمالها للملك الاوحد نجم الدين بن العادل سار عنها الى ملازكرد ليقرر قواعدها أيضا ويفعل ما ينبغى أن يفعله فيها فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم وعصوا وحصروا القلعة وبها أصحاب الاوحد ونادوا بشعار شاه أرمن وان كان ميتا يعنون بذلك رد الملك الى أصحابه ومماليكه فبلغ الخبر الى الملك الاوحد فعاد اليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوى بهم وحصر خلاط فاختلف أهلها فمال اليه بعضهم حسدا للآخرين فملكها وقتل بها خلقا كثيرا من أهلها وأسر جماعة من الاعيان فسيرهم الى ميافارقين وكان كل يوم يرسل اليهم فيقتل منهم جماعة فلم يسلم الا القليل وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة وتفرقت كلمة الفتيان وكان الحكم اليهم وكفى الناس شرهم فانهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون آخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وانما الحكم لهم واليهم

﴿ ذكر ملك أبى بكر بن البهلوان مراغة ﴾

فى هذه السنة ملك الامير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان مدينة مراغة وسبب ذلك ان صاحبها علاء الدين قراسنقر مات هذه السنة وولى بعده ابن له طفل وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لابيه فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعا كثيرا فأرسل اليه الخادم من عنده من العسكر فقاتلهم ذلك الامير فانهزموا واستقر ملك ولد علاء الدين الا أنه لم تطل أيامه حتى توفى فى أول سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته ولم يبق منهم أحد فلما توفى سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز الى مراغة فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين دز فانها اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن والذخائر فامتنع بها على الامير أبى بكر

﴿ ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة ﴾

كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى من أهل الرى من بيت كبير فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الرى ولقى من الخليفة قبولا فجعله نائب الوزارة ثم جعله وزيرا وحكم ابنه صاحب المخزن فلما كان فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه وكان سبب عزله انه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة فمنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع فانه هرب من يديه الى الشام سنة ثلاث وستمائة فارق الحاج بالمرخوم وأرسل يعتذر ويقول ان الوزير يريد أن لا يبقى فى خدمة الخليفة أحدا من مماليكه ولا شك انه يريد أن يدعى الخلافة وقال الناس فى ذلك فأكثروا وقالوا الشعر فمن ذلك

(فكتب الناصر جوابه)

غصبوا عليا حقه اذ لم يكن
بعد النبى له بيثرب ناصر
فاصبر فان غدا عليه حسابهم
وابشر فناصرك الامام الناصر

﴿وفى سنة ثلاثة وتسعين وخمسمائة﴾ توفى ملكشاه ابن تكش بنيسابور وكان أبوه خوارزمشاه تكش قد جعله فيها وجعل ولده الآخر قطب الدين محمد عوضه وهو الذى ملك بعد أبيه وغير لقبه الى علاء الدين وفيها توفى سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن بزبيد وكان عنيفا على رعيته قد جمع أموالا عظيمة مفردات طواحين ذهب أحمر فاستقر ولده الملك المعز اسمعيل ﴿وفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة﴾ توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب سنجار والخابور والرقة وكان حسن السيرة محبا للعلماء وملك بعده ولده قطب الدين محمد وفيها توفى سنقر هزارديناري صاحب خلاط ووقع فيها اختباط الى ان أخذها الملك الاوحد أيوب ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شارى واستمر معه ثمان سنين الا شهرا وفيها توفى الملك العزيز عثمان بن الناصر

قول بعضهم

ألا مبلغ عنى الخليفة أحمدا * توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما * فعالك يا خير البرية ضائع
فان كان حقا من سلالة أحمد * فهذا وزير فى الخلافة طامع
وان كان فيما يدعى غير صادق * فأضيع ما كانت لديه الصنائع

فعزله وقيل فى سبب ذلك غيره ولما عزل أرسل الى الخليفة يقول اننى قدمت الى ههنا وليس لى دينار ولا درهم وقد حصل لى من الاموال والاعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار ويسأل أن يؤخذ منه الجميع ويمكن من المقام بالمشهد اسوة ببعض العلويين فأجابه اننا ما أنعمنا عليك بشئ فنوى بنا اعادته ولو كان ملء الارض ذهبا ونفسك فى أمان الله وأماننا ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك غير ان الاعداء قد أكثروا فيك فاختر لنفسك موضعا تنتقل اليه موقرا محترما فاختار أن يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فذهب بنفسه ففعل به ذلك وكان حسن السيرة قريبا الى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط معهم عفيفا عن أموالهم غير ظالم لهم فلما قبض عاد أمير الحاج من مصر فى الخدمة العادلية وعاد أيضا قشتمر وأقيم فى النيابة فى الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن امسينا الواسطى الا انه لم يكن متحكما

❁(ذكر عدة حوادث)❁

فى هذه السنة ليلة الاربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الارض وقت السحر وكنت حينئذ بالموصل ولم تكن بها شديدة وجاءت الاخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية وفيها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع وما يؤخذ من أرباب الامتعة من المكوس من سائر المبيعات وكان مبلغا كثيرا وكان سبب ذلك أن بنتا لعز الدين نجاح شرابى الخليفة توفيت فاشترى لها بقرة لتذبح ويتصدق بلحمها عنها فوافى حساب ثمنها مؤونة البقرة فكانت كثيرة فوقف الخليفة على ذلك وأمر باطلاق المؤونة جميعها وفيها فى شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور فى المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء وسميت دور الضيافة يطبخ فيها اللحم الضأن والخبز الجيد عمل ذلك فى جانبى بغداد وجعل فى كل دار من يوثق بامانته وكان يعطى كل انسان قدحا مملوأ من الطبيخ واللحم ومنا من الخبز فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة وفيها زادت دجلة زيادة كثيرة ودخل الماء فى خندق بغداد من ناحية باب كلواذى فخيف على البلد من الغرق فاهتم الخليفة بسد الخندق وركب فخر الدين نائب الوزارة وعز الدين الشرابى ووقفا ظاهر البلد فلم يبرحا حتى سد الخندق وفيها توفى الشيخ حنبل بن عبد الله ابن الفرج المكبر بجامع الرصافة وكان عالى الاسناد روى عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل وله اسناد حسن وقدم الموصل وحدث بها وبغيرها

❁(ثم دخلت سنة خمس وستمائة)❁

❁(ذكر ملك الكرج ارجيش وعودهم عنها)❁

فى هذه السنة سارت الكرج فى جموعها الى ولاية خلاط وقصدوا مدينة ارجيش فحصروها وملكوها عنوة ونهبوا جميع ما بها من الاموال والامتعة وغيرها وأسروا وسبوا أهلها وأحرقوها وخربوها بالكلية ولم يبق بها من أهلها أحد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وكان نجم الدين أيوب صاحب ارمينية بمدينة خلاط وعنده كثير من العساكر فلم يقدم على الكرج لاسباب منها كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أساف اليهم من القتل والاذى وخاف ان

صلاح الدين يوسف صاحب مصر وكان عمره سبعة وعشرين سنة وشهرا وملكه ست سنين الا شهورا وكان محسنا الى رعيته حسن السيرة فاستقر مكانه الملك المنصور محمد وعمره تسع سنين وجاء اليه عمه الافضل من صرخد يدبره ثم قصد الافضل بمدمة دمشق لما بلغه ان الملك العادل توجه منها وهو محاصر ماردين فبلغ ذلك العادل فترك على حصار ماردين ولده الكامل وسبق الافضل ثم وصل الافضل وحاصر دمشق وجاء أخوه الظاهر صاحب حلب وعاونه على ذلك وقارب أخذ دمشق فوقع بينهما الخلف بسبب مملوك كان للملك الظاهر اسمه ايبك عدم فأرسل اليه العادل من المدينة يقول له ان أخاك الافضل أخذه وهو مغيب عند محمود بن السكرى فقبض الظاهر على محمود المذكور فوجد الغلام عنده فتغير على أخيه الافضل وتفرقا عن حصار دمشق فخرج العادل وتبع الافضل الى مصر فخرج اليه الافضل فانكسر هاربا ووصل الى القاهرة فنازلها ثمانية أيام ثم تسلمها وصار مدبرا لابن أخيه الملك المنصور مدة ثم عزله

يخرج

يخرج منها فلا يمكن من العود اليها فلما لم يخرج الى قتال الكفار عادوا الى بلادهم سالمين لم يذعرهم ذاعر وهذا جميعه وان كان عظيما شديدا على الاسلام وأهله فانه يسير بالنسبة الى ما كان مما نذكره سنة أربع عشرة الى سنة سبع عشرة وستمائة

❁(ذكر قتل سنجرشاه وملك ابنه محمود)❁

فى هذه السنة قتل سنجرشاه بن غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر وهو ابن عم نور الدين صاحب الموصل قتله ابنه غازى ولقد سلك ابنه فى قتله طريقا عجيبا يدل على مكر ودهاء وسبب ذلك أن سنجر كان سيء السيرة مع الناس كلهم من الرعية والجند والحريم والاولاد وبلغ من قبح فعله مع أولاده أنه سير ابنيه محمودا ومودودا الى قلعة فرح من بلد الزوزان وأخرج ابنه هذا الى دار بالمدينة أسكنه فيها ووكل به من يمنعه من الخروج وكانت الدار الى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل اليه منها الحيات والعقارب وغيرهما من الحيوان المؤذى ففى بعض الايام اصطاد حية وسيرها فى منديل الى أبيه لعله يرق له فلم يعطف عليه فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التى كان بها واختفى ووضع انسانا كان يخدمه فخرج من الجزيرة وقصد الموصل وأظهر أنه غازى بن سنجر فلما سمع نور الدين بقربه منها أرسل نفقة وثيابا وخيلا وأمره بالعود وقال ان أباك يتجنى لنا الذنوب التى لم نعملها وبقبح ذكرنا فاذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات ونقع معه فى صداع لا ينادى وليده فسار الى الشام وأما غازى بن سنجر فانه تسلق الى دار أبيه واختفى عند بعض سراريه وعلم به أكثر من بالدار فسترت عليه بغضا لابيه وتوقعا الخلاص منه لشدته عليهن فبقى كذلك وترك أبوه الطلب له ظنا منه انه بالشام فاتفق ان أباه فى بعض الايام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه فكان يقترح على المغنين أن يغنوا فى الفراق وما شاكل ذلك ويبكى ويظهر فى قوله قرب الاجل ودنو الموت وزوال ما هو فيه فلم يزل كذلك الى آخر النهار وعاد الى داره وسكر عند بعض حظاياه ففى الليل دخل الخلاء وكان ابنه عند تلك الحظية فدخل اليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه وتركه ملقى ودخل الحمام وقعد يلعب مع الجوارى فلو فتح باب الدار وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد لكنه أمن واطمأن ولم يشك فى الملك فاتفق ان بعض الخدم الصغار خرج الى الباب وأعلم استاذ دار سنجر الخبر فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك وأغلق الابواب على غازى واستحلف الناس لمحمود بن سنجرشاه وأرسل اليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازى ودخلوا عليه ليأخذوه فمانعهم عن نفسه فقتلوه وألقوه على باب الدار فأكلت الكلاب بعض لحمه ثم دفن باقيه ووصل محمود الى البلد وملكه ولقب بعز الدين لقب أبيه فلما استقر أخذ كثيرا من الجوارى اللواتى لابيه فغرقهن فى دجلة ولقد حدثنى صديق لنا انه رأى بدجلة فى مقدار غلوة سهم سبع جوارى مغرقات منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن بالنار فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدثتنى جارية اشتريتها بالموصل من جواريه ان محمودا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها فى النار فاذا احترقت ألقاها فى دجلة وباع من لم يغرقه منهن فتفرق أهل تلك الدار أيدى سبا وكان سنجرشاه قبيح السيرة ظالما غاشما كثير المخاتلة والمواربة والنظر فى دقيق الامور وجليلها لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته وغيرهم من أخذ الاموال والاملاك والقتل والاهانة وسلك معهم طريقا وعرا من قطع الالسنة والانوف والآذان وأما اللحى فانه

واستقر بمصر وتوجه الافضل الى صرخد حيث كان أولا واستقر بدمشق نائبا عن العادل ولده المعظم عيسى وكاتب الملك الظاهر عمه الملك العادل اعتذر اليه وصالحه وجعل الخطبة والسكة باسمه وفى أثناء هذه القضية توفى القاضى الفاضل قال ابن الاثير كان دخول العادل القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة وتوفى القاضى الفاضل قبل ذلك بيوم واحد وكان عمره نحو سبعين سنة وفضله وأدبه مشهور واسمه عبد الرحيم وفى السنة التى قبلها مات يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب وكانت ولايته خمس عشرة سنة وعمره ثمانية وأربعون سنة وكان ظاهرى المذهب كان لقبه المنصور واستقر بعده مكانه ولده الناصر محمد وعبد المؤمن وبنوه كلهم كانوا يدعون أمير المؤمنين وفيها توفى محمد بن عبد الملك ابن زهر الطبيب الاندلسى وهو الذى قيل فيه

قل للوبا أنت وابن زهر * قد جزتما الحد فى النكايه
ترفقا بالورى قليلا * فى واحد منكما كفايه

حلق منهم ما لا يحصى وكان جل فكره فى ظلم يفعله وبلغ من شدة ظلمه انه كان اذا استدعى انسانا ليحسن اليه لا يصل الا وقد قارب الموت من شدة الخوف واستعلى فى أيامه السفهاء ونفقت سوق الاشرار والساعين بالناس فخرب البلاد وتفرق أهله لاجرم سلط الله عليه أقرب الخلق اليه فقتله ثم قتل ولده غازى وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودودا وجرى فى داره من التخريب والتغريق والتفريق ما ذكرنا بعضه ولو رمنا شرح قبح سيرته لطال والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة ثانى المحرم توفى أبو الحسن ورام بن أبى فراس الزاهد بالحلة السيفية وهو منها وكان صالحا وفى صفر توفى الشيخ مصدق بن شبيب النحوى وهو من أهل واسط وفى شعبان توفى القاضى محمد بن أحمد بن المندائى الواسطى بها وكان كثير الرواية للحديث وله اسناد عال وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على ابن الحصين وفيه توفى القوام أبو فراس نصر بن ناصر بن مكى المدائنى صاحب المخزن ببغداد وكان أديبا فاضلا كامل المروأة يحب الادب وأهله ويحب الشعر ويحسن الجوائز عليه ولما توفى ولى بعده أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبى الفرج بن رئيس الرؤساء وأكرم وأعلى محله فبقى متوليا الى سابع ذى القعدة وعزل لعجزه وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان وكان أشدها بنيسابور وخرج أهلها الى الصحراء أياما حتى سكنت وعادوا الى مساكنهم

﴿ثم دخلت سنة ست وستمائة﴾

﴿ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين ارسلان شاه ومظفر الدين﴾

فى هذه السنة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين وحصر مدينة سنجار والجميع من أعمال الجزيرة وهى بيد قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود وسبب ذلك ان قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقد تقدم ذكر ذلك فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل فان ولد العادل تزوج بابنة لنور الدين وكان لنور الدين وزراء يحبون ان يشتغل عنهم فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يقتسما بالبلاد التى لقطب الدين وبالولاية التى لولد سنجر شاه بن غازى بن مودود وهى جزيرة ابن عمر وأعمالها فيكون ملك قطب الدين للعادل وتكون الجزيرة لنور الدين فوافق هذا القول هوى نور الدين فأرسل الى العادل فى المعنى فأجابه الى ذلك مستبشرا وجاءه ما لم يكن يرجوه لانه علم أنه متى ملك هذه البلاد أخذ الموصل وغيرها وأطمع نور الدين أيضا فى أن يعطى هذه البلاد اذا ملكها لولده الذى هو زوج ابنة نور الدين ويكون مقامه فى خدمته بالموصل واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها فبادر العادل الى المسير من دمشق الى الفرات فى عساكره وقصد الخابور فأخذه فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر فأحضر من يرجع الى رأيهم وقولهم وعرفهم وصول العادل واستشارهم فيما يفعله فامامن أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال فعظم الامر وأشار بالاستعداد للحصار وجمع الرجال وتحصيل الذخائر وما يحتاج اليه فقال نور الدين نحن فعلنا ذلك وخبره الخبر فقال بأى رأى تجىء الى عدوك هو أقوى منك وأكثر جمعا وهو بعيد منك متى تحرك

(وفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة) جاء السلطان الملك الظاهر صاحب حلب وانضم اليه أخوه الافضل وحصرا دمشق على أن تكون للافضل ثم يسير الى مصر فتكون للظاهر وبلغ ذلك العادل فتوجه اليها وقام على نابلس ولم يجسر عليهما فلما قارب أخذ دمشق أوقع الله فى قلب الظاهر حسد أخيه الافضل فقال له اعكس المسئلة واجعل دمشق لى ومصر لك فامتنع وانقلب الامر الا انهم كانوا يقاتلون لاجل الافضل فرحل الظاهر عن دمشق من أول المحرم سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وسار الافضل الى حمص وكان قد سبقه اليها أهله وفى سنة سبع المذكورة توفى العماد الكاتب محمد ابن عبد الله بن حامد الاصفهانى وله الفضل الكثير والتصانيف العديدة منها جريدة العصر وخريدة القصر ومنها البرق السامى وفيها توفى سقمان بن محمد ابن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا وآمد وقع من سطح ومات وملك بعده أخوه محمود بعد فترة وكان بمصر غلاء شديد وبالشام زلزلة عظيمة وفيها توفى

لقصدك تعلم به فلا يصل الا وقد فرغت من جميع ما تريده تسعى حتى يصير قريبا منك ويزداد قوة الى قوته ثم ان الذى استقر بينكما انه له يملكه أولا بغير تعب ولا مشقة وتبقى أنت لا يمكنك ان تفارق الموصل الى الجزيرة وتحصرها والعادل ههنا هذا ان وفى لك بما استقرت القاعدة عليه لا يجوز ان تفارق الموصل وان عاد الى الشام لانه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر وديار الجزيرة جميعها والجميع بيد أولاده فتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها فازدت على أن آذيت نفسك وابن عمك وقويت عدوك وجعلته شعارك وقد فات الامر وليس يجوز الا ان تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة ويبتدئ بك هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين وسار الى سنجار فحصرها وكان فى عزم صاحبها قطب الدين ان يسلمها الى العادل بعوض يأخذه عنها فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن برنقش مملوك أبيه زنكى وقام بحفظ المدينة والذب عنها وجهز نور الدين عسكرا مع ولده الملك القاهر ليسيروا الى الملك العادل فبينما الامر على ذلك اذ جاءهم أمر لم يكن لهم فى حساب وهو أن مظفر الدين كوكبرى صاحب اربل أرسل وزيره الى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار وان الاتفاق معه على ما يريده فوصل الرسول ليلا فوقف مقابل دار نور الدين وصاح فعبر اليه سفينة عبر فيها واجتمع بنور الدين ليلا وأبلغه الرسالة فأجاب نور الدين الى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك وعاد الوزير من ليلته فسار مظفر الدين واجتمع هو ونور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل وكان سبب ما فعله مظفر الدين ان صاحب سنجار أرسل ولده الى مظفر الدين يستشفع به الى العادل ليبقى عليه سنجار وكان مظفر الدين يظن انه لو شفع فى نصف ملك العادل لشفعه لاثره الجميل فى خدمته وقيامه فى الذب عن ملكه غير مرة كما تقدم فشفع اليه فلم يشفعه العادل ظنا منه انه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين فلما رد العادل فى شفاعته راسل نور الدين فى الموافقة عليه ولما وصل الى الموصل واجتمع بنور الدين أرسلا الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين وهو صاحب حلب والى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما فكلاهما أجاب الى ذلك وتداعوا الى الحركة وقصد بلاد العادل ان امتنع من الصلح والابقاء على صاحب سنجار وأرسلا أيضا الى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا الى العادل فى الصلح أيضا فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع ووصلت رسل الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك أستاذ الدار والامير آقباش وهو من خواص مماليك الخليفة وكبارهم فوصلا الى الموصل وسارا منها الى العادل وهو يحاصر سنجار وكان من معه لا يناصحونه فى القتال لاسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فانه كان يدخل اليها الاغنام وغيرها من الاقوات ظاهرا ولا يقاتل عليها وكذلك غيره فلما وصل رسول الخليفة الى العادل أجاب أولا الى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الامر لعله يبلغ منها غرضا فلم ينل منها ما أمله وأجاب الى الصلح على ان له ما أخذه وتبقى سنجار لصاحبها واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفوا على هذا كلهم وعلى ان يكونوا يدا واحدة على الناكث منهم ورحل العادل عن سنجار الى حران وعاد مظفر الدين الى اربل وبقى كل واحد من الملوك فى بلده وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ربيع الاول عزل فخر الدين بن امسينا عن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته ثم نقل

أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى الواعظ المشهور وكان مولده سنة عشر وخمسمائة قال السلطان عماد الدين كان كثير الوقيعة فى العلماء (وفى سنة تسع وتسعين وخمسمائة) فى رجب قتل الملك المعز اسمعيل بن سيف الاسلام ابن طغتكين بن أيوب قتله الامراء لهوج كان به حمله على أنه ادعى أنه من بنى أمية ولبس الخضرة وخطب لنفسه بالخلافة وطول كمه عشرين شبرا وأقاموا فى المملكة أخاله صغيرا وسموه الناصر ثم سمه بعض الامراء وبقيت اليمن بغير سلطان وانحازت أم الناصر الى زبيد وجمعت الاموال منتظرة من يقدم عليها من بنى أيوب وكان للملك المظفر تقى الدين عمر ابن شاهنشاه ولد اسمه أيضا شاهنشاه وله ولد اسمه سليمان وكان قد خرج هذا سليمان بن شاهنشاه فقيرا يحمل الركوة على كتفه ويسيح فى الارض مع الفقراء فوجده غلام لام الناصر بمكة فأحضره معه اليها فتزوجته وملكته بلاد اليمن فملأها ظلما وجورا وأعرض عن زوجته أم الناصر وكتب الى عم جده السلطان الملك العادل كتابا أوله انه من

الى المخزن على سبيل الاستظهار عليه وولى بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برز القمى كاتب الانشاء ولقب مؤيد الدين ونقل الى دار الوزارة مقابل باب النوبى وفيها فى شوّال توفى مجد الدين يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وفيها توفى فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الرىّ الفقيه الشافعى صاحب التصانيف المشهورة فى الفقه والاصولين وغيرهما وكان امام الدنيا فى عصره وبلغنى ان مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفيها فى سلخ ذى الحجة توفى أخى مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب مولده فى أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وكان عالما فى عدّة علوم منها الفقه والاصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة فى التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتبا مفلقا يضرب به المثل ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم رحمه الله ورضى عنه فلقد كان من محاسن الزمان ولعل من يقف على ماذكرته يتهمنى فى قولى ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنى مقصر وفيها توفى المجد المطرزى النحوى الخوارزمى وكان اماما فى النحو له فيه تصانيف حسنة وفيها توفى المؤيد بن عبد الرحيم بن الاخوة باصفهان وهو من أهل الحديث رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة سبع وستمائة﴾

﴿ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر اليه﴾

كان قطب الدين سنجر مملوك الخليفة الناصر لدين الله قد ولاه الخليفة خوزستان بعد طاشتكين أمير الحاج كما ذكرناه فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة فروسل فى القدوم الى بغداد فغالط ولم يحضر وكان يظهر الطاعة ويبطن التغلب على البلاد فبقى الامر كذلك الى ربيع الاول من هذه السنة فتقدم الخليفة الى مؤيد الدين نائب الوزارة والى عز الدين بن نجاح الشرابى خاص الخليفة بالمسير بالعساكر اليه بخوزستان واخراجه عنها فسارا فى عساكر كثيرة فلما تحقق سنجر قصدهم اليه فارق البلاد ولحق بصاحب شيراز وهو اتابك عز الدين سعد بن دكلا ملتجئا اليه فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة الى خوزستان فى ربيع الآخر بغير ممانعة فلما استقروا فى البلاد راسلوا سنجر يدعونه الى الطاعة فلم يجب الى ذلك فساروا الى أرّجان عازمين على قصد صاحب شيراز فأدركهم الشتاء فأقاموا شهورا والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز فلم يجبهم الى تسليمه فلما دخل شوّال رحلوا يريدون شيراز فحينئذ أرسل صاحبها الى الوزير والشرابى يشفع فيه ويطلب العهد له على ان لا يؤذى فاجيب الى ذلك وسلمه اليهم هو وماله وأهله فعادوا الى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتا أمير الحاج ووصل الوزير الى بغداد فى المحرم سنة ثمان وستمائة هو والشرابى والعساكر وخرج أهل بغداد الى تلقيهم فدخلوها وسنجر معهم راكبا على بغل باكاف وفى رجله سلسلتان فى يد كل جندى سلسلة وبقى محبوسا الى أن دخل صفر فجمع الخلق الكثير من الامراء والاعيان الى دار مؤيد الدين نائب الوزارة فأحضر سنجر وقرر بامور نسبت اليه منكرة فأقر بها فقال مؤيد الدين للناس قد عرفتم ما تقتضيه السياسة من عقوبة هذا الرجل وقد عفا أمير المؤمنين عنه وأمر بالخلع عليه فلبسها وعاد الى داره فعجب الناس من ذلك وقيل ان أتابك سعد نهب مال سنجر وخزانته ودوابه وكل ماله ولاصحابه وسيرهم فلما وصل سنجر الى الوزير والشرابى طلبوا المال فارسل شيأ يسيرا والله أعلم

﴿ذكر

سليمان وانه

بسم الله الرحمن الرحيم فاستدل به على قلة عقله ولم يجبه بشئ وفيها أخرج السلطان الملك العادل محمد ابن المنصور بن العزيز عثمان من مصر فسار بوالدته وأمه الى الظاهر بحلب (وفى سنة احدى وستمائة) استولت الفرنج على قسطنطينية وأخذوها من الروم واستمرت مع الفرنج الى سنة ستين وستمائة فاستعادها الروم من الفرنج وفى السنة التى قبلها وقع فيها زلازل عظيمة عمت مصر والشأم وبلاد الروم وقبرس والعراق وخربت فيها مدينة صور وفيها استولت الفرنج على مدينة فوة ونهبوها خمسة أيام (وفى سنة أربع وستمائة) ملك الملك الاوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل خلاط وأعمالها وبلادها ووصلت خلعة الامام الناصر الخليفة ببغداد وتقليده للملك العادل بدمشق صحبة الشيخ شهاب الدين السهروردى فلبسها ولبس أيضا ولده الملك الاشرف خليل والملك المعظم عيسى وخوطب الملك العادل شاهنشاه يعنى ملك الملوك خليل أمير المؤمنين وتوجه شهاب الدين

﴿ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه وشئ من سيرته﴾

فى هذه السنة أواخر رجب توفى نور الدين أرسلانشاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه فكانوا يخافونه خوفا شديدا وكان ذلك مانعا من تعدى بعضهم على بعض وكان له همة عالية أعاد ناموس البيت الاتابكى وجاهه وحرمته بعد ان كانت قد ذهبت وخافه الملوك وكان سريع الحركة فى طلب الملك الا أنه لم يكن له صبر فلهذا لم يتسع ملكه ولو لم يكن له من الفضيلة الا انه لما رحل الكامل بن العادل عن ماردين كما ذكرناه سنة خمس وتسعين وخمسمائة عف عنها وأبقاها على صاحبها ولو قصدها وحصرها لم يكن فيها قوة الامتناع لان من كان بها كانوا قد هلكوا أو ضجروا ولم يبق لهم رمق فابقاها على صاحبها ولما ملك استغاث اليه انسان من التجار فسأل عن حاله فقيل انه قد أدخل قماشه الى البلد ليبيعه فلم يتم له البيع ويريد اخراجه وقد منع من ذلك فقال من منعه فقيل ضامن البز يريد منه ما جرت به العادة من المكس وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز وهو الى جانبه فسأله عن العادة كيف هى فقال ان اشترط صاحبه اخراج متاعه مكن من اخراجه وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة بأخذه فقال والله ان هذه العادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاى شئ يؤخذ منه ماله فقال مجاهد الدين لا شك فى فساد هذه العادة فقال اذا قلت أنا وأنت انها عادة فاسدة فما المانع من تركها وتقدم باخراج مال الرجل وأن لا يؤخذ الا ممن باع وسمعت أخى مجد الدين أبا السعادات رحمه الله وكان من أكثر الناس اختصاصا به يقول ما قلت له يوما فى فعل خير فامتنع منه بل بادر اليه بفرح واستبشار واستدعى فى بعض الايام أخى المذكور فركب الى داره فلما كان بباب الدار لقيته امرأة وبيدها رقعة وهى تشكو وتطلب عرضها على نور الدين فأخذها فلما دخل اليه جاراه فى مهم له فقال قبل كل شئ تقف على هذه الرقعة وتقضى شغل صاحبتها فقال لا حاجة الى الوقوف عليها عرفنا ايش فيها فقال والله لا أعلم الا انى رأيت امرأة بباب الدار وهى متظلمة شاكية فقال نعم عرفت حالها ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيمان بامور دولته فقال لاخى ابصر الى أى شئ قد دفعت مع هذين هذه المرأة كان لها ابن وقد مات فى الموصل وهو غريب وخلف قماشا ومملوكين فاحتاط نواب بيت المال على القماش واحضروا المملوكين اليناف فبقيا عندنا ننتظر من يستحق التركة ليأخذها فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمى بان المال الذى مع ولدها لها فتقدمنا بتسليم مالها اليها وقالت لهذين اشتريا المملوكين منها وأنصفاها فى الثمن فعادا وقالا لم يتم بيننا بيع لانها طلبت ثمنا كثيرا فامرتهما باعادة المملوكين اليها من مدة شهرين وأكثر والى الآن ما عدت سمعت لها حديثا وظننت انها أخذت مالها ولا شك انهما لم يسلما المملوكين اليها وقد استغاثت اليهما فلم ينصفاها فجاءت اليك وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظن انى أنا منعتها من مالها فيذمنى وينسبنى الى الظلم وليس لى علم وكل هذا فعل هذين أشتهى أن تتسلم أنت المملوكين وتسلمهما اليها فأخذت المرأة مالها وعادت شاكرة داعية وله من هذا الجنس كثير لا نطول بذكره

﴿ذكر ولاية ابنه الملك القاهر﴾

لما حضر نور الدين الموت أمر ان يرتب فى الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود وأحلف

السهروردى الى مصر فخلع على الملك الكامل وجرى بها نظير ما جرى بدمشق من الاحتفال (وفى سنة خمس وستمائة) قتل غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام ابن الحسين واستقامت خراسان كلها لمحمد خوارزم شاه بن محمد بن تكش وكان هذا غياث الدين محمود شجاعا كريما وكان آخر الملوك الغورية فكانت دولته آخر الدول وفيها توجه الملك الاشرف موسى بن السلطان الملك العادل من دمشق الى البلاد الشرقية واجتاز بحلب فأكرمه الملك الظاهر وتلقاه وخدمه بتقادم عظيمة فى كل يوم ويوم الرحيل باضعاف اضعافها شئ يعجز عن تقويمه وفيها أمر الملك باجراء قناة حيلان الى حلب وصرف عليها مالا كثيرا (وفى سنة ست وستمائة) توفى الملك المؤيد نجم الدين مسعود بن السلطان صلاح الدين وفيها توفى الامام فخر الدين محمد ابن عمر خطيب الرى ابن الحسين التيمى البكرى الطبرستانى الاصل الرازى المولد الشافعى (قال) ابن الاثير بلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

له الجند واعيان الناس وكان قد عهد اليه قبل موته بمدة فجدد العهد له عند وفاته وأعطى ولده الاصغر عماد الدين زنكى قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها وسيره الى العقر وأمر ان يتولى تدبير مملكتهما ويقوم بحفظها والنظر فى مصالحها اتابكه الامير بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده وحسن سياسته وتدبيره وكمال خلال السياسة فيه وكان عمر القاهر حينئذ عشر سنين ولما اشتد مرضه وأيس من نفسه أمره الاطباء بالانحدار الى الحامة المعروفة بعين القيارة وهى بالقرب من الموصل فانحدر اليها فلم يجد بها راحة وازداد ضعفا فأخذه بدر الدين واصعده فى الشبارة الى الموصل فتوفى فى الطريق ليلا ومعه الملاحون والاطباء بينه وبينهم ستر وكان مع بدر الدين عند نور الدين مملوكان فلما توفى نور الدين قال لهما لا يسمع أحد بموته وقال للاطباء والملاحين لا يتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا الى الموصل فى الليل فأمر الاطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتا وأبعدوا فحمله هو والمملوكان وأدخله الدار وتركه فى الموضع الذى كان فيه ومعه المملوكان ونزل على بابه من يثق اليه لا يمكن أحدا من الدخول والخروج وقعد مع الناس يمضى أمورا كان يحتاج الى تمامها فلما فرغ من جميع ما يريده أظهر موته وقت العصر ودفن ليلا بالمدرسة التى انشأها مقابل داره وضبط البلد تلك الليلة ضبطا جيدا بحيث ان الناس فى البلد لم يزالوا مترددين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد واستقر الملك لولده وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر فى مصالحها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر درس القاضى أبو زكريا ابن القاسم بن المفرج قاضى تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد استدعى من تكريت اليها وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصا كثيرا حتى كان يجرى الماء ببغداد فى نحو خمسة أذرع وأمر الخليفة أن يكرى دجلة فجمع الخلق الكثير وكانوا كلما حفروا شيأ عاد الرمل وغطاه وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد وهذا لم يعهد مثله وحج بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الامير مجاهد الدين ياقوت أمير الحاج وكان قد ولاه الخليفة خوزستان وجعله هو أمير الحاج وجعل معه من يدبر الحاج لانه كان صبيا وفيها فى العشرين من ربيع الآخر توفى ضياء الدين أحمد عبد الوهاب بن على بن عبد الله الامير البغدادى ببغداد وهو سبط صدر الدين اسمعيل شيخ الشيوخ وعمره سبع وثمانون سنة وشهور وكان صوفيا فقيها محدثا سمعنا معه الكثير رحمه الله وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح وفيها توفى شيخنا أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادى وكان عالى الاسناد

(ثم دخلت سنة ثمان وستمائة)

(ذكر استيلاء منكلى على بلاد الجبل واصفهان وغيرها وهرب ايتغمش)

فى هذه السنة فى شعبان قدم ايتغمش صاحب همذان واصفهان والرى وما بينهما من البلاد الى بغداد هاربا من منكلى وسبب ذلك أن ايتغمش كان قد تمكن فى البلاد وعظم شأنه وانتشر صيته وكثر عسكره حتى انه حصر صاحبه ابابكر بن البهلوان صاحب هذه البلاد اذربيجان واران كما ذكرناه فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلى ونازعه فى البلاد وكثر اتباعه وأطاعه المماليك البهلوانية فاستولى عليها وهرب منه شمس الدين ايتغمش الى بغداد فلما وصل اليها أمر الخليفة بالاحتفال به فى اللقاء فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهودا ثم قدمت

وكان يعظ الناس بالعربى والعجمى وكان له اليد الطولى فى العلوم خلا العربية وسار فى البلاد وصحب الملوك وجرت بسببه فتنة عظيمة فان غياث الدين كان قد بالغ فى اكرام الامام فخر الدين وبنى له مدرسة بهراة فعظم ذلك على أهلها الكرامية الذين مذهبهم التجسيم والتشبيه فاتفق ان العلماء الكرامية والحنفية والشافعية حضروا عند غياث الدين للمناظرة وحضر فخر الدين الرازى والقاضى عبد المجيد بن القدوة وهو أكبر الكرامية واعلمهم وأزهدهم فتكلم الرازى فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام وقام غياث الدين فاستطال الرازى على ابن القدوة وشتمه فغضب لذلك الملك ضياء الدين ابن عم غياث الدين وذم فخر الدين الرازى ونسبه الى الزندقة والفلسفة عند غياث الدين فلم يصغ اليه فلما كان الغد وعظ الناس ابن القدوة بالجامع فحمدل وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين أيها الناس انا لا نقول الا ما صح عندنا

زوجته فى رمضان فى محمل فأكرمت وأنزلت عند زوجها وأقام ببغداد الى سنة عشر وستمائة فسار عنها فكان من امره ما نذكره

(ذكر نهب الحاج بمنى)

وفى هذه السنة نهب الحاج بمنى وسبب ذلك أن باطنيا وثب على بعض اهل الامير قتادة صاحب مكة فقتله بمنى ظنا منه انه قتادة فلما سمع قتادة ذلك جمع الاشراف والعرب والعبيد واهل مكة وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموهم بالحجارة والنبل وغير ذلك وكان أمير الحاج ولد الامير ياقوت المقدم ذكره وهو صبى لا يعرف كيف يفعل فخاف وتحير وتمكن أمير مكة من نهب الحاج فنهبوا منهم من كان فى الاطراف وأقاموا على حالهم الى الليل فاضطرب الحاج وباتوا بأسوإ حال من شدة الخوف من القتل والنهب فقال بعض الناس لامير الحاج لينتقل بالحجاج الى منزلة حجاج الشام فأمر بالرحيل فرفعوا أثقالهم على الجمال واشتغل الناس بذلك فطمع العدو فيهم وتمكن من النهب والتحق من سلم بحجاج الشام فاجتمعوا بهم ثم رحلوا الى الزاهر ومنعوا من دخول مكة ثم أذن لهم فى ذلك فدخلوها وتمموا حجهم وعادوا ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من أصحابه الى بغداد فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والاكفان فقبلوا العتبة واعتذروا مما جرى على الحجاج

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة أظهر الاسماعيلية ومقدمهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها وامر باقامة الصلوات وشرائع الاسلام ببلادهم من خراسان والشام وأرسل مقدمهم رسلا الى الخليفة وغيره من ملوك الاسلام يخبرهم بذلك وارسل والدته الى الحج فأكرمت ببغداد اكراما عظيما وكذلك بطريق مكة وفيها سلخ جمادى الآخرة توفى أبو حامد محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعى بمدينة الموصل وكان اماما فاضلا اليه انتهت رياسة الشافعية لم يكن فى زمانه مثله وكان حسن الاخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والاحسان اليهم رحمه الله وفيها فى شهر ربيع الاول توفى القاضى أبو الفضائل على بن يوسف بن أحمد بن الآمدى الواسطى قاضيها وكان نعم الرجل وفيها فى شعبان توفى الامين أبو الفتوح عبد الواحد ابن أبى أحمد بن على الامين شيخ الشيوخ ببغداد وكان موته بجزيرة كيش مضى اليها رسولا من الخليفة وكان من أصدقائنا وبيننا وبينه مودة متأكدة وصحبة كثيرة وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله ورضى عنه وله كتابة حسنة وشعر جيد وكان عالما بالفقه وغيره ولما توفى رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق بن أبى أحمد وكان ناظرا على المارستان العضدى فتركه واقتصر على الرباط وفيها فى ذى الحجة توفى محمد بن يوسف بن محمد بن عبيد الله النيسابورى الكاتب الحسن الخط وكان يؤدى طريقة ابن البواب وكان فقيها حاسبا متكلما وفيها توفى عمر بن مسعود أبى العز أبو القاسم البزار البغدادى بها وكان من الصالحين يجتمع اليه الفقراء كثيرا ويحسن اليهم وتوفى أيضا أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون التغلبى العدوى وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالما

(ثم دخلت سنة تسع وستمائة)

(ذكر قدوم ابن منكلى بغداد)

فى هذه السنة فى المحرم قدم محمد بن منكلى المستولى على بلاد الجبل الى بغداد وسبب ذلك ان

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما علم ارسطو وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها فلاى حال يشتم بالامس شيخ من شيوخ الاسلام يذب عن دين الله وسنة نبيه وبكى وبكت الكرامية واستغاثوا وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة وبلغ ذلك السلطان غياث الدين فسكن الفتنة ووعد الناس باخراج فخر الدين فخرج ثم أمره بالعود الى هراة فعاد اليها ثم عاد الى خراسان وحظى عند السلطان خوارزمشاه بن محمد بن تكش (وله نظم حسن منه)

نهاية اقدام العقول عقال
وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
وكم قد رأينا من رجال ودولة
فبادوا جميعا مسرعين وزالوا

وفيها توفى مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الاثير وهذا هو اخو عز الدين على المؤرخ صاحب الكامل ومولده سنة أربع وأربعين وخمسمائة وكان

أباه منكلى لما استولى على بلاد الجبل وهرب ايتغمش صاحبها منها الى بغداد خاف أن يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر فيعظم الامر عليه لانه لم يكن قد تمكن فى البلاد فارسل ولده محمدا ومعه جماعة من العسكر فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه وأنزل وأكرم وبقى ببغداد الى أن قتل ايتغمش فخلع عليه وعلى من معه وأكرموا وسيرهم الى أبيه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر والشام على أمير اسمه اسامة كان له اقطاع كثيرة من جملتها حصن كوكب من أعمال الاردن بالشام وأخذ منه حصن كوكب وخربه وعفى أثره وبنى بعده حصنا بالقرب منه على جبل يسمى الطور وهو معروف هناك وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح وفيها توفى الفقيه محمد بن اسمعيل بن أبى الصيف اليمنى فقيه الحرم الشريف بمكة

﴿ثم دخلت سنة عشر وستمائة﴾

﴿ذكر قتل ايتغمش﴾

فى هذه السنة فى المحرم قتل ايتغمش الذى كان صاحب همذان وقد ذكرنا سنة ثمان انه قدم الى بغداد وأقام بها فانعم عليه الخليفة وشرفه بالخلع وأعطاه الكوسات وما يحتاج اليه وسيره الى همذان فسار فى جمادى الآخرة عن بغداد قاصدا الى همذان فوصل الى بلاد ابن ترجم واجتمعا وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد اليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الامارة على عشيرته من التركمان الايوانية وولى أخاه الاصغر فأرسل سليمان الى منكلى يعرفه بحال ايتغمش ومضى هو على وجهه فأخذوه وقتلوه وحملوا رأسه الى منكلى وتفرق من معه من أصحابه فى البلاد لا يلوى أخ على أخيه ووصل الخبر بقتله الى بغداد فعظم على الخليفة ذلك وأرسل الى منكلى ينكر عليه ما فعل فاجاب جوابا شديدا وتمكن من البلاد وقوى أمره وكثرت جموعه وعساكره وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله

﴿ذكر عدة حوادث﴾

حج بالناس فى هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلى نيابة عن أمير الحاج ابن ياقوت ومنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج فى ولايته وفيها فى المحرم توفى الحكيم المهذب على بن أحمد ابن مقبل الطبيب المشهور كان أعلم أهل زمانه بالطب روى الحديث وكان مقيما بالموصل وبها مات وكان كثير الصدقة حسن الاخلاق وله تصنيف حسن فى الطب وفيها توفى اسمعيل بن على البغدادى الفقيه الحنبلى صاحب ابن المنى وفيها توفى أيضا أحمد بن مسعود التركستانى الفقيه الحنفى ببغداد وهو مدرس مشهد أبى حنيفة وفيها فى جمادى الاولى توفى معز الدين أبو المعالى سعد بن على المعروف بابن حديدة الذى كان وزير الخليفة الناصر لدين الله وكان قد ألزم بيته ولما توفى حمل تابوته الى مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام بالكوفة وكان حسن السيرة فى وزارته كثير الخير والنفع للناس

﴿ثم دخلت سنة احدى عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند﴾

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أى سنة كانت انما هى اما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل لان الذى أخبر بها كان من أجناد الموصل وسافر الى تلك البلاد وأقام بها عدة سنين وسار مع

فقيها أصوليا لغويا نحويا محدثا وفيها توفى المجد المطرزى النحوى كان اماما فى النحو وله التصانيف الحسنة (وفى سنة سبع وستمائة) قصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الاوحد أيوب بن الملك العادل بها فاتفق ان ملك الكرج سكر وتقدم فى عشرين فارسا وخرجت اليه المسلمون فتقنطر به فرسه وأمسك أسيرا فافتدى نفسه بعدة قلاع واطلاق خمسة آلاف أسير من المسلمين ومائة ألف دينار وعقد الهدنة ثلاثين سنة وزوج ابنته بالملك الاوحد وأطلق ثم بعد قليل مات الملك الاوحد واستقر مكانه أخوه الاشرف مضافا لما بيده من البلاد الشرقية وعظم أمره ولقب شاه أرمن وفيها توفى نور الدين ارسلان شاه ابن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وكان ملك الموصل سبع عشرة سنة واحد عشر شهرا واستقر مكانه الملك القاهر عز الدين مسعود ولده وفيها قتل غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم وملك بعده ابنه كيكاوس (وفى سنة ثمان وستمائة) توفى القاضى الرئيس هبة الله بن جعفر بن

الامير أبى بكر الذى فتح كرمان ثم عاد فاخبرنى بها على شك من وقتها وقد حضرها فقال خوارزمشاه محمد بن تكش كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه أبو بكر ولقبه تاج الدين وكان فى ابتداء أمره جمالا يكرى الجمال فى الاسفار ثم جاءته السعادة فاتصل بخوارزمشاه وصار سيروان جماله فرأى منه جلدا وأمانة فقدمه الى ان صار من اعيان أمراء عسكره فولاه مدينة زوزن وكان عاقلا ذا رأى وحزم وشجاعة فتقدم عند خوارزمشاه تقدما كثيرا فوثق به اكثر من جميع أمراء دولته فقال أبو بكر لخوارزمشاه ان بلاد كرمان مجاورة لبلدى فلو أضاف السلطان الى عسكرا لملكتها فى أسرع وقت فسير معه عسكرا كثيرا فمضى الى كرمان وصاحبها اسمه حرب ابن محمد بن أبى الفضل الذى كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر فقاتله فلم يكن له به قوة وضعف فملك أبو بكر بلاده فى أسرع وقت وسار منها الى نواحى مكران فملكها كلها الى السند من حدود كابل وسار الى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران فاطاعه صاحبها واسمه ملنك وخطب بها لخوارزمشاه وحمل عنها مالا وخطب له بقلهات وبعض عمان لان أصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم انهم يتقربون اليه بالطاعة ليأمن أصحاب المراكب التى تسير اليهم عنده فان هرمز مرسى عظيم ومجمع للتجار من أقاصى الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغارات وكل منهما ينهى أصحاب المراكب ان ترسى ببلد خصمه وهم كذلك الى الآن وكان خوارزمشاه يصيف بنواحى سمرقند لاجل التتر أصحاب كشلى خان لئلا يقصد بلاده وكان سريع السير اذا قصد جهة سبق خبره

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قتل مؤيد الملك الشحرى وكان قد وزر لشهاب الدين الغورى ولتاج الدين الدز بعده وكان حسن السيرة جميل الاعتقاد محسنا الى العلماء وأهل الخير يزورهم ويبرهم ويحضر الجمعة ماشيا وكان سبب قتله ان بعض عسكر الدز كرهوه وكان كل سنة يتقدم الى البلاد الحارة بين يدى الدز أول الشتاء فسار هذه السنة كعادته فجاء أربعون نفرا أتراكا وقالوا له السلطان يقول لك تحضر جريدة فى عشرة نفر لاهم تجدد فسار معهم جريدة فى عشرة مماليك فلما وصلوا الى نهوند بالقرب من ماء السند قتلوه وهربوا ثم انهم ظفر بهم خوارزمشاه محمد فقتلهم وفيها فى رجب توفى الركن ابو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلى البغدادى ببغداد وكان قد ولى عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى أنه رأى أبوه يوما عليه قميصا بخاريا فقال ماهذا القميص فقال بخارى فقال أبوه هذا عجب مازلنا نسمع مسلم والبخارى وأما كافر وبخارى ما سمعنا وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين وأظهرت فى ملا من الناس ورؤى فيها من تسخير النجوم ومخاطبة زحل بالالهية وغير ذلك من الكفريات ثم أحرقت بباب العامة وحبس ثم أفرج عنه بشفاعة أبيه واستعمل بعد ذلك وفيها أيضا توفى أبو العباس أحمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزاهد ببغداد وكان عالما بالنحو واللغة وفى شعبان منها توفى أبو المظفر محمد بن على بن البل اللورى الواعظ ودفن برباط على نهر عيسى ومولده سنة عشر وخمسمائة وفى شوال منها توفى عبد العزيز بن محمود بن الاخضر وكان من فضلاء المحدثين وله سبع وثمانون سنة

﴿ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر قتل منكلى وولاية اغلمش ما كان بيده من الممالك﴾

سنا الملك وله الاشعار الحسنة (منها)

لا الغصن يحكيك ولا الجوذر
حسنك مما كثروا أكثر

يا باسما أهدى لنا ثغره
عقدا ولكن كله جوهر

قال لى اللاحى أما تسمع
فقلت للاحى أما تبصر

(وفى سنة تسع وستمائة) عقد عقد الملك الظاهر على ضيفة خاتون بنت الملك العادل وكان المهر خمسين ألف دينار واحتفل الظاهر بلقائها حين قدمت عليه من الشام (وفى سنة عشر وستمائة) قتل كيكاوس عمه طغرلبك وأخذ بلاده وفيها توفى ملك الغرب محمد الناصر بن يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن وكانت مدة ملكه نحو ست عشرة سنة واستقر مكانه ولده يوسف وتلقب بالمستنصر وفيها توفى عيسى ابن عبد العزيز الجزولى النحوى صاحب الجزولية التى حوت نحوا كثيرا وجزولة بضم الجيم بطن من البربر (وفى سنة احدى عشرة وستمائة) توفى الشيخ على بن أبى بكر الهروى وتربته معروفة ظاهر حلب دار غالب المعمور وكان عارفا

فى هذه السنة فى جمادى الاولى انهزم منكلى صاحب همذان واصفهان والرى ومابينهم من البلاد ومضى هاربا فقتل وسبب ذلك أنه كان قدملك البلاد كماذكرناه وقتل ايتغمش فأرسل اليه من الديوان الخليفى رسول ينكر ذلك عليه وكان أوحش الامير أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وهو صاحبه ومخدومه فارسل الخليفة اليه يحرضه على منكلى و يعده النصرة وأرسل أيضا الى جلال الدين الاسماعيلى صاحب قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم ألموت وغيرها يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلى واستقرت القاعدة بينهم على ان يكون للخليفة بعض البلاد ولاوزبك بعضها ويعطى جلال الدين بعضها فلما استقرت القواعد على ذلك جهز الخليفة عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم مملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع وأرسل الى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك وهو اذذاك صاحب اربل وشهرزور وأعمالها يأمره أن يحضر بعساكره ويكون مقدم العساكر جميعها واليه المرجع فى الحرب فحضر وحضر معه عسكر الموصل وديار الجزيرة وعسكر حلب فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا الى همذان فاجتمعت العساكر كلها فانزاح منكلى من بين أيديهم وتعلق بالجبال وتبعوه فنزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالقرب من مدينة كرج وضاقت الميرة والاقوات على العسكر الخليفى جميعه ومن معهم فلو أقام منكلى بموضعه لم يمكنهم المقام عليه أكثر من عشرة أيام لكنه طمع فنزل ببعض عسكره من الجبل مقابل الامير اوزبك فحملوا عليه فلم يثبت أوزبك ومضى منهزما فعاد أصحاب منكلى وصعدوا الجبل وعاد اوزبك الى خيامه فطمع منكلى حينئذ ونزل من الغد فى جميع عسكره واصطفت العساكر للحرب واقتتلوا أشد قتال يكون فانهزم منكلى وصعد الجبل فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود اليه وكان قصاراهم العود عنه لكنه اتخذ الليل جملا وفارق موضعه ومضى منهزما فاتبعه نفر يسير من عسكره وفارقه الباقون وتفرقوا أيدى سبا واستولى عسكر الخليفة واوزبك على البلاد فاعطى جلال الدين ملك الاسماعيلية من البلاد ما كان استقر له وأخذ الباقى اوزبك فسلمه الى اغلمش مملوك أخيه وكان قد توجه الى خوارزمشاه علاء الدين محمد وبقى عنده ثم عاد عنه وشهد الحرب وابلى فيها فولاه اوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر الى بلادهم وأما منكلى فانه مضى منهزما الى مدينة ساوة وبها شحنة هو صديق له فارسل اليه يستأذنه فى الدخول الى البلد فاذن له ودخل اليه وخرج فلقيه وقبل الارض بين يديه وادخله البلد وأنزله فى داره ثم أخذ سلاحه وأراد أن يقيده و يرسله الى اغلمش فسأله ان يقتله هو ولا يرسله فقتله وأرسل رأسه الى اوزبك وأرسله اوزبك الى بغداد وكان يوم دخولها يوما مشهودا الا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك فانه وصل ومات ولده فى تلك الحال فاعيد ودفن

(ذكر وفاة ابن الخليفة)

فى هذه السنة فى العشرين من ذى القعدة توفى ولد الخليفة وهو الاصغر وكان يلقب الملك المعظم واسمه أبو الحسن على وكان أحب ولدى الخليفة اليه وقد رشحه لولاية العهد بعده وعزل ولده الاكبر عن ولاية العهد واطرحه لاجل هذا الولد وكان رحمه الله كريما كثير الصدقة والمعروف حسن السيرة محبوبا الى الخاص والعام وكان سبب موته انه أصابه اسهال فتوفى وحزن عليه الخليفة حزنا لم يسمع بمثله حتى انه أرسل الى أصحاب الاطراف ينهاهم عن انفاذ رسول اليه يعزيه بولده ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه وأحزانه و رؤى عليه من الحزن والجزع مالم يسمع بمثله ولما توفى أخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدى تابوته الى تربة جدته عند قبر

بالشعبذة والسيميا (وفى سنة اثنتى عشرة وستمائة) جهز الكامل ابن الملك العادل ولده الملك المسعود يوسف الى اليمن فلكها وامسك سليمان بن شاهنشاه وأرسله الى مصر فاجرى عليه الملك نفقة الى ان خرج مغازيا الى المنصورة فقتل شهيدا فى سنة سبع وأربعين وستمائة وفيها توفى الوجيه وهو المبارك بن أبى الازهر سعيد بن الدهان النحوى الضرير وكان فاضلا كان حنبليا فصار حنفيا ثم صار شافعيا فقال فيه أبو البركات زيد التكريتى شعرا

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة
وان كان لا تجدى اليه الرسائل
تمذهبت للنعمان من بعد أحمد
وفارقته اذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعى تدينا
ولكنما تهوى الذى هو حاصل
فعما قليل أنت لاشك صائر
الى مالك فافطن لما أنا قائل

(وفى سنة ثلاث عشرة وستمائة) توفى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب كان مولده فى

معروف الكرخى فدفن عندها ولما أدخل التابوت اغلقت الابواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة فقيل ان ذلك صوت الخليفة وأما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجدا شديدا ودامت المناحات عليه فى اقطار بغداد ليلا ونهارا ولم يبق ببغداد محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا وأظهرت الحزن وما سمع ببغداد مثل ذلك فى قديم الزمان وحديثه وكان موته وقت وصول رأس منكلى الى بغداد فان الموكب أمر بالخروج الى القاء الرأس فخرج الناس كافة فلما دخلوا بالرأس الى رأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة فأعيد الرأس وهذا دأب الدنيا لا يصفو ابدا فرحها من ترح وقد تخلص مصائبها من شائبة الترح

(ذكر ملك خوارزمشاه غزنة وأعمالها)

فى هذه السنة فى شعبان ملك خوارزمشاه محمد بن تكش مدينة غزنة وأعمالها وسبب ذلك ان خوارزمشاه لما استولى على عامة خراسان وملك باميان وغيرها أرسل الى تاج الدين صاحب غزنة وقد تقدمت أخباره حتى ملكها يطلب منه ان يخطب له و يضرب السكة باسمه و يرسل اليه فيلا واحدا ليصالحه ويبقى غزنة ولا يعارضه فيها فاحضر الامراء وأعيان دولته واستشارهم وكان فيهم أكبر أمير اسمه قتلغ تكين وهو من مماليك شهاب الدين الغورى أيضا واليه الحكم فى دولة الدز وهو النائب عنه بغزنة فقال الرأى ان تخطب له وتعطيه ماطلب وتستريح من الحرب والقتال وليس لنا بهذا السلطان قوة فقال الجماعة مثل قوله فاجاب الى ماطلب منه وخطب لخوارزمشاه وضرب السكة باسمه وأرسل اليه رسولا وأعاد رسوله اليه ومضى الى الصيد فارسل قتلغ تكين من غزنة الى خوارزمشاه يطلبه ليسلم اليه غزنة فسار مجدا وسبق خبره فسلم اليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها فلما دخل اليها قتل من بها من عسكر الغورية لاسيما الاتراك فوصل الخبر الى الدز بذلك فقال مافعل قتلغ تكين وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها فقيل هو الذى أحضره وسلم اليه فمضى هاربا هو ومن معه الى لهاوور وأقام خوارزمشاه بغزنة فلما تمكن منها احضر قتلغ تكين فقال له كيف حالك مع الدز وكان عالما به وانما أراد ان تكون له الحجة عليه فقال كلانا مماليك شهاب الدين ولم يكن الدز يقيم بغزنة الا أربعة أشهر الصيف وأنا الحاكم فيها والمرجع الى فى كل الامور فقال له خوارزمشاه اذا كنت لا ترعى رفيقك ومن أحسن اليك صحبته واحسانه فكيف يكون حالى انا معك وما الذى تصنع مع ولدى اذا تركته عندك فقبض عليه وأخذ منه أموالا جمة حملها ثلاثون دابة من أصناف الاموال والامتعة واحضر أربعمائة مملوك فلما أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه وقيل ان ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمائة

(ذكر استيلاء الدز على لهاوور وقتله)

لما هرب الدز من غزنة الى لهاوور ولقيه صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغورى أيضا وله من البلاد لهاوور وملتان وأوجه وديبل وغير ذلك الى ساحل البحر ومعه نحو خمسة عشر ألف فارس وكان قد بقى مع الدز نحو ألف وخمسمائة فارس فوقع بينهما مصاف واقتتلوا فانهزمت ميمنة الدز وميسرته وأخذت الفيلة التى معه ولم يبق له غير فيلين معه فى القلب فقال الفيال اذا أخاطر بسعادتك وأمر أحد الفيلين أن يحمل على العلم الذى لقباجة يأخذه وأمر الفيل الآخر الذى له أيضا أن يأخذ الجتر الذى له فاخذه أيضا والفيلة المعلمة تفهم مايقال لها هذا رأيناه فحمل الفيلان وحمل معهما الدز فيمن بقى عنده من العسكر وكشف رأسه وقال

منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة بمصر وكانت مدة ملكه بحلب منذ وهبها له أبوه احدى وثلاثين سنة واستقر بعده بحلب ولده العزيز محمد وعمره سنتان فانه كان لما اشتد مرضه خاف الناس ان تكون حلب بعده لولده الصغير الملك العزيز ومدبره شهاب الدين طغريل الخادم ثم لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد وان تكون بعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان ولما بلغ كيكاوس صاحب بلاد الروم موت الظاهر أرسل الى الملك الافضل وهو بسميساط ليس بيده غيرها واتفقا على أخذ حلب وبلادها وتسليمها الى الافضل ثم يتوجهان الى البلاد الشرقية و يأخذانها من يد الاشرف موسى بن العادل ويتسلمها كيكاوس وتوجها نحو حلب فانفرط الامر منهما ولم يصلا الى ذلك وعاد الافضل الى سميساط وعرف سوء حظه ولم يتحرك بعدها الى ان مات الملك القاهر صاحب الموصل عز الدين مسعود بن ارسلانشاه ابن مسعود بن مودود بن

بالعجمية ما معناه اماملك واماهلك واختلط الناس بعضهم ببعض وفعل الفيلان ما أمرهما الفيال من أخذ العلم والجتر فانهزم قباجة وعسكره وملك الدز مدينة لهاوور ثم سار الى بلاد الهند ليملك مدينة دهلة وغيرها مما بيد المسلمين وكان صاحب دهلة أميرا اسمه الترمش ولقبه شمس الدين وهو من مماليك قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين أيضا كان قد ملك الهند بعد سيده فلما سمع به الترمش سار اليه في عساكره كلها فلقيه عند مدينة سمانا فاقتتلوا فانهزم الدز وعسكره وأخذ وقتل وكان الدز محمود السيرة في ولايته كثير العدل والاحسان الى الرعية لاسيما التجار والغرباء ومن محاسن أعماله أنه كان له أولاد ولهم معلم يعلمهم فضرب المعلم أحدهم فمات فاحضره الدز وقال له يامسكين ما حملك على هذا فقال والله ما أردت الا تأديبه فاتفق ان مات فقال صدقت واعطاه نفقة وقال له تغيب فان أمه لا تقدر على الصبر فربما أهلكتك ولا أقدر امنع عنك فلما سمعت أم الصبي بموته طلبت الاستاذ لتقتله فلم تجده فسلم وكان هذا من أحسن ما يحكى عن أحد من الناس

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة توفي الوجيه المبارك بن أبي الازهر سعيد بن الدهان الواسطي النحوي الضرير كان نحريرا فاضلا قرأ على الكمال بن الانباري وعلى غيره وكان حنبليا فصار حنفيا ثم صار شافعيا فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتي

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة * وان كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل * وفارقته اذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعي تدينا * ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لاشك صائر * الى مالك فافطن لما أنا قائل

﴿ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك الظاهر﴾

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام وكان مرضه اسهالا وكان شديد السيرة ضابطا لاموره كلها كثير الجمع للاموال من غير جهاتها المعتادة عظيم العقوبة على الذنب لا يرى الصفح وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجرى عليهم الجارى الحسن ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد ولقبه الملك العزيز غياث الدين عمره ثلاث سنين وعدل عن ولد كبير لان الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد فعهد بالملك له ليبقى عمه البلاد عليه ولا ينازعه فيها ومن أعجب ما يحكى ان الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولا الى عمه العادل بمصر يطلب منه ان يحلف لولده الصغير فقال العادل سبحان الله أى حاجة الى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادى فقال الرسول قد طلب هذا واختاره ولا بد من اجابته اليه فقال العادل كم من كبش في المرعى وخروف عند القصاب وحلف فاتفق في تلك الايام أن توفي الملك الظاهر والرسول في الطريق ولما عهد الظاهر الى ولده بالملك جعل أتابكه ومربيه خادما روميا اسمه طغريل ولقبه شهاب الدين وهو من خيار عباد الله كثير الصدقة والمعروف ولما توفي الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة في الناس وعدل فيهم وأزال كثيرا من السنن

الجارية

الجارية وأعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها وقام بتربية الطفل أحسن قيام وحفظ بلاده واستقامت الامور بحسن سيرته وعدله وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه فمن ذلك تل باشر كان الملك الظاهر لا يقدر أن يتعرض اليه فلما توفي مالكها كيكاوس ملك الروم كما نذكره ان شاء الله تعالى انتقلت الى شهاب الدين وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف عن أموال الرعية وأقرب الى الخير منهم ولا أعلم اليوم في ولاة أمور المسلمين أحسن سيرة منه فالله يبقيه ويدفع عنه فلقد بلغني عنه كل حسن وجميل

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في المحرم وقع بالبصرة برد كثير وهو مع كثرته عظيم القدر قيل كان أصغره مثل النارنجة الكبيرة وقيل في أكبره ما يستحى الانسان أن يذكره فكسر كثيرا من رؤس النخيل وفي المحرم أيضا سير الخليفة الناصر لدين الله ولدى ابنه المعظم علي الى تستر وهما المؤيد والموفق وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابي فأقاما بها يسيرا ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابي الى بغداد أواخر ربيع الآخر وفيها في صفر هبت ببغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقتام وألقت رملا كثيرا وقلعت كثيرا من الشجر فخاف الناس وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة الى ثلث الليل وانكشفت وفيها توفي التاج زيد بن الحسن بن زيد الكندي أبو اليمن البغدادي المولد والمنشا انتقل بالشام فأقام بدمشق وكان اماما في النحو واللغة وله الاسناد العالي في الحديث وكان ذا فنون كثيرة من أنواع العلوم رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل﴾

في هذه السنة سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش الى بلاد الجبل فملكها وكان سبب حركته في هذا الوقت أشياء أحدها انه كان قد استولى على ما وراء النهر وظفر بالخطا وعظم أمره وعلا شأنه وأطاعه القريب والبعيد ومنها أنه كان يهوى ان يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان وكان الامر بالضد لانه كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولا وكان سبيله اذا ورد الى بغداد أن يقدم غيره عليه ولعل في عسكره مائة مثل الذى يقدم سبيله عليه فكان اذا سمع ذلك يغضب ومنها أن اغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها كما ذكرناه فلما قتله الباطنية غضب له وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته فسار مجدا في عساكر تطبق الارض فوصل الى الرى فملكها وكان أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس لما بلغه مقتل اغلمش جمع عساكره وسار نحو بلاد الجبل طمعا في تملكها لخلوها عن حام ومانع فوصل الى أصفهان فأطاعه أهلها وسار منها يريد الرى ولم يعلم بقدوم خوارزم شاه فلقيه مقدمة خوارزم شاه فظنها عساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجد في محاربتهم حتى كاد يهزمهم فبينما هو كذلك واذ هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه فسأل عنه فأخبر به فاستسلم وانهزمت عساكره وأخذ أسيرا وحمل الى بين يدى خوارزم شاه فأكرمه ووعده الاحسان والجميل وأمنه على نفسه واستحلفه على طاعته واستقرت القاعدة بينهما على ان يسلم بعض البلاد اليه ويبقى بعضها وأطلقه وسير معه جيشا الى بلاد فارس ليسلم اليهم ما استقرت القاعدة عليه فلما قدم على ولده الاكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس فامتنع من التسليم الى أبيه ثم انه ملك البلاد كما نذكره وخطب فيها لخوارزم شاه وسار خوارزم شاه الى ساوة فملكها وأقطعها لعماد الملك عارض

زنكي ابن آق سنقر وكانت مدة ملكه تسع سنين وتسعة أشهر وانقرض بموته ملك البيت الاتابكي زنكي فانه كان أوصى بالملك لولده ارسلان شاه وعمره عشر سنين فقبض عليه مدبره لؤلؤ واستبد بالملك لنفسه وبعده بقليل مات ثم مات أخوه ثم مات ابن عمه صاحب سنجار قطب الدين محمد بن زنكي بن آق سنقر واستقر ولده شاهنشاه مكانه يسيرا ثم وثب عليه أخوه فذبحه وانقرضوا جميعا واستقر بملك الموصل بدر الدين لؤلؤ من سنة تسع عشرة الى نيف وستين وستمائة ويسمى بالملك الرحيم وفيها توفي الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب بعقبة فيق مغازيا وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة وكانت مدة ملكه لدمشق ثلاثا وعشرين سنة ومدة ملكه لمصر نحو تسع عشرة سنة وحين توفي كان ولده الكامل بالقاهرة وكان عاقلا حليما صبورا مكارا خلف ستة عشر ولدا ذكورا غير البنات لم يسر أحد من الملوك بأولاده ما سر هو بهم ولم يكن أحد منهم حاضرا موته لكن حضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان بنابلس وكتم موته وأخذه في محفة وعاد به الى دمشق واحتوى على جميع ما كان مع أبيه من الجواهر والخيول والسلاح وحلف أهل دمشق لنفسه وكتب بموت أبيه الى اخوته وكان في خزائنه سبعمائة ألف دينار عين ومما مدح به في قصيدة لابن عنين مطلعها

ماذا على طيف الاحبة لو سرى
وعليهم لو سامحوني بالكرى

ومنها

العادل الملك الذى أسماؤه
في كل ناحية تشرف منبرا
ما في أبي بكر لمعتقد الهدى
شك يريب بانه خير الورى
بين الملوك الغابرين وبينه
في الفضل ما بين الثريا والثرى
لا تسمعن حديث ملك غيره
يروى فكل الصيد في جوف الفرا
أولاده في كل أرض منهم
ملك يجر الى الاعادى عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله
بدرا فان شهد الوغى فغضنفرا

(وفيها) توفي الامام أفضل الدين محمد بن محمد العميدي الحنفي الفاضل الكبير المصنف لكتاب الارشاد في الخلاف شيخ نظام الدين أحمد بن محمود الحصيري والشيخ نظام الدين المذكور قتله التتر بنيسابور عند خروجهم سنة ست عشرة وستمائة وفي هذه السنة أرسل الملك المعظم عيسى صاحب دمشق الى بيت المقدس فخرب أسواره خوفا من الفرنج وفيها هجم الفرنج على دمياط وأخذوها وأسروا وجعلوا الجامع كنيسة

جيشه وهو من أهلها ثم سار الى قزوين و زنجان وأبهر فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ثم سار الى همذان فملكها واقطع البلاد لاصحابه وملك أصفهان وكذلك قم وقاشان واستوعب ملك جميع البلاد واستقرت القاعدة بينه و بين أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان واران بأن يخطب له أوزبك في بلاده و يدخل في طاعته ثم انه عزم على المسير الى بغداد فقدم بين يديه أميرا كبيرا في خمسة عشر ألف فارس وأقطعه حلوان فسار حتى وصل الهاشم أتبعه بأمير آخر فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج مالم يسمع بمثله فهلكت دوابهم ومات كثير منهم وطمع فيمن بقي بنو برجم الاتراك و بنو هكار الاكراد فتخطفوهم فلم يرجع منهم الى خوارزم شاه الا اليسير فتطير خوارزم شاه من ذلك الطريق وعزم على العود الى خراسان خوفا من التتر لانه ظن أنه يقضي حاجته و يفرغ من ارادته في المدة اليسيرة فخاب ظنه ورأى البيكار بين يديه طويلا فعزم على العود فولى همذان أميرا من أقاربه من جهة والدته يقال له طائيسي وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين وجعل معه متوليا لامر دولته عماد الملك الساوي وكان عظيم القدر عنده وكان يحرص على قصد العراق وعاد خوارزم شاه الى خراسان فوصل الى مرو في المحرم سنة خمس عشرة وستمائة وسار من وجهه الى ما وراء النهر ولما قدم الى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله وقال انه قد مات وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمائة ولما قدم مرو قطع الخطبة بها وكذلك ببلخ و بخارا وسرخس و بقي خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة فيها الا عن قصد لتركها لان البلاد كانت لا تعارض من أشباه هذا ان أحبوا خطبوا وان أرادوا قطعوا فبقيت كذلك الى ان كان منه ما كان وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى الا لقيه فعله وخبث نيته لا جرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديما ولا حديثا

﴿ذكر ما جرى لاتابك سعد مع أولاده﴾

لما قتل اغلمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان وما بينهما من البلاد جمع أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره وسار عن بلاده الى أصفهان فملكها وأطاعه أهلها فطمع في تلك البلاد جميعها فسار عن أصفهان الى الري فلما وصل الى الهالق عساكر خوارزم شاه قد وصلت كما ذكرناه فعزم على محاربة مقدمة العسكر فقاتلوا حتى كادوا يهزموها فظهرت عساكر خوارزم شاه و رأى الجتر فسقط في يده وألقى نفسه وضعفت قوته وقوة عسكره فولوا الادبار وأخذ أتابك سعد أسيرا وأحضر بين يدي خوارزم شاه فأكرمه وطيب نفسه و وعده الاحسان واستصحبه معه الى أن وصل الى أصفهان فسيره منها الى بلاده وهي تجاورها وسير معه عسكرا مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما فانهما اتفقا على أن يكون لخوارزم شاه بعض البلاد ولاتابك سعد بعضها وتكون الخطبة لخوارزم شاه في البلاد جميعها وكان أتابك سعد قد استخلف ابنا له على البلاد فلما سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالمملكة وقطع خطبة أبيه فلما وصل أبوه ومعه عسكر خوارزم شاه امتنع الابن من تسليم البلاد الى أبيه وجمع العساكر وخرج يقاتله فلما تراءى الجمعان انحازت عساكر فارس الى صاحبهم أتابك سعد وتركوا ابنه في خواصه فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن انه لم يعرفه فقال له أنا فلان فقال اياك أردت فحينئذ امتنع منه وولى الابن منهزما ووصل أتابك سعد الى البلاد فدخلها مالكا لها وأخذ ابنه أسيرا فحبسه الى الآن الا

اتى

فبنى الملك الكامل مدينة عند تفرق البحرين الآخذ أحدهما الى دمياط والآخر الى أشمون وسماها المنصورة ولما ظهرت التتر في هذه السنة خربت كثيرا من بلاد المسلمين وقتلوا وأسروا هم من ناحية والفرنج من ناحية و رجف المسلمون وأصيبوا مصابا عظيما قال السلطان عماد الدين لم يفجع المسلمون منذ ظهور الاسلام بمثلها وكان ملك التتر جنكزخان صاحب الصين استولى على الملك بسيفه وانتزعه من الطون خان ودخلوا الى بلاد العجم وعاثوا فيها وقتلوا كل من كان ببخارا واستولى جنكزخان على ما وراء النهر وفيها توفي الملك العادل عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قليج ارسلان صاحب الروم وملك أخوه كقباد (وفيها) توفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب صاحب حماة وقلعتها وكان شجاعا عالما كان في خدمته مائتا فقيه ونحوي وصنف له عدة مصنفات منها المضمار في التاريخ وطبقات الشعراء وكان ينظم الشعر ولما توفي كان ولده الملك المظفر المعهود اليه بالسلطنة عند خاله الملك الكامل بمصر في الجهاد وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج ارسلان عند خاله الملك المعظم صاحب دمشق معه بالساحل في الجهاد فاستقر به أهل حماة واستلانوا جانبه وكاتبوه

انى سمعت الآن وهو سنة عشرين وستمائة أنه قد خفف حبسه ووسع عليه ولما عاد خوارزم شاه الى خراسان غدر سعد بالامير الذي عنده فقتله ورفع عن طاعة خوارزم شاه واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين كما ذكرناه سنة عشرين وستمائة لان سعدا كفر احسان خوارزم شاه وكفر الاحسان عظيم العقوبة

﴿ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها الى المسلمين﴾

كان من اول هذه الحادثة الى آخرها أربع سنين غير شهر وانما ذكرناها هنا لان ظهورهم كان فيها وسقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضا فنقول في هذه السنة وصلت امداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج في الغرب والشمال الا ان المتولي لها كان صاحب رومية لانه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمي الفرنج وأمر غيره من ملوك الفرنج ان يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر فسار منها الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى لد وبرز الفرنج من عكا ليقصدوه فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازما على أن يسبقهم الى اطراف البلاد مما يلي عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم الفرنج اليه في شعبان عازمين على محاربته لعلمهم انه في قلة من العسكر لان العساكر كانت متفرقة في البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها و يرسل الى البلاد و يجمع العساكر فوصل الى مرج الصفر فنزل فيه وكان أهل بيسان وتلك الاعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم ان الفرنج لا يقدمون عليه فلما أقدموا وسار على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة الا القليل فأخذ الفرنج كل ما في بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيأ كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا السرايا في القرى فوصلت الى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي والاسرى ما لا يحصى كثرة سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم و بين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا من نصف رمضان الى العيد والذي سلم من تلك البلاد كان مختفيا حتى قدر على النجاة ولقد بلغني ان العادل لما سار الى مرج الصفر رأى في طريقه رجلا يحمل شيأ وهو يمشي تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل اليه وحده فقال له يا شيخ لا تعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال يا سلطان المسلمين انت لا تعجل فانا اذا رأيناك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق في قطعة صالحة من الجيش الى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس

﴿ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها﴾

لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة

فحضر وملك حماة وعمره سبع عشرة سنة (وفيها) توفي خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش بن ارسلان هاربا من التتر وكان قد اتسع ملكه وعظم محله ملك من حد العراق الى تركستان وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وخراسان وفارس وكان عالما بالفقه والاصول ورجع التتر حين أيسوا فأخذوا مازندران وقتلوا أهلها وكذلك فعلوا بالري وهمذان ومراغة وخراسان وخوارزم وفعلوا بهذه البلاد من قتل العلماء والصلحاء وتحريق المصاحف وتخريب الجوامع ما لم يسمع بمثله وعادوا الى بلادهم ثم جهز جنكزخان الى جلال الدين ولد خوارزم شاه المذكور اثني عشر ألف تتري وكان جلال الدين في غزنة ومعه ستون ألفا فكسرهم الله ونصر المسلمين ثم جهز اليهم جيشا آخر أكثر من الاول فكسرهم المسلمون وغنموهم فجاء هو بكل جموعه وقد تفرق عن جلال الدين غالب عسكره فاستضعف نفسه وهرب الى الهند وتبعه جنكزخان وأدركه على ماء عظيم ببلاد السند وتقاتلا قتالا شديدا وافترقا وتوجه جلال الدين الى الهند وعاد جنكزخان واستولى على غزنة وقتل أهلها وسارت فرقة من عسكره فأخذوا بلاد القفجاق وشروان والروس (وفي سنة ثمان عشرة وستمائة) طمعت الفرنج

الطور وهى قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها عن قريب فتقدموا اليها وحصروها وزحفوا اليها وصعدوا فى جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه فاتفق ان بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا فى البحر الى ديار مصر على ما نذكره ان شاء الله تعالى فتوجه الملك المعظم الى قلعة الطور فخربها الى ان ألحقها بالارض لانها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها

﴿ذكر حصر الفرنج دمياط الى ان ملكوها﴾

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا الى ان دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا فى البحر الى دمياط فوصلوا فى صفر فارسلوا الى بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فان بعض النيل يصب فى البحر المالح عند دمياط وقد بنى فى النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها فى النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد فى النيل الى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصى ديار مصر وأدانيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرمات وأبراجا يزحفون بها فى المراكب الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده الى دمياط ليمنع العدو من العبور الى أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشئ وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم انهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متتابعا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها فى النيل فمنعت المراكب من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالازرق كان النيل يجرى عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه فوق المراكب التى جعلت فى النيل وأجروا الماء فيه الى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضا مقابل المنزلة التى فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فانهم لم يكن لهم اليه طريق يقاتلونه فيها كانت دمياط تحجز بينهم وبينه فلما صاروا فى بورة حاذوه فقاتلوه فى الماء وزحفوا اليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شئ لان الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل ان الملك العادل توفى فى جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله فضعفت نفوس الناس لانه السلطان حقيقة وأولاده وان كانوا ملوكا الا أنهم بحكمه والامر اليه وهو ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الامراء بمصر أمير يقال له عماد الدين احمد بن على ويعرف بابن المشطوب وهو من الاكراد الهكارية وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجميع الامراء ينقادون اليه ويطيعونه لا سيما الاكراد فاتفق هذا الامير مع غيره من

في أخذ الديار المصرية ورحلوا الى المنصورة فطلب الملك الكامل صاحب مصر الملك المعظم من دمشق والملك الاشرف من الشرقيات والملك الناصر من حماة والملك الامجد من بعلبك والملك المجاهد من حمص فلحقوا الملك الكامل وهو فى قتال الفرنج على المنصورة ومعهم عسكر حلب فقوى المسلمون وضعف الفرنج واشتد القتال حتى كان بعث المسلمون يطلبون الصلح غير مرة على ان يسلموا القدس الى الفرنج وكذلك كل مدينة فتحها السلطان صلاح الدين ماعدا الكرك والشوبك ودمياط فأبوا الا عليها وعلى ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب الملك المعظم سور القدس فعبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة الى الارض التى عليها الفرنج ففجروا فجرة عظيمة من النيل وكان فى زيادته فركب الماء تلك الارض وحال بين الفرنج وبين دمياط وانقطعت الميرة عنهم فهلكوا جوعا وطلبوا الصلح الذى كانوا سألوه وكان السلطان الملك الكامل قد ضجر وكان له مدة ثلاث سنين يقاتلهم فاجابهم الى ذلك ووقع الصلح وأخذ منهم ملوكا رهنا أعطاهم ولده الملك الصالح أيوب رهنا وتسلمت المسلمون دمياط فى تاسع رجب (وفيها) توفى الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا ارسلان بن سقمان بن ارتق صاحب

الامراء

الامراء وأرادوا أن يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الى الكامل ففارق المنزلة ليلا جريدة وسار الى قرية يقال لها اشمون طناح فنزل عندها وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان منهم هواه ولم يقف الاخ على أخيه ولم يقدروا على أخذ شئ من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فانهم أصبحوا من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل كجارى عادتهم فبقوا لا يدرون ما الخبر واذا قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل الى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لانه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف وصار من جنده فلما عبر الفرنج الى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شئ على أهل دمياط انه لم يكن بها من العسكر أحد لان السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وكان ذلك من فعل ابن المشطوب لا جرم لم يمهله الله وأخذه أخذة رابية على ما نذكره ان شاء الله وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليهم خندقا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين وهذه كانت عادتهم وأداموا القتال واشتد الامر على أهلها وتعذرت عليهم الاقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لان الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا فصبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والامراض ودام الحصار عليهم الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقى من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد الى الفرنج فى هذا التاريخ بالامان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدى سبا

﴿ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج﴾

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون فجلى أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى انها بقيت لا ترام وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا اليها يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب البيت المقدس فى ذى القعدة من السنة وانما فعل ذلك لان الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الاسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف فى شرق الارض وغربها أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا الى نواحى العراق واذربيجان وأران وغيرها على ما نذكره ان شاء الله تعالى وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط فى الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الاعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على ان تملك وخافهم الناس كافة

آمد واستقر بعده ولده الملك المسعود الى أن أخذها منهم السلطان الملك الكامل (وفيها) اتفق ان أمير مكة قتادة ابن ادريس العلوى الحسنى أرسل عسكرا مع أخيه ومع ابنه الحسن بن قتادة لاخذ مدينة النبى صلى الله عليه وسلم من صاحبها فوثب الحسن فى أثناء الطريق على عمه فقتله وعاد الى مكة فخنق أباه قتادة وأرسل الى أخ له بالينبع فاحضره اليه وقتله وكان عمر قتادة حين قتله ولده نحو تسعين سنة وكان له شعر حسن منه حين عوتب على امتناعه عن الحضور الى أمير الحاج العراقى

ولى كف ضرغام اصول ببطشها … وأشرى بها بين الورى وابيع

تظل ملوك الارض تلثم ظهرها … وفى وسطها للمجد بين ربيع

أأجعلها تحت الرغام وأبتغى … خلاصا لها انى اذا لرقيع

وما أنا الا المسك فى كل بلدة … يضوع وأما عندكم فيضيع

(وفى سنة تسع عشرة وستمائة) انتزع المسعود يوسف صاحب اليمن مكة شرفها الله تعالى من الحسن ابن قتادة (وفيها) توفى الشيخ يونس بن يوسف بن مساعد الصالح الكبير صاحب الكرامات وهو الذى ينسب اليه اليونسية (وفى سنة عشرين وستمائة) توفى المستنصر ملك الغرب ولم يخلف ولدا واستقر مكانه عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن

وصار واينوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها وانما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه الى أخويه المعظم صاحب دمشق والملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فيرسلان العساكر اليه فسار صاحب دمشق الى الاشرف بنفسه فرآه مشغولا عن انجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمائة ان شاء الله عند وفاة الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك فعذره وعاد عنه وبقي الامر كذلك مع الفرنج وأمر الملك الاشرف فزال الخلف من بلاده ورجع الملوك الخارجون عن طاعته اليه واستقامت له الامور الى سنة ثمان عشرة وستمائة والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة علم بزوال المانع للاشرف عن انجاده فارسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار صاحب دمشق يحثه على المسير ففعل وسار الى دمشق فيمن معه من العساكر وأمر الباقين باللحاق به الى دمشق وأقام بها ينتظرهم فاشار عليه بعض أمرائه وخواصه بانفاذ العساكر والعود الى بلاده خوفا من اختلاف يحدث فلم يقبل قولهم وقال قد خرجت للجهاد ولا بد من اتمام ذلك العزم فسار الى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمى بحر اشموم وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية وأما الاشرف فانه سار حتى وصل مصر فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه اليه فلقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصرا وظفرا وأما الملك المعظم صاحب دمشق فانه سار أيضا الى ديار مصر وقصد دمياط ظنا منه ان أخويه وعسكريهما قد نازلوها وقيل بل أخبر في الطريق ان الفرنج قد توجهوا الى دمياط فسابقهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم والله أعلم ولما اجتمع الاشرف بالكامل استقر الامر بينهما على التقدم الى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شواني المسلمين من النيل وقاتلوا شواني الفرنج فاخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الاموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم هذا يجري والرسل مترددة بينهم في تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لا بد من الكرك فبينما الامر في هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون الى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم أن العساكر الاسلامية لا تقوم لهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين الى الارض التي عليها الفرنج ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشموم وعبرت العساكر عليها فملك الطريق الذي يسلكه الفرنج ان أرادوا العود الى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق في تلك الحال أنه وصل اليهم

وكان حرفوشا فانهمك على اللذات فخلع واستقر مكانه بعد تسعة أشهر ابن أخيه عبد الله وتلقب بالعادل وهو عبد الله بن
يعقوب المنصور بن يوسف
ابن عبد المؤمن (وفي سنة
احدى وعشرين وستمائة)
استولى غياث الدين
تترشاه بن خوارزمشاه
بعد غيبة أخيه جلال
الدين على بلاد فارس
وسكن شيراز كرسي فارس
وأزاح عنها صاحبها الاتابك
سعد بن دكلا فلما جاء أخوه
جلال الدين من الهند في
السنة التي بعدها ملك
عراق العجم وعاد شيراز
الى صاحبها سعد بن دكلا
وقويت شوكة جلال
الدين وعظم أمره وخافه
الخليفة ببغداد وأخذ
تبريز وهرب منه صاحب
اذربيجان مظفر الدين
أزبك بن البهلوان وثبت
عند قاضي توريز وقوع
طلاق ابن البهلوان على
زوجته بنت السلطان
طغرلبك آخر ملوك
السلجوقية وتزوجها
السلطان جلال الدين
وعظم أمره واتسعت
ممالكه (وفي سنة اثنتين
وعشرين وستمائة) توفي
الملك الافضل نور الدين
علي بن السلطان صلاح
الدين يوسف بن أيوب فجأة
وعمره سبع وخمسون سنة
وكان حسن الفضائل
والاخلاق وأنشد في سوء
حظه
يامن يسود شعره بخضابه * فعساه من أهل الشبيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظي مرة

مركب

مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليها شواني المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الامر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف الى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم والوجه الذي يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وان ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وأن المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل والاشرف يطلبون الامان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة اذ أقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا واذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط لما ذكرناه فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والايمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقمامصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على تسليم دمياط ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكا وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط في تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة في البحر فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضي الله أمرا كان مفعولا ولم يبق بها من أهلها الا آحاد وتفرقوا أيدي سبا بعضهم سار عنها باختياره وبعضهم مات وبعضهم أخذه الفرنج ولما دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه ورده الى أربابه وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن في حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكما هم شر التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

❁(ذكر عدة حوادث)❁

في هذه السنة في المحرم كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب الازج بسبب قتل سبع وزاد الشر بينهم واقتتلوا فجرح بينهم كثير فحضر نائب الباب وكفهم عن ذلك فلم يقبلوا ذلك وأسمعوه ما يكره فارسل من الديوان أميرمن مماليك الخليفة فرد أهل كل محلة الى محلتهم وسكنت الفتنة وفيها كثر الفار ببادرايا دجيل من أعمال بغداد فكان الانسان لا يقدر أن يجلس الا ومعه عصا يرد الفار عنه وكان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد في قديم الزمان مثلها وأشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة الامراء والاعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل الفورج حول البلد وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك وأعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لفعلت

ولك الامان بأنه لا ينصل وأنشد أي صديق سألت عنه ففي الذ ل وتحت الخمول في الوطن وأي ضد سألت حاله
سمعت ما لا تحبه أذني
وأبياته الى الخليفة تقدمت
وفيها توفي الخليفة الناصر
لدين الله أبو العباس أحمد
ابن المستضيء حسن بن
المستنجد يوسف بن محمد
ابن المستظهر أحمد بن
المقتدي عبد الله بن الامير
ذخيرة الدين محمد بن القائم
عبد الله بن القادر أحمد بن
الامير اسحق بن المقتدر
جعفر بن المعتضد أحمد
ابن الامير طلحة محمد بن
المتوكل جعفر بن المعتصم
محمد بن الرشيد هرون بن
المهدي محمد بن المنصور عبد
الله بن محمد بن علي بن عبد الله
ابن العباس بن عبد المطلب
وكان عمره نحو سبعين سنة
وقد عمي ومدة خلافته نحو
سبع وأربعين سنة وبويع
بالخلافة ولده الظاهر بأمر
الله أبو نصر محمد وعاش
بعد أبيه تسعة أشهر ومات
وكان على ضد أبيه قصير
المدة وأبوه طويلها محسن
الى الرعية وأبوه مسيء اليها
سني وأبوه شيعي وهاب
كريم وأبوه بخيل مولع
بالفضائل وأبوه يرمي البندق
ويلعب بالحمام وقيل انه
كان السبب الاعظم في
مجيء التتر بحيث يشتغل
عنه خوارزمشاه (وفي
سنة ثلاث وعشرين
وستمائة) توفي الظاهر
بالله وبويع ولده المستنصر بالله أبو جعفر المنصور وسلك مسلك أبيه الظاهر في العدل والاحسان (وفي سنة أربع وعشرين وستمائة)

ولكن أمر الله لا يرد ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقي وغرق كثير منه وغرق مشهد أبي حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدي وقرية الملكية والكشك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان وأما الجانب الغربي فتهدم أكثر القرية ونهر عيسى والشطيات وخربت البساتين ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الظاهري وبعض باب البصرة والدور التي على نهر عيسى وأكثر محلة قطفتا وفيها توفي أحمد بن أبي الفضائل عبد المنعم بن أبي البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبي الخير الميهني الصوفي أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد وكان صالحا من بيت التصوف والصلاح

﴿ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته الى أن استقرت الامور﴾

في هذه السنة توفي الملك القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الاول وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر وكان موته انه أخذته حمى ثم فارقته الغد وبقي يومين موعوكا ثم عاودته الحمى مع قيء كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق وبقي كذلك الى وسط الليل ثم توفي وكان كريما حليما قليل الطمع في أموال الرعية كافا عن أذى يوصله اليهم مقبلا على لذاته كأنما ينهبها ويبادر بها الموت وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت * حكى لي بعض من كان يلازمه قال كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لي قد وجدت ضجرا من القعود فقم بنا نتمشى الى الباب العمادي قال فقمنا نخرج من داره نحو الباب العمادي فوصل التربة التي عملها لنفسه عند داره فوقف عندها مفكرا لا يتكلم ثم قال لي والله ما نحن في شيء أليس مصيرنا الى ههنا وندفن تحت الارض وأطال الحديث في هذا ونحوه ثم عاد الى الدار فقلت له الا تمشي الى الباب العمادي فقال ما بقي عندي نشاط الى هذا ولا الى غيره ودخل داره وتوفي بعد أيام وأصيب أهل بلاده بموته وعظم عليهم فقده وكان محبوبا اليهم قريبا من قلوبهم ففي كل دار لاجله رنة وعويل ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الاكبر نور الدين أرسلان شاه وعمره نحو عشر سنين وجعل الوصي عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذي كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله وقد تقدم من اخباره ما يعرف به محله وسيرد منها أيضا ما يزيد الناظر بصيرة فيه فلما قضى نحبه قام بدر الدين بأمر نور الدين وأجلسه في مملكة أبيه وأرسل الى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل الى الملوك وأصحاب الاطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التي كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح الا وقد فرغ من كل ما يحتاج اليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين في الملك فانه كان معه في البلد أعمام ابيه وكان معه عماد الدين زنكي بن ارسلان شاه بولايته وهي قلعة عقر الحميدية يحدث نفسه بالملك لا يشك في أن الملك يصير اليه بعد أخيه فرفع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وتابع الاحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم فلم يخص بذلك شريفا دون مشروف ولا كبيرا دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس وانصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر في أمر دولته والتشريفات لهما أيضا وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ما طلب منهم من العهود

واستقرت

في القعدة منها توفي الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب بقلعة دمشق وعمره تسع وأربعون سنة ومدة ملكه لدمشق تسع سنين وشهور وكان فاضلا نحويا مطرح التكلف وكان حنفيا متعصبا لمذهبه دون أهل بيته اشتغل على جمال الدين الحصيري الحنفي واستقر مكانه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود (وفي سنة ست وعشرين وستمائة) لم يجد الملك الكامل بدا من مهادنة الفرنج فصالح الانبرطور ملك الفرنج ومعنى انبرطور ملك الامراء صالحهم على أن يسلم اليهم القدس وتستمر أسواره خرابا ولا يتعرضون الى قبة الصخرة ولا الى الجامع الاقصى ويكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين فتسلم الانبرطور القدس في ربيع الآخر وكانت دمشق محصورة يحاصرها الملك الاشرف بامر أخيه الملك الكامل فتوجه الملك الكامل اليها واشتد حصارها فأخذت واستولى عليها الملك الاشرف وعوض الناصر داود عنها الكرك والبلقاء والصلت والاغوار والشوبك وتسلم دمشق الملك الاشرف وانضافت بلاده الشرقية الى مصر للملك الكامل وفيها توفي الملك المسعود ابن الملك الكامل بن العادل ابن أبي بكر بن أيوب صاحب اليمن بمكة فانها كانت له ودفن بالمعلى وعمره ست وعشرون سنة ومدة ملكه

واستقرت القواعد لهما

﴿ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزان﴾

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة انه اعطى ولده الاصغر زنكي قلعتي العقر وشوش وهما بالقرب من الموصل فكان تارة يكون بالموصل وتارة بولايته متجنيا لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جده عز الدين مسعود بن مودود فقيل انه جرى له مع زنكي مراسلات في معنى تسليم العمادية اليه فنمى الخبر بذلك الى بدر الدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند فلم يمكنه الامتناع وسلم القلعة الى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين في غير العمادية من القلاع نوابا له وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضا من جروح كانت به وغيرها من الامراض وكان يبقى المدة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكي الى من بالعمادية من الجند يقول ان ابن أخي توفي ويريد بدر الدين يملك البلاد وأنا أحق بملك آبائي وأجدادي فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلموا اليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبضوا على النائب البدري وعلى من معه فوصل الخبر الى بدر الدين ليلا فجد في الامر ونادى في العسكر لوقته بالرحيل فساروا مجدين الى العمادية وبها زنكي ليحصروه فيها فلم يطلع الصبح الا وقد فرغ من تسيير العساكر فساروا الى العمادية وحصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير فلم يتمكنوا من قتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب اربل في نصر عماد الدين وتجرد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الايمان والعهود التي من جملتها انه لا يتعرض الى شيء من اعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان باسمائها ومتى تعرض اليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره واعان نور الدين وبدر الدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضي منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكي فحينئذ لم تكن مكاثرة زنكي بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم من الموصل وأعمالها الا ان العسكر البدري محاصر للعمادية وبها زنكي ثم ان بعض الامراء من عسكر الموصل ممن لا علم له بالحرب وكان شجاعا وهو جديد الامارة أراد ان يظهر شجاعته ليزداد بها تقدما وأشار على من هناك من العسكر بالتقدم الى العمادية ومباشرتها بالقتال وكانوا قد تأخروا عنها شيئا يسيرا لشدة البرد والثلج فلم يوافقوه وقبحوا رأيه فتركهم ورحل متقدما اليهم ليلا فاضطروا الى اتباعه خوفا عليه من أذى يصيبه ومن معه فساروا اليه على غير تعبية لضيق المسالك ولانه أعجلهم عن ذلك وحكم الثلج عليهم أيضا فسمع زنكي ومن معه فنزلوا ولقوا أوائل الناس وأهل مكة أخبر بشعابها فلم يثبتوا لهم وانهزموا وعادوا الى منزلتهم ولم يقف العسكر عليهم فاضطروا الى العود فلما عادوا راسل زنكي باقي قلاع الهكارية والزوزان واستدعاهم الى طاعته فأجابوه وسلموا اليه فجعل فيها الولاة وتسلمها وحكم فيها

﴿ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الاشرف﴾

لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه ولم ينفع معهم اللين ولا الشدة وانهما لا يزالان يسعيان في أخذ بلاده ويتعرضان الى اطرافها بالنهب والاذى أرسل الى الملك الاشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها الا القليل وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمعاضدة وانتمى اليه وصار في طاعته مضر طاقي

أربع عشرة سنة واستقر مكانه باليمن ولده يوسف وفيها استقر الملك المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في سلطنة حماة بتولية من الملك الكامل عوضا عن أخيه قلج أرسلان وانتقل قلج أرسلان الى قلعة بارين (وفي سنة سبع وعشرين وستمائة) قتل الملك الامجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب بعد ان خرج من بعلبك بالحصار واخذها منه الملك الاشرف فقتله مملوك له كان قد حبسه في مرقده فخرج عليه وهو يلعب بالنرد فضربه بسيف فقتله ثم صعد الى السطح وألقى نفسه فمات ودفن الملك الامجد بمدرسة والده التي على الشرف بدمشق وكانت مدة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة وكان اشعر بني أيوب (وفي سنة ثمان وعشرين وستمائة) ضعفت دولة السلطان جلال الدين واختل عقله بموت مملوك كان يحبه حتى أنه استصحبه ميتا مدة طويلة كل يوم يعمل له عزاء ويرسل اليه من الطعام ويعود عليه الجواب أنه أصلح مما كان بالامس وأخذت التتر بلاد العجم وفعلوا أنحس من فعلاتهم الاولى وكبسوا السلطان جلال الدين وأخذوه أسيرا ثم هرب منهم فقتله كردي كان قد قتل اخاه حين عرفه وانشد كاتب انشائه مساؤهم وبسطهم حرير

ملك موافقته فأجابه الاشرف بالقبول والفرح به والاستبشار وبذل له المساعدة والمعاضدة والمحاربة دونه واستعادة ما أخذ من القلاع التى كانت له وكان الملك الاشرف حينئذ بحلب نازلا بظاهرها لما ذكرناه من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم التى بيد المسلمين قونية وغيرها الى أعمالها وملكوا بعض قلاعها فأرسل الى مظفر الدين يقبح هذه الحالة ويقول له ان هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك واننا نكون على الناكث الى أن يرجع الى الحق ولا بد من اعادة ما أخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التى استقرت بيننا فان امتنعت وأصررت على معاضدة زنكى ونصرته فانا اجئ بنفسى وعساكرى واقصد بلادك وغيرها واسترد ما أخذتموه واعيده الى أصحابه والمصلحة انك توافق وتعود الى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية واجلاء الفرنج عنها قبل ان يعظم خطبهم ويستطير شرهم فلم تحصل الاجابة منه الى شئ من ذلك وكان ناصر الدين محمود صاحب الحصن وآمد قد امتنع عن موافقة الاشرف وقصد بعض بلاده ونهبها وكذلك صاحب ماردين واتفقا مع مظفر الدين فلما رأى الاشرف ذلك جهز عسكرا وسيره الى نصيبين نجدة لبدر الدين ان احتاج اليهم

ذكر انهزام عماد الدين زنكى من العسكر البدرى

لما عاد العسكر البدرى من حصار العمادية وبها زنكى كما ذكرناه قويت نفسه وفارقها وعاد الى قلعة العقر التى له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء فان بلد الجبل كان قد فرغ منه وأمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره الى اطراف بلد الموصل يحمونها فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ثم انهم اتفقوا بينهم على المسير الى زنكى وهو عند العقر فى عسكره ومحاربته ففعلوا ذلك ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريدة ليس معهم الا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها فساروا ليلتهم وصبحوا زنكى بكرة الاحد لاربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة فالتقوا واقتتلوا تحت العقر وعظم الخطب فأنزل الله نصره على العسكر البدرى فانهزم عماد الدين وعسكره وساروا الى اربل منهزمين وعاد العسكر البدرى الى منزلته التى كان بها وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك الاشرف فى تجديد الصلح فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل

ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه

ولما تقرر الصلح توفى نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل وكان لا يزال مريضا بعدة امراض فرتب بدر الدين فى الملك بعده أخاه ناصر الدين وله من العمر نحو ثلاث سنين ولم يكن للقاهر ولد غيره وحلف له الجند وركبه فطابت نفوس الناس لان نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه فلما ركب هذا علموا أن لهم سلطانا من البيت الاتابكى فاستقروا واطمأنوا وسكن كثير من الشغب بسببه

ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين

لما توفى نور الدين وملك أخوه ناصر الدين تجدد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين فجمعا الرجال وتجهزا للحركة فظهر ذلك وقصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد وكان بدر الدين قد سير ولده الاكبر فى جمع صالح من العسكر الى الملك الاشرف بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التى بساحل الشام لينهبها ويخربها ليعود بعض من بدمياط الى بلادهم فيخف الامر على الملك الكامل صاحب مصر فلما

وصبحهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة
كمن فى كفه منهم خضاب

وكان هذا جلال الدين قد اتسع ملكه نحو ملك أبيه خوارزم شاه محمد بن تكش قال محمد المنشئ صاحب تاريخ التتر ان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان بن أكش بن أنوشتكين ملك غزنة احدى وعشرين سنة وعظم ملكه واتسع وفوض الى ابنه الاكبر جلال الدين منكبرى ملك غزنة وما يليها الى الهند وملك خوارزم وخراسان ومازندران الى ولده قطب الدين ازلاغ شاه وملك كرمان وكيش ومكران الى ولده غياث الدين تترشاه وملك العراق الى ولده ركن الدين غورشاه وضرب لكل واحد منهم النوب الخمس فى أوقات الصلاة الخمس على عادة السلجوقية وانفرد هو بنوبة ذى القرنين تضرب وقت طلوع الشمس وغروبها وكانت دبادبه سبعا وعشرين دبدبة من الذهب مرصعة بالجواهر وكذلك باقى آلات النوبة وأول يوم رتبها ضرب بها سبعة وعشرون ملكا من اكابر الملوك منهم طغرلبك وأرسلان السلجوقى والملك علاء الدين صاحب باميان والملك تاج الدين صاحب بلخ وولده الملك الاعظم صاحب ترمذ والملك سنجار صاحب بخارا وكانت امه تركان خاتون تحكم وتعلم واعتصمت بالله وحده وتلقبت عصمة

رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين وان بعض عسكره بالشام أرسل الى عسكر الملك الاشرف الذى بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم وكان المقدم عليهم مملوك الاشرف اسمه ايبك فسار الى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة فلما رآهم بدر الدين استقلهم لانهم كانوا أقل من العسكر الذى له بالشام أو مثلهم فالح ايبك على عبور دجلة وقصد بلاد اربل فمنعه بدر الدين من ذلك وأمره بالاستراحة فنزل بظاهر الموصل أياما وأصر على عبور دجلة فعبرها بدر الدين موافقة له ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقى دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار اليهم ومعه زنكى فعبر الزاب وسبق خبره فسمع به بدر الدين فعبى أصحابه وجعل ايبك فى الجاليشية ومعه شجعان أصحابه وأكثر معه منهم بحيث انه لم يبق معه الا اليسير وجعل فى ميسرته أميرا كبيرا وطلب الانتقال عنها الى الميمنة فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الامير الطلب بالانتقال من الميمنة الى الميسرة والخصم بالقرب منهم فمنعه بدر الدين وقال متى انتقلت أنت ومن معك فى هذا الليل ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد فأقام بمكانه وهو فى جمع كبير من العسكر فلما انتصف الليل سار ايبك فأمره بدر الدين بالمقام الى الصبح لقرب العدو منهم فلم يقبل لجهله بالحرب فاضطر الناس لاتباعه فتقطعوا فى الليل والظلمة والتقوا هم والخصم فى العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل فأما عز الدين فانه تيامن والتحق بالميمنة وحمل فى اطلابه هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكى وكان الامير الذى انتقل الى الميمنة قد أبعد عنها فلم يقاتل فلما رأى ايبك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم اليه مظفر الدين فيمن معه فى القلب لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد الى الموصل وعبر دجلة الى القلعة ونزل منها الى البلد فلما رآه الناس فرحوا به وساروا معه وقصد باب الجسر والعدو بازائه بينهما دجلة فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره وزايل حصن نينوى فأقام ثلاثة أيام فلما رأى اجتماع العسكر البدرى بالموصل وانهم لم يفقد منهم الا اليسير وبلغه الخبر ان بدر الدين يريد العبور اليه ليلا بالفارس والراجل على الجسور وفى السفن ويكبسه فرحل ليلا من غير أن يضرب كاسا أو بوقا وعادوا نحو اربل فلما عبروا الزاب نزلوا ثم جاءت الرسل وسعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن كل من بيده شئ هو له وتقررت العهود والايمان على ذلك

ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشى وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الاشرف سنجار

كواشى هذه من أحصن قلاع الموصل واعلاها وامنعها وكان الجند الذين بها لما رأوا ما فعل أهل العمادية وغيرها من التسليم الى زنكى وأنهم قد تحكموا فى القلاع لا يقدر احد على الحكم عليهم احبوا ان يكونوا كذلك فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم وامتنعوا بها وكانت رهائنهم بالموصل وهم يظهرون طاعة بدر الدين ويبطنون المخالفة فترددت الرسل فى عودهم الى الطاعة فلم يفعلوا وراسلوا زنكى فى المجئ اليهم وتسلم القلعة واقام عندهم فراسل مظفر الدين يذكر بالايمان القريبة العهد ويطلب منه اعادة كواشى فلم تقع الاجابة الى ذلك فأرسل حينئذ بدر الدين الى الملك الاشرف وهو بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات الى حران واختلفت عليه الامور من عدة جهات منعته من سرعة السير وسبب هذا الاختلاف أن مظفر الدين كان يراسل الملوك أصحاب الاطراف ليستميلهم ويحسن لهم الخروج على الاشرف ويخوفهم منه اذا خلى وجهه فأجابه الى ذلك عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم وصاحب آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين واتفقوا كلهم على طاعة كيكاوس وخطبوا له فى بلادهم ونحن

الدنيا والدين ملكة نساء العالمين وأخذ من جملة أمواله جنكزخان عشرة صناديق مملوأة من الجواهر قال خوارزم شاه عن صندوقين منها لما أودعهما فيهما من الجواهر ما يساوى خراج الارض بجملتها وكان له ثلاثون ألف جار من الخيل وحدها وتوفى سنة سبع عشرة وستمائة هاربا من التتر كما قدمناه ولم يكن عنده ما يكفن فيه سوى قميصه الذى عليه وأما جلال الدين فانه ملك غالب ملك أبيه وكان يكتب الى ملك الروم وملوك مصر والشام ولا يكتب اخوه ولا الخادم وكان يكتب لخليفة بغداد الخادم ويكتب لصاحب الموصل وامثاله العلامة فقط وهى النصرة لله وحده وكان يخاطب بخوند عالم وكان شديد الغيرة ولما ادركته خيل التتار كان على نهر السند كما قدمناه قالت له حريمه بالله عليك اقتلنا أو خلصنا فأمر بهن فاغرقن وفيها توفى بالقاهرة أبو الحسن يحيى ابن عبد المعطى بن عبد النور الزواوى النحوى الحنفى صاحب الالفية ومولده سنة أربع وخمسين وخمسمائة وزواوة قبيلة بظاهر بجاية (وفى سنة تسع وعشرين وستمائة) أخذ الملك الكامل آمد وحصن كيفا من الملك المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن ارتق لسوء سيرته وتعرضه الى نساء رعيته واستقر مكانه الملك الصالح أيوب ولد السلطان الكامل

(وفى سنة ثلاثين وستمائة) أخذ الملك العزيز صاحب حلب شيزر وهنأه يحيى بن خالد القيسرانى بقوله

نذكر ماكان بينه وبين الاشرف عند منبج لما قصد بلاد حلب فهو موغر الصدر عليه فاتفق ان كيكاوس مات فى ذلك الوقت وكفى الاشرف وبدر الدين شره ولا جد الا ما أقعص عنك الرجال وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الامراء الذين مع الاشرف واستمالهم فاجابوه منهم أحمد بن على بن المشطوب الذى ذكرنا أنه فعل على دمياط ما فعل وهو اكبر امير معه ووافقه غيره منهم عز الدين محمد بن بدر الحميدى وغيرهما وفارقوا الاشرف ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الاشرف من العبور الى الموصل لمساعدة بدر الدين فلما اجتمعوا هنالك عاد صاحب آمد الى موافقة الاشرف وفارقهم واستقر الصلح بينهما وسلم اليه الاشرف مدينة حانى وجبل جور وضمن له أخذ دارا وتسليمها اليه فلما فارقهم صاحب آمد انحل امرهم فاضطر بعض أولئك الامراء الى العود الى طاعة الاشرف وبقى ابن المشطوب وحده فسار الى نصيبين ليسير الى اربل فخرج اليه شحنة نصيبين فيمن عنده من الجند فاقتتلوا فانهزم ابن المشطوب وتفرق من معه من الجمع ومضى منهزما فاجتاز بطرف بلد سنجار فسير اليه صاحبها فروخ شاه بن زنكى بن مودود بن زنكى عسكرا فهزموه وأخذوه اسيرا وحملوه الى سنجار وكان صاحبها موافقا للاشرف وبدر الدين فلما صار عنده ابن المشطوب حسن له مخالفة الاشرف فاجابه الى ذلك وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل ونهبوا فيها عدة قرى وعادوا الى سنجار ثم ساروا وهو معهم الى تل يعفر وهى لصاحب سنجار ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا فى تلك الناحية فلما سمع بدر الدين بذلك سير اليه عسكرا فقاتلوهم فمضى منهزما وصعد الى تل يعفر واحتمى بها منهم ونازلوه وحصروه فيها فسار بدر الدين من الموصل اليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الاول سنة سبع عشرة وستمائة وجد فى حصره وزحف اليها مرة بعد أخرى فملكها سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة وأخذ ابن المشطوب معه الى الموصل فحبسه بها ثم أخذه منه الاشرف فحبس بحران الى أن توفى فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة واقتص الله منه بعقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط وأما الملك الاشرف فانه لما أطاعه صاحب الحصن وآمد وتفرق الامراء كما ذكرناه رحل من حران الى دنيسر فنزل عليها واستولى على بلد ماردين وشحن عليه وأقطعه ومنع الميرة عن ماردين وحضر معه صاحب آمد وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين فى الصلح فاصطلحوا على أن يأخذ الاشرف رأس العين وكان هو قد اقطعها لصاحب ماردين ويأخذ منه أيضا ثلاثين ألف دينار ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان فلما تم الصلح سار الاشرف من دنيسر الى نصيبين يريد الموصل فبينما هو فى الطريق لقيه رسل صاحب سنجار يبذل تسليمها اليه ويطلب العوض عنها مدينة الرقة وكان السبب فى ذلك أخذ تل يعفر منه فانخلع قلبه وانضاف الى ذلك ان ثقاته ونصحاءه خانوه وزادوه رعبا وخوفا لانهم تهددوه فتغدوا به قبل أن يتعشى بهم ولانه قطع رحمه وقتل أخاه الذى ملك سنجار بعد أبيه قتله كما نذكره ان شاء الله وملكها فلقاه الله سوء فعله ولم يتمتع بها فلما تيقن رحيل الاشرف تحير فى أمره فارسل فى التسليم اليه فاجابه الاشرف الى العوض وسلم اليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى الاولى سنة سبع عشرة وستمائة وفارقها صاحبها واخوته باهلهم وأموالهم وكان هذا آخر ملوك البيت الاتابكى بسنجار فسبحان الحى الدائم الذى ليس لملكه آخر وكان مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنة وهذا دأب الدنيا بابنائها فتعسا لها من دار ما أغدرها بابنائها

يا مالكا عم أهل الارض نائله
وخص احسانه الدانى مع القاصى
لما رأت شيزر آيات نصرك فى
أرجائها ألقت العاصى الى العاصى

وفيها توفى بالموصل الشيخ عز الدين على بن الاثير الجزرى الشيبانى والده محمد بن محمد بن عبد الكريم والجزيرة عبد العزيز بن عمر فى رابع جمادى الاولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ونشأ بها وهو مصنف الكامل فى التاريخ الذى بدؤه من هبوط آدم ونفاده فى سنة ثمان وعشرين وستمائة وعبد العزيز بن عمر رجل من أهل برقعيد من عمل الموصل بنى هذه المدينة ونسبت اليه (وفى سنة احدى وثلاثين) وستمائة توفى الشيخ سيف الدين الآمدى وهو على ابن على بن أحمد بن سالم الثعلبى وكان حنبليا ثم صار شافعيا وبرع فى العلوم وشغب عليه الفقهاء بمصر حين أخذ تدريس الشافعى وكتبوا محضرا بانحلال عقيدته وكتب عليه بعض الفقهاء حين أرادوا شهادتهم عليه فيه

حسدوا الفتى اذ لم ينالوا سعيه
فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها * حسدا وبغضا انه لدميم

فسار الى حماة وأقام بها

ذكر

ثم عاد الى دمشق وتوفى بها ومولده فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة (وفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة) توفى الملك الزاهد

﴿ذكر وصول الاشرف الى الموصل والصلح مع مظفر الدين﴾

لما ملك الملك الاشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فقدم بين يديه عساكره فكان يصل كل يوم منهم جمع كثير ثم وصل هو فى آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة وكان يوم وصوله مشهودا وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين فى الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها الى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية فانها تبقى بيد زنكى وان المصلحة قبول هذا لتزول الفتن ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج وطال الحديث فى ذلك نحو شهرين ثم رحل الاشرف يريد مظفر الدين صاحب اربل فوصل الى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب وكان مظفر الدين نازلا عليه من جانب اربل فاعاد الرسل وكان العسكر قد طال بيكاره والناس قد ضجروا وناصر الدين صاحب آمد يميل بهواه الى مظفر الدين فاشار بالاجابة الى ما بذل واعانه عليه غيره فوقعت الاجابة اليه واصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها أجل وحمل زنكى الى الملك الاشرف يكون عنده رهينة الى حين تسليم القلاع وسلمت قلعة العقر وقلعة شوش أيضا وهما لزنكى الى نواب الاشرف رهنا على تسليم ما استقر من القلاع فاذا سلمت اطلق زنكى وأعيد عليه قلعة العقر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلم الاشرف الى زنكى القلعتين وعاد الى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثانى شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة فارسلوا الى القلاع لتسلم الى نواب بدر الدين فلم يسلم اليه غير قلعة جل صورا من أعمال الهكارية وأما باقى القلاع فان جندها أظهروا الامتناع من ذلك ومضى الاجل ولم يسلم الا جل صورا ولزم عماد الدين زنكى لشهاب الدين غازى بن الملك العادل وخدمه وتقرب اليه فاستعطف له أخاه الملك الاشرف فمال اليه وأطلقه وأزال نوابه من قلعة العقر وشوش وسلمهما اليه وبلغ بدر الدين عن الملك الاشرف ميل الى قلعة تل يعفر وانها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه وطال الحديث فى ذلك فسلمها اليه بدر الدين

﴿ذكر عود قلاع الهكارية والزوزان الى بدر الدين﴾

لما ملك زنكى قلاع الهكارية والزوزان لم يفعل مع أهلها ما ظنوه من الاحسان والانعام بل فعل ضده وضيق عليهم وكان يبلغهم أفعال بدر الدين مع جنده ورعاياه واحسانه اليهم وبذله الاموال لهم وكانوا يريدون العود اليه ويمنعهم الخوف منه لما أسلفوه من ذلك فلما كان الآن أعلنوا بما فعل معهم فارسلوا الى بدر الدين فى المحرم سنة ثمان عشرة وستمائة فى التسليم اليه وطلبوا منه اليمين والعفو عنهم وذكروا شيأ من أقطاع تكون لهم فاجابهم الى ذلك وأرسل الى الملك الاشرف يستأذنه فى ذلك فلم يأذن له وعاد زنكى من عند الاشرف فجمع جموعا وحصر قلعة العمادية فلم يبلغ منهم غرضا وأعادوا مراسلة بدر الدين فى التسليم اليه فكتب الى الملك الاشرف فى المعنى وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية بين النهرين ليأذن له فى أخذها فأذن له فأرسل اليها النواب وتسلموها وأحسن الى أهلها ورحل زنكى عنها ووفى له بدر الدين بما بذله له فلما سمع جند باقى القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الاحسان والزيادة رغبوا كلهم فى التسليم فسير اليهم النواب واتفقت كلمة أهلها على طاعته والانقياد اليه والعجب ان العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخلاط وغيرها فى استعادة هذه القلاع فلم يقدروا على ذلك فلما تفرقوا احضر أهلها وسألوا أن تؤخذ منهم فعادت صفوا عفوا بغير منة ولقد أحسن من قال

لا سهل الا ما جعلت سهلا * وان تشأ تجعل الحزن وحلا

داود صاحب البيرة ابن السلطان صلاح الدين شقيق الظاهر صاحب حلب وفيها توفى القاضى بهاء الدين بن شداد وعمره فوق التسعين والظاهر أن شدادا أبو امه فاشتهر به وكان قد حظى عند بنى ايوب كان اقطاعه على الملك العزيز ما يزيد على مائة ألف فى السنة (وفى سنة اربع وثلاثين وستمائة) توفى الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب فى ربيع الاول وعمره ثلاث وعشرون سنة وشهور وكان حسن السيرة فى الرعية واستقر مكانه ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف وعمره نحو سبع سنين ومرجع الامور الى والدة أبيه صفية خاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب وفيها توفى كيقباذ بن كيخسرو السلجوقى صاحب بلاد الروم وملك بعده ولده غياث الدين (وفى سنة خمس وثلاثين وستمائة) توفى الملك الاشرف مظفر الدين موسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بدمشق وعهد بها لاخيه الملك الصالح اسمعيل وكان مدة ملك الاشرف لدمشق ثمان سنين وشهورا وعمره نحو ستين سنة وكان كريما جدا ميمون الطلعة لم تنهزم له راية قط وبلغ ذلك الملك الكامل فاستقر بمصر وكان نائبا عن أبيه بها اذ ذاك (وفى سنة ست وثلاثين وستمائة)

فتبارك الله الفعال لما يريد لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع وهو على كل شيء قدير

(ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للاشرف وانهزام كيكاوس)

في هذه السنة سار عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم الى ولاية حلب قصد التغلب عليها ومعه الافضل بن صلاح الدين يوسف وسبب ذلك انه كان بحلب رجلان فيهما شر كثير وسعاية بالناس فكانا ينقلان الى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن رعيته فاوغر واصدره فلقي الناس منهما شدة فلما توفي الظاهر وولي الامر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيرهما ممن يفعل فعلهما وسد هذا الباب على فاعله ولم يطرق اليه أحدا من أهله فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وثار بهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كانا أسلفاه من الشر فخافا ففارقا حلب وقصدا كيكاوس فاطمعاه فيها وقررا في نفسه انه متى قصدها لا يثبت بين يديه وانه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها فلما عزم على ذلك أشار عليه ذو والرأي من أصحابه وقالوا الله لا يتم لك هذا الا بان يكون معك أحد من بيت أيوب ليسهل على أهل البلاد وجندها الانقياد اليه وهذا الافضل بن صلاح الدين هو في طاعتك والمصلحة انك تستصحبه معك وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد فمتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد فاحضر الافضل من سميساط اليه وأكرمه وحمل اليه شيأ كثيرا من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك واستقرت القواعد بينهما أن يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للافضل وهو في طاعة كيكاوس والخطبة له في ذلك أجمع ثم يقصدون ديار الجزيرة فما يفتحونه مما بيد الملك الاشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس وجرت الايمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا وملكوا قلعة رعبان فتسلمها الافضل فمال الناس حينئذ اليهما ثم سارا الى قلعة تل باشر وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم الياروقي فحصروه وضيقوا عليه وملكوها منه فاخذها كيكاوس لنفسه ولم يسلمها الى الافضل فاستشعر الافضل من ذلك وقال هذا أول الغدر وخاف أنه ان ملك حلب يفعل به هكذا فلا يحصل الا أن يكون قد قلع بيته لغيره ففترت نيته وأعرض عما كان يفعله وكذلك أيضا أهل البلاد فكانوا يظنون ان الافضل يملكها فيسهل عليهم الامر فلما رأوا ضد ذلك وقفوا وأما شهاب الدين أتابك ولد الظاهر صاحب حلب فانه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها ولا يفارقها البتة وهذه كانت عادته مذ مات الظاهر خوفا من ثائر يثور به فلما حدث هذا الامر خاف أن يحصر وهو ربما سلم أهل البلد والجند المدينة الى الافضل لميلهم اليه فارسل الى الملك الاشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه لتكون طاعتهم له ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من أعمال حلب ما اختار ولان ولد الظاهر هو ابن أخته فاجاب الى ذلك وسار اليهم في عساكره التي عنده وأرسل الى الباقين يطلبهم اليه وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم وأحضر اليه العرب من طيء وغيرهم ونزل بظاهر حلب ولما أخذ كيكاوس تل باشر كان الافضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العساكر بها وقبل أن يحتاطوا ويتجهزوا فقعد عن ذلك وصار يقول الرأي أننا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء قصد التمادي ومرور الزمان في لا شيء فتوجهوا من تل باشر الى جهة منبج وتقدم الاشرف نحوهم وسارت العرب في مقدمته وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو ألف فارس قد سبقت مقدمته له فالتقوا هم والعرب ومن معهم من العسكر الاشرفي فاقتتلوا فانهزم عسكر كيكاوس وعادوا اليه منهزمين وأكثر العرب الاسر منهم والنهب لجودة خيلهم ودبر خيل الروم فلما وصل

استقر الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل بدمشق وسلمها اليه الجواد برضاه وتعوض عنها بسنجار والرقة وعانة (وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة) كان الملك الصالح أيوب توجه الى مصر بالعساكر ليأخذها فسار الملك الصالح اسمعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص فهجموا على دمشق وأخذها وبلغ ذلك الملك الصالح أيوب فتفرقت عساكره عنه بالغور فقصد نابلس ونزل بها وكان الملك الناصر داود صاحب الكرك قد وصل بعساكره الى الكرك فقصد الملك الصالح أيوب وامسكه وأرسله الى الكرك معتقلا مع الاحسان اليه ثم بدا له فاطلقه بعد أن كان توجه الى القدس وحاصرها وفتحها وخرب قلعتها التي بناها الفرنج فسارا جميعا الى القدس وتحالفا جميعا في قبة الصخرة على أن تكون مصر للصالح أيوب ودمشق والبلاد الشرقية للناصر داود وتوجها الى مصر فخرج اليهما العادل صاحب مصر وخرج من ورائهما الصالح اسمعيل صاحب دمشق وضاقت الارض بما رحبت على داود وأيوب واذا بالخبر قد وصل اليهما أن مماليك العادل أمسكوه وساروا مسرعين الى مصر ودخل الملك الصالح أيوب قلعة الجبل وزينت له البلاد وفرح الناس به وفي هذه السنة توفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص وكانت مدة ملكه بحمص نحو ست وخمسين سنة واستقر مكانه الملك

اليه

اليه أصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوي المراحل الى بلاده خائفا يترقب فلما وصل الى أطراف بلاده أقام وانما فعل هذا لانه صبي وغر لا معرفة له بالحرب والا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض فسار حينئذ الاشرف فملك رعبان وحصر تل باشر وبها جمع من عسكر كيكاوس فقاتلوه حتى غلبوا وأخذت القلعة منهم وأطلقهم الاشرف فلما وصلوا الى كيكاوس جمعهم في دار وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستقبحوه واستضعفوه لا جرم لم يمهله الله تعالى وعجل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة في قلبه ومات عقيب هذه الحادثة وسلم الاشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب الى شهاب الدين أتابك صاحب حلب وكان عازما على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده فاتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل فاقتضت المصلحة العود الى حلب لان الفرنج بديار مصر ومثل ذلك السلطان العظيم اذا توفي ربما جرى خلل في البلاد لا تعرف العاقبة فيه فعاد اليها وكفى كل منهما أذى صاحبه

(ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده)

توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه وسار الى الشام استخلفه بمصر ثقة به واعتمادا عليه وعلما بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة فلما توفي أخوه صلاح الدين ملك دمشق كما ذكرناه وبقي مالكا للبلاد الى الآن فلما ظهر الفرنج كما ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة قصدهم مرج الصفر فلما سار الفرنج الى ديار مصر انتقل هو الى عالقين فاقام به ومرض وتوفي وحمل الى دمشق فدفن بالتربة التي له وكان عاقلا ذا رأي سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما اذا أتاه يسمع ما يكره ويغضي عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الخرج وقت الحاجة لا يقف في شيء واذا لم تكن حاجة فلا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا لان مولده كان في المحرم من سنة أربعين وخمسمائة وملك دمشق في شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الافضل ابن أخيه وملك مصر في ربيع الآخر من سنة ست وتسعين منه أيضا ومن أعجب ما رأيت من منافاة الطوالع انه لم يملك الافضل مملكة قط الا وأخذها منه عمه العادل فاول ذلك ان صلاح الدين أعطى ابنه الافضل حران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقي الدين فسار اليها فلما وصل الى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الافضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق فاخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة اخيه الملك العزيز فاخذها أيضا منه ثم ملك صرخد فاخذها منه وأعجب من هذا أنني رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة في بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذي بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الافضل لينقلها الى دمشق ثم ان العادل أخذها بعد ذلك من الافضل طلبها منه فاخذها وهذا غاية وهو من أعجب ما يحكى وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والاردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الاشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازي وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفي ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه اياها أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا

المنصور ابراهيم وفيها توفي صاحب ماردين ناصر الدين ارتق ارسلان بن ايلغازي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق ولقبه الملك المنصور وكان ملكها بعد أخيه بولق ارسلان واستقر مكان ارتق ولده الملك السعيد نجم الدين غازي الى أن توفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة ثم ملك ابنه المظفر قرا ارسلان الى سنة احدى وتسعين وستمائة ثم ملك ابنه شمس الدين داود سنة وسبعة أشهر ثم ملك أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي بن قرا ارسلان الى ان توفي سنة اثنتي عشرة وسبعمائة (وفي سنة ثمان وثلاثين وستمائة) سلم الملك الصالح اسمعيل صفد والشقيف للفرنج خوفا من ابن أخيه الملك الصالح أيوب وشق ذلك على المسلمين ورحل عن دمشق الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الى مصر فولي القضاء بها جبرا والشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب الى الكرك ونظم هناك للناصر داود مقدمته الكافية (وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة) توفي الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك امام وقته في مذهب الشافعي وغيره كان يحل كتب المذاهب كلها والمجسطي واقليدس والتوراة والانجيل وكتاب سيبويه قرأ عليه الشيخ أثير الدين الابهري قال القاضي شمس الدين بن خلكان شاهدت الشيخ أثير الدين الابهري وهو جالس بين يدي الشيخ كمال الدين بن يونس فقرأ عليه المجسطي وقرأ

لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق الى الآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الامر والحكم مالم يره أبوهم ولعمرى انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام وفى نوبة دمياط كفاية وأما الملك الاشرف فليس للمال عنده محل بل يمطره مطرا كثيرا كعفته عن أموال الرعية دائم الاحسان لا يسمع سعاية ساع

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ذى القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لانه بلغه ان جماعة من الامراء قد اجتمعوا على تمليك أخيه الفائز عوضه نخافهم ففارق منزلته فانتقل الفرنج اليها وحصروا حينئذ دمياط برا وبحرا وتمكنوا من ذلك وقد تقدم مستقصى سنة أربع عشرة وستمائة وفيها فى المحرم توفى شرف الدين محمد بن علوان بن مهاجر الفقيه الشافعى وكان مدرسا فى عدة مدارس بالموصل وكان صالحا كثير الخير والدين سليم القلب رحمه الله وفيها توفى عز الدين نجاح الشرابى خاص الخليفة وأقرب الناس اليه وكان الحاكم فى دولته كثير العدل والاحسان والمعروف والعصبية للناس وأما عقله وتدبيره فاليه كانت النهاية وبه يضرب المثل وفيها توفى على ابن نصر بن هرون ابو الحسن الحلى النحوى الملقب بالحجة قرأ على الخشاب وغيره

﴿ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه﴾

فى هذه السنة توفى الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وما بينهما من بلاد الروم وكان قد جمع عساكره وحشد وسار الى ملطية على قصد بلاد الملك الاشرف لقاعدة استقرت بينه وبين ناصر الدين صاحب آمد ومظفر الدين صاحب اربل وكانوا قد خطبوا له وضربوا اسمه على السكة فى بلادهم واتفقوا على الملك الاشرف وبدر الدين بالموصل فسار كيكاوس الى ملطية ليمنع الملك الاشرف عن المسير الى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين لعل مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضا وكان قد علق به السل فلما اشتد مرضه عاد عنها فتوفى وملك بعده أخوه كيقباذ وكان محبوسا قد حبسه أخوه كيكاوس لما أخذ البلاد وأشار عليه بعض أصحابه بقتله فلم يفعل فلما توفى لم يخلف ولدا يصلح للملك لصغرهم فأخرج الجند كيقباذ وملكوه ومن بغى عليه لينصرنه الله وقيل بل أرسل كيكاوس لما اشتد مرضه فاحضره عنده من السجن ووصى له بالملك وحلف الناس له فلما ملك خالفه عمه صاحب ارزن الروم وخاف أيضا من الروم المجاورين لبلاده فارسل الى الملك الاشرف وصالحه وتعاهدا على المصافاة والتعاضد وتصاهرا وكفى الاشرف شر تلك الجهة وتفرغ باله لاصلاح ما بين يديه ولقد صدق القائل وجدك طعان بغير سنان وهذا ثمرة حسن النية فانه حسن النية لرعيته وأصحابه كاف عن أذى يتطرق اليهم منه غير قاصد الى البلاد المجاورة لبلاده بأذى وملك مع ضعف أصحابها وقوته لاجرم تأتيه البلاد صفوا عفوا

﴿ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه﴾

وفى هذه السنة ثامن صفر توفى قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وكان كريما حسن السيرة فى رعيته حسن المعاملة مع التجار كثير الاحسان اليهم وأما أصحابه

عليه تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح (وفى سنة أربعين وستمائة) توفيت صفية خاتون بنت الملك العادل أبى بكر صاحبة حلب ودفنت بقلعتها ومولدها سنة احدى وثمانين وخمسمائة بها أيضا تصرفت فى حلب تصرف السلاطين ست سنين وفيها توفى المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة الا شهرا وكان حسن السيرة وبنى المدرسة المستنصرية على شاطئ الدجلة ببغداد بالجانب الشرقى واستقر فى الخلافة بعده ولده المستعصم بالله عبد الله وهو سابع ثلاثيهم وآخرهم (وفى سنة احدى وأربعين وستمائة) استولت التتار على غالب بلاد الروم وأخذوا اخلاط وآمد ودخل تحت طاعتهم غياث الدين كيخسرو السلجوقى وفيها قويت الفرنج بارض الشام لضعف قوة الصالح اسمعيل صاحب دمشق واعتضاده بهم على صاحب مصر وأعطاهم عسقلان وطبرية ومكنهم من بيت المقدس غاية التمكين قال القاضى جمال الدين بن واصل مررت اذ ذاك على القدس مجتازا الى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا قنانى الخمر على الصخرة (وفى سنة اثنتين وأربعين وستمائة) توفى الملك المظفر صاحب حماة تقى الدين محمود بن المنصور محمد ابن المظفر عمر بن شاهنشاه وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام وعمره ثلاثا وأربعين سنة وكان شجاعا ذكيا محبا لاهل الفضل واستقر مكانه ولده الملك المنصور محمد وعمره نحو عشر سنين

فكانوا معه فى أرغد عيش يعمهم باحسانه ولا يخافون أذاه وكان عاجزا عن حفظ بلده مسلما الامور الى نوابه ولما توفى ملك بعده ابنه عماد الدين شاهانشاه وركب الناس معه وبقى مالكا لسنجار عدة شهور وسار الى تل أعفر وهى له فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زنكى ومعه جماعة فقتلوه وملك أخوه عمر بعده فبقى كذلك الى أن سلم سنجار الى الملك الاشرف على ما نذكره ان شاء الله تعالى ولم يمتع بملكه الذى قطع رحمه وأراق الدم الحرام لاجله ولما سلم سنجار أخذ عوضها الرقة ثم أخذت منه عن قريب وتوفى بعد أخذها منه بقليل وعدم روحه وشبابه وهذه عاقبة قطيعة الرحم فان صلتها تزيد فى العمر وقطيعتها تهدم العمر

﴿ذكر اجلاء بنى معروف عن البطائح وقتلهم﴾

فى هذه السنة فى ذى القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معدا متولى بلاد واسط أن يسير الى قتال بنى معروف فتجهز وجمع معه من الرجالة من تكريت وهيت والحديثة والانبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقا كثيرا وسار اليهم ومقدمهم حينئذ على بن معروف وهم قوم من ربيعة وكانت بيوتهم غربى الفرات تحت سوراء وما يتصل بذلك من البطائح وكثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى وقطعوا الطريق وأفسدوا فى النواحى المقاربة لبطيحة الغراف فشكا أهل تلك البلاد الى الديوان منهم فأمر معدا أن يسير اليهم فى الجموع فسار اليهم فاستعد بنو معروف لقتاله فاقتتلوا بموضع يعرف بالمقبر وهو تل كبير بالبطيحة بقرب الغراف وكثر القتل بينهم ثم انهزم بنو معروف وكثر القتل فيهم والاسر والغرق وأخذت أموالهم وحملت رؤس كثيرة من القتلى الى بغداد فى ذى الحجة من السنة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى المحرم انهزم عماد الدين زنكى من عسكر بدر الدين وفيها فى العشرين من رجب انهزم بدر الدين من مظفر الدين صاحب اربل وعاد مظفر الدين الى بلده وقد تقدم ذلك مستوفى فى سنة خمس عشرة وستمائة وفيها فى السابع والعشرين من شعبان ملك الفرنج مدينة دمياط وقد ذكر سنة أربع عشرة مشروحا وفيها توفى افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمى العباسى الفقيه الحنفى رئيس الحنفية بحلب روى الحديث عن عمر البسطامى نزيل بلخ وعن أبى سعد السمعانى وغيرهما وفيها توفى أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبرى الضرير النحوى وفيها توفى أبو الحسن على بن أبى محمد القاسم بن على بن الحسن بن عبد الله الدمشقى الحافظ ابن الحافظ المعروف بابن عساكر وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث فأكثر وعاد الى بغداد فوقع على القفل حرامية فجرح وبقى ببغداد وتوفى فى جمادى الاولى رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر خروج التتر الى بلاد الاسلام﴾

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا الا انى حثنى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الايام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل ان العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان

وفيها توفى الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل بن أبى بكر بن أيوب صاحب ميافارقين واستقر مكانه ولده الكامل محمد وفيها توفى الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الصالح أيوب صاحب مصر فى حبس صاحب دمشق الصالح اسمعيل واستمرت العداوة بينهما وكان صاحب دمشق محاصرا بعساكر صاحب مصر وبعد قليل تسلمت عساكر صاحب مصر دمشق وخرج منها الصالح اسمعيل على ان له بعلبك فانقلب معه غالب عساكر مصر والخوارزميون الذين كان استدعاهم الصالح أيوب من بلادهم وانجمع اليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا الى دمشق وحاصروها وأذاقوا أهلها شدة عظيمة فلم يشعروا الا وجاءهم الخبر بأن الحلبيين ساروا اليهم ومعهم الملك المنصور ابراهيم فرحلت الخوارزميون عن دمشق والتقوا مع الحلبيين وصاحب حمص فانكسروا وقتل مقدمهم بركة خان وحمل رأسه الى حلب وجاء الصالح اسمعيل الى حلب مستجيرا بصاحبها الملك الناصر يوسف وحوصرت بعد قليل بعلبك وبها أولاده وأخذت وجهزت أولاد الصالح اسمعيل ووزيره أمين الدولة الذى كان سامريا وأسلم الى مصر واعتقلهم الملك الصالح أيوب (وفى سنة أربع وأربعين وستمائة) توفى الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص بدمشق وكان

صادفافان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها ومن أعظم مايذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس وما البيت المقدس بالنسبة الى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس ومابنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها الى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها مانذكره ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وارانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج الا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا مالم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من أذربيجان وارانية ساروا الى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان واللكز ومن فى ذلك الصقع من الامم المختلفة فاوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد هذا مالم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة انما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض أخلاقا وسيرة فى نحو سنة ولم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم اليه ثم انهم لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم فانهم معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير وأما دوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج وأما دياناتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لا يعرف أباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم منها هؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها وستراها مشروحة متصلة ان شاء الله تعالى ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها واشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة ومنها ان الذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضا فانا لله وانا اليه راجعون نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين والذاب عن الاسلام معدوم واذا أراد الله

متوجها الى مصر الى خدمة الملك الصالح أيوب فنقل الى حمص ودفن بها واستقر مكانه ولده الملك الاشرف مظفر الدين موسى ❁ وفى سنة خمس وأربعين وستمائة ❁ استعاد المسلمون قلعتى عسقلان وطبرية من الفرنج فتحا وفيها توفى الملك العادل أبو بكر بن الكامل بالحبس وكان محبوسا مدة ثمان سنين وفيها توفى امام النحو فى الغرب أبو على عمر بن محمد بن عبد الله المعروف بالشلوبين قال القاضى شمس الدين بن خلكان الشلوبين هو الابيض الاشقر بلغة الاندلس قال السلطان عماد الدين ليس هذا بصحيح انما هو الشلوبين نسبة الى حصن يقال له الشلوبين قال هكذا ذكره ابن سعيد المغربى فى كتابه الكبير المسمى بالمطرب فى أخبار أهل المغرب فى المجلدة الخامسة عشرة بعد ذكر غرناطة وصف حصن شلوبين المذكور قال ومنه الشيخ أبو على عمر الشلوبينى قال وقرأ عليه النحو وكان فى طبقة أبى على الفارسى ❁ وفى سنة ست وأربعين وستمائة ❁ أرسل الملك الناصر صاحب حلب وحاصر حمص وأخذها من الاشرف موسى وتعوض عنها تل باشر مضافا لما بيده من الرحبة وتدمر وفيها توفى الشيخ جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر ابن يونس المعروف بابن الحاجب كان والده حاجبا للامير عز الدين موسك الصالحى الكردى مات بالاسكندرية وكان عمره خمسا وسبعين

بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فان هؤلاء التتر انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمدا كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضى الله أمرا كان مفعولا وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم الى البلاد

❁ (ذكر خروج التتر الى تركستان وماوراء النهر ومافعلوه) ❁

فى هذه السنة ظهر التتر الى بلاد الاسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الاسلام مايزيد على ستة أشهر وكان السبب فى ظهورهم ان ملكهم ويسمى بجنكزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده وسار الى نواحى تركستان وسير جماعة من التجار والاتراك ومعهم شئ كثير من النقرة والقندر وغيرهما الى بلاد ماوراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار وهى آخر ولاية خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له مامعهم من الاموال فبعث اليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ مامعهم من الاموال وانفاذه اليه فقتلهم وسير مامعهم وكان شيأ كثيرا فلما وصل الى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعد ان ملك ماوراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان ومابعدها من البلاد وان طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بما وراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل فى سبب خروجهم الى بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر فى بطون الدفاتر

فكان ماكان مما لست أذكره ❁ فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس الى جنكزخان لينظر ماهو وكم مقدار مامعه من الترك ومايريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التى على طريقهم حتى وصلوا اليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وانهم يخرجون عن الاحصاء وانهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة وانهم يعملون مايحتاجون اليه من السلاح بأيديهم فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم وحصل عنده فكر زائد فاحضر الشهاب الخيوقى وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف مايشير به فحضر عنده فقال له قد حدث أمر عظيم لا بد من الفكر فيه فاخذ رأيك فى الذى نفعله وذلك انه قد تحرك الينا خصم من ناحية الترك فى كثرة لا تحصى فقال له فى عساكرك كثرة وتكاتب الاطراف وتجمع العساكر ويكون النفير عاما فانه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم تذهب بجميع العساكر الى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام فتكون هناك فاذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من أرباب المشورة فاستشارهم فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا الرأى أن نتركهم يعبرون سيحون الينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق فانهم جاهلون بطرقها ونحن عارفون بها فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد فبينما الاتراك كذلك اذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه ويقول

سنة ❁ وفى سنة سبع وأربعين وستمائة ❁ استولت الفرنج على دمياط وهى خالية وقد هرب منه بنو كنانة الموكلون فشنقهم السلطان الملك الصالح أيوب عن آخرهم وفيها استضعف نفسه صاحب الكرك الناصر داود وسار الى حلب مستجيرا بصاحبها الملك الناصر ومعه مابقى من الجواهر ماقيمته فوق خمسمائة ألف دينار فارسلها الى الخليفة ببغداد المستعصم وديعة عنده فلم يرها عينه بعد ذلك واستخلف بالكرك ولده الملك المعظم عيسى فغار اخواه الامجد حسن والظاهر شادى وقبضا على أخيهما وتوجه الامجد الى مصر وسلم الكرك الى الملك الصالح أيوب ففرح بذلك فرحا شديدا وبعد شهر أو أقل توفى السلطان الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ليلة الاحد رابع عشر شعبان وكانت مدة ملكه تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما وكان عمره نحو أربعين سنة وكان طاهر اللسان والذيل عالى الهمة عظيم الهيبة لا يخاطب الا جوابا كانت أكثر عساكره وأمرائه ومماليكه من الترك رتب جماعة من مماليكه بدهليزه وسماهم البحرية لوضع القصص بين يديه ليكتب عليها بخطه ثم تخرج الى الموقعين وهو الذى بنى مدينة الصالحية لاجل الصيد وبنى الكبش بين مصر والقاهرة وكانت أولاده الذكور ثلاثة مات اثنان منهم قبله وبقى واحد وهو تورانشاه الملك المعظم

تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم استعدوا للحرب فاني واصل اليكم بجمع لا قبل لكم به وكان جنكزخان قد سار الى تركستان فملك كاشغار وبلاساغون وجميع البلاد وأزال عنها التتر الاولى فلم يظهر لهم خبر ولا بقي لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا وأرسل الرسالة المذكورة الى خوارزمشاه فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم الى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له ان خوارزمشاه يقول لك أنا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم وافعل بك كما فعلت بأصحابك وتجهز خوارزمشاه وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم فادمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل الى بيوتهم فلم ير فيها الا النساء والصبيان والاطفال فاوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا الى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بمخلفيهم فجدوا السير فادركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين ما لا يعد ولم ينهزم أحد منهم اما المسلمون فانهم صبروا حمية للدين وعلموا انهم ان انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وانهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم واشتد بهم الامر حتى ان أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنفد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها فاحصي من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفا وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم فلما كان الليلة الرابعة افترقوا فنزل بعضهم مقابل بعض فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضا كل منهم سئم القتال فاما الكفار فعادوا الى ملكهم جنكزخان وأما المسلمون فرجعوا الى بخارا فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لان طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم فكيف اذا جاؤا جميعهم مع ملكهم فامر أهل بخارا وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل في بخارا عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها وفي سمرقند خمسين ألفا وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود الى خوارزم وخراسان واجمع العساكر واستنجد بالمسلمين وأعود اليكم فلما فرغ من ذلك رحل عائدا الى خراسان فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هنالك وأما الكفار فانهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ما وراء النهر فوصلوا الى بخارا بعد خمسة أشهر من وصول خوارزمشاه وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالا شديدا متتابعا فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ففارقوا البلد عائدين الى خراسان فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم فارسلوا القاضي وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الامان للناس فاعطوهم الامان وكان قد بقي من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما أجابهم جنكزخان الى الامان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذي الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارا ولم يتعرضوا الى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه الينا وساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى في

بحصن كيفا وكان له جارية اسمها شجر الدر فكتمت موته وجمعت الامراء وأرباب الدولة وقالت السلطان يأمركم ان تحلفوا له ان الملك لولده من بعده الملك المعظم تورانشاه فأجابوها الى ذلك وحلفوا واستمرت شجر الدر تحكم وتعلم عن السلطان الى ان وصل تورانشاه الى المنصورة وقاتل الفرنج بعد استيطانهم وكسرهم المسلمون وغنموهم وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفا وأسر ملك الفرنج ريدافرنس وقيد وحبس ببيت كاتب الانشاء فخر الدين لقمان ووكل به الطواشي صبيح المعظم ورحل الملك المعظم من المنصورة منصورا ونزل بفارسكور وأخذ في تهديد مماليك أبيه فهجموا عليه وقتلوه وأول ضارب له بالسيف ركن الدين بيبرس الذي سيصير سلطانا بعد هذا وكانت له قبة خشب فهرب اليها فألقوا فيها النار فهرب منها وألقى نفسه في البحر فأدركوه وأغرقوه فكانت مدة ملكه شهرين وأياما واجتمعت أمراء الترك على أن يقيموا شجر الدر وخطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها وهي أم خليل فانه كان لها ولد من الملك الصالح مات صغيرا اسمه خليل وتسلم المسلمون دمياط وأطلقوا ريدافرنس في صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة وهذا ريدافرنس هو المقول له من كلام جمال الدين بن مطروح من أبيات

البلد

قل للفرنسيس اذ جئته * مقال صدق عن قؤول نصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها * تحسب أن الزمر يا طبل ريح

البلد بان لا يتخلف أحد ومن تخلف قتل فحضروا جميعهم فامرهم بطم الخندق فطموه بالاخشاب والتراب وغير ذلك حتى ان الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها في الخندق فانا لله وانا اليه راجعون وبحق سمى الله نفسه صبورا حليما والا كان خسف بهم الارض عند فعل مثل هذا ثم تابعوا الزحف الى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثنى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا اليهم ووصل النقابون الى سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدوا في القتال وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر ان يكتب له رؤس البلد ورؤساؤهم ففعلوا ذلك فلما عرضوا عليه أمر باحضارهم فحضروا فقال أريد منكم النقرة التي باعكم خوارزمشاه فانها لي ومن أصحابي أخذت وهي عندكم فاحضر كل من كان عنده شيء منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التي عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين فامر أصحابه ان يقتسموهم فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء أيضا وأصبحت بخارا خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل وممن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الامام ركن الدين امام زاده وولده فانهما لما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار في البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بانواع العذاب من طلب المال ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم وهو بمكانه بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارا اسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشي قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والاسارى والاثقال وراءهم حتى تقدموا شيئا فشيئا ليكون أرعب لقلوب المسلمين فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم الثاني وصل الاسارى والرجالة والاثقال ومع كل عشرة من الاسارى علم فظن أهل البلد ان الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة فخرج اليهم شجعان أهله وأهل الجلد والقوة رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمي أحد لما في قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد قتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم وكانوا سبعين ألفا على ما قيل فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا فطلبوا الامان فاجابوهم الى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر

وكل أصحابك أوردتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا ترى منهم * غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم ان أضمروا عودة * لاخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدها * والقيد باق والطواشي صبيح

وكان الملك المعظم تورانشاه حين وصل الى الديار المصرية أمسك الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل أبي بكر بن الكامل بن العادل بن أيوب وأرسله الى الشوبك محبوسا فلما قتل تورانشاه أفرج عن الملك المغيث وتسلم الكرك والشوبك وسار الملك الناصر يوسف صاحب حلب الى دمشق وملكها في ثامن ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة وفي آخر ربيع الآخر استقر عز الدين ايبك الجاشنكير التركماني في سلطنة مصر ولقب الملك المعز وعزلت شجر الدر وهو أول ملوك الترك وفي خامس جمادى الاولى عزل واستقر اتابك عز الدين أمير الجيوش واستقرت السلطنة للملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن بن الملك الكامل محمد بن العادل ابن أيوب وعقدوا البيعة للخليفة المستعصم ببغداد وخربوا سور دمياط وبنوا بالقرب منها مدينة وسموها المنشية وفي مستهل شعبان قبض الملك الناصر صاحب حلب ودمشق على

العامة على منعهم وخرجوا الى الكفار بأهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا الينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم الى مأمنكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارا من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله وافتضوا الابكار وعذبوا الناس بانواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة وكان خوارزمشاه بمنزلته كلما اجتمع اليه عسكر سيره الى سمرقند فيرجعون ولا يقدمون على الوصول اليها نعوذ بالله من الخذلان سير مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير عشرين ألفا فعادوا أيضا

﴿ذكر مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته﴾

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة لانها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لانهم هم الذين أوغلوا في البلاد فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعا يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه فوصلوا اليه فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الاحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل في الماء وأمسكوا اذنابها وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة اليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزمشاه الا وقد صاروا معه على أرض واحدة وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبا وخوفا وقد اختلفوا فيما بينهم انهم كانوا يتماسكون بسبب ان نهر جيحون بينهم فلما عبروه اليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدي سبا وطلب كل طائفة منهم جهة ورحل خوارزمشاه لا يلوي على شئ في نفر من خاصته وقصد نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر اليها وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشئ لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم فلما سمع بقربهم منه رحل الى مازندران وهي له أيضا فرحل التتر المغربون في أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان تعرف بباب سكون وله هناك قلعة في البحر فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصلت التتر فلما رأوا خوارزمشاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر فلما أيسوا من لحاق خوارزمشاه رجعوا فهم الذين قصدوا الري وما بعدها على ما نذكره ان شاء الله هكذا ذكر لي بعض الفقهاء ممن كان ببخارا وأسروه معهم الى سمرقند ثم نجا منهم ووصل الينا وذكر غيره من التجار أن خوارزمشاه سار من مازندران حتى وصل الى الري ثم منها الى همذان والتتر في أثره ففارق همذان في نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد الى مازندران وركب في البحر الى هذه القلعة وكان هذا هو الصحيح فان الفقيه كان حينئذ مأسورا وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ووصل خوارزمشاه ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ففارق همذان وكذلك أيضا هؤلاء

الناصر داود واعتقله بحمص وسار الى مصر ١٤٢ في منتصف رمضان ومعه من بني أيوب نحو العشرة وسائر عساكرهم وخرج اليهم المصريون والتقى الجمعان بالعباسية وانكسر كل من الفريقين وولى هاربا حتى انه خطب للملك الناصر يوسف في تلك الجمعة بقلعة الجبل ومصر ولم يقم بالقاهرة خطبة لاحد ودخل ايبك التركماني الى القاهرة معظما فانه هو الذي كسر الشاميين بعدما انكسر المصريون وتفرقت عنه وقتل بين يديه الامير شمس الدين لؤلؤ صبرا وكذلك الامير ضياء الدين القيمري وأسر الملك الصالح اسمعيل والاشرف صاحب حمص والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين وأخوه نصر الدين وأخرج أمين الدولة السامري وزير الملك اسمعيل ورفيقه وشنقهما على باب قلعة الجبل وهجم على الملك الصالح اسمعيل فقتله وعمره نحو خمسين سنة (وفي سنة تسع وأربعين وستمائة) توفي الصاحب محيي الدين ابن مطروح وكان فاضلا ومن نظمه

عانقته فسكرت من طيب الشذى
غصن رطيب بالنسيم قد اغتذى
نشوان ما شرب المدام وانما
أضحى بخمر رضابه متنبذا
جاء العذول يلومني من بعدما
أخذ الغرام علي فيه ما أخذا
لا أرعوي لا انثني لا أنتهي * عن حبه فليهذ فيه من هذا
ان عشت عشت على الغرام وان أمت *

التجار فارقوها ووصل التتر اليها بعدهم ببعض نهار فهم يخبرون عن مشاهدة ولما وصل خوارزمشاه الى هذه القلعة المذكورة توفي فيها

﴿ذكر صفة خوارزمشاه وشئ من سيرته﴾

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش وكان مدة ملكه احدى وعشرين سنة وشهورا تقريبا واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه فانه ملك من حد العراق الى تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس وفعل بالخطا الافاعيل العظيمة وملك بلادهم وكان فاضلا عالما بالفقه والاصول وغيرهما وكان مكرما للعلماء محبا لهم محسنا اليهم يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه وكان صبورا على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات انما همه في الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لاهل الدين مقبلا عليهم متبركا بهم حكى لي بعض خدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد عاد من خراسان قال وصلت الى خوارزم فنزلت ودخلت الحمام ثم قصدت باب السلطان علاء الدين فحين حضرت لقيني انسان فقال ما حاجتك فقلت له أنا من خدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فأمرني بالجلوس وانصرف عني ثم عاد الي وأخذني وأدخلني الى دار السلطان فتسلمني منه حاجب من حجاب السلطان وقال لي قد أعلمت السلطان خبرك فأمر باحضارك عنده فدخلت اليه وهو جالس في صدر ايوان كبير فحين توسطت صحن الدار قام قائما ومشى الي بين يدي فأسرعت السير فلقيته في وسط الايوان فأردت أن أقبل يده فمنعني واعتنقني وجلس وأجلسني الى جانبه وقال لي أنت تخدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم فقلت نعم فأخذ يدي وأمرها على وجهه وسألني عن حالنا وعيشنا وصفة المدينة ومقدارها وأطال الحديث معي فلما خرجت من عنده قال لولا اننا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعتك انما نريد أن نعبر جيحون الى الخطا وهذا طريق مبارك حيث رأينا من خدم حجرة النبي صلى الله عليه وسلم ثم ودعني وأرسل الي جملة كثيرة من النفقة ومضى وكان منه ومن الخطا ما ذكرناه وبالجملة فاجتمع فيه ما تفرق في غيره من ملوك العالم رحمه الله ولو أردنا ذكر مناقبه لطال

﴿ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران﴾

لما ايس التتر المغربة من ادراك خوارزمشاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها فانها لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه حتى ان المسلمين لما ملكوا البلاد الاكاسرة جميعها من العراق الى أقاصي خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد الى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا الامر يريده الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري فرأوا في الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة وكان سبب ذلك ان والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الري لتصل الى أصفهان وهمذان وبلد الجبل تمتنع فيها فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الى الري فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس من الجوهر وغير ذلك وسيروا الجميع

وجدا به وصبابة يا حبذا (وفي سنة احدى وخمسين وستمائة) ظهرت نار في أرض عدن ١٤٣ مدة تظهر بالليل ويرتفع لها دخان بالنهار وفي سنة اثنتين وخمسين وستمائة قوي أمر المعز ايبك التركماني بمصر وقتل خشداشه اقطاي الجدار وقطع خطبة الاشرف موسى ولم يخطب بعد ذلك لبني أيوب بمصر (وفي سنة أربع وخمسين وستمائة) مات كيخسرو ملك الروم واستمر مكانه ولده عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج ارسلان وفيها توجه الصاحب كمال الدين بن العديم رسولا الى الخليفة من الملك الناصر صلاح الدين يوسف بتقدمة جليلة فطلب خلعة فلم يتفق ذلك وأرسل معه سكينا من السم عوض هديته (وفي سنة خمس وخمسين وستمائة) قتل المعز ايبك التركماني بأمر زوجته شجر الدر أم خليل فانه كان تزوجها ثم قصد ان يتزوج عليها ثم بعد قليل قتلت شجر الدر وفيها ظهرت نار عند مدينة النبي صلى الله عليه وسلم لها بالليل ضوء عظيم يظهر من بعد ووافق ذلك أن الخدام بالحرم غفلوا ليلة فاشتعلت النار في المسجد واضرمت سقوفه وبعض المنبر وتأوه المسلمون لتلك المصيبة وتألموا (وفي سنة ست وخمسين وستمائة) قصد هلاكو بغداد وملكها وقتل الخليفة المعتصم آخر العباسيين وكان ابتداء دولتهم بالسفاح في سنة اثنتين وثلاثين ومائة وكانت مدة خلافة المستعصم ست عشرة سنة تقريبا

الى جنكزخان بسمرقند

(ذكر وصول التتر الى الرى وهمذان)

فى سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله الى الرى فى طلب خوارزمشاه محمد لانهم بلغهم انه مضى منهزما منهم نحو الرى فجدوا السير فى أثره وقد انضاف اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك أيضا من المفسدين من يريد النهب والشر فوصلوا الى الرى على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا الا وقد وصلوا اليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الاطفال وفعلوا الافعال التى لم يسمع بمثلها ولم يقيموا ومضوا مسرعين فى طلب خوارزمشاه فنهبوا فى طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا فى الجميع اضعاف مافعلوا فى الرى وأحرقوا وخربوا ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والاطفال فلم يبقوا على شئ وتموا على حالهم الى همذان وكان خوارزمشاه قد وصل اليها فى نفر من أصحابه ففارقها وكان آخر العهد به فلا يدرى ما كان منه فيما حكاه بعضهم عنه وقيل غير ذلك وقد ذكرناه فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الاموال والثياب والدواب وغير ذلك يطلب الامان لاهل البلد فأمنوهم ثم فارقوها وساروا الى زنجان ففعلوا أضعاف ذلك ثم وصلوا الى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا فى قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم وأهل البلد فى باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصى ثم فارقوا قزوين فعد القتلى من أهل قزوين فزادوا على أربعين ألف قتيل

(ذكر وصول التتر الى اذربيجان)

لما هجم الشتاء على التتر فى همذان وبلد الجبل رأوا بردا شديدا وثلجا متراكما فساروا الى اذربيجان ففعلوا فى طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ماتقدم منهم وخربوا وأحرقوا ووصلوا الى تبريز وبها صاحب اذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق وانما أرسل اليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع اليهم فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لانه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعى به كثيرة لاجل دوابهم فوصلوا الى موقان وتطرقوا فى طريقهم الى بلاد الكرج فجاء اليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلوهم فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج الى أوزبك صاحب اذربيجان يطلبون منه الصلح والاتفاق معهم على دفع التتر فاصطلحوا واجتمعوا اذا انحسر الشتاء وكذلك أرسلوا الى الملك الاشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم ان التتر يصبرون فى الشتاء الى الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف اليهم مملوك تركى من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع معه خلق كثير وراسل التتر فى الانضمام اليهم فاجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية فاجتمعوا وسار وافى مقدمة التتر الى الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا الى قرب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها اليهم فلقيهم أقوش أولا فيمن اجتمع اليه فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال وقتل منهم أيضا كثير فلم يثبتوا للتتر وانهزموا أقبح

وروى عن على بن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهم انه قال والله لتكونن الخلافة فى ولدى حتى يأتيهم العلج من خراسان وحصلت له بسبب ذلك محنة وفيها توفى الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب وعمره نحو ثلاث وخمسين سنة واتفقت له غريبة وهى انه كان أمسكه الملك المغيث صاحب الكرك خوفا منه حين كان بالتيه مع العربان وحمله الى الشوبك ليسجن بها فى مطمورة وكان واقفا على المطمورة وهى تحفر واذا برسول الخليفة المستعصم جاء فى طلبه ليكون فى مقدمة عسكره فى قتال التتر ففرج الله عنه قبل اتمام المطمورة فلما وصل الى دمشق جاء الخبر باستيلاء التتر على بغداد فتركه الرسول وانصرف وسار الناصر داود الى البويضا شرقى دمشق ومات بالطاعون وخرج اليه الناصر يوسف وأسف عليه ونقله الى دمشق ودفنه بالصالحية عند والده المعظم وله أشعار فائقة منها

عيون عن السحر المبين تبين
لها عند تحريك القلوب سكون

هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى كثرة وكانت الوقعة فى ذى القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جرى لهؤلاء التتر مالم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد ارمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتالله لا أشك ان من يجىء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده فمتى استبعد ذلك فلينظر اننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى ازماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدو الى عظيم ومن الملوك المسلمين الى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين أذى وشدة مذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل مادفعوا اليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ماوراء النهر وملكوها وخربوها وناهيك به سعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ثم الى الرى وبلد الجبل واذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن أعظم الامور على المسلمين ان سلطانهم خوارزمشاه محمدا قد عدم لا يعرف حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر فى أثره وتارة يقال عاد الى طبرستان وركب البحر فتوفى فى جزيرة هناك وبالجملة فقد عدم ثم صح موته ببحر طبرستان وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد على انهم لم يبقوا على مدينة الا خربوها كل مامروا عليه نهبوه ومالا يصلح لهم احرقوه فكانوا يجمعون الابريسم تلالا ويلقون فيه النار وكذلك غيره من الامتعة

(ذكر ملك التتر مراغة)

فى صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من اذربيجان وسبب ذلك انا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة مافعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم فى بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ساروا من ناحية الكرج لانهم رأوا ان بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج الى قتال وصداع فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم اذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فوصلوا الى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه الى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لان صاحبها كانت امرأة وهى مقيمة بقلعة رويندز وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها وكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فان عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون كرها وهم المساكين كما قيل كالاشقر ان تقدم ينحر وان تأخر يعقر وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل فى المسلمين الاسارى وهم بنجوة منه فاقاموا عليها عدة أيام ثم ملكوا المدينة عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف فى أهلها فقتل منهم مايخرج عن الحد والاحصاء ونهبوا كل ماصلح لهم ومالا يصلح لهم احرقوه واختفى بعض الناس منهم فكانوا يأخذون الاسارى ويقولون لهم

عن سلونى ودع الفؤاد يبيد
من لى بطيفك بعد مامنع الكرى
عن ناظرى البعد والتسهيد
ومن العجائب ان قلبك لم يلن
لى والحديد ألانه داود

(وفيها) توفى الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن على ابن يحيى المهلبى كاتب انشاء الملك الصالح أيوب ومولده بوادى نخلة من مكة سنة احدى وثمانين وخمسمائة ودفن بالقرافة الصغرى ومن شعره فى وزن اخترعه هو

يامن لعبت به شمول
ما ألطف هذه الشمائل
نشوان يهزه دلال
كالغصن مع النسيم مائل
لا يمكنه الكلام لكن
قد حمل طرفه رسائل
ما أطيب وقتنا وأهنا
والعاذل غائب وغافل
عشق ومسرة وسكر
العقل ببعض ذا التزائل
والبدر يلوح فى قناع
والغصن يميس فى الغلائل
والورد على الخدود غض
والنرجس فى العيون ذابل
والعيش كما أحب صاف
والانس بمن أحب كامل
مولاى يحق لى بانى
عن مثلك فى الهوى أقاتل
لى فيك كما علمت عشق
لا يفهم سره العواذل

نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا فاذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل (وبلغني) ان امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا فوضعت السلاح واذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا (وسمعت) من بعض أهلها ان رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا عنها نحو مدينة اربل ووصل الخبر الينا بذلك بالموصل فخفنا حتى ان بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب اربل الى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جماعة صالحة من عسكره وأراد ان يمضي الى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فانها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها الا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز اليه ووصلت كتب الخليفة ورسله الى الموصل والى مظفر الدين بأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فانهم ربما عدلوا عن جبال اربل لصعوبتها الى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من اربل في صفر وسار اليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا الى الملك الاشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق ان الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق الى أخيه الاشرف وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه ان يحضر بنفسه ليسيروا كلهم الى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج فاعتذر الى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج وان لم يتداركها أخرجت هي وغيرها وشرع يتجهز للمسير الى الشام ليدخل مصر وكان ما ذكرناه من استنقاذ دمياط فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة اليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الامراء في نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر (وحكى مظفر الدين) قال لما أرسل الي الخليفة في معنى قصد التتر قلت له ان العدو قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرني بالمسير ووعدني بوصول العسكر فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسي وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنا منهم ان العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الاسلامي عند دقوقا فلما لم يروا ان العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا الى بلادهم

(ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها)

لما تفرق العسكر الاسلامي عاد التتر الى همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة يحكم فيها فارسلوا اليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدة وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذي يسعى في أمور أهل البلد مع التتر ويوصل اليهم ما يجمعه من الاموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه انسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم

في وجهك للرجا دليل ما تكذب هذه المخايل
لا أطلب في الهوى شفيعا * لي فيك غنى عن الوسائل
ذا العام مضى وليت شعري هل يحصل لي رضاك قابل
ها عبدك واقفا ذليلا في الباب يمد كف سائل
من وصلك بالقليل يرضى والطل من الحبيب وابل

(وفيها) توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان وفيها توفي سيف الدين علي بن سابق الدين قزل المعروف بابن المشد ومن شعره الحسن وكان اذ ذاك أميرا كبيرا من أمراء الملك الناصر يوسف صاحب الشأم قال

باكر كؤس المدام واشرب واستجل وجه الحبيب واطرب
ولا تخف للهموم داء فهو دواء له مجرب
من كف ساق له رضاب كالشهد لكن جناه أطيب
بجنبي خال وجنتيه والمسك في الجلنار أعجب
أما ترى الروض في ملاء طرازها بالعبير مذهب
والليل دب الصباح فيه كأنه عنبر تشعب
والبدر بين النجوم يسري من جانبيه البروق خلب

(وفي سنة سبع وخمسين وستمائة) توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بعد حكمه ثلاثا وأربعين سنة واستقر ولده الملك الصالح بالموصل وولده علاء الدين بسنجار وفيها تسلطن بالديار المصرية قطز وخلع ابن استاذه الملك المنصور علي وتلقب بالملك

في أهلها بما يختاره فقال الشريف اذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا الا مصانعتهم بالاموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار وأغلظوا له في القول فقال أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتم فأشار الفقيه باخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد فتقدم التتر اليهم وحصروهم وكانت الاقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر أحد على الطعام الا قليلا واما التتر فلا يبالون لعدم الاقوات لانهم لا يأكلون الا اللحم ولا تأكل دوابهم الا نبات الارض حتى انها تحفر بحوافرها الارض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الاول وقتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الاول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج في اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يجدوه وكان قد هرب في سرب صنعه الى ظاهر البلد هو وأهله الى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون الا انهم اجتمعت كلمتهم على القتال الى ان يموتوا فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحدا خرج اليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس في الدروب فبطل السلاح للزحمة واقتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصيه الا الله تعالى وقوي التتر على المسلمين فافنوهم قتلا ولم يسلم الا من كان عمل له نفقا يختفي فيه وبقي القتل في المسلمين عدة أيام ثم ألقوا النار في البلد فاحرقوه ورحلوا عنها الى مدينة اردويل وقيل كان السبب في ملكها ان أهل البلد لما شكوا الى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ اليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب الى الخليفة ينهي اليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزي ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال الى التتر يعلمهم ذلك فارسلوا الى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا الى الرئيس ينكرون عليه الحال فجحد فارسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة فسقط في أيديهم وتقدم اليهم التتر حينئذ وقاتلوهم وجرى في القتال كما ذكرنا

(ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم اردويل وغيرها)

لما فرغ التتر من همذان ساروا الى اذربيجان فوصلوا الى اردويل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا وخربوا أكثرها وساروا منها الى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها اوزبك بن البهلوان وكان أميرا متخلفا لا يزال منهمكا في الخمر ليلا ونهارا يبقى الشهر والشهرين لا يظهر واذا سمع هيعة طار مجفلا وله جميع اذربيجان واران وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه الى خوي ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائي بأمر البلد وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني وحصن البلد بجهده وطاقته فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وانهم قد حصنوا المدينة وأصلحوا أسوارها وخندقها أرسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا

المظفر وكان قد قدم على الملك المنصور كمال الدين بن العديم رسولا من الملك الناصر يوسف صاحب الشأم يستنجده على التتر فلم يجبه (وفي سنة ثمان وخمسين وستمائة) استولت التتر على حلب يوم الاحد تاسع صفر من عند حمام سيف الدولة بن حمدان في ذيل قلعة الشريف واستمر النهب بها الى رابع عشر صفر ثم نادى هلاكو بالامان وحاصر القلعة وبها الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين يوسف ثم تسلمها بالامان يوم الاثنين حادي عشر ربيع الاول وأمر هلاكو ان كل من سلم من المسلمين يتوجه الى داره ولا يعارض في ملكه وجاءت اليه مفاتيح حماة فامنهم وأرسل اليهم شحنة اسمه خسروشاه ويزعم انه من ذرية خالد بن الوليد وأحسن اليهم وجاء الملك الاشرف صاحب حمص الى هلاكو بحلب فاكرمه وأعاده الى حمص وقدم عليه محيي الدين بن الذكي فولاه قضاء دمشق وتوجه اليها وقرأ توقيع هلاكو ولبس خلعته وباشر وكان الملك الناصر لما بلغه أخذ حلب توجه من دمشق نحو مصر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة ووصل بعساكره الى قطية واستولت التتر على دمشق وسائر الشأم الى غزة واستقرت شحانيهم بها وكان أخذ التتر لدمشق بالامان في منتصف جمادى الاولى ونهبوا جميع ما فيها وخربوا أسوارها ومن قطية خاف الملك الناصر من ملك مصر قطز فجمع العساكر

فاستقر الامر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه اليهم فأخذوه ورحلوا الى مدينة مراغة فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها الى بيلقان من بلاد اران فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها فلما وصلوا الى بيلقان حصروها فاستدعى أهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم فقتله أهل البلد فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ثم انهم ملكوا البلد عنوة فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى انهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم اليه يدا فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا الى مدينة كنجة وهى أم بلاد اران فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا الى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم

﴿ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج﴾

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين باذربيجان واران بعضه بالملك وبعضه بالصلح ساروا الى بلاد الكرج من هذه الاعمال أيضا وكان الكرج قد اعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كثيرا الى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها فوصل اليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فأخذهم السيف فلم يسلم منهم الا الشريد ولقد بلغنى انهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنهزمون الى تفليس وبها ملكهم جمع جموعا أخرى وسيرهم الى التتر أيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا الى تفليس فاخلوا البلاد ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا عنها وداخل الكرج منهم خوف عظيم حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا انه قال من حدثكم ان التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه واذا حدثتم انهم قتلوا فصدقوا فان القوم لا يفرون أبدا ولقد أخذنا أسيرا منهم فالقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ولم يسلم نفسه للاسر

﴿ذكر وصولهم الى دربند شروان وما فعلوه﴾

لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخى وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم ان التتر صعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتلى الناس منهم وممن قتل من غيرهم والقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فاشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها فصبروا واشتد القتال ثلاثة أيام فاشرفوا على ان يؤخذوا فقالوا السيف لا بد منه فالصبر أولى بنا نموت كراما فصبروا تلك الليلة فانتنت تلك الجيف وانهضمت فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر أهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء فضعفوا فملك التتر البلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الاموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك فأرسلوا رسولا الى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل اليهم رسولا يسعى بينهم فى الصلح فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه فاخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين ان أنتم عرفتمونا

مع الملك المنصور الى مصر فتلقاهم قطز وأحسن اليهم وتوجه الملك الناصر الى التيه وأما هلاكو فعاد الى بلاده ودخل على حازم فقتل أهلها عن آخرهم وأمر باخراب أسوار حلب وأسوار قلعتها فخربت عن آخرها وكذلك أسوار حمص وقلعة حماة فكان هلاكو قد استناب على دمشق كتبغا فعرف موضع الناصر يوسف وأرسل اليه وأمسكه وأرسله الى هلاكو فلما جاؤا به على حلب أنشد

يعز علينا ان نرى ربعكم يخلى ... وكان به آيات حسنكم تتلى

فلما وصل الى هلاكو أقبل عليه ووعده برد ملكه اليه ولما اجتمعت العساكر الاسلامية بمصر سار بهم قطز مملوك ايبك التركمانى أوائل رمضان وجمع كتبغا عساكره وخرج اليهم والتقى الجمعان بالغور وانهزم التتر وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل كتبغا وأسرابنه وتبعهم بيبرس البندقدارى الى أطراف البلاد وأحسن قطز الى الملك المنصور صاحب حماة وأقره عليها وجاءه الملك الاشرف موسى صاحب حمص وكان قد انضم الى التتر فأقبل عليه وأقره على حمص وأحضر اليه الملك السعيد صاحب الصبيبة أسيرا فقتله لما كان قد اعتاده من الفسق والفجور وحال انتمائه الى التتر واستقرت البلاد كلها الملك المظفر قطز وولى نيابة دمشق لعلم الدين سنجر الحلبى وحلب للملك السعيد بدر الدين لؤلؤ صاحب

طريقا

طريقا نعبر فيه فلكم الامان وان لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فساروا معهم الى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم

﴿ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق﴾

لما عبر التتر دربند شروان ساروا فى تلك الاعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهبوا وقتلوا من اللكز كثيرا وهم مسلمون وكفار واوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا الى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعا من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر احدى الطائفتين بالاخرى فأرسل التتر الى قفجاق يقولون نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم اننا لا نعترض اليكم ونحمل اليكم من الاموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم فاستقر الامر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا اليهم ما استقر وفارقتهم قفجاق فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا الى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم الا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الاول فالاول وأخذوا منهم اضعاف ما حملوا اليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وابعدوا بعضهم اعتصم بالغياض وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس وأقام التتر فى بلاد قفجاق وهى أرض كثيرة المراعى فى الشتاء والصيف وفيها أماكن باردة فى الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة فى الشتاء كثيرة المرعى وهى غياض على ساحل البحر ووصلوا الى مدينة سوداق وهى مدينة قفجاق التى منها مادتهم فانها على بحر خزرية والمراكب تصل اليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجوارى والمماليك والبرطاسى والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو فى بلادهم وبحر خزرية هذا بحر متصل بخليج القسطنطينية ولما وصل التتر الى سوداق ملكوها وتفرق أهلها منها فبعضهم صعد الجبال باهله وماله وبعضهم ركب البحر وسار الى بلاد الروم التى بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان

﴿ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس﴾

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق أهل قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم الى بلاد الروس وهى بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا اليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتران قصدوهم وأقام التتر بأرض قفجاق مدة ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة الى بلاد الروس فسمع الروس وقفجاق خبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا الى طريق التتر ليلقوهم قبل ان يصلوا الى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا انهم عادوا خوفا منهم وعجزا عن قتالهم فجدوا فى اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم اثنى عشر يوما ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم على غرة منهم لانهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم ان التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل فى المنهزمين فلم يسلم منهم الا القليل ونهب جميع ما معهم ومن سلم وصل الى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة

الموصل وتوجه الملك المظفر قطز نحو الديار المصرية فلما قارب الصالحية قامت أرنب فتبعها ومعه ثلاثة أمراء أحدهم بيبرس البندقدارى فاتفقوا على قتله فشفع واحد منهم فى شخص فاجابه السلطان فأهوى ليقبل يده فامسكها وضربه بيبرس بالسيف وتحاملوا عليه ورموه عن فرسه وقتلوه وكانت مدة ملكه احد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما وعادوا الى المخيم فقال لهم نائب السلطان فارس الدين اقطاى من قتله منكم فقال بيبرس انا فقال أنت أحق بمنزلته فجلس فى دست السلطنة وحلفت له الامراء وتلقب بالملك القاهر فقيل له انه لقب غير مبارك فتلقب الظاهر وساق الى القاهرة وفتحت له القلعة وتسلمها فى سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة (وفيها) بلغ ذلك نائب الشأم سنجر الحلبى وكان قد عمر قلعة دمشق وأحبه الناس حتى عمرت النساء معه فطلب الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة فحلفوا وخطب له بها وتلقب الملك المجاهد وبلغ أمراء حلب قرب التتر فامسكوا نائبهم لسفاهة رأيه وخرجوا الى التتر وانكسروا وهربوا الى حماة واستولت التتر على حلب وقتلوا غالب أهلها وخرج صاحب حماة والعساكر الى حمص ولحقهم التتر والتقى الجمعان بظاهر حمص يوم الجمعة خامس المحرم سنة تسع وخمسين وستمائة فنصر الله المسلمين وقتلوا وأسروا

وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس واغنيائهم وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر الى بلاد الاسلام في عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق الا ان الناس نجوا وكانت العادة جارية ان السلطان له المركب الذي ينكسر فاخذ من ذلك شيأ كثيرا وسلم باقي المراكب وأخبر من بها بهذه الحال

﴿ ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق الى ملكهم ﴾

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار اواخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا اليهم فلقوهم واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل قيل كانوا نحو أربعة آلاف رجل فساروا الى سقسين عائدين الى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم منهم الى بلادهم وكان الطريق منقطعا مذ دخلها التتر فلم يصل منهم شيء من البرطاسي والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد فلما فارقوها عادوا الى بلادهم واتصلت الطريق وحملت الامتعة كما كانت هذا أخبار التتر المغربة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع

﴿ ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند ﴾

قد ذكرنا ما فعله التتر المغربة التي سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله الى خوارزمشاه وأما جنكزخان فانه بعد ان سير هذه الطائفة الى خوارزمشاه وبعد انهزام خوارزمشاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام فسير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر منها الى ترمذ وسير قسما منها الى كلانة وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وامنع الحصون فسارت كل طائفة الى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والاسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل ما فعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند فجهز جيشا عظيما مع أحد أولاده وسيره الى خوارزم وسير جيشا آخر فعبروا جيحون الى خراسان

﴿ ذكر ملك التتر خراسان ﴾

لما سار الجيش المنفذ الى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فامنوهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا اليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وميمند واندخوي وفاريات فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا الى أهلها بسوء ولا أذى سوى انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا الى الطالقان وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها منصوركوه لا ترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها الليل والنهار ولا يظفرون منها بشيء فأرسلوا الى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه اليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين اسرى فامرهم بمباشرة القتال والا قتلهم فقاتلوا معه واقام عليها أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر ان يجمع له من الحطب والاخشاب ما أمكن جمعه ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفا من خشب وفوقه صفا من تراب فلم

من التتر ما شاء الله وفي ثالث عشر صفر وصل علاء الدين ايدكين البندقدار استاذ السلطان الملك الظاهر الى دمشق وأخذها بالسيف من علم الدين سنجر وعادت الى الملك الظاهر بيبرس ولما بلغ هلاكو قتل نائبه بدمشق كتبغا وانكسار عساكره بعين جالوت وبحمص مرة أخرى استحضر الملك الناصر يوسف وأخاه الظاهر غازي وقتلهما ومن معهما وكان عمر الناصر نحو اثنتين وثلاثين سنة وكان قد اتسع ملكه وملك حلب والشام وبلادهما ولولا هروبه من قطينة لملك مصر وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربعون رأس غنم وكان حليما الى الغاية ولا يقيم على أحد حدا حتى انقطعت الطرقات في أيامه وكان اذا قدم اليه مستحق القتل يقول الحي خير من الميت ويطلقه وكان يحفظ كثيرا من الشعر ومن شعره

فوالله لو قطعت قلبي تأسفا
وجرعتني كاسات دمعي دما صرفا
لما زادني الا هوى وصبابة
ولا اتخذت روحي سواك لها الفا

(وفي هذه السنة) في رجب قدم الى مصر جماعة من العرب معهم شخص اسمر اللون اسمه أحمد زعموا انه ابن الامام الظاهر بالله محمد بن الامام الناصر وانه هرب من دار الخلافة ببغداد لما طلبها التتر فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلسا عظيما فيه القاضي عزالدين بن

يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازي القلعة فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والاطفال ونهبوا الاموال والامتعة ثم ان جنكزخان جمع أهل البلاد التي أعطاهم الامان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض أولاده الى مدينة مرو فدخلوا اليها وقد اجتمع بها من الاعراب والاتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل التتر اليهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى ان بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين ان قيل ان التتر يقتلون فصدقوا وان قيل انهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر التتر واقدامهم ولوا منهزمين فقتل التتر منهم وأسروا الكثير ولم يسلم الا القليل ونهبت اموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل التتر الى ما حولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا الى مرو وحصروها وجدوا في حصرها ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والاسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر الى الامير الذي بها متقدما على من فيها يقولون له لا تهلك نفسك وأهل البلد واخرج الينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك فأرسل يطلب الامان لنفسه ولاهل البلد فأمنهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له أريد أن تعرض علي أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه أقطاعا ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم فلما فرغ منهم قال لهم اكتبوا الى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الاموال في جريدة واكتبوا الى أرباب الصناعات والحرف في نسخة أخرى وأعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسي من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الاجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت رقابهم صبرا والناس ينظرون اليهم ويبكون واما العامة فانهم قسموا الرجال والنساء والاطفال والاموال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل وأخذوا أرباب الاموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات في طلب الاموال فربما مات أحدهم من شدة الضرب ولم يكن بقي له ما يفتدي به نفسه ثم انهم أحرقوا البلد وأحرقوا تربة السلطان سنجر ونبشوا القبر طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم أجمعين وأمر باحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل فانا لله وانا اليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم ثم ساروا الى نيسابور فحصروها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الاسلامي فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها الى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون ويفتشون المنازل عن الاموال وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم ان قتلاهم سلم منهم كثير ونجوا الى بلاد الاسلام فأمروا بأهل نيسابور ان تقطع رؤسهم لئلا يسلم من القتل أحد فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم الى طوس ففعلوا بها كذلك أيضا وخربوها وخربوا المشهد الذي فيه علي بن موسى الرضا والرشيد حتى جعلوا الجميع خرابا ثم ساروا الى هراة وهي من أحصن البلاد فحصروها عشرة أيام فملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا منهم البعض

عبد السلام والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف ابن بنت الاعز وعين جماعة من الموقعين سمعوا كلام أولئك العرب ثم شهدوا بالاستفاضة وثبت النسب عند القاضي تاج الدين ولقبوه المستنصر بالله أبا القاسم أحمد وبايعه الملك الظاهر بيبرس والناس بالخلافة وعمل له رونق الخلافة قيل صرف على ذلك ألف ألف دينار وكانت العامة تلقب الخليفة المذكور بالزرابيني ولما خرج الملك الظاهر الى دمشق خرج معه الخليفة المذكور وجهزه من دمشق الى بغداد وأحسن جهازه فقتله التتر قبل وصوله الى بغداد وفيها ورد الخبر عن فرنج عكا انهم في حزن عظيم ولبس سواد ونواح لما بلغهم ان سبع جزائر في البحر خسفت بأهلها وما فيها فجهز الملك الظاهر عسكرا وأخذ منهم الشوبك (وفي سنة ستين وستمائة) توفي الشيخ عزالدين بن عبد السلام الدمشقي بمصر وفيها توفي الصاحب كمال الدين عمر بن عبد العزيز ابن أبي جرادة الحنفي المعروف بابن القديم الحلبي له تاريخ مختص بحلب مشهور (وفي سنة احدى وستين وستمائة) سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية الى دمشق فعمل الحيلة في امساك الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب ولم يزل يرسل اليه الهدايا والتحف ويطلب

وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا الى غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزم شاه فقاتلهم وهزمهم على ما نذكره ان شاء الله فوثب أهل هراة على الشحنة فقتلوه فلما عاد المنهزمون اليهم دخلوا البلد قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيه ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها وعادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل السرايا الى جميع بلاد خراسان ففعلوا بها كذلك ولم يسلم من شرهم وفسادهم شئ من البلاد وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة

﴿ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها﴾

وأما الطائفة من الجيش التى سيرها جنكزخان الى خوارزم فانها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد فساروا حتى وصلوا الى خوارزم وفيها عسكر كبير وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير الا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لان المسلمين كان يحميهم السور فأرسل التتر الى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا الى البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم فى طرف الموضع الذى ملكوا فلم يقدروا على اخراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه ثم انهم فتحوا السكر الذى يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الابنية وبقى موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفى ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقى نفسه بين القتلى فينجو وأما أهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء أو قتله الهدم فأصبحت خرابا يبابا

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهذا لم يسمع بمثله فى قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الاسلام وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لان القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا الى ملكهم بالطالقان

﴿ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور﴾

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا الى ملكهم جهز جيشا كثيفا وسيره الى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكا لها وقد اجتمع اليه من سلم من عسكر أبيه قيل كانوا ستين ألفا فلما وصلوا الى أعمال غزنة خرج اليهم المسلمون مع ابن خوارزم شاه الى موضع يقال له بلق فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤا ومن سلم منهم عاد الى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالى الذى عندهم للتتر فقتلوه فسير اليهم جنكزخان عسكرا فملكوا البلد وخربوه كما ذكرناه فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولا الى جنكزخان يقول له فى أى موضع تريد يكون الحرب حتى نأتى اليه فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الاول مع بعض أولاده وسيره اليه فوصل الى كابل فتوجه العسكر الاسلامى اليهم وتصافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم

فانهزم

بأحسن من مولى تمشى الى عبد

فلما وصل الملك المغيث الى بيسان خرج اليه الملك الظاهر بالعساكر ولاقاه فلما وصل الى المخيم أمسكه وجهزه الى مصر وكان آخر العهد به قيل انه جهزه الى امرأته فضربته جواريها بالقباقيب الى ان مات فانه لما هرب بيبرس من الكرك حين كان محبوسا مع المماليك البحرية ترك زوجته بالكرك فأكرهها المغيث والله تعالى أعلم وسار الملك الظاهر الى الكرك فأحكم أمورها ثم عاد الى مصر وفيها توفى الاشرف موسى بن الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادى بحمص وتسلمها الملك الظاهر وهذا الاشرف هو آخر من ملك حمص من بنى شيركوه خمسة ملوك مرتبة ابن عن أب (وفى سنة ثلاث وستين وستمائة) سار السلطان الملك الظاهر بعساكره للجهاد بالسواحل وفتح قيسارية الشام وفيها مات هلاكو بن طلو بن جنكزخان واستقر ولده ابغا على ما كان بيد والده من الممالك وهى مملكة خراسان وكرسيها نيسابور وعراق العجم وكرسيها أصفهان وعراق العرب وكرسيها بغداد ومملكة

فانهزم الكفار ثانيا فقتل كثير منهم وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم وخلصوهم ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة لاجل الغنيمة وسبب ذلك ان أميرا منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الاتراك الخلج كان شجاعا مقداما ذا رأى فى الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعبا وهو الذى كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزم شاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الاميران فى الغنيمة فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق أنا أهزم الكفار ويقتل أخى لاجل هذا السحت فغضب وفارق العسكر وسار الى الهند فتبعه من العسكر ثلاثون ألفا كلهم يريدونه فاستعطفه جلال الدين بكل طريق وسار بنفسه اليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فبينما هم كذلك اذ ورد الخبر ان جنكزخان قد وصل فى جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لاجل من فارقهم من العسكر ولم يقدر على المقام سار نحو بلاد الهند فوصل الى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره مسرعا فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان فى التتر فاضطر المسلمون حينئذ الى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا فى ذلك كالاشقر ان تأخر ينحر وان تقدم يعقر فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم أن كل ما مضى من الحروب كان لعبا بالنسبة الى هذا القتال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الامير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل فى الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فابعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فارسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا فلما كان الغد عاد الكفار الى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء الى جهة الهند وبعدهم فلما وصلوا اليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والمحامى فقتلوا أهلها ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ولم يبق أحد وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها كذلك ونهبوا وقتلوا وأحرقوا فأصبحت تلك الاعمال جميعها خالية من الانيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس

﴿ذكر تسليم الاشرف خلاط الى أخيه شهاب الدين غازى﴾

أواخر هذه السنة أقطع الملك الاشرف موسى بن العادل مدينة خلاط وجميع الاعمال أرمينية ومدينة ميافارقين من ديار بكر ومدينة حانى أخاه شهاب الدين غازى بن العادل وأخذ منه مدينة الرها ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره الى خلاط أول سنة ثمان عشرة وستمائة وسبب ذلك ان الكرج لما قصد التتر بلادهم وهزموهم ونهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها أرسلوا الى اوزبك صاحب اذربيجان واران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر وأرسلوا الى الملك الاشرف فى هذا المعنى وقالوا للجميع ان لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم ودفعهم عن بلادنا وتحضروا بنفوسكم وعساكركم لهذا المهم والا صالحناهم عليكم فوصلت رسلهم الى الاشرف وهو يتجهز الى الديار المصرية لاجل الفرنج وكانوا عنده أهم الوجوه لاسباب أولها ان الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط وقد أشرفت الديار المصرية على ان تملك ولو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لاحد وثانيها ان الفرنج أشد شكيمة وطالبو ملك فاذا ملكوا قرية لا يفارقونها الا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوما واحدا وثالثها ان الفرنج قد طمعوا فى كرسى مملكة البيت العادلى وهى

شيراز وديار بكر وكرسيها الموصل وبلاد الروم وكرسيها قونية وما بين هذه الممالك من البلاد الكثيرة (وفى سنة أربع وستين وستمائة) سار الملك الظاهر الى دمشق بعساكره وفتح صفد بعد حصارها وأخذها بالامان وقتل كل من بها وبث عساكره ففتحوا بلاد طرابلس وبلاد سيس وقتل فى عوده الى مصر أهل قارة ونهبهم وكانوا نصارى مباطنين على المسلمين (وفى سنة خمس وستين وستمائة) توجه الملك الظاهر من مصر الى دمشق وأقام بها خمسة أيام ثم عاد (وفى سنة ست وستين وستمائة) توجه أيضا الى الشام وفتح يافا ونازل انطاكية وفتحها بالسيف وأخذ بغراص ودربساك وشيح الحديد وغالب تلك النواحى وعاد الى مصر (وفى سنة سبع وستين وستمائة) خرج الظاهر وعاد الى مصر خفية ثم عاد الى الشام وتوجه الى الكرك ثم توجه الى الحجاز الشريف وزار النبى صلى الله عليه وسلم وحج وعاد الى الكرك فى سلخ الحجة وتوجه الى دمشق فوصل اليها بغتة وفى يومه توجه الى حماة وساعة وصوله اليها توجه الى حلب فلم يشعر به أهلها الا وهو معهم فى الموكب وعاد الى دمشق

مصر والتتر لم يصلوا اليها ولم يجاوزوا اشيأ من بلادهم وايسوا أيضا ممن يريد المنازعة في الملك وما غرضهم الا النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد الى آخر فلما أتاه رسل الكرج بما ذكرناه أجابهم يعتذر بالمسير الى مصر لدفع الفرنج ويقول لهم انني قد أقطعت ولاية خلاط لاخي وسيرته اليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فتى احتجتم الى نصرته حضر لدفع التتر وسار هو الى مصر كما ذكرناه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في ربيع الآخر ملك بدر الدين قلعة تل اعفر وفيها في جمادى الاولى ملك الاشرف مدينة سنجار وفيها أيضا وصل الموصل وأقام بظاهرها ثم سار يريد اربل لقصد صاحبها فترددت الرسل بينهم في الصلح فاصطلحوا في شعبان وقد تقدم هذا جميعه مفصلا سنة خمس عشرة وستمائة وفيها وصل التتر الى الري فملكوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها وساروا عنها فوصلوا الى همذان فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل فابقوا على أهلها وساروا الى اذربيجان فخربوا وحرقوا البلاد وقتلوا وسبوا وعملوا مالم يسمع بمثله وقد تقدم أيضا مفصلا وفيها توفي نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الذي كان وزير الخليفة وصلى عليه بجامع القصر وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد وفيها توفي صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجويني شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان موته بالموصل ورد هارسولا وكان فقيها فاضلا وصوفيا صالحا من بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نعم الرجل وفيها عاد جمع بني معروف الى مواضعهم من البطيحة وكانوا قد ساروا الى الاجنا والقطيف فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم فقصدوا شحنة البصرة وطلبوا منه أن يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم فكتب معهم بذلك وسيرهم مع أصحابه الى بغداد فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا

﴿ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج﴾

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي قتادة بن ادريس العلوى ثم الحسيني أمير مكة حرسها الله وكان عمره نحو سبعين سنة وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وله قلعة ينبع بنواحي المدينة وكثر عسكره واستكثر من المماليك وخافه العرب في تلك البلاد خوفا عظيما وكان أول ما ملكه لما ملك مكة حرسها الله حسن السيرة أزال عنها العبيد المفسدين وحمى البلاد واحسن الى الحجاج وأكرمهم وبقي كذلك مدة ثم انه بعد ذلك اساء السيرة وجدد المكوس بمكة وفعل أفعالا شنيعة ونهب الحاج في بعض السنين كما ذكرناه ولما مات ملك بعده ابنه الحسن وكان له ابن آخر اسمه راجح مقيم في العرب بظاهر مكة يفسد وينازع أخاه في ملكه فلما سار حاج العراق كان الامير عليهم مملوكا من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه اقباش وكان حسن السيرة مع الحاج في الطريق كثير الحماية فقصده راجح بن قتادة وبذل له وللخليفة مالا ليساعده على ملك مكة فأجابه الى ذلك ووصلوا الى مكة ونزلوا بالزاهر وتقدم الى مكة مقاتلا لصاحبها حسن وكان حسن قد جمع جموعا كثيرة من العرب وغيرها فخرج اليه من مكة وقاتله وتقدم أمير الحاج من بين يدى عسكره منفردا وصعد الجبل ادلالا بنفسه وانه لا يقدم أحد عليه فأحاط به أصحاب حسن وقتلوه وعلقوا رأسه فانهزم عسكر أمير المؤمنين وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم فارسل اليهم حسن عمامته أمانا للحجاج فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيأ وسكن

الناس

فوصل اليها بغتة ثم توجه الى القدس ثم الى القاهرة دخلها في ثالث صفر من سنة ثمان وستين وستمائة ثم عاد الى الشام وغار على عكا وتوجه الى دمشق ثم الى حماة وجهز عسكرا الى الاسماعيلية بمصياف وتسلمها في رجب ثم عاد الى دمشق ثم الى مصر (وفي سنة تسع وستين وستمائة) توجه الملك الظاهر من مصر ونازل حصن الاكراد وفتحها بالامان ثم حصن عكا فأخذه بالامان وعمل عيد رمضان وأنشده محيي الدين بن عبد الظاهر

يا مليك الارض بشرا لك فقدنلت الاراده
ان عكار يقتنا هي عكا وزياده

وتوجه الى دمشق وعاد الى مصر (وفي سنة سبعين وستمائة) خرج أيضا الى الشام وعزل اقوش النجيبي عن نيابة دمشق وولى مكانه اندكين الفخرى ثم توجه الى حصن الاكراد وعاد الى دمشق وبلغه الخبر بوصول التتر الى عين تاب فتوجه الى حلب ثم عاد الى مصر وبعد أربعة أشهر عاد الى الشام (وفي محرم سنة احدى وسبعين وستمائة) عاد الى مصر جريدة وأقام بالقلعة خمسة عشر يوما ثم عاد الى الشام وتسلم صهيون بوفاة صاحبها سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان وبلغه ان التتر حاصروا البيرة فتوجه اليها وهزم التتر عنها وصارت للمسلمين وعاد الى مصر ودخلها في خامس جمادى الآخرة (وفي سنة اثنتين

الناس وأذن لهم حسن في دخول مكة وفعل ما يريدونه من الحج والبيع وغير ذلك وأقاموا بمكة عشرة أيام وعادوا فوصلوا الى العراق سالمين وعظم الامر على الخليفة فوصلت رسل حسن يعتذرون ويطلبون العفو عنه فأجيب الى ذلك وقيل في موت قتادة ان ابنه حسنا خنقه فمات وسبب ذلك أن قتادة جمع جموعا كثيرة وسار عن مكة يريد المدينة فنزل بوادى الفرع وهو مريض وسير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة فلما أبعدوا بلغ الحسن ان عمه قال لبعض الجند ان أخي مريض وهو ميت لا محالة وطلب منهم ان يحلفوا له ليكون هو الامير بعد أخيه قتادة فحضر الحسن عند عمه واجتمع اليه كثير من الاجناد والمماليك الذين لابيه فقال الحسن لعمه قد فعلت كذا وكذا فقال لم أفعل فأمر حسن الحاضرين بقتله فلم يفعلوا وقالوا أنت أمير وهذا أمير ولا نمد أيدينا الى أحد كما فقال له غلامان لقتادة نحن عبيدك فمرنا بما شئت فأمرهما ان يجعلا عمامة عمه في عنقه ففعلا ثم قتله فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ وحلف ليقتلن ابنه وكان على ما ذكرناه من المرض فكتب بعض أصحابه الى الحسن يعرفه الحال ويقول له ابدأ به قبل ان يقتلك فعاد الحسن الى مكة فلما وصلها قصد دار أبيه في نفر يسير فوجد على باب الدار جمعا كثيرا فأمرهم بالانصراف الى منازلهم ففارقوا الدار وعادوا الى مساكنهم ودخل الحسن الى أبيه فلما رآه أبوه شتمه وبالغ في ذمه وتهديده فوثب اليه الحسن فخنقه لوقته وخرج الى الحرم الشريف وأحضر الاشراف وقال ان أبي قد اشتد مرضه وقد أمركم أن تحلفوا الى أن أكون أنا أميركم فحلفوا له ثم انه أظهر تابوتا ودفنه ليظن الناس أنه مات وكان قد دفنه سرا فلما استقرت الامارة بمكة له أرسل الى أخيه الذي بقلعة الينبع على لسان أبيه يستدعيه وكتم موت أبيه عنه فلما حضر أخوه قتله أيضا واستقر أمره وثبت قدمه وفعل بأمير الحاج ما تقدم ذكره فارتكب عظيما قتل أباه وعمه وأخاه في أيام يسيرة لا جرم لم يمهله الله سبحانه وتعالى نزع ملكه وجعله طريدا شريدا خائفا يترقب وقيل ان قتادة كان يقول شعرا فمن ذلك انه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فامتنع فعوتب من بغداد فأجاب بأبيات شعر منها

ولي كف ضرغام أذل ببطشها * وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الارض تلثم ظهرها * وفي وسطها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرحا ثم ابتغى * خلاصا لها اني اذا لرقيع
وما أنا الا المسك في كل بلدة * يضوع وأما عندكم فيضيع

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج وقد تقدم ذكرها مشروحا مفصلا وفيها في صفر ملك التتر مراغة وخربوها واحرقوها وقتلوا أكثر أهلها ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وسار التتر منها الى همذان وحصروها فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر وقتلوا منهم ما لا يحصى ونهبوا البلد وساروا الى اذربيجان فأعادوا النهب ونهبوا ما بقي من البلاد ولم ينهبوه أولا ووصلوا الى بيلقان من بلاد أران فحصروها وملكوا وقتلوا أهلها حتى كادوا يفنونهم وقتل منهم كثير ونهبت أموالهم وأكثر بلادهم وقصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخي وملكوها وقتلوا كثيرا من أهلها وساروا الى بلد اللان واللكز ومن عندهم من الامم فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق واجلوهم عنها واستولوا عليها وساحوا في تلك الارض حتى وصلوا الى بلاد الروس وقد تقدم ذكر جميعه مستقصى وانما أوردناه ههنا جملة ليعلم الذي كان في هذه السنة من

وسبعين وستمائة) استقرت بنو مرين من ملوك الغرب وانقرضت دولة عبد المؤمن وفيها توفي الشيخ العلامة جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن مالك الطائي الجياني وفضله مشهور وفيها توفي ببغداد العلامة نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي ومولده حادي عشر جمادى الاولى سنة سبع وتسعين وخمسمائة (وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة) توجه الملك الظاهر الى بلاد سيس وغنم وعاد الى دمشق وأقام بها فبلغه ان التتر نازلوا البيرة فخرج اليهم في أوائل سنة أربع وسبعين وستمائة فجاءه الخبر في القطيفة انهم رحلوا عنها فأتم السير الى حلب ثم عاد الى مصر وجهز عساكره الى النوبة فنهبوا وقتلوا وعادوا بالغنائم (وفي سنة خمس وسبعين وستمائة) بلغه ان امراء الروم وفدوا اليه فخرج من مصر ولاقاهم الى حلب ثم عاد الى مصر ثم خرج من مصر في العشرين من رمضان ووصل الى دمشق ثم توجه الى النهر الازرق ثم البلستين والتقى مع التتر فانهزموا وقتل منهم واسر ومن جملة من اسر قفجق وسلار الآتي ذكرهما فيما بعد ان شاء الله تعالى ثم سار الى قيسارية وأخذها وخطب له على منابرها ثم عاد الى العمق وأقام به شهرا ثم توجه الى دمشق فوصلها خامس المحرم سنة ست وسبعين وستمائة وفي السابع والعشرين من المحرم هذا مات السلطان

حوادثهم وفيها توفى صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلي ولم يكن فى زمانه من يكتب مايقاربه ولا من يؤدى طريقة ابن البواب مثله وكان ذا فضائل جمة من علم الادب وغيره وكان كثير الخير نعم الرجل مشهورا فى الدنيا والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له ولهم فيه أقوال كثيرة نظما ونثرا فمن ذلك ماقاله نجيب الدين الحسين بن على الواسطى من قصيدة يمدحه بها

جامع شارد العلوم ولولا * ه لكانت أم الفضائل ثكلى
ذو يراع تخاف سطوته الاسـ * ـد وتعنوله الكتائب ذلا
واذا افترثغره عن سواد * فى بياض فالبيض والسمر خجلى
أنت بدر والكاتب بن هلال * كأبيه لافخر فيمن تولى
ان يكن أولا فانك بالتفـ * ـضيل أولى لقد سبقت وصلى

ومنها وهى طويلة والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذى هو أشهر من ان يعرف وفيها توفى جلال الدين الحسن وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكره صاحب ألموت وكر دكوه وهو مقدم الاسماعيلية وقد ذكرنا أنه كان قد أظهر شعائر الاسلام من الاذان والصلاة وولى بعده ابنه علاء الدين محمد

﴿ ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة ﴾

﴿ ذكر خروج طائفة من قفجاق الى اذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم ﴾

لما استولى التتر على أرض قفجاق تفرق قفجاق فطائفة قصدت بلاد الروس وطائفة تفرقت فى جبالهم واجتمع طائفة كثيرة منهم وساروا الى دربند شروان وأرسلوا الى صاحبه واسمه رشيد وقالوا له ان التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا وقد قصدناك لنقيم فى بلادك ونحن مماليكك ونفتح البلاد لك وأنت سلطاننا فمنعهم من ذلك وخافهم فاعادوا الرسالة اليه اننا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك والانقياد لحكمك فلم يجبهم الى ماطلبوا فسألوه ان يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة فاذا اشتروا مايحتاجون اليه فارقوا بلاده فاجابهم الى ذلك فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون مايريدون ويخرجون ثم ان بعض كبرائهم والمقدمين منهم جاء الى رشيد وقال انى كنت فى خدمة السلطان خوارزمشاه وأنا مسلم والدين يحملنى على نصحك اعلم ان قفجاق أعداؤك ويريدون الغدر بك فلا تمكنهم من المقام ببلادك فاعطنى عسكرا حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد ففعل ذلك وسلم اليه طائفة من عسكره وأعطاهم مايحتاجون اليه من سلاح وغيره فسار وامعه فاوقعوا بطائفة من قفجاق فقتل منهم جماعة ونهب منهم فلم يتحرك قفجاق لقتال بل قالوا نحن مماليك الملك شروان شاه رشيد ولولا ذلك لقاتلنا عسكره فلما عاد ذلك المقدم القفجاقى ومعه عسكر رشيد سالمين فرح بهم ثم ان قفجاق فارقوا موضعهم فساروا ثلاثة أيام فقال ذلك القفجاقى لرشيد أريد عسكرا أتبعهم فامر له من العسكر بما أراد فسار يقفو أثر القفجاق فاوقع باواخرهم وغنم منهم وقصده جمع كثير من قفجاق من الرجال والنساء يبكون وقد جزوا شعورهم ومعهم تابوت وهم محيطون به يبكون حوله وقالوا له ان صديقك دلانا قدمات وقد أوصى أن نحمله اليك فتدفنه فى أى موضع شئت ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يبكون عليه أيضا وعاد الى شروان شاه رشيد وأعلمه ان الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله أن يكونوا عنده فى خدمته فامر ان يدخلوا البلد وأنزلهم

الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس الصالحي النجمي بدمشق قيل انه انكسف القمر كسوفا كليا وتحدث المنجمون انه يموت رجل جليل القدر فقصد الملك الظاهر أن يظهر ذلك فى غيره فاستدعى شخصا من الايوبية اسمه الملك القاهر من ولد الناصر داود بن المعظم عيسى وسقاه خمرا مسموما ثم شرب هو فى ذلك القدح غير مسموم وكان به شئ من بقايا سم فماتا معا ودفن الملك الظاهر بدمشق سرا وأظهر أنه فى محفة متوجها الى القاهرة فلما أدخل خزانته بقلعة الجبل أظهروا موته وبايعوا ولده الملك السعيد بركة فكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وشهورا وأصله مملوك قفجاقى أسمر اللون أزرق العينين عرض على المنصور صاحب حماة فما أعجبه فاشتراه ايدكين البندقدار الصالحى وهو محبوس بقلعة حماة فى جامعها وبعد ان أفرج عنه قدمه لاستاذه الملك الصالح أيوب صاحب مصر (وفى سنة ثمان وسبعين وستمائة) خلع الملك السعيد بركة وأعطى الكرك واستقر فى سلطنة مصر أخوه سلامش ولقبوه الملك العادل وعمره سبع سنين وشهور واستقر الامير سيف الدين قلاوون الصالحى اتابك العساكر المنصورة واستمر شمس الدين سنقر فى نيابة دمشق وأقوس الشمسى فى نيابة حلب وبعد أربعة أشهر وعشرة أيام يوم الاحد

فيه فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدم ويركبون بركوبه ويصعدون معه الى القلعة التى لرشيد ويقعدون عنده ويشربون معه هم ونساؤهم فاحب رشيد امرأة ذلك الرجل الذى قيل له انه ميت ولم يكن مات وانما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذى أظهروا موته معهم فى المجلس ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمى قفجاق فبقوا كذلك عدة أيام فكل يوم يجئ جماعة من قفجاق متفرقين فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد وملك بلاده ففطن لذلك فخرج عن القلعة من باب السر وهرب ومضى الى شروان وملك قفجاق القلعة وقالوا لاهل البلد نحن خير لكم من رشيد وأعادوا باقى أصحابهم اليهم وأخذوا السلاح الذى فى البلد جميعه واستولوا على الاموال التى كانت لرشيد فى القلعة ورحلوا عن القلعة وقصدوا قبلة وهى للكرج فنزلوا عليها وحصروها فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع اليها وملكها وقتل من بها من قفجاق ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك فارسلوا طائفة منهم الى القلعة فقتلهم رشيد أيضا فبلغ الخبر الى القفجاق فعادوا الى دربند فلم يكن لهم فى القلعة طمع وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل اليهم وقال لهم أنا أرسل الى ملك الكرج حتى يرسل اليكم الخلع والاموال ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد فكفوا عن نهب ولايته أياما ثم انهم مدوا أيديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها وساروا الى قريب كنجة من بلاد اران وهى للمسلمين فنزلوا هناك فارسل اليهم الامير بكنجة وهو مملوك لاوزبك صاحب اذربيجان اسمه كوشخرة عسكرا فمنعهم من الوصول الى بلاده وسير رسولا اليهم يقول لهم غدرتم بصاحب شروان وأخذتم قلعته وغدرتم بصاحب قبلة ونهبتم بلاده فلا يثق بكم أحد فاجابوا اننا ماجئنا الا قصدا لخدمة سلطانكم فمنعنا شروان شاه عنكم فلهذا قصدنا بلاده وأخذنا قلعته ثم تركناها من غير خوف وأما صاحب قبلة فهو عدو لكم ولو أردنا أن نكون عند الكرج لما كنا جعلنا طريقنا على دربند شروان فانه أصعب وأشق وأبعد وكنا جئنا الى بلادهم على عادتنا ونحن نوجه الرهائن اليكم فلما سمع هذا سار اليهم فسمع به قفجاق فركب أميران منهم هما مقدماهم فى نفر يسير وجاؤا اليه ولقوه وخدموه وقالوا له قد أتيناك جريدة فى قلة من العدد لتعلم اننا ماقصدنا الا الوفاء والخدمة لسلطانكم فامرهم كوشخرة بالرحيل والنزول عند كنجة وتزوج ابنة أحدهم وأرسل الى صاحبه أوزبك يعرفه حالهم فامر لهم بالخلع والنزول بجبل كيلكون ففعلوا ذلك وخافهم الكرج فجمعوا لهم ليكبسوهم فوصل الخبر بذلك الى كوشخرة أمير كنجة فاخبر قفجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة فعادوا ونزلوا عندها وسار أمير من أمراء قفجاق فى جمع منهم الى الكرج فكبسهم وقتل كثيرا منهم وهزمهم وغنم مامعهم وأكثر القتل فيهم والاسر منهم وتمت الهزيمة عليهم ورجع قفجاق الى جبل كيلكون فنزلوا فيه كما كانوا فلما نزلوا أراد الامير الآخر من أمراء قفجاق ان يؤثر فى الكرج مثل مافعل صاحبه فسمع كوشخرة فارسل اليه ينهاه عن الحركة الى ان يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار الى بلادهم فى طائفته ونهب وخرب وأخذ الغنائم فسار الكرج من طريق يعرفونها وسبقوه فلما وصل اليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غرة وغفلة فوضعوا السيف فيهم وأكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقبح حالة وقصدوا برذعة وأرسلوا الى كوشخرة يطلبون ان يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكرج فيأخذوا بثارهم منهم فلم يفعل وأخافهم وقال أنتم خالفتمونى وعملتم برأيكم فلا أنجدكم بفارس واحد فارسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم فلم يعطهم فاجتمعوا وأخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن فثار بهم المسلمون من أهل

ثانى عشر رجب جلس قلاوون فى دست السلطنة وخلع سلامش وتلقب بالملك المنصور وفى رابع عشر ذى القعدة منها جلس سنقر فى دست السلطنة بدمشق وحلف أمراءها وتلقب بالملك الكامل وكان عيسى بن مهنا ملك الغرب معه ومات الملك السعيد بركة فى الكرك ونقل الى دمشق ودفن عند والده الظاهر واستقر أخوه نجم الدين خضر ولقب الملك المسعود (وفى سنة تسع وسبعين وستمائة) جهز الملك المنصور عساكره الى دمشق وخرج اليهم سنقر الاشقر بعساكره وعيسى بن مهنا فانكسروا واستقر بدمشق مكانه حسام الدين لاجين نائب قلعة دمشق فانه لم يكن وافق سنقر ومات نائب حلب واستقر مكانه علم الدين سنجر الباشغردى وكان سنقر الاشقر هرب الى شيرز فاستقر السلطان بالشغر وبكاس (وفى سنة ثمانين وستمائة) قصد بغا بن هلاكو الشام وحشد ووصل الى الرحبة وسير جيشه الى الشام مع أخيه منكوتمر وخرج السلطان الملك المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره واجتمعت اليه نواب الشام وسائر عساكر الاسلام حتى سنقر الاشقر والتقى الجمعان بظاهر حمص الضحوة الكبرى من يوم الخميس رابع عشر رجب وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس غير الاتباع

البلاد وقاتلوهم فقتلوا منهم جماعة كثيرة نخافوا وسار وا نحو شروان وجاز وا الى بلد اللكز فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكز وغيرهم فاقنوهم قتلا ونهبا وأسرا وسبيا بحيث ان المملوك منهم كان يباع فى دربند شروان بالثمن البخس

﴿ ذكر نهب الكرج بيلقان ﴾

فى هذه السنة فى شهر رمضان سار الكرج من بلادهم الى بلاد اران وقصدوا مدينة بيلقان وكان التتر قد خربوها ونهبوها كما ذكرناه قبل فلما سار التتر الى بلاد قفجاق عاد من سلم من أهلها اليها وعمروا ما أمكنهم عمارته من سورها فبينما هم كذلك اذ أتاهم الكرج ودخلوا البلد وملكوه وكان المسلمون فى تلك البلاد ألفوا من الكرج انهم اذا ظفروا ببلد صانعوهم بشئ من المال فيعودون عنهم فكانوا أحسن الاعداء مقدرة فلما كان هذه الدفعة ظن المسلمون أنهم يفعلون مثل ما تقدم فلم يبالغوا فى الامتناع منهم ولا هربوا من بين أيديهم فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف فى أهلها وفعلوا من القتل والنهب ما فعل بهم التتر هذا جميعه يجرى وصاحب بلاد اذربيجان أوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز ولا يتحرك فى صلاح ولا يتجه لخير بل قد قنع بالاكل وادمان الشرب والفساد فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمد وآله

﴿ ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش ﴾

فى هذه السنة ملك بدر الدين صاحب الموصل قلعة شوش من أعمال الحميدية وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخا وسبب ذلك انها كانت هى وقلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكى بن ارسلانشاه وكان بينهما من الخلف ما تقدم ذكره فلما كان هذه السنة سار زنكى الى اذربيجان ليخدم صاحبها أوزبك بن البهلوان فاتصل به وصار معه وأقطعه اقطاعات وأقام عنده فسار بدر الدين الى قلعة شوش فحاصرها وضيق عليها وهى على رأس جبل عال فطال مقامه عليها لحصانتها فعاد الى الموصل وترك عسكره محاصرا لها فلما طال الامر على من بها ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سلموها على قاعدة استقرت بينهم من اقطاع وخلع وغير ذلك فتسلمها نوابه فى التاريخ ورتبوا أمورها وعادوا الى الموصل

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة فى العشرين من شعبان ظهر كوكب فى السماء فى الشرق كبير له ذؤابة طويلة غليظة وكان طلوعه وقت السحر فبقى كذلك عشرة أيام ثم انه ظهر أول الليل فى الغرب مما يلى الشمال فكان كل ليلة يتقدم الى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع فى رأى العين فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غربا محضا ثم صار غربا مائلا الى الجنوب بعد ان كان غربا مما يلى الشمال فبقى كذلك الى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب وفيها توفى ناصر الدين محمود بن محمد قرا ارسلان صاحب حصن كيفا وآمد وكان ظالما قبيح السيرة فى رعيته قيل انه كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة فى ان الاجساد لا تحشر كذبوا لعنهم الله ولما مات ملك ابنه الملك المسعود

﴿ ثم دخلت سنة عشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى ﴾

فى هذه السنة سار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر الى مكة وصاحبها

فنصر الله المسلمين وقتلوا وأسروا وغنموا ما لا يحصى ووصل الخبر الى ابغا وهو يحاصر الرحبة فرحل عنها منهزما ومات أخوه منكوتمر منهزما بجزيرة ابن عمر واتهم ابغا علاء الدين عطاء ملك بن محمد الجوينى صاحب الديوان ببغداد بمواطأة المسلمين فاخذ أمواله وقتله وكان من الفضلاء العظام ومن شعره فى تركية

أبادية الاعراب عنى فاننى
بحاضرة الاتراك نيطت علائقى
وأهلك يا نجل العيون فاننى
جننت بهذا الناظر المتضايق

وعاد المنصور الى مصر منصورا (وفى سنة احدى وثمانين وستمائة) مات ابغا بن هلاكو ببلاد همذان وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وشهورا وملك بعده أخوه أحمد سلطان بن هلاكو وأرسل الشيخ قطب الدين محمود الشيرازى وكان اذ ذاك قاضيا بسيواس الى الملك المنصور قلاوون ومضمون رسالته انه يسلم ويطلب الصلح مع المسلمين فلم ينتظم وعزل السلطان نائب حلب واستقر فيها اقرا سنقر * وفيها توفى القاضى العلامة شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبى بكر بن خلكان البرمكى ومولده على ما ذكر هو فى تاريخه يوم الخميس بعد صلاة العصر حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستمائة بمدينة اربل بمدرسة سلطانها مظفر الدين (وفى سنة اثنتين

حينئذ

حينئذ حسن بن قتادة بن ادريس العلوى الحسينى قد ملكها بعد أبيه كما ذكرناه وكان حسن قد أساء الى الاشراف والمماليك الذين كانوا لابيه وقد تفرقوا عنه ولم يبق عنده غير أخواله من غيره فوصل صاحب اليمن الى مكة ونهبها عسكره الى العصر فحدثنى بعض المجاورين المتأهلين انهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة ويحرق فنبشوه فظهر التابوت الذى دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون اليه فلم يروا فيه شيأ فعلموا حينئذ ان الحسن دفن أباه سرا وانه لم يجعل فى التابوت شيأ وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم وعجل الله مقابلته وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمه لاجله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

﴿ ذكر حرب بين المسلمين والكرج بارمينية ﴾

فى هذه السنة فى شعبان سار صاحب قلعة سرمارى وهى من أعمال أرمينية الى خلاط لانه كان فى طاعة صاحب خلاط وهو حينئذ شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب فحضر عنده واستضاف ببلده أميرا من أمرائه فجمع هذا الامير جمعا وسار الى بلاد الكرج فنهب منها عدة قرى وعاد فسمعت الكرج بذلك فجمع صاحب دوين واسمه شلوه وهو من أكابر أمراء الكرج عسكره وسار الى سرمارى فحصرها أياما ونهب بلدها وسوادها ورجع فسمع صاحب سرمارى الخبر فعاد الى سرمارى فوصل اليها فى اليوم الذى رحل الكرج عنها فاخذ عسكره وتبعهم فأوقع بساقتهم فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده ثم ان صاحب دوين جمع عسكره وسار الى سرمارى ليحصرها فوصل الخبر الى صاحبها بذلك فحصنها وجمع الذخائر وما يحتاج اليه فأتاه من أخبره ان الكرج نزلوا بواد بين دوين وسرمارى وهو واد ضيق فسار بجميع عسكره جريدة وجد السير ليكبس الكرج فوصل الى الوادى الذى هم فيه وقت السحر ففرق عسكره فرقتين فرقة من أعلى الوادى وفرقة من أسفله وحملوا عليهم وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأسروا فكان فى جملة الاسرى شلوه أمير دوين فى جماعة كثيرة من مقدميهم ومن سلم من الكرج عاد الى بلدهم على حال سيئة ثم ان ملك الكرج أرسل الى الملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وهو الذى أعطى خلاط وأعمالها الامير شهاب الدين يقول له كنا نظن اننا على صلح والآن فقد عمل صاحب سرمارى هذا العمل فان كنا على الصلح فنريد اطلاق أصحابنا من الاسر وان كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا فارسل الاشرف الى صاحب سرمارى يأمره باطلاق الاسرى وتجديد الصلح مع الكرج ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح وأطلق الاسرى

﴿ ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله ﴾

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة انهزم ايغان طائسى وهو خال غياث الدين بن خوارزمشاه محمد ابن تكش وهذا غياث الدين هو صاحب بلاد الجبل والرى وأصبهان وغير ذلك وله أيضا بلاد كرمان وكان سبب ذلك ان خاله ايغان طائسى كان معه وفى خدمته وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين الا عن رأيه والحكم اليه فى جميع المملكة فلما عظم شأنه حدثته نفسه بالاستيلاء على الملك وحسن له ذلك غيره وأطمعه فيه قيل ان الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سرا وأمره بذلك فقويت نفسه على الخلاف فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين وخرج عن طاعته أو زبك وصار فى البلاد يفسد ويقطع الطريق وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها وانضاف اليه جمع كثير من أهل العنف والفساد ومعه مملوك آخر اسمه ايبك

وثمانين وستمائة) خرج أرغون بن ابغا بن هلاكو على عمه أحمد سلطان لكونه أسلم وأمر التتر بالاسلام فانكسر وأسره أحمد ثم اتفقت التتر وأخرجت أرغون من الاعتقال وركبوا على أحمد سلطان وقتلوه وملكوا أرغون فقرر ولديه قازان وخربندا بخراسان وفى رجب قدم السلطان المنصور الى دمشق وجاءها فى شعبان سيل عظيم وخرب عمائر كثيرة واقتلع أشجارا غزيرة وأخذ من الجمال والخيل والغنم ما لا يحصى ورجع السلطان الى مصر (وفى سنة ثلاث وثمانين وستمائة) عاد السلطان الى دمشق وجاء اليه الملك المنصور صاحب حماة ثم عاد كل منهما الى بلده ومات صاحب حماة الملك المنصور محمد بن المنصور عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى شوال وعمره احدى وخمسون سنة وستة أشهر وأربعة أيام وكان ملكا حليما قدم مرة الظاهر بيبرس الى حماة فرفع اليه الحمويون عدة قصص بالشكوى على المنصور فجمعها الظاهر وأرسلها اليه وخاف الحمويون عاقبة ذلك فأمر المنصور باحضار نار وأحرق القصص كلها ولم يعلم أحد ولا هو ما كان فيها بحيث لا يتغير خاطره على أحد منهم واستقر بعده الملك المظفر محمود وجاءه التشريف من سلطان مصر (وفى سنة أربع وثمانين وستمائة) قدم

الشامي كانا متفقين على العصيان فقوي بهما وسار واجتمعهم الى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها فجمع غياث الدين عسكره والتقوا بنواحي (٣) واقتتلوا فانهزم خال غياث الدين ومن معه وقتل من عسكره وأسر كثير وعاد المنهزمون الى اذربيجان على أقبح حال وأقام غياث الدين في بلاده وثبت قدمه

(حادثة غريبة لم يوجد مثلها)

كان أهل مملكة الكرج لم يبق منهم غير امرأة وقد انتهى الملك اليها فوليته وقامت بالامر فيهم وحكمت فطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها ويكون من أهل بيت مملكة فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الامر وكان صاحب ارزن الروم هذا الوقت هو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج ارسلان بن مسعود قلج ارسلان وبيته مشهور من أكابر ملوك الاسلام وهم من الملوك السلجوقية وله ولد كبير فارسل الى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من اجابته وقالوا لا نفعل هذا لاننا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم فقال لهم ان ابني يتنصر و يتزوجها فأجابوه الى ذلك فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية وتزوج الملكة وانتقل اليها وأقام عند الكرج حاكما في بلادهم واستمر على النصرانية نعوذ بالله من الخذلان ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها وخير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاه ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها فكان زوجها يسمع عنها القبائح ولا يمكنه الكلام لعجزه ثم انه يوما دخل عليها فرآها نائمة مع مملوك لها في فراش فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه فقالت ان رضيت بهذا والا فأنت أخبر فقال اني لا أرضى بهذا فنقلته الى بلد آخر ووكلت به من يمنعه من الحركة وحجرت عليه وأرسلت الى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة فتزوجت أحدهما فبقي معها يسيرا ثم انها فارقته وأحضرت انسانا آخر من كنجة وهو مسلم فطلبت منه ان يتنصر ليتزوجها فلم يفعل فارادت أن تتزوجه وهو مسلم فقام عليها جماعة الامراء ومعهم ايواني وهو مقدم العساكر الكرجية فقالوا لها قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدين أن يتزوجك مسلم وهذا لا نمكن منه أبدا والامر بينهم متردد والرجل الكنجي عندهم لم يجبهم الى الدخول في النصرانية وهي تهواه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة كان الجراد في أكثر البلاد وأهلك كثيرا من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها وفيها في رمضان توفي عبد الرحمن بن هبة الله بن عساكر الفقيه الشافعي الدمشقي بها وكان غزير العلم عالما بالمذهب كثير الصلاح والزهد والخير رحمه الله وفيها تجمع العرب في خلق كثير على حجاج الشام وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم وكان الامير على الحجاج شرف الدين يعقوب بن محمد وهو من أهل الموصل أقام بالشام وتقدم فيه فمنعهم بالرغبة والرهبة ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك فأعطى الجميع من ماله ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد وفعل فعلا جميلا وكان عنده كثير من العلوم و يرجع الى دين متين

(ثم دخلت سنة احدى وعشرين وستمائة)

(ذكر عود طائفة من التتر الى الري وهمذان وغيرهما)

أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التي ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الري وكان من سلم من أهلها قد عادوا اليها وعمروها

الملك المنصور قلاوون الى دمشق وحاصر المرقب وأخذه (قال) السلطان عماد الدين في تاريخه كنت حاضره وعمري اثنتا عشرة سنة وعاد السلطان الى بحيرة حمص وورد عليه الخبر بولادة ولده السلطان الملك الناصر وعاد الى مصر مسرورا فرحا (وفي سنة خمس وثمانين وستمائة) أرسل قلاوون عسكرا حاصروا الكرك وأخذوها بالامان من خضر وسلامش ولدي الظاهر بيبرس ثم خرج اليها وقرر أمرها وعاد الى مصر (وفي سنة ثمان وثمانين وستمائة) توجه الملك المنصور قلاوون الصالحي بالعساكر الى طرابلس وحاصرها وفتحها بالسيف وغنم المسلمون مالا يحصى ثم هدمها الى الارض وكان لها مع الفرنج نحو مائة وخمسة وثمانين سنة (وفي سنة تسع وثمانين وستمائة) مات السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي فكانت مدة ملكه نحو احدى عشرة سنة وأربعة أشهر واستقر في السلطنة ولده الاشرف صلاح الدين خليل (وفي سنة تسعين وستمائة) توجه الاشرف خليل الى عكا بالعساكر المنصورة المصرية والشامية وحاصرها بعدة مجانيق وفتحها بالسيف وغنم المسلمون غنيمة عظيمة وهدمت الى الارض ورعبت الفرنج من ذلك فاخلوا صيدا و بيروت

فلم

فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا في أهلها السيف وقتلوهم كيف شاؤا ونهبوا البلد وخربوه وساروا الى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم الى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر أولا فانهم لم يقربوهما ولا أصاب أهلهما أذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ثم ساروا في البلاد يخربون و يقتلون و ينهبون ثم قصدوا همذان وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا وخربوا البلد وكانوا لما وصلوا الى الري رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون الى اذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا الا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم الى تبريز وأرسلوا الى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون ان كنت موافقنا فسلم الينا من عندك من الخوارزمية والا فعرفنا انك غير موافق لنا ولا في طاعتنا فعمد الى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وحمل الاسرى والرؤس الى التتر وأنفذ معها من الاموال والثياب والدواب شيأ كثيرا فعادوا عن بلاده نحو خراسان فعلوا هذا وليسوا في كثرة كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس وعسكر أوزبك أكثر من الجميع ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا الى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الاموال واسترقاق الاولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد

(ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس)

قد ذكرنا ان غياث الدين بن خوارزمشاه محمد كان بالري وله معها اصفهان وهمذان وما بينهما من البلاد وله أيضا بلاد كرمان فلما هلك أبوه كما ذكرناه وصل التتر الى بلاده وامتنع باصفهان وحصره التتر فيها فلم يقدروا عليها فلما فارق التتر بلاده وساروا الى بلاد قفجاق عاد وملك البلاد وعمر ما أمكنه منها وأقام بها الى أواخر سنة عشرين وستمائة وجرى له ما ذكرناه ففي آخر سنة عشرين سار الى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا الا وقد وصل غياث الدين الى أطراف بلاده فلم يتمكن من الامتناع فقصد قلعة اصطخر فاحتمى بها وسار غياث الدين الى مدينة شيراز وهي كرسي مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها بغير تعب أول سنة احدى وعشرين وستمائة وبقي غياث الدين بها واستولى على أكثر البلاد ولم يبق بيد سعد الدين الا الحصون المنيعة فلما طال الامر على سعد الدين صالح غياث الدين على أن يكون لسعد الدين من البلاد قسم اتفقوا عليه ولغياث الدين الباقي وأقام غياث الدين بشيراز وازداد اقامة وعزما على ذلك لما سمع ان التتر قد عادوا الى الري والبلاد التي له وخربوها

(ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الاشرف وأخذ خلاط منه)

كان الملك الاشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع اعمال ارمينية وأضاف اليها ميافارقين وحاني وجبل جور ولم يقنع بذلك حتى جعله ولي عهده في البلاد التي له جميعها وحلف له جميع النواب والعساكر في البلاد فلما سلم اليه ارمينية سار اليها كما ذكرناه وأقام بها الى آخر سنة عشرين وستمائة فأظهر مغاضبة أخيه الملك الاشرف والتجني عليه والعصيان والخروج عن طاعته فراسله الاشرف يستميله و يعاتبه على ما فعل فلم يرعو ولا ترك ما هو عليه بل أصر على ذلك واتفق هو وأخوه المعظم عيسى صاحب

وعثليث وانطرسوس وصور وخربت جميعها وخلت سواحل الشام من الفرنج وفيها كمل قراسنقر عمارة قلعة حلب وكان لها ثلاث وثلاثون سنة خرابا منذ خربها هلاكو (وفي سنة احدى وتسعين وستمائة) سار الملك الاشرف خليل بالعساكر الاسلامية الى قلعة الروم وحاصرها وفتحها بالسيف وقلعتها بالامان على أرواحهم وأسرهم وأخذ أموالهم ولما عاد السلطان عزل قراسنقر عن حلب وأخذه معه وولى مكانه بلبان الطباخي وعزل علم الدين سنجر الشجاعي عن دمشق وكان ولاه في حصار عكا دمشق عوضا عن حسام الدين لاجين وولى عز الدين ايبك الحموي عوضه (وفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة) توجه السلطان الاشرف من مصر الى الشام ونزل قريبا من حمص فجاءه مهنى ابن عيسى وأخوه محمد وفضل وولده موسى فقبض على الجميع وأرسل بهم الى قلعة الجبل ثم عاد الى مصر (وفي سنة ثلاث وتسعين وستمائة) قتل الملك الاشرف خليل ابن قلاوون الصالحي كان في الصيد في تروجة فركب عليه مماليك أبيه بيدرا ولاجين الذي كان نائبا بالشام وقراسنقر الذي كان نائبا بحلب وكان اذذاك راكبا يسير في قليل من خواصه فضربه بيدار ثم لاجين حتى فارق ثم حمله والي تروجة الى القاهرة ودفنه بتربته واجتمعت مماليك السلطان وتبعوا

دمشق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل على الخلاف للاشرف والاجتماع على محاربته وأظهروا ذلك وعلم الاشرف فارسل الى أخيه الكامل بمصر يعرفه ذلك وكانا متفقين وطلب منه نجدة فجهز العساكر وأرسل الى أخيه صاحب دمشق يقول له ان تحركت من بلدك سرت اليه وأخذته وكان قد سار نحو ديار الجزيرة للميعاد الذى بينهم فلما وصلت اليه رسالة أخيه وسمع بتجهيز العساكر عاد الى دمشق وأما صاحب اربل فانه جمع العساكر وسار الى الموصل فكان منه ما نذكره ان شاء الله وأما الاشرف فانه لما اتفق عصيان أخيه جمع العساكر من الشام والجزيرة والموصل وسار الى خلاط فلما قرب منها خافه أخوه غازى ولم يكن له قوة على أن يلقاه محاربا ففرق عسكره فى البلاد ليحصنها وانتظر أن يسير صاحب اربل الى ما يجاوره من الموصل وسنجار وأن يسير أخوه صاحب دمشق الى بلاد الاشرف عند الفرات الرقة وحران وغيرهما فيضطر الاشرف حينئذ الى العود عن خلاط فسار الاشرف اليه وقصد خلاط وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته كانت فيهم وسوء سيرة غازى فلما حصرها سلمها أهلها اليه يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الآخرة وبقى غازى فى القلعة ممتنعا فلما جنه الليل نزل الى أخيه معتذرا ومتنصلا فعاتبه الاشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين

﴿ذكر حصار صاحب اربل الموصل﴾

قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب اربل وشهاب الدين غازى صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الملك الاشرف فأما صاحب دمشق فانه سار عنها مراحل يسيرة وعاد اليها لان أخاه صاحب مصر أرسل اليه يتهدده ان سار عن دمشق انه يقصدها ويحصرها فعاد وأما غازى فانه استحصر فى خلاط وأخذت منه كما ذكرناه وأما صاحب اربل فانه جمع عسكره وسار الى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ظنا منه ان الملك الاشرف اذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج غازى فى طلبه فتتخبط أحواله وتقوى نفس صاحب دمشق على المجىء اليهم فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم أمورها من استخدام الجند على الاسوار واظهار آلة الحصار واخراج الذخائر وانما قوى طمع صاحب اربل على حصر الموصل لان أكثر عسكرها كان قد سار الى الملك الاشرف الى خلاط وقد قل العسكر فيها وكان الغلاء شديدا فى البلاد جميعها والسعر فى الموصل كل ثلاث مكاكى بدينار فلهذا السبب أقدم على حصرها فلما نزل عليها أقام عشرة أيام ثم رحل عنها يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان سبب رحيله انه رأى امتناع البلد عليه وكثرة من فيه وعندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير ووصل اليه خبر الملك الاشرف انه ملك خلاط فانفسخ عليه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق وبقى وحده متلبسا بالامر فلما وصلت الاخبار اليه بذلك سقط فى يده ورأى انه قد أخطأ الصواب فرحل عائدا الى بلده وأقام على الزاب ومدة مقامه على الموصل لم يقاتلها انما كان فى بعض الاوقات يجىء بعض الترك الذين له يقاتلون البلد فيخرج اليهم بعض الفرسان وبعض الرجالة فيجرى بينهم قتال ليس بالكثير ثم يتفرقون وترجع كل طائفة الى صاحبها

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة أول آب جاء ببغداد مطر برعد وبرق وجرت المياه بباب البصرة والحربية وكذلك

بيدرا فقتلوه ورفعوا رأسه على رمح واما لاجين وقراسنقر فاختفيا واتفقت الامراء على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى واستقر الامير زين الدين المنصورى فى نيابة السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيرا وجاس على سرير الملك فى العشر الاوسط من المحرم ثم ظفروا بمن كان مع قتلة الملك الاشرف من الامراء فامسكوا وقطعت أيديهم وأرجلهم ثم صلبوا وحصلت الشفاعة فى لاجين وقراسنقر فظهرا وأمرا (وفى سنة أربع وتسعين وستمائة) جلس كتبغا فى دست السلطنة وتلقب الملك العادل وضربت السكة وأقيمت الخطبة باسمه فى مصر والشام وجعل الملك الناصر محمد بن قلاوون فى قاعة محجوبا وأفرج عن أولاد عيسى بن مهنى وقصر النيل عن الوفاء فاعقب ذلك غلاء عظيما ووباء (وفى سنة خمس وتسعين وستمائة) قدمت الفورانية الى بلاد المسلمين هاربين من قازان بن ارغون ابن ابغا بن هلاكو بن طلو بن جنكزخان لما استولى على ملك التتر وقتل عمه بيدرا بن هلاكو وكانوا نحو عشرة آلاف انسان فأنزلهم السلطان كتبغا بالساحل وأحسن اليهم كيف جاؤا مسلمين واعطاهم الاقطاعات وفيها توجه السلطان كتبغا الى الشام وعزل نائب دمشق ايبك الحموى وولى عزلو نيابة دمشق ثم توجه الى القاهرة فى مستهل سنة ست

بالحول بحيث ان الناس كانوا يخوضون فى الماء والوحل بالحول وفيها سار صاحب المخزن الى يعقوبا فى ذى القعدة فعسف أهلها فنقل اليه عن انسان منها انه يسبه فأحضره وأمر بمعاقبته وقال له لم تسبنى فقال له أنتم تسبون أبا بكر وعمر لاجل أخذهما فدك وهى عشر نخلات لفاطمة عليها السلام وأنتم تأخذون منى ألف نخلة ولا أتكلم فعفا عنه وفيها وقعت فتنة بواسط بين السنية والشيعة على جارى عادتهم وفيها قلت الامطار فى البلاد فلم يجئ منها شئ الى سباط ثم انها كانت تجىء فى الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الرى للزرع فجاءت الغلات قليلة ثم خرج عليها الجراد ولم يكن فى الارض من النبات ما يشتغل به عنها فأكلها الا القليل وكان كثيرا خارجا عن الحد فغلت الاسعار فى العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة وديار بكر وغيرها وقلت الاقوات الا ان أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر حصر الكرج مدينة كنجة﴾

فى هذه السنة سارت الكرج فى جموعها الى مدينة كنجة من بلاد اران قصدا لحصرها واعتدوا لها بما أمكنهم من القوة لان أهل كنجة كثير عددهم قوية شوكتهم وعندهم شجاعة كبيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكرج فلما وصلوا اليها وقاربوا قاتلوا أهلها عدة أيام من وراء السور ولم يظهر من أهلها أحد ثم فى بعض الايام خرج أهل كنجة ومن عندهم من العسكر من البلد وقاتلوا الكرج بظاهر البلد أشد قتال وأعظمه فلما رأى الكرج ذلك علموا أنهم لا طاقة لهم بالبلد فرحلوا بعد ان أثخن أهل كنجة فيهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا

﴿ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق﴾

فى أول هذه السنة وصل جلال الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش الى بلاد خوزستان والعراق وكان مجيئه من بلاد الهند لانه كان وصل اليها لما قصد التتر غزنة وقد ذكرنا ذلك جميعه فلما تعذر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان ووصل الى اصفهان وهى بيد أخيه غياث الدين وقد تقدمت أخباره فملكها وسار عنها الى بلاد فارس وكان أخوه قد استولى على بعضها كما ذكرناه فأعاد ما كان أخوه أخذه منها الى أتابك سعد صاحبها وصالحه وسار من عنده الى خوزستان فحصر مدينة تستر فى المحرم وبها الامير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله حافظا لها وأميرا عليها فحصره جلال الدين وضيق عليه فحفظها وجه السبع وبالغ فى الحفظ والاحتياط وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا الى بادرايا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم الى ناحية البصرة فنهبوا هنالك فسار اليهم شحنة البصرة وهو الامير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار الى أن وصل الى بعقوبا وهى قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ فلما وصل الخبر الى بغداد تجهزوا للحصار وأصلحوا السلاح من الجروخ والقسى والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة الى بغداد وأما عسكر جلال الدين فنهب البلاد وأهلها وكان قد وصل هو وعسكره الى خوزستان فى ضر شديد وجهد جهيد وقلة من الدواب والذى معهم فهو من الضعف الى حد لا ينتفع به فغنموا من البلاد جميعها واستغنوا

وتسعين وستمائة فلما كان فى مخيمه فى العوجاء ركب عليه لاجين وكان كتبغا قد استقر به نائبا فى السلطنة بعد ان شفع فيه حين كان مختفيا وركب معه قراسنقر أيضا ومن معهما من الامراء فهرب كتبغا الى دمشق وخلع نفسه من السلطنة وأرسل يطلب الامان من لاجين فامنه واعطاه صرخد وبويع لاجين بالسلطنة وتلقب بالملك المنصور وتوجه بالعساكر الى المصر فلما وصل أرسل سيف الدين قبجق نائبا الى دمشق وأرسل الملك الناصر محمد بن قلاوون من القاعة التى كان فيها الى الكرك محترزا عليه (وفى سنة سبع وتسعين وستمائة) جهز السلطان لاجين عساكره الى بلاد الارمن وفتحت جميعها الا سيس وفى ثامن عشر شوال توفى القاضى العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضى القضاة الشافعية بحماة ومولده سنة أربع وستمائة (وفى سنة ثمان وتسعين وستمائة) وثب على السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين جماعة من مماليكه الصبيان أول الليل وهو يلعب بالشطرنج فقتلوه وكانت مدة ملكه سنتين وثلاثة أشهر واتفقت الامراء على اعادة الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى فاحضروه واستقر فى السلطنة وولى نيابة مصر سلار ونيابة دمشق اقوس الافرم وفيها توفى الملك المظفر تقى

وأكثروا من أخذ الخيل والبغال فانهم كانوا في غاية الحاجة اليها وسار من يعقوبا الى دقوقا فحصرها فصعد أهلها الى السور وقاتلوه وسبوه وأكثروا من التكبير فعظم ذلك عنده وشق عليه وجد في قتالهم ففتحها عنوة وقهرا ونهبها عساكره وقتلوا كثيرا من أهلها فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا في البلاد ولما كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرية منهم الى البت والراذان فهرب أهلها الى تكريت فتبعهم الخوارزميون فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة فعادوا الى العسكر ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا وهم بنو يعلى وهم أغنياء فنهبوا وسلم أحدهم ومعه ولدان له وشئ يسير من المال فسير ماسلم معه الى الشام مع الولدين ليتجر بما ينتفعون به وينفقونه على نفوسهم فمات أحد الولدين بدمشق واحتاط الحاكم على مامعهم فاقد رأيت أباهم على حالة شديدة لا يعلمها الا الله يقول أخذت الاملاك وقتل بعض الاهل وفارقنا من سلم منهم والوطن بهذا القدر الحقير أردنا نكف به وجوهنا من السؤال ونصون أنفسنا فقد ذهب الولد والمال ثم سار الى دمشق ليأخذ ماسلم مع ابنه الآخر فأخذه وعاد الى الموصل فلم يبق غير شهر حتى توفي * ان الشقي بكل حبل يخنق * وأما جلال الدين فانه لما فعل بأهل دقوقا مافعل خافه أهل البوازيج وهي لصاحب الموصل فارسلوا اليه يطلبون منه ارسال شحنة اليهم يحميهم وبذلوا له شيأ من المال فأجابهم الى ذلك وسير اليهم من يحميهم قيل كان بعض أولاد جنكزخان ملك التتر أسره جلال الدين في بعض حروبه مع التتر فأكرمه فحماهم وأقام بمكانه الى أواخر ربيع الآخر والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب اربل فاصطلحوا فسار جلال الدين الى اذربيجان وفي مدة مقام جلال الدين بخوزستان والعراق ثارت العرب في البلاد يقطعون الطريق وينهبون القرى ويخيفون السبيل فنال الخلق منهم أذى شديد وأخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين كانوا سائرين الى الموصل فلم يسلم منهم شئ البتة

(ذكر وفاة الملك الافضل وغيره من الملوك)

في هذه السنة في صفر توفي الملك الافضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب فجأة بقلعة سميساط وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده رحمه الله ملكه مدينة دمشق والبيت المقدس وغيرهما من الشام وذكرنا سنة اثنتين وتسعين أخذ الجميع منه ثم ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكه ديار مصر وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه وانتقل الى سميساط وأقام بها ولم يزل بها الى الآن فتوفي بها وكان رحمه الله من محاسن الزمان لم يكن في الملوك مثله كان خيرا عادلا فاضلا حليما كريما قل ان عاقب على ذنب ولم يمنع طالبا وكان يكتب خطا حسنا وكتابة جيدة وبالجملة فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ماتفرق في كثير من الملوك لا جرم حرم الملك والدنيا وعاداه الدهر ومات بموته كل خلق جميل وفعل حميد فرحمه الله ورضي عنه ورأيت من كتابته أشياء حسنة فمابقي على خاطري منها انه كتب الى أصحابه لما أخذت دمشق منه كتابا من فصوله وأما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك اني

أي صديق سألت عنه ففي الذل وتحت الخمول في الوطن

وأي ضد سألت حالته * سمعت مالا تحبه أذني

فتركت السؤال عنهم وهذا غاية الجودة في الاعتذار عن ترك السؤال عنهم ولما مات اختلف أولاده وعمهم قطب الدين موسى ولم يقو أحد منهم على الباقين ليستبد بالامر ومات في هذه السنة صاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرل بن قلج أرسلان وهو الذي سير ولده الى الكرج

وتنصر

الدين محمود بن الملك المنصور محمد سلطان حماة ١٦٤ وعمره احدى وأربعون سنة وعشرة أشهر وسبعة أيام ومدة سلطنته بخمس عشرة سنة وشهر ويوم واستقر قراسنقر نائب السلطنة بحماة (وفي سنة تسع وتسعين وستمائة) وصل قازان بجموعه الى حلب وخرب وأسر وقتل وسار الى حماة وخرجت العساكر الاسلامية وسلطانهم الملك الناصر والتقى الجمعان بالقرب من حمص ووقع قتال عظيم وانكسرت المسلمون واستولت التتر على دمشق وتبعوا المنهزمين الى غزة والقدس والكرك وعصت قلعة دمشق وكان نائبها ارجواس المنصوري فقام في حفظها اتم قيام وحرق كل ماحولها من دار النيابة وغيرها وبذلت أهل دمشق لقازان مالا عظيما وأمنهم ورحل عنهم نحو بلاده وقرر بدمشق قبجق وجرد معه عدة من المغل وبلغ المصريين مسير قازان عن دمشق فخرج السلطان بهم الى الصالحية وجهز سلار وبيبرس الجاشنكير بالعساكر وعادهو الى القاهرة فلما قاربت العساكر دمشق هرب اليهم قبجق وهربت المغل ووصل سلار وبيبرس الى دمشق وقررا أمورها واستقر ابقرا استقر في نيابة حلب وبالافرم في نيابة دمشق وكتبغا المنصوري الذي كان سلطان مصر في نيابة حماة وعاد الى القاهرة واما الارمن فانهم طمعوا واستعادوا قلاعهم وماجاورها

وتنصر وتزوج ملكة الكرج ولما مات ملك بعده ابنه ومات فيها ملك ارزنكان وتوفي فيها عز الدين الخضر بن ابراهيم بن أبي بكر بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب خرت برت وملك بعده ابنه نور الدين ارتق شاه وكان المدبر لدولته ودولة والده معين الدين عبد الرحمن

(ذكر خلع شروان شاه وظفر المسلمين بالكرج)

في هذه السنة ثار على شروان شاه ولده فنزعه من الملك وأخرجه من البلاد وملك بعده وسبب ذلك ان شروان شاه كان سئ السيرة كثير الفساد والظلم يتعرض الى أموال الرعايا وأملاكهم وقيل أيضا انه كان يتعرض الى النساء والولدان فاشتدت وطأته على الناس فاتفق بعض العسكر مع ولده وأخرجوا أباه من البلاد وملك الابن وأحسن السيرة فأحبه العساكر والرعية وأرسل الولد الى أبيه يقول له اني أردت أن أتركك في بعض القلاع وأجري لك الجرايات الكثيرة ولكل من تحب ان يكون عندك والذي حملني على مافعلت معك سوء سيرتك وظلمك لاهل البلاد وكراهيتهم لك ولدولتك فلما رأى الاب ذلك سار الى الكرج واستنصر بهم وقرر معهم ان يرسلوا معه عسكرا يعيدونه الى ملكه ويعطيهم نصف البلاد فسير وامعه عسكرا كثيرا فسار حتى قارب مدينة شروان فجمع ولده العسكر وأعلمهم الحال وقال ان الكرج متى حصروا نار بما ظفروا بنا وحينئذ لا يبقي أبي على أحد منا ويأخذ الكرج نصف البلاد وربما أخذوا الجميع وهذا أمر عظيم اننا نسير اليهم جريدة ونلقاهم فان ظفرنا بهم فالحمد لله وان ظفروا بنا فالحصر بين أيدينا فأجابوه الى ذلك فخرج في عسكره وهم قليل نحو ألف فارس ولقوا الكرج وهم في ثلاثة آلاف مقاتل فالتقوا واقتتلوا وصبر أهل شروان فانهزم الكرج فقتل كثير منهم وأسر كثير ومن سلم عاد بأسوا حال وشروان شاه المخلوع معهم فقال له مقدمو الكرج اننا لم نلق بسببك خيرا ولا نؤاخذك بما كان منك فلا تقم ببلادنا ففارقهم وبقي مترددا لا يأوي الى أحد واستقر ولده في الملك وأحسن الى الجند والرعية وأعاد الى الناس أملاكهم ومصادراتهم فاغتبطوا بولايته

(ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا)

وفي هذه السنة أيضا سار جمع من الكرج من تفليس يقصدون اذربيجان والبلاد التي بيد أوزبك فنزلوا وراء مضيق في الجبال لا يسلك الا للفارس معه الفرس فنزلوا آمنين من المسلمين استضعافا لهم واغترارا بحصانة موضعهم وانه لا طريق اليهم وركب طائفة من العساكر الاسلامية وقصدوا الكرج فوصلوا الى ذلك المضيق فجازوه مخاطرين فلم يشعر الكرج الا وقد غشيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا وولى الباقون منهزمين لا يلوي والد على ولده ولا أخ على أخيه وأسر منهم جمع كثير صالح فعظم الامر عليهم وعزموا على الاخذ بثارهم والجد في قصد اذربيجان واستئصال المسلمين منه وأخذوا يتجهزون على قدر عزمهم فبيناهم في ذلك اذ وصل اليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزم شاه الى مراغة على مانذكره ان شاء الله فتركوا ذلك وأرسلوا الى أوزبك صاحب اذربيجان يدعونه الى الموافقة على رد جلال الدين وخوفوه منه ان لم نتفق نحن وأنت والا أخذك ثم أخذنا فعاجلهم جلال الدين قبل اتفاقهم واجتماعهم فكان مانذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك جلال الدين اذربيجان)

في هذه السنة استولى جلال الدين على اذربيجان وسبب ذلك انه لما سار من دقوقا كما ذكرناه

خلا شعبان (وفي سنة سبعمائة) عادت التتر وقطعوا الفرات وعاثوا في بلاد حلب ١٦٥ وجفلت أهل حلب وحماة نحو الشام وخرج عسكر مصر والسلطان ووصلوا الى العوجا فردت التتر الى بلادهم وكفى الله المؤمنين القتال وتوجه السلطان الى مصر وفيها بسبب مجئ التتر استخرج من غالب الاغنياء ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة وفيها الزمت أهل الذمة اليهود والنصارى والسامرة بلبس الازرق والاصفر والاحمر (وفي سنة احدى وسبعمائة) توفي الخليفة بمصر أبو العباس الحاكم بامر الله أحمد وهذا كان قدم الى مصر فعمل له الظاهر بيبرس مجلسا عاما في سنة ستين وستمائة واثبت انه من نسل العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد المسترشد ابن المظهر بن المستظهر وحبسه في برج مع الاحسان اليه واشركه معه في الخطبة واستقر مكانه ولده أبو الربيع سليمان المكتفي بالله (وفي سنة اثنتين وسبعمائة) جاءت التتر بجموعهم الى بلاد المسلمين صحبة قطلوشاه نائب قازان وانحازت العساكر الاسلامية الشامية الى دمشق وتوجهت العساكر المصرية الى نحو الشام واجتمعوا بمرج الصفر وتجاوزت التتر دمشق ونزلوا شقحب وتراءى الجمعان وتلك الساعة وصل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ووقع القتال

قصد مراغة فملكها وأقام بها وشرع فى عمارة البلد فاستحسنه فلما وصل اليها أتاه الخبران الامير ايغان طائيسى وهو خال أخيه غياث الدين قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين بيومين وكان ايغان طائيسى هذا قد جمع عسكرا يتجاوز خمسين ألف فارس ونهب كثيرا من اذربيجان وسار الى البحر من بلد اران فشتى هنالك لقلة البرد ولما عاد الى همذان نهب اذربيجان أيضا مرة ثانية وكان سبب مسيره الى همذان ان الخليفة الناصر لدين الله راسله وأمره بقصد همذان واقطعه اياها وغيرها فسار ليستولى عليها كما أمر فلما سمع جلال الدين بذلك سار جريدة اليه فوصل الى ايغان طائيسى ليلا وكان اذا نزل جعل حول عسكره جميع ما غنموا من اذربيجان واران من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم فلما وصل جلال الدين أحاط بالجميع فلما أصبح عسكر ايغان طائيسى ورأى العسكر والجتر الذى يكون على رأس السلطان علموا انه جلال الدين فسقط فى أيديهم لانهم كانوا يظنونه عند دقوقا فارسل ايغان طائيسى زوجته وهى أخت جلال الدين تطلب له الامان فأمنه وأحضره عنده وانضاف عسكره الى جلال الدين وبقى ايغان طائيسى وحده الى أن اضاف اليه جلال الدين عسكرا غير عسكره وعاد الى مراغة وأعجبه المقام بها وكان أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان واران قد سار من تبريز الى كنجة خوفا من جلال الدين وأرسل جلال الدين الى من فى تبريز من وال وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردد عسكره اليهم يمتارون فاجابوه الى ذلك وأطاعوه فتردد العسكر اليها وباعوا واشتروا الاقوات والكسوات وغيرها ومدوا أيديهم الى أموال الناس فكان أحدهم يأخذ الشئ ويعطى الثمن ما يريد فشكا بعض أهل تبريز الى جلال الدين منهم فارسل اليهم شحنة يكون عندهم وأمره ان يقيم بتبريز ويكف أيدى الجند عن أهلها ومن تعدى على أحد منهم صلبه فاقام الشحنة ومنع الجند من التعدى على أحد من الناس وكانت زوجة أوزبك وهى ابنة السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مقيمة بتبريز وهى كانت الحاكمة فى بلاد زوجها وهو مشغول بلذاته من أكل وشرب ولعب ثم ان أهل تبريز شكوا من الشحنة وقالوا انه يكلفنا أكثر من طاقتنا فامر جلال الدين انه لا يعطى الا ما يقيم به لا غير ففعلوا ذلك وسار جلال الدين الى تبريز وحصرها خمسة أيام وقاتل أهلها قتالا شديدا وزحف اليها فوصل العسكر الى السور فاذعن أهلها بالطاعة وأرسلوا يطلبون الامان منه لانه كان يذمهم ويقول قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤسهم الى التتر الكفار وقد تقدمت الحادثة سنة احدى وعشرين وستمائة فخافوا منه لذلك فلما طلبوا الامان ذكر لهم فعلهم باصحاب أبيه وقتلهم فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيأ من ذلك وانما فعله صاحبهم ولم يكن لهم من القدرة ما يمنعونه فعذرهم وأمنهم وطلبوا منه ان يؤمن زوجة أوزبك ولا يعارضها فى الذى لها باذربيجان ومدينة خوى وغيرها من ملك ومال وغيره فاجابهم الى ذلك وملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة وسير زوجة أوزبك الى خوى ومعها طائفة من العسكر مع رجل كبير القدر عظيم المنزلة وأمرهم بخدمتها فاذا وصلت الى خوى عادوا عنها ولما رحل جلال الدين الى تبريز أمر ان لا يمنعوا عنه أحدا من أهلها فاتاه الناس مسلمين عليه فلم يحجبوا عنه وأحسن اليهم وبث فيهم العدل ووعدهم الاحسان والزيادة منه وقال لهم قد رأيتم ما فعلت بمراغة من الاحسان والعمارة بعد ان كانت خرابا وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم وعمارة بلادكم وأقام الى يوم الجمعة فحضر الجامع فلما خطب الخطيب ودعا للخليفة قام قائما ولم يزل كذلك حتى

الشديد من عصر يوم السبت ثانى رمضان الى ان دخل الليل واستشهد جماعة من المسلمين وانكسرت التتر وقتل منهم خلق كثير وأحاط المسلمون بالتتر فلما أصبحوا ورأوا كثرة المسلمين ولوا على أدبارهم وتبعهم المسلمون قتلا وأسرا وغرق فى الفرات غالب من هرب منهم ونصر الله المسلمين نصرا مؤيدا وفى ذى الحجة توفى زين الدين كتبغا العادل نائب السلطنة بحماة واستقر مكانه قبجق وفيها توفى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن دقيق العيد قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية واستقر مكانه قاضى القضاة بدر الدين الحموى المعروف بابن جماعة وفيها كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام هلك فيها خلق كثير وخربت من أسوار حمص شيأ كثيرا وستة وأربعون بدنة وبعض أسوار حماة (وفى سنة ثلاث وسبعمائة) توفى قازان بن أرغون بن ابغان ابن هلاكو وكان ملكه ثمان سنين وعشرة أشهر واستقر مكانه أخوه خربندا وتلقب الجسر سلطان وفيها وقع فى الخيل موت لا يمكن عدده (وفى سنة أربع وسبعمائة) طلب الشيخ تقى الدين بن تيمية الى مصر وعقد له بمجلس وأودع السجن (وفى سنة ثمان وسبعمائة) أظهر السلطان الناصر قصد الحجاز وتوجه

فرغ من الدعاء وجلس ودخل الى كشك كان أوزبك قد عمره وأخرج عليه من الاموال كثيرا فهو فى غاية الحسن مشرف على البساتين فلما طاف فيه خرج منه وقال هذا مسكن الكسالى لا يصلح لنا وأقام أياما استولى فيها على غيرها من البلاد وسير الجيوش الى بلاد الكرج

﴿ذكر انهزام الكرج من جلال الدين﴾

قد ذكرنا فيما تقدم من السنين ما كان الكرج يفعلونه فى بلاد الاسلام خلاط وأعمالها واذربيجان واران وارزن الروم ودربند شروان وهذه ولايات تجاور بلادهم وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين وينهبون من أموالهم ويملكون من بلادهم والمسلمون معهم فى هذه البلاد تحت الذل والخزى كل يوم قد أغاروا وفتكوا فيهم وقاطعوهم على ما شاؤا من الاموال فكنا كلما سمعنا بشئ من ذلك سألنا الله تعالى نحن والمسلمون فى ان ييسر للاسلام والمسلمين من يحميهم وينصرهم ويأخذ بثارهم فان أوزبك صاحب اذربيجان منعكف على شهوة بطنه وفرجه لا يفيق من سكره وان أفاق فهو مشغول بالقمار بالبيض وهذا مالم يسمع ان أحدا من الملوك فعله لا يهتدى لمصلحة ولا يغضب لنفسه بحيث ان بلاده مأخوذة وعساكره طماعة ورعيته قد قهرها وقد كان كل من أراد ان يجمع جمعا ويتغلب على بعض البلاد فعل كما ذكرناه من حال بغدى وايبك الشامى وايغان طائيسى فنظر الله تعالى الى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا ففعل بالكرج ما تراه وانتقم للاسلام والمسلمين منهم فنقول فى هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين وبين الكرج فى شهر شعبان فان جلال الدين من حين قصد الى هذه النواحى لا يزال يقول انى أريد أقصد بلاد الكرج وأقاتلهم وأملك بلادهم فلما ملك اذربيجان أرسل اليهم يؤذنهم فاجابوه باننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بابيك وهو أعظم منك ملكا وأكثر عسكرا وأقوى نفسا ما تعلمه وأخذوا بلادكم فلم نبال بهم وكان قصاراهم السلامة منا وشرعوا يجمعون العساكر فجمعوا ما يزيد على سبعين ألف مقاتل فسار اليهم فملك مدينة دوين وهى للكرج كانوا قد أخذوها من المسلمين كما ذكرناه وسار منها اليهم فلقوه وقاتلوه أشد قتال وأعظمه وصبر كل منهم لصاحبه فانهزم الكرج وأمر ان يقتلوا بكل طريق ولا يبقوا على أحد منهم فالذى تحققناه انه قتل منهم عشرون ألفا وقيل أكثر من ذلك فقيل الكرج جميعهم قتلوا وافترقوا وأسر كثير من أعيانهم من جملتهم شلوة فتمت الهزيمة عليهم ومضى ايوانى منهزما وهو المقدم على الكرج جميعهم ومرجعهم اليه ومعولهم عليه وليس لهم ملك انما الملك امرأة ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما انهزم ايوانى أدركه الطلب فصعد قلعة لهم على طريقهم فاحتمى فيها وجعل جلال الدين عليها من يحصرها ويمنعه من النزول وفرق عساكره فى بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويسبون ويخربون البلاد فلولا ما أتاه من تبريز مما أوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقة لان أهلها كانوا قد هلكوا فهم بين قتيل وأسير وطريد

﴿ذكر عود جلال الدين الى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة أوزبك﴾

لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكرج ودخل البلاد وبث العساكر فيها أمرهم بالمقام بها مع أخيه غياث الدين وعاد الى تبريز وسبب عوده انه كان قد خلف وزيره شرف الملك فى تبريز ليحفظ

فلما وصل الى الكرك أقام بها وجهز نائب الكرك جمال الدين أقوش الى الديار المصرية يعلم الناس ان السلطان كره الاقامة بمصر لتغلب بيبرس وسلار عليه واتفقوا على سلطنة بيبرس وركب السلطان وتلقب بالملك المظفر وحلفت له نواب الشام جميعهم واستقروا بالسلطان الملك الناصر فى نيابة الكرك (وفى سنة تسع وسبعمائة) خرجت من مصر جماعة من الامراء على جمية الى الكرك وجاءت كتب من بلاد الشام وخرج السلطان الملك الناصر من الكرك ثم بلغه تغير الافرم نائب الشام عليه فرجع ثم كثر طلب الناس له فخرج فلما وصل الى الشام هرب الافرم ثم طلب الامان وحضرت نواب الشام وحلب وحماة وغيرها وسار السلطان بعساكره نحو مصر فلما وصل غزة جاءته أمراء مصر أولا فأولا طائعين وأرسل بيبرس يطلب الامان وهرب الى جهة الصعيد وخرج سلار الى ملاقاة السلطان ودخل السلطان قلعة الجبل وكانت هذه سلطنته الثالثة فى يوم الجمعة ثالث شوال وأحضر بيبرس بين يدى السلطان فامر بحبسه وكان آخر العهد به واستقر فى نيابة السلطنة بمصر بكتمر الجوكندار واستقر قراسنقر فى نيابة الشام واستقر مكانه بحلب قبجق الذى كان بحماة واستقر مكانه بحماة سندمر (وفى سنة

البلد وينظر في مصالح الرعية فبلغه عن رئيس تبريز وشمس الدين الطغرائي وهو المقدم على كل
من في البلد وعن غيرهما من المقدمين انهم قد اجتمعوا وتحالفوا على الامتناع على جلال الدين
واعادة البلد الى أوزبك وقالوا ان جلال الدين قد قصد بلاد الكرج فلا يقدر على المقام ويجتمع
أوزبك والكرج ويقصدونه فيختل نظام أمره وتتم عليه الهزيمة فبنوا أمرهم على ان جلال
الدين يسير الهوينا الى بلاد الكرج ويتريث في الطريق احتياطا منهم فلما اتفقوا على ذلك أتى
الخبر الى الوزير فارسل الى جلال الدين يعرفه الحال فأتاه الخبر وقد قارب بلاد الكرج فلم يظهر
من ذلك شيأ وسار نحو الكرج مجدا فلقيهم وهزمهم فلما فرغ منهم قال لامراء عسكره انني قد
بلغني من الخبر كذا وكذا فتقيمون أنتم في البلاد على ما أنتم عليه من قتل من ظفرتم به وتخريب
ما أمكنكم من بلادهم فانني خفت ان أعرفكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن وخوف
فاقاموا على حالهم وعاد هو الى تبريز وقبض على الرئيس والطغرائي وغيرهما فاما الرئيس فأمر
ان يطاف به على أهل البلد وكل من له عليه مظلمة فليأخذها منه وكان ظالما ففرح الناس
بذلك ثم قتله وأما الباقون فحبسوا فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك
ابنة السلطان طغرل وانما صح له نكاحها لانه ثبت عن أوزبك انه حلف بطلاقها انه لا يقتل
مملوكا له اسمه ثم قتله فلما وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين وأقام
بتبريز مدة وسير منها جيشا الى مدينة كنجة فلكوها وفارقها أوزبك الى قلعة كنجة فتحصن
فيها فبلغني ان عساكر جلال الدين تعرضوا الى أعمال هذه القلعة بالنهب والاخذ فارسل
أوزبك الى جلال الدين يشكو ويقول كنت لا أرضى بهذه الحال لبعض أصحابي فانا أسأل ان
تكف الايدي المتطرقة الى هذه الاعمال عنها فارسل جلال الدين اليها من يحميها من التعرض
لها من أصحابه وغيرهم

(ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله)

في هذه السنة آخر ليلة من شهر رمضان توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن
المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لامر الله أبي
العباس محمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر
عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد
بالله أبي العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله ولم يكن الموفق خليفة
وانما كان ولي عهد أخيه المعتمد على الله فمات قبل المعتمد فصار ولده المعتضد بالله ولي عهد
المعتمد على الله وكان المتوكل على الله بن المعتصم بالله أبي اسحق محمد بن هرون الرشيد بن محمد
المهدي بن أبي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله أبي جعفر بن العباس بن عبد المطلب
رضي الله عنهم

نسب كأن عليه من شمس الضحى * نورا ومن فلق الصباح عمودا

فكان في آبائه أربعة عشر خليفة وهم كل من له لقب والباقون غير خلفاء وكان فيهم من ولي
العهد محمد بن القائم والموفق بن المتوكل وأما باقي الخلفاء من بني العباس فلم يكونوا من آبائه فكان
السفاح أبو العباس عبد الله أخا المنصور ولي قبله وكان موسى أخا الرشيد ولي قبله وكان محمد
الامين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد أخوي المعتصم وليا قبله وكان محمد المنتصر بن المتوكل

عشر وسبعمائة) استقر الملك المؤيد عماد الدين اسمعيل صاحب التاريخ في نيابة السلطنة بحماة وانتقل اسندمر

الكرجي الى نيابة حلب فامسك فخنق وتوفي بظاهر حلب ودفن بحماة وفرح أهل حماة بل سائر الناس بذلك وأنشد الشيخ زين الدين عمر بن الوردي فقال

وفاز المؤيد في يومه * بما كان يرجوه في امسه
وكم قد شكى الحيف من دهره * فأنصفه الدهر من نفسه

واستقر نائبا بحماة مدة عشرين سنة في كل سنة يتوجه الى الملك الناصر بهدايا عظيمة من الجواهر وغيرها ويبالغ السلطان في اكرامه وفيها قدم صدر الدين بن الوكيل الى حلب حين عزل عن وظائفه بدمشق وأكرمه اسندمر ورتب له معلوما بجامع حلب (وفي سنة احدى عشرة وسبعمائة) استقر الامير أرغون الدوادار نائب الملك بالديار المصرية وباشر مباشرة حسنة واستمرت عشرة سنة وعظمت دولة الملك الناصر وطالت مدة نوابه بالممالك تنكز بالشام والطنبغا بحلب وليها بعد سودي في سنة أربع عشرة وسبعمائة (وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة) حج الملك الناصر ومعه الملك المؤيد نائب حماة فلما عاد
الى القاهرة ولاه سلطنة حماة على قاعدة آبائه يخطب له بحماة ولا يرد عليه توقيع ولا منشور من القاهرة وأركبه

ولي بعده ثم ولي بعد المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وولي بعد
المستعين المعتز بالله محمد وقيل طلحة وهو ابن المتوكل وولي بعد المعتز المهتدي بالله محمد بن الواثق
ثم ولي بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل فالمنتصر والمعتز والمعتمد اخوة الموفق والمهتدي ابن
عمه والموفق من أجداد الناصر لدين الله ثم ولي المعتضد بعد المعتمد وولي بعد المعتضد ابنه أبو
محمد علي المكتفي بالله وهو أخو المقتدر بالله وولي بعد المقتدر أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد
ابن المعتضد وولي بعد القاهر الراضي بالله أبو العباس محمد بن المقتدر ثم ولي بعده المتقي لله أبو
اسحق ابراهيم بن المقتدر ثم ولي بعده المكتفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بالله علي بن
المعتضد ثم ولي بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم فالقاهر أخو المقتدر والراضي والمتقي
والمطيع بنوه والمستكفي ابن أخيه المكتفي ثم ولي الطائع لله بن المقتدر ثم ولي بعد الطائع
القادر بالله وهو من أجداد الناصر لدين الله ثم ولي بعده المستظهر بالله ثم ولي بعده ابنه
المسترشد بالله أبو منصور وولي بعد المسترشد بالله ابنه الراشد أبو جعفر فالمسترشد أخو المقتفي
والراشد ابن أخيه فجميع من ولي الخلافة ممن ليس في سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة
وكانت أم الناصر أم ولد تركية اسمها زمرد وكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية
وعشرين يوما وكان عمره نحو سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة اطول مدة منه الا ما قيل عن
المستنصر بالله العلوي صاحب مصر فانه ولي ستين سنة ولا اعتبار به فانه ولي وله سبع سنين فلا
تصح ولايته وبقي الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية وقد ذهبت احدى
عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا وفي آخر الامر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما ومات
ووزر له عدة وزراء وقد تقدم ذكرهم ولم يطلق في طول مرضه شيأ كان أحدثه من الرسوم
الجائرة وكان قبيح السيرة في رعيته ظالما فخرب في ايامه العراق وتفرق أهله في البلاد وأخذ
املاكهم وأموالهم وكان يفعل الشيء وضده فمن ذلك انه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس
عليها في رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها
وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد خاصة ثم اعادها وجعل جل همه في رمي البندق
والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة في البلاد جميعها الا من يلبس منه سراويل
يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك أيضا منع الطيور المناسيب
لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق الا من ينتمي اليه فاجابه الناس بالعراق وغيره
الى ذلك الا انسانا واحدا يقال له ابن السفت من بغداد فانه هرب من العراق ولحق بالشام
فارسل اليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه وينسب في الرمي اليه فلم يفعل فبلغني ان بعض
أصدقائه انكر عليه الامتناع من أخذ المال فقال يكفيني فخرا انه ليس في الدنيا أحد الا رمى
للخليفة الا أنا فكان غرام الخليفة بهذه الاشياء من أعجب الامور وكان سبب ما ينسبه العجم اليه
صحيحا من انه هو الذي اطمع التتر في البلاد وراسلهم في ذلك فهو الطامة الكبرى التي يصغر
عندها كل ذنب عظيم

(ذكر خلافة الظاهر بأمر الله)

قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للامير أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله

بشعار السلطنة والغاشية والشبابة ومشى في خدمته ارغون نائب الملك وامراء القاهرة في يوم مشهود وتوجه الى حماة من يومه
نهار الخميس سابع عشر بن المحرم سنة عشرين وسبعمائة ولقبه بالملك الصالح ورسم

لتنكز وسائر نواب الممالك ان يكتبوا
له بتقبيل الارض ثم لقب الملك المؤيد (وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة) توجه الامير أرغون النائب الى الحجاز وتغير عليه السلطان في غيبته فلما حضر أرسله نائبا الى حلب وطلب الطون بغا الى مصر واجتمعت الثلاثة بدمشق تنكز وارغون والطون بغا وتبعهم المسلمون (وفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة) توفي قاضي القضاة كمال الدين أبو المعالي محمد بن الامام علاء الدين علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني كانت انتهت اليه رياسة مذهب الشافعية وولي قضاء حلب في سنة أربع وعشرين وسبعمائة توفي ببلبيس ودفن بالقاهرة (وفي سنة احدى وثلاثين وسبعمائة) نهار الاربعاء تاسع صفر وصل نهر الساجور الى حلب فزيد به نهر قويق بساقية بناها الامير أرغون الدوادار وكان يوم وصوله يوما مشهودا خرج لتلقيه ملك الامراء وسائر الناس مشاة مكبرين مهللين ومنع أهل الذمة من الخروج معهم وكذلك المطربون وكان
قبله الامير سودي نائب حلب قصد سوقه وشرع فيه فقيل له من ساقه يموت في عامه فتأخر
عنه وقيل مثل ذلك لارغون فقال لا أرجع عن خير عزمت عليه فقدر الله انه مرض قبل أربعين يوما ومات رحمه الله وانشد

القاضى الفاضل شرف الدين الحسين بن ريان لما أتى نهر الساجور قلت له * كم ذا التأخر من حين الى حين فقال أخرنى زبى
ليجملى * من بعض معروف سيف الدين ارغون وانشد القاضى الفاضل بدر الدين الحسن بن حبيب رحمه الله فيه
قد أضحت الشهباء تثنى على
أرغون فى صبح وديجور
من نهر الساجور أجرى بم
للناس بحرا غيره مسجور
ودفن فى تربته التى أنشأها
بسوق الخيل بين بابى
القوس وكان عمره نحو
الخمسين اشتراه الملك المنصور
قلاوون الصالحى صغيرا
لولده الملك الناصر محمد
وربى معه وكان معه
بالكرك ثم ولاه نيابة الملك
بمصر ورتبى بعد بيبرس
الدويدار ست عشرة سنة
كما تقدم ثم نقله الى نيابة
حلب ثم طلب الحضور
فحضر واجتمع بالسلطان
وتباكيا ثم عاد الى حلب
ومات بها وكان فقيها حنفيا
ورعا اذن له بالافتاء على
مذهبه سمع صحيح البخارى
على الشيخ أبى العباس أحمد
ابن الشحنة الحجار ووزيرة
بنت عمر بن اسعد بن المنجا
بمصر فى سنة خمس عشرة
وسبعمائة بقراءة الشيخ
أبى حيان وكتب بخطه
مجلدا منه وفيها عاد الامير
الطنبغا الى نيابة حلب واستمر
ثمان سنين (وفى سنة
اثنتين وثلاثين وسبعمائة)
توفى الملك المؤيد اسمعيل
ابن الافضل على بن المظفر
تقى الدين محمود بن المنصور
محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى كان من اعيان الملوك القائمين بأمر السلطنة والمهتمين بها وحضر
فتح المرقب مع الملك المنصور قلاوون سنة أربع وثمانين وستمائة وفتح قلعة الروم مع الاشرف خليل بن قلاوون وفتح طرابلس

بولاية العهد فى العراق وغيره من البلاد ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد وارسل الى
البلاد فى قطع الخطبة له وانما فعل ذلك لانه كان يميل الى ولده الصغير على فاتفق ان الولد الصغير
توفى سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد غير ولى العهد فاضطر الى اعادته الا انه تحت
الاحتياط والحجر لا يتصرف فى شئ فلما توفى ابوه ولى الخلافة وأحضر الناس لاخذ البيعة
وتلقب بالظاهر بامر الله وعنى ان اباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الامر عنه فظهر وولى
الخلافة بامر الله لا بسعى من أحد ولما ولى الخلافة أظهر من العدل والاحسان ما اعاد به سنة
العمرين فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه أعاد من
الاموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيأ كثيرا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة
الخراج القديم فى جميع العراق وان يسقط جميع ما جدده أبوه وكان كثيرا لا يحصى فمن ذلك
ان قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار فلما تولى الناصر لدين الله كان
يؤخذ منها كل سنة ثمانون الف دينار فحضر أهلها واستغاثوا وذكروا ان املاكهم أخذت
حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فامر أن يؤخذ الخراج الاول وهو عشرة آلاف دينار فقيل له
ان هذا المبلغ يصل الى المخزن فمن أين يكون العوض فاقام لهم العوض من جهات أخرى فاذا
كان المطلق من جهة واحدة سبعين الف دينار فما الظن بباقى البلاد ومن افعاله الجميلة انه أمر
باخذ الخراج الاول من باقى البلاد جميعها فحضر كثير من أهل العراق وذكروا ان الاملاك
التى كان يؤخذ منها الخراج قديما قد يبس اكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الاول
لا يفى دخل الباقى بالخراج فامر أن لا يؤخذ الخراج الا من كل شجرة سليمة وأما الذهب فلا
يؤخذ منه شئ وهذا عظيم جدا ومن ذلك أيضا ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة
البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك
فخرج خطه الى الوزير واوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم
أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم قد بلغنا ان الامر كذا وكذا
فتعاد صنجة المخزن الى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب
اليه يقول ان هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان فى السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار
فاعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو أنه ثلثمائة ألف وخمسون ألف دينار يطلق وكذلك
أيضا فعل فى اطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة وتقدم الى القاضى
ان كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير اذن وأقام رجلا صالحا فى ولاية
الحشرى وبيت المال وكان الرجل حنبليا فقال انى من مذهبى ان أورث ذوى الارحام فان
أذن أمير المؤمنين ان أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له اعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق
سواه ومنها ان العادة كانت ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة
بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب
ما سوى ذلك من صغير وكبير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى هذا الخليفة جزاه الله
خيرا أتته المطالعات على العادة فامر بقطعها وقال أى غرض لنا فى معرفة احوال الناس فى
بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم

شرها

وفتح عكا وكان أميرا ثم صار نائبا ثم سلطانا كما حكيناه اولا وكان عالما اديبا له اليد الطولى فى الرياضة والهندسة والهيئة أخذ ذلك
عن الشيخ اثير الدين الابهرى وامتدحته الشعراء من البلاد ووفدوا عليه واجرى عليهم الجوائز منهم الشيخ الاديب
صفى الدين الحلى عبد العزيز
ابن سرايا ومن شعره
سوابقنا والنقع والسمر
والقنا
وأحسابنا والحلم والبأس
والبر
هبوب الصبا والليل
والبرق والقضا
وشمس الضحى والطود
والنار والبحر
ومنه قوله
وظبى بقفر فوق طرف مفوق
لقوس رمى بالنقع وحشا
باسهم
كبدر بافق فوق برق بكفه
هلال رمى فى الليل حبا بانجم
وللشيخ جمال الدين أبى
بكر محمد بن محمد بن محمد
ابن نباتة المصرى كتب
مفردة فى مدائحه منها
منتخب الهدية فى المدائح
المؤيدية لم ينظم بعده فى
طبقته وللسلطان عماد الدين
عدة مؤلفات فى أنواع
العلوم واشعار رائقة فمن
مؤلفاته نظم الحاوى الصغير
وشرحه قاضى القضاة
شرف الدين ابو القاسم
هبة الله بن البارزى ومنها
كتاب نوادر العلم فى مجلدين
ومنها كتاب الكناش فى
مجلدين وكتاب تقويم
البلدان وكتب الموازين
وكتاب التاريخ المسمى
بالمختصر فى اخبار البشر وغيرها ومن اشعاره اقرأ على طيب الحيا * ة سلام صب ذاب حزنا واعلم بذلك أحبة
بخل الزمان بهم وضنا لو كان يشرى قربهم * بالمال والارواح جدنا متجرع كاس الفرا * ق بيت للاشجان رهنا

شرها فقال نحن ندعو الله فى ان يصلحهم ومنها انه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من
واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الاموال فاصعد ومعه من المال ما يزيد على مائة
الف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الامر فى حمله فاعاد الجواب بان يعاد
الى أربابه فلا حاجة لنا اليه فأعيد عليهم ومنها انه أخرج كل من كان فى السجون وأمر باعادة
ما أخذ منهم وأرسل الى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس
الشرع وليس له مال ومن حسن نيته للناس ان الاسعار فى الموصل وديار الجزيرة كانت غالية
فرخصت الاسعار وأطلق حمل الاطعمة اليها وان يبيع كل من أراد البيع للغلة تحمل منها
الكثير الذى لا يحصى فقيل له ان السعر قد غلا شيأ والمصلحة منع حمله فقال أولئك مسلمون
وهؤلاء مسلمون وكما يجب علينا النظر فى أمر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لاولئك وأمر أن
يباع من الاهراء التى له طعام أرخص مما يبيع غيره ففعلوا ذلك فرخصت الاسعار عندهم أيضا
اكثر مما كانت أولا وكان السعر فى الموصل لما ولى كل مكوكين بدينار وثلثى قيراط فصار كل
اربعة مكاكيك بدينار فى أيام قليلة وكذلك باقى الاشياء من التمر والدبس والارز والسمسم
وغيرها فالله تعالى يؤيده وينصره ويبقيه فانه غريب فى هذا الزمان الفاسد ولقد سمعت عنه كلمة
اعجبتنى جدا وهى انه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الاموال التى لا تسمح نفس ببعضها
فقال لهم أنا فتحت الدكان بعد العصر فاتركونى أفعل الخير فكم أعيش وتصدق ليلة عيد الفطر
من هذه السنة وفرق فى العلماء وأهل الدين مائة الف دينار

(ذكر ملك بدر الدين قلعتى العمادية وهرور)

فى هذه السنة ملك بدر الدين قلعة العمادية من اعمال الموصل وقد تقدم ذكر عصيان أهلها
عليه سنة خمس عشرة وستمائة وتسليمها الى عماد الدين زنكى ثم عودهم الى طاعة بدر الدين
وخلافهم على عماد الدين فلما عادوا الى بدر الدين أحسن اليهم واعطاهم الاقطاع الكثير
وملكهم القرى ووصلهم بالاموال الجزيلة والخلع السنية فبقوا كذلك مدة يسيرة ثم شرعوا
يراسلون عماد الدين زنكى ومظفر الدين صاحب اربل وشهاب الدين غازى بن العادل لما كان
بخلاط ويعدون كلا منهم بالانحياز اليه والطاعة له وأظهروا امر المخالفة لبدر الدين ما كانوا
يبطنونه فكانوا لا يمكنون ان يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين الا من يريدونه ويمنعون من
كرهوه فطال الامر وهو يحتمل فعلهم ويداريهم وهم لا يزدادون الا طمعا وخروجا عن الطاعة
وكانوا جماعة فاختلفوا فقوى بعضهم وهم أولاد خواجه ابراهيم وأخوه ومن معهم على
الباقين فاخرجوهم عن القلعة وغلبوا عليها وأصروا على ما كانوا عليه من النفاق فلما كان
هذه السنة سار بدر الدين اليهم فى عساكره فاتاهم بغتة فحصرهم وضيق عليهم وقطع الميرة عنهم
وأقام بنفسه عليهم وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرور يحصرونها وهى من أمنع الحصون
وأحصنها لا يوجد مثلها وكان أهلها أيضا قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان وطاعة
ومخادعة فاتاهم العسكر وحصروهم وهم فى قلة من الذخيرة فحصروها أياما ففنى ما فى القلعة
فاضطر أهلها الى التسليم فسلموها ونزلوا منها وعاد العسكر الى العمادية فاقاموا عليها مع بدر الدين
فبقى بدر الدين بعد أخذ هرور يسيرا وعاد الى الموصل وترك العسكر بحاله مقيما عليهم مع

صب فضى وجدا ولم * يقض له ماقد غنا (ومنه قوله) أكرم به طرفا تفوت به القضا * ان رمته فى مطلب أو مهرب مثل الغزالة مابدت فى مشرق * الا بدت أنوارها فى المغرب (ومنه قوله) كم من دم سفكت وماندمت * تفعل ماتشتهى فلا عدمت لوامكن الشمس عندر ؤيتها لثم مواطى أقدامها لثمت كانت وفاته بحماة ودفن بتربته بها رحمه الله تعالى واستقر بعده فى سلطنة حماة ولده الملك الافضل محمد وفيه يقول جمال الدين بن نباتة المصرى

أهلا بقدمك السعيد وحبذا عيش على رغم الاعادى مقبل

طلع الهلال وبين وجهك للورى يتفاضلان فكنت أنت الافضل

(وفى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة) ورد لؤلؤ القندسى شاد الدواوين بالقاهرة لمصادرة أهل حلب وفتك فى المسلمين حتى أنشد فيه ابن الوردى

قلبى لعمر الله معلول بماجرى للناس مع لولو

يارب قد شردعنى الكرا سيف على العالم مسلول

وماهذا السيف من مغمد سواك يامن لطفه السول

(وفى سنة ست وثلاثين وسبعمائة) عمر تنكز نائب الشام قلعة جعبر بامر الملك الناصر وفيها حاصر الطنبغا قلعة النقير وخربها (وفى سنة سبع وثلاثين وسبعمائة) توجه الطنبغا ومعه عساكر مصر والشام وحاصر اياس وأخذت بالامان وتسلم القلاع التى هى شرقى نهر جيحان (وفى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة) من توفى قاضى القضاة شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الرحيم بن المسلم البارزى الجهنى الحموى الشافعى وكان اماما كبيرا رحلت

نائبه أمين الدين لؤلؤ فبقى الحصار الى اول ذى القعدة فارسلوا يذعنون بالطاعة ويطلبون العوض عنها ليسلموها فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها واقطاع ومال وغير ذلك فاجابهم بدر الدين الى ماطلبوا وحضر نوابهم ليحلفوا بدر الدين فبينما هو يريد أن يحلف لهم وقد احضر من يشهد اليمين اذ قد وصل طائر من العمادية وعلى جناحه رقعة من أمين الدين لؤلؤ يخبر أنه قد ملك العمادية قهرا وعنوة وأسر بنى خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه فامتنع بدر الدين من اليمين وأما سبب غلبة أمين الدين عليها فانه كان قد ولاه بدر الدين عليها لما عاد أهلها الى طاعته فبقى فيها مدة فاحسن اليهم واحسن السيرة فيهم واستمال جماعة منهم ليتقوى بهم على الحزب الذين عصوا ولا فى الخبر اليهم فاساؤا مجاورته واستقالوا منه ولايته عليهم ففارقهم الى الموصل وكان أولئك الذين استمالهم يكاتبونه ويراسلونه فلما حصرهم كانوا أيضا يكاتبونه فى النشاب يخبرونه بكل ما يفعله أولاد خواجه من انفاذ رسول وغير ذلك وبما عندهم من الذخائر الا انهم لم يكونوا فى الكثرة الى انهم يقهرون أولئك فلما كان الآن واستقرت القواعد من التسليم لم يذكر اولاد خواجه احدا من جند القلعة فى نسخة اليمين بمال ولا غيره من امام واقطاع فسخطوا هذه الحال وقالوا لهم قد حلفتم لانفسكم بالحصون والقرى والمال ونحن قد خربت بيوتنا الاجلكم فلم تذكرونا فاهانوهم ولم يلتفتوا اليهم فحضر عند أمين الدين رجلان منهم ليلا وطلبوا منه ان يرسل اليهم جمعا يصعدونهم الى القلعة ويثبون بأولئك ويأخذونهم فامتنع وقال أخاف ان لا يتم هذا الامر ويفسد علينا كل مافعلناه فقالوا نحن نقبض عليهم غدا بكرة وتكون انت والعسكر على ظهر فاذا سمعتم النداء باسم بدر الدين وشعاره تصعدون الينا فاجابهم الى ذلك وركب بكرة هو والعسكر على العادة وأما أولئك فانهم اجتمعوا وقبضوا على أولاد خواجه ومن معهم ونادوا بشعار بدر الدين فبينما العسكر قيام اذا الصوت من القلعة باسم بدر الدين فصعدوا اليها وملكوها وتسلم أمين الدين أولاد خواجه فحبسهم وكتب الرقعة على جناح الطائر بالحال وملكوا القلعة صفوا عفوا بغير عوض وكان يريد ان يغرم مالا جليلا واقطاعا كثيرة وحصنا منيعا فتوفر الجميع عليه وأخذ منهم كل ما احتقبوه وادخروه واذا أراد الله أمرا فلا مرد له

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة ليلة الاحد والعشرين من صفر زلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة والعراق وغيرها زلزلة متوسطة وفيها اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها فاكل الناس الميتة والكلاب والسنانير فقل الكلاب والسنانير بعد ان كانوا كثيرا ولقد دخلت يوما الى دارى فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطبخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثنى عشر سنورا ورأيت اللحم فى هذا الغلاء فى الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها وليس بين المرتين كثير وغلا مع الطعام كل شئ فبيع الرطل الشيرج بقيراطين بعد ان كان بنصف قيراط قبل الغلاء وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا بدينار ومن العجب ان السلق والجزر والسلجم بيع كل خمسة أرطال بدرهم وبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم وبيع فى بعض الاوقات كل سبعة أرطال بدرهم وهذا مالم يسمع بمثله ولقد رأينا مالم نر ولا سمعنا بمثله فان الدنيا مازالت قديما وحديثا اذا غلت الاسعار متى جاء المطر رخصت الا هذه السنة فان الامطار مازالت متتابعة

اليه الناس وأخذوا عنه العلوم رحمه الله تعالى (وفى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة) ولى نيابة حلب الامير سيف الدين طرغاى عوضا عن الطنبغا (وفى سنة أربعين وسبعمائة) توفى الامير تنكز الناصرى نائب دمشق وكان عفيفا صارما انشأ بدمشق جامعه المعروف وطالت مدته بها نحو ثلاثين سنة وأنشد فى ذلك القاضى الفاضل صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدى

الاهل لليلات تقضت على الحمى تعود بوعد للسرور منجز

ليال اذا رام المبالغ وصفها يشبهها حسنا بايام تنكز

(وفى سنة احدى وأربعين وسبعمائة) توفى الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان عمره نحو ثمان وخمسين سنة ومدة سلطنته نحو ثلاث واربعين سنة قال القاضى بدر الدين الحسن بن حبيب فى تاريخه عنه جلس على سرير الملك ثلاث مرات وظفر بالابعد من التهانى والمسرات واستقر فى السلطنة ولده الملك المنصور أبو بكر بعهد من ابيه اليه واستقر فى نيابة حلب الامير طشتمر عوضا عن طرغاى (وفى سنة اثنتين واربعين وسبعمائة) توفى الملك المنصور ابو بكر بن محمد بن قلاوون واستقر أخوه الاشرف كجك فى اول شهر ربيع الاول وخلع فى رمضان واستقر فى السلطنة اخوه الملك الناصر احمد وفيها توفى الافضل محمد بن المؤيد صاحب حماة وفيها توفى الامير الطنبغا الصالحى مقبوضا عليه بالاسكندرية وكان ملكا جليلا خيرا دينا له غزوات عديدة فى بلاد سيس وولى نيابة دمشق وولى حلب مرتين نحو عشرين سنة وعمر بظاهرها

من أول الشتاء الى آخر الربيع وكلما جاء المطر غلت الاسعار وهذا مالم يسمع بمثله فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط يكون وزنه خمسة وأربعين رطلا دقيقا بالبغدادى وكان الملح مكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم وكان الارز مكوك باثنى عشر درهما فصار المكوك بخمسين درهما وكان التمر كل أربعة أرطال وخمسة أرطال بقيراط فصار كل رطلين بقيراط ومن عجيب مايحكى ان السكر النادر الاسمر كان كل رطل بدرهم وكان السكر الابلوج المصرى النقى كل رطل بدرهمين فصار السكر الاسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الابلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع وسببه ان الامراض لما كثرت واشتد الوباء قال النساء هذه الامراض باردة والسكر الاسمر حار فينفع منها والابلوج بارد يقويها وتبعهن الاطباء استمالة لقلوبهن وللجهلهن فغلا الاسمر بهذا السبب وهذا من الجهل المفرط ومازالت الاشياء هكذا الى أول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت والمرض فى الناس فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسى خطيب الموصل وكان من صالحى المسلمين وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر وفيها هرب أمير حاج العراق وهو حسام الدين أبو فراس الحلى الكردى الوارمى وهو ابن أخى الشيخ ورام كان عمه من صالحى المسلمين وخيارهم من أهل الحلة السيفية فارق الحاج بين مكة والمدينة وسار الى مصر حكى لى بعض اصدقائه انه انما حمله على الهرب كثرة الخرج فى الطريق وقلة المعونة من الخليفة ولما فارق الحاج خافوا خوفا شديدا من العرب فامن الله خوفهم ولم يرعهم ذاعر فى جميع الطريق ووصلوا آمنين الا ان كثيرا من الجمال هلك أصابها غدة عظيمة لم يسلم الا القليل وفيها فى آب جاء مطر شديد ورعد وبرق ودام حتى جرت الاودية وامتلأت الطرق بالوحل ثم جاء الخبر من العراق والشام والجزيرة وديار بكر انه كان عندهم مثله ولم يصل الينا أحد الا وأخبر ان المطر كان عندهم فى ذلك التاريخ وفيها كان فى الشتاء ثلج كثير ونزلت بالعراق فسمعت أنه نزل فى جميع العراق حتى فى البصرة اما الى واسط فلا شك فيه وأما البصرة فان الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها وفيها اخرجت قلعة الزعفران من أعمال الموصل وهى حصن مشهور يعرف قديما بدير الزعفران وهو على جبل عال قريب من فرشابور وفيها أيضا خربت القلعة الجديدة من بلد الهكارية من أعمال الموصل أيضا وأضيف عملها وقراها الى العمادية وفيها فى ذى الحجة سار جلال الدين بن خوارزم شاه من تبريز الى بلد الكرج قاصدا الاخذ بلادهم واستئصالهم وخرجت السنة ولم يبلغنا انه فعل بهم شيأ ونحن نذكر مافعله بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة ان شاء الله وفيها ثالث شباط سقط ببغداد ثلج وبرد الماء بردا شديدا وقوى البرد حتى مات به جماعة من الفقراء وفيها فى ربيع الاول زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس باصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الاولة ثم نقص الماء واستبشر الناس

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك جلال الدين تفليس ﴾

فى هذه السنة ثامن ربيع الاول فتح جلال الدين بن خوارزم شاه مدينة تفليس من الكرج وسبب ذلك انا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة الحرب بينه وبينهم وانهزامهم منه

جامعه المعروف وعدة قصاطل وسلانات وفيها توفى الامير موسى بن مهنا ابن عيسى بن مهنا حاكم العرب بتدمر وفيها توفى الحافظ
ابو الحجاج يوسف بن الزكى عبد الرحمن بن ١٧٤ يوسف المزى وهو القائل ان عاد يوما رجل مسلم * أخاله فى الله أو زاره

وعوده الى تبريز بسبب الخلاف الواقع فيها فلما استقر الامر فى اذربيجان عاد الى بلد الكرج فى ذى الحجة من السنة وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ودخلت هذه السنة فقصد بلادهم وقد عادوا وحشدوا وجمعوا من الامم المجاورة لهم اللان والكز وقفجاق وغيرهم فاجتمعوا فى جمع كثير لا يحصى فطمعوا بذلك ومنتهم أنفسهم الاباطيل ووعدهم الشيطان الظفر وما يعدهم الشيطان الاغرورا فلقيهم وجعل لهم الكمين فى عدة مواضع والتقوا واقتتلوا فولى الكرج منهزمين لا يلوى الاخ على أخيه ولا الوالد على ولده وكل منهم قد اهمته نفسه وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب فلم ينج منهم الا اليسير الشاذ الذى لا يعبأ به وأمر جلال الدين عسكره ان لا يبقوا على أحد وان يقتلوا من وجدوا فتبعوا المنهزمين يقتلونهم واشار عليه أصحابه بقصد تفليس دار ملكهم فقال لا حاجة لنا الى ان نقتل رجالنا تحت الاسوار انما اذا أفنيت الكرج أخذت البلاد صفواعفوا ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصى فى طلبهم الى ان كادوا يفنونهم فحينئذ قصد تفليس ونزل بالقرب منها وسار فى بعض الايام فى طائفة من العسكر وقصدها لينظرها ويبصر مواضع النزول عليها وكيف يقاتلها فلما قاربها كمن أكثر العسكر الذى معه فى عدة مواضع ثم تقدم اليها فى نحو ثلاثة آلاف فارس فلما رآه من بها من الكرج طمعوا فيه لقلة من معه ولم يعلموا امامعهم فظهروا اليه فقاتلوه فتأخر عنهم فقوى طمعهم فظنوه منهزما فتبعوه فلما توسطوا العساكر خرجوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وانهزم الباقون الى المدينة فدخلوها وتبعهم المسلمون فلما وصلوا اليها نادى المسلمون من أهلها بشعار الاسلام وباسم جلال الدين فالقى الكرج بايديهم واستسلموا لانهم كانوا قد قتل رجالهم فى الوقعات المذكورة فقل عددهم وملئت قلوبهم خوفا ورعبا فملك المسلمون البلد عنوة وقهرا بغير أمان وقتل كل من فيه من الكرج ولم يبق على كبير ولا صغير الا من أذعن بالاسلام وأقر بكلمتى الشهادة فانهم أبقى عليهم وأمرهم فختنوا وتركهم ونهب المسلمون الاموال وسبوا النساء واسترقوا الاولاد ووصل الى المسلمين الذين بها بعض الاذى من قتل ونهب وغيره وهذه تفليس من أحصن البلاد وأمنعها وهى على جانبى نهر الكرج وهو نهر كبير ولقد جل هذا الفتح وعظم موقعه فى بلاد الاسلام وعند المسلمين فان الكرج كانوا قد استطالوا عليهم وفعلوا بهم ما أرادوا فكانوا يقصدون أى بلاد اذربيجان أرادوا فلا يمنعهم عنها مانع ولا يدفعهم عنها دافع وهكذا ارزن الروم حتى ان صاحبها لبس خلعة ملك الكرج ورفع على رأسه علما منه فى أعلاه صليب وتنصر ولده رغبة فى نكاح ملكة الكرج وخوفا منهم ليدفع الشر عنه وقد تقدمت القصة وهكذا دربند شروان وعظم أمرهم الى حد أن ركن الدين بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وسائر بلاد الروم التى للمسلمين جمع عساكره وحشدها وغيرها فاستكثر وقصد ارزن الروم وهى لاخيه طغرل شاه بن قلج ارسلان فأتاه الكرج وهزموه وفعلوا به وبعسكره كل عظيم وكان أهل دربند شروان معهم فى الضنك والشدة وأما ارمينية فان الكرج دخلوا مدينة ارجيش وملكوا اقرس وغيرها وحصروا اخلاط فلولا أن الله سبحانه من على المسلمين باسر ايوانى مقدم عساكر الكرج لملكوها فاضطر أهلها الى أن بنوا لهم بيعة فى القلعة يضرب فيها الناقوس فرحلوا عنهم وقد تقدم تفصيل هذه الجملة ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا على

فهو جدير عند أهل النهى
بان يحط الله أوزاره
توفى بدمشق وعمره نحو التسعين (وفى سنة ثلاث واربعين وسبعمائة) توجه السلطان احمد الى الكرك وعصى بها واستقر فى السلطنة بمصر أخوه الملك الصالح اسمعيل واستقر الامير طقردمر الحموى فى نيابة حلب عوضا عن ايدغمش ونقل ايدغمش الى نيابة دمشق وبعد خمسة أشهر توفى بدمشق ونقل طقردمر الى نيابة دمشق واستقر عوضه بحلب الطنبغا الماريدينى وتوفى الامير طاشتمر الناصرى (وفى سنة اربع واربعين وسبعمائة) كانت الزلزلة العظيمة بمصر والشام وخرجت الناس الى الصحارى وتواترت بعدها زلازل مدة وأنشد

زلزلت الارض بنا زلزالها
وقال كل من عليها مالها
فقلت ادفروا الى صحرائها
قد أخرجت أرضكم أثقالها

وفيها توفى الطنبغا المارداني واستقر مكانه يلبغا اليحياوى وبعد سنين نقل الى نيابة دمشق واستقر مكانه ارقطاى (وفى سنة ست وأربعين وسبعمائة) توفى الملك الصالح اسمعيل قيل انه لما حوصر أخوه السلطان احمد بالكرك وأحضر رأسه الى الصالح اسمعيل ارتجف ومرض ومات واستقر فى السلطنة أخوه الملك الكامل شعبان وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباتة

جبين سلطاننا المرجى * مبارك الطالع البديع
يا بهجة الدهر اذ تبدى * هلال شعبان فى ربيع
وفيها توفى الامير طغرلبك الحموى فى نيابة دمشق باشر نيابة مصر ودمشق وحلب وحماة ١٧٥ (وفى سنة سبع واربعين وسبعمائة) قتل

على المجاورين من الفرس قبل الاسلام وعلى المسلمين بعدهم من أول الاسلام الى الآن ولم يقدم احد عليهم هذا الاقدام ولا فعل بهم هذه الافاعيل فان الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة وخمسمائة والسلطان حينئذ محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى وهو من أعظم السلاطين منزلة وأوسعهم مملكة وأكثرهم عساكر فلم يقدر على منعهم عنها هذا مع سعة بلاده فانه كان له الرى وأعمالها وبلاد الجبل وأصفهان وفارس وخوزستان والعراق واذربيجان واران وأرمينية وديار بكر والجزيرة والموصل والشام وغير ذلك وعمه السلطان سنجر له خراسان وما وراء النهر فكان أكثر بلاد الاسلام بايديهم ومع هذا فانه جمع عساكره سنة تسع عشرة وخمسمائة وسار اليهم بعد أن ملكوها فلم يقدر عليهم ثم ملك بعده أخوه السلطان مسعود فكذلك وملك الدكز بلاد الجبل والرى واذربيجان واران وأطاعه صاحب خلاط وصاحب فارس وصاحب خوزستان وجمع وحشد لهم وكان قصاراه أن يتخلص منهم ثم ابنه البهلوان بعده وكانت البلاد فى أيام أولئك كثيرة الاموال والرجال فلم يحدثوا أنفسهم بالظفر بهؤلاء حتى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكرج أولا ثم استأصلها التتر لعنهم الله على ما ذكرنا ففعل بهم هذه الافاعيل فسبحان من اذا أراد أمرا قال له كن فيكون

(ذكر مسير مظفر الدين صاحب اربل الى الموصل وعوده عنها)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل الى أعمال الموصل قاصدا اليها وكان السبب فى ذلك انه استقرت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزمشاه وبين الملك المعظم صاحب دمشق وبين صاحب آمد وبين ناصر الدين صاحب ماردين ليقصدوا البلاد التى بيد الاشرف ويتغلبوا عليها ويكون لكل منهم نصيب ذكره واستقرت القواعد بينهم على ذلك فبادر مظفر الدين الى الموصل وأما جلال الدين فانه سار من تفليس يريد خلاط فاتاه الخبر ان نائبه ببلاد كرمان واسمه بلاق حاجب قد عصى عليه على ما نذكره فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها الا ان عسكره نهب بعض بلدها وخربوا كثيرا منه وسار مجدا الى كرمان فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه الا أن مظفر الدين سار من اربل ونزل على جانب الزاب ولم يمكنه العبور الى بلد الموصل وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل الى الاشرف وهو بالرقة يستنجده ويطلب منه ان يحضر بنفسه الموصل ليدفعوا مظفر الدين فسار منها الى حران ومن حران الى دنيسر فخرب بلد ماردين وأهلكه تخريبا ونهبا وأما المعظم صاحب دمشق فانه قصد بلد حمص وحماة وأرسل الى أخيه الاشرف يقول ان رحلت عن ماردين وحلب وأنا عن حمص وحماة وأرسلت الى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل فرحل الاشرف عن ماردين وعاد كل منهم الى بلده وخربت أعمال الموصل وأعمال ماردين بهذه الحركة فانها كانت قد أجحف بها تتابع الغلاء وطول مدته وجلاء أكثر أهلها فاتتها هذه الحادثة فازدادت خرابا

(ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره اليها)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة وصل الخبر الى جلال الدين ان نائبه بكرمان وهو أمير كبير اسمه بلاق حاجب قد عصى عليه وطمع فى البلاد أن يتملكها ويستبد بها لبعد جلال الدين عنها واشتغاله بما ذكرناه من الكرج وغيرهم وانه أرسل الى التتر يعرفهم قوة جلال الدين وملكه

الملك الكامل شعبان وولى السلطنة أخوه الملك المظفر حاجى واستقر فى نيابة حلب الامير طغتمر الاحمدى عوضا عن ارقطاى ثم استقر فى نيابة حلب عوضه الامير بيدمر البدرى وورد الى حلب وبلادها جراد عظيم (وفى ثمان واربعين وسبعمائة) توفى السلطان الملك المظفر حاجى قيل قتله بيتغاروس واستقر فى السلطنة أخوه الملك الناصر حسن واستقر فى نيابة حلب عوض البدرى الامير ارغونشاه ثم نقل الى دمشق واستقر عوضه فخر الدين ابان الناصرى ثم قبض واستقر عوضه ارقطاى الناصرى وفيها توفى بيبغا الجياوى وكان ملكا جليلا ولى حلب وحماة ودمشق وبنى جامعه المعروف (وفى سنة تسع واربعين وسبعمائة) كان الفناء الكبير بمصر والشام وغالب البلاد الامعرة النعمان وانشد فيه ابن الوردى

رأى المعرة عين زانها حور
لكن حاجبها بالجور مقرون
ماذا الذى يصنع الطاعون فى بلد
فى كل حين له بالجور طاعون

(وفى سنة خمسين وسبعمائة) ولى الامير ارغون الكامل نيابة حلب عوضا عن قطليجا الحموى وكان قد وليها نحو شهر ومات وفيها توفى الحاج ارقطاى الناصرى باشر نيابة حمص ثم صفد ثم طرابلس ثم حلب ثم مصر ثم دمشق فتوجه

كثيرا من البلاد وان أخذ الباقى عظمت مملكته وكثرت عساكره وسار اليكم وأخذ ما بايديكم من البلاد فلما سمع جلال الدين ذلك وكان قد سار يريد خلاط فتركها وسار الى كرمان يطوى المراحل أرسل بين يديه رسولا الى صاحب كرمان ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعد للامتناع منه فلما وصل الرسول علم ان ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته فاخذ ما يعز عليه وصعد الى قلعة منيعة فتحصن بها وجعل من يثق اليه من أصحابه فى الحصون يمتنعون بها وأرسل الى جلال الدين يقول اننى أنا العبد والمملوك ولما سمعت بمسيرك الى هذه البلاد أخليتها لك لانها بلادك ولو علمت انك تبقى على لحضرت بابك ولكنى أخاف هذا جميعه والرسول يحلف له ان جلال الدين بتفليس وهو لا يلتفت الى قوله فعاد الرسول فعلم جلال الدين انه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لانه يحتاج أن يحصرها مدة طويلة فوقف بالقرب من أصفهان وأرسل اليه الخلع وأقره على ولايته فبينما الرسل تتردد اذ وصل رسول من وزير جلال الدين اليه من تفليس يعرفه ان عسكر الملك الاشرف الذى بخلاط قد هزموا بعض عسكره وأوقعوا بهم ويحثه على العود الى تفليس فعاد اليها مسرعا

﴿ذكر الحرب بين عسكر الاشرف وعسكر جلال الدين﴾

لما سار جلال الدين الى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك فقلت عليهم الميرة فساروا الى أعمال ارزن الروم فوصلوا اليها ونهبوها وسبوا النساء وأخذوا من الغنائم شيأ كثيرا لا يحصر وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط فسمع النائب من الاشرف بخلاط وهو الحاجب حسام الدين على الموصلى فجمع العسكر وسار اليهم فأوقع بهم واستنقذ ما معهم من الغنائم وغنم كثيرا مما معهم وعاد هو وعساكره سالمين فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم فارسل الى صاحبه بكرمان يعرفه الحال ويحثه على الوصول اليه ويخوفه عاقبة التوانى والاهمال فرجع فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة الخليفة الظاهر بامر الله﴾

فى هذه السنة فى الرابع عشر من رجب توفى الامام الظاهر بامر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضىء بامر الله وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه رضى الله عنهما فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والاحسان الى رعيته وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان الى الرعية فرضى الله عنه وأرضاه وأحسن منقلبه ومثواه فلقد جدد من العدل ما كان دارسا واذكر من الاحسان ما كان منسيا وكان قبل وفاته أخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال فقرؤه فاذا فى أوله بعد البسملة اعلموا انه ليس امهالنا اهمالا ولا أغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراكا للاغراض انتهزتم فرصها مختلسة

من حلب الهاوما بعين المباركة وحمل الى حلب ودفن بتربة سودى وكان يحب حلب فانشد فيه قالوا ارقطاى مات قلت فهل فى الموت بعد الحياة من عجب ١٧٦ ما مات من فرحة بنقلته * بل مات من حزنه على حلب وكان عمره سبعين سنة وفيها توفى صفى الدين عبد العزيز ابن سرايا الحلى الشاعر المشهور ببغداد وفيها توفى ارغونشاه نائب دمشق مقتولا بالمنيبيع (وفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة) خلع السلطان حسن وحبس واستقر فى السلطنة الملك الصالح أخوه صالح (وفى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة) سار بيبغاروس نائب حلب ومعه قرجا بن دلغادر التركمانى الى مصر طالبا للملك بنفسه وانجرت معه عساكر عظيمة منها نائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد فخرج اليه السلطان الملك الصالح بعساكره فلما بلغه ذلك رجع من قبلى دمشق الى جهة سلب فنع عنها وتشتت شمله وتفرقوا أيادى سبأ واستقر نائبا بحلب عوضه الامير ارغون الكامل (وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة) خلع الملك الصالح صالح واستقر عوضه الملك الناصر حسن ثانيا وعاد الى السلطنة واستقر عوضه طاز فى نيابة حلب عوضا عن ارغون الكامل (وفى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة) توفى ارغون بن طيجوا الكاملى بالقدس الشريف ودفن فى تربته هناك وعمره دون الثلاثين سنه أنشأه الملك الصالح اسمعيل وزوجه أخته من أمه وكان يسمى ارغون الصغير فلما مات الصالح وولى أخوه الكامل أعطى أرغون تقدمة ألف ونهى أن يسمى ارغون من

من براثن ليث باسل وانياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من أصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وامنائه على خلقه والا هلكتم والسلام ولما توفى وجدوا فى بيت فى داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات ولم أزل علم الله سبحانه مذ ولى الخلافة أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان وفساد أهله وأقول لكثير من أصدقائنا وما أخوفنى أن تقصر مدة خلافته لان زماننا وأهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك

﴿ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله﴾

لما توفى الظاهر بامر الله بويع بالخلافة ابنه الاكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك فى الخير والاحسان الى الناس سيرة ابيه رضى الله عنه وأمر فنودى ببغداد بافاضة العدل وان من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد ان يصلى الجمعة فى المقصورة التى كان يصلى فيها الخلفاء فقيل له ان المطبق الذى يسلك فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير ولم يترك أحدا يمشى معه من أصحابه بالصلاة الى الموضع الذى كان يصلى فيه وسار هو ومعه خادمان وركابدار لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق وكان السعر قد تحرك بعد وفاة الظاهر بامر الله رضى الله عنه فبلغت المكارة ثمانية عشر قيراطا فأمر أن تباع الغلات التى له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا فرخصت الاسعار واستقامت الامور

﴿ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد﴾

فى هذه السنة فى شعبان سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان ملك بلاد الروم الى بلاد الملك المسعود صاحب آمد وملك عدة من حصونه وسبب ذلك ما ذكرناه من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزمشاه والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهما على خلاف الاشرف فلما رأى الاشرف ذلك أرسل الى كيقباذ ملك الروم وكانا متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد ويحاربه وكان الاشرف حينئذ على ماردين فسار ملك الروم الى ملطية وهى له فنزل عندها وسير العساكر الى ولاية صاحب آمد ففتحوا حصن منصور وحصن شمكاراد وغيرها فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الاشرف وعاد الى موافقته فأرسل الاشرف الى كيقباذ يعرفه ذلك ويقول له ليعيد الى صاحب آمد ما أخذ منه فلم يفعل وقال لم أكن نائبا للاشرف يأمرنى وينهانى فاتفق ان الاشرف سار الى دمشق ليصلح أخاه الملك المعظم وأمر العساكر التى له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد ان أصر ملك الروم على قصده فسارت عساكر الاشرف الى صاحب آمد

الصغير فسمى الكاملى وولى نيابة حلب ثم نقل الى نيابة دمشق عوضا عن ايتمش وتوجه فى حركة بيبغاروس الى ملاقاة العساكر المصرية وعاد مع طاز وسنجر الى حلب وراء بيبغاروس فاستمر فى حلب ثانيا ١٧٧ وحصر بيبغاروس وحبسه بالقلعة وكان آخر العهد به وحصر أحمد الساقى نائب حماة وبكلمش نائب طرابلس وقراجا بن دلغادر وعمر مارستانه بحلب داخل باب قنسرين ووقف عليه قرية نيش العظمى من الغربيات ثم طلب الى مصر أميرا مقدما ثم جهز الى الاسكندرية مقبوضا عليه ثم أفرج عنه وتوجه الى القدس الشريف وكانت به وفاته رحمه الله وفيها توفى الشيخ قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر بن أمير غازى الفارابى الاتقانى الحنفى مصنف غاية البيان فى شرح الهداية والتبيين فى شرح الاخسيكثى وولى تدريس مشهد الامام أبى حنيفة ببغداد وقدم مصر فاكرمه الامير صرغتمش وبنى له المدرسة الصرغتمشية المشهورة بالديار المصرية وتوفى بمصر (وفى سنة تسع وخمسين وسبعمائة) ولى الامير سيف الدين منجك الناصرى نيابة حلب عوضا عن طاز ثم نقل الى دمشق واستقر عوضه بحلب أمير على الماردانى (وفى سنة ستين وسبعمائة) نقل أمير على الى نيابة دمشق واستقر عوضه بحلب الامير بكتمر المؤمنى ثم أمسك واستقر عوضه الامير بيدمر الخوارزمى (وفى سنة احدى وستين وسبعمائة) توجه الامير بيدمر الخوارزمى بالعساكر الحلبية الى غزو الارمن بالبلاد السيسية

وقد جمع عسكره ومن ببلاده ممن يصلح للحرب وسار الى عسكر ملك الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا فالتقوا هناك فى شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة عظيمة وجرح كثير وأسر كثير وملك عسكر كيقباذ قلعة الكختا بعد الهزيمة وهى من أمنع الحصون والمعاقل فلما ملكوه عادوا الى صاحبهم

﴿ذكر حصر جلال الدين مدينتى آنى وقرس﴾

فى هذه السنة فى رمضان عاد جلال الدين من كرمان كما ذكرناه الى تفليس وسار منها الى مدينة آنى وهى للكرج وبها ايوانى مقدم عساكر الكرج فيمن بقى معه من أعيان الكرج فحصره وسير طائفة من العسكر الى مدينة قرس وهى للكرج أيضا وكلاهما من أحصن البلاد وأمنعها فنازلهما وحصرهما وقاتل من بهما ونصب عليهما المجانيق وجد فى القتال عليهما وحفظهما الكرج وبالغوا فى الحفظ والاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل بأشياعهم من قبل بمدينة تفليس وأقام عليهما الى أن مضى بعض شوال ثم ترك العسكر عليهما يحصرونهما وعاد الى تفليس وسار من تفليس مجدا الى بلاد ابخاز وبقايا الكرج فأوقع بمن فيها فنهب وقتل وسبى وخرب البلاد وأحرقها وغنم عساكره ما فيها وعاد منها الى تفليس

﴿ذكر حصر جلال الدين خلاط﴾

قد ذكرنا ان جلال الدين عاد من مدينة آنى الى تفليس ودخل بلاد ابخاز وكان رحيله مكيدة لانه بلغه ان النائب عن الملك الاشرف وهو الحاجب حسام الدين على بمدينة خلاط قد احتاط واهتم بالامر وحفظ البلد لقربه منه فعاد الى تفليس ليطمئن أهل خلاط ويتركوا الاحتياط والاستظهار ثم يقصدهم بغتة فكانت غيبته ببلاد ابخاز عشرة أيام وعاد وسار مجدا على عادته فلو لم يكن عنده من يراسل نواب الاشرف بالاخبار لفجأهم على حين غفلة منهم وانما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره وكتب اليهم يحذرهم فوصل الخبر اليهم قبل وصوله بيومين ووصل جلال الدين فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة ثم رحل عنها فنازل مدينة خلاط يوم الاثنين خامس عشره فلم ينزل حتى زحف اليها وقاتل أهلها قتالا شديدا فوصل عسكره سور البلد وقتل بينهم قتلى كثيرة ثم زحف اليها مرة ثانية وقاتل أهل البلد قتالا عظيما فعظمت نكاية العسكر فى أهل خلاط ووصلوا الى سور البلد ودخلوا الربض الذى له ومدوا أيديهم فى النهب وسبى الحريم فلما رأى أهل خلاط ذلك تذامروا وحرض بعضهم بعضا فعادوا الى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد وقتل بينهم خلق كثير وأسر العسكر الخوارزمى من أمراء خلاط جماعة وقتل منهم كثير وترجل الحاجب على ووقف فى نحر العدو وأبلى بلاء عظيما ثم ان جلال الدين استراح عدة أيام وعاود الزحف مثل أول يوم فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد وكان أهل خلاط مجدين فى القتال حريصين على المنع عن أنفسهم لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد وما فيهم من الفساد فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله ثم أقام عليها الى أن اشتد البرد ونزل شئ من الثلج فرحل عنها يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة من السنة وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان

وفتح اذنة وطرسوس والمصيصة وعدة قلاع وعاد مؤيدا منصورا وفيها ولى الامير شهاب الدين أحمد بن القشتمرى نيابة حلب عوضا عن بيدمر الخوارزمى (وفى سنة اثنتين وستين وسبعمائة) توفى السلطان الملك الناصر حسن قتله مملوكه الامير بلبغا الخاصكى واستقر فى السلطنة ابن أخيه الملك المنصور محمد بن الملك المظفر حاجى واستقر فى نيابة حلب قطلوبغا الاحمدى عوضا عن ابن القشتمرى (وفى سنة ثلاث وستين وسبعمائة) توفى خليفة مصر الامام المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر بن المستكفى بالله أبو الربيع سليمان واستقر مكانه ولده المتوكل على الله أبو عبد الله محمد وفيها استقر الامير سيف الدين منكلى بغا الشمسى فى نيابة حلب عوضا عن الاحمدى واستمر سنة كاملة وفيها توفى الامير طاز بدمشق بعد ان أمسك حين عصى بحلب وخرج منها فى حمية واكحل ثم أطلق (وفى سنة أربع وستين وسبعمائة) خلع السلطان الملك المنصور محمد ابن المظفر واستقر عوضه فى السلطنة ابن عمه الملك الاشرف شعبان بن حسين ابن الناصر محمد بن قلاوون وكان ولايته فى شعبان أيضا ولم يكن أبوه ولى سلطنة وكان لقبه الملك الامجد حسين وعاد الى نيابة حلب قطلوبغا الاحمدى ونقل منكلى بغا الى دمشق نائبا وبعد ثلاثة أشهر مات قطلوبغا الاحمدى بحلب واستقر عوضه الامير اشقتمر الماردينى فى أوائل سنة خمس وستين وسبعمائة وفيها أعنى سنة أربع توفى القاضى الفاضل صلاح الدين أبو الصفا خليل بن

الايوائية من الفساد ببلاد

﴿ذكر ايقاع جلال الدين بالتركمان الايوائية﴾

كان التركمان الايوائية قد تغلبوا على مدينة اشنو وأرمية من نواحى اذربيجان وأخذوا الخراج من أهل خوى ليكفوا عنهم واغتروا باشتغال جلال الدين بالكرج وبعدهم بخلاط وازداد طمعهم وانبسطوا باذربيجان ينهبون ويقطعون الطريق والاخبار تأتى الى خوارزمشاه جلال الدين وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو أهم عنده وبلغ من طمعهم انهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز وأخذوا من تجار أهلها شيأ كثيرا ومن جملة ذلك انهم اشتروا غنما من ارزن الروم وقصدوا بها تبريز فلقيهم الايوائية قبل وصولهم الى تبريز فأخذوا جميع ما معهم ومن جملته عشرون ألف رأس غنم فلما اشتد ذلك على الناس وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه فى البلاد اليه يستغيثون ويعرفونه ان البلاد قد خربها الايوائية ولئن لم يلحقها والا هلكت بالمرة فاتفق هذا الى خوف الثلج فرحل عن خلاط وجد السير الى الايوائية وهم آمنون مطمئنون لعلمهم ان خوارزمشاه على خلاط وظنوا انه لا يفارقها فلولا هذا الاعتقاد لصعدوا الى جبال لهم منيعة شاهقة لا يرتقى اليها الا بمشقة وعناء فانهم كانوا اذا خافوا صعدوا اليها وامتنعوا بها فلم يرعهم الا والعساكر الجلالية قد أحاطت بهم وأخذهم السيف من كل جانب فأكثروا القتل فيهم والنهب والسبى واسترقوا الحريم والاولاد وأخذوا من عندهم ما لا يدخل تحت الحصر فرأوا كثيرا من الامتعة التى أخذوها من التجار بحالها فى الشذوات لم تحل هذا سوى ما كانوا قد حلوه وفصلوه فلما فرغ عاد الى تبريز

﴿ذكر الصلح بين المعظم والاشرف﴾

نبتدئ بذكر سبب الاختلاف فنقول لما توفى الملك العادل أبو بكر بن أيوب اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقا حسنا وهم الملك الكامل محمد صاحب مصر والملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس وما يجاورها من البلاد والملك الاشرف موسى وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية ولما رحل الكامل عن دمياط لما كان الفرنج بمصر ونهبها صادفه أخوه المعظم من الغد وقويت نفسه وثبت قدمه ولولا ذلك لكان الامر عظيما وقد ذكرنا ذلك مفصلا ثم انه عاد من مصر وسار الى أخيه الاشرف ببلاد الجزيرة مرتين يستنجده على الفرنج ويحثه على مساعدة أخيه الكامل ولم يزل به حتى أخذه وسار الى مصر وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية كما ذكرناه قبل فكان اتفاقهم سببا لحفظ بلاد الاسلام وسر الناس أجمعون بذلك فلما فارق الفرنج مصر وعاد كل من الملوك أولاد العادل الى بلده بقوا كذلك يسيرا ثم سار الاشرف الى أخيه الكامل بمصر فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق فلم يستصحبه معه وأطال المقام بمصر فلا شك ان المعظم سار الى مدينة حماة وحصرها فأرسل اليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارها فازداد نفورا وقيل انه نقل اليه عنهما انهما اتفقا عليه والله أعلم بذلك ثم انضاف الى ذلك ان الخليفة الناصر لدين الله رضى الله عنه كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحاج العراقى فأعرض عنه وعن أخيه الاشرف

ايبك الصفدى المنشئ ورجامع اشتات المنظوم والمنثور باشر كتابة السر بمصر ودمشق ومن شعره أنشد * بسهم ألحاظه رمانى * وذبت من هجره وبينه * ان مت مالى سواه خصم * فانه قاتلى بعينه * (وفى سنة ست وستين وسبعمائة) تولى الامير جرجى نيابة حلب عوضا عن اشقتمر (وفى سنة ثمان وستين وسبعمائة) عاد الامير منكلى بغا الشمسى الى نيابة حلب عوضا عن جرجى الناصرى وأنشا جامعه المعروف بحلب داخل باب قنسرين وفيها توفى الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصرى الفارقى بالقاهرة ومن شعره

يا غائبين تعللنا لغيبتهم * بطيب لهو ولا والله لم يطب *
ذكرت والكاس فى كفى لياليكم * فالكاس فى راحة والقلب فى تعب

وانشدنى له بعض أصحابى بدمشق

لما تبدى فى حنين * تحار يا قلبى وعينى
فاعجب لها من وقعة * جاءت ببدر فى حنين

فانكرت عليه الجمع بين الضمير والظاهر وأنشدت بديها فى المعنى والقافية فقلت

وبدر فى حنين جاء يسطو * بسيف اللحظ والقد الردينى
فانى تنكر القتلى وبدر * أتانا وهو يخطر فى حنين

(وفى سنة تسع وستين وسبعمائة) زاد نهر حلب زيادة عظيمة وأصبحت منها بيوت لا أثر لها وقلعت كثيرا من الاشجار وأنشد فيه القاضى بدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب الحلبى

لما طما نهر قويق ولم * يأت بسبب بل بسيل غزير
قالت له الاشجار من حوله * مه لا فقد زدت علينا كثير

وفيها نقل منكلى بغا

لاتفاقهما وقاطعهما وراسل مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي صاحب اربل لعلمه بانحرافه عن الاشرف واستماله واتفقا على مراسلة المعظم وتعظيم الامر عليه فمال اليهما وانحرف عن أخويه ثم اتفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه فاشتد الامر على الاشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خلاط ولان المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل اليه وكذلك عساكر حلب وغيرهما من الشام فرأى الاشرف أن يسير الى أخيه المعظم بدمشق فسار اليه في شوال واستماله وأصلحه فلما سمع الكامل بذلك عظم عليه وظن ان اتفاقهما عليه ثم انهما راسلاه واعلماه بنزول جلال الدين على خلاط وعظما الامر عليه واعلماه ان هذه الحال تقتضي الاتفاق لعمارة البيت العادلي وانقضت السنة والاشرف بدمشق والناس على مواضعهم ينتظرون خروج الشتاء ما يكون من الخوارزميين وسنذكر ما يكون سنة أربع وعشرين وستمائة ان شاء الله تعالى

﴿ذكر الفتنة بين الفرنج والارمن﴾

في هذه السنة جمع البرنس الفرنجي صاحب انطاكية جموعا كثيرة وقصد الارمن الذين في الدروب من بلاد ابن ليون فكان بينهم حرب شديدة وسبب ذلك ان ابن ليون الارمني صاحب الدروب توفي قبل ولم يخلف ولدا ذكرا انما خلف بنتا فملكها الارمن عليهم ثم علموا ان الملك لا يقوم بامرأة فزوجوها من ولد البرنس فتزوجها وانتقل الى بلادهم واستقر في الملك نحو سنة ثم ندموا على ذلك وخافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم فثار وا بابن البرنس فقبضوا عليه وسجنوه فأرسل أبوه يطلب ان يطلق ويعاد في الملك فلم يفعلوا فأرسل الى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم وهذا ملك رومية أمره عند الفرنج لا يخالف فنهاه عنهم وقال انهم أهل ملتنا ولا يجوز قصد بلادهم فخالفه وأرسل الى علاء الدين كيقباذ ملك قونية وملطية وما بينهما من بلاد المسلمين وصالحه ووافقه على قصد بلاد ابن ليون والاتفاق على قصدها فاتفقا على ذلك وجمع البرنس عساكره ليسير الى بلاد الارمن فخالف عليه الداوية والاسبتار وهما جمرة الفرنج فقالوا ان ملك رومية نهانا عن ذلك الا انه أطاعه غيرهم فدخل أطراف بلاد الارمن وهي مضايق وجبال وعرة فلم يتمكن من فعل ما يريد واما كيقباذ فانه قصد بلاد الارمن من جهته وهي أسهل مدخلا من جهة الشام فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمائة فنهبها وأحرقها وحصر عدة حصون ففتح أربعة حصون وأدركه الشتاء فعاد عنها فلما سمع بابا ملك الفرنج برومية أرسل الى الفرنج بالشام يعلمهم انه قد حرم البرنس فكان الداوية والاسبتارية وكثير من الفرنج لا يحضرون معه ولا يسمعون قوله وكان أهل بلاده وهي انطاكية وطرابلس اذا جاءهم عيد يخرج من عندهم فاذا فرغوا من عيدهم دخل البلد ثم انه أرسل الى ملك رومية يشكو من الارمن وانهم لم يطلقوا ولده فأرسل الى الارمن يأمرهم باطلاق ابنه واعادته الى الملك فان فعلوا والا فقد أذن له في قصد بلادهم فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده فجمع البرنس وقصد بلاد الارمن فأرسل الارمن الى الاتابك شهاب الدين بحلب يستنجدونه ويخوفونه من البرنس ان استولى على بلادهم لانها تجاور أعمال حلب فأمدهم بجند وسلاح فلما سمع البرنس ذلك صمم العزم على قصد بلادهم فسار اليهم وحاربهم فلم يحصل على غرض فعاد عنهم حدثني بهذا رجل من عقلاء النصارى

الشمسي الى مصر أتابك الجيوش بها واستقر عوضه في نيابة حلب طيبغا الطويل ونقل أمير علي الى نيابة مصر واستقر عوضه بدمشق الامير منجك (وفي سنة سبعين وسبعمائة) توفي طيبغا الطويل نائب حلب قيل بسم دسه اليه المصريون حين بلغهم انه قصد المخامرة واستقر في نيابة حلب اسنبغا الابوبكري ثم طلب الى مصر واستقر عوضه بحلب قشتمر المنصوري وفي آخر السنة خرج الى العربان فقتل هو وولده وجماعة من العسكر وأعيد الى نيابة حلب الامير سيف الدين اشقتمر في سنة احدى وسبعين وسبعمائة (وفي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة) ظهر في السماء نور عظيم اتضحت به الطرق وقارب ضوء النهار الى الثلث الاخير وفيها توفي أمير علي المارداني نائبا بمصر وتوفي الامير جرجي نائبا بالشام (وفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة) رسم السلطان الملك الاشرف شعبان ان يكون للاشراف علامة خضراء في رؤسهم تعظيما لهم واحتراما وانشدت

شرفت الاشراف من سلطاننا
الاشرف بالخضر من القبضات
عزا وابد الاعاقد ألبست
اسلافهم في عالي الجنات

وانشد الشيخ أبو عبد الله المغربي محمد بن جابر الهواري الاندلسي نزيل حلب شيخ الفضل والادب

جعلوا لابناء الرسول علامة * ان العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم * يغني الشريف عن الطراز الاخضر

وفيها ولي عز الدين ايدمر الدوادار نيابة حلب عوضا عن

ممن دخل تلك البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وأنكر البعض

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة انخسف القمر مرتين أولاهما ليلة رابع عشر صفر وفيها كانت أعجوبة بالقرب من الموصل حامة تعرف بعين القيارة شديدة الحرارة تسميها الناس عين ميمون ويخرج مع الماء قليل من القار فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف لانها تنفع من الامراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء ففي هذه السنة برد الماء فيها حتى كان السابح فيها يجد البرد فتركوها وانتقلوا الى غيرها وفيها كثرت الذئاب والخنازير والحيات فقتل كثيرا فلقد بلغني ان ذئبا دخل الموصل فقتل فيها (وحدثني) صديق لنا له بستان بظاهر الموصل انه قتل فيه في سنة اثنتين وعشرين وستمائة جميع الصيف حيتين وقتل هذه السنة الى أول حزيران سبع حيات لكثرتها وفيها انقطع المطر بالموصل وأكثر البلاد الجزرية من خامس شباط الى ثاني عشر نيسان ولم يجر شيء يعتد به لكنه سقط اليسير منه في بعض القرى فجاءت الغلات قليلة ثم خرج الجراد الكثير فازدادت الناس أذى وكانت الاسعار قد صلحت شيأ فعادت لكثرة الجراد فغلت ونزل أيضا في كثير من القرى برد كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها واختلفت أقاويل الناس في أكبره كان وزن بردة مائتي درهم وقيل رطل وقيل غير ذلك الا انه أهلك كثيرا من الحيوان وانقضت هذه السنة والغلاء باق واشتد بالموصل وفيها اصطاد صديق لنا أرنبا فرآه وله انثيان وذكر وفرج انثى فلما شقوا بطنها رأوا فيها خرنقين سمعت هذا منه ومن جماعة كانوا معه وقالوا ما زلنا نسمع ان الارنب يكون سنة ذكرا وسنة أنثى ولا نصدق بذلك فلما رأينا هذا علمنا انه قد حمل وهو أنثى وانقضت السنة فصار ذكرا فان كان كذلك فيكون في الارانب كالخنثى من بني آدم يكون لاحدهم فرج الرجل وفرج الانثى فاني كنت بالجزيرة ولنا جار له بنت اسمها صفية فبقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة واذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لحيتها فكان لها فرج امرأة وذكر رجل وفيها ذبح انسان عند نار أس غنم فوجد لحمه مرا شديد المرارة حتى رأسه وأكارعه ومعلاقه وجميع أجزائه وهذا ما لم يسمع بمثله وفيها في يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة ضحوة النهار زلزلت الارض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية وكان أكثرها بشهرزور فانها خرب أكثرها لا سيما القلعة فانها أجحفت بها وخرب من تلك الناحية ست قلاع وبقيت الزلزلة تتردد فيها نيفا وثلاثين يوما ثم كشفها الله عنهم واما القرى بتلك الناحية فخرب أكثرها وفيها في رجب توفي القاضي حجة الدين أبو منصور المظفر بن عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل بها وكان قد أضر قبل وفاته بنحو سنتين وكان عالما بالقضاء عفيفا نزها ذا رياسة كبيرة وله صلات دارة للمقيم والوارد رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر

﴿ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر دخول الكرج مدينة تفليس واحراقها﴾

اشقتمر ونقل الى مكانه بطرابلس نائبا (وفي سنة خمس وسبعين وسبعمائة) ولي الامير بيدمر الخوارزمي نيابة حلب عوضا عن اشقتمر وبعد أربعة أشهر نقل بيدمر الى نيابة دمشق واعيد اشقتمر الى نيابة حلب (وفي سنة ست وسبعين وسبعمائة) توجه نائب حلب الامير اشقتمر بالعساكر الحلبية بامر السلطان الملك الاشرف لاخذ سيس وفتحها بعد حصار شهرين وعاد سالما غانما صحبته تكفور الارمن وجهزه الى مصر واستقر اقبغا الدوادار نائبا بها ثم بعد قليل جعلت سيس مملكة برأسها للفتوحات الجاهانية واضيف اليها طرسوس واذنة واياس وغيرها واستقر في كفالتها الامير موسى بن شهري واستقر بها حجاب وكاتب سر وأرباب الدولة على عادة الممالك واقطعت جهاتها عناشير وتوفي بها رحمه الله وفيها توفي السلطان أويس ابن الشيخ حسن بن الشيخ حسين بن اقبغا بن ايلكان سلطان العراقين كانت مدته تسع عشرة سنة أخذها عن السلطان أبيه وأبوه عن أبي سعيد وأبو سعيد عن خربندا المقدم ذكره وفيها توفي السيد الشريف جمال الدين عبد الله بن محمد بن أحمد الحسيني النيسابوري وكان سيبويه زمانه بل زمخشريه (وفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة) توفي الامير منجك نائبا بمصر وولي نيابة صفد وطرابلس وحلب ودمشق ومصر وله آثار كثيرة من العمائر منها الصهريج بالقرب من قلعة الجبل والخانات في الطرق المخوفة ﴿وفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة﴾ كنت نزيلا بالقاهرة مقيما بالصرغتمشية فطلبني الملك

في هذه السنة في ربيع الاول وصل الكرج مدينة تفليس ولم يكن بها من العسكر الاسلامي من يقوم بحمايتها وسبب ذلك ان جلال الدين لما عاد من خلاط كما ذكرنا قبل وأوقع بالايوائية فرق عساكره الى المواضع الحارة الكثيرة المرعى ليشتوا بها وكان عسكره قد أساؤا السيرة في رعية تفليس وهم مسلمون وعسفوهم فكاتبوا الكرج يستدعونهم اليهم ليملكوهم البلد فاغتنم الكرج ذلك لميل أهل البلد اليهم وخلوه من العسكر فاجتمعوا وكانوا بمدينتي قرس وآني وغيرهما من الحصون وساروا الى تفليس وكانت خالية كما ذكرناه ولان جلال الدين استضعفه الكرج لكثرة من قتل منهم ولم يظن فيهم حركة فملكوا البلد ووضعوا السيف فيمن بقي من أهله وعلموا انهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدين فأحرقوها جميعها وأما جلال الدين فانه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم فلم ير منهم أحدا كانوا قد فارقوا تفليس لما أحرقوها

﴿ذكر نهب جلال الدين بلاد الاسماعيلية﴾

في هذه السنة قتل الاسماعيلية أميرا كبيرا من أمراء جلال الدين وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة وأعمالها وكان نعم الامير كثير الخير حسن السيرة ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشر فلما قتل ذلك الامير عظم قتله على جلال الدين واشتد عليه فسار في عساكره الى بلاد الاسماعيلية من حدود ألموت الى كردكوه بخراسان فخرب الجميع وقتل أهلها ونهب الاموال وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وعمل بهم الاعمال العظيمة وانتقم منهم وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضررهم وطمعوا مذ خرج التتر الى بلاد الاسلام الى الآن فكف عادية م وقمعهم ولقاهم الله ما عملوا بالمسلمين

﴿ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر﴾

لما فرغ جلال الدين من الاسماعيلية بلغه الخبر أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا الى دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الاسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينهم فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين عدة أيام يقتل ويأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفا من جمع آخر للتتر اذ أتاه الخبر بان كثيرا منهم واصلون اليه فاقام ينتظرهم وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمائة

﴿ذكر دخول العساكر الاشرفية الى اذربيجان وملك بعضها﴾

في هذه السنة في شعبان سار الحاجب علي حسام الدين وهو النائب عن الملك الاشرف بخلاط والمقدم على عساكرها الى بلاد اذربيجان فيمن عنده من العساكر وسبب ذلك ان سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكره طامعة في الرعايا وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي وهي التي كانت زوجة أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان فتزوجها جلال الدين كما ذكرناه قبل وكانت مع أوزبك تحكم في البلاد جميعها ليس له ولا لغيره معها حكم فلما تزوجها جلال الدين أهملها ولم يلتفت اليها فخافته مع ما حرمته من الحكم والامر والنهي فأرسلت هي وأهل خوي الى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد له فسار ودخل البلاد بلاد اذربيجان فملك مدينة خوي وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين وملك مرند وكاتبه أهل مدينة نقجوان فمضى اليهم فسلموها اليه وقويت شوكتهم بتلك البلاد ولو داموا لملكوها جميعها

اغا

الاشرف شعبان بن حسين وولاني قضاء حلب شكوا من جهل ابن العديم وطلبوا قاضيا من أهل العلم فطلب السلطان من علماء مصر من يصلح فاشار الشيخ سراج الدين البلقيني والشيخ أكمل الدين محمد الحنفي بولايتي فكانت وفيها تهيأ السلطان الاشرف ان يتوجه الى الحجاز فلم يتفق ﴿وفي سنة تسع وسبعين وسبعمائة﴾ عزم الاشرف وتوجه الى الحجاز فركب عليه بعض امرائه بمواطأة طشتمر الدوادار فهرب نحو القاهرة فلما وصل وجد الامير قرطاي وأينبك قد ادعيا موته وأقاما ولده عليا سلطانا ولقب الملك المنصور فنزل بقبة النصر وعلم به قرطاي وأينبك فارسلا اليه فوجداه قد هرب هو ويلبغا الناصري وأمسك بقية من كان معه وقتلوه وهم صرغتمش وارغون شاه ويلبغا السابقي وارغون الافرم وبعد يومين امسك السلطان الملك الاشرف شعبان وعوقب وقتل واستقر ولده الملك المنصور على سلطنته وكان طشتمر قد تأخر فلما وصل أرسل اليه قرطاي انك قد استقريت في نيابة دمشق فرأى العجز وتوجه الى دمشق ثم ان أينبك غدر بقرطاي وامسكه واستقر بالحكم فبلغ ذلك طشتمر فشق عليه وكاتب الامير اشقتمر نائب حلب وبقية نواب الشام فوافقوه على الخروج على أينبك وركب اليه اشقتمر ومعه نصر والعساكر الحلبية واجتمع الكل بدمشق قاصدين الديار المصرية ففي أول منزلة ركب عليه الامير برقوق والامير بركة فهرب نحو القاهرة ورجع السلطان والامراء وكتب برقوق وبركة الى طشتمر انك تحضر أميرا

انما عادوا الى خلاط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل الى خلاط وسنذكر باقي خبرهم سنة خمس وعشرين ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده﴾

في هذه السنة توفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق يوم الجمعة سلخ ذي القعدة وكان مرضه دوسنطاريا وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما وكان عالما بعدة علوم فاضلا فيها منها الفقه على مذهب أبي حنيفة فانه كان قد اشتغل به كثيرا وصار من المتميزين فيه ومنها علم النحو فانه اشتغل به أيضا اشتغالا زائدا وصار فيه فاضلا وكذلك اللغة وغيرها وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة جامع كبير فيه كتاب الصحاح للجوهري ويضاف اليه ما فات الصحاح من التهذيب للازهري والجمهرة لابن دريد وغيرهما وكذلك أيضا أمر بان يرتب مسند أحمد بن حنبل على الابواب ويرد كل حديث الى الباب الذي يقتضيه معناه مثاله أن يجمع أحاديث الطهارة وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات فيكون كتابا جامعا وكان قد سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين ونفق العلم في سوقه وقصده العلماء من الآفاق فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم وكان يرجع الى علم وصبر على سماع ما يكره لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه وكان حسن الاعتقاد يقول كثيرا ان اعتقادي في الاصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي ووصى عند موته بان يكفن في البياض ولا يجعل في أكفانه ثوب فيه ذهب وأن يدفن في لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء ويقول في مرضه لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به ولما توفي ولي بعده ابنه داود ولقب الملك الناصر وكان عمره قد قارب عشرين سنة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة ودامت الاسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا وانقطع المطر جميع شباط وعشرة أيام من أذار فازداد الغلاء فبلغت الحنطة كل مكوكين بالموصلي بدينار وقيراطين بالموصل والشعير كل ثلاثة مكاكيك بالموصلي بدينار وقيراطين أيضا وكل شئ بهذه النسبة في الغلاء وفيها في الربيع قل لحم الغنم بالموصل وغلا سعره حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادي بحبتين بالصنجة ورعا زاد في بعض الايام على هذا الثمن وحكى لي من يتولى بيع الغنم بالموصل انهم باعوا خروفا واحدا لا غير وفي بعضها خمسة أرؤس وفي بعضها ستة وأقل وأكثر وهذا ما لم يسمع بمثله ولا رأيناه في جميع أعمارنا ولا حكي لنا مثله لان الربيع مظنة رخص اللحم لان التركمان والاكراد والكيلكان ينتقلون من الامكنة التي شتوا بها الى الزوزان فيبيعون الغنم رخيصا وكان اللحم كل سنة في هذا الفصل يكون سعره كل ستة أرطال وسبعة بقيراط صار هذه السنة الرطل بحبتين وفيها عاشر اذار وهو العشرون من ربيع الاول سقط الثلج مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله فاهلك الازهار التي خرجت كزهر اللوز والمشمش والاجاص والسفرجل وغيرها ووصلت الاخبار من العراق بجميعه مثل ذلك فهلكت به ازهار الثمار أيضا وهذا أعجب

كبيرا بالقاهرة فاجاب الى ذلك وتفرقت العساكر من دمشق وتوجه طشتمر واستقر أميرا كبيرا بمصر ولما كان يوم عيد الاضحى من سنة تسع وسبعين وسبعمائة ركبوا على طشتمر وأمسكوه واستقر برقوق وبركة يحكمان بالديار المصرية وكتبغا الحموي بدمشق واشقتمر بحلب (وفي سنة ثمانين وسبعمائة) استقر في نيابة حلب الامير منكلي بغا البلدي عوضا عن اشقتمر ثم امسك واستقر عوضه تمرباي وتوجه الى التركمان وانكسر عسكر حلب كسرة لم تسبق مثلها من التركمان ومنها عظم شأن التركمان ومنعوا العداد ﴿وفي سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة﴾ عاد الامير اشقتمر في نيابة دمشق وعاد منكلي بغا البلدي الى نيابة حلب ورفع المكس عن أهل عزاز وفيها استقر اشقتمر في نيابة دمشق وعاد منكلي بغا البلدي الى نيابة حلب وتوفي بها واستقر عوضه الامير اينال اليوسفي في نيابة حلب (وفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة) توفي السلطان الملك المنصور علي بن شعبان واستقر في السلطنة أخوه الملك الصالح حاجي بن شعبان وفتحت مدينة دوركي واستقر بها نائبا الامير ابراهيم ابن شهري واستقر بيدمر الخوارزمي في نيابة دمشق عوضا عن اشقتمر واستقر يلبغا الناصري في نيابة حلب عوضا عن اينال ﴿وفي سنة أربع وثمانين وسبعمائة﴾ يوم الاربعاء تاسع عشر رمضان المعظم خلع السلطان الملك الصالح حاجي ابن شعبان واستقر عوضه الامير سيف الدين برقوق سلطانا ولقب بالملك الظاهر أبو سعيد ﴿وفي سنة خمس وثمانين وسبعمائة﴾

من حال ديار الجزيرة والشام فانه أشد حرا من جميعها وفيها اظفر جمع من التركمان كانوا باطراف أعمال حلب بفارس مشهور من الفرنج الداوية بانطاكية فقتلوه فعلم الداوية بذلك فساروا وكبسوا التركمان فقتلوا منهم وأسروا وغنموا من أموالهم فبلغ الى أتابك شهاب الدين المتولى لامور حلب فراسل الفرنج وتهددهم بقصد بلادهم واتفق ان عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية أيضا فاذعنوا بالصلح وردوا الى التركمان كثيرا من أموالهم وحريمهم وأسراهم وفيها فى رجب اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر وارادوا الاغارة على جزيرة ابن عمر وكان صاحب الجزيرة قد قتل فلما قصدوا بلاد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها اسلكون ولقوهم من ضحوة النهار الى العصر وطال القتال بينهم ثم حمل أهل القرية على الاكراد فهزموهم وقتلوا فيهم ونهبوا ما معهم وعادوا سالمين

(ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة)

(ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه)

فى هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزمشاه وهو أخو جلال الدين من أخيه وخافه معه جماعة من الامراء واستشعروا منه وأرادوا الخلاص منه فلم يتمكنوا من ذلك الى أن خرجت التتر واشتغل بهم جلال الدين فهرب غياث الدين ومن معه وقصدوا خوزستان وهى من بلاد الخليفة فلم يمكنهم النائب بها من الدخول الى البلاد خوفا أن تكون هذه مكيدة فبقى هناك فلما طال عليه الامر فارق خوزستان وقصد بلاد الاسماعيلية فوصل اليهم واحتمى بهم واستجار بهم وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر وعاد الى تبريز فأتاه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة ان أخاه قد قصد اصفهان فألقى الجوكان من يده وسار مجدا فسمع ان أخاه قد قصد الاسماعيلية ملتجئا اليهم ولم يقصد اصفهان فعاد الى بلاد الاسماعيلية لينهب بلادهم ان لم يسلموا اليه أخاه وأرسل يطلبه من مقدم الاسماعيلية فاعاد الجواب يقول ان أخاك قد قصدنا وهو سلطان ابن سلطان ولا يجوز لنا أن نسلمه لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيأ من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ما تكره فى بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار فأجابهم الى ذلك واستحلفهم على الوفاء بذلك وعاد عنهم وقصد خلاط على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر)

فى هذه السنة عاود التتر الخروج الى الرى وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا فى عددها كان أكثرها عليه وفى الاخير كان الظفر له وكانت فى أول حرب بينهم عجائب غريبة وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم وأبعده عنه وأخرجه من بلاده فقصد خراسان فرآها خرابا فقصد الرى ليتغلب على تلك النواحى والبلاد فلقيه بها جلال الدين فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم جلال الدين وعاود ثم انهزم وقصد اصفهان وأقام بينها وبين الرى وجمع عساكره ومن فى طاعته فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس وهو ابن أتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه كما ذكرناه وعاد جلال الدين الى التتر فلقيهم فبينما هم مصطفون كل

امسك بيدمر وحبس حتى مات فى الحبس واستقر مكانه فى نيابة دمشق الامير علاء الدين الطنبغا الجونانى (وفى سنة ست وثمانين وسبعمائة) أرسل النوروزبغا الجونانى الى الناصرى يطلب أبياتا تنقش على سنان رمح مثلث فأنشد فيه فضلاء دمشق وأنشد فيه الحلبية وأنشدت أنا

أنا الاسمر الخطى اسمو الى العلا
تقصر عن المرهفات وتقصر
حياض المنايا من قناتى قد جرت
أنابيبها من دماء وتهمر
وتجنى ثمار النصر منى جنية
فعودى لعمرى ذابل وهو مثمر

(وفى سنة سبع وثمانين وسبعمائة) أمسك الناصرى وحبس بالاسكندرية واستقر عوضه بحلب سودون المظفرى وأساء السيرة فى أهل حلب وتخيل من أرباب المناصب انهم لا يرونه بعين العظمة لكونه نشأ بحلب وضيعا (وفى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة) عصى منطاش بملطية فاستضعف السلطان سودون عن احضاره فعزله وأعاد السلطان الناصرى الى نيابة حلب وأهين سودون واستقر الناصرى بحلب أميرا (وفى سنة تسع وثمانين وسبعمائة) وجه الناصرى بمن معه من العساكر المصرية والشامية والحلبية الى جهة منطاش فالتجأ منطاش الى القاضى برهان الدين صاحب سيواس ووصل الناصرى بمن معه الى سيواس وحاصرها مدة وقارب أخذها فأرسل القاضى برهان الدين يطلب الامان وسأل الناصرى ان يتأخر عن المدينة قليلا ليخرج اليه ويسلمه منطاش فاتفق

طائفة مقابل الاخرى انفرد غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الامراء على مفارقة جلال الدين واعتزلوا وقصدوا جهة ساروا اليها فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين فانهزم التتر لهذا الظن وتبعهم صاحب بلاد فارس وأما جلال الدين فانه لما رأى مفارقة أخيه اياه ومن معه من الامراء ظن ان التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه فعاد منهزما ولم يجسر يدخل اصفهان لئلا يحصروه فمضى الى سميرم وأما صاحب فارس فلما أبعد فى أثر التتر ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه خاف التتر فعاد عنهم وأما التتر فلما لم يروا فى آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا ثم عادوا الى اصفهان فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم فوصلوا الى اصفهان فحصروها وأهلها يظنون ان جلال الدين قد عدم فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم اذ وصل قاصد من جلال الدين اليهم يعرفهم سلامته ويقول انى متعوق أو يجتمع الى من سلم من العسكر وأقصدكم ونتفق أنا وأنتم على ازعاج التتر وترحلهم عنكم فارسلوا اليه يستدعونه اليهم ويعدونه النصرة والخروج معه الى عدوه وفيهم شجاعة عظيمة فسار اليهم واجتمع بهم وخرج أهل اصفهان معه فقاتلوا التتر فانهزم التتر اقبح هزيمة وتبعهم جلال الدين الى الرى يقتل ويأسر فلما أبعدوا عن الرى أقام بها وأرسل اليه ابن جنكزخان يقول ان هؤلاء ليسوا من أصحابنا انما نحن أبعدناهم عنا فلما أمن جانب جنكزخان أمن وعاد الى اذربيجان

(ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا)

وفى هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم التى هى فى الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد الى بلادهم التى بالشام عكا وصور وغيرهما من ساحل الشام فكثر جمعهم وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضا الا أنهم لم يمكنهم الحركة والشروع فى أمر الحرب لاجل ان ملكهم الذى هو المقدم عليهم هو ملك الالمان ولقبه انبرور قيل معناه ملك الامراء ولان المعظم كان حيا وكان شهما شجاعا مقداما فلما توفى المعظم كما ذكرناه وولى بعده ابنه وملك دمشق طمع الفرنج وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين وانما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما وقد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى فعظمت شوكة الفرنج وقوى طمعهم واستولى فى طريقه على جزيرة قبرص وملكها وسار منها الى عكا فارتاع المسلمون لذلك والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله ثم ان ملكهم انبرور وصل الى الشام

(ذكر ملك كيقباذ ارزنكان)

وفى هذه السنة ملك علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان وهو صاحب قونية واقصرا وملطية وغيرها من بلاد الروم ارزنكان وسبب ملكه اياها ان صاحبها بهرامشاه وكان قد طال ملكه لها وجاوز ستين سنة توفى ولم يزل فى طاعة قلج ارسلان وأولاده بعده فلما توفى ملك بعده ولده علاء الدين داودشاه فارسل اليه كيقباذ يطلب منه عسكرا يسيرا معه الى مدينة ارزن الروم ليحصرها ويكون هو مع العسكر ففعل ذلك وسار فى عسكره اليه فلما وصل قبض عليه وأخذ

الناصرى مع عساكره على ان يظهر الاجابة لذلك ورحل من جانب النهر الى الجانب الآخر فلم ينزل معه من الجانب الآخر من العساكر الا القليل وطلبوا اقدام وتمت الحيلة على الناصرى وركب صاحب سيواس ومنطاش ومن معهما من التتر فى نحو عشرين ألفا فثبت الناصرى بمن معه وكانوا دون الالف وقاتلهم ونصر الله الناصرى وكسر صاحب سيواس فهرب هو ومنطاش الى المدينة وقتل الناصرى منهم نحو الالف وأسر مثل ذلك وعاد (وفى سنة تسعين وسبعمائة) أمسك الجونانى من دمشق واستقر عوضه الامير طربطادى وكان اذ ذاك حاجبا كبيرا بها (وفى سنة احدى وتسعين وسبعمائة) قتل سودون المظفرى بدار العدل فى ثامن صفر وأظهر الناصرى بعده الخروج على السلطان وأرسل وراء منطاش وأحضره وتوجه بمن معه من العساكر نحو مصر وانجمع اليه غالب العساكر الشامية وأخذ دمشق وقلعتها وتموج الامر على برقوق فجهز الى الخليفة فى طلب الامان وفرق مماليكه واختفى قبل وصول الامان ودخل الناصرى الى مصر وتسلمها وأمسك السلطان بعد تسعة أيام وجهزه معتقلا عليه الى الكرك وأعاد الملك الصالح حاجى الى السلطنة ولقبه الملك المنصور وقرر فى نيابة دمشق الامير بزلار وفى نيابة حلب كنبغا الحموى وفيها توفى اشقتمر بحلب ودفن فى تربته التى أنشأها (وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة) ركب منطاش على الناصرى وأمسكه

مدينة ارزنكان منه وله حصن من أمنع الحصون اسمه كماخ وفيه مستحفظ لداودشاه فارسل اليه ملك الروم يحصره فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه فتهدد داودشاه ان لم يسلم كماخ فارسل الى نائبه فى التسليم فسلم القلعة الى كيقباذ وأراد كيقباذ المسير الى ارزن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلج ارسلان فلما سمع صاحبها بذلك أرسل الى الامير حسام الدين على النائب عن الملك الاشرف بخلاط يستنجده وأظهر طاعة الاشرف فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفا من ملك الروم خافوا أنه اذا ملك ارزن الروم يتعدى أو يقصد خلاط فسار الحاجب حسام الدين الى ارزن الروم ومنع عنها ولما سمع كيقباذ بوصول العساكر اليها لم يقدم على قصدها فسار من ارزنكان الى بلاده وكان قد أتاه الخبر ان الروم الكفار المجاورين لبلاده قد ملكوا منه حصنا يسمى صنوب وهو من أحصن القلاع مطل على البحر بحر الخزر فلما وصل الى بلاده سير العسكر اليه وحصره برا وبحرا فاستعاده من الروم وسار الى انطاكية ليشتى بها على عادته

﴿ذكر خروج الملك الكامل﴾

فى هذه السنة فى شوال سار الملك الكامل محمد بن الملك العادل صاحب مصر الى الشام فوصل الى البيت المقدس حرسه الله تعالى وجعله دار الاسلام أبدا ثم سار عنه ونزل بمدينة نابلس وشحن على تلك البلاد جميعها وكانت من أعمال دمشق وهو الى الملك المعظم فخاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه فارسل الى عمه الملك الاشرف يستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل اليه الملك الاشرف يستعطفه ويعرفه أنه ما جاء الى دمشق الا طاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فأعاد الكامل الجواب يقول اننى ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضى الاعصار وممر الايام فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ادخره عمنا وأى وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون الى غيره وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى اننى قاتلت أخى أو حصرته حاشى لله تعالى وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل تل العجول فخاف الاشرف والناس قاطبة بالشام وعلموا أنه ان عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره لا مانع دونه فترددت الرسل وسار الاشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده وكان وصوله ليلة عيد الاضحية ومنعه من العود الى مصر فأقاما بمكانهما

﴿ذكر نهب جلال الدين بلاد ارمينية﴾

فى هذه السنة وصل جلال الدين خوارزمشاه الى بلاد خلاط وتعدى خلاط الى صحراء موش وجبل جور ونهب الجميع وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وخرب القرى وعاد الى

بلاده

مع جماعة من الامراء وأرسلهم الى الاسكندرية محبوسين وأرسل الى بزلار من أمسكه وقتله واستمر عوضه فى نيابة دمشق جنتمر أخو طاز وأرسل الى الكرك من يقتل السلطان برقوق وكان المرسل ممقوتا عند أهل الكرك فقتلوه وأطلقوا السلطان برقوق فسار الى دمشق بفرقة يسيرة وخرج اليه جنتمر بالعساكر الشامية فكسرهم ونزل بقبة يلبغا وحاصر دمشق وتوجه اليه نائب حلب كمشبغا بعساكر حلب ناصرا له واجتمع اليه من كان تفرق عنه فخرج اليه منطاش من مصر بالسلطان والعساكر المصرية والخليفة والقضاة وقرب من الشام والتقى الجمعان بشقحب فانتصر بعض كل من الفريقين وانكسر البعض ولم يعلم أحد حال احد فولى كمشبغا هاربا نحو حلب وولى منطاش نحو دمشق ولم يشعر الملك الظاهر برقوق بنفسه الا وهو على مخيم السلطان الملك المنصور حاجى فنزل وامسكه وجلس على الكرسى وجعل كل من يحضر من الفئتين يجده جالسا فلا يسعه الا النزول وتقبيل الارض وفى ثانى يوم خرج منطاش والتقى الجمعان وتناوشا قليلا ورجع كل أحد منهما وتوجه السلطان الظاهر من ليلته الى مصر فوصل اليها ووجد مماليكه قد خرجوا من الحبس وأمسكوا خلفاء منطاش ومنطاش مقيم بدمشق فدخل السلطان مصر مطمئنا فرحا وأطلق الامراء الذين حبسهم منطاش وأما منطاش فانه أرسل تمنتمر الموساى الى حلب نائبا وانضم اليه جماعة وحاصروا كمشبغا فى قلعتها وجهز السلطان برقوق عسكرا

بلاده ولما وصل الخبر الى البلاد الجزرية حران وسروج وغيرهما انه قد جاز خلاط الى جور وانه قد قرب منهم خاف أهل البلاد أن يجىء اليهم لان الزمان كان شتاء وظنوا أنه يقصد الجزيرة ليشتى بها لان البرد بها ليس بالشديد وعزموا على الانتقال من بلادهم الى الشام ووصل بعض أهل سروج الى منبج من أرض الشام فأتاهم الخبر انه قد نهب البلاد وعاد فأقاموا وكان سبب عوده ان الثلج سقط ببلاد خلاط كثيرا لم يعهد مثله فأسرع العود

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة رخصت الاسعار بديار الجزيرة جميعها وجاءت الغلات التى لهم من الحنطة والشعير جيدا الا ان الرخص لم يبلغ الاول الذى كان قبل الغلاء انما صارت الحنطة كل خمس مكاكيك بدينار والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصلى بدينار

﴿ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر تسليم البيت المقدس الى الفرنج﴾

فى هذه السنة أول ربيع الآخر تسلم الفرنج لعنهم الله البيت المقدس صلحا أعاده الله الى الاسلام سريعا وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الانبرور ملك الفرنج من بلاد الفرنج داخل البحر الى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل وأفسدوا من يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل بن أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق ولما وصل الانبرور الى الساحل نزل بمدينة عكا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم وهو نازل بتل العجول يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين داود بن المعظم وهو صاحبها يومئذ وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له قد أرسل الى عمه الملك الاشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه فسار الى دمشق وترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل فى الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الى الملك الكامل واجتمع به فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الانبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة فاستقرت القاعدة على أن يسلموا اليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين ولا يسلم الى الفرنج الا البيت المقدس والمواضع التى استقرت معه وكان سور البيت المقدس خرابا قد خربه الملك المعظم وقد ذكرنا ذلك وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لم يمكن وصفه يسر الله فتحه وعوده الى المسلمين بمنه وكرمه آمين

﴿ذكر ملك الاشرف مدينة دمشق﴾

وفى هذه السنة يوم الاثنين ثانى شعبان ملك الملك الاشرف بن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم وسبب ذلك ما ذكرناه ان صاحب دمشق لما خاف من عمه الملك الكامل أرسل الى عمه الاشرف يستنجده ويستعين به على دفع الكامل فسار اليه من

من مصر ومقدمهم الامير يلبغا الناصرى وأرسل معه الجوبانى نائبا بدمشق وقرادمرداش نائبا بطرابلس وبلغ ذلك منطاش فهرب من دمشق وبلغ ذلك تمنتمر فهرب من حلب وخرج الناصرى والجوبانى ومن معهما من العساكر من دمشق فى أثر منطاش وهو منضم الى نعير وعنقا وحصلت وقعة عظيمة على حمص قتل فيها الجوبانى وجماعة من الامراء وعاد الناصرى الى دمشق فجاءه تقليد بنيابتها وبلغ ذلك كمشبغا نائب حلب فأخذ فى عمارة سورها فعمرت احسن عمارة ولم تكن من عهد قازان عمرت ووصل منطاش ونعير وعنقا بعساكر عظيمة ونازلوا حلب وحاصروها فى شهر رمضان وانقلبوا خاسئين وتوجه منطاش الى شولى ابن دلغادر وقصدا عين تاب وكان بها الامير ناصر الدين محمد بن عز الدين شهرى بن شهرى ابن عم من أشار بوضع هذا التاريخ المشار اليه فى أول الكتاب وحوصر فأجاد فى رفعهم عنها وظهرت فروسيته وشكر على ذلك وطلبه السلطان بعد ذلك وأنعم عليه وأكرمه وولاه ملطية وطلب الامير كمشبغا الى مصر واستقر بها أميرا كبيرا واستقر عوضه قرادمرداش بحلب (وفى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة) هرب منطاش غربى حلب وتوجه الى حماة وأخذها وهرب نائبها احمد بن المهمندار وتوجه منطاش الى بعلبك فخرج اليه الناصرى فخالفه منطاش فى الطريق ودخل دمشق فى نهار الاحد مستهل رجب منها ونزل بالميدان والقصر الابلق وفى اليوم الثانى عاد الناصرى الى دمشق وبقى منطاش بظاهرها والناصرى داخلها يتناوشان

القتال كل يوم وبلغ ذلك السلطان فخرج نحو الشام وبلغ ذلك منطاش فهرب نحو الشرق وقدم السلطان دمشق واستصحب معه الناصري وقدم حلب وأقام بها أشهر وثم عاد وليلة عوده قتل يلبغا الناصري وجماعة من الامراء بقلعة حلب المحروسة وأخذ معه قرادمرداش وقرر عوضه في حلب الامير سيف الدين جلبان وقرر في نيابة دمشق الامير سيف الدين بطا الدوادار (وفي سنة أربع وتسعين وسبعمائة) وصل السلطان الملك الظاهر الى مصر وتوفي بوطا نائب دمشق واستقر عوضه الامير كمشبغا الخاصكي وباشر قليلا ومات واستقر عوضه سيف الدين تنم وفيها كان منطاش التجأ الى نعير بن جبار فارسل السلطان وعد نعيرا باعادة الامرية اليه ومناه حتى سلم منطاش وقتل بقلعة حلب واحضر رأسه الى مصر وعلق بباب زويلة وأرسل السلطان يوبخ نعيرا ويعيره بانه خان ذمة العرب ولم يوله الامرية وفيها أخذ يوسف بن قرا محمد أمير التركمان بالشرق مدينة تبريز وأرسل مفاتيحها الى السلطان الملك الظاهر فارسل اليه تشريفة فلبسها واستقر نائبها (وفي سنة خمس وتسعين وسبعمائة) قدم الى مصر السلطان أحمد ابن أويس هاربا من تيمورلنك وخرج السلطان اليه وتلقاه وأمر الامراء بالمشي في خدمته وأكرمه وأخبره السلطان أحمد ان تيمورلنك أخذ بلاد العجم والعراق وانه أرسل قصاده الى السلطان فكتب السلطان الى نائب الرحبة أن يقتل قصاده عن آخرهم ففعل وبلغ ذلك تيمورلنك فتوجه نحو

البلاد الجزرية ودخل دمشق وفرح به صاحبها وأهل البلد وكانوا قد احتاطوا وهم يتجهزون للحصار فأمر بازالة ذلك وترك ما عزموا عليه من الاحتياط وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه وراسل الملك الكامل واصطلحا وظن صاحب دمشق انه معهما في الصلح وسار الاشرف الى أخيه الكامل واجتمعا في ذي الحجة من سنة خمس وعشرين يوم العيد وسار صاحب دمشق الى بيسان وأقام بها وعاد الملك الاشرف من عند أخيه واجتمع هو وصاحب دمشق ولم يكن الاشرف في كثرة من العسكر فبينما هما جالسان في خيمة لهما واذ قد دخل عز الدين أيبك مملوك المعظم الذي كان صاحب دمشق وهو أكبر أمير مع ولده فقال لصاحبه داود قم اخرج والا قبضت الساعة فاخرجه ولم يمكن الاشرف منعه لان ايبك كان قد أركب العسكر الذي له جميعه وكانوا أكثر من الذين مع الاشرف فخرج داود وسار هو وعسكره الى دمشق وكان سبب ذلك أن ايبك قيل له ان الاشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه ففعل ذلك فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل الى الاشرف وسار فنازل دمشق وحصرها وأقام محاصرا لها الى أن وصل اليه الملك الكامل فحينئذ اشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر وكان من أشد الامور على صاحبها ان المال عنده قليل لان أمواله بالكرك ولو ثوقه بعمه الاشرف لم يحضر منها شيأ فاحتاج الى أن باع حلى نسائه وملبوسهم وضاقت الامور عليه فخرج الى عمه الكامل وبذل له تسليم دمشق على أن يبقى عليه الكرك وقلعة الشوبك والغور ونابلس وتلك الاعمال وان يبقى على ايبك قلعة صرخد وأعمالها وتسلم الكامل دمشق وجعل نائبه بالقلعة الى أن سلم اليه أخوه الاشرف حران والرها والرقة وسروج ورأس العين من الجزيرة فلما تسلم ذلك سلم قلعة دمشق الى أخيه الاشرف فدخلها وأقام بها وسار الكامل الى الديار الجزرية فأقام بها الى أن استدعى أخاه الاشرف بسبب حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط فلما حضر عنده بالرقة عاد الكامل الى ديار مصر وأما الاشرف فكان منه ما نذكره ان شاء الله تعالى

❁(ذكر القبض على الحاجب على وقتله)❁

وفي هذه السنة أرسل الملك الاشرف مملوكه عز الدين ايبك وهو أمير كبير في دولته الى مدينة خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين على بن حماد وهو المتولي لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الاشرف ولم نعلم شيأ يوجب القبض عليه لانه كان مشفقا عليه ناصحا له حافظا لبلاده حسن السيرة مع الرعية ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزمشاه جلال الدين وحفظ خلاط حفظا يعجز غيره عنه وكان مهتما بحفظ بلاده وذابا عنها وقد تقدم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدل على همة عالية وشجاعة تامة وصار لصاحبه به منزلة عظيمة فان الناس يقولون بعض غلمان الملك الاشرف يقاوم خوارزمشاه وكان رحمه الله كثير الخير والاحسان لا يمكن أحدا من ظلم وعمل كثيرا من أعمال البر من الخانات في الطرق والمساجد في البلاد وبنى بخلاط بيمارستانا وجامعا وعمل كثيرا من الطرق وأصلحها كان يشق سلوكها فلما وصل ايبك الى خلاط قبض عليه ثم قتله غيلة لانه كان عدوه ولما قتل ظهر أثر كفايته فان جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها على ما نذكره ان شاء الله ولم يمهل الله

ايبك

الشام ووصل الرها وأخذها بالسيف سبيا ونهبا وعاد (وفي سنة ست وتسعين وسبعمائة) خرج السلطان الملك الظاهر برقوق الى جهة حلب بسبب تمرلنك واستصحب معه السلطان أحمد بن أويس ولما وصل الى دمشق خلع عليه وجهزه بشعار الملك فتوجه الى بغداد وأخذها وضرب السكة باسم السلطان برقوق (وفي سنة سبع وتسعين وسبعمائة) عاد السلطان الى مصر فحضر اليه رسل أبي يزيد بن عثمان بهدايا وتحف في طلب تشريف من الخليفة له بان يكون سلطان الروم فجهز السلطان له ذلك وحين توجه السلطان برقوق الى مصر بعد اقامته بحلب أربعين يوما بلغه توجه تيمورلنك الى بلاده وأخذ معه الامير جلبان واستقر الامير تغرى وردى في نيابة حلب (وفي سنة ثمان وتسعين وسبعمائة) توفي القاضي برهان الدين صاحب سيواس وبلغ ذلك أبايزيد بن عثمان فحضر اليها وأخذها وأخذ بلاد قرمان (وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة) طلب الامير تغرى وردى الى مصر واستقر بها أميرا كبيرا واستقر عوضه بحلب أرغون شاه نقل اليها من طرابلس وكان قبلها نائبا بصفد وأقام بحلب شهورا ومات (وفي سنة ثمانمائة) استقر في نيابة حلب الامير علاء الدين اقبغا الجمالي الهذباني عوضا عن أرغون شاه (وفي سنة احدى وثمانمائة) توفي السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق بضعف حصل له ودفن عند الشيخ الزهوري وبني عليه تربة عظيمة واستقر عوضه في السلطنة حسب وصيته ولده الملك الناصر فرج

ايبك بل انتقم منه سريعا فان جلال الدين أخذ ايبك أسيرا لما ملك خلاط مع غيره من الامراء فلما اصطلح الاشرف وجلال الدين أطلق الجميع وذكر ان ايبك قتل وكان سبب قتله ان مملوكا للحاجب على كان قد هرب الى جلال الدين فلما أسر ايبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب على فسلمه اليه فقتله وبلغني ان الملك الاشرف رأى في المنام كأن الحاجب عليا قد دخل الى مجلس فيه ايبك فاخذ منديلا وجعله في رقبة ايبك وأخذه وخرج فأصبح الملك الاشرف وقال قد مات ايبك فاني رأيت في المنام كذا وكذا

❁(ذكر ملك الكامل مدينة حماة)❁

وفي هذه السنة أواخر شهر رمضان ملك الملك الكامل مدينة حماة وسبب ذلك ان الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر وهو صاحب حماة توفي على ما نذكره ولما حضرته الوفاة حلف الجند وأكابر البلد لولده الاكبر ويلقب بالملك المظفر وكان قد سيره أبوه الى الملك الكامل صاحب مصر لانه كان قد تزوج بابنته وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلج ارسلان ولقبه صلاح الدين وهو بدمشق فحضر الى مدينة حماة فسلمت اليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها فارسل الملك الكامل يأمره أن يسلم البلد الى أخيه الاكبر فان أباه أوصى له به فلم يفعل وترددت الرسل في ذلك الى الملك المعظم صاحب دمشق فلم تقع الاجابة فلما توفي المعظم وخرج الكامل الى الشام وملك دمشق سير جيشا الى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان ومعهما ولد محمد تقي الدين الذي كان عند الكامل فبقي الحصار على البلد عدة أيام وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلمية يريد العبور الى البلاد الجزرية حران وغيرها فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين ونزل اليه من قلعته ولم يكن لذلك سبب الا أمر الله تعالى فان صلاح الدين قال لاصحابه أريد النزول الى الملك الكامل فقالوا له ليس بالشام أحصن من قلعتك وقد جمعت من الذخائر ما لا حد له فلأى شيء تنزل اليه ليس هذا برأى فأصر على النزول وأصروا على منعه فقال في آخر الامر اتركوني أنزل والا ألقيت نفسي من القلعة فحينئذ سكتوا عنه فنزل في نفر يسير ووصل الى الكامل فاعتقله الى أن سلم مدينة حماة وقلعتها الى أخيه الاكبر الملك المظفر وبقي بيده قلعة بارين حسب فانها كانت له وكان هو كالباحث بظلفه على حتفه

❁(ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها)❁

وفي هذه السنة أوائل شوال حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط وهي للملك الاشرف وبها عسكره فامتنعوا بها وأعانهم أهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته وأسرفوا في الشتم والسفه فاخذه اللجاج معهم وأقام عليهم جميع الشتاء محاصرا وفرق كثيرا من عساكره في القرى والبلاد القريبة من شدة البرد وكثرة الثلج فان خلاط من اشد البلاد بردا وأكثرها ثلجا وأبان جلال الدين عن عزم قوى وصبر تحار العقول منه ونصب عليها عدة منجنيقات ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرب بعض سورها فأعاد أهل البلد عمارته ولم يزل مصابرهم وملازمهم الى أواخر جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين فزحف اليها زحفا متتابعا وملكها عنوة وقهرا يوم الاحد الثامن والعشرين من جمادى الاولى سلمها اليه بعض الامراء غدرا فلما ملك البلد صعد من فيه

من الامراء الى القلعة التى لها وامتنعوا بها وهو ومنازلهم ووضع السيف فى أهل البلد وقتل من وجد به منهم وكانوا قد قلوا فان بعضهم فارقوه خوفا وبعضهم خرج منه من شدة الجوع وبعضهم مات من القلة وعدم القوت فان الناس فى خلاط اكلوا الغنم ثم البقر ثم الجواميس ثم الخيل ثم الحمير ثم البغال والكلاب والسنانير وسمعنا انهم كانوا يصطادون الفأر ويأكلونه وصبروا صبرا لم يلحقهم فيه أحد ولم يملك من بلاد خلاط غيرها وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه وخربوا خلاط وأكثروا القتل فيها ومن سلم هرب فى البلاد وسبوا الحريم واسترقوا الاولاد وباعوا الجميع فتمزقوا كل ممزق وتفرقوا فى البلاد ونهبوا الاموال وجرى على أهلها مالم يسمع بمثله لاجرم لم يمهله الله تعالى وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتر ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام ونهبوا بلاده وأعماله وأسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين فى ولاية بارين فاخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ والله أعلم

﴿ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والاشرف﴾

فى هذه السنة يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان انهزم جلال الدين خوارزمشاه من علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم قونية وأقصرا وسيواس وملطية وغيرها ومن الملك الاشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط وسبب ذلك أن جلال الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم وهو ابن عم علاء الدين ملك الروم وبينه وبين علاء الدين عداوة مستحكمة وحضر صاحب ارزن الروم عند جلال الدين على خلاط وأعانه على حصرها نخافهما علاء الدين فارسل الى الملك الكامل وهو حينئذ بحران يطلب منه أن يحضر أخاه الاشرف من دمشق فانه كان مقيما بها بعد ان ملكها وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين فاحضر الملك الكامل أخاه الاشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين اليهما متتابعة يحث الاشرف على المجىء اليه والاجتماع به حتى قيل انه فى يوم واحد وصل الى الكامل والاشرف من علاء الدين خمسة رسل ويطلب مع الجميع وصول الاشرف اليه ولو وحده فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار الى علاء الدين فاجتمعا بسيواس وسارا نحو خلاط فسمع جلال الدين بهما فسار اليهما مجدا فى السير فوصل اليهما بمكان يعرف بياسى جمار وهو من أعمال ارزنجان فالتقوا هناك وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل كانوا عشرين ألف فارس وكان مع الاشرف نحو خمسة آلاف الا انهم من العساكر الجيدة الشجعان لهم السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات وكل منهم قد جرب الحرب وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن على وهو من الاكراد الهكارية ومن الشجاعة فى الدرجة العليا وله الاوصاف الجميلة والاخلاق الكريمة فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر لاسيما لما رأى عسكر الشام فانه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ما ملأ

أبو السعادات وعصى تنم نائب الشام وأرسل الى اقبغا نائب حلب فوافقه وتوجه اليه واجتمعت اليه غالب نواب الشام وأمرائها وطمع ابن عثمان ونازل ماطية وحاصرها وأخذها سنة اثنتين وثمانمائة وخرج السلطان الملك الناصر فرج نحو دمشق وخرج تنم بمن معه نحو مصر والتق الجمعان بارض فلسطين وانكسر تنم وأمسك هو وجماعة من الامراء ودخل السلطان دمشق وأقام بها أياما وقتل تنم وايتمش وأحمد بن يلبغا الخاصكى وجلبان وجماعة من الامراء وعاد الى الديار المصرية منصورا واستقر فى نيابة دمشق خال السلطان سودون وفى نيابة حلب الامير دمرداش الخاصكى (وفى سنة ثلاث وثمانمائة) شاعت الاخبار بان تيمورلنك حين عاد من أخذ بلاد الهند بلغه وفاة السلطان الملك الظاهر برقوق فاستبشر لذلك وأنعم على مخبره بجملة مستكثرة وكان فى نفسه من قتله رسله ومن أخذ ابن عثمان سيواس وملطية وأخذ السلطان أحمد بغداد فقصد بلاد الشام ومعه من العساكر ما لا يحصى (أخبرنى) الحافظ الخوارزمى ان بديوان عساكره المختصة بثمانمائة ألف وانه اجتاز على سيواس وحاصرها وأخذها بعد ان حلف لاهلها انه لا يضع فيهم السيف فلما تمكن منهم حفر لهم سفائر ودفنهم فيها أحياء قيل كانوا ثلاثة آلاف مسلم ثم حرقها وخربها وتوجه نحو البساتين فوجد أهلها قد خلوها فأحرقها وخربها ثم توجه الى ملطية فهرب من كان بها فاخذها وخربها ثم اجتاز على بهسنى فحاصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم

صدره

صدره رعبا فانشب عز الدين بن على القتال ومعه عسكر حلب فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره لا يلوى الاخ على أخيه وتفرقت أصحابه وتمزقوا كل ممزق وعاد الى خلاط فاستصحب من كان تركه بها من أصحابهم وعادوا الى اذربيجان فنزلوا عند مدينة خوى ولم يكونوا قد استولوا على شئ من أعمال خلاط سوى خلاط ووصل الملك الاشرف الى خلاط فرآها خاوية على عروشها خالية من الاهل والسكان قد جرى عليهم ما ذكرناه قبل

﴿ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم﴾

قد ذكرنا ان صاحب ارزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط ولم يزل معه وشهد معه المصاف المذكور فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب ارزن الروم أسيرا فاحضر عند علاء الدين كيقباذ ابن عمه فاخذه وقصد ارزن الروم فسلمها اصحابها اليه هى وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها فكان كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا اذنين وهكذا هذا المسكين جاء الى جلال الدين يطلب الزيادة فوعده بشئ من بلاد علاء الدين فأخذ ماله وما بيده من البلاد وبقى أسيرا فسبحان من لا يزول ملكه

﴿ذكر الصلح بين الاشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين﴾

لما عاد الاشرف الى خلاط ومضى جلال الدين منهزما الى خوى ترددت الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على ما بيده واستقرت القواعد على ذلك وتحالفوا فلما استقر الصلح وجرت الايمان عاد الاشرف الى سنجار وسار منها الى دمشق فاقام جلال الدين ببلاده من اذربيجان الى أن خرج عليه التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر ملك شهاب الدين غازى مدينة ارزن﴾

كان حسام الدين صاحب مدينة ارزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا للملك الاشرف مناصحا له مشاهدا جميع حروبه وحوادثه وينفق أمواله فى طاعته ويبذل نفسه وعساكره فى مساعدته فهو يعادى أعداءه ويوالى أولياءه ومن جملة موافقته انه كان فى خلاط لما حصرها جلال الدين ولقى من الشدة والخوف ما لقيه بها وصبر الى أن ملكها جلال الدين فاسره جلال الدين وأراد ان يأخذ منه مدينة ارزن فقيل له ان هذا من بيت قديم عريق فى الملك وانه ورث هذه ارزن من اسلافه وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم فعطف عليه ورق له وأبقى عليه مدينته وأخذ عليه العهود والمواثيق أنه لا يقاتله فعاد الى بلده وأقام به فلما جاء الملك الاشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين سار شهاب الدين غازى ابن الملك العادل وهو أخو الاشرف وله مدينة ميافارقين ومدينة حانى وهو بمدينة ارزن فحصره بها ثم ملكها صلحا وعوضه عنها بمدينة حانى من ديار بكر وحسام الدين هذا نعم الرجل حسن السيرة كريم جواد لا يخلو بابه من جماعة يريدون اليه يستمنحونه وسيرته جميلة فى ولايته ورعيته وهو من بيت قديم يقال لهم بيت طغان ارسلان كان لهم مع ارزن بدليس ووسطان وغيرهما ويقال لهم بيت الاحدب وهذه البلاد معهم من أيام ملكشاه بن ألب ارسلان السلجوقى فأخذ بكتمر صاحب خلاط منهم بدليس أخذها من عم حسام الدين هذا لانه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب فقصده بكتمر لذلك وبقيت ارزن

بعض قلعتها ثم أخذها صلحا وقصد قلعة المسلمين ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع الاول نازل الملعون حلب وكان نائبها المقر السيفى دمرداش الخاصكى وقد حضرت اليه عساكر المملكة الشامية عسكر دمشق مع نائبها سيدى سودون وعسكر طرابلس مع نائبها المقر السيفى شيخ الخاصكى وعسكر حماة مع نائبها دقماق وعسكر صفد وغزة فاختلفت آراؤهم بين قائل ادخلوا المدينة وقاتلوا من الاسوار وقائل اخرجوا ظاهر البلد بالخيام فلما رأى الامير دمرداش نائب حلب اختلافهم اذن للناس فى اخلائها والتوجه حيث شاؤا وكان نعم الرأى لو فعلوا فلم يوافق على ذلك وضربوا خيامهم ظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد تيمورلنك فقتله نائب دمشق قبل ان يسمع كلامه وبئسما فعل ويوم الجمعة حصل بين الاطارف تناوش يسير فلما كان يوم السبت حادى عشر ربيع الاول زحف تيمورلنك بجيوشه وفيلته فولى المسلمون نحو المدينة وازدحموا فى الابواب ومات منهم خلق عظيم والعدو وراءهم يأسر ويقتل وأخذ تيمورلنك حلب عنوة بالسيف وصعد نواب المملكة وخواص الناس الى القلعة وكان أهل حلب قد جعلوا غالب أموالهم فيها وفى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول أخذ القلعة بالامان والايمان التى ليس معها أيمان وفى ثانى يوم صعد اليها وآخر النهار طلب علماءها وقضاتها فحضرنا اليه فاوقفنا ساعة ثم أمر بجلوسنا وطلب من معه من أهل العلم فقال لاميرهم عنده وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان

بيده هذا الى الآن فاخذت منه ولكل أول آخر فسبحان من لا أول له ولا آخر لبقائه

﴿ذكر ملك صوبغ قشيالوا قلعة روبندز﴾

وفى هذه السنة ظهر أمير من امراء التركمان اسمه صوبغ ولقبه شمس الدين واسم قبيلته قشيالوا وقوى أمره وقطع الطريق وكثر جمعه وكان بين اربل وهمذان وهو ومن معه يقطعون الطريق ويفسدون فى الارض ثم انه تعدى الى قلعة منيعة اسمها سارو وهى لمظفر الدين وقتل عندها أميرا كبيرا من أمراء مظفر الدين يعرف بعز الدين الحميدى فجمع مظفر الدين وأراد استعادتها منه فلم يمكنه لحصانتها ولكثرة الجموع مع هذا الرجل فاصطلحا على ترك القلعة بيده وكان عسكر جلال الدين خوارزمشاه يحصرون قلعة روبندز وهى من قلاع اذربيجان من أحصن القلاع وأمنعها لا يوجد مثلها وقد طال الحصار على من بها فأذعنوا بالتسليم فارسل جلال الدين بعض خواص أصحابه وثقاته ليتسلمها وأرسل معه الخلع والمال لمن بها فلما صعد ذلك القاصد الى القلعة وتسلمها أعطى بعض من بالقلعة ولم يعط البعض واستذلهم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن فلما رأى من لم يأخذ شيأ من الخلع والمال ما فعل بهم أرسلوا الى صوبغ يطلبونه ليسلموا اليه القلعة فسار اليهم فى أصحابه فسلموها اليه فسبحان من اذا أراد أمرا سهله هذه قلعة روبندز لم تزل تتقاصر عنها قدرة اكابر الملوك وعظمائهم من قديم الزمان وحديثه وتضرب الامثال بحصانتها لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الامور فملكها بغير قتال ولا تعب وأزال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذى كل ملوك الارض تهابه وتخافه وكان أصحاب جلال الدين كما قيل رب ساع لقاعد فلما ملكها صوبغ طمع فى غيرها لاسيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة ومجىء التتر فنزل من القلعة الى مراغة وهى قريب منها فحصرها فاتاه سهم غرب فقتله فلما قتل ملك روبندز أخوه ثم ان هذا الاخ الثانى نزل من القلعة وقصد أعمال تبريز ونهبها وعاد الى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفا من التتر وكانوا قد خرجوا فصادفه طائفة من التتر فقتلوه وأخذوا ما معه من النهب ولما قتل ملك القلعة ابن أخت له وكان هذا جميعه فى مدة سنتين فأف لدنيا لا تزال تتبع فرحة بترحة وكل حسنة بسيئة

﴿ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر خروج التتر الى اذربيجان وما كان منهم﴾

فى أول هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر الى اذربيجان وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ما وراء النهر وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد من النهب والتخريب والقتل واستقر ملكهم بما وراء النهر وعادت بلاد ما وراء النهر انعمرت وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين يسكنها وأما التتر فكانوا تغير كل قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها فالبلاد خاوية على عروشها فلم يزالوا كذلك الى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه وبقوا كذلك فلما كان الآن وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ومن الاشرف كما ذكرناه سنة سبع وعشرين ارسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه

الدين الحنفى والده من العلماء المشهورين بسمرقند قل لهم انى سائلكم عن مسئلة سألت عنها علماء سمرقند وبخارا وهراة وسائر البلاد التى افتتحها ولم يوضحوا الجواب فلا تكونوا مثلهم ولا يجاوبنى الا أعلمكم وأفضلكم وليعرف ما يتكلم به فانى خالطت العلماء ولى بهم اختصاص والفة ولى فى طلب العلم طلب قديم وكان بلغنا عنه انه يعنت العلماء فى الاسئلة ويجعل ذلك سببا لقتلهم أو تعذيبهم فقال القاضى شرف الدين موسى الانصارى الشافعى عنى هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها سلوه والله المستعان فقال لى عبد الجبار سلطاننا يقول انه بالامس قتل منا ومنكم فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم فوجم الجميع وقلنا فى أنفسنا هذا الذى بلغنا عنه من التعنت فسكت القوم وفتح الله على بجواب سريع بديع وقلت هذا سؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى صاحبى القاضى شرف الدين موسى الانصارى بعد ان انقضت الحادثة والله العظيم لما قلت هذا سؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه وانه لمحدث زماننا وعالمنا قد اختل عقلى وهو معذور فان هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه فى هذا المقام ووقع فى نفس عبد الجبار مثل ذلك وألقى تيمورلنك سمعه وبصره الى وقال لى عبد الجبار يسخر من كلامى كيف سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أجاب قلت جاء اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله ان الرجل يقاتل

ويحثهم

ويحثهم على قصده عقيب الضعف ويضمن لهم الظفر به للوهن الذى صاروا اليه وكان جلال الدين سيئ السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته فمن ذلك أنه أول ما ظهر فى اصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان فحصر مدينة ششتر وهى للخليفة فحصرها وسار الى دقوقا فنهبها وقتل فيها فأكثر وهى للخليفة أيضا ثم ملك اذربيجان وهى لاوزبك فملكها وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم ثم عادى الملك الاشرف صاحب خلاط ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم وعادى الاسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة وكذلك غيرهم فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية الى التتر يستدعيهم الى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلاده واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصدوا اذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم ولا يقدر على منعهم عن البلاد قد ملئ رعبا وخوفا وانضاف الى ذلك ان عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب أن غريبا أظهر من قلة عقل جلال الدين ما لم يسمع بمثله وذلك أنه كان له خادم خصى وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق ان الخادم مات فاظهر من الهلع والجزع عليه ما لم يسمع بمثله ولا لمجنون ليلى وأمر الجند والامراء أن يمشوا فى جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى بعض الطريق راجلا فالزمه امراؤه ووزيره بالركوب فلما وصل الى تبريز أرسل الى أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم ففعلوا فانكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم امراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصى وانما كان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكى فامتنع من الاكل والشرب وكان اذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا الى قلج ولا يتجاسر أحد يقول انه مات فانه قيل له مرة انه مات فقتل القائل له ذلك انما كانوا يحملون اليه الطعام ويعودون يقولون انه يقبل الارض ويقول انى الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والانفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره فبقى حيران لا يدرى ما يصنع لاسيما لما خرج التتر فحينئذ دفن الغلام الخصى وراسل الوزير واستماله وخدعه الى أن حضر عنده فلما وصل اليه بقى أياما وقتله جلال الدين وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها

﴿ذكر ملك التتر مراغة﴾

وفى هذه السنة حصر التتر مراغة من اذربيجان فامتنع اهلها ثم أذعن أهلها بالتسليم على امان طلبوه فبذلوا لهم الامان وتسلموا البلد وقتلوا فيه الا انهم لم يكثروا القتل وجعلوا فى البلد شحنة وعظم حينئذ شان التتر واشتد خوف الناس منهم باذربيجان فالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى فى ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو وقال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

﴿ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عندها وما كان منه﴾

حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه فاينا فى سبيل الله فقال عليه السلام من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ومن قاتل منا ومنكم لاعلاء كلمة الله فهو الشهيد فقال تيمورلنك خوب وقال عبد الجبار ما أحسن ما قلت وانفتح باب المؤانسة وقال تيمورلنك انى رجل نصف آدمى وقد أخذت بلاد كذا وكذا وعدد سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتار فقلت جعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الامة ولا تقتل أحدا فقال والله انى لم أقتل أحدا قصدا وانما أنتم قتلتم أنفسكم فى الابواب والله لا أقتل منكم أحدا وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم وتكررت الاسئلة منه والاجوبة منا وطمع كل أحد من الفقهاء الحاضرين وجعل يبادر الى الجواب ويظن أنه فى المدرسة والقاضى شرف الدين ينهاهم ويقول اسكتوا ليجاوب هذا الرجل فانه يعرف ما يقول وآخر سؤال سأل عنه ما تقولون فى على ومعاوية ويزيد فاسر الى القاضى شرف الدين وكان الى جانبى أن اعرف كيف تجاوبه فانه شيعى فلم أفرغ من سماع كلامه الا وقد قال القاضى علم الدين بن القفصى الصيفى المالكى كلاما معناه ان الكل مجتهدون فغضب تيمورلنك لذلك غضبا شديدا وقال على على الحق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق وانتم حلبيون تبع لاهل دمشق وهم يزيديون قتلوا الحسين فاخذت فى ملاطفته بالاعتذار عن المالكى بانه اجاب بشئ وجده فى كتاب لا يعرف معناه فعاد الى دون ما كان عليه من البسط وأخذ عبد الجبار يسأل منى ومن شرف الدين فقال عنى هذا

لما رأى جلال الدين ما يفعله التتر فى بلاد اذربيجان وانهم مقيمون بها يقتلون وينهبون ويخربون السواد ويجبون الاموال وهم عازمون على قصده ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف فارق اذربيجان الى بلاد خلاط وأرسل الى النائب بها عن الملك الاشرف يقول له ما جئنا للحرب ولا للاذى انما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم وكان عازما على أن يقصد ديار بكر والجزيرة ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتر ويطلب منهم المساعدة على دفعهم ويحذرهم عاقبة اهمالهم فوصل الى خلاط فبلغه ان التتر يطلبونه وهم مجدون فى أثره فسار الى آمد وجعل اليزك فى عدة مواضع خوفا من البيات فجاءت طائفة من التتر يقصدون أثره فوصلوا اليه على غير الطريق الذى فيه اليزك فاوقعوا به ليلا وهو بظاهر مدينة آمد فمضى منهزما على وجهه وتفرق من معه من العسكر فى كل وجه فقصد طائفة من عسكره حران فاوقع بهم الامير صواب مقدم الملك الكامل بحران ومعه العسكر فأخذوا ما معهم من مال وسلاح ودواب وقصد طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار واربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردى والبدوى وغيرهم وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم وقبح فعلهم فى خلاط وغيرها وما سعوا فى الارض فسادا والله لا يحب المفسدين فازداد جلال الدين ضعفا الى ضعفه ووهنا الى وهنه بمن تفرق من عسكره وبما جرى عليهم فلما فعل التتر بهم ذلك ومضى منهزما منهم دخلوا ديار بكر فى طلبه لانهم لم يعلموا أين قصد ولا أى طريق سلك فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء

﴿ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه فى البلاد من الفساد﴾

لما انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتر الامان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم الا من اختفى وقليل ما هم (حكى) لى بعض التجار وكان قد وصل آمد انهم حزروا القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل وكان مع هذا التاجر جارية من أسعرد فذكرت ان سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ الى قولها فمشت معه فقتلا جميعا وورثها ابن أخ للام فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما وان مدة الحصار كانت خمسة أيام ثم ساروا منها الى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وساروا من طنزة الى واد بالقرب من طنزة يقال له وادى القريشية فيه طائفة من الاكراد يقال لهم القريشية وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة والطريق اليه ضيق فقاتلهم القريشية فمنعوهم عنه وامتنعوا عليهم وقتل منهم كثير فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا وساروا فى البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا الى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين وأهل دنيسر بقلعة ماردين وغيرهم ممن جاور القلعة احتمى بها أيضا ثم وصلوا الى نصيبين الجزيرة فاقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به وغلقت أبوابها فعادوا عنها ومضوا الى بلد سنجار ووصلوا الى الجبال من أعمال سنجار فنهبوها ودخلوا الى الخابور فوصلوا الى عرابان فنهبوا وقتلوا وعادوا ومضى طائفة

عالم مليح وعن شرف الدين هذا رجل فصيح فسألنى تيمورلنك عن عمرى فقلت مولدى سنة تسع وأربعين وسبعمائة وقد بلغت الان أربعا وخمسين سنة وقال للقاضى شرف الدين كم عمرك قال أنا أكبر منه بسنة فقال تيمورلنك أنتم فى عمر أولادى أنا عمرى اليوم بلغ خمسا وسبعين سنة وحضرت صلاة المغرب وأقيمت الصلاة وأمنا عبد الجبار وصلى تيمورلنك الى جانبى قائما يركع ويسجد ثم تفرقنا وفى اليوم الثانى غدر بكل من فى القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الاموال والاقمشة والامتعة مما لا يحصى (أخبرنى) بعض كتابه انه لم يكن أخذ من مدينة قط ما أخذ من هذه القلعة ولا ما يقاربه وعوقب غالب المسلمين بانواع العقوبات وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومنجر ومسجون ومرسم عليه ونزل تيمورلنك من القلعة بدار النيابة وصنع وليمة على زى المغل ووقف سائر الملوك والنوابين فى خدمته وأدار عليهم كؤس الخمر والمسلمون فى عقاب وعذاب وسبى وقتل واسر وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ونبش الى آخر شهر ربيع الاول طلبنى ورفيقى القاضى شرف الدين واعاد السؤال علينا فقلت له الحق كان مع على وليس معاوية من الخلفاء فانه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الخلافة بعدى ثلاثون سنة وقد تمت بعلى فقال تيمورلنك قل على الحق ومعاوية ظالم فقلت قال صاحب الهداية يجوز تقلد القضاء من ولاة الجور فان كثيرا من الصحابة والتابعين تقلدوا منهم القضاء من معاوية وكان الحق مع على فى نوبته فانسر لذلك وطلب الامراء الذين عينهم للاقامة بحلب وقال لهم ان هذين الرجلين

منهم على طريق الموصل فوصلوا الى قرية تسمى المؤنسة وهى على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل فنهبوها واحتمى اهلها وغيرهم بخان فيها فقتلوا كل من فيه (وحكى) لى عن رجل منهم انه قال اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بى وكنت أراهم من نافذة فى البيت فكانوا اذا أرادوا قتل انسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم يقولون لا بالله ومضى طائفة منهم الى نصيبين الروم وهى على الفرات وهى من أعمال آمد فنهبوها وقتلوا فيها ثم عادوا الى آمد ثم الى بلد بدليس فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة (وحكى) انسان من أهلها قال لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لان الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم ساروا من بدليس الى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهى من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة ارجيش من أعمال خلاط وهى مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا فى ذى الحجة ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده الى ذلك الفارس ولقد بلغنى ان انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الارض ولا تبرح فوضع رأسه على الارض ومضى التترى فأحضر سيفا فقتله به (وحكى) لى رجل قال كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلا فى طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثير

﴿ذكر وصول طائفة من التتر الى اربل ودقوقا﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة وصل طائفة من التتر من اذربيجان الى أعمال اربل فقتلوا من على طريقهم من التركمان الايوائية والاكراد الجوزقان وغيرهم الى أن دخلوا بلد اربل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الاعمال وعملوا الاعمال الشنيعة التى لم يسمع بمثلها من غيرهم وبرز مظفر الدين صاحب اربل فى عساكره واستمد عساكر الموصل فساروا اليه فلما بلغه عود التتر الى اذربيجان أقام فى بلاده ولم يتبعهم فوصلوا الى بلد الكرخينى وبلد دقوقا وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد هذا العدو عنهم وخرجت هذه السنة ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد الى غيرها والله أعلم

﴿ذكر طاعة أهل اذربيجان للتتر﴾

فى أول هذه السنة أطاع أهل بلاد اذربيجان جميعها للتتر وحملوا اليهم الاموال والثياب الخطائى والخوبى والعتابى وغير ذلك وسبب طاعتهم ان جلال الدين لما انهزم على آمد من

نزول عندكم بهذه البلدة فاحسنوا اليهما والى ألزامهما واصحابهما ومن ينضم اليهما ولا تمكنوا أحدا من أذيتهما ورتبوا لهما علوفة ولا تدعوهما فى القلعة بل اجعلوا اقامتهما بالمدرسة يعنى السلطانية التى تجاه القلعة وفعلوا ما أوصاهم به الا انهم لم ينزلونا من القلعة وقال لنا الذى ولى الحكم منهم بحلب الامير موسى بن الحاجى طغاى انى أخاف عليكما والذى فهمته من نسق تيمورلنك انه اذا أمر بسوء فعل بسرعة ولا محيد عنه واذا أمر بخير فالامر فيه لمن وليه وفى أول يوم من ربيع الآخر برز الى ظاهر البلد متوجها نحو دمشق وثانى يوم أرسل يطلب علماء البلد فرحنا اليه والمسلمون فى أمر مريج وقطع رؤس فقلنا ما الخبر فقيل ان تيمورلنك يطلب من عسكره رؤسا من المسلمين على عادته التى كان فعلها فى البلاد التى أخذها فلما وصلنا اليه أرسلنا رسولا يقول له انا قد حضرنا وهو قد حلف ان لا يقتل منا أحدا صبرا فعاد اليه ونحن ننظره وبين يديه لحم سليق فى طبق يأكل منه فتكلم معه يسيرا ثم جاء الينا شخص بشىء من ذلك اللحم فلم نفرغ من أكله الا وزعجة قائمة وتيمورلنك صوته عال وساق شخص هكذا وآخر هكذا وجاءنا أمير ايعتذر ويقول ان سلطاننا لم يأمر باحضار رؤس المسلمين وانما أمر بقطع رؤس القتلى وان يجعل منها قبة اقامة لحرمته على جارى عادته ففهموا عنه غير ما أراد وانه قد أطلقكم فامضوا حيث شئتم وركب تيمورلنك من ساعته وتوجه نحو دمشق فعدنا الى القلعة ورأينا المصلحة فى الاقامة بها وأخذ الامير موسى فى الاحسان الينا وقبول شفاعتنا وتفقد أحوالنا مدة

اقامته بحلب وقلعتها وتأتينا الاخبار بان سلطان المسلمين الملك الناصر فرج قد نزل الى دمشق وانه كسر تيمورلنك ومرة نسمع
بالعكس الى ان انجلت القضية عن توجه السلطان الى مصر بعد أن قاتل مع تيمورلنك قتالا عظيما أشرف منه تيمورلنك

التتر وتفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة
واربل وخلاط مافعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وملوك الاسلام منجحرون
فى الانقاب وانضاف الى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لم يظهر له خبر ولا علموا له حالا سقط
فى أيديهم واذعنوا للتتر بالطاعة وحملوا اليهم ماطلبوا منهم من الاموال والثياب من ذلك مدينة
تبريز التى هى أصل بلاد اذربيجان ومرجع الجميع اليها والى من بها فان ملك التتر نزل فى عساكره
بالقرب منها وأرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته ويتهددهم ان امتنعوا عليه فارسلوا اليه المال
الكثير والتحف من أنواع الثياب الابريسم وغيرها وكل شئ حتى الخمر وبذلوا له الطاعة فأعاد
الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدموهم عنده فقصده قاضى البلد ورئيسه وجماعة
من أعيان أهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع اليه الا انه لا يظهر
شيأ من ذلك فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائى فقالوا انه رجل منقطع ماله بالملوك
تعلق ونحن الاصل فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب الخطائى وغيرها ليستعمل
لملكهم الاعظم فان هذا هو من أتباع ذلك الملك فاحضروا الصناع فاستعملهم فى الذى أرادوا
ووزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم خركاة لملكهم أيضا فعملوا له خركاة لم يعمل مثلها وعملوا
غشاءها من الاطلس الجيد الزركش وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة
كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيأ كثيرا ومن الثياب كذلك وترددت رسلهم الى ديوان
الخلافة والى جماعة من الملوك يطلبون منهم انهم لا ينصرون خوارزمشاه ولقد وقفت على
كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل الى الموصل وأقام بها ورفقاءه ثم سافر الى
الرى فى العام الماضى قبل خروج التتر فلما وصل التتر الى الرى وأطاعهم أهلها وساروا الى
اذربيجان سارهو معهم الى تبريز فكتب الى أصحابه بالموصل يقول ان الكافر لعنه الله ما نقدر
نصفه ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فان الامر عظيم ولا تظنوا أن هذه الطائفة
التى وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الاخرى التى وصلت الى اربل ودقوقا كان قصدهم
النهب انما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من يردهم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد
من مانع ومدافع وان البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم
ومايبقى عندكم مقام الا ان كان فى بلد الغرب فان عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا
لانفسكم هذا مضمون الكتاب فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وأما
جلال الدين فالى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك الى سلخ صفر سنة تسع لم نقف
له على حال والله المستعان

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾

فى هذه السنة قلت الامطار بديار الجزيرة والشام لاسيما حلب وأعمالها فانها كانت قليلة بالمرة
وغلت الاسعار بالبلاد وكان أشدها غلاء حلب الا انه لم يكن بالشديد مثل ماتقدم فى السنين
الماضية فاخرج أتابك شهاب الدين وهو والى الامر بحلب والمرجع الى أمره ونهيه وهو
المدبر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر والمربى له من المال والغلات كثيرا وتصدق
صدقات دارة وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر فجزاه الله خيرا وفيها بنى أسد

على الكسر والهزيمة ولما
كان سابع عشر شهر شعبان
من السنة المذكورة وصل
تيمورلنك عائدا من الشام
الى الجبول شرقى حلب ولم
يدخل حلب بل أمر المقيمين
بها من جهته بتخريب
القلعة واحراق المدينة
ففعلوا ونزلوا من القلعة
وطلبنى الامير السيد عز الدين
وكان من أكبر أمرائه وقال
ان الامير تيمور قان يسلم
عليك ويقول ان عنده
مثلك كثيرا وهذه البلاد
باب مكة وليس بها عالم
فلتكن أنت بها وقد رسم
باطلاقك ومن معك من
القضاة فاطلب من شئت
وأكثر لاروح معكم الى
مشهد الحسين وأقيم عندكم
حتى لا يبقى من عساكرنا
أحد وكان القاضى شرف
الدين موسى لا يفارقنى
وطلبنا من تأخر من القضاة
بالقلعة واجتمع منا نحو ألفى
مسلم وتوجهنا صحبة المشار
اليه لمشهد الحسين وأقمنا به
ننظر الى حلب والنار تضرم
فى ارجائها وبعد ثلاثة
أيام لم يبق من التتار أحد
ونزلنا الى بيوتنا بالمدينة
فاستوحشنا منها ولم يقدر
أحد منا على الاقامة ببيته
من النتن والوحشة ولا
يمكن السلوك فى الازقة من

ذلك كما قال كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر وكانت نواب الشام معه مأسورين فانفلتوا منه الدين
أولا باول وكان السيفى دمرداش الخاصكى حين انفلت منه من حماة حال توجهه الى نحو دمشق توجه نحو السلطان واتفق على

مانقدم أولا وجاءه تقليد شريف من السلطان باستمراره فى نيابة حلب فدخلها وأخذ فى عمارتها ورمم دار النيابة وسكن بها وتراجعت
الناس واما نائب الشام فانه مات مبطونا واستقر فى نيابة دمشق الامير تغرى بردى (وفى سنة أربع وثمانمائة)

الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة قلعة عند سلمية وسماها شميميس وكان الملك الكامل لما
خرج من مصر الى الشام قد خدمه أسد الدين ونصح له وله أثر عظيم فى طاعته والمقاتلة بين يديه
فاقطعه مدينة سلمية فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية وهى على تل عال وفيها قصد الفرنج الذين
بالشام مدينة جبلة وهى بين جملة المدن المضافة الى حلب ودخلوا اليها وأخذوا منها غنيمة
وأسرى فسير أتابك شهاب الدين اليهم العساكر مع أمير كان أقطعها فقاتل الفرنج وقتل منهم
كثيرا واسترد الاسرى والغنيمة وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبى الشيخ الصالح وكان
من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمهم فلو قال قائل انه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان
صادقا فرضى الله عنه وأرضاه فانه من جملة شيوخنا سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته
وكلامه وفيها أيضا فى الثانى عشر من ربيع الاول توفى صديقنا أبو القاسم عبد
المجيد بن العجمى الحلبى وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب وكان رجلا
ذا مروأة غزيرة وخلق حسن وحلم وافر ورياسة كثيرة
يحب اطعام الطعام وأحب الناس اليه من يأكل
طعامه ويقبل بره وكان يلقى أضيافه بوجه
منبسط ولا يقعد عن ايصال راحة
وقضاء حاجة فرحمه
الله رحمة
واسعة

﴿ ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة ﴾

هرب الامير تغرى بردى
الى حلب واجتمع بنائبها
دمرداش وهما فى وحشة
من أمر مصر ثم توجها نحو
التركمان واستقر فى نيابة
دمشق الامير اقبغا الجمالى
الهمذانى وفى نيابة حلب
الامير دقماق الخاصكى
وفيها بلغ تيمورلنك وهو
بقراباغ ان بايزيد بن عثمان
مشى على ارزنكان
وأخذها فتوجه تيمورلنك
اليه عند ذلك ومشى على
بلاده وخرج عليه ابن
عثمان والتقى الجمعان
بانكورية وحصل بينهما
قتال عظيم وانكسر ابن
عثمان وامسكه تيمورلنك
وبقى عنده مأسورا الى
ان مات باجله واستولى
تيمورلنك على غالب بلاده
وجهز قصاده الى سلطان
مصر يطلب منه أميرا من
أمرائه اسمه الطنبدى
كان قد أمسكه من عدة
سنين قرايوسف وجهزه
الى الملك الظاهر برقوق
واستقر من جملة امراء
مصر مجبورا عليه معنى
(وفى سنة خمس وثمانمائة)
عادت رسل تيمورلنك
وانعقد بينه وبين سلطان
مصر مودة ومهادنة وفيها
أرسل تيمورلنك الى سلطان
مصر هدية وفيلا وفيها استقر

فى نيابة دمشق المقر الاشرف السيفى شيخ الخاصكى واستقر عوضه بطرابلس المقر السيفى دمرداش (وفى سنة ست وثمانمائة) دخل
السلطان أحمد بن أويس الى حلب فى صورة فقير هاربا من قرايوسف وأخذ بغداد منه وفيها مشى عسكر تيمورلنك على بغداد وكبسوا

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يامن لابداية لوجوده ولانهاية لكرمه وجوده فسبحانك من اله لايدور عليه الزمان قديم لايحويه مكان ولايبليه الجديدان بل هو الله حين لاحين الباقى وكل من عليها فان أحاط بكل شئ علما وكل شئ عنده بأجل مسمى ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الكامل المكمل الذى كان وآدم منجدل فى طينته خير مرسل وعلى آله الساده وصحبه الذين هم الى الحق قاده ولدعائم الدين شاده أما بعد فان الكتاب التاريخى الشهير المسمى الكامل للامام جمال الدين على بن الاثير كتاب لايخفى على كل ذى فضل فضله ولايستغنى مؤرخ عن ان يكون منه عله ونهله كيف وهو البحر المحيط بحوادث وماسلف فى غابر الايام من أحوال الانام الذى أوعبه مؤلفه جليل الامور ودقيقها وألبسه مصنفه غليظ الاحوال ورقيقها فلم يشذ عنه من أخبار الملوك والسوقة نادره ولم تفته من أحوال أية دولة من دول الفرس والعرب وارده ولاصادره فلله دره من امام جمع فى هذا الكتاب فاوعى وأتى بما احسن صنعا وعظم فى القلوب وقعا ولعمرى ان كتابه هذا هو الكتاب الذى لايستغنى بعده عن كتاب ولايستفتح دونه للتاريخ باب بدأ باول الزمان فلم يقصر به عن ذكر أحواله ولم يزل يتدرج حينا بعد حين فى أخباره وحوادث أجياله الى أن أشرف على عصره وشارف أن يندرج فى انقضاء عمره فعليه ياطالب التاريخ وأخبار الامم السالفة فليكن تعويلك فلعمرى لئن فاتك هذا الكتاب ليطولن عويلك فهو فرصة الدهر ورأس مال العمر وقد يسر الله طبعه غير مره فمالك لاتحمد الله على هذه النعم المستمره وقد فاقت هذه الطبعة أخواتها السابقه لاشتمالها على التاريخ الذى اشتمل على الآداب الشائقة والفنون الرائقه وهو تاريخ مروج الذهب للامام المسعودى وهو أحسن تاريخ عباره وأعذب موردا لمن كان مولعا بالرقائق والفكاهات المختاره وبالجملة فمن له فى الادب نصيب فلا ينبغى أن يفوته هذا الكتاب العجيب على ذمة من سلم طبعهما وصفا حضرة الشيخ أحمد الحلبى ومحمد افندى مصطفى مديرى المطبعة ذات التحرير المجاورة لمسجد القطب الدردير أمدنا الله بامداداته وأعاد علينا من بركاته وفرغ من طبعه الجالب للمسره لعشر خلت من جمادى الآخرة سنة ألف وثلثمائة وثلاث من الهجره صلى الله على صاحبها وسلم وعلى آله وصحبه ما صلى مصل وسلم

بها قرا يوسف ونهبوه وأخذوا بغداد وتوجه قرا يوسف هاربا الى الشام فأمسك وحبس حسب مرسوم الملك الناصر وورد مرسوم بطلب السلطان أحمد من حلب الى دمشق ثم ورد مرسوم آخر بامساكه واعتقاله بها فأمسك وفيها استقر الامير علاء الدين اقبغا الجمالى الهدبانى نائب حلب عائدا اليها فعاد وأقام قليلا ومات بحلب ودفن بتربته التى انشأها بسوق الخيل واستقر فى نيابة حلب السيفى دمرداش عائدا اليها وفى السنة المذكورة عاد رسل تيمورلنك من مصر وصحبتهم حاجب مصر متوجهين الى تيمورلنك بما معهم من الهدايا والزرافات وعدة نعامات وفيها كانت زلزلة عظيمة بحلب وبلاد كثيرة وخربت منها اماكن كثيرة وتبع ذلك زلازل عديدة أخف منها فاجتمعت الزلازل والفتن وانما تتكاثر الزلازل والفتن بين يدى الساعة والظاهر ان الامر قد قرب والدنيا على فراغ فالزلازل يخوف الله بها أهل المعاصى وتؤذن بزلزلة القيامة تنشأ فى بعض الارض كما تنشأ الرعدة للمحموم وزلزلة الارض اما لان الله تعالى يطلع عليها فتتزلزل هيبة وفزعا واما لان الحوت الذى عليه الارض يتحرك بعضه واما أن يعمل عليها المعاصى والخطايا فتتزلزل غضبا للرب والله تعالى أعلم